مذكرات

قادة العسكرية المصرية ٦٧ـ ٧٢

د. محمد الجوادى

فى أعقاب النكسة

مذكرات:

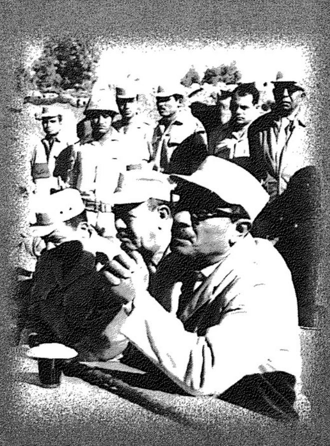
مدكور أبو العز

محمد صادق

صدقى محمود

محمد فوزى

صلاح الحديدى





فى أعقاب النكسة
الناشر: دار الخيال
الغلاف: محمد الصباغ
الطبعة الأولى

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

فى أعقاب النكسة

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢
في أعقاب النكسة

الطبعة: الأولى ٢٠٠١

رقم الإيداع: ١٦٧٦٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي: x - 17 - 5979 - 977

دار الخيّال : ٠١٢٣٢٩٠٦١٨

تصميم الغلاف: محمد الصباغ

صورة الغلاف:

في جبهة الجيش الثانى أبريل ١٩٧١
الرئيس أنور السادات وبجواره الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية والقائد العام ثم اللواء أركان حرب : عبد المنعم خليل قائد الجيش الثانى الميدانى ثم اللواء أركان حرب : سعد مأمون رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة

جرافيك: محمد كامل مطاوع

خطوط الغلاف: لمعى فهيم

كمبيوتر: دار جهاد ـ ٧٩٦٤٧٨٣

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

فى أعقاب النكسة

د. محمد الجوادى

مطبوعات دار الخيّال

إهداء

إلى الأخ الكبير

الأستاذ عبد العال الباقورى

تحية مـودة متصلة بإذن اللــه

محمد الجوادى

المحتويات

والقوات الجوية والشعب كله • أثرها على إسرائيل • لا يخفى ضيقه من غمط القيادة المصرية حقه وحق القوات الجوية فى هذه الضربة، هذه الضربة الجوية لم تسجل فى الإعلام المصرى بهذا الاسم، وإنما سجلت على أنها معركة «رأس العش» مع أن المعركة شيء آخر مواز لهذه الضربة• الذين يتجاهلون القوات الجوية فى هذه المعركة أو فى غيرها جاوزوا الحقيقة فى كتابة التاريخ • يعبر عن مرارته حين اكتشف أن الفريق فوزى لم يتصل به لتهنئته على هذا الإنجاز من تلقاء نفسه، وإنما بعد إلحاح من أحد كبار ضباط القيادة العامة للقوات المسلحة • قلت لأمين هويدى: أصارحكم أن ما تفعلونه فى القوات الجوية خطأ جسيم وخطير للغاية، إن القوات الجوية تفتقر إلى الرجال ممن لهم خبرات طويلة، فكم من مرة فرط فى رجالها، كيف يخرج منها هذا العدد الذى يبلغ حوالى عشرين ضابطاً هم خيرة الضباط القادة • الهزات العنيفة التى تعرضت لها القوات الجوية بعد إحالة الضباط إلى المعاش • حاول الوزير أمين هويدى فى إصرار وإلحاح أن يحملنى على قبول المنصبين المستشار أو محافظ الغربية • قلت: كيف أواجه الناس؟ وماذا أقول لهم؟ هل أظلم نفسى فأقول إنى فشلت أم أقول لهم الحقيقة، وهذه الحقيقة غير مطلوب أن يعرفها الناس • مدكور كان واعياً لنية الاستغناء عنه فى قيادات القوات الجوية • لم أكترث بنبأ محاولة تعيين قائد للقوات الجوية بدلا منى: العمل مع القائد العام أصبح مستحيلاً، من وجهة نظرى، و تركى للقوات الجوية أصبح أمراً موقوتاً بالبديل • كان قاسياً على قائد مثله أن يتحقق من مصيره فى موقعه من مرءوسيه • السوفييت هم الذين طلبوا إخراجى من القوات الجوية • تفاصيل لقائه بالرئيس عبد الناصر بعد أن تقرر استبعاده • قطع الرئيس السكون قائلا: لم يكن عندى قرار أتخذه غير هذا القرار • قلت: إننى فى حالة لا أستطيع معها العمل فى أى مكان • قال الرئيس : لن أستغنى عنك • كان حريصا على أن يخلص ذمته ويريح ضميره أمام ربه وهو يتحدث للقائد الأعلى عن اعتقاداته فيما يتعلق بموقف السوفييت منه • انتهى الرئيس إلى قرار تعيينى مستشاراً • قلت: إن معنى تعيين العميد الحناوى قائداً للقوات الجوية أن يخرج معى عدد كبير من قيادات الطيران، فقال: كل مَنْ هم أقدم من الحناوى، قلت: هذا خطأ ياسيادة الرئيس، وسوف تتبينون نتيجته، ولكن فى وقت متأخر • المؤلف يعقب: يبدو بوضوح أن الرئيس عبد الناصر قد تجاوز هذه النقطة، لأنه

لم يكن راغباً فى أن يعيد على مسامع مدكور جوهر نظريته فى أمن القوات المسلحة • كان قرار عبدالناصر مفاجئاً ومثيراً لجموع الشعب • الاستفسارات كثيرة والرئيس يقول: مش عارفين تقولوا للشعب مدكور أبو العز خرج ليه • كان خروجي موضوعاً تضمنه خطاب الرئيس عبدالناصر أمام مجلس الأمة فى نوفمبر ١٩٦٧. الرئيس يروى ما قيل له : مدكور كان عايز يضرب إسرائيل وأنت (مرضيتش)، علشان كده شلته والرئيس: محصلش الكلام ده»• شائعة تدعى أننى ذهبت إلى روسيا لأشرف على تدريب الطيارين هناك،• رأى المؤلف: من سوء حظ هيكل وحسن حظ مدكور أن الإطار الذى اضطر إلى اختياره ليناقش من خلاله ـ بالباطل ـ شعور المواطنين الرافض لإخراج مدكور.. هذا الإطار أعطى مدكور نفسه أبعاداً أعمق فى إنصافه • كان هيكل شبيها جدا بالذين يحرصون على تقديم السموم فى كبسولات شبيهة تماما بالتى يُقدم فيها الدواء، ثم يضعون هذه الكبسولات فى وعاء زجاجي ويضعون الوعاء الزجاجى فى علبة كرتونية ويرفقون بها نشرة طبية عن الآثار الجانبية لهذا العقار مع أن هذا العقار سم ناقع• مدكور يتصدى: أناقش الأسباب التى فبركها هيكل إمعاناً فى تضليل الجماهير• المقدمة توضح للقارئ الكريم أن جماهير شعبنا كله قد فوجئت بتحركى من قيادة القوات الجوية بعد أن أحست بما قمت به أنا وزملائى • المفاجأة سببت القلق الزائد وعدم الثقة فى القرارات التى تصدر • مدكور ينقل من نصوص هيكل نفسه ما يدينه كل الإدانة .. ينقل عن هيكل قوله: «إن الأمر قد تطلب مجهودا غير عادي ومشقة غير عادية لإبقاء الجماهير داخل إطار الثقة»• مدكور يتناول الأسباب التى جعلت الشعب يفقد ثقته تماماً فى قيادته السياسية، وهو يشير بصراحة إلى أن أداء هيكل كان أحد هذه الأسباب • صاحب المذكرات يخاطب هيكل: «وليس من أحد يوافقك على أن الأسباب التى ذكرتها لا تنقص من كفاءة الفريق مدكور ولا تنقص من أسباب القرار الخاص به»• رأى المؤلف أن أقوى جملة فى مذكراته كلها هى حيث يعبر بثقة شديدة عن أن قرارا مثل قرار إبعاده لا يصدر إلا عن قيادات مهتزة مترددة تائهة لم تجرب الفوز أبدًا• هيكل تجاهل ما يقرب من ثلاثين عاماً خدمتها فى القوات الجوية • ليس من المعقول أن تنسينى فترة ثلاث سنوات قضيتها فى أسوان محافظا لها مهنتى كضابط طيار وأصبح فى نظره ومَنْ أملى عليه كتابة هذه

السطور رجل إدارة محلية وكأن هذا وصمة عار يقلل من قدراتى فى قيادة القوات الجوية ● المؤلف يعجب من أن يتم تصوير العمل كمحافظ على هذا النحو السخيف الذى ورد فى عبارات هيكل● مدكور يتناول التبرير الثانى الذى قدمه هيكل والذى يتعلق «بعمله فى أسراب النقل» ، وتبدو عظمة مدكور ونبله وفروسيته فى هذا الرد على أروع ما يكون، ذلك أنه مستعيناً بالعلم والمنطق والخبرة العسكرية ومع أنه لم يكن ضابط نقل فضل أن يدافع عن حقيقة مهمة ولكن يبدو أنها كانت غائبة، وهى أن ضباط النقل لابد أن يكونوا ضباطا متميزين وليس كما صور هيكل بالإيحاء فى مقاله ● طيار النقل والمواصلات والهليكوبتر من أكثر الطيارين تعرضا للخطورة فى الحرب، فهو بحكم عمله يطير فى العمق فوق أراضى العدو بطائرات ذات قدرات محدودة فى السرعة والتسليح، فطائرته غير مسلحة التسليح الكافى للدفاع عن نفسها على عكس الحال فى المقاتلات والمقاتلات القاذفة ●مدكور يصل برده إلى أقصى درجات الإقناع بمدى جهل هيكل (هذا على حد تعبيره) ومَنْ أملى عليه المعلومات الخاطئة ● رأيه فى أن تكون قيادة القوات المسلحة موحدة بقيادة قائد عام غير منحاز يخلع زيه الأصلى ليكون للجميع غير حاقد على أى فرع من الفروع الرئيسية ● إن رأيى فى التنظيم واضح وضوح الشمس لا لبس فيه، إننى فى النهاية أريد أن تكون مقومات مسئولياتى كلها تحت يدى وأومن بقيادة عامة مسلحة موحدة تتحمل بكفاءتها مسئولياتها دون تفويض هذه المسئولية للصغار كما كان يحدث قبل الهزيمة ● مدرستى هى التى خرجت تحت قيادتى مئات الطيارين ● مدكور يصل إلى أقوى نقاط الرد على هيكل متحدثا عن نفسه بلقب «طيار النقل» وكأنه يعتز بهذا اللقب الذى خلعه عليه هيكل افتراء● كان من الممكن أن يحال إلى التقاعد دون أن ينال رتبة اللواء لولا حرص القيادة عليه وعلى الإفادة من كفايته● يخاطب هيكل: قائد القوات الجوية الذى تحدثت عنه فى مقالك بأنه قد نقل إلى منصب رفيع آخر، لأنه طيار نقل ورجل إدارة محلية، هو الوحيد من أربعين مليوناً من شعب مصر ـ وهم تعداد مصر عام ١٩٦٧ ـ الذى عمل تقديراً صحيحاً للموقف قبل حرب الهزيمة أفصح عنه لأحد كبار المسئولين الملتصقين بالرئيس عبد الناصر ● مدكور يستشهد فى رده على هيكل بما أوردته الصحافة، سواء عند تركه منصبه كقائد للقوات الجوية أو فى أثناء عمله المجيد فيها ● يستشهد بما قاله الرئيس

مبارك نفسه وهو صاحب الضربة الجوية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ • مدكور لا يترك هيكل دون أن يؤنبه على لفظ «العاجل» الذى وصف به قرار التفكير فى اختياره عقب هزيمة ١٩٦٧ لمنصبه كقائد للقوات الجوية • يتحدث عن قدم العهد بالتفكير فى إسناد قيادة القوات الجوية إليه • يلفت نظر هيكل إلى تناقض ما يراه مع ما يرويه هو نفسه عن إنجازات مدكور • يحمل هيكل المسئولية عن الفترة التالية لخروجه من القوات الجوية • إن تولى القيادة ليس مقصوراً على تخصص معين من الطيارين • ساخرا يقول: فى وجهة نظر ذلك العصر كان الخطأ الوحيد فى اختياره كقائد للقوات الجوية: هو أنه لم يكن إمعة • هيكل لم يكن يدرك أن شمس الصباح ستشرق بعد الليل مهما طال وإلا لما وجد نفسه عاريا مواجها بإثم ما كتبه ضد أناس شرفاء • طريقة اختيار خلفه فى القوات الجوية، يتهم السوفييت صراحة بأنهم كانوا وراء هذا التغيير الذى تم على النحو الذى تم به • يتحدث فى ذات الوقت برضا نفسى عن خلاصه وراحته من العنت الذى كان يلقاه • الرواية تقول: كان مدكور يصلى الجمعة فى السيد البدوى ذات مرة ، وتعرف عليه الناس فالتفوا حوله وهتفوا بحياته، فكان الجزاء أن أبعد عن هذا المنصب • قصة الفرصة التى أتاحت له أن يبدى رأيه حول توقعاته بخطورة الحرب وتشاؤمه من نتيجتها قبل أن تندلع • استدعى جميع المحافظين لجمهورية مصر وأنا بينهم قبل حربِ يونيو عام ١٩٦٧ ببضعة أيام للاجتماع بالسيد عباس رضوان • بادرنى أمين هويدى: لقد حضرت فى الوقت المناسب، وسألنى عن رأيى فى الأحداث الجارية • قلت: إنه من الخطأ الجسيم أن يعلن الرئيس جمال عبدالناصر منح المبادأة لإسرائيل • فوجئ أمين هويدى بهذا الحديث وقال: كيف ذلك وكل ما لدينا ينبئ بأن الحالة جيدة جداً؟! إنك تنظر بمنظار قاتم السواد • قامت الحرب وحدث ما توقعته • علم من الإذاعة بنبأ اختياره قائداً للقوات الجوية عقب وقوع الهزيمة • يروى بتصوير دقيق وأمين قصة لقائه بالرئيس عبد الناصر بعد تعيينه قائداً للقوات الجوية، لقاء حزين ومؤثر من جميع جوانبه • اليأس والملل كانا قد وصلا بعبدالناصر إلى أن يفكر فى أن يستدعى الروس • عبدالناصر خرج من لقائه بمدكور بقدر كبير من الأمل فى النهوض من الهزيمة • كيف أن الرئيس عبد الناصر اعترف له بعجزه فيما مضى عن أن ينجز شيئاً ذا بال فى القوات المسلحة • قال الرئيس: إننى كنت أود تعيينك

قائداً للقوات الجوية على أثر انفصال سوريا عام ١٩٦١ وفى عام ١٩٦٢ كان القصد تعيينك قائداً للقوات الجوية وليس رئيساً للأركان، لكنى لم أستطع أن أفعل ذلك ● يعبر عن أساه الشديد والعميق لحال الرئيس ● مدكور يدلنا على أن عبد الناصر كان حساساً جداً للنقد فيما بعد هزيمة ١٩٦٧، على الرغم من حاجته إلى النقد والتأمل ودراسة أسباب الهزيمة ● بعض مظاهر الشك والقلق والتربص التى سيطرت على مناخ العلاقة بين الرئيس عبد الناصر والعسكريين المقربين منه ● إصرار الرئيس عبد الناصر على التخلص من الطيارين من ذوى الانتماءات ـ أيا كانت سياسية أو عائلية، إلى أفراد جماعة الإخوان المسلمين ● المهام الإنشائية التى كان ينبغى عليه أن ينتهى منها فى وقت مواز لإعداد الرجال والطائرات ● يروى تفصيلات هذا الإنجاز على المستوى الإنشائى ● مدكور يشيد بالقادة الذين عاونوه فى ذلك العمل المجيد ● عرف فى مرحلة مبكرة ومن الفريق صدقى نفسه بنية الرئيس عبدالناصر تعيينه قائدا للقوات الجوية ● أسف صدقى لتعيينى رئيساً للأركان كان أشد● المؤلف يعلق: يبدو لى ـ كقارئ ـ أن الفريق مدكور أبو العز كان بصراحته وقوة شخصيته وقوة شكيمته يسهم فى تعطيل قرار عبد الناصر بتوليه قيادة القوات الجوية، ودليلى على هذا هو هذه القصة التى يرويها عن معاملته الحازمة (وغير المطلوبة ولو مؤقتا) لمراكز القوى فى سلاح الطيران فى الأيام الأولى لتوليه منصبه ● جاء إلى مكتبى اثنان من القيادات غير الشرعية وطلبا أن يتعاونا معى وتكون القرارات باتفاق سابق معهما، وإن شاء الله سوف ييسران لى كل هذه الأمور وأستريح «فقلت لهما: ابحثا عن أحد غيرى تمارسان معه هذه اللعبة، وأنهيت المقابلة، فخرجا● جمال عبد الناصر يحاط علما بما يحدث ولكن يبدو أن اتجاه الريح فى القوات المسلحة كان فى ذلك الوقت أقوى من الرئيس عبدالناصر نفسه ● قصة تعيينه محافظا لأسوان، مدى تلهف الفريق أول محمد صدقى محمود على الخلاص من رئيس أركان القوات الجوية ● مدكور لم يؤد اليمين الدستورية أمام الرئيس عبدالناصر إلا بعد شهر من تعيينه كمحافظ، بسبب مرض الرئيس ● رفض تسلم عمله قبل حلف اليمين رغم إلحاح [نائب رئيس الوزراء] المسئول عن الإدارة المحلية فى طلب ذلك● إنجازات مدكور أبو العز أثناء عمله كمحافظ لأسوان فى هذه المذكرات لا تحظى بالقدر الكفيل بإبراز قيمتها● حساب التوازنات السياسية بين عبد الناصر والبغدادى

كانت بمثابة الباب الذى استطاعت مراكز القوى فى القوات المسلحة النفاذ منه للخلاص من وجود مدكور فى القوات الجوية • قدم أحد السفراء لأداء اليمين فترك عبد الناصر مدكور ليكمل حديثه مع على صبرى • على صبرى يبادر بنصح مدكور بنسيان القوات الجوية بما فيها • مدكور يفاجأ بترشيحه رئيسا لمؤسسة الطيران ليحل محل رئيسها الذى نقل نائبا لقائد القوات الجوية، شمس بدران وعبدالحكيم عامر استجابا لرغبته فى عدم قبول هذا المنصب • المشير يصادر على رأى مدكور الداعى إلى نقل الفريق صدقى محمود من منصب قائد القوات الجوية إلى منصب رئيس مؤسسة الطيران • كان لزاماً عليّ أن أذكر أن الفريق صدقي قد استنفد كل جهد في القوات الجوية، وإذا كان الإصرار عليه فليكن في مكان آخر غير القوات الجوية •مدكور يحذر من أن وجود جمال عفيفى مع صدقى لن يحقق شيئاً• يروى أنه فوجئ بأن المشير عبدالحكيم عامر كان فى مطلع ١٩٦٧ على وعى كامل أو شبه كامل بالانهيار الحادث فى القوات الجوية • سمع عما يفعله العميد طيار إسماعيل لبيب والعقيد طيار محمد أيوب • مدكور يعبر عن أنه كان لا يمانع فى أن يعمل رئيساً للأركان تحت قيادة جمال عفيفى• المؤلف يتساءل: هل لو أن عبدالناصر عين جمال عفيفى قائدا للقوات الجوية هل كانت الخلافات بينه وبين الفريق أول محمد فوزى تحتدم على نحو ما احتدمت بين مدكور وفوزى، أم بأشد أم بأقل؟ • المشير عامر استمع إلى مدكور وأكد له صواب ما ذهب إليه وزاد على ذلك معلومات لم يكن مدكور نفسه يعلمها .. ثم بعد هذا كله تم البحث فى التالين لمدكور عن قائد أحدث منه ليتولى رئاسة مؤسسة الطيران •جمال عفيفى يشكو لمدكور من أسلوب صدقى محمود ومن سيطرة القيادة غير الشرعية عليه، وشكا من التكتلات البغيضة ومن الانهيار الذى أحسه، وأوضح أن الأمر لن يستقيم، وأنه سوف يستقيل• المرة الثانية التى اعتذر فيها عن تولى المسئولية عن قطاع الطيران والشركات والهيئات العاملة فيه • بعد تعيينى قائداً للقوات الجوية طلب منى عبدالناصر أن أكون صديقاً له • بعد شهر من تعيينى طلب الاتحاد السوفيتى إبعادى عن القوات الجوية وتعيين شخص بذاته أو بمواصفات معينة بدلاً منى، فإذا بعبدالناصر يستجيب • المشكلات التى صادفته فى أثناء رئاسته لأركان القوات الجوية فى ١٩٦٣، ومدى ما توحى به هذه المشكلات من طبيعة اهتمامات

وتركيز القيادة السياسية فى ذلك الوقت • «موقفه فى عام ١٩٦٣ عند مناقشة ميزانية القوات الجوية والدفاع الجوى مع مندوب القيادة العامة للقوات المسلحة المقدم أحمد عبدالدايم أخذت أذكره بما حدث للقوات المسلحة عام ١٩٥٦ بعد تدمير طائرات القوات الجوية وهى على الأرض • ينبه: إن مطاراً واحداً بما فيه قد تصل قيمته إلى مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن يدمر فى خمس دقائق• تدمير الطائرات وهى على الأرض يحرم القوات المسلحة من قوة هائلة لها فاعليتها• لكن لا حياة لمن تنادى• لم يكن قصدى من هذه المناقشة بطبيعة الحال حرمان القوات البحرية من مدمرة، أو حرمان الجيش من فرقة، بل العكس هو الصحيح، ولكنى حريص على أن يكونا فى قوة ومنعة • امتنعت عن مواصلة النظر فى بنود الميزانية ما لم يستجب إلى هذه الطلبات، ولم تقرر أى اعتمادات فى ميزانية ذلك العام، وكما هو واضح لم تقرر أيضاً فى الأعوام اللاحقة حتى جاء عام ١٩٦٧ ، ولم تنشأ الدشم ولا المطارات وظلت الطائرات على أرض المطارات فى العراء• الدفاع ببسالة وصلابة وبصيرة عن شرف القوات الجوية المصرية وكفاءتها، كان أحد أبرز المحاور التى تتضمنها هذه المذكرات • لقد ذبحت القوات الجوية ثلاث مرات • تصدى بشجاعة وإخلاص للدفاع عن طيارى القاعدة الجوية الذين تعرضوا لشائعات الحرب النفسية بالحديث عن إقامتهم حفلاً ساهراً حتى الصباح ليلة الخامس من يونيو • القاعدة الجوية أدت دوراً عملاقاً فى المعركة • الحفل كان مقصوراً على أفراد القاعدة الجوية فقط من غير المعينين فى درجة الاستعداد •وافق وهو قائد للقوات الجوية على قرار اللجنة التى برأت هذه القاعدة الجوية من هذه التهمة الظالمة • ادعاء المسئولين بأن هذا الحفل سبب من أسباب الهزيمة كان جزءاً من سياسة إخفاء حقيقة الأسباب الأساسية للهزيمة لتكون القوات الجوية هى كبش الفداء أثناء الهزيمة وذبحها بعد الهزيمة • قام محمد فوزى بهذا الدور الذى يتفق مع شخصيته بصفة عامة •والسؤال: لو أن هذا الحفل لم يقم فهل كان عدم قيامه يمنع ضرب الطائرات فى المطار الذى أقيمت فيه؟ هل كان هذا الحفل سبب ضرب الطائرات وهى على الأرض فى المطارات الأخرى التى لم تقم فيها حفلات؟!• إحالة مجموعة أخرى من الطيارين إلى المعاش • طلبنى الرئيس تليفونياً على أثر وصول كشف القوات الجوية إليه، وفى عصبية ظاهرة قال: وبعدين معاك • لما تأكد بنفسه من

صحة ما قلت، تساءل الرئيس فى دهشة قائلاً: وليه فوزى يعمل كده، وتناوله بلفظ غير كريم ، فلم أجبه بشيء وصمت(!!)• خرجت بنتيجتين: الأولى: أن الرئيس عبدالناصر عرف أن القائد العام الذى عينه لا يتصف بصفات حميدة، الثانية: أننى أصبحت أتعامل مع قيادات عليا لا أطمئن إليها ولا أتفق معها • روح التآمر عند الفريق أول محمد فوزى • ما يعتقد أنه بمثابة الأسباب الحقيقية لهذا التآمر الذى لم يكف الفريق أول محمد فوزى عن ممارسته • محمد فوزى هو مصدر كل الشرور فى نظره •المصاعب التى اكتنفت إعداد القوات الجوية فيما بعد هزيمة ١٩٦٧• الفريق أول محمد فوزى تعسف ورفض قبول الذين عجزوا عن تعلم الطيران لاستكمال دراستهم فى الكلية الحربية • فوزى عمل على إلغاء فرع الإدارة الذى حاولت القوات الجوية أن تحل به مشكلة هؤلاء الذين يعجزون عن تعلم الطيران بعد أن يلتحقوا بالقوات الجوية • مدكور أبوالعز يشكك ـ بطريقة مبهمة ينقصها الإيضاح ـ فى مدى جدية وصواب الدور الذى قام به الفريق أول محمد فوزى فى نهاية معركة ٥ يونيو ١٩٦٧• يروى قصة أغرب من الخيال تبين لنا مدى ما وصلت إليه سياسات التآمر بين مَنْ يفترض فيهم قوة الشخصية وسمو النفسية • يبدو أن القائد العام لما كان يعلمه من خلاف جذرى بينى وبين الفريق أول صدقى، خُيل إليه أنها فرصة يمكن فيها الإجهاز على الفريق أول محمد صدقى محمود الذى أودعه فى السجن رهن التحقيق هو وآخرين من قيادات القوات الجوية • المدعى العسكرى العام بدأ بخبرته وعلمه يدرك أن شراً يدبر لقائد القوات الجوية وهو يعترف بهذا بصراحة لهذا القائد • اعتراف العميد أحمد هاشم فى حديثه له: أشعر أننى أخطأت معكم ولست أدرى ماسوف تأخذه من فكرة عنى وجئت أطلب منك العذر، ولتأخذ الحذر ، وتتصرف بما تراه حتى لا يصيبكم أى ضرر • الخطأ الجسيم الذى ارتكبه تجاهى لا يغتفر إلا أنى رثيت لحاله وهو ضابط عظيم فى رتبة العميد • أبلغ هذه القصة للرئيس عبد الناصر عند إصرار الأخير على معرفتها • يثنى على شجاعة التبليغ مع أنها قد تفقده منصبه، وقد أفقدته إياه• نصح المدعى العسكرى العام بترك موقعه لغيره• قصة أخرى: فوزى يسألنى فى صورة استجواب عما إذا كان أحد المحامين القائمين بالدفاع عن الطيارين المتهمين فى قضية الطيران قد أخذ رأيى فى موضوع معين أو أنى أيدتهم فى شيء • القوات

الجوية حاولت طلب الاعتمادات بعد حرب ١٩٥٦، سنة بعد سنة، لكن طلبها كان لا يجد آذاناً مصغية • يفخر كل من أسهم فى هذا العمل حينما يسمع تصريح قائد القوات الجوية فى معركة العبور فى العاشر من رمضان أن العدو لم يكن يعرف أين كانت طائراتنا• موقفه الحاسم من رغبة القائد العام إلغاء قيادة القوات الجوية • الأسباب الحقيقية التى جعلت الفريق محمد فوزى ينهج هذا النهج الذى حاول به أن يقلم أظافر قيادة القوات الجوية • العُقد الأزلية [وربما هى عُقدة واحدة تكرر التصرف المتأثر بها] التى حكمت تصرفات القائد العام معى هى أن سلفى الفريق أول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية السابق كان يتمتع بمكانة ممتازة لدى المشير عامر مما سبب حقداً دفيناً من الفريق فوزى عليه، وانعكس ذلك على القوات الجوية وعلىّ أنا شخصياً • مدكور يمضى فى هذا الصدد إلى النقيض مما كان يبتغيه فوزى من تهويش، وهو يروى أنه وصل بحديثه وحواره إلى أن يرهب الفريق أول فوزى بأنه لن يتساهل مثل الفريق صدقى • مشكلة التنظيم كانت فى ذلك الوقت بمثابة المشكلة البارزة على مستوى القيادة العليا فى القوات المسلحة • الرئيس يبدأ مناقشة الموضوع بقوله: من المعقول أن تكون قيادة القوات المسلحة ثلاث وزارات • مدكور يجأر بالقول إنه لم يكن هو الذى أوصل الأمور إلى هذا الوضع من الاستغلال والتسلط كما أن درجة الوزير هذه التى تصور وكأنها نهاية المطاف لم تكن شيئاً ذا بال• إن منحهم درجة الوزير لم يكن سبب الهزيمة • إن المسئولية تقع على الرئيس عبدالناصر• التنظيم المقترح كان يعنى «تجييش القوات الجوية»، وهو الأمر الذى لا يمكن له قبوله ولا العمل على أساسه • لو أن القوات الجوية كانت مستقلة وتمسكت بمسئولياتها بتوفير احتياجاتها لما دمرت طائراتها كلها التى على الأرض • وإذا كانت أدبيات السياسة تعرف تعبير الصقور لوصف التشدد فإنه من الواضح أن مدكور نفسه لم يكن يعتبر الفريق صدقى محمود صقراً بمعنى الكلمة على نحو ما كان محمد فوزى يشكو منه • عبد المنعم رياض كان بطبيعة الحال يؤيد فوزى، على حين كان فؤاد أبو ذكرى يؤيد مدكور أبو العز، ولكن فى غير حماس، وهكذا انحصر الخلاف بينه وبين القائد العام• يقدم أمثلة حية من تاريخنا المعاصر على خطأ النظرية المضادة القائلة بإمكان عمل القوات الجوية تحت قيادة القوات البرية• يقدم مثلاً واقعياً على هذا الذى حدث من سوء

استخدام القوات الجوية • يضرب مثلاً آخر يدلل به على فساد النظرية القائلة بإمكانية عمل القوات الجوية تحت قيادة القوات البرية • يورد مثلاً ثالثا يدلل به على فساد نظرية القائد العام التى قاومها هو • يعبر بعبارات تحمل نكهة نظرية الجدوى الاقتصادية • يورد قصة ما حدث فى أحد هذه المواقع بعد تركه قيادة القوات الجوية • وضع الفريق فوزى كان وضعاً خاطئاً لأنه كان قائداً مهزوماً وكان وضعه أمام جنوده وضباطه غير كريم • شذوذ فكر الفريق فوزى إلى حد أنه كان يصدر أوامر لا يمكن تنفيذها وينسى أن مدكور نفسه على قدم المساواة معه فى المسئولية والقيادة • المؤلف يعلق: لسنا نستطيع أن نقول إن مدكور أبوالعز يتزيد فى هذا الذى يرويه،• مدكور أبو العز قدم عدة استقالات، وهدد بأن يطبع نسخاً من الاستقالات الجاهزة ليقدمها فى كل مرة يحس فيها أنه لابد أن يقدمها من أجل المصلحة العامة •فى مقابل كل هذا الانتقاد لمحمد فوزى فإن مدكورحريص على أن يشيد بأمين هويدى • يرتاح تماماً إلى أداء أمين هويدى وأمانته وروحه وأسلوبه فى التعامل • قصة حوار دار بينه وبين الرئيس عبدالناصر بحضور أمين هويدى • الرئيس: «أنا زعلان منك لأنك قدمت استقالتك، أنا ما عنديش حد يستقيل» • ويعترف أن شكاواه للرئيس عبد الناصر قد حققت تأثيراً فعالا ـ وإن لم يكن دائما ـ فيما يتعلق بسياسة القائد العام معه • المصاعب لم تنته، فإن التعامل مع القائد العام على الطريق المستقيم أصبح مستحيلا • ولا يقف انتقاد مدكور أبو العز للقيادة العامة للقوات المسلحة عند أى حد • شكلت لجنة أغلبيتها من القوات البرية وفيها واحد فقط من القوات الجوية لتقوم بالتفتيش على القوات الجوية وعهد برئاسة هذه اللجنة للفريق صلاح محسن • مدكور ينتقد اللجنة وتشكيلها وأداءها بل ورئيسها وتاريخه بكل علانية • مدكور يحرص على التفرقة بين مجموعتين من القادة الذين كانوا مسئولين عن القوات المسلحة فى ١٩٦٧، ففريق منهم مسئول يستأهل المحاكمة لكنهم تركوا أحراراً، وفريق آخر برىء قدم ظلماً للمحاكمة العسكرية وكان فى حاجة إلى شهادة أمثال مدكور لتبرئتهم مما نسب إليهم ظلماً وعدواناً • لما كنت أشعر أن الفريق أول جمال عفيفى مظلوم فى هذا الاتهام وفى تقديمه إلى المحاكمة، فقد تحدثت إلى الرئيس عبدالناصر بشأنه مرتين• مدكور يفاجئنا بما أنهاه إليه عبد الناصر نفسه من اقتناعه بأن جمال عفيفى قد تعرض للظلم• الفريق أول محمد أحمد صادق لاينجو من انتقادات الفريق مدكور أبو العز اللاذعة والشديدة، وهو يدين أداءه

وأداء المخابرات الحربية • الروح غير المسئولة في أداء المخابرات الحربية • المشكلة التى كانت المخابرات الحربية والقيادة العامة لا تفتأ تخلقها للقوات الجوية (على حد تشخيصه) • عدم قدرة أجهزة المخابرات علي تحمل المسئولية • مدكور ينتقد أحمد إسماعيل في جزئيتين: الأولى أنه قدم الاتهام وكان الواجب عليه أن يتأكد بنفسه من توافر القرائن والأدلة. أما الجزئية الثانية فهي أنه لم يتشفع له عند السادات • انتقاداته لصدقى محمود تنحصر فى جزئيتين، الأولى هى قبوله بالإهمال المفروض على احتياجات القوات الجوية ، أما الثانية: فهى قبوله أيضا بل واستمراؤه للجشع فى تولى المناصب • العداء للسوفييت وللسياسة السوفيتية: الطابع الغالب • ينطلق فى فهم الدور الأمريكى من بغضاء للأمريكيين لا من الانبهار بهم أو الحرص على تخويف شعبه منهم • اتهامه لأمريكا بالتخطيط للهزيمة إلى أقصى الحدود المتصورة عن هذا التخطيط • الاتحاد السوفيتى جدير بالاحتقار لأنه صديق خائن • عبد الناصر فى ١٩٦٧ تورط، فلما وصل إلى نقطة اللاعودة عالج الأمور بخطأ جديد وهو إعلانه أنه لن يكون البادئ وهنا كانت المصيبة • كان معارضاً للطريقة التى حاول بها مجلس الشعب إغلاق موضوع الحديث عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ بتقريرحمدى عاشور • حذر حمدى عاشور من أن يتبنى مشروع التقرير • يطرح عدداً من التساؤلات المهمة الكفيلة فى رأيه بتكوين صورة حقيقية عن أسباب هزيمة يونيو ١٩٦٧ • سمعت عبدالناصر يقول «إن تهويشة المرة دى منفعتش» • يصرح باستنكاره الشديد لأن يقبل قائد سياسى كبير على نفسه خوض معركة دون إعداد الدولة للحرب • آثار إبرام الاتفاقية العسكرية بين مصر والأردن قبل الهزيمة وهذا القرار كان خطيراً جداً، ويلفت النظر إلى دلالة هذا القرار من الناحية الاستراتيجية : مصيدة وقعنا فيها • ويبصرنا بالفارق الكبير بين خطط الانسحاب الذكية والانسحاب الفاشل • ويجاهر باعتقاده فى توريط السوفييت لمصر فى حرب ١٩٦٧ • عبد الناصر يقول: «اتحاد سوفيتى إيه وحياد إيه، المشكلة فى يد الأمريكان، فلا سبيل لحلها إلا بالتفاهم مع الأمريكان» • «كم كنت أود أن يمد الله سبحانه وتعالى فى أجل زخاروف الذى كان يتصنع العجرفة، ليشهد بنفسه مأساة القوات المسلحة السوفيتية حينما اجتاز الطيار الألمانى يوم احتفال القوات المسلحة السوفيتية بعيد الحدود، ووصل إلى قلب الاتحاد السوفيتى» • كيف لنا أن نوجه اللوم للقوات المسلحة لأنها لم تستطع استخدام أسلحتنا الهزيلة • كانوا يظنون أنفسهم قادرين على إجبارنا على قبول نوع بغيض من الاستعمار • سلاح سام يوجه إلى

صدورنا قبل أن يوجه إلى إسرائيل• تعاملت مع زخاروف بالمثل فليس أقوى منى صوتا أو أشد منى ضربا على المنضدة، وكلت له الصاع صاعين • تشخيص المارشال زخاروف لأسباب الهزيمة، أتبع كل سبب من هذه الأسباب برده القوى القاطع عليه• تفصيلات الحوارات العسكرية المصرية ـ السوفيتية التي دارت بشأن تنسيق العمليات مع السوفييت • ويصل فى اتهاماته للسوفييت إلى حد تصويرهم وقد عملوا كجواسيس على مصر• إن قرار طرد الخبراء السوفييت قرار عملاق للسادات سجله له التاريخ بأحرف من نور• يستشهد بأقوال زملائه العسكريين على مدى الضرر والغُرم الذى أصاب مصر من جراء تحالفها مع الاتحاد السوفيتى، حسن أبو سعدة ، أحمد فتحى عبدالغنى• يقدم للقارئ تفسيراً محدداً لثناء الرئيس عبدالناصر على الاتحاد السوفيتى • خطاب صاحب هذه المذكرات المطول إلى الرئيس السادات فى وقت مواكب للعريضة التى وقع عليها ضمن عشرة من كبار السياسيين المصريين فى ١٩٧٢• رأى المؤلف: هذا الخطاب بما احتواه كان السند الأول للرئيس السادات فى اتخاذ قراره بالاستغناء عن الخبراء السوفييت، ومع هذا أجاد الرئيس السادات تمثيل الدور وقدمه لأمن الدولة كأنه يفشى الأسرار• السفير السوفيتى طلب مقابلة الرئيس عبد الناصر فى الساعة الثالثة صباح يوم الحرب وطلب منه ضبط الأعصاب وعدم بدء العمليات • كان فى قدرة الاتحاد السوفيتى أن يكتشف طبيعة تلك الحشود [المزعومة] على الحدود السورية • لماذا يتصرف الأصدقاء هذا التصرف؟!• الاتحاد السوفيتى كان متواطئاً • ضعف المعونة العسكرية والتسليح من الاتحاد السوفيتى • جوانب القصور فى السلاح الجوى السوفيتى • يقارن بين الوضع الذى وجدت قواتنا المسلحة نفسها فيه وبين وضع القوات المسلحة للعدو الإسرائيلى • لماذا لجأ المارشال زخاروف إلى طريق العنف، ذلك لأنه أراد أن يغطى خطأ دولته حيالنا وتقصيرها تجاهنا• ضيقت عليه الخناق، فلجأ إلى سياسة العنف والتجاوز •الاتحاد السوفيتى لم يكن مخلصاً لنا فى تدريب طيارينا، وأنه وضع العراقيل أمام خلق أجيال من الطيارين وذلك بتضليل قياداتنا العليا التى لا دراية لها بتفصيلات التدريب الجوى• اقتناعه أن إتمام التدريب الجوى على أرض مصر يمثل حتمية لا مناص منها وليس مجرد البديل الأفضل، أسباب اعتراضه على إتمام عمليات تدريب الطيارين فى الاتحاد السوفيتى • التفصيلات التى مضت فيها سياسات التدريب ومدى تأثير السوفييت على خط سير هذه السياسات •الاتحاد السوفيتى لم يكن غير مخلص فحسب بل كان معوقاً أيضاً سواء

للتسليح أو للتدريب أو الصيانة• الخبراء السوفييت المكلفون بتدريب طيارينا اختيروا من مستوى ضعيف• كانت سياسة تمويل الطائرات بقطع الغيار سياسة ترمى إلى خنق القوات الجوية (وتعجيزها) إذا ما تدهور الموقف السياسى بهدف إخضاعنا لما يريدون والتحكم فينا• كانت عمرات ماكينات الطائرات تجرى فى الاتحاد السوفيتى، وهذا شىء غير طبيعى • بخل السوفييت على قواتنا بالمعلومات المتوافرة لديهم عن قوات العدو • كانوا يعلمون كل شىء عن عدونا ولم يزودونا بأى شىء مما يعلمون • طلب السوفييت إبعاد القيادات العسكرية الوطنية عن مواقعها فتأثرت بذلك الوحدات العسكرية • الاتحاد السوفيتى لم يحاول بل لم يستجب إلى طلبنا من الأسلحة المؤثرة الفعالة التى تهدد العدو رغم الغارات شديدة العنف التى شنها العدو على الجبهة وفى العمق، مما اضطرعبدالناصر للسفر إلى الاتحاد السوفيتى يطلب من الشعب السوفيتى حماية الشعب المصرى، فزودنا بأسلحة دفاعية فقط أساسها الصواريخ أرض ـ جو، ومازال مصراً على عدم تزويدنا بالطائرات السريعة ذات المدى الطويل• ارتضى لنا أن نتعرض للقصف من طائرات العدو • ينسب إلى كبار العسكريين السوفييت قولهم الصريح: «اتركوا إسرائيل لتعيش»• الاتحاد السوفيتى يعمل على تحطيم اقتصادنا القومى • لا يمكن مقارنة الزيادة فى الدخل القومى بالخسارة الفادحة التى يسببها لنا الاتحاد السوفيتى نتيجة شراء الأسلحة غير المؤثرة • لا فرق بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا فى الأهداف الاستعمارية •الاتحاد السوفيتى يريد مناطق النفوذ والقواعد العسكرية كما تريد أمريكا • ألمه الشديد للموقف الذى اضطر إليه الرئيس عبد الناصر حين ذهب إلى الاتحاد السوفيتى يطلب الحماية للشعب المصرى من الغارات الإسرائيلية على أعماق البلاد • ارتياح الأطراف كلها للموقف الذى وصلنا إليه فى بداية السبعينيات • لماذا تسعى روسيا إلى حل المشكلة وهى تعلم أن حلها سوف يقلل من اعتمادنا عليها ويجعلنا لسنا فى حاجة ماسة إليها • وجهة نظره القائلة بعدم التعويل على الحلول الدبلوماسية لأن ثمارها إن تحققت لا تصل فى قيمتها إلى الثمار التى تحققها التضحية بالدم • تفاصيل مشاركته فى الحياة السياسية المصرية فى بدايات عهد الرئيس السادات • خوفه على بلاده من أن تقع فريسة فى يد مراكز القوى إذا ما استطاعوا إزاحة السادات وهو يقف وحده • زيارة عبداللطيف البغدادى فى منزله بمدينة نصر • حسن التهامى يعرض على السادات اقتراحاً باستدعاء البغدادى ليرأس الوزارة فرد عليه الرئيس السادات معترضاً: «أنت عايز البغدادى ييجى رئيس وزارة

علشان يلطش منى الحكم، أنت مش عارف البغدادى طموح أد إيه»● نص مذكرة البغدادى وزملائه للرئيس السادات فى أول عهده ● قدرة السادات على الإفادة من خطط يقوم بوضعها غيره ويهاجمها هو فى العلن ● تفصيلات مطولة عن مذكرة عام ١٩٧٢ ● أخذ إعداد المذكرة وقتاً طويلاً، يقرب من شهر ونصف شهر ● دوافعه إلى كتابة خطاب منفصل للسادات عن انطباعاته عن سياسة السوفييت ● قصة تعرضه للاتهام أمام نيابة أمن الدولة ● الخطاب الذى أرسلته للرئيس السادات كان مباشراً منى إليه، كتبته بخط يدى لم أمس فيه أى سر عسكرى بالإفشاء ● تعجبه من ضيق صدر الرئيس السادات بالنصيحة والرأى الآخر ● صياغة العريضة● حرص البغدادى على أن تسلم شخصياً باليد إلى الرئيس● شعوره المستاء مما بدا من انطباعات الرئيس السادات وانفعالاته تجاه المذكرة والذين كتبوها ● كان حتى كتب خطابه للسادات فى ١٩٧٢ معجبا بالرئيس وبخطواته فى الإصلاح السياسى والداخلى، كما أنه كان طموحا إلى أن ينهج الرئيس السادات نفس المنهج فى مجالات أخرى من إصلاح الإدارة الحكومية والقضاء على الفساد والسلبية والتحلل الخلقى● تقديره لإنجازات السادات فى بداية عهده، وفى انتصاراته المتوالية إلا أنه لا يكف فى مواضع كثيرة من مذكراته عن اتهام السادات بالدكتاتورية التى كان من ورائها التناقض في تصرفاته السياسية خاصة فى مواقفه من الاتحاد السوفيتى، دكتاتورية السادات هى التى دفعته إلى الاستخفاف بعقول المصريين حين روى - وهو رئيس للجمهورية - قصة اتصاله بالألمان ● يقارن بين موقف الرئيسين عبدالناصر والسادات ● يلخص مدكور أبو العز رأيه فى أحداث الحركة التصحيحية التى قام بها السادات فى ١٩٧١ فى قوله: إن ما حدث لا يدل على عبقرية السادات ولكن يكشف عن خيبة الآخرين.

● مكانة الفريق صادق فى التاريخ المصرى المعاصر ، خدم وطنه فى مايو ١٩٧١ خدمة جليلة ربما وفرت على هذا الوطن خمسين عاماً على الأقل من الصراعات الدموية ● كان نتاج المؤسسة العسكرية المصرية بكل ما عانت ولقيت من مؤثرات وتأثيرات ● اختلف بوضوح مع السادات ، وكان خلافه سابقاً لخروجه من الحكم ● عانى معاناة شديدة من أقوال نسبت إلى السادات ولم تنشر هذه الآراء إلا بعد وفاة السادات نفسه ، وقد روج لها من أوذوا (سواء فى

مناصبهم أو فى توجهاتهم) بسبب وقوف الفريق صادق إلى جوار الرئيس السادات • فى حركة سبتمبر ١٩٦٦ وقع عليه الاختيار ليكون مديرا للمخابرات الحربية، بقى رغم كل التغييرات التى حدثت عقب الحرب • وليس من شك أن موقف صادق فى ١٩٧١ بالنسبة لمصر كان أروع من موقف فوزى بمراحل كثيرة• النجاح [الوظيفى] الذى أحرزه صادق لم يكتمل على نحو يحتفظ له وحده بالمجد • وكان من الذين يحبون اللمعان والاتصال بالجمهور والصحافة •أصبح بمثابة أبرز ضحية فى التاريخ المصرى المعاصر للفيروس الإعلامى •مذكرات محمد حافظ إسماعيل وسعد الشاذلى وعبدالمنعم خليل ومحمد عبدالغنى الجمسى حافلة برواية تصريحات الفريق صادق التى أزعجت كل المعنيين بالشأن الوطنى • فى تفكيره لخطة الحرب كان على نحو ما عبر الشاذلى والجمسى حريصا على تفاصيل خطة يستحيل علينا بإمكاناتنا فى ذلك الوقت أن نحققها • اللواء عبدالمنعم خليل (فى مذكراته) يرى إقالته بمثابة ثورة تصحيح ثانية • عاش فى بيته وقريته فى هدوء • الفريق الشاذلى قدم صورة قاسية له فى مذكراته التى نشرها سنة ١٩٨٠• أما الصديق السابق لصادق وهو هيكل، فقد تخلى عن تأييد كل أفكاره ووصل الأمر بهيكل فى كتابه عن حرب أكتوبر أن يرثى ـ متصنعاً الألم ـ لحالته النفسية والعقلية • أحمد بهاء الدين ينتقم من الفريق صادق بكل دهاء ممكن فى تاريخ الإنسانية مصورا ما يرويه من كلام جيد الصياغة والحبكة على أنه عقيدة السادات تجاه صادق، ولم يكن السادات على قيد الحياة حتى يمكن الحكم على ما يرويه بهاء الدين عنه • وهكذا شُغل صادق بالهجوم غير المتزن على السادات لينتقم منه فى كل شىء • أنصار ضحايا ١٥ مايو كانوا سعداء بأن صادق قاد خطواته فى هذا الطريق وهكذا ظُلم الفريق صادق وظلم هو نفسه كثيرا • شاء أن يقدم أيضا للمحاكمة فى قضايا التعذيب • كان الفريق صادق بمثابة وزير الحربية الوحيد الذى تعرض للمحاكمة فى قضية جنائية• مذكرات الفريق محمد أحمد صادق لم تنشر كاملة حتى الآن • أجزاء كثيرة منها قد نشرت وهي لحسن الحظ الأجزاء التي تتناول أهم الأحداث التى عاصرها • تأجيل نشر مذكراته الكاملة • يتصدى للاتهامات التى وجهت إلى إدارة المخابرات الحربية تحت رئاسته • عبد الناصر راجع بنفسه كمية المعلومات التى قدمتها المخابرات الحربية قبل حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ • قال عبد الناصر: لا تظلموا المخابرات الحربية • يظن صادق مثل هذه الرواية كافية لنفى ما يريد نفيه أو إثبات ما يريد إثباته • رأى المؤلف: ولست أستطيع أن أزعم بأنى أكاد أقتنع ـ

ولو قليلا ـ بدفاع الفريق صادق عن نفسه • المثل الذى آثر الفريق صادق التعبير به عن كفايته • ويبدو مصابا بداء المديرين المصريين الذين يحصرون الأخطاء فى أداء منطقة معينة لا لشىء إلا لأنهم كانوا من الأساس يكرهون المسئول عن هذه المنطقة • يمرر علينا بسهولة فكرة أن ضباط الاستطلاع كانوا قليلى الخبرة • الاستطلاع الحربى المصرى كان يتوزع تبعا لمناطق النفوذ التى يتمتع بها القادة الكبار• كان الاستطلاع الجوى يملك إمكانيات هائلة، فرضوا عليه عدم التعاون مع إدارة المخابرات الحربية • ينفى أن يكون الاستطلاع الجوى قد أخطأ عن عمد • صحيح أن صدقى محمود اعترض على انتظار الضربة الجوية الإسرائيلية الأولى ليقوم بالضربة الثانية، وصحيح أن عبد الناصر قال: إنه يعمل لحل الموقف سلميا • خطته هو فى التحسب للحرب كانت تركز على تجنب المفاجأة بإخلاء مطارات سيناء الأمامية المتقدمة • وهكذا فإن خطة الفريق صادق كانت لا تتيح إلا نقل الطائرات لتُضرب فى بنى سويف (مثلا) بدلا من ضربها فى سيناء فحسب • عبد الناصر نفسه بعد مساء ٢ يونيو كان قد توصل إلى الاقتناع بأنه لن تقوم حرب • سوريا لم تحشد حشودها إلا بعد أن تأكد لها الحشد المصرى • لا يقدم نظرية متكاملة يحدد من خلالها دور الأمريكيين والسوفييت فى التآمر على مصر، إلا أنه لا يغفل الإشارة إلى اعتقاده فى صواب فكرة التآمر • تقديم إسرائيل للولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الوثائق العسكرية المصرية تضمنت أدلة قاطعة على انتواء مصر الهجوم على إسرائيل • ينقد بعض الأوضاع العسكرية التى أدت إلى حدوث الهزيمة، لكنه فيما يبدو يؤثر أن يردد التشخيصات الشائعة فى السبعينيات • لا ينصف القوات الجوية وأداءها على نحو صريح ومع هذا لا يهمل الحديث عن مدى معاناة هذه القوات قبل الحرب فى أكثر من مجال، يشير إلى معركتى الطيران اللتين تمت التعمية عليهما فى نهاية ١٩٦٦ • يتحدث عن قصور إمكانات الدفاع الجوى فيما قبل حرب ١٩٦٧ • إن الإنسان ليعجب ـ اليوم ـ من أن يكون مدير المخابرات الحربية مدركا لكل هذه الحقائق، ومع هذا يستطيب البقاء فى منصبه • معاناة التشكيلات البرية والمشاة التى شاركت فى هذا العمل الاستعراضى على حد تعبيره • الإهمال التام الذى عاملت به القيادة العسكرية مستودعاتنا الموجودة فى سيناء • التنقلات التى حدثت على مستوى التشكيلات المدرعة ما بين منطقة وأخرى• لا يختلف حديث صادق عن أحاديث غيره من الذين تحدثوا عن الانسحاب إلا فى جزئية إكثار صادق من لوم كثير من القادة واتهامهم بالهروب، • فيما يتعلق بالمسئولية

عن أمر الانسحاب صادق يلقى بكل هذه المسئولية على المشير عامر • لا يعتبر أن النكسة قد وقعت إلا بعد صدور قرار الانسحاب والتخبط فى تنفيذه • يصف بالجبن [هكذا] سلوك القيادة العسكرية فى مواجهة عبد الناصر، كما يبدو أكثر قدرة ورغبة فى تحميل الفريق فوزى المسئولية عن الهزيمة • وبجانب هؤلاء كان السادات يدفع عبد الناصر دفعا إلى حشد قواتنا المسلحة فى سيناء • فى النهاية : محمد فوزى ربما يكون المسئول الأول عن هزيمة ١٩٦٧، لأنه كان رئيس الأركان، أو كما يقال عن هذا المنصب «العقل المدبر فى القوات المسلحة» • المجموعة المحيطة بعبد الناصر فى ذلك الوقت كانت تعلم بعزمه على أبعاد فوزى عن منصب رئيس الأركان • كان السادات دائم التودد لى لمعرفتى السابقة بحياته وأساليبه ومواقفه • المجموعة التى كان الفريق محمد فوزى ينتمى إليها كانت تخطط لخلافة الرئيس عبد الناصر منذ ما قبل الوفاة، كانت تنزوى كلما استعاد الرئيس عبد الناصر صحته ، وتنشط كلما عاوده المرض • تصورت جماعة محمد فوزى أن الرئيس الجديد سيسمح لهم بمواصلة أداء دورهم فى حكم مصر مثلما فعلوا خلال المرحلة الأخيرة من حكم عبدالناصر • بدأ محمد فوزى يهاجم عبدالناصر وسياسته ويتهمه بضعف الأعصاب بعد هزيمة ١٩٦٧ ويمطر السادات بالثناء ويصفه بأنه رجل دولة من الطراز الأول يعرف كيف يختار الرجال • وترينا رواية صادق أنه كان قائداً مسئولا حريصا على وطنه وشعبه وجيشه على حين كان الفريق فوزى لا يمانع فى أن يناور السياسيون بالجيش لتحقيق أغراض قصيرة النظر • يروى أن الفريق فوزى طلب من الرئيس السادات التصديق على أمر يتضمن استئناف حرب الاستنزاف ولكن السادات رفض• كان وهو رئيس للأركان فى نهاية عهد عبدالناصر ضد إيقاف حرب الاستنزاف • يجيد عرض الدوافع والخلفيات التى حكمت السياسة والاستراتيجية المصرية فى ١٩٧١ • يدرك حدود ثقة الفريق فوزى ومجموعته بقوتهم • تحركات السادات على الجانب الآخر •الفريق صادق مقدر لذكاء السادات فى إعلانه فى فبراير ١٩٧١ مبادرته للسلام دون أن يطلع أحداً على أفكاره فيها قبل إعلانها. الفريق فوزى لم يستطع أن ينال من السادات بسبب هذه الخطوات • مجموعة فوزى كسبوا فى اللجنة التنفيذية جولة حاسمة ضد السادات •لم يكن من السهل عليه أن يكتشف بسهولة أسلم الوسائل والطرق لتجنيب القوات المسلحة الدخول فى هذا الصراع • يعترف أنه كان يخشى كل المحاور ويعمل حسابا للمناورات والمراقبات والتسجيلات

• أيقنت أن العمل بمفردى هو أكثر الاختيارات أمانـا • تفصيلات عن ثقة الفريق فوزى فيه حين استدعاه وطلب إليه بوضوح الإعداد لانقلاب عسكرى • فوزى كثف وركز ردوده على هذه الجزئية من رواية صادق • يصرح ويقرر بأن ما كتبه الفريق فوزى لم يكن إلا إعداداً لانقلاب عسكرى بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، وأن هذا الانقلاب كان موجها للإطاحة برئيس الجمهورية نفسه للاستيلاء على السلطة وتنحيته • وبحكم قدراته السابقة فإن صادق يعرض علينا بعد أن نجح ما يطلق عليه أسس خطته، والآليات التى اتبعها من أجل إنجاح هذه الخطة • ذكاء يحسب له ويُعترف له به فى حرصه على أن يصور لنا بكل وضوح أن القوات المسلحة كلها كانت تؤيده فى توجهاته • لا يبخل علينا أيضا برواية واقعة جزئية مهمة وهى محاولة الفريق فوزى التأكد من استقطاب قوات الصاعقة إلى صفه • جهده فى تحويل دفة الحرس الجمهورى من حيث كان يمكن أن تقاد • بدأ الليثى ناصف يبتعد عن سامى شرف وبدأ يتودد لكل مَنْ حول أنور السادات • قدم صورة السادات فى هلع وفزع... • رسالة منه غيرت تماماً من حالة الرئيس السادات النفسية وجعلته يرمى القفاز فى وجه المجموعة المناوئة له، وهكذا استطاع أن يتحداهم من فوق المنصة فى احتفال أعدوه هم لإحراجه والضغط عليه، بل واستطاع السادات أن يقيل نائبه على صبرى فى اليوم التالى • يتجاهل الحديث عن الآليات المتعددة التى لجأ إليها الرئيس السادات • تفاصيل ما حدث فى اليوم الحاسم على مستوى القوات المسلحة وهو يوم ١٣ مايو ١٩٧١، وهو يروى ما شاهده وما شارك فيه • حواره مع شعراوى جمعة وزير الداخلية المستقيل واقتراحه عليه بل وإلحاحه فى أن يسافر من فوره إلى الإسكندرية وأن يطلب ممدوح سالم ليهنئه بخلافته له فى منصب وزير الداخلية • يبدو من تصويره أن الأمور مضت سلسة بينما هى فى واقع الأمر كانت أصعب من هذه السلاسة • الدور الذى قام به العميد إبراهيم رفاعى(وهو الشهيد العظيم فى حرب أكتوبر) فى تأمين وزارة الحربية ومبنى القيادة العامة فى ذلك اليوم • يحرص على الإشادة بدور كل من اللواء على عبدالخبيروالعميد عمران ويقتصر على هذين القائدين اللذين ظلا على ولاء له بينما يغفل تماما الإشادة بثلاثة من القادة كان لهم نفس موقفه من الفريق أول محمد فوزى حين التقوا به فى مكتبه ونصحوه بالابتعاد بالقوات المسلحة عن الصراعات • بعض ملامح انفعالات الرئيس السادات الممتنة له • الفريق فوزى لم يقدر نبله معه • لم يقدم للمحكمة الورقة التى كتبها الفريق فوزى بخط يده؛ لأنها وثيقة إدانة تؤدى إلى

الحكم بإعدام بعض المتهمين، كان يكره أن يكون السبب فى أن يقوم السادات بتصفية هؤلاء • بعد إقالتى أرسل فوزى التماسا واستعطافا • أؤكد أن مساندتى للسادات فى أحداث مايو لم تكن حبا فى شخصه ولكن بهدف الحفاظ على الشرعية واستقرار الأمن • جمال حماد يلخص وقائع ما حدث • رأى المؤلف أن الحيثيات التى صدرت المحكمة بها حكمها قد تغنينا وتغنى الفريق صادق عن الحديث عن طبيعة الدور الوطنى الذى قام به فى تلك الأحداث ، وهى - أى الحيثيات - قد تكون بمثابة أفضل رد على ما يثيره الفريق محمد فوزى من تشكيك فى حقيقة دور الفريق صادق • من العجيب فى أمر النفس البشرية أن الفريق صادق لا ينتبه إلى سر نكبته ولا المسئول الحقيقى عنها، وبدلا من ذلك يحوم بالشبهات حول من لا يمكن لهم أن يكونوا منافسين له ولا مزاحمين..
• مندهش من أن السادات أقاله فى نفس اليوم الذى وعده فيه باستخلافه له كرئيس للجمهورية • ومن حسن الحظ أن نصا فريدا قد نشر للأستاذ عبده مباشر حول هذه الجزئية •فقرة تدلنا بمنتهى الوضوح على مدى وضوح الفكر الاستراتيجى الذى كان يتمتع به السادات منذ مرحلة مبكرة قبل حرب أكتوبر •كان السادات يطالبنى بسرعة العبور ولكن لتحرير متر واحد فقط من الضفة الشرقية لكى يتفاوض بعدها ويستغل هذا العبور سياسيا ودوليا • الفريق صادق حريص - دون أن يدرى - على أن يدين نفسه إدانات بالغة لم يتمكن - وربما لم يفكر - السادات نفسه من توجيهها إليه• لايزال معتزاً بالتلميع الإعلامى الذى حظى به وحافظ عليه، ومن الغريب أيضا أنه حريص على أن يذكر أنه كان يعرف أن السادات كان يتضايق من هذا • موقفه من السوفييت كان موقفاً جيداً ومجيداً • رواية محمود رياض عن المحادثات المصرية - السوفيتية ترينا بوضوح مدى التحفظ العلنى أو المعلن الذى كان صادق حريصا على إبدائه فى مواجهة السوفييت • يتبنى الأقوال الشائعة التى نسبت إلى الرئيس السادات توصيفه لصادق على أنه عميل موسكو الأول • موقف السادات في حصار رأس التين ٢٦ يوليو، فر أمام هذا الحرس، ولولا أنه رأى الفريق صادق سلم الموقع لكان حدث شىء آخر(!!) •على هذا النحو يصور الفريق صادق لنفسه دوراً (ثورياً) فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ • لم يدل فى أحاديثه بتفصيلات كثيرة عن فترة الصراع بين ناصروعامر ودوره فيها وربما تتضمن مذكراته التى لم تنشر بعد، تفصيلات عن هذه الفترة •استبعد أن يكون للفريق الشهيد عبدالمنعم رياض صلة ما بنهاية عامر.

● التعريف بصاحب المذكرات: أصبح قائدا لـلقوات الجوية منذ نهـاية يونيو ١٩٥٣، أى أن أقدميته فى هذا المنصب كانت تناظر أقدمية المشير عبدالحكيم عامر فى القيادة العامة لـلقوات المسلحة!! ● يبدو حديث محمد صـدقى محمود عن ظروف وملابسات حرب ١٩٦٧ ذا قيمة حقيقية على عكس ما قد نتوقع● إلـى حمدى لطفى يعود الفـضل فى نشر هذه المذكرات ● الفروق الرهيبة بـين معاملة الدولة للقوات الجوية فى عهده وفيما بعد الهزيمة، لا نستطيع بالطبع أن نجعل من هذه الحقائق نـهاية لمسئولية الرجـل عن الوضع الظالم الذى تعـرضت له القوات الجوية فى ١٩٦٧ ● لا يعرف حتى الآن ـ سر مكالمة الفريق أول محمد فوزى له فى الأعـقاب المباشرة لهـزيمة ١٩٦٧ ● كان واعيـا لأهمية وجـود خطة هنـدسية للإنشاءات اللازمة للقوات الجـوية، ولشراء أجهـزة الإنذار الحديثة وغيـرها من المطالب المـلحة، لكنه لـم يكن يتلقـى غير الوعود الشـفوية أو الورقية مـع تأجيل البت فى هذه الطلبات العاجلة التى كان يتوقـف عليها مستقبـل القـوات الجويـة ●ويتعرض بالـنفى للدعاوى التى تـرددت بعد هزيمة ١٩٦٧ من أن عبـد الناصر كان قـد طلب من عـبد الحكيـم عامر إبعـاده عن قيادة الـقوات الجوية، ويـصف الدعاوى بأنها قصة خيالية رددها الاتحاد الاشتراكى بينما هو مسجون لا حول له ولا قـــوة ● رؤية مختـلفة تماما عن الرؤى المتـاحة عن الفترة التى سـبقت حرب ١٩٦٧ ● القرارات العسكرية الكبرى صـدرت دون علم قادة القوات المسلحة أو الاستماع إلـى وجهات نظرهم، لقاءات دردشـة تتم أحيانا مصـادفة ودون موعد مسبق أو ترتيب ● مـن العجيب أن صدقى محمود بقى فى موقعه رغم كـل هـذا ● أبلغ دليل على هزل القرار وعلى عدم جديته عسكريا ●يشير إلى تقرير كُتب ـ على حد قولـه ـ فى نهاية ١٩٦٦، وهو تقريـر تقدير موقف وقد نبـه فيه صراحة إلى أنه بدون هـذه المطالب المحددة لايمكنـه الدخول فى معركة، وأنه حـتى بهذه المطالب لا يكون جـاهزا لمعركة إلا فى ١٩٧٠● تفصيلات لقائه بـالقيادة السورية قبل حرب يونـيو ١٩٦٧ وعقب معركة التـوافيق بين سوريا وإسرائـيل، اعتذروا عن قبول موجهين أرضيين للطائرات من رجال الدفاع الجوى ● القادة السوريون لم يكونوا مـرحبين بالتعاون العـسكرى المصرى● الإذاعات المـوجهة ضد مـصر كانت تعمل على توريط عبد الناصر ● عبد الناصر وافقه على فكرته ● تصويرنا لحرب ١٩٥٦ كاد يجعل قادتنا لا يعولون على حرب ولا على قتال مادام النجاح

السياسى الإعلامى كفيلا بتحقيق ما لا يحققه القتال والكفاح • لقاء عبدالناصر بالطيارين فى مطار أبوصوير الحربى يوم ٢٣ مايو ١٩٦٧، الجديد الذى يضيفه صدقى هو أن أحد الطيارين الشبان تعرض لموقف عبد الناصر بالتحليل، فما كان من عبد الناصر إلا أن طمأنه بأن الموقف سيحل سياسيا • لماذا حجب عنا الفريق أول صدقى محمود اسم الطيار • مدى الانفصام الفكرى الذى كان قائما بوضوح ما بينه وبين عبد الناصر، فى تصور كل من عبد الناصر وصدقى للموضع الأمثل لتمركز طائراتنا • معلومات عبدالناصر عن سلاح الطيران كانت من الأساس تفتقد التصور المبدئى لا التصور الكامل فحسب • تفصيلات واقعة كوميدية تجسد بكل وضوح مدى قصر النظر وقلة الحيلة، فضلا عن المظهرية البالغة فى سد الثغرات أمام الرئاسات الأعلى • قصة «جوالات الخيش» ورصها حول الطائرات كإجراء تأمينى مؤقت • اضطررنا لجمع أكبر عدد من ترزية مصر الجديدة لتحويل الجوالات إلى أكياس سليمة • كل محاولات المذكرات للتأكيد على أن عبدالناصر كان مقتنعا ومؤملا فى الحل السلمى يمكن لها (أى لهذه المحاولات) أن تنهار بهذه الرواية المرتبطة بجوالات الخيش • لقاء يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ لم يكن لقاء مرتباً • يروى أنه طلب من عبد الناصر إصدار الأمر له بقصف حيفا فى تلك الليلة • أحس بأن المناخ مناخ حل سلمى وليس بمناخ حرب • حواره مع الرئيس عبد الناصر (فى لقاء ٢ يونيو ١٩٦٧) حول الضربة الأولى وتفاديها، جو المناقشة لم يكن هادئا، وإنما اعتراه الاحتداد، والكهربة، والتحذير، والتدخل، والعصف • وأراد عبدالناصر إنهاء هذا اللقاء العاصف بقوله : «هذا الكلام طرحته أمامكم فى حالة حدوث مفاجآت، وعموما أؤكد لكم بأن الموضوع سيحل سياسيا» • يرفض بشدة التسليم بمقولة إن عبد الناصرحذر من وقوع الحرب يوم ٥ يونيو • «هل كان منطقيا أن يحذرنا عبد الناصر من هجوم إسرائيلى سيتم يوم ٥ يونيو، ثم تطلب رئاسة الجمهورية طائرتين لوفدى العراق وسوريا للطيران إلى سيناء بناء على تعليماته صباح اليوم نفسه؟! • ألم يكن بوسع أحدهم أن يذكر المشير عامر بأن اليوم هو الموعد الذى حدده عبد الناصر لهجوم إسرائيل علينا؟! •إنذارنا بهجوم إسرائيل يوم ٥ يونيو هى حكاية خيالية وهمية لم تحدث على الإطلاق • ذكرياته عن يوم الحرب نفسه، وعن القنبلة الجديدة التى استعانت بها إسرائيل فى تدمير الممرات، هذه القنبلة هى التى كسبت الحرب وليست إسرائيل

● فى غرفة القيادة وجدت جميع شاشات راداراتنا بيضاء تماما ● التفاصيل المثيرة التى حدثت فى داخل طائرة المشير عامر ● ويحرص على أن يؤكد أن القوات الجوية قامت بدور بطولى فى أثناء حرب ١٩٦٧ ●فرغم الهجوم المفاجئ أقلع الطيارون المصريون الأبطال من مطارات المليز وكبريت وفايد وأبوصوير وأنشاص وغرب القاهرة والغردقة، وقاموا بطلعات انتحارية ● قام المهندسون والفنيون والجنود بمعجزات هندسية فى إصلاح المطارات والطائرات كما قاموا بتكملة تركيب أجزاء الطائرات «السوخوى» عندما اختفى الخبراء السوفييت ●وفجر ٦ يونيو هاجم سرب الشهيد مدحت المليجى المطارات الجنوبية فى إسرائيل، وقامت ثلاثة أسراب مصرية بالعمل فوق سيناء، وفى مساء ٧ يونيو طلب منى المشير عامر قصف القوات الإسرائيلية على جانبى الطريق فى بير العبد ورمانة بسيناء، فقام طيارو «اليوشن ٢٨» وكانوا عائدين لتوهم من اليمن بالمهمة فى ٣ طلعات، واستخدموا مدافعهم الرشاشة لحصد العدو ● فى صباح ٨ يونيو أرسلت الجزائر ١٢ طائرة ميج ٢١ بطياريها، فلم أسمح لهم بالاشتراك فى الطلعات الانتحارية إبقاء على حياتهم ● الطيارون قاموا يوم ٥ يونيو نفسه بـ٢٢ طلعة عمليات بقوة (٥٥ طلعة قتال جوى)، وفى اليوم التالى ٤٩ طلعة عمليات بقوة ١٢١ طلعة قتال جوى، وفى اليوم الثالث ٢٠ طلعة، وفى اليوم الرابع ٢٢ طلعة، وكان أكثرهم يعلم تماما أنه فى عداد الموتى بكل تأكيد، بعضهم قاد طائرته مقلعا فوق الممرات الممزقة فانفجرت به الطائرة قبل أن يرتفع عن الأرض ●الفريق فوزى أصدر الأوامر قبل الساعة الثامنة من صباح ٥ يونيو بحبس نيران المدفعية ● ما قام به نسورنا فوق طاقة وقدرات البشر● ينتقد قرار تقييد نيران قوات الدفاع الجوى بصورة عامة ● تفصيلات كثيرة عمن أصدر الأمر وعمن تلقاه● موقف القوات الجوية من إشارة عجلون ● ولو بلغتنا إشارة عجلون لاستطاعت طائراتنا ركوب طائرات إسرائيل بسهولة وأمامها فسحة من الوقت تسمح لها بحرية الحركة ، ولتغير وجه التاريخ كما قال عبد المنعم رياض ●الضابط المكلف باستقبال البرقيات ترك القيادة بين الضباط الكبار والصغار الذين عادوا إلى بيوتهم حين هدأت الحالة بإذاعة خبر طيران زكريا محيى الدين إلى أمريكا لحل القضية سلميا ● حين عرف عبد الناصر بأمر هذه البرقية هاجم عامر هجوما شديدا، وتحدث عن أربع مؤامرات خرجت من مكتبه ضد الثورة، الفريق أول محمد فوزى يصدر أمرا بالقبض على صول البرقيات وتعذيبه

ومحاكمته عسكريا، ولم يعرف أحد ماذا جرى لهذا الرجل؟ • عبد الناصر طلب تجميد الموضوع وعدم الإشارة إليه فى الصحف، وقال بين مجموعة من القادة الجدد: نحن نعطى بذلك مجالا جديدا للروس كى يسخروا منا أكثر وأكثر مما سخروا • صاحب المذكرات لا يوافق على الفكرة التى يطرحها حمدى لطفى والقائلة «بأن عبد الناصر خطط لهذه الهزيمة من أجل هزيمة عامر وقادته • رأيه أن عبدالناصر أصيب بالتخبط ما بين مايو حتى يونيو ١٩٦٧، التخبط ينتقل إلى القيادة العسكرية • يطرح فكرة تبدو لنا اليوم وكأنها فى غاية الذكاء والمعقولية، وهى أن إسرائيل لم تكن تنتوى تحقيق كل هذا الذى حققته، وإنما كانت تجس النبض فحسب، وأن عبد الناصر من ناحية أخرى كان ينتوى ضربة ردع مفاجئة لإسرائيل، لكنه ظل مترددا حتى أقدمت إسرائيل على نفس الضربة التى كان عبدالناصر نفسه ينتويها لها • نجد فى المذكرات روحا عدائية واضحة تجاه الاتحاد السوفيتى• كانت لصدقى محمود توجهات مبكرة جدا فى الانحياز إلى السلاح الغربى • ناصر وعامر طلبا منه أن يعامل الملحق العسكرى البريطانى بجفاء.. كان ميالا إلى الحفاظ على مبدأ تنويع مصادر السلاح وعلى الإبقاء قدر المستطاع على خطوط التسليح الأخرى، المؤلف يعلق: لست أظن أن لمثل هذا الموقف علاقة مباشرة بالانتصار أو الهزيمة فى ١٩٦٧، فذلك أمر يفوق قدرة السلاح نفسه • المشكلات المتعلقة والمرتبطة بتسليح القوات الجوية من الاتحاد السوفيتى تبلورت منذ ١٩٥٨• التعنت السوفيتى كان دافعا إلى المضى المبدئى فى سبيل تحقيق طفرة مصرية جبارة فى سبيل تصنيع السلاح والطائرات والصواريخ •السوفييت يحقدون على نجاحنا فتكون النتيجة - غيرالمباشرة - قرارا من عبدالناصر بإيقاف الاعتمادات!!• بعض مظاهر الاختلاف فيما بين مصر والاتحاد السوفيتى فيما قبل حرب ١٩٦٧، ومن العجيب أن هذه الموضوعات والتفاصيل ظلت غائبة تماما عن الوجدان الوطنى فى ظل أحادية الرؤية، سواء فى ذلك إن كانت الرؤية من خلال صحفى واحد أو من خلال تنظيم سياسى واحد •الدور الموجه الذى لعبته أجهزة الاتحاد الاشتراكى من أجل المساعدة على إحكام سيطرة واحتكار الاتحاد السوفيتى للإمداد العسكرى • «فضيحة ١٩ ديسمبر ١٩٦٦» حيث سقطت طائرتان سوفيتيتان فى هجوم إسرائيلى • دوره ودور القوات الجوية فى حرب ١٩٤٨ وهو من المؤمنين بعظمة ما استطاعت القوات الجوية تحقيقه فى حرب ١٩٤٨ • مصر كانت تحظى بالتفوق الجوى فى حرب

١٩٤٨ إذ لم يكن هناك سلاح جو إسرائيلي بعد... • جسارة السلاح الجوى المصرى وبطولات رجاله سجلت بأحرف من نور وفخار وإن لم تلق على المستوى الرسمى [بعد الثورة] ما تستحق من تقدير • يرى فى حرب ١٩٤٨ دليلاً ناصعاً على نجاح القوات الجوية المصرية بكل عناصرها • يصور خروج الفريق مذكور أبو العز من سلاح الطيران لكى يعمل محافظا لأسوان فى إطار صراع البغدادى مع عبد الناصر، وخوف عبد الناصر من انقلاب يدبره البغدادى ضده • يصف الجو الذى أحاط بعبد الناصر فيقول : كان محاطا بالمنافقين المدركين لحقيقة وجوهر المواقف الدولية من الحرب العربية الإسرائيلية • قابل رئيس الوزراء المصرى وأبدى له رضاه عن خطوات الرئيس السادات من أجل السلام • كان قد أبدى آراء صريحة وواضحة بضرورة قبول قرار التقسيم فى أثناء حرب ١٩٤٨ بعد عودته من غزة • دفعه التمثل ببطولة الطيار المصرى الأول محمد صدقى إلى أن يترك دراسته للطب لكى يلتحق بالعسكرية حتى يصبح طياراً.. يمر بموقف نادر بعد سنوات قليلة حين يجد نفسه مكلفا بأن يختبر الطيار المصرى الأول محمد صدقى ليقرر مدى صلاحيته كطيار مدنى للحصول على إجازة الطيران.

• إشارة إلى الكتاب الأول من مذكرات الفريق فوزى «حرب الثلاث سنوات» •هذا الكتاب لا يتحدث فى المقام الأول إلا عن توابع حرب ١٩٦٧ •ما يرويه عن السادات: بادر بقوله وهو مقبل علىّ للسلام فى مدخل الاستراحة: «بصمت لهم ياسى فوزى». •«بقى فى ذمتك يافوزى عبد الناصر كان ناوى يحارب» •الجهود التى ينسب صاحب المذكرات إلى نفسه أنه بذلها فى الارتقاء بالقوات الجوية المصرية • يبالغ فيما تحقق من إنجازات يتحدث فيها عن التفوق الجوى •التعديلات الفنية فى الطائرة الميج ٢١ • رأى المؤلف فى أن التفوق الجوى لا يتحقق بطائرة ولا بطراز طائرة • جهده فى الحصول على المعونة الفنية والأسلحة من الاتحاد السوفيتى •محاضر اللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات التى تمت خلال عام ١٩٦٩ •مدى اللجج والصراع الفنى المستميت الذى كان يخوضه الطيارون المصريون والمهندسون المصريون مع نظرائهم السوفييت من أجل ما يبتغونه وهو تطوير وتطويع الطائرات السوفيتية للحرب • تعليق المؤلف:

تفصيلات الخطط الجوية والإمكانات والمعدات والاستراتيجيات لم تكن فى تلك المرحلة الحرجة شأناً فنياً يختص به سلاح الطيران، ولكنها كانت قد أصبحت شأناً عاماً جداً يتناوله بالنقاش الرئيس الذى هو القائد الأعلى ، ووزير الحربية الذى هو القائد العام، ومستشارون سوفييت هم فى المقام الأول والأخير أصدقاء أجانب، بل يحضرها مع هؤلاء أيضاً السفير السوفيتى وهو بالقطع صاحب وظيفة مدنية إن لم يكن رجلا مدنيا أيضاً يحضر السهرات والمآدب • الرئيس كان يؤمل من القوات الجوية بأكثر مما يقدره قائدها على بغدادى • تسليح الطائرة السوخوى • هل كانت الخسائر بسبب الخطأ الناجم عن عدم اتباع الطيارين لقواعد الانضباط الجوى أم بسبب قصور فى تسليح السوخوى؟
• التقييم الظاهرى لهذه الرؤية لا يرتفع بها إلى مستوى ما تحقق بالفعل على يد القوات الجوية فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وهو أن للنجاح سرا يظل من حق الناجح وحده، على حين يبقى فى إطار الأحاديث الزائفة أو الأمانى الجميلة كل حديث من أحاديث الجنرالات القدامى • رواية مفصلة عن زيارة الرئيس السادات الأولى للاتحاد السوفيتى • إذا كان هناك مدان فى رواية الفريق فوزى فإنه هو فوزى نفسه الذى لم يجهز الأمور مع نظرائه من السوفييت من ناحية، ومع رئيسه من ناحية أخرى على النحو الكفيل بعدم نشوء مثل هذا الخلاف الحاد • الرئيس بريجينيف وصل فى قراراته إلى تمركز الطائرات القاذفة الصاروخية بعيدة المدى فى مصر، وقال: «على أن توضع تحت القيادة العسكرية المصرية وتنسق عملياتها القتالية عن طريق كبير المستشارين السوفييت». وهنا قاطع الرئيس السادات معترضاً على أسلوب التنسيق، وتوقف الرئيس بريجينيف عن قراءة باقى القرارات، تحولت الجلسة إلى مناقشة حادة وجدل بين السادات وبريجينيف، وانتهت هذه الجلسة بكلمة أخيرة من الرئيس السادات: «أنا معترض» • فى أول لقاء له مع الرئيس السادات: أظهرت انزعاجى مما حدث بين الرئيسين فى موسكو، فرد علىّ بقوله: «لا تنزعج إنه أسلوب ضغط على الاتحاد السوفيتى» • ينسب ـ فى هذه المذكرات ـ إلى الرئيس عبد الناصر موافقته على هذا الوضع الاستثنائى للطائرة المتمركزة فى مصر المتحركة بتنسيق مع السوفييت • تواكله على أصدقائنا السوفييت وظنه الحسن أنهم قد يسعفونه بعد ٦ ساعات من طلب الطائرة • السوفييت على حد رواية الفريق فوزى يضعون القيادة المصرية تحت الميكروسكوب أو تحت التجربة • الفريق فوزى يجد نفسه فى حاجة مرة أخرى

إلى تبرير لأقواله هذه المتناقضة مع الواقع • تفصيلات مهمة يؤكد لنا بها من حيث لا يقصد على قدرة السادات الرهيبة على المناورة، وعلى استكشاف طبائع العلاقات بين مساعديه المصريين وبعضهم البعض من ناحية أخرى، وبين السوفييت من ناحية ثالثة • تدهور العلاقات مع الاتحاد السوفيتي لم يحدث إلا بسبب تولى السادات الرئاسة • السادات نجح فى عقد صفقة كبيرة من الأسلحة فى أكتوبر ١٩٧١ • التحليلات السياسية التى يتبناها الفريق فوزى تحليلات جيدة فى معظمها، لكنه ينقل أحياناً كثيرة تحليلات متعارضة ويوردها مع بعضها دون أن يكون واعياً بأن الثانى مناقض للأول تماماً • روايات مختزلة تماماً فيما يتعلق بوقائع السياسات الداخلية ومؤامرات القصور ووقائع الحياة الحية • يستغل منصبه الكبير فى التعالى على القارئ • لقاء السادات بقادة القوات المسلحة فى ١١ مايو ١٩٧١• رواية الفريق فوزى عن أحداث مايو ١٩٧١ تحفل بقدر كبير من التناقض فيما يتعلق بهدف الفريق فوزى الاستراتيجى (أو التكتيكى) فى تلك الأيام ، يذكر أنه استقبل الوزراء المستقيلين فى مكتبه، وأنه استدعى القادة التالين له فى مكتبه أيضا ، وقال لهم كلاماً لايمكن فهمه إلا على أنه تحريض •حضر إلى مكتبى ـ بناء على طلبى ـ الفريق صادق وبعض القادة، فأخطرتهم بالموقف كما أخطرتهم بقرارى عن إنهاء خدمتى بالقوات المسلحة •... رفض جميع القادة الحاضرين عزمى على الاستقالة، وقالوا إنه ليس للقوات المسلحة دخل بالسياسة الداخلية للدولة وأن علىّ الاستمرار فى مهمتى • الساعة التاسعة مساء نفس اليوم اتصل بى الزميل شعراوى جمعة ودعانى إلى منزله حيث وجدت الزملاء الوزراء: سامى شرف ، سعد زايد ، محمد فائق ، حلمى السعيد وأشرف مروان بالإضافة إلى صاحب المنزل • يعترف بكل ما نسبه السادات إليه وإلى مجموعة الوزراء المستقيلين • يحاول أن يؤصل للخلاف بينه وبين الرئيس السادات وأن يعود به إلى فترات سابقة، إلا أنه يفاجأ بأن وقائع التاريخ لا تسعفه • لم يشعر باختلاف توجهات السادات إلا منذ ٤ فبراير ١٩٧١ • ما يرويه الفريق فوزى عن تفاصيل ما حدث يوم ١٤ مايو أى بعد أن كان قد قدم استقالته بالأمس • الشعور بالغدر والإهانة •يسخر بكل مما يسمى بالتصرفات الوقائية التى نفذها خلفه فى الوزارة الفريق أول صادق • يصف هذه التصرفات بأنها تمثيلية •أول تمثيلية يقوم بها الفريق صادق الذى عينه الرئيس وزيراً للحربية • يروى بمرارة لحظات اعتقاله • الفريق فوزى يلجأ دون داع إلى اتهام

السادات بالتشكيك فى مقاصده من إعلان الوحدة مع ليبيا وسوريا، مع أن مثل هذا الموضوع لم يكن ليقدم أو ليؤخر فى صنع المعركة • يعترف بأن السادات قد استطاع إحراجه • وينتهز فرصة نشره لمذكراته ليتصدى بالرد لما نشر ـ على نطاق محدود ـ فى أعقاب إلقاء القبض عليه فى مايو ١٩٧١ من أنه كان ينوى استغلال القوات المسلحة فى الانقضاض على الرئيس السادات أو الانقلاب عليه • توجيهات عسكرية صدرت منى إلى الفريق صادق يوم ٢١/ ٤/ ١٩٧١ بهدف وضع خطة جديدة لتأمين القاهرة • وهى توجيهات عسكرية عادية لم تأخذ (طابع أو درجة) السرية • أصدر مثلها يومياً اثنين أو ثلاثة أو أكثر وبالرغم من وجود أجهزة وإدارات متخصصة فى هذا المجال (الأمن والتأمين) فإن توجيه هذه الأجهزة ومباشرة أسلوب تنفيذها هو من مسئوليتى المباشرة • فما الداعى لإثارتها وتحريف معناها • ويورد ملخصاً للحكم الذى صدر عليه من المحكمة العسكرية • كان فوزى غافلاً عن أن السادات مدرك تمام الإدراك لكل محاولات الجبهة المناوئة له • وضع السادات وزيره حيث يريد أن يضعه، وبرر له هذا بأنه أسلوب ضغط على الأمريكان • يظهر مرارته من السادات مع أن بوسعه أن يؤجل هذا وأن يترك القارئ يستشفه بمفرده • على الرغم من كل ما يأخذه الفريق فوزى على السادات فإنه معتز بشهادات الرئيس السادات له ولجهده • قال السادات: فوزى كان رجل شريف وعلشان كده أول ما تم الانتصار بتاعنا فى ١٩٧٣ على طول أخرجته • كان السادات لا يزال حريصاً على أن يكون فوزى فى صفه • يروى لحظاته الأخيرة فى السلطة بكل ألم ومرارة • مقال هيكل فى أهرام يوم الجمعة ١٢/ ٣/ ١٩٧١ عن معركة تحرير الأرض تحت عنوان «تحية للرجال» أدى إلى إحباط معنويات المقاتلين فى القوات المسلحة • عندما أبلغت الرئيس السادات استياء أفراد القوات المسلحة جميعاً من نشر هذا المقال رد علىّ قائلاً: «ما هى دى حرية الصحافة • إدانة هيكل بسبب نشره معلومات عسكرية غير مسموح بنشرها • طبيعة التحالف الذى نشأ بين هيكل والفريق صادق كان هيكل يتحاشى الاتصال بى فى ذلك الوقت لاعتبارات عديدة • يصور لنفسه دوراً كبيراً فى تأييد الرئيس أنور السادات كمرشح لخلافة عبد الناصر • «كانت رغبة أفراد القوات المسلحة وحدها ـ والتى وصل تعدادها فى ذلك الوقت إلى ما يقرب من المليون، وهو عدد يمثل سدس الناخبين فى مصر، بالإضافة إلى أصوات ذويهم الناخبين ـ عاملاً كافيا لوصول أنور السادات إلى منصب رئيس

الجمهورية » • التعالى الشديد على رئيس الجمهورية الجديد ، يعترف فى ثنايا ما يرويه ـ وربما دون أن يدرى ـ أن السادات كان أذكى منه • ما يرويه الفريق فوزى من أن الرئيس الجديد لم يكن على علم بقرار الحرب الذى أمضاه الرئيس الراحل قبل وفاته بأسبوعين(!!) وكأن هذا مما يعيب الرئيس الجديد أو يجعل من حق الفريق فوزى أن يكون وصياً عليه(!!) • يقلل من قدر السادات، يبدو كما لو كان يوجه اللوم للرئيس عبدالناصر الذى لم يدرب السادات جيداً • قمت بوضع برنامج زمنى خاص لتمكين السادات من معرفة القدرات القتالية للقوات المسلحة • يبخل علينا الفريق فوزى بأن يشير إلى أن الرئيس الجديد (تحت التدريب) قد اجتاز البرنامج الموضوع له من قبل الفريق فوزى بنجاح سريع لم يكن فوزى نفسه واعياً له.. • «وبدأت مرحلة جديدة خاصة بتغطية نقص المعرفة العسكرية لدى القائد الأعلى الجديد للقوات المسلحة» • حريص على أن يوحى إلينا بأن مهمته فى تأهيل الرئيس الجديد بالعسكرية كانت صعبة وعسيرة من وجهة نظره • النتيجة الحتمية أن ينساق الفريق فوزى دون أن يدرى إلى تصديق تمثيليات السادات وأساليبه الطريفة فى الالتفاف من أجل الحصول على المعلومات بطريقة كوميدية، ولو كان الفريق فوزى صادقاً فى كل ما يرويه فيها، فلقد كان من الأفضل له ألا يكتب مذكراته هذه بنفسه • أبدى القائد الأعلى رغبته فى ارتداء الزى العسكرى، وعندما أجبت أن هذه الرغبة من حق سيادته، خاصة وسط أفراد القوات المسلحة فى الجبهة، رد الرئيس السادات وقال لى: «بشرط واحد، وهو أن تكون علامة الرتبة التى أضعها أقل من رتبتك العسكرية» • حين تتاح الفرصة للفريق فوزى للحديث عن عموميات شخصية الرئيس السادات، فإننا نراه حريصاً على إبراز الصفات الصغرى من أخلاق السادات دون أن يعنى بإبراز الصفات الكبرى التى كانت تستلزم وجود هذه الصفات الصغرى • الحديث عن بعض صفات أشاعها ناقدو السادات السابقون، ولكن فوزى بحكم عسكريته يقدمها بطريقة كوميدية تفقدها قدرتها على النيل من السادات • مدى ضعف الوعى السياسى للفريق فوزى الذى يظن أن مؤسسات الاتحاد الاشتراكى هى التى أوصلت السادات إلى الرئاسة، ولو كانت أجهزة الاتحاد الاشتراكى قادرة على أن توصل شخصا ما للرئاسة لأوصلت على صبرى لا السادات • يعترف بنجاح السادات فى خططه الذكية لتقديم نفسه إلى رجال القوات المسلحة

• يوحى الفريق فوزى لنا فى هذه المذكرات أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يلتقى بقواتنا المسلحة لقاءات يعول عليها فيما قبل حرب الاستنزاف • رواية فوزى فى رأيى لا تنصف عبد الناصر بما يستحقه، إنما تشير إلى نشاط أكثر فاعلية قام به السادات على الرغم من أن فوزى لم يقصد إبراز هذا المعنى حين كتب مذكراته • كان عليه هو وليس غيره أن يتنبه إلى فقدان الرئيس الثقة فيه • بعض آراء الفريق فوزى فى زملائه من الوزراء والسياسيين وخلفائه • يبدو لنا أن الفريق فوزى يتجنى على الفريق صادق حين يصوره وكأنه استغل الموقف ضد فوزى بينما كان فوزى قد فعل ما فعل بالفعل. • صادق كان يجاهر بانتقاد اللقاءات التى يعقدها الفريق فوزى مع قيادات القوات المسلحة وكان يرى فى هذا الأسلوب خروجا على حياد القوات المسلحة • ينتقد خلفه فيما أدلى به ذات مرة من رأى حول عدم شرعية اللقاءات التى كان يعقدها بالقوات المسلحة • حديثه عن سعد الشاذلى : لايجد القارئ فى المذكرات العسكرية المتاحة تقليلا من قدره على نحو ما يجده بكل وضوح وصراحة فى مذكرات الفريق فوزى • رئيس المحكمة العسكرية التى تولت محاكمته وهو اللواء عبدالقادر حسن قد نال ترقية إلى رتبة الفريق • فى أغلب آرائه التى يبديها فى زملائه الوزراء يبدو متأثراً كل التأثر بموقفهم منه فى ١٥ مايو ١٩٧١، يحظى عزيز صدقى بانتقادات صريحة ومباشرة وخاصة فيما يتعلق بما لعبه من دور فى حركة ١٤ مايو ١٩٧١ • حديثه عن دور نبيل لمحمود رياض تجاهه • وتنفرد هذه المذكرات برواية غريبة عن واقعة حدثت فعلاً وهى حصول السادات على رتبة القائمقام عندما حل الدور عليه للترقية إليها بعد قيام الثورة مباشرة • الجانب الإنسانى فى شخصيته • حديثه المجمل عن الفارق بين المواضع الأربعة التى تم اعتقاله وسجنه فيها، • جاء الفرج من عند الله بإسقاط باقى العقوبة يوم ٢٧ يناير ١٩٧٤• يتأمل بمشاعر الإنسان الناضج محنته فيما بين السجن والعفو • يحاول الفريق فوزى ـ دون جدوى ودون مبرر ـ أن يصور لنا أن الرئيس السادات كان بمثابة المتهم المدان أمام المحكمة • يبدو الفريق فوزى وكأنه كان يتمنى لو شارك السادات مسئولية الحكم حتى النهاية وحتى تحقق النصر على أيديهما معا، بدلاً من أن يتحقق، وهو خلف قضبان السجن.

الباب الخامس: مذكرات الفريق صلاح الحديدى عن محاكمة الطيران ٥٣٧

• التعريف بالفريق الحديدى • الإشارة إلى كتابين آخرين ومدارسة المؤلف لهما فى كتاب الطريق إلى النكسة • موضوعية الفريق صلاح الحديدى • يروى أن الفريق محمد فوزى طلب منه تأجيل إعلان أحكام الطيران حتى تعلن فى نفس اليوم الذى تعلن فيه أحكام الجيش • لماذا بدت أحكامه مخففة؟ • رأى المؤلف: الشحن المعنوى ضد القوات الجوية كان عاليا إلى درجة أنه كان كفيلا بتفجير الغضب العارم على موضوعية أحكام الطيران • يعترف بأنه كقاض أعطى بعض العذر للفريق صدقى محمود فى عدم قيامه بتشييد مخابئ للطائرات • استدعى فى المحكمة المسئول عن ميزانية القوات الجوية «كشاهد» فشهد لصالح الفريق صدقى محمود • تفاهة المبالغ المرصودة لتشييد ملاجئ الطائرات • الفريق صدقى محمود لم يُدَنْ إلا فى اتهام واحد من الاتهامات الخمسة التى قدم بها إلى المحكمة • خطأ الفريق صدقى محمود فى تقديره غير الدقيق لخسائر مصر وخسائر العدو إذا ما اندلعت الحرب • ماذا كان ينقص القوات الجوية والدفاع الجوى فى حرب ١٩٦٧؟ • لم يحدث تدخل من القيادة السياسية أو العسكرية فى عمل المحكمة • الفريق فوزى يوافق على أن تكون الأحكام «بالسجن» بدلا من «الأشغال الشاقة» • الفريق جمال عفيفى يقول للمحكمة: «احمد وا ربنا أننى كنت غائبا» وبرر هذا بأن الضابط الذى كان يليه فى سلم القيادة قد تصرف بما لم يكن هو قادراً على التصرف به، بسبب حداثة عهده بالقوات الجوية بعد غيابه عنها فترة طويلة • يروى محاولة محامى اللواء إسماعيل لبيب تنجيته من الاتهام الموجه له بادعاء أن الفريق صدقى محمود لم يبلغه بتعليمات الرئيس عبدالناصر • اعتراف إسماعيل لبيب أن صدقى أبلغه بما قال الرئيس • معاناة الفريق صلاح الحديدى معاناة شديدة من المظاهرات المنظمة التى خرجت تندد بالأحكام التى أصدرها، يذكر أنه وصل إلى درجات متقدمة من الإحباط والاكتئاب والمرض وأحس أنه فى ناحية، والشعب فى ناحية!!، واعتقاده أنه أصبح «عدو الشعب» • هل كان الشعب يريد الموت لصدقى محمود؟ • الفريق فوزى يكلمنى فى وسط المظاهرات ويقول: «شفت أحكامك عملت إيه؟» فقلت له: «أحكامى أنت تعرفها، لقد قلتها لك، ثم إنه ليست هناك مظاهرة فى مصر تقوم وحدها، لابد أن هناك مَنْ هو وراء قيامها • الفريق فوزى يلغى المحاكمة ويقول إن أحكامها كأنها لم تكن، لأنه لم يصدق عليها • المحكمة الجديدة تقضى ببراءة قائدين سبق الحكم ببراءتهما فى المحاكمة الأولى.

فى أعقاب النكسة

قبل أن أبدأ هذه المقدمة أود أن أعبر عن امتنانى العميق وشكرى الفائق للكاتب الكبير أنيس منصور، على ما تكرم به من إسباغ فضله مرة بعد أخرى على مجموعة الكتب التى صدرت تباعًا فى هذه السلسلة ويشرفنى أن أعترف أنه لولا كلماته المشجعة ومواقفه الآسرة، ما كنت قد مضيت فى إتمام مجموعة الكتب هذه على النحو الذى وفقنى الله إليه.

يضم هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة من المدارسات لمجموعة من المذكرات تعنى فى المقام الأول بالحديث عن معقبات الهزيمة التى أصيبت بها أمتنا العربية على يد قياداتنا المصرية فى ٥ يونيو ١٩٦٧، وهى الهزيمة التى لا نزال حتى لحظتنا هذه نعانى آثارها ولا نستطيع أن نزيل هذه الآثار.

ويبدو لى أن القارئ سيخرج من قراءة هذه المذكرات بانطباع جديد ربما لم يصل إليه من قبل، وهو أن معالجتنا للهزيمة ـ فى الشهور الأولى التى أعقبت حدوثها ـ قد أدت إلى هزيمة أخرى، وإلى تعميق الهزيمة نفسها، مع أنه كان من الممكن أن ندرك بروح رياضية أو بروح عسكرية أو بالفكر أو بالعقل أو بالمنطق أن الهزيمة قد وقعت وأن علينا أن نعالج الأمر على ضوء حدوث الهزيمة بالفعل.

لكننا للأسف الشديد وعلى نحو ما ترينا هذه المذكرات بدأنا نحاول على أكثر من صعيد، بل على كل الأصعدة الممكنة أن نتغلب على الهزيمة بأن ننفى حدوثها، بل وأن نصطنع نصرا زائفا نحاول أن نجعله بديلا عن الهزيمة.

وهكذا فإننا بإجرام وفجر إعلامى لا مثيل له بدأنا نصور استمساك الشعب بقيادته على أنه انتصار للنظام ببقائه، على حين كان الهدف سقوطه، مع أن النظام قد سقط بالفعل وإن بقيت بعض رموزه.

وفضلا عن هذا، فإننا بدأنا بالبحث عن كبش فداء لتحميله مسئولية الهزيمة، وكان لابد من الافتراء البالغ على هذا الكبش وتحميله كل الذنوب والخطايا الممكنة وغير الممكنة، حتى تلك التى لم يكن فى وسعه أن يرتكبها، وكان هذا للأسف الشديد هو موقف القيادة العامة للقوات المسلحة من القوات الجوية.

❑

«فى أعقاب النكسة» هو العنوان الذى يحاول أن يلخص جوهر ما فى هذا الكتاب من ذكريات أصحاب المذكرات عن الأحداث والتفصيلات المختلفة التى أعقبت هزيمة ١٩٦٧، وبقدر ما كانت الهزيمة قاسية، كانت أعقابها قاسية أيضا، وحين يتقدم التاريخ خمسين سنة أخرى بعد السنوات الثلاثين التى مضت، فإن الغالب فى نظرته إلى تلك الفترة أن يعنى المؤرخون بدراسة أهم الأحداث التى أعقبت هزيمة ١٩٦٧، والواقع أن اثنين لا يختلفان على أن الصراع على السلطة هو أبرز الأحداث التى أعقبت الهزيمة، ومن حسن حظ مصر أن رجال قواتها المسلحة ـ فى مجموعهم وفى أغلبية قادتهم المتميزين ـ كانوا من الوعى والنضج والرشد والكمال والوطنية بحيث انحازوا فى أربع مرات على الأقل إلى الشرعية وكرسوها رغم كل ما كان متوافرا مما يغرى بالخروج عن هذه الشرعية وإنشاء شرعية جديدة.

ومن الإنصاف أن نعترف أن الصراع على السلطة ظل يتجدد لما يقرب من خمس سنوات أعقبت وقوع الهزيمة فى ٥ يونيو ١٩٦٧، ومع أن صوت هذا الصراع لم يكن عاليا فى كثير من الأحيان، فإنه كان مسموعا بما فيه الكفاية للذين يعنون بأن يدركوا وجوده من عدمه، كما كان مسموعا بما فيه الكفاية أيضا لكل الذين يدرسون حركة التاريخ مستعينين بوسائل قادرة على اكتشاف حركة التاريخ أو صوته.

وربما تبدو عباراتى هذه منشئة لفكرة جديدة لم يتناولها أحد من قبلى، ومع هذا فإنى لا أستطيع الزعم أنى أنشأت هذه الفكرة من العدم، بل ربما أكون قد كشفت عنها فحسب.

وقد يكون هناك إجماع على أن المحطات الكبرى فى الصراع على السلطة تكاد تتحدد بما حدث من الصراع المبكر (المعلن) بين الرئيس جمال عبد الناصر من ناحية، ومجموعة عبدالحكيم عامر من ناحية أخرى، وما تطور إليه هذا الصراع من حصار للقوات المؤيدة لعبدالحكيم عامر فى بيته، ثم نقل عبدالحكيم عامر نفسه إلى استراحة الهرم فانتحاره.. ثم ما حدث من صراع غير مكتوم فى مايو ١٩٧١ بين الرئيس السادات من ناحية، وبين مجموعة محمد فوزى من ناحية أخرى.

ومع هذا الإجماع على هاتين المحطتين الكبيرتين يبدو لى أنه كانت هناك محطات أخرى لا تقل أهمية عنهما، وفى تصورى أن المحطة النهائية فى الصراع - على سبيل المثال - وهى التى حدثت فى أكتوبر ١٩٧٢، لا تقل أهمية فى مضمونها ولا فى نتائجها عن المحطتين الأوليين، وقد تبلور هذا الصراع بأوضح ما يمكن من تبلور فى أكتوبر ١٩٧٢، وأعلن عنه بوضوح شديد ما دار فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى بيت الرئيس على منضدة الطعام الخاصة ببيت الرئيس، ومن الواضح للذين يقرأون التاريخ ويقرأون ما توافر للتاريخ عن محضر هذا الاجتماع، أن الصراع الفكرى والاستراتيجى الذى عبرت عنه كلمات القادة كان بمثابة قمة الصراعات التى نتجت عن هزيمة ١٩٦٧، ذلك أن هذا الصراع شمل بكل وضوح رؤيتين متناقضتين تماما لدور القوات المسلحة فى وضع استراتيجية الدولة، وفى إدارة الصراع السياسى والاستراتيجى للدولة التى أصبحت وباتت تعانى الآثار الممتدة لهزيمة ١٩٦٧.

ولست أستطيع أن أصور طبيعة هذا الصراع وحدوده ومفرداته وجوانبه ووجهات نظر المتصارعين فيه بأفضل من أن أنتقل بالقارئ - مؤقتا - إلى المرحلة التى تلت حسم هذا الصراع مباشرة. ففى هذه المرحلة جملة واحدة تلخص كل هذا الصراع.

وربما يعجب القارئ لهذه المبالغة فى الاعتماد على جملة واحدة لتلخيص الصراع الذى استمر وامتد وازدهر طيلة خمس سنوات، ولكن التاريخ نفسه علمنا أن الصراع لا يدور إلا حول كلمة أو كلمتين، ولا يمكن أن يوصف وصفا صادقا إلا فى كلمة أو كلمتين، وإلا فإنه يكون اختلافا فى وجهات النظر فحسب ، ولا يرقى إلى درجة الصراع.

أما الجملة التى تلخص الصراع الذى استمر طيلة الفترة من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٢ فإنها فى ذات الوقت ومن حسن حظنا تمثل نهاية لهذا الصراع، وهى منسوبة إلى القائد العسكرى العظيم الفريق أحمد إسماعيل بعدما عين قائدا عاما ووزيرا للحربية، ثم اجتمع بجنوده وضباطه فقال: «إن للقوات المسلحة واجبا وواجبا واحدا فقط، هو أن تؤمر بالقتال فتقاتل».

بهذه الجملة البسيطة العبقرية عبر هذا القائد العظيم «أيا كان اسمه» عن نهاية مرحلة طويلة استمرت أكثر من عشرين عاما من عمر الثورة (يوليو ١٩٥٢ ـ أكتوبر ١٩٧٢) حين أُقحمت القوات المسلحة فى السياسة وظل إقحامها بإرادتها وبغير إرادتها يستمر ويتطور، تارة من أجل إصلاح السياسة، وتارة من أجل تأييد السياسة، وتارة من أجل الحفاظ على السياسة، وتارة أخرى من أجل الحفاظ على وجود أصحاب السياسة، وتارة أخرى من أجل تغيير السياسة، وأخرى من أجل فرضها، وأخرى من أجل تبديلها.. وهكذا وهكذا.

على أن الأمر الأكثر خطورة من هذا الإقحام كان قد بدأ يتمثل فى الواقع فى كل ما حدث فى المرحلة الأخيرة من عهد الرئيس عبدالناصر والمرحلة الأولى من عهد الرئيس السادات، وهى المرحلة التى يتناولها هذا الكتاب وربما حدث هذا تحت وطأة المحنة القاسية التى تعرض لها وطننا العظيم، وربما حدث هذا بحسن نية حين أصبح القائد العام للقوات المسلحة يفكر فى الوسائل الكفيلة بتحقيق الاستراتيجية ويرى فى نفسه (سواء فى ذلك المشير عامر أو الفريق فوزى أو الفريق صادق) القدرة على الوصول إلى قرار آخر أكثر صوابا من قرار رئيس الدولة.

وليس بإمكاننا أن نحكم على تصور أى من القادة العموميين الثلاثة بالخطأ البين،

لكن من المؤكد أن هذا التصور كان يفتقد الصواب، ولست أشك فى أن هؤلاء الثلاثة كانوا يعرفون تمام المعرفة ، ويعلمون تمام العلم مدى المسئولية الدستورية والوطنية لرئيس الدولة ، وحدود هذه المسئولية.

لكن الأمر مع هذا لم يسلم من أن تتضخم التصورات والرؤى الحاكمة للتصرفات إلى الحد الذى دفع الأمور بالفعل إلى حافة النزاع.

ولابد أن نعترف أن فضل الله على مصر كان عظيما، وقد جنبها النزاع كله ، بل وجنبها أن يبدأ النزاع فى المحطات الثلاث الكبرى، ذلك أن الشرر كان على وشك أن يشعل النار فى كل هذه المحطات، بل وفى غيرها مما ليس بمشهور، ومما ليس بمعروف من باب أولى.

❑

وبهذه الجملة العبقرية التى صرح بها أحمد إسماعيل انتهى وبحمد الله وللأبد التحرك المحتمل لكل نار تحت الهشيم.

ومن الإنصاف أن نذكر أن أحمد إسماعيل لم يصرح بهذه العبارة من فراغ، ولا هو وصل إلى مدلولها بالمصادفة، وإنما كان ذلك حصاد تجربة امتدت فى ذلك اليوم إلى أربعة وأربعين عاما من ممارسة ذلك القائد للعسكرية فى كل المواقع القيادية وغير القيادية بلا استثناء، ومع أن أحدا غيرى لا يرتفع بأداء هذا الرجل إلى ما ارتفع إليه من تقدير، فإنى واثق من أن مضى السنوات واتضاح الحقائق سيدفع الكثيرين دفعا إلى تبنى وجهة نظرى ، والارتفاع بمضمونها فوق أية وجهة نظر أخرى.

ومن الطريف - وإن كان هذا خارجا عن أدلة الموضوع ودعائم الفكرة - أن أحمد إسماعيل كان هو الضابط المصرى الوحيد الذى مر فى حياته العسكرية كضابط عامل بكل الرتب العسكرية بدءا من الملازم وحتى المشير، حتى إن كل المشيرين الآخرين على سبيل المثال وصلوا إلى المشيرية دون أن يمروا ببعض الرتب الأخرى ، أو حازوا المشيرية من باب التكريم.

❑

وليس معنى هذا أنى أريد أن أقول إن السياسة أمر لا يخص العسكريين، لكنى

أنطلق فى حكمى هذا من منطق علم الإدارة الحديث الذى يعلى إلى أقصى حد من مبدأ تقسيم العمل وهو من أهم المبادئ الحاكمة للنجاح فى إنجاز أى شىء، فما بالنا بإنجاز أكبر عمل يتعلق به مستقبل الوطن، وسأصور القضية للقارئ بما نفعل فى مهنتنا، فأستاذ الأمراض الباطنة فى كلية الطب مع علو مقداره وزيادة علمه لا يمارس العمليات الجراحية، مع أنه هو الذى يتولى تحديدها ووصفها للمريض وتحويلها على الجراح، وكذلك الحال فى أستاذ الجراحة الذى يُعنى بإجراء العمليات الجراحية دون أن يتولى التشخيص وتقدير حالة المريض، وربما لا يحس القراء بالحد الفاصل واضحا وحادا فى المجتمع الطبى المصرى، لكن معظم الذين أجروا جراحات القلب فى كليفيلاند على سبيل المثال على يد جراح القلب الشهير الدكتور «لوب»، لم يروه إلا بعد خروجهم من حجرة العمليات بأيام، وربما لم يره بعضهم على الإطلاق.

وهكذا الحال مع كثير من الجراحين فى أمريكا وأوروبا لأنهم يتولون عملهم «التنفيذى» بناء على تخطيط وتقييم منضبط، وليس الدافع وراء هذا أنه تطبيق جيد لمبدأ تقسيم العمل فحسب، لكنه يحمى النفس البشرية من غوايتها التى لا نفتأ نتحدث عنها حين يظن الناس أن الجراح لا يتوقف عن التوصية بالعملية الجراحية لأنه هو المستفيد الأول من إجرائها، وحين يظنون طبيب التوليد يفرط فى إجراء الجراحات القيصرية لأنها أكثر فائدة له من الولادة الطبيعية.. وهكذا ... وهكذا.

وربما يتضح الأمر بصورة أخرى فى التصميم الهندسى والأعمال الإنشائية، فالمهندس المعمارى يتولى التصميم على حين يتولى المهندس الانشائى مسئولية التنفيذ، ولو أن الأمر ترك لمهندس واحد لكثرت الظنون أنه صمم الرسم مستزيدا من الخامات المكلفة فيه، على حين أن التنفيذ لم يتطلب كل هذه الخامات التى استفاد هو بثمنها على سبيل المثال.

وهذا مثل بسيط لتفكير لا ينتهى فى كل حلقات التنفيذ فى كل مجال من مجالات الحياة.

وهل أفرطت فى الحديث وضرب الأمثال لبيان أهمية الفصل بين أداء القتال

نفسه وبين وضع الاستراتيجية القتالية، لا أظنني أفرطت لأن الأمر يستحق أكثر من هذا، فلا يزال الفكر المصرى المعاصر يعانى آراء مستقرة تتحدث عن إمكان تصرف العسكريين من تلقاء أنفسهم، ويتضخم هذا التفكير بصورة مرعبة عند الحديث عن تطوير الهجوم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ويبدو أن حسن الظن كان حليفا للمشير أحمد إسماعيل، على طول الخط، فها هو قبل الحرب بأيام يصمم تصميما قاطعا على حسب ما رواه غريمه رئيس الأركان الفريق الشاذلى، أن يحصل من القيادة السياسية على توجيه محدد بما هو مطلوب دون أن يترك لنفسه أو لمعاونيه أو للقيادة السياسية أى هامش لحديث تال عن فرصة ضاعت أو أضيعت، وبهذا الإصرار من المشير العظيم على الحصول على هذا التوجيه الاستراتيجى استقر فى تقاليد العسكرية المصرية مبدأ سام لم يعد من الممكن تحت أى ظرف من الظروف التخلى عنه ، ولا الرجوع عنه القهقرى إلى الوراء.

ومن الإنصاف أن نذكر أن الأغلبية الساحقة من قيادات القوات المسلحة كانت على الدوام محلا للثقة فى تطبيق الاستراتيجيات التى عهدت بها إليها الدولة، وحتى فى ١٩٦٧ فإن القوات المسلحة لم تخرج عن استراتيجية الدولة التى تحددت بتلقى الضربة الأولى ثم التصدى لما بعد ذلك، ومع أن أحدا لم يطلب من القوات المسلحة طلبا محددا بعد ذلك فيما عدا الانسحاب ومحاولة الرجوع عن الانسحاب، إلا أن القوات المسلحة لم تترك فرصة من أجل إثبات ذاتها وولائها ووطنيتها وحبها لواجبها إلا أدتها.

❑

وبعد هذا الاستطراد الواجب نعود إلى موضوعنا وهو أعقاب النكسة والصراعات بين القيادتين السياسية والعسكرية، وقد أشرنا إلى المحطتين الرئيسيتين، كما أشرنا إلى المحطة الثالثة التى نزعم أنها كانت أخطر من المحطتين الأوليين، وربما ذكرنا هذا دون أن نسارع بما يجب أن نقوله الآن من أن هذه المحطة شهدت اختلافا بيّنًا بين القائد الأعلى والقائد العام فى الهدف الذى ينبغى أن نحارب من أجله، وفى الوسيلة التى ينبغى أن نسلكها، وفى الخطة التى يمكن أن ننتهجها.

وقد أوردت في كتابي «النصر الوحيد» كل ما هو ممكن عن الاختلافات الجوهرية بين فكر الرئيس السادات وفكر الفريق صادق في كل هذه الجوانب، وعلى سبيل الإشارة ليس إلا، فقد كان الفريق صادق ـ على ما يرويه الفريق الشاذلي غريم السادات ـ يظن أنه لابد من تحرير سيناء كلها، وأنه لابد من خطة شاملة، وأنه لابد من توفير كل الإمكانات الكفيلة بتحقيق هذا الهدف وهذه الخطة .

وفي المقابل كان أنور السادات لا يريد من القوات المسلحة أكثر من سنتيمتر واحد شرق القناة يمكنه من التحرك السياسي والدبلوماسي، كما كان يرى ضرورة أن نحارب بما هو متوافر من سلاح وموارد وإمكانات، وأن نضع خططنا على هذا الأساس .

وكان السادات يرى أنه لا مجال في أن يتفاوض مع الاتحاد السوفيتي على إمكانات تتاح لنا مقابل تسهيلات يسمح بها، وكانت هذه نقطة خلافه الجوهرية مع قائد القوات البحرية الفريق محمود عبدالرحمن فهمي، وقد ضرب السادات المنضدة بيده بعصبية كانت كافية لتحطيم الزجاج والمنضدة، لكنها ـ وهذا هو الأهم ـ نبهت جميع القادة يومها إلى مدى خطورة أنماط «عملية» أو «واقعية» من التفكير، ومع أن الذين رووا الواقعة لم يستوعبوها بالقدر المكافئ لخطورتها ولخطورة طرفيها، فإن حسن حظ التاريخ أن اللواء عبدالمنعم خليل سجل الوقائع كاملة،كما أن الجمسي والشاذلي سجلا الإشارات الكافية إلى أن تدلنا على حقيقة ماحدث.

وأحب ألا أترك هذه المقدمة من دون أن أشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن قواتنا المسلحة لم تخطط لمعركة هجومية ضد إسرائيل قبل تلك الخطة التي نفذتها في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وليس للادعاءات القائلة بوجود خطة للحرب قبل وفاة الرئيس عبدالناصر أي نصيب من الصحة، وليس في هذا ظلم لعبدالناصر ولاتحيز ضده، لأن هذا هو الواقع بالفعل، ومن الإنصاف أن نذكر أن أحدا من الذين كتبوا تاريخ هذه الفترة (باستثناء الفريق فوزي) لم يشر من بعيد ولا من قريب إلى اعتزام عبدالناصر الهجوم على إسرائيل، صحيح أنه كانت هناك خطط دفاعية متميزة، وأنه كانت هناك جهود محمومة من أجل إعادة بناء القوات المسلحة وتأهيلها للمعركة

القادمة، وكانت هناك أيضا جهود محمومة من أجل تطوير هذه القوات وإمكاناتها وحائط الصواريخ وما إلى ذلك، لكن كل هذا شيء، وإعداد خطة هجومية شيء آخر.

أما أقوال الفريق فوزى فتمثل صورة من صور الخداع البصرى حين يتحدث عن طلبه من السادات بدء المعركة، بينما كان يقصد على نحو ما أوضحت مذكرات الفريق صادق استئناف حرب الاستنزاف فحسب، وليس استئناف حرب الاستنزاف بمعركة هجومية، ولا هو بالعمل الذى يقارن من أى وجه من الوجوه بما حدث فى ٦ أكتوبر المجيد.

❑

ومن الإنصاف أن نذكر أن فكرة الرئيس السادات العبقرية فى شن حرب هجومية محدودة لم تأت بسهولة، ويكفى للتدليل على هذا أن أحدا غيره لم يدع إليها، ولم يفكر فيها، ولم يجاهر بها قبله، بل إن أحد زملائه الباقين فى الحكم من أعضاء مجلس قيادة الثورة كان ـ وله العذر فى هذا ـ من أنصار القبول بحل سلمى قبل أن تتجمد الأمور، وربما ساعدت الرئيس السادات على الوصول إلى هذه الفكرة العبقرية عدة عوامل مهمة تمتعت بها شخصيته السياسية المكافحة الدءوبة، فضلا عن ذكائه ودهائه وقدرته على الوصول إلى الحلول الكفيلة بكسر الجمود، والنفاذ إلى أوضاع جديدة.. لكن الذى ينبغى لنا ألا نغفله هو الدور الذى لعبه قادة قواتنا المسلحة فى تشكيل فكر الرئيس السادات تجاه المواجهة مع العدو الأمريكى ـ الإسرائيلى، سواء فى هذا قبل أن يتولى السادات الحكم أو بعد أن تولاه، ولايمكن حصر هؤلاء القادة الذين تحدثوا إلى السادات وتحدث إليهم فى شأن المعركة، وإن كانت حواراته مع بعضهم معروفة ومشهورة حتى من قبل نصر ١٩٧٣ بكثير.

فقد وصل ـ على سبيل المثال ـ من حواره مع عبدالمنعم رياض، وهو زميل دفعته، إلى أنه ما لم يخض الجيش حربا حقيقية فإن الشرف المصرى سيضيع خمسين عاما على الأقل، كما وصل من حواره مع كمال حسن على عقب الحرب مباشرة [وكان كمال حسن على بمثابة صاحب أكبر رتبة مصابة تتلقى العلاج فى مستشفى المعادى

عقب ٥ يونيو] إلى جوهر الحقيقة التى جعلها السادات بعد هذا وبصياغة جميلة بمثابة أحد الأقوال المأثورة فى تاريخ القوات المسلحة، وهو أن هذه القوات كانت ضحية من ضحايا حرب ١٩٦٧، ولم تكن سببا من أسبابها، وكان السادات فى حقيقة الأمر واعيا لفن إدارة المواجهة على المدى الطويل، وقد روى عبدالمنعم خليل فى مذكراته على نحو ما رأينا فى الباب الرابع من كتاب «النصر الوحيد»، كيف نبه السادات (قبل أن يتولى الرئاسة) سائليه من أبنائه الضباط والجنود إلى مخاطر الشحن المتكرر للشعب من أجل المعركة.. وهكذا..... وهكذا.

والحاصل هو أن هذا كله كان يصب فى صالح بلورة استراتيجية واضحة ومحددة احتشد لها السادات بكل طاقاته.. ومن العجيب أن وضوح رؤية السادات تجاه المعركة كان ظاهرا جدا منذ مرحلة مبكرة، فقد أعلن فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية فى ١٩أكتوبر ١٩٧٠ ـ أى عقب انتخابه مباشرة ـ مبدأه القائل بأنه يطلب من القوات المسلحة تحرير عشرة سنتيمترات شرق القناة ثم يتولى هو ما يلى ذلك بالحلول السياسية، ولولا أن وسائل الإعلام لم تكن فى ذلك الوقت بنفس الكثافة التى هى عليها الآن، لكانت خطة السادات هذه واستراتيجيته قد تعرضت لأكبر قدر من التعليق والدراسة وربما بعض السخرية على مستوى العالم كله..

❑

ومن نعم الأقدار على تاريخنا الوطنى أن الرئيس السادات كان إلى ذلك الحين حريصا كل الحرص على المضى فى الانتفاع بكل أصحاب الآراء مهما اختلفوا معه بالرأى، لهذا فإن من الإنصاف أن نذكر أن السادات نفسه استوزر محمود عبدالرحمن فهمى فى أبريل ١٩٧٥ وزيرا للنقل البحرى، وهو نفسه الذى أخرج قائد القوات البحرية محمود عبدالرحمن فهمى من منصبه كقائد للقوات البحرية فى أكتوبر ١٩٧٢ بالمواكبة مع خروج الفريق أول محمد صادق من وزارة الحربية .

ولولا أن واقعة انقلاب (أو تمرد) بقيادة اللواء على عبدالخبير قد وقعت بالمواكبة لخروج الفريق صادق، لكان السادات قد وضع الفريق صادق هو الآخر فى موقع من

مواقع المسئولية من باب الحرص الذى كان يميزه ـ فى أول عهده ـ على أن تكون النخبة الحاكمة فى عهده متمتعة بأقصى قدر من الاستيعابية.

❑

هل لابد لنا أن نشير الآن إلى ما قادنا الاستطراد إليه بذكر محاولة انقلاب على عبدالخبير، والمحاولات الشبيهة بها منذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٢، ربما أكون متجاوزا حدودى إذا أنا زعمت أن بوسعى أن أتعرض لها، وربما أكون متعديا على حقائق التاريخ إذا أنا حصرت الشائعات والأراجيف ورتبتها على صورة تاريخية أو"كرونولوجية" على أقل تقدير، ولكننى مع هذا لا أستطيع أن أسامح نفسى إذا أنا لم أشر إلى بعض المحطات الأخرى فى الصراع على السلطة.

فعلى سبيل المثال كانت هناك (والعهدة فى الرواية على الفريق صادق) محاولة لم تكتمل من الفريق فوزى نفسه فى ذات الليلة التى انتقل فيها الرئيس عبدالناصر إلى رحمة الله، وقد رأى القائد العام فى تلك الليلة ، بل قرر على حد رواية الفريق صادق ، أن يسند قيادة ثلاثة ألوية مدرعة متمركزة فى العاصمة (المنطقة المركزية بلغة القوات المسلحة) إلى ثلاثة ضباط من هيئة مكتبه هو، وقد اضطر الفريق صادق إلى أن يستعين على الفريق فوزى بسامى شرف حتى يعيد الأمور إلى ما كانت عليه أو إلى نصابها على نحو ما كان رئيس الأركان يعتقد فى هذا الصدد.

وقبل هذا بأكثر من ثلاث سنوات فإن الصحف الإنجليزية كانت قد نشرت أن انقلابا قد وقع ونصب الفريق أول مرتجى رئيسا للجمهورية، وقد روى الفريق مرتجى نفسه قصة هذا الخبر، وما ترتب عليه من استدعائه بلا مبرر وبأقصى سرعة إلى القيادة العامة.

بل إن ما نسب إلى مجموعة المشير فى الأعقاب المباشرة لهزيمة ١٩٦٧ لم يكن محاولة واحدة ولا محاولتين، وإنما كانت المحاولات ـ فى الواقع ومما توحى به الروايات المختلفة ـ أكثر من هذا بكثير.

ويصل التفكير ببعض المراقبين إلى أن يشير إلى أن ردود الفعل عند قيادة الدولة تجاه أية محاولة للانقلاب أو التمرد العسكرى كانت تتحدى المعقول، وعلى سبيل

المثال فإن الأستاذ عبده مباشر يقدم فى إحدى مقالاته بالأهرام تفسيرا فى غاية الأهمية لما تعرضت له الفرقة الرابعة المدرعة من تدمير حين طلب إليها العودة إلى سيناء لتتصدى للعدو على حين كانت قد انسحبت هى وغيرها من الفرق والقوات المصرية، ولم يكن لهذا الأمر (الذى هو فى ظاهره غير مدروس وغير معقول) من نتيجة إلا أن الفرقة دمرت تماما، وقد قدم قائدها اللواء صدقى الغول للمحاكمة.. ويفسر عبده مباشر كل هذا الذى حدث بالحظ السيئ الذى جعل بعضا من أفراد هذه الفرقة يستريحون بدباباتهم فى ظلال قصر الطاهرة، مما أعطى إيحاء بمحاولتهم التمهيد لانقلاب أو تمرد عسكرى فى هذا الإطار، وكانت النتيجة أن اقتراب بعض أفراد فرقة بطريق الخطأ من قدس الأقداس كان بمثابة السبب المباشر لتدمير الفرقة تماما ثم لمحاكمة قادتها بعد هذا.

❑

وقد انفرد الفريق الشاذلى فى مذكراته [على نحو ما رأينا فى كتاب «النصر الوحيد»] برواية أكثر من واقعة من الوقائع التى تدور فى إطار التفكير أو التخطيط لانقلاب عسكرى.

كما روى اللواء الدكتور سمير فاضل فى مذكراته تفاصيل مهمة عن تحقيق بعض الوقائع التى أشارت إليها مذكرات الشاذلى، وقد آثر أن يستخدم مصطلحا أكثر دقة وهو مصطلح «التمرد العسكرى».

❑

وفى جميع الأحوال فقد نجانا الله بفضله وحده من كل المعقبات الخطرة التى كان يمكن أن تتولد عن أى صراع أو تمرد أو انقلاب عسكرى. وقد أجرى الله هذا الفضل على يد أبناء القوات المسلحة أنفسهم على نحو ما اعترفنا فى بداية هذه المقدمة، ومن ثم فإنه يمكن لنا الآن أن ننبه إلى أن أعقاب النكسة لم تكن مجرد صراعات عسكرية موءودة فحسب، فوأد هذه التمردات لم يكن (ولن يكون بالطبع) كافيا لتحقيق انتصار بحجم هذا الذى رزقنا به الله سبحانه وتعالى فى أكتوبر ١٩٧٣.

ومن البدهى أن يختص كتابنا «النصر الوحيد» بالحديث المفصل عن كل المقومات والجهود التى قادتنا إلى هذا النصر، لكن الإنصاف يقتضينا بالطبع أن نركز على كل المحاولات التى سبقت وضع أقدامنا على طريق النصر، وظنى، وأظننى محقا فى هذا الظن، أننا لم نضع أقدامنا على طريق النصر إلا بعد تجارب مثمرة خضناها فى أعقاب النكسة، وظنى أيضا أن هذا الكتاب يقدم فرصة ذهبية للحديث المستفيض والأمين عن كل هذه المحاولات بما فيها من مجد الجهاد، وشجاعة الاجتهاد، ونبل المقاصد، وقبل كل هذا وذاك السعى إلى الاستشهاد.

ومن الطبيعى أن يكون هناك مَنْ هو على صواب ومَنْ هو على خطأ، وأن يكون هناك المصيب الذى يظن نفسه مصيبا، والمخطئ الذى يظن نفسه هو الآخر مصيبا، مع أنه لا يتمتع بأى قدر من الصواب.

ومن الإنصاف أن أعترف فى هذه المقدمة بأن المخطئ من بين مَنْ أتحدث عنهم لم يكن هو المسئول الأول عن الوقوع فى الخطأ، وإنما كان المخطئ بكل صراحة هو مَنْ وسد الأمر إلى غير أهله.

ولست أظن أن مقام هذه المقدمة هو المقام المناسب للحديث عن أهمية اختيار القيادات والقيادات العسكرية بالذات، لكن سطور كل صفحة من هذا الكتاب ومن كتابىّ السابقين «الطريق إلى النكسة» و«النصر الوحيد» تنطق بكل ما هو ممكن جهارا نهارا، وليلا ونهارا أيضا بما أعتقده فى شأن اختيار القيادة العسكرية .

❑

وفضلا عن هذا فإن استشهاداتى المتعددة من كتابات كل من الفريق صلاح الحديدى والمشير الجمسى توضح هذا المعنى بصورة أكثر إضاءة من كل ما أظننى قادرا على كتابته، ويكفينى فى هذا أن أشير إلى تقييم الفريق الحديدى لاختيار القيادات فى ١٩٦٧ من ناحية ومن ناحية أخرى إلى عبارة المشير الجمسى للمشير أحمد إسماعيل حين سأله: متى تحاربون ياجمسى؟ فأجابه بتلقائية وبساطة: يوم تتعين أنت قائدا عاما، ولم يكن الجمسى مضطرا إلى رواية هذه الواقعة بعد ما ترك هو نفسه الخدمة، وبعدما مات كل من السادات وأحمد إسماعيل بسنوات طوال.

وسنقرأ فى هذا الكتاب مذكرات الرجل الذى قدر له أن يكون المتهم الأول فى قائمة المسئولين عن الهزيمة أو التسبب فيها وهو الفريق محمد صدقى محمود .

وقد ظللت على الدوام أعتقد أن فى محاكمة الفريق محمد صدقى محمود سرا لم يذع أو أسرارا لن تذاع، ذلك أن المنطق لا يستقيم عند رواية ما حدث منه قبل الحرب، وما حوكم من أجله، فقد كان هو بالذات ودون غيره الذى حذر فى مواجهة الرئيس القائد الأعلى من خطورة تلقى الضربة الجوية الأولى، ومع هذا حوكم.

وقد حاولت أن أجد فى نصوص أحاديث الفريق محمد صدقى محمود ما يحل هذا الإشكال فلم أجد أبدا خيطا يقودنى إلى نظرية أو تفسير، وظللت على هذا الحال حتى فوجئت فى ذكرى ٥ يونيو الثانية والثلاثين فى ١٩٩٩ بمقال للأستاذ فكرى مكرم عبيد يتحدث فيه عن « عظمة المحاماة » وفيه فقرة فى غاية الخطورة والأهمية عن مشاركته فى هيئة الدفاع عن الفريق محمد صدقى محمود باعتباره صديقه وزميل صباه .

وقد صرح فكرى مكرم عبيد فى هذه الفقرة بما لم يصرح به أحد قبله ولا صدقى محمود نفسه، وليس من سبيل إلى تجريح ما رواه فكرى مكرم عبيد فى هذا الشأن، فهو يروى ما يرويه كمحام ليس عليه (ولا له) أى تثريب فى القضية العسكرية نفسها، وربما كان مكرم عبيد فى ذلك الوقت بعيدا تماما حتى عن القضايا المدنية بحكم تخصصه المبكر وانصرافه إلى القضايا المتعلقة بالقانون الدولى، ولولا صداقته للمتهم (صدقى محمود) ما ذهب إلى هذه المحكمة، وقد كان من المنطقى جدا بل من البدهى أن يسأل المحامى (فكرى) صديقه المتهم (صدقى) عن السبب الذى دفعه إلى أن يسجل على نفسه هذا الاعتراف.. ويالهول الإجابة كما سنقرأها وخلاصتها أن هذا الاعتراف الذى أدلى به الفريق صدقى محمود كان الثمن لإنقاذ رقبته من حكم الاعدام ... ومع هذا فالوقائع تشير إلى أن الرواية حقيقية، فضلا عن أنها منطقية بمنطق تلك الأيام. وهكذا استراح عقلى عندما فهمت السر الذى فتح لى مغاليق التناقض فى القصة.

ومن المذهل أن القائد العام الجديد الذى أمر بتشكيل المحكمة لمحاكمة قادة

الطيران، كان هو نفسه من أوائل المسئولين عن الهزيمة باعتباره رئيسا للأركان قبل الحرب وفى أثنائها، لكن الأقدار الساخرة جعلت رئيس الأركان قائدا عاما يأمر بمحاكمة قائد الطيران.

وسنقرأ فى هذا الكتاب مذكرات هذين الرجلين عن هذه الفترة.

❑

وسيتاح لنا أيضا فى هذ ا الكتاب أن نطالع قطاعا ثالثا من مذكرات الفريق صلاح الحديدى وهو الرجل الذى قدر له أن يرأس المحكمة التى تولت محاكمة المتهمين المسئولين عن الهزيمة.

وقد تدارسنا فى كتابنا « الطريق إلى النكسة» كتابيه عن «حرب اليمن » و«حرب ١٩٦٧» مع أنه كان يود لو استمر فى موقعه بحيث يصبح قائد المنطقة العسكرية التى وقعت فيها المعركة بالفعل وكان قائدا لها حتى ١٩٦٦، أى حتى ما قبل المعركة بأشهر، وسنقرأ ملخصا لبعض المداولات التى دارت والدوافع التى دفعت بالمحكمة إلى أن تحكم بما حكمت به من تبرئة المتهمين الثانى والثالث تماماً، بل ومن تبرئة المتهم الأول من أربعة اتهامات من الاتهامات الخمسة التى وجهت إليه.

سنقرأ إذن فى هذا الكتاب مذكرات الفريق أول الذى حوكم ، والفريق الذى ترأس هيئة محاكمته، والفريق أول الذى أمر بهذه المحاكمة وبإعادتها بعدما صدرت أحكامها غير كافية لشفاء غليل الشعب.

❑

وسنقرأ فى هذا الكتاب أيضا مذكرات الفريق أول محمد أحمد صادق مدير المخابرات الحربية فيما قبل حرب ١٩٦٧، وهو الذى يلقى كثيرون على عاتقه [كما رأينا فى أكثر من باب من كتابنا: «الطريق إلى النكسة»] جزءا كبيرا من المسئولية عن الهزيمة حين لم تتح المخابرات الحربية للقوات المسلحة والقوات الجوية على وجه الخصوص التقديرات الصائبة عن قوات العدو وإمكاناته وتحركاته.

وسنراه فى مذكراته يجاهر بالنقيض وإن اعترف ببعض الثغرات، كما سنراه يشير

إلى أن تقارير المخابرات الحربية عن الحرب وعن الفترة التى سبقتها لاتزال محفوظة، ومن الطريف أن الفريق أول مرتجى قد درس كل هذه التقارير وقيمها وقدر وجه الصواب والتراخى فيها فى مذكراته التى كتبها عن حرب ١٩٦٧ . وقد عرضنا هذا كله فى مدارستنا لمذكرات الفريق مرتجى فى كتابنا «الطريق إلى النكسة».

ومن العجيب أن مدير المخابرات الحربية ظل محتفظا بمنصبه بعد النكسة حتى تولى هو نفسه رئاسة الأركان فى سبتمبر ١٩٦٩، ثم تولى وزارة الحربية والقيادة العامة للقوات المسلحة فى مايو ١٩٧١ وحتى أكتوبر ١٩٧٢، وسنراه حريصاً على الانتقام قدر ما يستطيع من سلفه الذى عمل تحت رئاسته رئيساً للأركان إلى حد أن يجعله المسئول الأول عن الهزيمة ، وهو ما لم يقل به أحد غيره، حتى مع تأكيدنا وتأكيد الآخرين على مسئوليته الكبرى .

❑

على أن الأهم من هذا كله أننا سنتدارس فى هذه المذكرات مذكرات قائد فريد ومتميز نجاه الله من أن يكون مسئولاً عن الهزيمة أو مشاركا فى صنعها، بل وأكرمه الله بأن أبعده عن القوات المسلحة كلها فيما قبل الهزيمة، بل أتاح له القدر أن ينبه ويحذر بصوت عال من إقدام مصر على الهزيمة حين رأى وهو محافظ لأسوان ملامح السياسة النكراء التى كانت بلاده مندفعة إلى تبنيها، فنبه فى الحال، وكان رأيه يبدو نشازاً فيما بين الآراء العازفة لسيمفونية « التهويشة».

ثم أتيح لهذا القائد العظيم الفذ بعد هذا أن يستدعى ليقود القوات الجوية فإذا هو فى غضون أربعين يوماً يسجل بهذه القوات انتصارات ساحقة على العدو المتغطرس وإذا هذه الانتصارات تدفع بالعدو نفسه إلى طلب وقف إطلاق النار، ليس هذا فحسب، لكنه ينجح خلال مائة وثلاثين يوماً [كانت هى كل الفترة التى قضاها فى قيادة القوات الجوية] فى أن يعيد بناء هذه القوات وأن يؤهلها بما ظلت تطلبه من إمكانات أو موازنات طوال أحد عشر عاماً دون إجابة، فإذا هو حازم حاسم مصمم على أن يفعل الصواب ولا شىء غير الصواب.

لهذا فإنه حين يخرج هذا القائد من موقعه لا يلقى من شعبه منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا وإلى الغد، إلا كل التوقير والتبجيل والحب، بل والتقديس.

وسترينا مذكرات هذا القائد الذى لم يعرف طعم الهزيمة، ولم يعرف إلا النصر والعزة والجدية والصرامة والكرامة واليقظة، وجهاً آخر من وجوه العسكرية المصرية المتميزة التى قادت فى النهاية خطوات شعبها وأمتها العربية إلى النصر العظيم الباهر الذى تحقق فى أكتوبر ١٩٧٣.

❏

وربما تصيبنا الدهشة من كثرة التفصيلات والجزئيات التى تحفل بها كثير من النصوص التى تتضمنها المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب، وسنخرج من قراءتنا لهذه التفصيلات بانطباعات متباينة لا تتوقف عند تقدير قيمة الشجاعة والجسارة والجرأة والبطولة، ولا تتوقف عند الإعجاب بقدرة الشخص المتميز على أن يحظى لخططه ولأفكاره بما تستحق وتستأهل من تمويل وتأهيل، وإلا فإن الأولى به أن يترك المخططين يتحملون نتيجة أخطائهم.

وسنعجب ما شاء الله أن نعجب من أن تظل قيادتنا السياسية أسيرة لمشاعر أو انطباعات قديمة تجعلها تحرص على استبقاء المهزومين فى مقاعد القيادة والتضحية بالأبطال المنتصرين وإبعادهم عن هذه المواقع، لكن عجبنا لن يطول حين نرى المهزومين عاجزين عن أن يتحولوا إلى الانتصار ، وحين نرى المنتصرين عاجزين هم أيضاً أن يبقوا تحت سيطرة المهزومين.

وسنرى النصوص التى بين أيدينا وهى تنطق وتوحى بكل السمات المميزة لشخصيات الذين كتبوها، فنرى التواء الاستنتاج مميزاً للذين اشتهر سلوكهم بالالتواء.

كما سنرى المخطئين الذين لا يدركون خطأهم ، وهم لا يزالون لا يدركون الصواب ويصرون على أن يرووا ـ دون أن يدروا ـ أنهم قاموا بالتصرف الخاطئ ... لكنهم ـ مع هذا ـ يظنونه ـ بقدراتهم ـ الصواب.

كما نرى صورة للذين تمكن منهم الاعتقاد الخاطئ وهم يكررون تعبيرهم عن اعتقادهم أولا وثانيا وثالثا، ويجعلون لهذا الاعتقاد المحل الأسمى فى تحليلاتهم ورواياتهم على الرغم من ظهور بطلان ما يعتقدون منذ فترة طويلة .

وبالإضافة إلى هذا نرى صورة للذين يؤثرون التجديف فيما يرونه ويروونه، فإذا هم يسوقون أحكاما لا تمت للمقدمات (فضلا عن المنطق) بأية صلة، وهم يظنون أن من حقهم أن يقولوا ما يشاءون دون أن يتعبوا أنفسهم بالبحث عن دليل ولو مزيف ليؤيدوا به دعاواهم.

وبقدر ما نتعاطف مع الوطن العظيم، وهو يفقد وجود بطل عظيم كمدكور أبو العز في موقع القيادة، بقدر ما نتعاطف أيضا مع هذا الوطن حين كانت قيادته السياسية تستبقى فى مواقع القيادة مرة بعد أخرى قادة مهزومين ومتآمرين.

ويبدو لنا بكل وضوح أن القضاء على الهزيمة والخلاص منها لم يكن ليتحقق بأى حال من الأحوال ما لم يتم التخلص تماما من بقاء رموز هذه الهزيمة فى مواقع القيادة، ومع ما يبدو فى مثل هذا القول من قسوة ظاهرة، فإنى فى واقع الأمر لا أستطيع أن أمنع نفسى من تسجيل هذا الرأى بعد هذه المدارسة الممتدة لتاريخنا مع الهزيمة وتوابعها، ثم مع النصر على مدار كتبى الثلاثة: «الطريق إلى النكسة» ثم «النصر الوحيد» ثم هذا الكتاب : «فى أعقاب النكسة» .

ولست أستطيع أن أنتهى من هذه المقدمة من دون أن أشير إلى خاصية مهمة يختص بها هذا الكتاب عن كل كتبى السابقة التى كانت تتناول بالمدارسة والتحليل والنقد مذكرات منشورة فى كتب، سواء كانت هذه الكتب مشهورة أو غير مشهورة، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا البابان الأول والثالث من كتابى «الطريق إلى النكسة» اللذان اعتمدا على مذكرات الدغيدى والقاضى التى لم تنشر فى كتاب حتى الآن، وإنما نشرت فى صحيفة «الأيام» ومجلة «أكتوبر» ومجلة «آخر ساعة»، ويأتى هذا الكتاب لتعتمد أربعة من أبوابه (هى الأبواب: الأول والثانى والثالث والخامس) على مذكرات لم تنشر حتى الآن فى كتب، على حين يعتمد الباب الرابع وحده على مذكرات الفريق محمد فوزى المنشورة فى كتاب «استراتيجية المصالحة»، وليس من شك فى أن القارئ يقدر تماما مدى المعاناة فى استحضار مذكرات منشورة فى الصحافة، وما يمثله هذا من صعوبة ومشقة فى ظل ما نعرف عن تنامى إهمالنا الشديد فى الحفاظ على الدوريات، فضلا عن صعوبة تصويرها أو استنساخها، ومدى ما هو مطلوب من الباحث من مراجعة للنصوص تكاد ترقى إلى التحقيق.

ولست بمستطيع أن أتجاوز عن الاعتراف بأن مدارسة هذه الكتابات الرائعة على مدى السنوات الماضية قد وسعت من آفاق فكرى، ومن قدراتى على الحكم على الأمور، ومن مقدرتى فى النهاية على الوصول إلى كثير من الأحكام القاطعة فى شأن هذه الفترة الحرجة من تاريخ وطننا الحبيب، فضلا عن أنها زادتنى تعلقاً بحب هذا الوطن وأبنائه من البررة المبرزين وتاريخه الذى هو حلقات متصلة من الجهاد .

أرجو أن ينال هذا الكتاب رضا القارئ والناقد والباحث والدارس، وأن يحظى بالتقييم والنقد والتصويب لما أكون قد وقعت فيه من خطأ أو مجافاة للصواب، سواء فى الاستقراء أو الاستنباط أو الاستنتاج أو التقرير.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى وأن يرزقنى الهدى والتقى والعفاف والغنى .

كما أسأله ـ جل وعلا ـ أن يجعلنى قادراً على الوفاء بحق شكره وحمده .

د.محمد الجوادى

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

فى أعقاب النكسة

1

مذكرات

الفريق مدكور أبو العز

دار الخيّال

(١)

مدكور أبو العز اسم لامع جداً فى السياسة المصرية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وهو فى وجدان الشعب المصرى والعربى أبرز أبطال الفترة ما بين هزيمة يونيو ١٩٦٧ وانتصار أكتوبر ١٩٧٣. فقد قاد المعركة الجوية التى كسرت غرور إسرائيل فى ١٥ يوليو ١٩٦٧ قبل أن تمضى أربعون يوما على هزيمة ١٩٦٧، وانتهت هذه المعركة بأن طلبت إسرائيل وقف إطلاق النار رغم كل الانتصار الذى كانت لاتزال تعيش حلاوته وسعادته وغروره، وقد تبدلت حال القوات الجوية من حال إلى حال على يد هذا البطل الأسطورى الذى لم يتول قيادة هذه القوات إلا مائة وثلاثين يوما على وجه التحديد من ١١ يونيو ١٩٦٧ وحتى ٣١ أكتوبر ١٩٦٧، وعلى الرغم من كل التعتيم الذى سُلط بكثافة على جهده ، فقد كان من الواضح حتى فى شهادة الفريق محمد صدقى محمود القائد السابق لهذه القوات أن جهدا جبارا قد تم فى الفترة التى تولاها مدكور أبو العز.

وقد لقيت القوات الجوية المصرية فى ١٩٦٧ ظلما يفوق احتمال البشر والأمم والتاريخ، ويبدو أنه لولا صلابة هذا الرجل وجسارته وجرأته ما كان من الممكن لهذه

القوات أن تثبت جدارتها بعد كل الظلم الـذى فرض عليها والظلمات الـتى أهيلت عليها.

وقد سجل الخلف الثالث لمدكور أبو العز وهو الـرئيس محمد حسنى مبارك نفسه قيمة الجهد الذى بذل فى هذه الفترة، وكان مـن نتيجته أنه لم يحدث أن طائرة واحدة من طائراتنا أصـيبت فى ١٩٧٣ وهى على الأرض، وهذا فى حد ذاتـه معيار من أدق معايير النجاح فى أداء المهمة بالتخطيط والاستعداد والدراسة، ويصعب أن يصل إلى اتخاذه مثلاً يبلور الـتعبيرعن مدى النجاح فى بناء القوات وتدريـبها إلا على قائد من طراز الرئـيس مبارك الـذى قاد القوات الجـوية نفسهـا فى معركـة النصر المجـيدة فى ١٩٧٣ .

وليست هذه الفترة هى كل أمجاد مدكور، فحياته كلها سلسلة من المواقف المجيدة رغم المآزق الصـعبة التى كان من حـظه أن يجتازها، وإسهامـاته السياسية والـفكرية تقف شامخة، وهو بلا جدال صاحب أعمق رؤية للـعلاقات المصرية ـ السوفيتية فيما بين ١٩٦٧ و١٩٧٣، وهـو بالإضافة إلـى هذا أشجـع مَنْ صارح رئـيس الجمهـورية (رئيسا بـعد رئيس) بهذه الـرؤية رغم الضباب والـغيوم والخوف والوجل، وقـد لقى بسبب هذا متاعب جمة.

ولـم يبخل مدكور على وطنه فى أية لحـظة بأى جهد أو رأى كان متوقعا منه، ومع أنى أشد الـناس معارضـة لفكرة التـقديس فإنـى فى ذات الوقت أكثـر الناس تفـهما للتـقديس الذى أحاط بـشخصية مدكـور أبو العز، سواء مـن تلاميذه ومرءوسـيه فى القوات الجـوية أو من أفراد الـشعب، وما بـالنا بهذا الـرجل الذى يستطيع أن يـلقن العدو درسا رادعا فى الجو بروح تشتعل فدائية وانضباطا وشجاعة وقدرة خارقة لكل توقـع ولكل تصـور ولكل تخـيل، وهو يـتم هذا بمبـادرة من نفـسه وعلى مـسئوليـته وبأقصى ما يمكن من اسـتعداد وتعبئة وهو ينجح نجاحا منقطـع النظير إلى الحد الذى يجعل من سلوكه الشرح الوحيد البليغ المـمكن من تاريخنا المعاصر لقول أبى القاسم الشابى:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

(٢)

وقد وصل مـدكورأبو العز إلى أقـصى ما وصل إليه قـائد عسكرى من مـجد فى عهد عـبد الناصر، فكـان فى مطلع الستينيات رئيـس أركان القوات الجوية المشهور واللامع، وكان مرشحاً لتولى قيادتها خلفـاً للفريق أول محمد صدقى محمود، لكنه حول عن هذا الاتجاه واختير محافظاً لأسوان، فـلما وقعت الواقعة وحـدثت الهزيمة النكراء فـى ٥ يونيو ١٩٦٧، عينـه الرئيس عبدالـناصر قائداً للـقوات الجوية دون أن يأخذ رأيه فى هـذا، وسمع مدكور أبو العز خبـر تعيينه فى هذا المنصب من الإذاعة، وكان معه لحظة سماعه الخبر آخرون.

لم يلبث مـدكور أبو العز فى قيادة الـطيران بعد ١٩٦٧ لأكثر من ١٣٠ يـوما كما ذكرنا كانت معجزة بـكل المقاييس فقد استطاع أن يعيد بـناء هذه القوات على أروع ما يكون، ولكنـه اضطر بعدها إلى أن يعتزل هـذا المنصب بعد تفاقم النـزاع بينه وبين القائـد العام الفـريق أول محمد فـوزى. ولن نستـبق ما فى هذا الـباب بأن نبـلور ما حدث من خلاف سـيستغرق الحديـث عنه أجزاء كثيـرة من هذا الباب كمـا استغرق أجزاء عديدة مـن المذكرات نفسهـا. وكان قرار أول نوفمبر ١٩٦٧ بـتعيينه مـستشاراً للرئـيس جمال عبد الـناصر وتعيـين العميد مـصطفى شلبـى الحناوى قائداً لـلقوات الجويـة من أغـرب القرارات فـى عهـد الرئيـس جمال عـبد الـناصر عـلى الـوجدان الشعبى!! إلى الدرجة الـتى كانت تستدعى الإجابة والتبريرات حـتى يومنا هذا على نحو ما سنرى فى هذا الباب.

(٣)

ولد الفريق مدكور أبو العز عام ثمانـية عشر (١٩١٨) فى الثالث عشر من مارس فى ميت أبو غالب التابعة الآن لمركز كفر سعـد محافظة دمياط، وقد تخرج فى الكلية الحربـية سنـة سبع وثـلاثين (١٩٣٧)، ثم فـى الكـلية الجـوية، وفيـما بين عـامى ٤٠

و١٩٥٢ عمل بأسراب الاستكشاف والمواصلات، وعند قيام الثورة كان أحد أفراد السرب الملكى، وبعد الثورة أسندت إليه قيادة محطة ألماظة، وظل فى هذا الموقع حتى ١٩٥٤ حيث اختير قائداً لكلية الطيران فى سبتمبر ١٩٥٤، وظل يشغل هذا المنصب حتى مايو ١٩٦١، واختير بعدها رئيساً لهيئة التدريب الجوى، وفى أبريل ١٩٦٤ عين محافظاً لأسوان، ولكنه لم يتول منصبه عند تعيينه مباشرة مما أثار كثيراً من التأويل على نحو ما سنرى، وفى يناير ١٩٦٧ رشح رئيساً للمؤسسة المصرية العامة للنقل الجوى،(أى رئيساً لمصر للطيران والشركات والإدارات الأخرى المرتبطة بالطيران وحركته.. إلخ) ونشر هذا الترشيح فى الصحافة على أنه بات مقرراً بالفعل، لكنه آثر الرفض حتى بعد أن أصبح النشر أمراً واقعاً، وفى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة عين قائداً لسلاح الطيران (أى للقوات الجوية)، وجاء ترتيب قرار تعيينه بعد تعيين القائد العام محمد فوزى وقبل قرار رئيس الأركان الجديد عبدالمنعم رياض، أى أنه أعطى أقدمية سابقة على رئيس الأركان نفسه، وقد كان هذا مقصوداً .

لم تشأ الدولة أن تفرط فى مدكور أبو العز فعين مستشاراً لرئيس الجمهورية وتسلم هذا العمل وبقى فيه وقتا قصيرا ثم صمم على الاستقالة والتقاعد لأنه لم يقبل لنفسه الاستمرار فى هذا الموقع، وقد عرض عليه أن يتولى رئاسة المؤسسة المصرية العامة للطيران (أى مصر للطيران) وكل ما يتعلق بالطيران حسب مسميات ذلك العهد رغم تعارض اختصاصات الأجهزة التى كان سيجمع بين رئاستها لكنه رفض أيضا، كما كان قد رفض هذا المنصب من قبل فى مطلع ١٩٦٧.

فى بداية عهد الرئيس السادات كان مدكور أبو العز واحداً من الذين بذلوا جهودا واضحة فى تدعيم حكم السادات ومحاولة إنقاذه حسب تصوراتهم من التفاف مراكز القوى حول توجهاته، ثم كان بعد هذا واحدا من الذين وقعوا العريضة الشهيرة فى ١٩٧٢ مع عبداللطيف البغدادى وكمال الدين حسين وأحمد عبده الشرباصى وعصام الدين حسونة ومصطفى خليل وعبدالخالق الشناوى وصلاح دسوقى ورشوان فهمى وأحمد كمال أبو الفتوح، وسنجد ظلال ضيق عند أنور السادات من مدكور أبو العز بسبب هذه العريضة رغم سعادة مدكور وزهوه بنصر أكتوبر بل وموافقته المبكرة فى البرلمان على معاهدة السلام.

أتاح القدر لمذكور أبو العز أن يخوض الانتخابات البرلمانية (١٩٧٦) فى دائرة كفر سعد (محافظة دمياط) حيث مسقط رأسه فى ميت أبو غالب، ففاز بعضوية البرلمان فوزاً ساحقاً، وهكذا تحول مذكور أبو العز إلى نموذج نادر فى مصر والدول العربية، فلم يلجأ قائد عسكرى من طبقته إلى دخول البرلمان عن طريق الانتخاب، وليشارك فى الحياة السياسية على هذا النحو المتميز.

ومع الأيام أضاف مذكور أبو العز إلى صورته الذهنية عند الجماهير بعداً ثالثاً حين كتب أكثر من مرة فى القضايا العسكرية العامة، وأبدى بلا أى خوف أو وجل انتقادات واضحة للاتحاد السوفيتى وسياسته تجاه مصر، وقد نشر هذه الآراء فى مرحلة مبكرة، حين كانت العلاقات المصرية ـ السوفيتية لا تزال تتمتع بالوجود، وإن كان يشوبها البرود المتقطع.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فلابد أن نذكر أيضاً أن مذكور أبو العز نشر مذكراته بكل ما فيها من اتهام للاتحاد السوفيتى بالتآمر على مصر فى ١٩٦٧ وبعدها، وقد جاهر بهذا قبل أن ينحل هذا الاتحاد ويتقوض.

(٤)

نشرت هذه المذكرات على مدى خمس وثلاثين حلقة فى جريدة الوفد، ابتداء من نهاية أغسطس ١٩٨٧ وعلى مدى شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٧، وقد نشرت الحلقات مسلسلة، وإن كانت جريدة «الوفد» قد أخطأت فى ترقيم الحلقة ٣٠ حيث كتب رقمها على أنها الحلقة ٢٢ لكنها استدركت الأمر دون إشارة، فأعطت الحلقة التالية الرقم ٣١.

تتمتع هذه المذكرات بأكبر قدر من وضوح الرؤية، فالرؤية فيها واضحة جداً ليس فيها أى التباس أو شك، على الرغم من أنها تتناول قضايا حساسة جداً وخطيرة جداً ومن النادر أن نجد مذكرات على نمط هذه المذكرات فى إلمامها الجيد وإدراكها الواسع بعناصر الأحداث التى تتناولها أو تعرض لها.

وليس من شك أن الراحة النفسية التى استمتع بها مدكور أبو العز بعد أدائه واجباته على أكمل وجه كانت بمثابة السبب الرئيسى الذى مكنه من وضوح الرؤية حين كتب هذه المذكرات.

أضف إلى هذا أبعاد الثقافة التى حظى بها مدكور أبو العز وهو على نحو ما نلمس فى كتاباته يتمتع بإيمان قوى، وبتدين واضح، وبوطنية صادقة، وفوق هذا فقد مارس كافة أنواع النشاط السياسى نائباً فى البرلمان ومحافظاً ومسئولا كبيراً فى الدولة وفى القوات المسلحة.

وكان مع هذا كله قريباً جداً من كثير من المسئولين الكبار فى أوقات كثيرة.

ولم يكلف مدكور أبو العز نفسه شططا فى أى مجال تعرض له، إنما هو حريص كل الحرص على الصواب والحق والقيم المطلقة، وليس عنده أدنى استعداد للتفريط فى هذه القيم بصورة أو أخرى من صور التفريط، وقد كان سلوكه هذا نادراً فى زمن لم يعرف هذا الطراز من الرجال فى المواقع المتقدمة.

ومع أنه دفع ثمن اعتداده بكرامته إلا أن هذا الثمن أضاف على المدى البعيد إلى كرامته نفسها فأصبح فى صورة رفيعة سابقة بين نظرائه ومعاصريه وأصبح أيضاً ذا مكانة رفيعة فى وجدان أمته.

❑

ويشير الفريق مدكور أبو العز بكل صراحة إلى أنه لم يكن من الممكن أن تنشر هذه المذكرات فى عهد عبدالناصر أو السادات، لأن هذه المذكرات تنتقد أوضاعاً كان الرجلان مسئولين عنها، وهو يعتبر العهدين امتداداً لبعضهما، على حين يعتبر المناخ فى عهد الرئيس مبارك مناسبا لصاحب الكلمة الحقة للتعبير عنها وهو يقول ما نصه :

«لم يكن من الممكن نشرها فى وقت مضى، لأن أى مذكرات تنشر على الناس وتتصف بالحقيقة والصدق وتتضمن أحداثاً وسلبيات وقعت فى عهود كانت السلطات المسئولة عنها مازالت قائمة، وهى بطبيعتها ترفض - فى تجبر - أى نقد أو أى حقيقة تمس مواقف تؤخذ عليها أو تسىء إلى المقربين إليها وموضع ثقتها».

وهنا يجد مدكور أبو العز نفسه فى حاجة إلى التصريح حتى لا تختلط الأمور

على مَنْ يقرأون أو ينقلون فيقول فى صراحة إنه يعنى بهذا عهدى الرئيسين جمال عبدالناصر وأنور السادات».

«إن مذكرات كهذه لا يمكن أن ترى النور أبداً فى ظل هذين العهدين.. فآثرت أن تبقى حبيسة فى ملفاتها، أما وقد تغيرت القيادة السياسية وأصبح المناخ مناسباً، ليقول صاحب الكلمة الحقة كلمته وينشرها على الناس دون مصادرة أو حجر، فاستقر الرأى على تحريرها من قيودها علنى أستطيع أن أسد ثغرة قد يحتاج إليها من يسجلون التاريخ صحيحاً».

(٥)

ويقدم مدكور أبو العز فى هذه المذكرات القيمة بعض الأفكار السياسية التى كونها وبلورها عن الثورة ومسئوليتها عن تصحيح نفسها والتصدى للانحرافات التى تبرز من داخلها، ومن الواضح لكل قارئ أن هذه الآراء تعبر عن حصيلة خبرة مدكور بما عاشه قبل أن تعبر عن توجه فكرى تبناه أو اقتنع به، وهذا فى رأيى من أعظم ما يمكن للمذكرات الشخصية أن تقدمه، لأنها بهذا تتجاوز الأفكار الجاهزة والأيديولوجيات إلى صياغات جديدة ربما لا تحظى بنفس الوجاهة ولكنها تعبر بصدق عما جاش فى النفوس واضطرب فى العقول واستقر عليه الوجدان، وتتأكد قيمة هذه الآراء إذا تصورنا مدكور أبو العز وهو سابق على كل قادة الثورة فى أقدميتهم العسكرية وهو يراقب فى هدوء وحذر السبل التى سلكوها حين قاموا بالثورة وقادوا البلاد بعدها وتصرفوا فى مقدراتها.. ثم انتهوا إلى ما انتهوا إليه.

ومن المهم أن نذكر أن هذه الآراء قد وردت فى مذكرات مدكور أبو العز عند الحديث عن محاولة إعادة مجلس الثورة القديم ولم شمله بعد وفاة الرئيس عبدالناصر، وقد كان مدكور غير مرحب بمثل هذه الفكرة. وهو يتطرق فى الحديث إلى أن يصل إلى التعبير عن هذه المعتقدات الواضحة فيقول:

«كنت أعتقد أن الثورة قد انتهت بهزيمة يونيو عام ١٩٦٧، وعلى الأصح قبل هذا التاريخ في بداية الستينيات عندما انفرد عبدالناصر بالسلطة، وأعتقد أن الشعب لا يرحب بقيادتهم له مرة أخرى برغم الموقف المتشدد الذى كان يقفه بعضهم للتصدى للرئيس جمال عبدالناصر فى تصرفاته الجامحة التى تؤدى بالبلاد إلي أوخم العواقب. وفى رأيى أن الثوار حينما قاموا بالثورة كان هدفهم الإصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى كما بدا من المبادئ الستة التى أعلنتها الثورة، وحينما قاموا بها كان أول ما توقعوه هو احتمال فشلها وتعليقهم جميعاً فى المشانق فى ميدان عابدين ولم يكن قصدهم (أعنى أغلبهم) مجرد احتلال السلطة أو موقع رفيع يجنون من ورائه مكاسب شخصية».

❑

ويمضى مدكور عارضا تصوراته لما ينبغى أن تكون عليه ديناميات العمل على مستوى قيادة الثورة فيقول:

«إن طبيعة الثورة تتمثل فى الاستمرار فى ثوريتها لتحقيق الهدف الذى قامت من أجله الثورة، فإذا بدا من أحدهم انحراف أو ظهرت منه أية بادرة للانفراد بالسلطة، كان عليهم وهم ثوار، أن يقاوموه ولو أدى ذلك إلى استخدام العنف، فليسوا كالأشخاص العاديين ينتهى دورهم بمجرد المجاهرة بالرأى أو بالاستقالة احتجاجاً على الأوضاع المرفوضة، إنهم بذلك يكونون قد تخلوا عن أهداف الثورة نفسها ومنحوا فى الوقت نفسه الفرصة للطامع فى السلطة للانفراد بها بعد تأمين نفسه والبحث عن آخرين ليكونوا أعواناً له، يغدق عليهم النعم ويعينهم فى مواقع مرموقة فينال ولاءهم، فتهيأت كل الفرص للإطاحة بهم واحداً إثر واحد كما فعل عبدالناصر بهم، إنهم لم يفعلوا كما فعل الثوار الجزائريون مع الرئيس أحمد بن بيللا، فحينما بدا للثوار الجزائريين من أول بادرة محاولة انفراده بالرأى وبالسلطة متشبهاً بجمال عبدالناصر، نحوه من موقع الرئاسة فوراً وأودعوه غياهب السجون والمعتقلات».

(٦)

ويحرص مذكور أبو العز على أن يؤكد فى مواضع كثيرة من مذكراته على فكرة رفضه لتحبيذ منطق نسيان الماضى البغيض والتستر على أخطاء القادة السابقين، لأنه يؤمن أن الأخطاء تضمنت دروساً غالية الثمن لابد من أن نفيد منها:

«إن الدعوة إلى نسيان الماضى البغيض بأخطائه الجسيمة، وتجاهل نزوات القادة الذين تسببوا فيه، لا يفيد مصر والأجيال الحاضرة والمستقبلة. إن الإصرار على نسيان الماضى البغيض لا يعنى إلا شيئاً واحداً هو التستر على أخطاء هؤلاء القادة لسبب أو لآخر، لا جدال أنه مرفوض رفضاً باتاً، فلا يمكن أن يعنى ذكر هذه الأخطاء ما يسميه البعض نبشاً للقبور.. أو مضيعة للوقت.. أو عقبة كأداء أمام المسيرة الوطنية نحو التقدم والازدهار، بل العكس هو الصحيح.. إن أخطاء هؤلاء القادة تعلمنا وتلقن الأجيال الحاضرة من بعدنا دروساً مستفادة غالية الثمن، تساوى فى قيمتها ما تكبدناه من خسائر مادية.. أما الخسائر المعنوية فتتعدى كل قيمة مادية مهما بلغت».

❑

ويتكرر حديث مذكور أبو العز عن فداحة الثمن الذى دفعته بلادنا فى هزيمة ١٩٦٧:

«إن درس الهزيمة قد كلفنا الكثير والكثير جداً.. كلفنا الكثير من كرامتنا وسيادتنا التى أهدرتها الهزيمة أضعاف أضعاف ما كلفنا من أرواح غالية زكية، ومن مبالغ طائلة مرهقة».

❑

ويصل مذكور أبو العز فى تصوير الصراع على المنطقة العربية إلى أكثر الصور تشاؤماً حين يلخص الموقف بأن العرب يدفعون ثمن الأسلحة لا من المال فحسب ولكن من الجنود والقتلى والمقاتلين والأرامل والثكالى والأيتام بينما الحرب فى الواقع بين أمريكا والاتحاد السوفيتى، وقد أصبح الشعار على حد قوله: «السلاح العربى لا يوجه إلا لصدر العربى»:

«وقد اتفقا على خراب العرب وأصبحت الحقيقة أن الحرب بين أمريكا والاتحاد السوفيتى ولكن أرضها عربية وجنودها من العرب وأسلحتها من أموال العرب، قتلاها من العرب وقاتلوها من العرب، وجرحاها من العرب، وثكلاها من العرب، وأراملها من العرب، وأيتامها من العرب، وأصبح شعارنا نحن العرب: «السلاح العربى لا يوجه إلا لصدر العربى»، هو الحقيقة المرة، وإذا بالدم العربى الطاهر يسيل فى غزارة على أرض اليمن الشقيق رخيصاً، والجنيهات والريالات تحرق وتصهر فى ساحة الغدر هناك كأنها قصاصات ورق من صفيح ترمى فى سلات المهملات».

(٧)

يجدر بنا أن نبدأ عرضنا لما فى هذه المذكرات بقراءة ما أعتقد أنه يمثل أمجد الصفحات عن أمجد أيام القوات المسلحة المصرية وقواتنا الجوية حين أعادت هذه القوات لشعبنا الطيب روح الأمل والتفاؤل بإمكان الانتصار على القوى الغاشمة (من الأعداء ومن أنفسنا كذلك) تلك القوى التى قادتنا إلى الوضع المرير فى ٥ يونيو ١٩٦٧.

وها هو مدكور أبو العز يحكى باسترسال [ودقة فى الوقت نفسه] تفصيلات ماحدث من معارك جوية بديعة فى يوليو ١٩٦٧، وسوف نفاجأ بأن القائد العام الفريق أول محمد فوزى كان ضد مبدأ قيام القوات الجوية بأى هجوم، وأنه رفض طلب قائد الجبهة اللواء أحمد إسماعيل تدخل هذه القوات.

ومع هذا فإن مدكور أبو العز يثبت فى هذه المذكرات أن أحمد إسماعيل اتصل به مستغيثاً رغم علمه بأن القائد العام لم يوافق له على طلبه بتدخل القوات الجوية، ولنترك إلى حين وصف مدكور أبو العز لأحمد إسماعيل بالاهتزاز والارتباك وهو يطلب الطلب، ذلك أن مدكور كان مستاء من موقف وقفه معه أحمد إسماعيل بعد ذلك فى عهد السادات وهو مدير للمخابرات العامة:

«ومن الصباح الباكر يوم ١٥ يوليو عام ١٩٦٧ كانت تصلنى الأخبار بهجوم

شرس قامت به القوات الإسرائيلية على مواقعنا على طول جبهة القتال من بورسعيد حتى السويس، ولما لم تصدر أوامر من القائد العام للقوات المسلحة المصرية للتصدى لهجمات القوات الإسرائيلية الغاشمة، فقد قمت بالاتصال به مستفسراً عن عدم صدور الأوامر إلى القوات الجوية بالتدخل، فأخبرنى بأن الموقف وقتئذ لا يتطلب تصعيد المعركة بتدخل القوات الجوية».

«فآثرت الانتظار إلى حين، وحين انتهت محادثتى مع الفريق أول محمد فوزى طلبنى اللواء أحمد إسماعيل وكان قائد جبهة القتال وشرح لى الموقف وأفهمنى خطورته «إذا لم تتدخل القوات الجوية فوراً»، أحطته علماً بالحديث الذى دار بينى وبين القائد العام، وسألته لماذا لم تتصل به؟ فأجاب بأنه اتصل به وطلب منه تدخل القوات الجوية لكنه رفض الاستجابة إلى طلبه».

«كان اللواء أحمد إسماعيل فى حديثه مهتزاً أشد الاهتزاز، مرتبكاً أشد الارتباك، وكان كثير الإلحاح فى طلبه بتدخل القوات الجوية، الأمر الذى جعلنى أمام الموقف شديد الحساسية الذى شرحه اللواء أحمد إسماعيل، أقرر الاستجابة إليه، ولم يكن أمامى قرار غيره، فسألنى وماذا أفعل لو أصر القائد العام على عدم تدخل القوات الجوية فى تلك المعركة؟ أجبته بأننى سوف أتصرف وسوف أتدخل».

«قمت على الفور بالاتصال تليفونياً بالقائد العام وأبلغته بحديث اللواء أحمد إسماعيل معى، وقلت له: إن ما سمعته من اللواء أحمد إسماعيل لا أستطيع معه أن أبقى لحظة واحدة فى موقعى دون أن أتدخل، وسوف أتدخل فى هذه المعركة ولن أدخر جهداً حتى آخر طلقة وآخر رجل».

(٨)

ثم يروى صاحب المذكرات أنه أمر بإقلاع الطائرات بأقصى مجهود مستطاع، ومعنى هذا ببساطة شديدة أنه لم يدخر وسعاً فى تلقين إسرائيل الضربة التى تستحقها، وفى إتاحة الفرصة كاملة لرجاله لكى يثبتوا جدارتهم:

«لم يكن أمام القائد العام من بديل إلا الموافقة على إشراك القوات الجوية، فأصدرت الأوامر بإقلاع الطائرات بأقصى مجهود مستطاع».

ويتحدث صاحب هذه المذكرات عن معنويات الطيارين المصريين فى ذلك الهجوم فيقول:

«كان الطيارون وأطقم الطائرات متعطشين إلى معركة يستطيعون منها أن يثبتوا براءتهم من جور الاتهام بأن القوات الجوية كانت سبب الهزيمة، ذلك الاتهام الظالم الذى أشعل فتيله الفريق أول محمد فوزى القائد العام للقوات المسلحة تقرباً للرئيس جمال عبدالناصر وشهوة فى الحقد، فكان الطيارون على أحر من الجمر لخوض معركة جديدة يثبتون فيها براءتهم من جور الاتهام».

«كانت الروح المعنوية لجميع أفراد القوات الجوية من كل التخصصات عالية، فكانت التشكيلات الجوية مكثفة متعاقبة، تهجم على طول جبهة القتال فى شرق قناة السويس وتضرب فى عنف وبتركيز مواقع القوات الإسرائيلية وخطوط إمداداتها، تعاونها أسلحة القوات البرية المختلفة، فاشتعلت نيران المعركة وأصيبت القوات الإسرائيلية بخسائر فادحة فى الأرواح والمعدات، وأسقط عدد غير قليل من الطائرات الإسرائيلية لم يحدث أن أسقط عدد مثله من قبل».

❑

ويبدو مدكور أبو العز فى غاية الفخر بالنتيجة التى حققتها الضربة الجوية فى ١٥ يوليو ١٩٦٧، وهى نتيجة لم تحدث منذ حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، فقد اجتمع مجلس الأمن واستجدت إسرائيل فى ذلك الاجتماع وقف إطلاق النار، ولأن مدكور أبو العز رجل حكيم، وقد حقق هدفه من الضربة التى قادها فإنه يذكر أنه أعطى الرأى بالموافقة على وقف إطلاق النار:

«وفى مساء يوم ١٥ يوليو عام ١٩٦٧ وحوالى الساعة الثانية عشرة مساء اتصل بى الفريق أول محمد فوزى تليفونياً يخبرنى أن مجلس الأمن مجتمع وقتذاك ويطلب من مصر بناء على طلب إسرائيل وقف إطلاق النار، وكان منطوق القائد العام «إن إسرائيل تستجدى وقف إطلاق النار» ويستطلعنى الرأى فى قبول الطلب

أو رفضه، وأضاف أن مجلس الأمن منتظر رد مصر بشأن طلب إسرائيل وقف إطلاق النار».

«ولما كانت المعارك تخطط لهدف معين وفى وقت معين وبحجم معين من القوات والمعدات، وتنفذ بطريقة معينة لتحقيق الهدف منها، ولما كان كل ذلك قد تم كما تريد قواتنا المسلحة، فقد أعطيت الرأى بالموافقة على وقف إطلاق النار».

(٩)

ويتحدث مدكور أبو العز باعتزاز شديد عن الأثر الجيد الذى تركته الضربة الجوية فى يوليو ١٩٦٧ على مستوى القوات المسلحة والقوات الجوية والشعب كله وأفراد الشعب المصرى الذين كانوا على اتصال بقوات العدو فى سيناء والعريش، ثم على الشعوب العربية وعلى إسرائيل نفسها، ونقتطف من مذكرات مدكور حديثه عن هذه الآثار:

❑ أعادت هذه الضربة الجوية ثقة القوات المسلحة المصرية بنفسها وثقتها بقواتها الجوية، فارتفعت الروح المعنوية لأفراد القوات المسلحة وأكسبتهم المزيد من القوة وشجعتهم على تقديم التضحيات مهما علت.

....

❑ وبالنسبة للقوات الجوية خصوصاً الطيارين وأطقم الطائرات وجميع الأجهزة الفنية، فقد كان أثرها المعنوى يفوق كل تصور، لأنهم فى هذه الضربة الجوية ألغوا فى اقتدار ما لطختهم به القيادات العليا من اتهامات جائرة بأنهم كانوا سبب الهزيمة.

....

❑ وكان الأثر المعنوى على الشعب خلف جبهة القتال عظيماً، فتجددت ثقته بقواته المسلحة وأصبحت الجبهة الداخلية خلف خطوط النار صلبة متماسكة قوية. إن

صلابة الجبهة الداخلية وتماسكها وقوتها سلاح قوى يشد من أزر القوات المسلحة على جبهة القتال، وهو فوق ذلك أمضى الأسلحة كلها.

❏ كان أثرها قوياً على المواطنين فى سيناء والعريش، فقد حضرت وفود منهم إلىّ والتقوا بى فى مكتبى يهنئوننى وأفراد القوات الجوية على الضربة الجوية ويبلغوننى أثرها السيىء على إسرائيل بما شهدوه من خسائر فى الأرواح والمعدات، كما كان صداها قوياً فى نفوس سائر الشعوب العربية قاطبة.

....

❏ وكان أثرها على إسرائيل سيئاً للغاية، تمثل فى الوجود المؤثر الفعال لقواتنا المسلحة وفى المفاجأة التى أحدثتها هذه المعركة، الأمر الذى دعا إسرائيل إلى الطلب بإلحاح من مجلس الأمن وقف إطلاق النار، وإلى صدور الأمر لقواتها بالانسحاب، تمثلت أيضاً فى الهجوم على شخصى، فقد وصفتنى إذاعاتها بأننى سفاح مجرم حرب، وحكمت علىّ بالإعدام، وهددت بتدمير قريتى (ميت أبو غالب)، وقد رحبت بهذا كله واعتبرته أعلى أوسمة وضعت على صدرى».

❏ ولا يفوتنى قبل أن أنتهى من ضربة الردع الجوى يوم ١٥ يوليو عام ١٩٦٧ أن أذكر أننى التقيت بعد تركى القوات الجوية بالوزير أمين هويدى فكانت هذه الضربة الجوية ضمن ما تبادلناه من حديث، فأشاد بأنها كانت قوية، وهو الأمر الذى دعا القوات الإسرائيلية إلى أن تنسحب من مواقعها وكانت لها آثار ونتائج عظيمة».

(١٠)

ومع هذا فإن مذكور أبو العز لا يخفى ـ فى عبارات مريرة واضحة الدلالة والمعنى ـ ضيقه من غمط القيادة المصرية حقه وحق القوات الجوية فى هذه الضربة، ونحن نعرف أن هذه الضربة الجوية لم تسجل فى وسائلنا الإعلامية بهذا الاسم، وإنما سجلت على أنها معركة «رأس العش» مع أن المعركة شىء آخر مواز لهذه الضربة،

وقد رأينا فى مذكرات المشير محمد عبدالغنى الجمسى دقته فى وصف النجاحات الثلاثة على حد تصنيفه الضربة الجوية ومعركة رأس العش وإغراق السفينة إيلات، لكن الكتابات الصحفية الموجهة فى ذلك الوقت لم تكن تريد أن تكون بدقة المشير الجمسى ولا الفريق مدكور أبو العز، ويبدو أن هذا كان مقصودا عن عمد، ولنقرأ هذا المعنى الذى يعبر عنه مدكور أبوالعز حيث يقول:

«ساءنى كثيراً أن قياداتنا السياسية والقيادات العليا للقوات المسلحة حينما تتكلم عن هذه الضربة فإنها لا تذكر الدور العملاق الأساسى فى هذه المعركة الذى قامت به القوات الجوية، فنراهم يلقبون المعركة بـ«رأس العش».

«فلست ممن ينتقصون من دور أى مقاتل فى معركة ـ كغيرى ـ إذا كتبت عن وصف معركة حربية أو ذكرت نتائجها، لكننى أعترض على كل من يتجاهل عن عمد أو ينتقص من الدور العملاق والأساسى فى هذه المعركة الذى قامت بها القوات الجوية».

«فكم قرأت لقيادات كبيرة وهى تتحدث عن معركة رأس العش ولم يذكر أحد منهم دور القوات الجوية، وكان أساسياً فى هذه المعركة».

«إن ذلك شىء يؤسف له أشد الأسف، فالأحق حينما تذكر معركة الخامس عشر من يوليو عام ١٩٦٧ أن تسمى بضربة الردع الجوى، وليست بمعركة رأس العش».

«إن الذين يتجاهلون القوات الجوية فى هذه المعركة أو فى غيرها وهم للأسف الشديد مسئولون كبار، قد جاوزوا الحقيقة فى كتابة التاريخ».

«وكم يؤسفنى أشد الأسف أن أسمع من أحد كبار ضباط القيادة العامة للقوات المسلحة وقتذاك حينما ذكرنى بضربة الردع الجوية فى الخامس عشر من يوليو عام ١٩٦٧ التى قامت بها القوات الجوية المصرية، وكيف وقف القائد العام أمامها صامتاً محاولاً إنكار ما قامت به القوات الجوية من دور عملاق فى هذه المعركة، مما دعا هذا الضابط الكبير أن يسأله عما إذا كان قد اتصل بى ليعبر عن تقديره لما قامت به القوات الجوية فيه؟ فلما علم أنه لم يتصل حمله على الاتصال بى تليفونياً رفعاً للروح المعنوية للقوات الجوية ففعل وقام القائد العام بالاتصال بى».

ويصل مدكور فى الشكوى إلى حد أن يعبر عن مرارته حين اكتشف أن القائد العام ـ أى الفريق محمد فوزى ـ لم يتصل به (لتهنئته على هذا الإنجاز) من تلقاء نفسه، وإنما بعد إلحاح من أحد كبار ضباط القيادة العامة للقوات المسلحة:

«وقد ظننت ـ حين التقيت بهذا الضابط الكبير ـ أن تقديره لقوات جوية أنا قائدها قامت بمعركة جوية ناجحة ضد إسرائيل فى الخامس عشر من يوليو عام ١٩٦٧ ولم يمض على الهزيمة البشعة أكثر من أربعين يوما، كنت حسن الظن به برغم المشاكل والعقبات وسلوكياته معى التى انعكست على القوات الجوية، فقد حسبت أن اتصاله بى كان نابعاً من نفسه ولم يكن بناء على إلحاح أحد عليه أو توجيه من أحد كبار ضباط القيادة العامة للقوات المسلحة».

(١١)

ويتأكد هذا المعنى الذى يشير إليه مدكور أبو العز من غمطه حقه وغمط القوات الجوية حقها حين نقرأ ما يرويه عن يومه الأخير فى القوات الجوية حين استدعاه وزير الحربية أمين هويدى لينهى إليه قرار الرئيس بتعيين خلف له فى القوات الجوية، وسنلمح فيما يرويه صاحب المذكرات مشاعر عديدة بالأسى من كثير من التصرفات:

❏ فهو فى غاية الأسى لخروج عشرين طياراً من خيرة الطيارين معه، وذلك بعد أن عرف أن القائد الجديد هو العميد الحناوى، وكان مدكور بحكم رئاسته للقوات الجوية يعلم ترتيب القائد الجديد.

❏ كما أنه فى غاية الضجر من إصرار الدولة على تعيينه فى منصب آخر كمحافظ أو مستشار، وهو فى حيرة نفسية كيف يبرر للمواطنين قبوله العمل فى منصب آخر بعد قيادته القوات الجوية.

ولعلنا نستطيع الآن أن نتصور مدى المعاناة التى كان المسئولون والقادة الجادون

يعانونهـا فى ذلك الزمان وهم يتحركـون من موقع إلى آخر دون مبررات كـافية لهذا التحرك.

ونحـن لا نزال الآن فى إطار حـديث هادئ بين رجلين يحـترمان بعـضهما هـما مدكور والوزير أمين هويـدى، فما بالنا بمدكور وهو الأسد الغضنـفر حين يواجه بعد أيام مـن خروجه وبعـد استنكار الرأى الـعام لهذا الإخـراج بحمـلة تبـريرية قاسـية ومجافية للحقيقة يتولاها كاتب السلطـان بنفسه وباسمه وفى أبرز مكان من صحافتنا «الأحادية» فى ذلك الوقت:

«فى يوم الثـلاثاء ٢٨ أكتوبر عام ١٩٦٧ طـلبنى الوزير أمـين هويدى لمقابلـته فى مكتبه بإدارة المخابرات العامة فى الواحدة بعد ظهر اليوم التالى، وتم اللقاء فى الوقت والمكان المحدديـن. فى هذا اللقاء بـدأ حديثه فى الموضـوع الذى استدعيت مـن أجله قائلاً: «يعز علينا أن تتركنا ونحن نشكرك على المجهود العظيم الذى قمت به فى فترة قيادتك للقوات الجـوية، وهذه رغبتك، وبهذه المناسبة يسرنـى أن أبلغك أنك موضع تقدير السيد الرئيس وتقديرنا جميعاً، وسوف تقابل الرئيس باكر الساعة الثانية عشرة ظهراً لتسمع بنفسك مدى تقدير سيادته لك».

«قدمت الشكـر للوزير أمين هويدى والسيد الـرئيس على ما حبانى بـه من تقدير وثناء، وقلت: هل يمكن أن أعرف من سيخلفنى؟».

«قال العميد طيار الحناوى (يقصد العميد طيار مصطفى الحناوى)».

«لاشك أننى صدمت صدمـة عنيفة لسماعى هذا النبأ، فسـألت: هل معنى هذا أن جميـع الضباط الأقدم مـن العميد طـيار الحناوى سوف يـخرجون أيضاً مـن القوات الجوية؟».

«قال: نعم».

«قلت: أصارحكم أن ما تفعلونه فى القوات الجوية خطأ جسيم وخطير للغاية، إن القـوات الجوية تـفتقـر إلى الرجـال ممن لهم خـبرات طويـلة، فكـم من مرة فـرط فى رجالها فى مناسبـات سبقت فكيف يخرج منها هذا العدد الذى يـبلغ حوالى عشرين ضابطاً هم خيرة الضـباط القادة بعد الهزات العنيفة التى تعـرضت لها القوات الجوية

بعد إحالة هؤلاء الضباط إلى المعاش وكلهم من المؤهلات العليا، ومن يليهم فهم دون المستوى بكثير، فلا أتصور أن تقاد القوات الجوية بهذه القيادات الجديدة كما ينبغي!!».

«ولكن الوزير كان متفائلاً فتمنى أن يسير كل شيء على ما يرام فلم أملك إلا أن أدعو للجميع بالتوفيق».

«استطرد الوزير أمين هويدى فى حديثه فقال: إن الرئيس قد كلفه ليعرض علىّ إما منصب مستشار رئيس الجمهورية أو محافظ أسوان أو الغربية».

«قلت: أما بالنسبة لتركى القوات الجوية فإننى أشعر بأن هذا أحسن قرار أحمد الله عليه، غير أننى كنت أتمنى أن تسير الأمور سيراً طبيعياً حتى يتم ما كنت أنشده لسلاحى ووطنى، وبالنسبة لما يعرضه علىّ السيد الرئيس فإنى أشكره على هذا التقدير».

«ولكننى أجد نفسى فى أشد الأسف للاعتذار عن عدم قبولى أى منصب، لا لشىء إلا لأننى أريد أن أنهى خدمتى عند هذا الحد، فقد مرت بى ظروف عصيبة أجد من العسير علىّ معها أن أقبل أى منصب فكفى ما حدث».

«حاول الوزير أمين هويدى فى إصرار وإلحاح أن يحملنى على قبول أحد المنصبين المستشار أو محافظ الغربية، ولكنى أصررت على عدم قبول أحدهما، ولكن ضغط الوزير كان شديداً لأقبل أن أكون محافظاً للغربية».

«قلت: كيف أواجه الناس؟ وماذا أقول لهم؟ هل أظلم نفسى فأقول إنى فشلت أو أقول لهم الحقيقة، وهذه الحقيقة غير مطلوب أن يعرفها الناس. وتحت إصرار وإلحاح الوزير ولأنى لا أريد أن يلح علىّ كثيراً خصوصاً أن علاقتى معه كانت على الدوام على ما يرام، فقد تظاهرت بقبول منصب محافظ الغربية وفى نيتى عدم قبوله كقرار انتهيت إليه».

❑

ويبدو أن حماس مدكور أبو العز للقوات الجوية وجهده فيها لم يسمحا له بأن يتغاضى عن الحديث الصريح مع الوزير (أمين هويدى) عن أهمية القوات

الجوية بينما هو مقبل على الخلاص من مسئوليته عنها، وهو يروى لنا بعض هذا الحديث فيقول:

« ... تطرق الحديث إلى قسوة المعوقات والمشاكل التى نصبت أمامى، فلم يقتصر الأمر عليها، بل تعداها إلى ماهو أدهى وأمر، فقلت: لقد اتبع معى الفريق أول محمد فوزى أسلوباً بغيضاً خرج عن نطاق العلاقات الإنسانية التى تحكم الروابط الطيبة بين شخص وآخر كلاهما فى مرتبة الوظائف العليا جداً، ولا يتفق مع المبادئ والمثل، لم أحكها لأحد حتى هذه اللحظة، ولكنى أقولها لك لتحكم إلى أى مدى تحملت الكثير، وقصصت عليه واقعة استكتاب الفريق أول محمد فوزى للعميد أحمد هاشم حسين للورقة التى سبقت الإشارة إليها فى هذه المذكرات [سوف نتناول قصة هذه الورقة بالتفصيل فى هذا الباب] ومن شأنها إحداث الضرر لى، فشعر بأسف من تصرف القائد العام وقال: قل ذلك للسيد الرئيس عند مقابلته باكر».

قلت: «لا أحب أن أذكر شيئاً مثل ذلك للسيد الرئيس، فوقته لا يتسع لهذه المهاترات».

«قال: سوف أبلغه بها شخصيا».

«وبهذا انتهت المقابلة وقد توجهت إلى مكتبى وجمعت فى هدوء أوراقى وأمتعتى الخاصة واستمررت فى عملى كالمعتاد، أكلف اللجان ببحث موضوعات معينة على أن تعرض علىّ النتيجة فى اليوم التالى، وأنا أعلم أن صلتى بالقوات الجوية كقائد لها قد انتهت، ولم يشعر أحد من القوات الجوية بشىء حتى مدير مكتبى وسكرتيرى الخاص من أننى سوف أترك القوات الجوية ليتسلم العميد طيار مصطفى الحناوى أجهزة القيادة الجديدة للقوات الجوية فى اليوم التالى، وحالما وصلت إلى منزلى طلبت الوزير أمين هويدى تليفونياً وأبلغته بأننى مازلت عند رأيى فى إنهاء مدة خدمتى، واعتذرت عن عدم قبول أى منصب، ورجوته أن يبلغ ذلك للسيد الرئيس، لم يوافقنى السيد الوزير لكنه وعد بإبلاغ السيد الرئيس برغبتى فى الاعتذار».

«استأنفت عملى كالمعتاد فى اليوم التالى انتظاراً لمقابلة السيد الرئيس فى الساعة الثانية عشرة ظهراً، ولكننى أبلغت فى الصباح بتأجيل الميعاد إلى السابعة مساء

لوصول المشير عبدالله السلال رئيس الجمهورية العربية اليمنية آنذاك إلى القاهرة فى الميعاد السابق تحديده للقاء السيد الرئيس».

(١٢)

ويرينا الفريق مدكور أبو العز فى موضع آخر من المذكرات كيف أنه كان واعياً [قبل القرار بفترة كافية] لنية الاستغناء عنه فى قيادات القوات الجوية:

«زارنى بمكتبى اللواء طيار أحمد نوح بعد عودته من الاتحاد السوفيتى وسألنى عما إذا كان عبداللطيف البغدادى سوف يتولى قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى، فقلت: ليس المقصود بالبغدادى، عبداللطيف البغدادى نائب رئيس الجمهورية الأسبق، لكن المقصود هو العميد طيار على بغدادى، وأوضحت أن الشائعة متداولة على نطاق واسع بين أفراد القوات الجوية وأن العميد طيار شلبى الحناوى قد أخبر العميد طيار عهدى خيرت بأن العميد طيار على بغدادى ـ وكان مديراً للعمليات الجوية ـ سوف يعين قائداً للقوات الجوية ويعين العميد طيار الحناوى رئيساً للأركان، والأول يلى الثانى فى الأقدمية العامة».

ويردف مدكور أبو العز برواية انطباعه عن هذا القرار ويقول:

«لم أكترث بنبأ محاولة تعيين قائد للقوات الجوية بدلا منى، فكم حكيت فى هذه المذكرات أن العمل مع القائد العام أصبح مستحيلاً، من وجهة نظرى، وأن تركى للقوات الجوية أصبح أمراً موقوتاً بالبديل ، وبظروف تحكم الرئيس عبدالناصر، فضلاً عن أن بقائى فى القوات الجوية كان رغماً عنى، ولكن الشىء الذى سبب لى ضيقاً شديداً هو الأسلوب، قابلت الوزير أمين هويدى لأعبر له عن استيائى لهذا الأسلوب، وحينما أوضحت له ما يذاع عن تغيير قيادة القوات الجوية وعن المقابلات التى يجريها القائد العام مع من سيعينون فى مواقع القيادة بها وفى غيرها، لم أتلق منه جواباً بالنفى أو الإيجاب».

❏

ويعود مدكور أبو العز ليروى كيف كان قاسياً على قائد مثله أن يتحقق من

مصيره فى موقعه من مرءوسيه، وهى تجربة مريـرة نرجو الله أن يحفظ منها وطننا فى المستقبل:

«كان لزاماً أن أستوضح من اللواء طيار أحمد نوح عما دعاه أن يسأل عن بغدادى وتعيينه قائداً لـلقوات الجوية، فـقال: «فى أول لقـاء لنا مع المارشـال زخاروف سأل زخاروف الـفريق عبـدالمنعـم رياض عما إذا كـان المارشال مـدكور قد ترك الـقوات الجوية وعين مكانه البغدادى أم لا؟»».

ويردف مدكور برواية أخرى تعززمن الرواية الأولى فيقول :

«وفى لـقاء لى مع الـلواء فتـحى عبدالـغنى الذى كـان يرأس مكـتب المشتـريات المصرى، وكان عضواً فى الوفد المصرى برئاسة الـفريق عبدالمنعم رياض وكان اللقاء عقب تشـييع جنازة المرحـوم اللواء مهندس علـى عبدالرازق، وكان ذلك بـعد تركى القوات الجوية بمدة طويلـة تقرب من اثنتى عشرة سنة، بادرنى اللواء فـتحى عبدالغنى بعـد أن تبادلنـا التعـزية بأنه كـان يود أن يتـصل بى لـيقول لى شـيئاً هـاماً يخصـنى، فاستفسرت منه عـن هذا الشىء، فأشار إلى أنه وأحد القيادات السوفيـتية الكبار كانا فى استقبـال الفريق عبدالمنعم رياض والـوفد العسكرى المرافق له فى مـطار موسكو، وقد سمع الـقائد السوفيـتى وهو يستفـسر من الفريق عـبدالمنعم رياض عـما إذا كان المارشال مدكور قد ترك القوات الجوية وعين محله الجنرال على بغدادى أم لا».

❑

وهنا يعقب مدكور أبـو العز بالاستنتاج الوحيد الذى يمكن الـوصول إليه من مثل هذه المعلومات ويقول فى صراحة وألم وشجاعة:

«إن ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على أن السوفـييت هم الذين طلبوا إخراجى من الـقوات الجـوية، وإذ كان الـدليل عـليـه هكذا فـكيف تـقبـل قيادتـنا الـسياسـية والعسكرية الخضوع للاتحاد السوفيتى إلى حد أنها تزيح قيادات عسكرية من مواقعها وتعين آخرين بدلاً منهم».

ويندفع مدكور أبو العز مع الذكريات فى ألم شديد وهو يقارن بين موقفين :

«وهنا تذهب الذكريـات إلى ما يقرب من خمسين عاماً مضت بـعد عقد المعاهدة المصرية ـ الإنجليـزية التى قام بتوقيعها المـغفور له مصطفى النحاس زعـيم مصر على

مدى ثلاثين عاماً قبل الثورة، فيرحل بمقتضاها القائد الإنجليزى لسلاح الطيران الملكى المصرى الايركومودور «تيت»، بكسر التاء الأولى، ويعين مكانه اللواء على إسلام، وفى عهد عبدالناصر قائد الثورة المصرية يرحل الفريق طيار مدكور أبو العز قائد القوات الجوية بعد الهزيمة، بناء على طلب الاتحاد السوفيتى ويعين آخر مكانه بناء على طلب الاتحاد السوفيتى أو بموافقته أيضاً، الأمر الذى يؤسف له أشد الأسف».

(١٣)

ثم يروى مدكور أبو العز تفاصيل لقائه بالرئيس عبد الناصر بعد أن تقرر استبعاده من رئاسة القوات الجوية، ومن الواضح أن الاجتماع بدأ بوجوم ثم انتهز مدكور حديث الرئيس الودود ليتحدث عن الموقف من جانب إنسانى فإذا بالرئيس عبد الناصر وكان محاوراً جيداً يلتقط الخيط ليثبت لمدكور انتباهه لأهمية ما أشار إليه:

«فى الساعة السابعة مساء توجهت إلى منزل الرئيس وتم اللقاء، بقيت بادئ الأمر صامتاً لا أتكلم لأنى عزمت على ألا أكون البادئ فى الحديث».

«قطع الرئيس السكون قائلا: لم يكن عندى قرار أتخذه غير هذا القرار، لا توجد أسباب شخصية، لقد أديت خدمة عظيمة وقمت بمجهود ضخم فى إعادة بناء القوات الجوية، وأنا لن أستغنى عنك فأعرض عليك إما أن تكون محافظاً أو مستشارا لى».

«قلت: أشكرك ياسيادة الرئيس، أرجو أن تنظر لى كإنسان، إننى فى حالة لا أستطيع معها العمل فى أى مكان، ففى سنوات قليلة عينت رئيساً لأركان القوات الجوية ثم محافظاً لأسوان ثم عرض علىّ تولى رئاسة مؤسسة الطيران فرفضتها ثم العودة ثانية إلى القوات الجوية ثم الخروج منها، وكان تعيينى فى هذه المواقع كلها على حد قولكم لما وجدتموه من قدرة على العمل المتميز، ومع ذلك أترك الموقع لموقع آخر لا ألبث أن أبقى فيه مدة وجيزة حتى أنقل بعدها إلى موقع آخر».

«قال [أى الرئيس عبد الناصر]: ومع النظرة الإنسانية إليك فإننى لن أستغنى عنك».

ها نحن نحس بمدى حساسية مثل هذا الموقف بين رجلين قويين محترمين يحترمان بعضهما ويقدران بعضهما، لكن الظروف تقودهما إلى مثل هذا الانفصال المقيت! ومع هذا فمن حسن حظنا أن أحدهما يروى لنا بتفصيل دقيق ملامح تفاصيل كثيرة من هذه الصورة.

(١٤)

وها هو مدكور أبو العز يورد ما يدل بكل وضوح على أنه كان حريصا على أن يخلص ذمته ويريح ضميره أمام ربه وهو يتحدث للقائد الأعلى عن اعتقاداته فيما يتعلق بموقف السوفييت منه، وبموقف القائد العام منه، وسنرى مدى حرص عبد الناصر على أن يلم بالحقائق وإن لم يكن إلمامه هذا يتحول بالدرجة الكافية إلى قرار صائب أو حاسم:

«ثم عرض علىّ السيد الرئيس العمل مع الفريق أول فوزى، تعجبت للعرض الأخير متجاهلاً رغبة السوفييت فى إبعادى عن القوات الجوية، وسألت: لماذا كان تركى القوات الجوية إذن؟! وأضفت أن العمل مرة أخرى مع الفريق أول فوزى أمر مستحيل بالنسبة لى، وسيادتكم أدرى بسلوكياته أكثر منى، وأكدت لسيادته عدم رغبتى فى العمل فى أى موقع، وهنا أشار الرئيس إلى مشاكلى مع السوفييت، فتذكرت حديث اللواء طيار مهندس أحمد نوح لى بعد عودته من الاتحاد السوفيتى بعد زيارة المارشال زخاروف لمصر والوفد العسكرى السوفيتى المرافق له، بعد الهزيمة مباشرة، بشأن طلب السوفييت إبعادى من القوات الجوية وتعيين آخر بالاسم أو بمواصفات وشروط معينة».

«سألنى الرئيس: ما هى قصة فوزى معك التى حكيتها لأمين هويدى؟».

«قلت: القصص كثيرة ياسيادة الرئيس فأيها تقصد؟ قال: قصة استكتاب الورقة، قلت: لا أريد أن أضيع وقت سيادتكم فى مهاترات، فقال: أريد أن أسمعها منك.

فقصصت عليه القصة كاملة، فسألنى متعجباً: هل حدث ذلك؟ فأجبت مؤكداً أن الذى يسمع القصة رئيس الجمهورية والذى يحكيها مدكور أبو العز فلا مجال إذن لقول غير الحقيقة، وأنا مسئول عن كل حرف مما أقول».

«انتهى الرئيس إلى قرار تعيينى مستشاراً له قائلاً: هذا أمر أصدره إليك، وليس لدى رأى آخر وينتهى الموضوع عند هذا الحد».

«فقلت على الفور: أما والأمر كذلك فمع أننى أعلم أن سيادتكم لا تقبلون من أحد أن يقدم استقالته فإنى أقدم استقالتى من الآن وفى كل وقت لحين أن ترى سيادتكم الوقت المناسب لكم فى قبولها».

«وقبل أن أستأذن فى الانصراف قلت: إن معنى تعيين العميد طيار الحناوى قائداً للقوات الجوية أن يخرج معى عدد كبير من قيادات الطيران، فقال: كل مَنْ هم أقدم من الحناوى، قلت: هذا خطأ ياسيادة الرئيس، فسوف تتبينون نتيجته، ولكن فى وقت متأخر، إن الجهاز الذى كان يعمل معى هو أكفأ الموجودين جميعاً وهم فى الوقت نفسه أقل جهاز يمكن أن تقاد به قوات جوية، إن تعويض مثل هؤلاء وكلهم مؤهلون بدرجات علمية عالية كلفوا ميزانية الدولة مئات الملايين من الجنيهات، فهل يذهبون بسهولة هكذا؟ فإذا كان أسلوبى فى العمل غير مقبول فأنا الذى أذهب وحدى، فما ذنب القوات الجوية وما ذنب هؤلاء؟!».

❑

ولا يذكر لنا مدكور أبو العز بماذا رد عليه الرئيس جمال عبد الناصر فيما يتعلق بهذه الجزئية الحرجة، ويبدو بوضوح أن الرئيس عبد الناصر قد تجاوز هذه النقطة إلى غيرها، لأنه لم يكن راغباً فى أن يعيد على مسامع مدكور جوهر نظريته فى أمن القوات المسلحة التى عبر عنها لمدكور نفسه من قبل حسبما روى مدكور فى هذه المذكرات، وقد كان هذا منطقيا من عبدالناصر مع نفسه، فما جدوى أن يكرر نظريته لرجل قد تم بالفعل الاستغناء عن خدماته فى هذا الموقع، ومع أن مدكور يتجاوز مثل هذه المعانى فى روايته فإنه حريص أيضا على أن يعبر مباشرة عن انطباعاته المترسبة عن تلك اللحظات فيقول:

«لعله أصبح واضحاً أن إبعادى ومجموعة قيادة القوات الجوية لم يكن إلا بناء على رغبة السوفييت حتى يستطيعوا أن يقبضوا بيد من حديد على القوات الجوية. إن وجودنا يسبب لهم إزعاجاً ويكشف أعمالهم ومناوراتهم التى تستهدف بصفة عامة السيطرة التامة على القوات المسلحة ككل، وبالتالى على بلدنا كله ليضعوه فى نطاق الستار الحديدى السوفيتى، منتهزين فرصة حاجتنا الملحة إلى الأسلحة لإعادة بناء القوات المسلحة، والمأزق الذى كنا فيه على إثر الهزيمة وضعف القيادة العليا، هذا هو الاتحاد السوفيتى الذى اعتبرناه يوماً الصديق».

«وفى نهاية الحديث كان لزاماً علىّ أن أقدم للسيد الرئيس عدة آراء تعلمتها من خبرتى فى العمل بالقوات الجوية، وحتى لا أكررها فإنه شملها الخطاب الذى أرسلته للرئيس السادات عن خبرتى مع الاتحاد السوفيتى الذى تتضمنه هذه المذكرات بنصه الكامل، وإلى هذا الحد استأذنت فى الانصراف مؤكدا لسيادته أن استقالتى مقدمة منذ ذلك الحين».

(١٥)

ثم يروى مدكور أبو العز بسعادة بالغة ما يذكره عن عدة وقائع أعقبت خروجه من منصبه، حين أظهر الشعب كله تعاطفه معه وامتعاضه من قرار إخراجه، وفى واقع الأمر أن مدكور أبو العز حظى فى ذلك اليوم بما لم يحظ به أى مسئول مصري فى عهد الثورة حين خرج من منصبه، وربما يعجب المرء من أن يدرك الشعب مثل هذه الحقيقة وأن يعبر عنها مثل هذا التعبير، لكن حقيقة الأمور أن الذكاء الفطرى العميق والحضارى المتراكم فى الشعب المصرى يعبر عن نفسه فى مثل هذه الومضات، والمعاصرون لهذه الفترة لا يزالون يذكرون كثيراً من مظاهر التعبير عن القلق التى اجتاحت مشاعر المواطنين حين طالعوا قراراً بتنحية القائد الناجح البطل الذى أدّب إسرائيل وهى فى ذروة غطرستها، وظل التعبير عن هذا الشعور يطفو إلى السطح من وقت لآخر طيلة عهدى عبدالناصر والسادات وفيما قبل نصر ١٩٧٣

وبعده، ومن حسن الحظ أن هذه المذكرات تصور جانباً من هذه المشاعر والانفعالات وردود الفعل، وإن كانت تكتفى بالوقائع التى سجلت على ورق الصحافة، وهى مجرد قطرة من بحر التقدير الذى لقيه مدكور أبو العز، وهى وقائع تؤكد لنا مدى عظمة شعبنا الذى يقدر كل جهد صادق يقدمه أحد أبنائه، وسنرى من اللقطات المتابعة التى يرويها مدكور أبو العز أن الرئيس عبدالناصر نفسه أدرك تغير الظروف بحيث أصبحت هناك صعوبة شديدة فى مرور قرار كقرار تنحية مدكور عن قيادة القوات الجوية بدون تعليق:

«كان قرار الرئيس عبدالناصر بتحركى من القوات الجوية مفاجئاً ومثيراً لجموع الشعب، وكلهم يتساءلون ويستفسرون عن الأسباب التى حدت بالرئيس عبدالناصر إلى أن يصدر قراره بإبعادى عن القوات الجوية».

«وكانت الاستفسارات كثيرة ويبدو أنه قد أحدثت إزعاجاً شديداً له فتساءل [أى الرئيس] فى غضب فى اجتماع لمجلس الوزراء موجهاً حديثه إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل وكان وزيراً للإعلام: «مش عارفين تقولوا للشعب مدكور أبو العز خرج ليه».

ينبغى أن نتوقف هنا لنصحح أن هيكل فى ذلك الوقت كان رئيس تحرير الأهرام ولم يكن قد أصبح بعد وزيراً للإعلام.

«كما كان خروجى موضوعاً تضمنه خطاب الرئيس عبدالناصر أمام مجلس الأمة فى نوفمبر ١٩٦٧، حيث قال بالحرف الواحد: «جات لى جوابات وناس قالوا لى إنك أنت خفت ترد على إسرائيل لما ضربوا فى السويس وإن مدكور أبو العز كان عايز يضرب إسرائيل وأنت (مرضيتش)، علشان كده شلته، محصلش الكلام ده».

«لم يتضمن الخطاب الأسباب الحقيقية لخروجى، وكان لزاماً عليه وقد أثار هذا الموضوع فى خطاب أمام مجلس الأمة أن يذكر الأسباب الحقيقية، ولما لم يحدث ذلك فإن ذلك يعنى أنه لا يريد أن يذكر الأسباب الحقيقية للشعب، الأمر الذى ازدادت معه الشكوك».

«ولمواجهة هذا الإزعاج ما لجأ إليه المغرضون من نشر شائعة تدعى أننى ذهبت إلى روسيا لأشرف على تدريب الطيارين هناك، والحقيقة أننى لم أر روسيا حتى كتابة

هذه السطور، كانت الشائعة قوية لدرجة أن الكثير من الأصدقاء والمعارف كانوا كلما قابلونى يسألوننى متى حضرت من روسيا؟».

«وهنا أروى قصة طريفة تشير إلى قوة انتشار هذه الشائعة وتصديق الناس لها حتى أقاربى صدقوها برغم أنهم يعلمون أننى لم أغادر مصر ألبتة، فطلبنى أحدهم يوما للقائه فى أمر هام يخصه وتم اللقاء ولاحظت وجود شخص آخر معه، علمت فيما بعد أن اللقاء كان ليثبت لهذا الشخص أننى موجود بمصر ولم أغادرها إلى أى مكان آخر، وكان قد عقد معه رهانا.. فكسب قريبى الرهان».

(١٦)

ويبدأ مدكور أبو العز فى رواية ما نشره هيكل فى مقاله الشهير فى ١٧ نوفمبر ١٩٦٧ أى قبل أن يمضى وقت طويل على تنحية مدكور من قيادة القوات الجوية فى بداية نفس الشهر، وسنلاحظ بسهولة كيف أن هيكل حاول بأقصى ما يمكن أن يجعل هذا الموضوع وكأنه جزء من موضوع أكبر، ومن سوء حظه وحسن حظ مدكور أن الإطار الذى اضطر إلى اختياره ليناقش من خلاله شعور المواطنين الرافض لإخراج مدكور.. هذا الإطار أعطى مدكور نفسه أبعاداً أعمق فى إنصافه حتى إن مدكور نفسه لم ينتبه إلى قيمة هذه الأبعاد وهو يناقش ما كتبه هيكل.. فعلى نحو ما نرى من النص الذى تناول به هيكل الموضوع فإنه بدأ بالحديث عن سلامة الجبهة الداخلية، وهو ما يعنى إذا ما تعمقنا القراءة أن قرار إبعاد مدكور كاد فى ذلك الوقت أن يهدد سلامة الجبهة الداخلية، وقد اعترف هيكل بهذا المعنى بطريقة غير واعية حين قال بطريقة ملتوية على نحو ما سنقرأ: «إن الجبهة الداخلية سليمة لكنها تريد أن تعرف أكثر لكى تستطيع أن تعطى أكثر».

«وقد أحسست فى هذا الاجتماع (يشير هيكل إلى أحد الاجتماعات التى حضرها مع المواطنين) الذى أتحدث عنه أن الجبهة الداخلية سليمة لكنها تريد أن تعرف أكثر لكى تستطيع أن تعطى أكثر».

كانت الأسئلة من المشتركين فى الاجتماع نابعة بالرغبة الصادقة فى المعرفة والفهم، وليس من شك فى أنه كانت هناك أسئلة يمكن اعتبارها نظرياً خارج حق المناقشة الديمقراطى، وداخل اختصاص السلطة وحدها، كذلك السؤال (عن السبب) الذى دعا إلى نقل الفريق مدكور أبو العز من قيادة الطيران إلى منصب رفيع آخر.. لكنه يجب أن نضع فى حسابنا نقطتين:

❏ الأولى: أن الظرف الذى نمر به غير عادى والقلق فيه زائد، وبالتالى فقد يحدث أن يتجاوز الناس ما هو من حقهم ليدخلوا فيما هو حق لغيرهم.

❏ الثانية: أن القرارات اليوم مصيرية، وبعد كل ما حدث فإنه لابد من جهد غير عادى ومشقة غير عادية لإبقاء الجماهير داخل إطار الثقة دائما، والثقة تعود مع ممارسة الحقيقة والمواجهة المستمرة لها».

❏

ونحن نعرف أنه على هذا النحو من التحويم والتهويم حول الهوامش كان هيكل يبدأ بحديث غير مباشر يبدو فيه بيت القصيد وكأنه جاء مصادفة، وهو يمهد للتبريرات متحدثا عن صعوباتها وهو أسلوب كان هيكل يلجأ إليه من أجل الالتفاف على الحقائق، فهو قبل أن يورد الأباطيل يقدم ما نفهم منه أنه واع لجوانب البطلان، وكأن هذا الوعى كاف للشعب ليبلع الأباطيل بعد هذا. وقد كان هيكل بهذا الأسلوب شبيها جدا بالذين يحرصون على تقديم السموم فى كبسولات شبيهة تماما بالتى يقدم فيها الدواء، ثم يضعون هذه الكبسولات فى وعاء زجاجى ويضعون الوعاء الزجاجى فى علبة كرتونية ويرفقون بها نشرة طبية عن الآثار الجانبية لهذا العقار مع أن هذا العقار سم ناقع، وقد كان هيكل يتفوق على هؤلاء باستمراره فى أداء هذا الدور وتقمص دور الصيدلى حتى إنه يضع كما ذكرنا مع الكبسولات نشرة طبية بمضار هذا الدواء المزعوم، لأن العقار الذى يقدمه نفسه سم.

ولكن الذين يفضلون لأسباب كثيرة الانخداع به وبأسلوبه يرفعون فى وجوه معارضيهم الكبسولة والنشرة المرفقة بها للدلالة على أن هذا الذى في الكبسولة دواء وكأنهم يستغنون بالشكل عن الحقيقة، وهكذا فهم يرحبون بالكبسولة السامة لأنها أتت فى شكل الدواء حتى بالنشرة الطبية المرفقة دون أن يستوعبوا حقيقة ما فيها.

ومع أن مذكور أبو العز كما سنرى يركز فى رده على هيكل على الجوانب الموضوعية دون أن يعنى العناية الكافية بالرد على هذا الشكل المريب، وعلى هذه المقدمات الزائفة، فإن المرء ليعجب كيف كانت نفس إنسان [مهما بلغت به الشرور] تطاوعه على اقتراف كل هذا الضلال والتضليل.. ولنقرأ هذا الذى يقدم به هيكل للعبث الفكرى الذى تناول به أخطر قضايانا المصيرية:

يقول هيكل:

«ولقد كان يمكن أن يكون هناك جواب واضح وصريح عن السؤال الخاص بالفريق مذكور أبو العز، جواب يقول إن الفريق مذكور أبو العز قام بخدمة عظيمة فى وقت حرج دعى فيه على عجل إلى تولى السلاح الجوى بعد قرار تغيير قيادة الجيش السابقة يوم ١١ يونيو الماضى.

❏ إن الفريق مذكور أبو العز ابتعد عن السلاح الجوى سنوات طويلة وقضى عدة سنوات فى خدمة الحكم المحلى محافظا لأسوان.

❏ ثم إن الفريق مذكور أبو العز قضى معظم خدمته السابقة فى الطيران مع أسراب النقل، والظروف الآن تحتاج إلى تجربة وخبرة أسراب القتال.

❏ وأخيراً فإن الفريق مذكور أبو العز ينتمى إلى مدرسة ترى الاستقلال الكامل للأسلحة الثلاثة البر والبحر والجو. وهناك مدرسة أخرى ترى أن استقلال الأسلحة يجب أن يكون استقلالاً ذاتياً وفق ظروف كل منها، ولكن الأسلحة الثلاثة فى النهاية لابد أن تتصل فى كيان محارب واحد وفق ظروف الحرب الواحدة.

مثل هذه الأسباب وهى حقيقة لا تنقص من كفاءة الفريق مذكور أبو العز ولا تنقص من أسباب القرار الخاص به، أن ذلك أمر يحدث فى كل جيوش الدنيا المتقدمة، ويقال علنا للناس وتناقش أحياناً تفاصيله والسر والغموض حيث لا داعى لهما يخلقان من المشاكل أكثر مما يحلان منها، خصوصاً بالنسبة لجماهير تشعر بالقلق وتحس بأن القرار مصيرى».

عند هذا الحد ينتهى ما ينقله صاحب المذكرات من نص هيكل ويبدأ مذكور أبو العز فى التعقيب فيقول:

«قبل أن أناقش الأسباب التى فبركها الأستاذ هيكل إمعاناً فى تضليل الجماهير، فإن المقدمة لهذه الأسباب توضح للقارئ الكريم أن جماهير شعبنا كله قد فوجئت بتحركى من قيادة القوات الجوية بعد أن أحسست بما قمت به أنا وزملائى من مجهودات وعمليات جوية ناجحة فى الفترة القصيرة التى تحملنا فيها مسئولية بناء القوات الجوية وكان من أهم نتائجها إعادة الثقة فى قواتهم المسلحة وبصفة خاصة القوات الجوية، كما أعادت ثقة القوات المسلحة فى نفسها فارتفعت الروح المعنوية للشعب على اختلاف هيئاته وأسلحة القوات المسلحة كلها».

«لقد سببت المفاجأة القلق الزائد وعدم الثقة فى القرارات التى تصدر، الأمر الذى تطلب ـ كما أشار الأستاذ هيكل ـ بذل مجهود غير عادى ومشقة غير عادية لإبقاء الجماهير داخل إطار الثقة دائما، وكما أشار أيضا إلى أن الثقة تعود مع ممارسة الحقيقة ومواجهة مستمرة لها.. أهكذا فعلت فى مقالك يا أستاذ هيكل؟!

(١٧)

هكذا يكتفى مدكور أبو العز بهذا التأنيب المهذب الذى لا يحرك النسيم المحيط بهيكل.. لكنه مع هذا الأدب المتناهى والسمو المطلق قد أصاب كبد الحقيقة دون استعلاء بالمنطق أو بالصياغة.. وقد نجح فى هذا حين بدأ فنقل من هيكل نفسه ما يدينه كل الإدانة.. دون أن يكتب بهذا المعنى قرار اتهام ولا عريضة.. إنما هو ينقل عن هيكل قوله: «إن الأمر قد تطلب مجهودا غير عادى ومشقة غير عادية لإبقاء الجماهير داخل إطار الثقة».

وقد ترفع مدكور عن أن يلمح لهيكل أنه تعمد هذا النص ليرفع من قيمة «أتعابه» فى الجهد الذى بذله لتمرير الأكاذيب وتبريرها.. واكتفى بأن يؤنبه بصيغة السؤال التقليدى الذى يوجهه قائد كبير إلى جندى صغير حين يقول له: أهكذا فعلت؟.

والحقيقة أن مدكور الذى لم يكن يتمتع بأى قدر من القدرات البيانية التى يتمتع

بها هيكل قد نسف كل ما بناه هيكل بهذا السؤال البسيط، وكان الفضل فى هذا عائدا إلى سبب واحد فقط هو الصدق والإيمان، وهو ما كان رد هيكل يفتقدهما.

❑

ثم يتناول مذكور فى حديثه الموجه إلى هيكل الأسباب التى جعلت الشعب يفقد ثقته تماماً فى قيادته السياسية، وهو يشير بصراحة إلى أن أداء هيكل نفسه كان أحد هذه الأسباب، ونرى مذكور يتصرف بحكمة القائد المخضرم الذى يبدأ بأن يوافق «الجندى» على الشعارات التى يرفعها قبل أن يواجهه مباشرة بأنه يكذب فيما ذكره، وهو لا يوجه إليه تهمة الكذب مرة واحدة، لكنه يكررها بصيغ بديعة حين يقول إنه - أى هيكل - لم يمارس الحقيقة ولم يواجهها. وفضلا عن هذا فإنه لم ينجح فى أن يعيد الثقة للجماهير، وإنما أضاف مزيدا من القلق فى القرارات والقيادات على حد سواء، ولنقرأ هذا النص القوى الرصين الذى يليق بقائد عظيم:

«إننى وإن كنت أوافق على الشعارات التى تضمنها مقاله (أى مقال هيكل)، فقد عجبت وهو يذكر أسبابا لتحركى من القوات الجوية لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فلا هو مارس الحقيقة ولا هو واجهها بصفة مستمرة، فبدلا من أن يعيد للجماهير الثقة فقد أثار بالتضليل الذى تضمنه مقاله المزيد من القلق وعدم الثقة فى القرارات وفيمن أصدروها».

❑

ويزيد مذكور أبو العز هذا المعنى توضيحا وتعميقا فيقول:

«إن الظروف التى تمر بها البلاد كانت عصيبة، وإن ما حدث من هزيمة مروعة كانت كافية لفقد الثقة فى القيادة نهائياً. فالجماهير وقد أحست بوطأة الكارثة المروعة وفى جميع الأوضاع بصفة عامة وما يتوقعون من كوارث متلاحقة نتيجة لها ازدادت شكا فى القيادة نفسها، ومن هنا كان لها الحق كل الحق فى أن ينتابها القلق فتسأل وتتساءل يا أستاذ هيكل عن قرارات صدرت لا يستوعبها كل عقل سليم بعد كل الذى حدث».

«وليس من أحد يوافقك يا أستاذ هيكل على أن الأسباب التى ذكرتها حقيقة لا تنقص من كفاءة الفريق مدكور أبو العز ولا تنقص من أسباب القرار الخاص به».

ويصل مدكور إلى أقوى جملة فى مذكراته كلها حين يعبر بثقة شديدة عن أن قرارا مثل قرار إبعاده لا يصدر إلا عن قيادات مهتزة.. مترددة.. تائهة.. لم تجرب الفوز أبدا:

«إن مثل هذا الأمر لا يحدث فى جيوش الدنيا المتقدمة، لكنه يحدث فقط فى جيوش الدنيا المغلوبة على أمرها، وفى ظل قيادات اهتزت وترددت وتاهت وضاعت فلم تكسب مرة واحدة حربا دخلتها، فلم تستطع إصدار القرارات المصيرية الصحيحة».

هكذا فإن مدكور أبو العز حتى من قبل أن يصل إلى تفنيد ادعاءات هيكل يكون قد ثأر لنفسه بأن ذكر مفهوما خالدا وهو أن ما تم معه (بالأسلوب الذى تم به) لا يحدث أبداً فى الجيوش المحترفة، جيوش الدول المتقدمة. وإنما يحدث فى جيوش الدول المغلوبة على أمرها التى تعانى من قيادات لم تجرب أبدا معنى الانتصار ولم تذقه!

(١٨)

ويبدأ مدكور فى تفنيد حديث هيكل فيقول :

«أما عن الأسباب الثلاثة التى تضمنها مقال الأستاذ هيكل فهى:

«أولا: أننى ابتعدت سنوات طويلة عن السلاح الجوى وقضيت عدة سنوات فى خدمة الحكم المحلى، والحقيقة أننى ابتعدت ثلاث سنوات فقط عملت فيها محافظاً لأسوان، فليس الأستاذ هيكل بعاجز عن التعبير بتحديد المدة التى ابتعدت فيها عن القوات الجوية».

ويرد مدكور أبو العز على هذا السبب بأن يشير فى فخر شديد إلى أن مدة خدمته

فى القوات الجوية توازى ستين عاما، ويشرح لنا هذا المعنى مشيرا فيه إلى طبيعة المهام المتميزة التى أنجزها طيلة خدمته المتميزة بعبارات واضحة صريحة مفهومة لكل الناس:

«فإن الصيغة التى اختارها عن المدة التى قضيتها محافظا لأسوان وهى المدة التى ابتعدت فيها عن القوات الجوية هى بمثابة تعمية للرأى العام ليقبل تضليله هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأستاذ هيكل تجاهل ما يقرب من ثلاثين عاماً خدمتها فى القوات الجوية ... بالعمل الجاد من أجل مصر فى كل المواقع الحاكمة المؤثرة فى القوات الجوية كانت هى الساعية إلىّ والباحثة عنى دائماً، وهى تساوى فى عمر الزمن ستين عاماً على أساس أن متوسط العمل اليومى كان خمس عشرة ساعة فى الأسراب على اختلاف أنواعها وقيادة القواعد الجوية الرئيسية وقيادة الكلية الجوية التى تخرجت فيها بقيادتى إحدى عشرة دفعة، حضر الرئيس عبد الناصر وقيادات مصر كلها ـ لأهميتها القصوى ـ ثمانى حفلات تخرج لطلابها وكلها أعمال ميدانية، ولم أعمل فى الرئاسات إلا وقت [يقصد: حين] توليت رئاسة هيئة التدريب الجوى (والتى تشمل) مسئولياتها تدريب جميع أفراد القوات الجوية ورفع مستواهم بدءاً من الجندى حتى قياداتها العليا، ومنهم يا أستاذ هيكل طيارو المقاتلات والقاذفات والمواصلات والهليكوبتر ثم رئاسة أركان القوات الجوية. وقد تضمنت هذه المذكرات ظروف تعيينى فيها، ثم أخيراً قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى تشهد بفضل الله وتوفيقه. كل هذه المواقع بصماتى فيها كلها بالعمل الجاد المشرف».

❑

ثم يردف مدكور هذه الفقرة بفقرة أخرى أكثر قوة منها يذكر فيها أن عمله كمحافظ أضاف إلى رصيده ولم يقلل من هذا الرصيد، ولا يجد حرجا فى أن يتهم هيكل ومَنْ أملى عليه هذه السطور بأن النفاق ضللهم وأن الحقد أعماهم:

«وليس من المعقول أن تنسينى فترة ثلاث سنوات قضيتها فى أسوان محافظا لها مهنتى كضابط طيار وأصبح فى نظر الأستاذ هيكل ومَنْ أملى عليه كتابة هذه السطور فى جهل من الحقيقة والواقع فأعماهم الحقد وضللهم النفاق، أصبح رجل إدارة

محلية وكأن هذا وصمة عار يقلل من قدراتى فى قيادة القوات الجوية، ثم إن قضائى هذه الفترة على مستوى محافظ إقليم أسوان بصفة خاصة كان يقام على أرضه السد العالى أضخم مشروعات الثورة ومصانع السكر والسماد ومحطات القوى وتنفيذ مشروع تهجير أهالى النوبة وغيرها على عكس ما كتبه الأستاذ هيكل يضيف رصيدا إلى قدراتى ولا يقلل منها».

وإن المرء ليعجب من أن يتم تصوير العمل كمحافظ على هذا النحو السخيف الذى ورد فى عبارات هيكل برجل إدارة محلية وهو سخف متناه فى الغباء والتخبط وبخاصة فى وقت كان المحافظون وقيادات الإدارة المحلية يتولون مهمة الجبهة الداخلية على أعصابهم وبدون أية موارد حقيقية فضلاً عن أن هذا الوصف كان بمثابة مصادرة على تفكير أي قائد عسكرى متميز فى قبول العمل أو الترشيح ـ فيما بعد ـ كمحافظ لأنه يصبح حسب التشخيص الهيكلى مجرد رجل إدارة محلية.

(١٩)

ويتناول مدكور أبو العز التبرير الثانى الذى قدمه هيكل والذى يتعلق «بعمله فى أسراب النقل مع أن الظروف الآن تحتاج تجربة وخبرة أسراب القتال».

ويرد مدكور على هذا المنطق بكل وضوح وشمم، وتبدو عظمة مدكور ونبله وفروسيته فى هذا الرد على أروع ما يكون، ذلك أنه مستعيناً بالعلم والمنطق والخبرة العسكرية فضل أن يدافع عن حقيقة مهمة ولكن يبدو أنها كانت غائبة، وهى أن ضباطا النقل لابد أن يكونوا ضباطاً متميزين وليس كما صور هيكل بالإيحاء فى مقاله من أنهم أقل كفاية من غيرهم من طيارى المقاتلات، ونحن نرى هذا القائد العظيم وهو يروى تاريخه فى العمل فى الطيران العسكرى من ناحية، وفضل طائرات النقل من ناحية أخرى بطريقة متوازية:

«إننى حينما تخرجت طياراً عملت أول ما عملت فى أسراب القاذفات، ثم فى

أسراب الاستطلاع، ثم اخترت للعمل طياراً فى السرب الملكى، ثم قائدا له، ذلك السرب الذى كان الطيار فيه يختار بدقة من ناحية القدرات الفنية والسلوك العام المتميز ، وكنت إلى جانب عملى كطيار أقوم بقيادة الأقسام الفنية والإشراف عليها ولى دراسات طويلة فى هندسة الطيران وصيانة الطائرات وبعثات داخلية وخارجية فى وحدات التدريب على القتال فى الطيران الإنجليزى بأبى صوير، وفى الملاحة الجوية ببريطانيا».

....

«وتوليت تلك المواقع الحاكمة المؤثرة فى القوات الجوية وتخرج تحت قيادتى أجيال متعاقبة من الطيارين فى مصر وفى البلاد الشقيقة والصديقة، ثم رئاسة هيئة التدريب، ثم رئاسة الأركان».

«إن اختيار الطيار لأسراب الاستطلاع والمواصلات فى وقتنا كان على أساس كفاءات معينة وقدرات ممتازة، وكثير من طيارى المقاتلات والقاذفات يحولون عن الناقلات والهليكوبتر لأسباب خارجة عن إرادتهم كهبوط مستواهم الطبى».

❑

ويصل مدكور بعد هذه المقدمات القوية الحافلة بالحقائق العلمية والمنطقية إلى أن يقول إنه لابد أن يصحح لهيكل معلوماته:

«وهنا أيضا لا أريد أن أترك ما كتبه الأستاذ هيكل بشأن النقل من غير أن أصحح معلوماته وأبين جهل مَنْ أعماه الحقد فأملى عليه ما كتب، فأسراب النقل والمواصلات والهليكوبتر تقوم فى الحروب الحديثة بدور كبير لا يقل فى أهميته عن الدور الذى تقوم به الأسراب الأخرى».

«وعمل الطيار فى أسراب النقل يحتاج أن يكون ملماً بعلوم الطيران قاطبة، التى تناسب الطيران طويل المدى تحت كل الظروف، ومنها الحالات الجوية المضطربة كعلوم الملاحة الجوية، ومنها الملاحة الحسابية وعلم الأرصاد الجوية واللاسلكى والرادار وعلم الفلك، ويلزم أن تتوافر فيه المهارة وتحمل المسئوليات الجسيمة، لأن فى

يده وفى عنقه أرواحا كثيرة، وأن الطائرة التى يطير عليها باهظة الثمن والتكاليف، كما أن طيار النقل والمواصلات والهليكوبتر من أكثر الطيارين تعرضا للخطورة فى الحرب، فهو بحكم عمله يطير فى العمق فوق أراضى العدو بطائرات ذات قدرات محدودة فى السرعة والتسليح. فطائرته غير مسلحة التسليح الكافى للدفاع عن نفسها على عكس الحال فى المقاتلات والمقاتلات القاذفة».

ويزيد مذكور هذا المعنى وضوحا فيقول :

«إن طيار النقل والمواصلات والهليكوبتر يقوم بعمليات نقل الجنود المحملة جوا والإبرار الجوى والمظليين الجويين وقوات الصاعقة إلى ميدان المعركة، وفى العمليات الخاصة التى تحتاج إلى مهارة خاصة وشجاعة وإقدام أبطال تحت كل الظروف».

❏

ويجد مذكور نفسه فى حاجة إلى تأكيد المعانى التى شرحها بأن يذكر مثلا واضحا للذين عاشوا أحداث تلك الفترة، فيلجأ إلى مثل قريب للذهن والذاكرة هو حرب اليمن مصورا دور طائرات النقل فيها:

«ويذكرنى الحديث عن هذا التخصص من الطيارين بالدور المهم الذى قامت به طائرات النقل فى العمليات الجوية والحربية فى حرب اليمن وإلى حين انسحاب طائرات النقل العملاقة بإنشاء جسر جوى عبرت عليه القوات المسلحة تنقل الطائرات المقاتلات والقاذفات والأسلحة والمعدات الثقيلة والجنود والتموينات إلى ميدان المعركة، وبدونها ما استطاعت القوات المسلحة المصرية فى اليمن أن تبقى ساعة واحدة أو تؤمن نفسها، كما قامت [أى طائرات النقل] بعمليات القاذفات بعد تجهيزها لهذه المهام».

«ولا يمكن أن ننسى دور طائرات النقل بأنواعها فى الإنقاذ وفى تموين المناطق المعزولة باحتياجاتها وفى التصوير الجوى وعمل الخرائط الجوية وبالقيام بعمليات المسح الجوى الجغرافى الجيولوجى الإلكترونى لتحديد مناطق البحث عن المعادن والتنقيب عليها وغيرها من المهام.

ويمضى مذكور على هذا النحو الجميل المقنع من استعراض الحقائق العسكرية بأسلوب مبسط ومفعم بالتواضع والثقة والخلق الرفيع :

«إن العمليات الخاصة التى تقوم بها طائرات النقل والمواصلات والهليكوبتر فى العمليات الحربية وغيرها أصبحت لها أهمية خاصة وتتصدر العمليات الحربية كلها، فكم نقلت جنود العمليات الخاصة لإغراق القطع البحرية وهى راسية فى موانئ العدو وتدمير المنشآت الصناعية والمطارات فى عمق أراضيه ليلاً ونهاراً، وكم قامت بعمليات ناجحة لتدمير خطوط مواصلات العدو خلف خط النار وسلبت محطات رادارية كانت فى مناطق معزولة».

❑

وعند هذا الحد يكون مذكور قد وصل برده إلى أقصى درجات الإقناع بمدى جهل هيكل (هذا على حد تعبيره كما نرى) ومَنْ أملى عليه المعلومات الخاطئة، ولا يكون فى حاجة إلى أن يثبت هذا المعنى، لكنه بطريقته الهادئة فى هذه المذكرات حريص على إثبات هذا المعنى بكل وضوح وصراحة، ومع هذا فإنه حريص فى نهاية الفقرة كما سنرى على أن يظهر عطفه على هيكل الذى ما كان ينبغى لشخصه ولاسم مثل اسمه أن يقبل هذا النوع من الاستخدام الكريه:

❑

«لعل القارئ الكريم يدرك من هذه اللمحة السريعة عن قيمة طيار المواصلات والنقل والهليكوبتر فى الحرب وفى السلم جهل الكاتب ومن أملاه عليه من معلومات خاطئة عنه، فالطيارون بتنوع تخصصاتهم لا يفضل بعضهم بعضاً، فهم أجهزة رئيسية فى جسم واحد هو القوات الجوية، لا يمكن لهذا الجسم أن يبقى على قيد الحياة بدون جهاز واحد منها، فمثل الأستاذ هيكل ما كان يجب أن يُستخدم هكذا، وما كان له أن يقبل على نفسه هذا النوع من الاستخدام».

على هذا النحو فإن مذكور أبو العز الذى عمل فى كافة تخصصات الطيران سواء فى القاذفات أو الاستطلاع أو التدريب أو قيادة الكلية الجوية أو رئاسة الأركان أو قيادة القوات الجوية نفسها لا يقبل بأى صورة من الصور نصاً صحفياً يعلى من قيمة تخصص من تخصصات الطيران على تخصص آخر.

(٢٠)

ثم يأتى الفريق مدكور أبو العز إلى الجزئية الثالثة التى ذكرها هيكل فى قوله : «إن الفريق مدكور أبو العز ينتمى إلى مدرسة ترى الاستقلال الكامل للأسلحة الثلاثة البرية والبحرية والجوية. وهناك مدرسة أخرى ترى أن استقلال الأسلحة يجب أن يكون استقلالا ذاتيا وفق ظروف كل منها، لكن الأسلحة الثلاثة فى النهاية لابد أن تتصل فى كيان محارب واحد وفق ظروف الحرب الواحدة».

ويرد مدكور على هذه الفرية بقوله :

«إن مجرد قراءة هذه المذكرات فيما يختص بتنظيم القوات المسلحة الذى كنت أتطلع إليه والتنظيم الذى حاول القائد العام أن يفرضه والذى سبق أن رفضته يتضح أننى لا أريد الاستقلال الكامل للأسلحة كما ذكر الأستاذ هيكل، ولا أريد فى الوقت نفسه أن يقود فرع من فروع القوات المسلحة فرعاً آخر تحت اسم القيادة العامة للقوات المسلحة، وإننى أومن أن تكون قيادة القوات المسلحة موحدة بقيادة قائد عام غير منحاز يخلع زيه الأصلى ليكون للجميع غير حاقد على أى فرع من الفروع الرئيسية للقوات المسلحة يقودها من خلال قيادات هذه الأفرع الرئيسية نفسها تكون وثيقة الصلة به وليس بواسطة مديرى المكتب والسكرتارية».

❑

وعلى الرغم من هذا الإيضاح الصريح الذى يقدمه الفريق مدكور أبو العز، فإن العقيدة المستقرة فى نفوس كثير من الذين عاصروا هذه الفترة ظلت مرتبطة بهذه الجزئية، ويرى هؤلاء أن مدكور لم يكن يؤمن إلا بالاستقلال، ولسنا فى مجال الدفاع عن مدكور وعن معتقداته، لكن من الواضح لكل ذى بصيرة أن مدكور لم يكن ضيق الأفق بحيث يؤمن بالاستقلال على هذا النحو الذى صوره هيكل، وإنما كان يؤمن بنوع آخر من استقلال التخصص الذى لا تكون فيه الكلمة العليا إلا لأهل التخصص وهو يؤكد على هذا المعنى بقوله :

«من مجرد قراءة هذه المذكرات يتضح للقارئ ما أريده من تنظيم لـلقيادة العامة للقـوات المسلحـة وما لا أريده منه: إن رأيـى فى التنظـيم واضح وضوح الـشمس لا لبس فيه. إنـنى فى النهاية أريد أن تكون مـقومات مسئولياتى كلـها تحت يدى وأومن بقيادة عامة مسـلحة موحدة تتحمل بكفاءتـها مسئولياتها دون تفويض هـذه المسئولية للصغار كما كان يحدث قبل الهزيمة».

❑

ويؤكد مدكور فهمه الصائب على نحو ما صورناه بأسانيد كثيرة حيث يقول :

«إن مدرستى يـا أستاذ هيكل هـى التى تخرج فيهـا تحت قيادتى أربعـة من شباب قيادات تولوا قيادة الـقوات الجوية من بعدى وتخرج فى مدرستى حيـنما كنت قائدا للسرب الملكى قبل الثورة قيادات تولت الهيئات الرئيسية للقوات الجوية لفترة طويلة بعد قـيام الثورة منهـم رؤساء هيئة الـتدريب الجوى وهيـئة الإمداد والتمويـن الجوية وهيئة الإدارة الجوية وهيئة المهندسين الجويين».

....

«ومدرستى هى التى خرجت تحت قيادتى مئات الطيارين هم الآن رؤساء هيئات القوات الجوية كـلها، وهم العمد الأساسـية لها، وهم أساتذة الأجيـال الحاضرة التى تملأ سمـاء مصر زهوا وفـخرا، وهم الذين قـاموا بالضـربة الجوية الأولـى فى حرب ١٩٧٣ وقادوا المعركة إلى النصر، ومنهم الـذين دمرتهم هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ غدرا وعبثا فى أعظم مشاهد التضحية والفداء».

(٢١)

ثم يصل مدكـور إلى أقوى نقاط الرد على هيكـل متحدثا عن نفسه بـلقب «طيار النقـل» وكأنه يعتز بـهذا اللقب الـذى خلعه علـيه هيكل من بـاب التبرير.. وهـيكل بالطبع مظلوم قبل أن يكون ظالماً، وأداة للظلم، لكنه نجح فى هذا الدور:

«وأخيراً أود أن أزيد من معلومات الأستاذ هيكل بالحقيقة والصدق أن طيار النقل الذى تحدث عنه وهو أنا، كانت القيادة العليا حريصة على الإبقاء عليه محاولة عدم التفريط فيه فأفسحت الطريق أمامه لتولى المناصب العليا فى القوات الجوية، وقد حكت هذه المذكرات عن ظروف تعيينه رئيسا لأركان القوات الجوية والدفاع الجوى».

❑

بل يتطرق مدكور إلى أن يروى كيف أنه كان من الممكن أن يحال إلى التقاعد دون أن ينال رتبة اللواء لولا حرص القيادة عليه وعلى الإفادة من كفايته:

«أما ظروف ترقيته [أى ترقية مدكور نفسه وهو هنا من باب التقريع والتوبيخ لهيكل وتبريره، يتحدث عن نفسه بضمير الغائب وبصيغة طيار النقل] إلى رتبة اللواء طيار فإن القوانين كانت تقضى بإحالته إلى المعاش لأنه بقى فى رتبة العميد طيار خمس سنوات، ولم يكن محل للترقية لرتبة اللواء طيار،ومع ذلك نال الترقية استثناء من القانون كما أخلى من أمامه مكان بإحالة أحد الزملاء من رتبة اللواء طيار بمجرد أن استكمل فيها سنتين، وكان من الممكن لهذا الزميل أن يجدد له سنة واثنتان وثلاث،وحينما علم طيار النقل (أى مدكور نفسه كما ذكرنا) أنه استكمل السنوات الخمس فى رتبة العميد طيار وعلم عدم وجود محل له للترقية لرتبة اللواء طيار وأن النية متجهة إلى ترقيته استثناء، قدم التماساً بطلب إحالته إلى المعاش وهو برتبة العميد طيار لأنه لا يريد الترقية استثناء ويريد أن يفسح الطريق لزملائه ممن هم دونه فى الرتبة للترقية إلى رتبة أعلى، وقد أشار فى التقرير إلى أن بقاء الرتب الكبيرة فى رتبها مدداً طويلة قد يكون سببا فى إحالة زميل فى رتبة أدنى بعد استيفائه المدة المقررة لرتبته لعدم وجود محل له للترقى».

«واضح أن بقاء الرتب الأعلى مدداً طويلة تحجب قيادات أدنى عن الترقية،ذلك الوضع الذى كان سائداً فى القوات المسلحة قبل الثورة وكنا جميعاً غير راضين عنه، فالأصح أن مَنْ لم يرض لنفسه شيئاً لا يرضاه لغيره، هذا التقرير الذى قدمته تحت يدى الآن حتى كتابة هذه المذكرات، وتحت إصرار القيادات الأعلى لها رُفض

التماسى ورقيت استثناء إلى رتبة اللواء طيار، وكما ارتاح ضميرى - إلى حد ما - بخلو مكان لى لتصبح الترقية طبقاً للقانون».

(٢٢)

هكذا نفهم مما يرويه مدكور نفسه أن قيادات الثورة كانت فى الواقع حريصة على الإفادة من شخصه وكفايته لا فى موقع قائد القوات الجوية أو رئيس أركانها فحسب، بل ومن قبل هذا كلواء فى القوات الجوية حتى حينما كان المكان المفترض أن يتم ترقيته فيه مشغولا مما كان يستدعى إحالته إلى التقاعد وقد أمضى فى الرتبة السابقة أقصى فترة مسموح بها فيها.

❑

ثم يصل مدكور بعد هذا إلى درجات قصوى من الفخر والاعتزاز وهو يخاطب هيكل فيقول:

«إن قائد القوات الجوية الذى تحدثت عنه فى مقالك يا أستاذ هيكل بأنه قد نقل من القوات الجوية إلى منصب رفيع آخر، لأنه طيار نقل ورجل إدارة محلية، هو الوحيد من أربعين مليوناً من شعب مصر - وهم تعداد مصر عام ١٩٦٧ - الذى عمل تقديراً صحيحاً للموقف قبل حرب الهزيمة أفصح عنه لأحد كبار المسئولين الملتصقين بالرئيس عبد الناصر وهو الوزير أمين هويدى، وتنبأ بالهزيمة بالصورة المخزية التى حدثت وكان وقتذاك محافظاً لأسوان: رجل إدارة محلية».

«لم يستطع أحد من قادتنا أن يفعل مثلما فعل أو يقول مثلما قال فى صراحة المؤمن بالله جلت قدرته والعليم بكل الحقائق التى بنى عليها قراره، غير «الصراحة» التى كتبت بها مقالك [يعرض هنا مدكور بالعنوان الثابت لمقالات هيكل] كان تقديرى للموقف هو كما أشرت إليه فى الأبواب الأولى من هذه المذكرات، وهو ما حدث بالضبط».

❑

ثم يستشهد مدكور فى رده على هيكل بما أوردته الصحافة، سواء عند تركه منصبه كقائد للقوات الجوية أو فى أثناء عمله المجيد فيها:

«إن قائد القوات الجوية الذى أسأت إليه فى مقالك وقدمته هكذا للجماهير هو الذى قالت عن جريدة «الأنوار» فى الرابع من تشرين الثانى عام ١٩٦٧ عندما ترك القوات الجوية ما نصه: «إن مدكور أبو العز قام فى الشهور الأربعة الماضية بتحقيق ما وصفته المصادر الغربية بأنه معجزة فى نطاق إعادة بناء القوات المصرية مادياً ومعنويا»، هل قرأت هذا يا أستاذ هيكل؟!».

«وهل قرأت أيضا ما قالته الصحف الأجنبية الأخرى والصحف القومية عن الضربة الجوية الناجحة التى قامت بها القوات الجوية المصرية فى الخامس عشر من يوليو عام ١٩٦٧.. قالت هذه الصحف: «إنه لم يكن من المتصور أنه بعد شهر من هزيمة ساحقة أن يقوم الطيران.. والطيران بصفة خاصة بهذه المعجزة».

❑

ثم يخاطب الفريق مدكور أبو العز هيكل منبها وموبخاً ومؤدباً ومقرعاً :

«لاشك يا أستاذ هيكل أنك قرأت الكثير عن الفترة الوجيزة التى تشرفت وزملائى فيها بقيادة القوات الجوية بعد الهزيمة البشعة، وعن الإنجازات التى تمت لإعادة بناء القوات الجوية من الصفر، فى التدريب، وفى إعادة الروح إلى أفراد القوات الجوية بصفة خاصة والقوات المسلحة والشعب المصرى بصفة عامة، التى كانت قد دمرتها الهزيمة العاتية، وفى بناء الرجال، وفى العمليات الجوية الناجحة التى أعادت الوعى إلى القوات الجوية الإسرائيلية، مما جعلها تتخلى عن صفتها وكبريائها فأصبحت غير قادرة على استيعاب اللقاءات المحدودة مع الطيران المصرى فى فترة ما بعد الهزيمة مباشرة».

❑

وفى فقرة أخرى يخاطب مدكور أبو العز هيكل فى قوة وجسارة وحديث مَنْ يعتقد أنه الأكبر إلى الأصغر منه بمراحل، فهو ينظر إليه من علٍ ويقدم له النصائح التى قدمها الكبير لمن هو أصغر منه، ويصل فى نصحه إلى أن يوجهه إلى أن الصحفى لا يكون حرا إلا إذا تحرر قلمه، وتحرر ضميره:

«وأشياء كثيرة أخطأت فيها يا أستاذ هيكل، فقد استغلك البعض فأملوا عليك ما

كتبت فكنت لسان حـال مَنْ كنت تعمل لحسابهم، فكم ألهبت بـقلمك الجائر ظهور الأبرياء والـشرفاء، فلم أكـن أنا الوحيد الـذى تناولته بـادعاءات باطلة لإرضـائهم، فقمت بفبركة مبررات تركى قيادة القـوات الجوية على النحو الذى ذكرته فى مقالك إرضاء لقيادات تعفنت بـغية التستر على أخطائهم وتصرفاتـهم التى أدت إلى الهزيمة البشعة وأطاحت بالقوات المسلحة وبـالوطن إلى الدرك الأسفل، ونصيحتى أن تدرك أن الصحفى لا يكون حراً إلا إذا تحرر قلمه، ولا يكون القلم حراً إلا إذا تحرر الضمير من كل قيد حتى يرعى فيما يكتب الله والضمير».

(٢٣)

بل يصل مدكور إلى أن يستشهد بما قاله الرئيس مبارك نفسه وهو صاحب الضربة الجوية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣:

«ولعلك قرأت أيـضا يا أستاذ هيكل ما قـاله قائد القوات الجوية صـاحب الضربة الجوية القاضية فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ الـتى مهدت فى اقتدار إلى إحراز النصر لقواتنا المـسلحة وزلزلت أقدام القـوات الجوية الإسرائيلية فـلم تستطع القيـام بضربة مضادة، ولـعلك سمـعته أيضـا وهو يقول فـى خطاب ألقـاه على جمـاهير الشـعب المصرى: إن طـائرة مصريـة واحدة لم تدمـر وهى على الأرض فـى معركة الـعبور، وذلك بفضل بـناء العديد من المطارات ودشم الـطائرات التى كان قد بدئ فـى بنائها فى فترة قيادتى للقوات الجوية طبقاً لتخطيط أعددته (أنا) ومعاونى (و) نفذ شطر غير قليل منه قبل تـركنا للقوات الجوية، وقامت باستكماله أجـهزة قيادات القوات الجوية من بعدنا».

«وهنا أذكر القارئ الـكريم بما سبق أن أشرت إليه فى هذه المـذكرات بشأن مأساة عدم بـناء المطـارات ودشم الـطائرات فـى الفتـرة التـى سبقـت هزيمة يـونيـو، ولولا إصرارى فى حزم على بنائها وتهديدى بالاستـقالة من موقعى كقائد للقوات الجوية، لما استجابت القيادة العامة إلى بنائها».

«ولعلك قرأت أيضا يا أستاذ هيكل ما تم إنجازه فى بناء القوات الجوية بقيادتى وبجهد معاونى الكرام أكثر مما قرأت ما يضعنى وزملائى أمام جماهير شعبنا موضع الشرف والفخر، ولكن قلمك للأسف الشديد قد توقف عن الإشادة بالحق وأسهب فى الإساءة بالباطل».

❑

وبعد كل هذا التقريع والتهذيب والتوبيخ والتذنيب لا يترك مدكور هيكل دون أن يؤنبه على لفظ «العاجل» الذى وصفه به قرار التفكير فى اختياره عقب هزيمة ١٩٦٧ لمنصبه كقائد للقوات الجوية، ويضع قائد القوات الجوية الصحفى فى مأزق صعب حين يحاسبه حسابا عسيرا على لفظ ظنه يفوت بدون حساب:

«ثم أسأل الأستاذ هيكل:

«هل كان تعيينى أنا وحدى على أثر الهزيمة بناء على تفكير عاجل وفى ظل ظروف النكسة المفاجئة التى يحتمل فيها الخطأ، ولم يكن التفكير العاجل بالنسبة لغيرى ممن عينوا معى فى نفس الظروف، أعنى منهم الفريق أول محمد فوزى وهو من قمة المسئولين عن الهزيمة، والفريق عبد المنعم رياض وكان قائد القوات المشتركة المتداعية فى الشرق».

❑

وينطلق مدكور من هذه النقطة ليتحدث عن قدم العهد بالتفكير فى إسناد قيادة القوات الجوية إليه:

«هل يتفق ما كتبته فى هذا الشأن مع الحقيقة الثابتة من أن التفكير فى إسناد قيادة القوات الجوية لم يكن وليد الهزيمة، بل كان منذ فترة بعيدة على أثر انفصال الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١، ثم إصرار الرئيس عبد الناصر على تعيينى قائدا للقوات الجوية عام ١٩٦٢ وقت إسناد رئاسة أركان القوات الجوية والدفاع الجوى لى بصفة مؤقتة لمدة عام واحد أعين بعدها قائدا لها كما أشرت إليه فى موضع سابق من هذه المذكرات، وكما أقر الرئيس عبد الناصر نفسه لى فى أول لقاء معه عند

تعيينى قائدا للقوات الجوية، وهل مازلت مصرا على أن تعيينى قائدا للقوات الجوية بعد الهزيمة كان بناء على تفكير عاجل».

....

❑

بل إن مدكور يلفت نظر هيكل نفسه إلى تناقض ما يراه مع ما يرويه هو نفسه عن إنجاز مدكور:

«هل يتفق يا أستاذ هيكل ما قلته فى هذا الصدد مع ما أشرت إليه فى مقالك من أننى قمت بخدمة عظيمة فى وقت حرج، ومع ما أشار به الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه أمام مجلس الأمة يوم افتتاح الدورة البرلمانية لمجلس الأمة فى نوفمبر عام ١٩٦٧ وهو يشيد بما حققته القوات المسلحة من معجزات فى سبيل إعادة البناء، ومع ما تفضل به الرئيس أيضا علىّ وعلى زملائى من تقدير لما قمنا به من أجل سرعة بناء القوات الجوية وتفوقها فى العمليات الجوية بعد فترة لا تتجاوز أربعين يوماً من الهزيمة طلبت إسرائيل على أثرها من الأمم المتحدة (مجلس الأمن) وقف إطلاق النار، وذلك عند لقائى الأخير معه بمناسبة تركى القوات الجوية، هل يتفق ذلك كله مع ما ذكرته من أسباب مزيفة؟».

(٢٤)

ويصل مدكور بمنطقية إلى أن يحمل هيكل نفسه المسئولية عن الفترة التالية لخروجه من القوات الجوية، مع أن هيكل لم يكن يعرف أن هذا سيحدث، لكن مدكور لا يرحم هيكل لأن هيكل نفسه لم يرحم نفسه وهو يقدم تبريرات سخيفة:

«وإذا علمت يا أستاذ هيكل أنه بعد فترة لم تتجاوز سنة وستة شهور أحيل اللواء طيار مصطفى الحناوى قائد القوات الجوية للمعاش من بعدى، وتولى القيادة من بعده اللواء على بغدادى لفترة مماثلة أيضا أحيل بعدها إلى المعاش، فهل كان تعيين كل منهما بناء على تفكير عاجل وفى ظل ظروف النكسة التى يحتمل معها الخطأ؟

أم كان ذلك دليلاً علـى تخبط القيادات العليـا وترددها وانصياعها لرغبـات المستعمر الجديـد على النـحو الذى أشـرت إليه فى مـكان سابـق من هذه المـذكرات، وتحقيـقا لنزعات شخصية غير بريئة».

❑

ولا يفوت مدكور فى وسط هذا كله أن يحدد مذهـبه ورأيه فيما يتعلق بطول المدة التى ينبغى أن يبقـى فيها القادة فى مناصبهم القيادية، فهـو ضد عدم الاستقرار بنفس الدرجة التى هو فيها ضد بقاء القادة مددا طويلة:

«وإذا كنت أعيب بقاء القيادات العليا فى مواقعها مددا طويلة، فإنه أيضا من عدم الاسـتـقرار ومـن الـتردد والتخبـط وخيبـة الأمـل أن تتـغير القـيـادات بعـد فترات قصيرة».

«ثم إن تولى القـيادة ليس مقصوراً على تـخصص معين من الطيـارين. إن القيادة علم وفن وخـبرة ومران وموهبة، وشـخصية قوية لا يقـدر عليها إلا من تـوافرت فيه هذه الصفات كلها».

❑

ثم يتطرق مدكور إلى ما يعتبره من وجهة نظر ذلك العـ ـمر بمثابة الخطأ الوحيد فى اختياره هو كـقائد للقوات الجوية، وهو أنه لـم يكن إمعة، وهو يخاطب هـيكل بهذا المعنى الذى غاب عنه عند عرضه للقضيـة على صفحات الصحف حين تعمد بخبث سخيف أن يوحى بأن تعيين مدكور قائداً للـقوات الجوية لم يكن صائبا تماما لأنه جاء على عجل:

«شىء واحد يا أستاذ هـيكل أخطأت فيه القيادة الـعليا عند تعيينـى قائدا للقوات الجوية، هو أنهـا أغفلت أمرا مهما وهو أنهـا سوف تتعامل مع قيادة جـديدة للقوات الجوية مـن صنف جديد لن تـكون أبدا إمعة، بل قـيادة تتمسك بمـسئولياتهـا وكرامة القوات التى تقودها تمـسكها بالحياة. لن تفرط ولن تسمح لأحـد أن يفرط ولن تعمل لحساب قائد كائنـا مَنْ كان، تحافظ على سيادة الوطن وسلامة أراضيـه بكل ما وهبها الله من فكر وعلم وخبرة، وبالتضحية بغير حدود».

ويختتم مـدكور حديثه المؤنب لـهيكل مصوراً إياه مُـوظفا كلسان حال لمـن يعمل لحسابهم، وأنه لـم يكن ضد مدكور وحده ولكنه كان ضد الأبـرياء والشرفاء، وأنه ـ أى هيكل ـ كان عبداً للقـيود التى جعلته لا يرعى الله والضمير فـيما يكتب.. وهكذا يصل مدكور إلى أن يقدم لهيكل النصيحة بتـحرير قلمه حتى يكون هو نفسه صحفياً حرا:

«وأشياء كثيرة أخطأت فيها يا أستاذ هيكل، فـقد استغلك البعض فأملوا عليك ما كتبت فكنت لسان حـال من كنت تعمل لحسابهم، فكم ألهبت بـقلمك الجائر ظهور الأبرياء والـشرفاء، فلـم أكن أنا الوحـيد الذى تنـاولته بادعـاءات باطلة لإرضـائهم فقمت بفبركة مبررات تركى قيادة القـوات الجوية على النحو الذى ذكرته فى مقالك إرضاء لقيادات تعفنت بـغية التستر على أخطائهم وتصرفاتـهم التى أدت إلى الهزيمة البشعة وأطاحت بـالقوات المسلحة وبالوطن إلى الدرك الأسفـل، نصيحتى أن تدرك أن الصـحفـى لا يكـون حرا إلا إذا تحـرر قلمـه، ولا يكـون القـلم حـرا إلا إذا تحرر الضمير من كل قيد حتى يرعى فيما يكتب الله والضمير».

(٢٥)

ويمضى مدكور فى التنبيه إلى أن هيكـل لم يكن يدرك أن شمس الصباح ستشرق بعد الليل مهما طال وإلا لما وجد نفسه عاريا مواجها بإثم ما كتبه ضد أناس شرفاء:

«ولو أن الأسـتاذ هيـكل أيقـن أن الليل مـهما طـال لابد أن تشـرق بعده شـمس الصباح.. وحـينما يصبـح الجو متاحاً لإبداء الـرأى الحر دون حرج أو قيد أو حيـنما تتحرر الأقلام والـضمائر، وحينما تظـهر الحقائق واضحة وترفع الحـماية عن الأقلام العميلة الغاشـمة، فإنه يجد نفسه عاريا يواجه بإثم مـا كتب ضد المواطنين الأشراف، فلو أنه أدرك هذا كله لما كتب ما كتب».

وفى هذا الإطار يلقى مدكور أبو العز بأضواء مهـمة على طريقة اختيار خلفه فى قيادة القوات الجوية، وهو يتهم السوفييـت صراحة بأنهم كانوا وراء هذا التغيير الذى تم على النحو الذى تم به:

«بقى أن أوضح للقارئ الكريم لماذا لم يعين اللواء طيار على بغدادى قائدا للقوات الجوية خلفا لى وعين بدلا منه اللواء طيار مصطفى الحناوى».

«أقول إنه بالنسبة للاتحاد السوفيتى ولمن تمنوا إزاحتى من موقعى فلا اعتراض لديهم أن يكون أحدهما قائدا للقوات الجوية والآخر رئيسا للأركان، المهم عندهم بالدرجة الأولى أن أترك القوات الجوية وأن تترك القيادات التى كانت تعاوننى مكانها، وقد تم لهم ذلك، وبالرغم من أن العميد طيار على بغدادى كان هو المقرر تعيينه بادئ الأمر قائدا للقوات الجوية كما سبق أن ذكرت وهو الأحدث، فقد قبل العميد طيار مصطفى الحناوى وهو الأقدم أن يكون رئيسا للأركان».

«ويبدو أن القيادة العليا عدلت ما اعتزمت عليه بعد أن انكشف للعامة بالقوات الجوية أن تعيين على بغدادى كان بناء على طلب السوفييت فعينت اللواء طيار مصطفى الحناوى حتى لا يأتى التغيير مطابقا تماما لما طلبه السوفييت، وحتى لا يقال إن القيادة العليا قد خضعت لرغبات السوفييت، ومهما تم من تغيير فإن حقيقة الأمر كما ذكرت أن القيادة العليا قد خضعت لرغبات السوفييت، كان ذلك واضحا مما سبق أن تضمنته هذه المذكرات، فكما قلت إن السوفييت لم يعترضوا على أيهما يكون القائد وأيهما يكون رئيسا للأركان، فالأمر واحد بالنسبة لهم، هذا أمر مؤسف ومحزن ومعيب»

❑

ويردف مدكور بذكر ما رواه له خلفه ـ اللواء الحناوى ـ عما لقيه من معاناة شديدة، وإحباط رغبته فى التصدى للأخطاء دون جدوى:

«لم يبق اللواء طيار الحناوى فى قيادة القوات الجوية إلا مدة لا تتجاوز السنة وستة شهور، أُبعد بعدها من موقعه ليحال إلى المعاش».

«وفى لقاء لى معه صرح لى بأنه هو الآخر لاقى الكثير من المشاكل والمعاناة التى واجهتها فأراد أن يتصدى لها فأزاحوه».

«هكذا تركت القوات الجوية فالتقت بذلك رغبة السوفييت مع أمنية الفريق أول

محمد فوزى الذى ترك موقعه كقائد عام للقوات المسلحة ووزير للحربية فى عهد الرئيس السادات إلى أسوأ مصير».

(٢٦)

وبعد عدة حلقات من مذكراته يتحدث مدكور أبو العز بأسى عن مشاعره الشخصية عند تركه قيادة القوات الجوية فيقول:

«تركت القوات الجوية تغمرنى الحسرة ويعمنى الأسى والأسف، لا لمنصب افتقدته اعتقده غيرى رفيعا، ولكن لأننى كنت أتمنى لو سارت الأمور فى طريقها الطبيعى المأمون حتى يمكننى فى رحابها أن أؤدى الكثير لسلاحى ووطنى، وهذا أولا.. وثانيا لأن خروجى كان بناء على طلب السوفييت فافتقدنا السيادة فى اتخاذ قرارنا، وثالثا لأن خروج العدد الضخم من القيادات الواعية معى حرم القوت الجوية من خبراتهم، الأمر الذى أحدث فيها تحطيما وتدميرا».

❑

وهو يتحدث فى ذات الوقت برضا نفسى عن خلاصه وراحته من العنت الذى كان يلقاه دون أن يجد الدعم والحزم المطلوب من الرئيس عبد الناصر:

«تركتها مرتاح الضمير أيضاً لأن الاستمرار فيها فى ظل المعوقات والمشاكل التى مارستها معى القيادة العامة للقوات المسلحة وعدم مساندة الرئيس عبدالناصر لى فى حزم، كما وعدنى، أصبح أمراً مستحيلاً، أيقنت أن الاستمرار مع السكوت على هذه المشاكل والمعوقات يعتبر تفريطا جسيما فى حق السلاح والوطن. والسؤال المحير: ماذا تريد القيادة العليا للقوات المسلحة وقائدها العام من مواصفات تتوافر فى قيادات الفروع الرئيسية للقوات المسلحة الذين عهد إليهم بأخطر مهمة وهى أمانة الدولة؟».

ومن حق القارئ بعد هذا أن نعرض له الوجه الآخر من القضية وبطبيعة الحال

فإنه لم تكن هناك نصوص مكتوبة تعبر عن الرأى الآخر فى عصر الكاتب الواحد، ولكن الوجدان الشعبى كان يحتفظ بهذه الآراء ويحيطها بسياج كفيل بالحفاظ عليها إلى حين تزول السيطرة على حرية التعبير وسرعان مازالت هذه السيطرة، وحين كانت جريدة أخبار اليوم فى ١٩٧٤ قد بدأت التعبير عن هواجس رجل الشارع بطرح الأسئلة (الحساسة) التى كان الناس يتداولونها فيما بينهم ويريدون لها إجابات شافية.. كان لا بد لموضوع إخراج مدكور أبو العز من موقعه كقائد للقوات الجوية أن يأتى ضمن هذه الأسئلة .

❑

وقد جاء السؤال فيما نشرته «عزيزتى أخبار اليوم» صريحاً ومختصرا ومعبراً عن كل المعانى المحتملة فى ذهن القارئ الذى أفاق لتوه من صدمة التعمية على أخبار كل مَنْ تركوا السلطة، وصوروا للناس على أنهم وراء الشمس وهكذا كان السؤال: أين مدكور أبوالعز!! وقد اقتصدت الجريدة فى الإجابة دون أن تقتصد فى مغازى ومعانى الإجابة فقالت: إن مدكور أبو العز بعد معركة رأس العش وبعدما أثبت وجوده فى القوات الجوية بعد هزيمة ١٩٦٧ كان يصلى الجمعة فى السيد البدوى ذات مرة ، وتعرف عليه الناس فالتفوا حوله وهتفوا بحياته، فكان الجزاء أن أبعد عن هذا المنصب ، وعين مستشاراً للرئيس جمال عبد الناصر، ولبث فى هذا الموقع عامين فلما لم يجد ما يفعله فى هذه الفترة آثر الاستقالة على تقاضى مرتب بدون عمل!!!

هكذا كانت رواية أخبار اليوم مثلاً للتعبير عن الوجه الآخر وهو الوجه الذى يجنح إلى تقديس المظلومين وهو رد فعل طبيعى فى سياق التاريخ كما أنه نتيجة حتمية تأتى فى أعقاب زوال سيطرة أصحاب الوجه الأول « المبرراتى بالباطل» فى تلك الفترات التى لا يكتب فيها إلا قلم واحد.

وهكذا كان يراد لتاريخنا أن يكتب !! بل لعله كتب هكذا وتأكدت كتابته فى الوجدان الشعبى وأصبح من الصعب علينا أن نتوقع أن نجد لمدكور صورة غير صورة العارف بالله الذى لم يخذله الله.

(٢٧)

ربما كان من حق القارئ علينا الآن أن نعود به مع الزمان إلى أربعة شهور سابقة حين أصبح مدكور قائدا للقوات الجوية عقب ١٩٦٧ وهو يروى بكل صراحة السبب المصادف الذى هيأ له هذه الفرصة، فقد كان السبب المباشر فى هذا نوعا من أنواع المصادفة الموفقة كما سنرى فيما يرويه صاحب المذكرات بكل تواضع عن قصة الفرصة التى أتاحت له أن يبدى رأيه حول توقعاته بخطورة الحرب وتشاؤمه من نتيجتها قبل أن تندلع، وسندرك أن موقفه هذا الذى ساعدته المصادفة البحتة على إبدائه فى وقت مبكر لأحد المقربين من الرئيس عبد الناصر كان بمثابة السبب المباشر فى استدعاء عبد الناصر له ليتولى قيادة القوات الجوية بعد وقوع الهزيمة:

« ... كان لى شرف إبداء الرأى فى حربنا مع إسرائيل وإعلان الرئيس الراحل جمال عبدالناصر عدم قيام مصر ببدء القتال، فقد استدعى جميع المحافظين لجمهورية مصر وأنا بينهم قبل حرب يونيو عام ١٩٦٧ ببضعة أيام للاجتماع بالسيد عباس رضوان نائب رئيس الوزراء للإدارة المحلية وبالسيد محمود رياض وزير الخارجية وقتذاك لتلقينهم الموقف من كافة جوانبه، فذكر الوزير محمود رياض فيما ذكر الاستعداد التام للقوات المسلحة والقوات الجوية بصفة خاصة وارتفاع الروح المعنوية لهذه القوات وللشعب، ولما كنت لا أتفق مع الوزير محمود رياض فى شأن استعداد القوات المسلحة استعداداً تاماً ولما كنت أعارض إعلان الرئيس جمال عبدالناصر عدم بدء القتال من جانب مصر، فقد طلبت الكلمة لإبداء رأيى إلا أن الوزير استأذن واعتذر عن الاستمرار فى الاجتماع للوفاء بميعاد سابق مع أحد السفراء حان وقته».

«ولما كان فى برنامجى لقاء مع المهندس محمد صدقى سليمان رئيس مجلس الوزراء فى نفس اليوم لإنجاز بعض الطلبات الخاصة بمحافظة أسوان، فقد كانت لى فرصة أخرى لإبداء الرأى، فتوجهت بعد الاجتماع إلى رئاسة مجلس الوزراء، ولما

لم أجده قابلت الوزير أمين هويدى وزير الدولة لشئون الرئاسة ورئاسة مجلس الوزراء، كان ذاك بالتحديد يوم وساعة وصول الملك حسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية إلى القاهرة لتوقيع اتفاق تحالف عسكرى بين مصر والأردن».

«أذكر التاريخ لأن الهاتف فى مكتب الوزير أمين هويدى قد أنبأه بالخبر فى حينه، بادرنى السيد أمين هويدى قائلاً:

«لقد حضرت فى الوقت المناسب، وسألنى عن رأيى فى الأحداث الجارية باعتبارى كنت رئيساً لأركان القوات الجوية والدفاع الجوى لفترة ما قبل تعيينى محافظاً لأسوان، قلت لسيادته بالحرف الواحد:

«إنه من الخطأ الجسيم أن يعلن الرئيس جمال عبدالناصر منح المبادأة لإسرائيل.

❑ فسوف لا نتحمل الضربة الجوية الأولى.

❑ وسوف يقضى على طائراتنا وهى جاثمة على الأرض.

❑ فمطاراتنا عارية.

❑ وطائراتنا منتشرة فى العراء ودفاعنا الجوى هزيل.

❑ وراداراتنا محدودة الكفاءة.

❑ وسوف تحصل القوات الجوية الإسرائيلية على السيادة الجوية فى المعركة.

❑ سوف يحدث لنا مثلما حدث فى عام ١٩٥٦.

❑ ويعود جيشنا مشتتاً فى الصحراء، ولكن بصورة أشد.

❑ فالقوات الجوية لم تكن على الاستعداد الذى أنشده وأطمئن إليه.

❑ وأعتقد أن القوات البرية والبحرية ليستا أحسن حالا.

❑ وإننى لست فى الجانب الذى ينادى بالحرب مع إسرائيل الآن، فالوقت ليس فى صالحنا».

❑

يورد مدكور أبو العز كل هذه الحقائق باختصار شديد وتركيز رائع مقدما لها كما رأينا بأنه صرح بها هكذا لأمين هويدى بالحرف الواحد ثم يقول:

«فوجئ الوزير أمين هويدى بهذا الحديث وقال: كيف ذلك وكل ما لدينا ينبئ بأن الحالة جيدة جداً، إنك تنظر بمنظار قاتم السواد».

«قلت: ليتنى أنظر بمنظار أسود ولكن هذه هى الحقيقة كما أراها».

«ومع أن لقائى هذا بالوزير أمين هويدى كان الأول أو الثانى ولم يكن لى سابق معرفة شخصية به، إلا أن استطلاع رأيى فى أمور مصيرية فرض علىّ الصراحة والوضوح».

(٢٨)

ويروى صاحب هذه المذكرات بقية هذه القصة فى أسى بالغ وشعور بالأسف والمعاناة ويقول :

«قامت الحرب وحدث ما توقعته وكأنى كنت أقرأ فى كتاب مفتوح، وقد علمت من الوزير أمين هويدى وزير الحربية بعد الهزيمة مباشرة أن ما قدرته من موقف وما قلته قد أبلغ إلى الرئيس جمال عبدالناصر فى حينه، وأن تعيينى قائداً للقوات الجوية بعد الهزيمة كان بسبب تقديرى الصحيح للموقف. كنت صريحاً فى الحديث، وقد ألزمتنى الأمانة أن أكون صريحاً فى إبداء الرأى بوضوح لا يشوبه غموض على وجه الخصوص فى المسائل المصيرية التى تمس مصرنا العزيزة مهما كانت النتائج».

❑

ثم يروى مدكور أبو العز كيف علم من الإذاعة بنبأ اختياره قائداً للقوات الجوية عقب وقوع الهزيمة، وكيف كان وقع هذا النبأ عليه شديداً لما يعلمه من صعوبة المهمة:

«وفى الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يونيو عام ١٩٦٧ كنت فى لقاء مع مجموعة من الضيوف وإذا بمجموعة من الزملاء ينقلون إلىّ ما سمعوه فى نشرة أخبار الساعة الخامسة مساء المذاعة بالراديو تعلن عن نبأ استقالة المشير عامر واستقالة

قادة القوات البرية والبحرية والجوية وإحالة آخرين إلى المعاش وتعيين الفريق أول محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة وتعييني قائداً للقوات الجوية واللواء بحرى فؤاد ذكرى قائداً للقوات البحرية، وأقبل علىّ الحاضرون فى اطمئنان يهنئوننى بالمنصب الجديد الذى اعتبروه منصباً رفيعاً يستحق التهنئة عليه».

«كان وقع النبأ علىّ شديداً لما أعلمه من ثقل المسئولية، الأمر الذى جعلهم يرددون: كيف لمنصب كهذا يسند إليك وأنت تبدو حزيناً متألماً هكذا.. ذلك مكانك.. وذلك ميدان عملك الحقيقى.. تلك كنت أمنية الجميع.. ذلك حقك رد إليك فى أحرج وقت تمر به البلاد.. هذه ثقة غالية من القيادة ومنهم جميعاً».

(٢٩)

وبعد هذا يروى مدكور أبو العز بتصوير دقيق وأمين قصة لقائه بالرئيس عبدالناصر بعد تعيينه قائداً للقوات الجوية، وهو لقاء حزين ومؤثر من جميع جوانبه، لكن صاحب المذكرات يتذكر الجو والتفاصيل على نحو دقيق وموح.

وعلى عهدة مدكور فإن اليأس والملل كانا قد وصلا بعبدالناصر إلى أن يفكر فى أن يستدعى الروس [يقصد السوفييت] ليتولوا أمر السلاح الجوى إذا ما وصل مدكور فى تقييمه لحال هذا السلاح إلى درجة معينة. ومن حسن حظ وطننا أن مدكور رغم واقعيته وتشاؤمه فى ذلك اللقاء لم يصل إلى هذا الحد، وإنما أبدى استعداده للمسئولية الكاملة.

ولاشك أن عبد الناصر قد خرج من لقائه بمدكور بقدر كبير من الأمل فى النهوض من الهزيمة، ولربما كان الدليل على هذا أن عبد الناصر حدث اللواء سعد الدين شريف فى اليوم التالى بإحساسه فى صورة احتجاج على أسلوب مدكور فى التعنيف، ونحن نعرف أن مثل هذه الشكوى لا تصدر إلا عمن وجد الأمل فيمن يعنفه، فهو يتقبل نصيحته ويتحفظ فقط على أسلوب تقديم النصيحة، ولو أنه كان

قد افتقد الأمل أو تأكد من اليأس لكان لتعليقه طعم ومذاق آخر، ولنقرأ هذه الرواية:

« ... غادرت الطائرة وأقلتنى سيارة إلى منزل الرئيس جمال عبدالناصر بمنشية البكرى، رافقنى فيها اللواء طيار محمد سعد الدين شريف، وهناك استقبلنى السيد محمد أحمد السكرتير الخاص للسيد الرئيس، كما استقبلنى بعض رجال القصر الجمهورى من مكتب السيد الرئيس والياوران».

«كانت القاهرة فى ظلام دامس بسبب الغارات الجوية المعادية، وكان المنظر محزناً كئيباً، ورهيباً فى نفس الوقت».

«توجهت داخل المنزل إلى الصالون الذى اعتاد السيد الرئيس مقابلة ضيوفه فيه،واتخذت مكانى على ضوء شمعة، وبعد لحظات أقبل الرئيس عبدالناصر فأديت له التحية العسكرية ورد التحية، ثم جلست صامتاً مطأطئ الرأس لا أتكلم، قطع سيادته الصمت الرهيب قائلاً: إنى أضع أمانة الدولة فى يدك، فماذا أنت فاعل؟ قلت ياسيادة الرئيس إن المهمة خطيرة والأمانة غالية والواقع كما شاهدته رهيب يفوق قدراتى.. وسوف أبذل كل جهدى وطاقتى وفكرى،و لا أدخر أى تضحية من أجلها».

«قال: ماذا تعنى.. هل آتى بالروس ليمسكوا السلاح؟!! قلت متعجلاً متعجباً: كيف ذاك إننى لم أقصد العجز أو القصور، فما أعنيه أن الصورة المجسمة لحال القوات الجوية بشعة بحقيقتها، وإنى على فهم كامل بخطورة مسئولياتى والمشاكل العديدة التى سوف تعترضنى، والمرء فى مثل موقفى يتطلع أول ما يتطلع إلى الله سبحانه وتعالى ليكون فى عونه، ويحتاج إلى مساندة وتأييد رئيس الجمهورية، فأطلب من الله العون والتوفيق، وأطلب من سيادتكم مساندتى وتأييدى، ذلك أمر أحتاج إليه أشد الاحتياج».

«قال السيد الرئيس: لك كل المساندة والتأييد ولك مطلق الحرية فى العمل وكل إمكانات الدولة توفر لك، لكن الجانب (الأشق كان يتعلق بالصعوبات) التى سوف أقابلها والتى تتصل بالأفراد الذين سوف أتعامل معهم، وكنت أعرفهم جيداً وأعرف

تاريخهم، أعنى الفريق أول محمد فوزى القائد العام الجديد للقوات المسلحة، ونفراً من أجهزتها الانتهازيين والمنتفعين، كما أعرف الأسلوب الذى تعودوه وألفوه فى الماضى فى معاملة القوات الجوية والدفاع الجوى، والنظرة القاصرة إليها».

❑

ويروى مدكور أبو العز كيف أنه حرص على أن يذكّر الرئيس عبد الناصر بنصيحته السابقة له فيما يتعلق بالقوات الجوية.. وكيف أن الرئيس عبد الناصر اعترف له بعجزه فيما مضى عن أن ينجز شيئاً ذا بال فى القوات المسلحة:

«ثم استأنفت حديثى مع السيد الرئيس قائلا: أتذكر ياسيادة الرئيس يوم كنت أؤدى اليمين القانونية أمام سيادتكم عقب تركى القوات الجوية وبمناسبة تعيينى محافظاً لأسوان، وكان حاضراً السيد على صبرى رئيس الوزراء الأسبق، حينما تفضلتم بإبقائى فى مكتبكم للحديث بعد أداء اليمين. أتذكر سيادتكم أنى فى هذه المقابلة طلبت من سيادتكم لأهمية دور القوات الجوية والدفاع الجوى لأمن الدولة أن تضعوا القوات الجوية تحت عنايتكم الشخصية، فحالها أصبحت تتطلب ذلك، وللأهمية القصوى لطلبى، فقد أعدته عليك ثانية فما كنت بمستطيع وقتها أن أوضح أكثر من ذلك لما أعلمه يقينا من علاقة متينة بينكم وبين المشير عامر، وخشيت أن يؤول ما أرمى إليه من مصلحة عامة على أنه وشاية بينكما، إن واقع الأمر كان يحتم علىّ ذلك، فقد وضع المشير عامر ثقته الكاملة فى الفريق صدقى، ثقة عمياء وأصبح لا يريد أن يسمع كلمة حق عنه وعن السياسة المرفوضة التى كان يتبعها فى طريقته لقيادة القوات الجوية وعن أعوانه من أهل الثقة من المنتفعين والمتسلقين، وهكذا كانت النتيجة».

«قال الرئيس: ما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً.. أقول لك لأول مرة: إننى كنت أود تعيينك قائداً للقوات الجوية على أثر انفصال سوريا عام ١٩٦١ وفى عام ١٩٦٢ كان القصد تعيينك قائداً للقوات الجوية وليس رئيساً للأركان، لكنى لم أستطع أن أفعل ذلك.. وكل واحد فاهم أنى كنت أستطيع أن أفعل كل شىء.. لكن الواقع خلاف ذلك».

«ثم انتقل بنا الحديث إلى موضوع آخر فقال الرئيس: «إنى جالس هنا وحدى أنتظر الجيش جاى يأخذنى، والحرس الخاص بى كله على الجبهة فى منطقة القناة، أنا معنديش حاجة غير طبنجتى فى جيبى.. وأدينى قاعد لما ييجوا نشوف هيعملوا إيه».

❑

ويصل مذكور أبو العز إلى أن يعبر عن أساه الشديد والعميق لحال الرئيس جمال عبد الناصر فى ذلك اللقاء فيقول:

«ما كنت أحب أن أرى العملاق [أى عبد الناصر] هكذا، ثم أضاف: إن الطيار الدرينى جاهز الآن بطائرته لحمايتى، قلت: وماذا يفعل الدرينى بطائرته، الكل فداؤك ياسيادة الرئيس.. فكن مطمئناً وإن شاء الله لن يحدث شيء.. وفى هذا اللقاء قال الرئيس: «إنه كان على وشك أن يخطئ فيعين اللواء طيار إسماعيل لبيب قائداً للقوات الجوية»، قلت: «إن المعلومات لديكم عن القوات الجوية خاطئة وتحتاج إلى الكثير من التصحيح».

(٣٠)

على هذا النحو يشعر القارئ بالتعاطف الشديد مع الرئيس عبد الناصر وهو يراه موشكا على أن يولى القوات الجوية ـ دون أن يدرى ـ أحد المتحمسين الكبار لعودة عبد الحكيم عامر والذين كانوا يخططون لهذه العودة على نحو ما كشفت عنه الأيام.

ومع هذا يدلنا مذكور أبو العز على أن الرئيس عبد الناصر كان حساساً جداً للنقد فيما بعد هزيمة ١٩٦٧، على الرغم من حاجته إلى النقد والتأمل ودراسة أسباب الهزيمة، لكنه فيما يبدو كان فى حاجة إلى تغليف الحقائق بطريقة جيدة لا تجرح فيه أكثر مما جرحته الأحداث، ولكن يبدو لنا من استنكار مذكور أبو العز أنه ـ أى مذكور ـ لم يكن قادرا على التواؤم مع مثل هذه الظروف خاصة أنه لم يكن يحس بأى قدر من المسئولية عن الأخطاء التى وقعت:

«ثم جاءنى فى اليوم التالى لاستلام عملى بالقوات الجوية اللواء طيار محمد سعد الدين شريف الياور الطيار لرئيس الجمهورية، جاء يستوضحنى أمراً عجباً، فسألنى: ماذا فعلت أمس مع الرئيس جمال عبدالناصر؟».

«أجبت: إننى لم أفعل شيئاً، واستفسرت منه: لماذا السؤال؟ قال: إن الرئيس عبدالناصر يقول إن مدكور أبو العز جاء يعطينى «داخلية»، «والداخلية» فى لغتنا العسكرية تأنيب وتوجيه، قلت: لست فى موقع أستطيع فيه أن أعطى رئيس الجمهورية داخلية ما، وأعدت عليه الحديث الذى دار بين الرئيس وبينى فى اللقاء الأول معه بمناسبة تعيينى قائداً للقوات الجوية والدفاع الجوى وقت تلقينى المهمة، فما قلته للرئيس عبدالناصر كان مجرد توضيح صنف الرجال الذين سوف أتعامل معهم فى مرحلة بناء القوات الجوية، ووجهت حديثى إلى الفريق محمد سعد الدين شريف: إننى لا أرى فيما قلته خروجاً عن المألوف، وتساءلت فى دهشة وضيق: كيف للرئيس عبدالناصر أن يفسر ما قلته على أننى جئت لأعطيه داخلية؟!».

❑

ويلفت مدكور أبو العز نظرنا إلى بعض مظاهر الشك والقلق والتربص التى سيطرت على مناخ العلاقة بين الرئيس عبد الناصر والعسكريين المقربين منه فى ذلك الوقت، وكيف كان فقدان الثقة السريع فى بعض المعاونين أمراً سهلاً، وهو يضرب المثل بثلاثة ضباط من أهم ضباط القوات الجوية هم الطيار الخاص بالرئيس وشقيق الرئيس وطيار ثالث كان مقرباً منه لدرجة أنه كان بمثابة المرشح لتولى قيادة القوات الجوية قبل مدكور نفسه:

«لم يمض شهر واحد وإذا بالطيار الدرينى الذى كان موضع ثقة الرئيس وكان مربوطاً فى طائرته المقاتلة فى وضع الاستعداد انتظاراً لصدور الأمر إليه بالإقلاع لحماية الرئيس، أصبح خائناً، يطلب منى الرئيس إحالته إلى المعاش فوراً، وكذلك فعل مع أخيه النقيب طيار حسين عبدالناصر زوج كريمة المشير عبدالحكيم عامر، وإذا باللواء طيار إسماعيل لبيب الذى كان سيعينه الرئيس قائداً للقوات الجوية بعد الهزيمة يقدم إلى المحاكمة فوراً كواحد ممن تسبب فى النكسة».

كما يشير مدكور إلى إصرار الرئيس عبد الناصر على التخلص من الطيارين من ذوى الانتماءات ـ أيا كانت سياسية أو عائلية ـ إلى أفراد جماعة الإخوان المسلمين، ويصور مدكور أبو العز هواجس عبد الناصر وقد وصلت إلى مراحل خطيرة، لكنه يقدم لنا الوجه الآخر من القضية وهو نجاحه بمساعدة زميله سعد الدين الشريف فى إعادة هؤلاء الطيارين العشرة إلى القوات الجوية بعد فترة وجيزة:

«ثم يطلب منى الرئيس فى إصرار إحالة عشرة من خيرة الطيارين ذوى الخبرة الطويلة الممتازة على الطائرات المقاتلة والمقاتلة القاذفة إلى المعاش، لأن أقاربهم ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين ليس غير، فتملكتنى دهشة عارمة وقلت فى ضجر: كيف ذلك ياسيادة الرئيس؟!! شىء من هذا لا يمكن أن يحصل وكيف لى أن أعيد بناء القوات الجوية من جديد، وأجنحتى تقطع هكذا!!».

«وأضفت أن هؤلاء يتولون قيادة الأسراب المقاتلة والمقاتلة القاذفة، وهم يقومون بتدريب الطيارين الجدد على فن القتال، لقد كلف الواحد منهم الدولة حوالى ثلاثين مليوناً من الجنيهات، أى أنهم كلفوا الدولة حوالى ثلاثمائة مليون من الجنيهات».

«إننى لا أستطيع أن أفرط فى أحد منهم لمجرد أنهم ينتسبون بالقرابة إلى بعض أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، لقد رجوته فى إلحاح ألا يفعل ذلك، فرد علىّ الرئيس:

«ولو... أنت لا تعرف الإخوان المسلمين.. دول ألعن من اليهود».

«كان الرد مفاجئاً لى فقلت:

«ولكن هؤلاء ليسوا من جماعة الإخوان، فرد علىّ فى إصرار: لابد من إحالتهم إلى المعاش فورا! قلت فى نفسى: لك الله يامصر.. اللهم طولك ياروح».

«لم يسمح الموقف العام بالمزيد من الإلحاح على السيد الرئيس لإبقائهم، فأحيل هؤلاء الضباط الطيارون إلى المعاش، بالرغم من ذلك لم يهدأ لى بال، لكم طالبت فى كل مناسبة بإعادتهم وقد ساعدنى فى ذلك اللواء طيار محمد سعد الدين شريف نائب كبير الياوران، فقام بدور مؤثر فأعيدوا إلى القوات الجوية ثانية بعد فترة وجيزة من إحالتهم إلى المعاش وانضموا إلى زملائهم بالقوات الجوية ليسهموا بقسط وافر

فى أهم مرحلة من مراحل إعادة البناء، وهى تدريب وتعليم الطيارين الجدد على فنون القتال، وقد أدوا واجبهم على أتم وجه؛ تحدوهم وزملاءهم الروح المعنوية العالية».

(٣١)

ويصور مدكور أبو العز بطريقة بديعة ودقيقة المهام الإنشائية التى كان ينبغى عليه أن ينتهى منها فى وقت مواز لإعداد الرجال والطائرات، ويروى بكل صراحة ووضوح أن عبدالناصر لم يبخل عليه بالموافقة والدعم والتمويل، لكن القائد العام الفريق فوزى بدأ يناور كعادته فطلبه فى اليوم التالى ليطلب منه أن يكتفى بنصف المبلغ، لكنه لم يجد فى نفسه الاستعداد لتكرار الأخطاء، وقد استحضر (كما يروى) صورة السنوات الإحدى عشرة الماضية، وإذا به فى شجاعة يحدثنا عنها باعتزاز شديد ويروى أنه كان ينهر (رئيسه) القائد العام نهراً شديداً على نحو ما سنقرأ فى الفقرة التالية:

«كان تكليفى بالمهمة بعد الهزيمة بقسوتها أمرا غاية فى الصعوبة، وكان لزاماً علىّ أن أبدأ على الفور فى إعادة بناء القوات الجوية والدفاع الجوى، وأول ما يجب عمله بناء دشم للطائرات وبناء العديد من المطارات فى شبكة تربط أنحاء الجمهورية كلها فى وقت واحد بدرجة أهمية واحدة، مع بناء الرجال والطائرات، فطلبت من الرئيس الراحل عبدالناصر الاعتمادات اللازمة لذلك، فأصدر أوامره للفريق أول فوزى القائد العام للقوات المسلحة وكان حاضراً، بأن يبعث إلىّ فوراً بالمبلغ الذى طلبته كمرحلة أولى».

❑

«وفى اليوم التالى للقاء طلبنى القائد العام تليفونيا ليطلب منى أن أكتفى بنصف المبلغ على أن يوفر لى النصف الآخر فيما بعد، وفى لحظات استعرضت فيلم بناء دشم الطائرات وكيف نظرت إليه القيادة العامة للقوات المسلحة،(وكان القائد العام

الذى يحدثنى أحد هؤلاء القادة) على أنه أمر تافه لا يستحق الاهتمام الأول فى التنفيذ، ولا قيمة له على مدى السنوات الإحدى عشرة التى سبقت الهزيمة، فرفضت القيادة العامة للقوات المسلحة درج اعتمادات لبناء الدشم والمطارات فى ميزانية القوات الجوية، واستعرضت فى ذهنى الصورة القاتمة التى صورتها أحداث الهزيمة عام ١٩٥٦ والصورة البشعة لهزيمة عام ١٩٦٧».

❑

«مثلت أمام عينى الصورة الأليمة حالكة السواد لطائرات القوات الجوية التى لقيت مصرعها على أرض المطارات، والتى لم يتبق منها إلا الرماد الذى رسم أشكالها على الأرض».

«ولم يغب عن تصوراتى مئات الكتائب وهى تساق فى مواكب المهانة والذل والعار إلى معسكرات الأسرى، واستعرضت فيلم بناء دشم الطائرات وفيلم الهزيمة، وإذا بالقائد العام يساومنى على مسئوليتى، وكأن درس الهزيمة عام ١٩٥٦ لم يكن رادعاً لنتعلم الدرس ونفهمه، فلم أشأ أن أدخل معه فى مناقشات غير مثمرة أو فى أمور فى غاية الأهمية لحياة القوات المسلحة وكرامة مصر ، ولم يكن الموقف بمآسيه يسمح باللعب أو العبث، أو المجاملة على أهون تعبير، بل لم يسمح إلا بالجدية والتصميم والحزم».

«كان طلب القائد العام مثيراً وباعثاً للانفعال، ومفقداً لكل صبر لا يجدى معه النقاش فقلت له: ياسيادة القائد.. كفى ما حدث لقد حضرت من أسوان لأعمل فى جدية ولم أحضر إلى هنا لمزاح، إذا لم يأتنى المبلغ الذى أمر به الرئيس عبدالناصر بالكامل اليوم فلن أبقى فى موقعى لحظة واحدة».

«فأجاب القائد العام طلبى على الفور للموقف الحازم من جانبى».

(٣٢)

هكذا نستطيع أن نفهم فى وضوح أن الحزم فى أداء المهام الوطنية كان كفيلاً بأن

يحقق لمدكور أبو العز ولبلاده أقداراً هائلة من النجاح، وهو حريص على أن يروى تفصيلات هذا الإنجاز على المستوى الإنشائى فيقول:

«وقمت وأجهزتى بعمل خريطة تمثل شبكة للمطارات الموزعة على الجمهورية توزيعاً تكتيكياً واستراتيجياً لتنفيذها، كما قمنا بتحديد عدد دشم الطائرات بتصميماتها المختلفة، وقد نفذ ـ فى المدة الوجيزة التى قضيتها فى موقعى كقائد للقوات الجوية التى لا تزيد على أربعة شهور ونصف شهر ـ عدد من المطارات وعدد كبير من دشم الطائرات، كما استكمل من تبعنى فى القيادة من الزملاء بناء الباقى من المطارات ودشم الطائرات حسب التخطيط الذى أعددته».

❑

ويشيد مدكور أبو العز بالقادة الذين عاونوه فى ذلك العمل المجيد فى ذلك الوقت ذاكراً بعض أسمائهم:

«ولن أنسى المجهودات الرائعة المقرونة بالروح المعنوية العالية، التى قام بها قائد سلاح المهندسين اللواء جمال محمد على وأجهزته من الضباط المهندسين، وبعض السادة الوزراء المختصين أذكر منهم الدكتور أحمد محرم والمهندس سليمان متولى واللواء مهندس محمد صبيح، وجهاز المبانى وإنشاء المطارات بالقوات الجوية بقيادة العميد مهندس أنور الحجاوى، ومن مساعديه العميد مهندس على حسن رجب والمهندسين المساعدين، ومهما حاولت أن أثنى على المجهود المثمر الذى قام به هؤلاء الخبراء فلن أستطيع أن أوفى حقه».

(٣٣)

هل لنا أن نعود الآن خطوة أخرى إلى الماضى لنتأمل بعض تاريخ مدكور أبو العز مع المناصب العسكرية التى تولاها ونتأمل الآن انطباعات عن المراحل التى مر بها فى حياته العسكرية والسياسية من خلال المناصب القيادية التى تولاها منذ بداية الستينيات.

يعترف مدكور أبو العز فى هذه المذكرات بأنه عرف فى مرحلة مبكرة ومن الفريق أول محمد صدقى محمود نـفسه بنية الرئيس عبد الناصر تعيينـه قائدا للقوات الجوية منذ مرحلة مبكرة، ومن العجيب أن تجهض نـوايا الرئيس عبد الناصر على هذا النحو الذى أجهضت به، بوسائـل شتى من حلول وسط ومن ترضيات ومن تأجيـل للتغيير لمدة عام.. وهكذا.

وسوف نخرج من قراءة رواية مدكور بانطباع لا نستغرب معه وقوع هزيمة ١٩٦٧ إذا كان اختيار القيادات يتم على هذا النحو المتراخى والمتداعى:

« ... وقد تأكد مـا قاله لى الفريق صـدقى عند تعييـنى رئيساً للأركان بـأن الرئيس عبدالناصر كان يريد تعيينى قائداً للقوات الجوية، فقد سمعت من الرئيس عبدالناصر فى أول لقـاء بعد الهـزيمة أنه أراد تغيـير الفريـق أول صدقى من زمن بـعيد لكـنه لم يستطع».

«استدعانـى الفريق أول محمد صـدقى محمود إلى مـكتبه وكنت أتولـى حينذاك رئاسة هيئة التدريب الجوى، فتوجهت إليه».

«وفى هذا اللقاء بدأ حـديثه بأن طلب منى أن يكون ما يدور فـى هذه الجلسة سراً لا أبوح بـه لأحد، فوعدت... فـاستأنف حـديثه قائـلاً بأن المشيـر عامر قد أخـبره أن الرئيس عبدالناصر طلب منه تعيينى قائداً للقوات الجوية والدفاع الجوى، وكان مصراً على هذا التعيين حينذاك، غير أن المشيـر عامر رأى إرجاء التعيين عاماً واتفق الرئيس والقائد العام على تعيينى رئيساً لـلأركان على أن أتولى قيادة القوات الجوية بعد ذلك بعام».

«ولما كان ذلـك يعنى عدم رغـبة الرئيس فـى بقائه قائـداً للقوات الجويـة، وهكذا يقول، فقـد طلب من المشير إعـفاءه من منصبه، فرد المـشير عامر بأن ذلك غـير ممكن الآن، وقد استقر الرأى على هذا الأساس، وسوف يترتب على تعيينى رئيساً للأركان خروج ثلاثـة من الزملاء الأقدم مـنى من القوات الجـوية، الأمر الذى دعاه ـ تـكريماً لهؤلاء الزملاء ـ أن يطلب من المشير عامر أن يكون قـرار تعيينى بعد قرار تعيينهم فى مناصبهم خارج القوات الجوية، فوافق المشـير عامر على ذلك، وقد أحسست أنه كان

آسفاً لخروج هؤلاء الزملاء ، ولم يكن أسفه أكثر من أسفي لخروجهم، غير أنني أحسست في الوقت نفسه أن أسفه لتعييني رئيساً للأركان كان أشد».

(٣٤)

ويبدو لي - كقارئ - أن الفريق مدكور أبو العز كان بصراحته وقوة شخصيته وقوة شكيمته يسهم في تعطيل قرار عبد الناصر بتوليه قيادة القوات الجوية، ودليلي على هذا هو هذه القصة التي يرويها عن معاملته الحازمة (وغير المطلوبة ولو مؤقتا) لمراكز القوى في سلاح الطيران في الأيام الأولى لتوليه منصبه.

ولست أعرف أي مشاعر تتغلب علينا ونحن نقرأ مثل هذه القصة، هل هو التقزز من هذا المستوى؟ هل هو الرضا بما فعل مدكور؟ أم أن قلوبنا تتعاطف معه وهو يواجه مثل هذه المواقف؟:

«على الرغم من ذلك جاء إلى مكتبي اثنان من القيادات غير الشرعية الذين تحدثت عنهم في هذه المذكرات، أحدهما كان يعمل مديراً لمكتب الفريق أول صدقي ورئيساً لفرع الأمن في القوات الجوية، والآخر كان يعمل مديراً لمكتب المشير عامر لشئون الطيران، كلاهما كانت له سلطة واسعة وكلمة مسموعة لدى الفريق أول محمد صدقي محمود، جاءا لتهنئتي بالمنصب الجديد».

«وسرعان ما تبينت الغرض من زيارتهما، وإذا بي أفاجأ بحديث إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الانحلال في الضبط والربط العسكري والتجاوز للقيم العتيقة التي تحكم تقاليدنا العسكرية، جاءا ليقولا لي إن الفريق أول محمد صدقي محمود ذاهب لا محالة وإنني سوف أتولى القيادة بعده وكلها أيام ويرحل، وطلبا أن يتعاونا معي وتكون القرارات باتفاق سابق معهما، وإن شاء الله سوف ييسران لي كل هذه الأمور وأستريح».

«فقلت لهما: ابحثا عن أحد غيري تمارسان معه هذه اللعبة، وأنهيت المقابلة،

فخرجا، لم أتحدث مع الفريق أول محمد صدقى محمود بشأن مادار بينى وبينهما لأننى أعلم مسبقاً بأن الحديث معه لن يجدى ولن يأتى بنتيجة ما، وأيقنت بعدها أن المتاعب سوف تبدأ بشراسة وأن الدس والوقيعة ضدى سوف يمارسان على نطاق واسع، فحينما تبين لهما ألا فائدة من ممارسة الأسلوب الذى اتبعاه مع الفريق صدقى، عادا ليتعاونا من جديد معه، والحقيقة أن طبيعة التعاون ستكون فى مقدمته العمل على إزاحتى عن موقعى فكان أمامى أحد أمرين، إما أن أعطى اهتمامى الأول لمسئوليتى الكبيرة كرئيس لأركان القوات الجوية والدفاع الجوى، أو أواجه المؤامرات، فاخترت بطبيعة الحال الأمر الأول وكلى إيمان بأن الله «يدافع عن الذين آمنوا».

❑

ومع كل هذا فقد كان الرئيس جمال عبد الناصر يحاط علما بما يحدث وكان يحاول توجيه الأمور بطريقته.. ولكن يبدو أن اتجاه الريح فى القوات المسلحة كان فى ذلك الوقت أقوى من الرئيس عبدالناصر نفسه:

«ثم جاءنى إلى مكتبى بعد أيام قليلة اللواء طيار محمد سعد الدين شريف، وكان يعمل فى رئاسة الجمهورية ياوراً طياراً للرئيس الراحل عبدالناصر، يحمل رسالة شفهية من الرئيس مضمونها أن أتحلى بالصبر ولا أقدم على تقديم الاستقالة مهما كانت الصعاب التى تواجهنى، وكان لهذه الرسالة عندى اهتمام خاص، وقد حاولت بالفعل قدر استطاعتى أن ألتزم بها حينما تعترضنى المتاعب وكانت كثيرة».

(٣٥)

ويروى مدكور أبو العز قصة تعيينه محافظا لأسوان، وسيروعنا من هذه القصة أنه عين دون أن يعلم، ولكن الجانب الأهم فى القضية هو مدى تلهف الفريق أول محمد صدقى محمود على الخلاص من رئيس أركان القوات الجوية لدرجة أنه طلب مدير مكتب المشير ثلاث مرات فى خمس دقائق يستعجل وصول قرار تعيين مدكور كمحافظ..

لنقرأ هذه الصورة الدقيقة للمشاعر الإنسانية كما يصورها صاحب هذه المذكرات الذى هو طرف فيها:

«كان منصب محافظ أسوان شاغراً بتعيين الدكتور عزت سلامة المحافظ السابق وزيراً للقوى الكهربائية، فصدر قرار تعيينى محافظاً لأسوان دون أخذ رأيى فى هذا التعيين، وعلمت به قبل إعلانه رسمياً بمدة خمسة أيام، دعانى الفريق أول محمد صدقى إلى لقاء بمكتبه وأبلغنى بالنبأ مهنئاً، وكان يبدو عليه الفرح الشديد ولم أبد له شيئاً يفهم منه أن لى سابق علم به».

«لاحظ أننى لم أكن سعيداً بالنبأ، وبدا له أننى أعترض عليه، فقد قلت إننى كنت أود أن يؤخذ رأيى فيما يقرر بشأنى أولاً هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فليس من المفروض أن أتحرك من القوات الجوية فكفى التفريط فى رجالها، فأراد أن يفهمنى أن تعيينى محافظاً يعتبر ترقية لى، قلت: لست ممن يطلبون الترقية أو يتمسكون بموقع، إن الخاسر هو القوات الجوية».

«لقد بدا له أننى ربما أفعل شيئاً لإلغاء هذا التعيين، فأراد أن يستعجل فى الحصول على القرار، وفى لهفة شديدة طلب شمس بدران ـ وكان وزيراً للدفاع ـ تليفونياً أمامى ثلاث مرات فى مدة لم تتجاوز خمس دقائق ليرسل إليه القرار على وجه السرعة وأنا أسمع وأرى».

❑

ويشير صاحب هذه المذكرات إلى أنه لم يؤد اليمين الدستورية أمام الرئيس عبدالناصر إلا بعد شهر من تعيينه كمحافظ، وذلك بسبب مرض الرئيس، كما يروى أنه رفض تسلم عمله قبل حلف اليمين رغم إلحاح [نائب رئيس الوزراء] المسئول عن الإدارة المحلية فى طلب ذلك:

«صدر قرار تعيينى محافظاً لأسوان فى ٤ أبريل ١٩٦٤، ولما كان الاحتفال بانتهاء المرحلة الأولى لبناء السد العالى وتحويل النهر فى الخامس عشر من مايو سنة ١٩٦٤، كان لزاماً أن يكون المحافظ الجديد موجوداً فى أسوان، وقد حالت وعكة أصابت الرئيس عبدالناصر دون أن أؤدى اليمين القانونية [يقصد: الدستورية] أمامه فى حينه، فطلب منى السيد عباس رضوان نائب رئيس الوزراء ووزير الإدارة المحلية فى هذا

الوقت، أكثر من مرة التوجه لتسلم عملى فى أسوان دون انتظار أداء اليمين القانونية [يقصد: الدستورية] ، فلم أستجب إلى طلبه لسببين، الأول: أن قرار التعيين لا يكون نافذاً إلا بعد أداء اليمين القانونية [يقصد: الدستورية] أمام الرئيس، والثانى: أننى أريد الحديث مع الرئيس قبل تسلم عملى، وعليه فقد طُلبت لأداء اليمين أمام الرئيس عبدالناصر، ففى السابع من مايو سنة ١٩٦٤ توجهت إلى قصر القبة وقمت بأداء اليمين القانونية [يقصد: الدستورية] أمام الرئيس».

وفى خضم الحديث عن الموضوعات العسكرية فإن إنجازات مدكور أبو العز فى أثناء عمله كمحافظ لأسوان لا تحظى بالقدر الكفيل بإبراز قيمتها، ولكن الإنصاف يقتضينا أن نذكر فى وضوح أن فترة عمله كمحافظ لهذه المحافظة كانت من أكثر الفترات إنجازاً فى تاريخ هذا الإقليم وقد تصادفت مع اهتمام الدولة كلها بإقليم السد العالى، ولكن اهتمام مدكور لم يقف عند هذه الحدود، فقد أحب أسوان وأحبته أسوان وهو يعبر عن هذا الحب فى إحدى فقرات مذكراته فيقول:

«آمنت بمستقبل هذا الإقليم وبشعبه الطيب النبيل، وقد وضعت فى عنقى مسئولية وأمانة تقدمه وازدهاره، فلن أتخلى عنه إذا كان فى استطاعتى الاستمرار فى موقعى، أدفع بكل القوى الثورية العارمة تجاه النهضة الكبرى التى تجتاح هذا الإقليم قدما إلى الأمام، فقد عقدت العزم فى قوة وإصرار وعناد على تحقيق الهدف، بغية الإسهام الفعلى فى التقدم الاقتصادى والحضارى لجمهوريتنا العزيزة وفى تحقيق الرفاهية لشعبها وشعب أسوان عن طريق استغلال موارد هذا الإقليم الطائلة بغير حدود».

(٣٦)

ويبدو لنا من مذكرات مدكور أبو العز وغيرها من المذكرات أن حساب التوازنات السياسية بين عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادى بعد استقالة البغدادى النهائية فى مارس ١٩٦٤ كانت بمثابة الباب الذى استطاعت مراكز القوى فى القوات المسلحة النفاذ منه للخلاص من وجود مدكور أبو العز فى القوات الجوية.

ولم يكن مثل هذا الأمر سرا ولا معجزا فى الوصول إليه، ولهذا فإن عبد الناصر ومدكور حين التقيا بعد أداء مدكور لليمين الدستورية تحدثا فى هذا الموضوع. وعلى حين حاول عبد الناصر إنكار أن يكون لهذا السبب علاقة بإبعاد مدكور فإن مدكور لم يبد اقتناعا.

وسنرى فى مذكرات الفريق أول محمد صدقى محمود أنه كان من مروجى هذا التصور كسبب وحيد للظلم الذى حاق بمدكور وبالقوات الجوية من جراء خروج مدكور من منصبه. ومع هذا فإن الدارس لا يسعه أن يعتبر هذا السبب بمثابة السبب الوحيد.

ومع هذا فقد حرص مدكور فيما يرويه لنا على أن يبرئ ضميره من جهة مسئوليته الحيوية عن القوات الجوية وأن ينبه الرئيس عبد الناصر إلى أهمية القوات الجوية وخطورة العناية بها حتى من أجل السد العالى والمشروعات الكبرى التى يفكر فيها الرئيس!

ونصل ـ مع ما ترويه هذه المذكرات ـ إلى قمة الدراما حين يقدم أحد السفراء لأداء اليمين فيترك عبد الناصر مدكور ليكمل حديثه مع على صبرى الذى هو فى الأصل ضابط قوات جوية، وكان فى هذا الوقت رئيس الوزراء، فما أن ينصرف الرجلان للحديث معا حتى يبادر على صبرى بنصح مدكور بنسيان القوات الجوية بما فيها.. بينما مدكور يتعجب كيف يمكن له أن ينسى القوات الجوية.

على أن سخرية الأقدار ـ والأقدار لا تكف عن السخرية ـ أن على صبرى نفسه عُين فى وقت من الأوقات فى نهاية عهد عبد الناصر وبعد خروج مدكور أبو العز نهائيا من القوات الجوية ليشرف على القوات الجوية والدفاع الجوى وألبس رتبة الفريق!! وعانى على صبرى (على الأقل من الألم النفسى) وهو يرى نتائج ما كان قد دعا إليه مدكور من نسيان القوات الجوية!:

«وبعدها مباشرة استبقانى الرئيس فى مكتبه وبدأ الحديث قائلا لى إنه يشاع أنك خرجت من القوات الجوية لخلاف بينى وبين عبداللطيف البغدادى، وأنا أعلم العلاقة الوثيقة بينك وبين البغدادى، فمهما كان الخلاف بينى وبينه فنحن أصدقاء ولا علاقة

بين تركك للقوات الجوية وبين الخلاف الموجود بيننا، فما يشاع ليس له أساس من الصحة».

. . . .

«وهنا استسمحت سيادته فى الحديث بصراحة فقلت: لقد حاولت أن أبحث عن سبب تركى القوات الجوية فعملت تقديراً للموقف فلم أجد من سبب لذلك غير علاقتى بالسيد عبداللطيف البغدادى، فإذا كان هذا ما انتهيت إليه فكيف يكون عدم الثقة فى شخصى وأنا فى القوات الجوية ، بينما تكون الثقة فى شخصى وأنا محافظ لأسوان أمثل فيها سيادتكم. إن الثقة ياسيادة الرئيس لا تتجزأ، وكيف أعمل فى مكان لا أشعر فيه بثقة سيادتكم».

« فبادرنى موضحاً: إن الثقة فيك كاملة وإلا ما عينتك محافظاً، فالحقيقة أن مشروع السد العالى هو مشروع الثورة الأول، وإننى مطمئن إلى السد العالى بتعيين صدقى سليمان وزيراً للسد وأردت أن أطمئن إلى جهاز المحافظة فعينتك محافظاً».

«لم أشأ أن أسترسل فى هذا الحديث، فقلت: سوف أبذل قصارى جهدى وكل طاقتى فى موقعى الجديد لأكون عند حسن الظن، ثم إن هناك شيئاً آخر على قدر كبير من الأهمية أرى من واجبى أن أذكره لسيادتكم وأنا أتحرك من القوات الجوية. إن القوات الجوية هى العنصر الأساسى الهام فى حروبنا التقليدية مع إسرائيل، وهى أداة النصر، ولا تكون القوات المسلحة قادرة دون أن تكون القوات الجوية كاملة التجهيز والإعداد، قادرة على العمل، إن حماية السد العالى والمشروعات الاقتصادية لا تكون إلا بقدرة القوات الجوية على حمايتها، ولهذا فإننى أطلب من سيادتكم فى رجاء حار أن تضعوا القوات الجوية والدفاع الجوى تحت رعايتكم الشخصية، ولأهمية ما أقول أكرر فى رجاء حار أن تضعوا القوات الجوية تحت رعايتكم الشخصية».

«وهنا عزفت الموسيقى فى الخارج معلنة عن قدوم أحد السفراء الذى حضر لتقديم أوراق اعتماده للرئيس، ولما لم يتسع الوقت للحديث عن حالة القوات الجوية

فقد أمر بأن أجلس مع السيد على صبرى لأكمل الحديث وكان حاضراً هذا اللقاء وذهبنا أنا والسيد على صبرى إلى مكتبه المجاور لمكتب الرئيس مباشرة، وفى المكتب قال لى أن أنسى القوات الجوية بما فيها وأتطلع إلى عملى الجديد، الأمر الذى استشعرت منه أنه لا يريد أن يسمع شيئاً وقلت متسائلاً: كيف أنسى القوات الجوية؟!... وبهذا انتهى اللقاء».

(٣٧)

ونأتى مع مدكور أبو العز إلى مفاجأة جديدة فى حياته الوظيفية فى دولة كانت تتعامل مع الكفاءات من أمثاله باستهتار بالغ فى المناصب الكبرى دون دراسة أو استئذان أو تقدير موقف.

ها هو مدكور يفاجأ بترشيحه رئيسا لمؤسسة الطيران ليحل محل رئيسها الذى نقل نائبا لقائد القوات الجوية، أى ليكون بمثابة الرجل الثانى فى القوات الجوية (مع اختلاف المسمى الوظيفى) على نحو ما كان مدكور نفسه منذ عامين، وإن المرء ليعجب من الروح التى كانت تحرك مثل هذه التنقلات والتعيينات على هذا النحو المريب.

وسنرى مدكور كالعهد به واضحاً وحاسماً ورافضاً لهذه النقلة التى لا مبرر لها، ومن حسن الحظ (أو من سوء الحظ لست أدرى) أن شمس بدران ومن بعده عبدالحكيم عامر قد استجابا لرغبته:

«كنت فى زيارة لمدينة إدفو فى إحدى ليالى رمضان بعد الإفطار لحضور مؤتمر شعبى لبحث مشاكل الجماهير هناك، وعندما عدت إلى مكتبى متأخرا فى المساء أبلغت بأن شمس الدين بدران وزير الحربية قد طلبنى تليفونياً ويريد أن أتصل به تليفونياً فى تلك الليلة».

«طلبته وعلمت منه أنه يريدنى أن أعمل بالقاهرة، فسألته أين؟ ولماذا؟ أجاب أن الفريق أول جمال عفيفى أعيد إلى القوات الجوية نائباً لقائد القوات الجوية وإننى سأكون رئيساً لمؤسسة مصر للطيران محله، فاعتذرت وآثرت البقاء محافظاً لأسوان

غير مبال بمحاولاته لإقناعى بقبول المنصب الجديد بالإغراء بامتيازاته مرة، ومحاولة إفهامى أن هذا التعيين واجب القبول مرة أخرى، وكان هذا هو الأسلوب السائد».

«واستفسرت منه عما إذا كان الهدف أن أشغل المنصب المعروض علىّ أم الهدف أن أتحرك من موقعى كمحافظ لأسوان، فإن كان الأول فلست أريد رئاسة مؤسسة مصر للطيران، وإن كان الثانى فلا موقع لى عندئذ غير ميت أبو غالب، وميت أبوغالب بلدتى ومسقط رأسى تتبع محافظة الدقهلية حينئذ ومحافظة دمياط حالياً، وتقع على فرع دمياط جنوب دمياط بعشرين كيلومترا، وقد اعتدت أن أذكرها كلما فرض علىّ رأى أو منصب لا أرتضيه، قال: ليس المقصود تحريكك من أسوان لكنها الحاجة إليك فى منصب لا يقدر على شغله أحد سواك».

(٣٨)

ويروى مدكور أبو العز قصة مقابلته لوزير الحربية شمس بدران، ويبدو أن الوزير قد استطاع أن يمتص غضب الفريق مدكور من إعلان نبأ تعيينه رئيسا لمؤسسة الطيران فى صحف الصباح رغم اتفاقهما فى مساء الأمس على عدم إعلان النبأ:

«ولما كان الحديث أصبح يحتاج إلى مقابلة فقد اتفقنا على أن يكون لقاؤنا فى القاهرة فى اليوم الثانى فى مكتبه بوزارة الدفاع بكوبرى القبة فى الساعة السابعة مساء بعد الإفطار، وطلبت منه ألا يعلن أى شىء عن ذلك الموضوع إلا بعد الانتهاء من مناقشته فوعد، وفى صباح اليوم التالى توجهت إلى المطار لأستقل الطائرة التى تغادر أسوان فى التاسعة صباحاً، وقبل صعودى إلى الطائرة قرأت فى صحف الصباح نبأ تعيينى لمؤسسة الطيران وتعيين الفريق طيار عادل حافظ الذى ترك رئاسة أركان القوات الجوية ليحل محلى محافظاً لأسوان، لقد ساءنى نشر هذا النبأ لأن الوزير لم يف بوعده معى ولأنى حسبت أن النشر إنما قصد به إجبارى على قبول الأمر الواقع، ومع ذلك ذهبت للقائه حسب الاتفاق وحرصت على أن تكون فى جيبى الاستقالة أقدمها تعبيراً عن رفض المنصب الجديد إذا سارت الأمور على غير ما أبتغى».

«وفي الموعد المتفق عليه قابلت الوزير شمس بدران فى مكتبه بكوبرى القبة، وجرى بيننا حديث طويل استغرق أكثر من ساعتين، وقد تطلبت أهميته أن يتشعب الحديث، تحدثنا عن الأسباب التى دعتنى إلى رفض التعيين فى مؤسسة الطيران، وفى حالة القوات الجوية، وفى قيادة القوات الجوية والقيادة غير الشرعية وسيطرتها على القائد، وفيمن أرشحه لرئاسة مؤسسة الطيران فى حالة رفض التعيين فى المؤسسة، وبدأ الحديث باعتذار الوزير عن النشر حيث كان النشر خارجا عن إرادته لأن الوقت كان متأخراً وكان طبع الصحف قد تم، وأضاف: إن شئت تصحيح الوضع صححناه، ولكننى اكتفيت بالإيضاح».

(٣٩)

وبعد هذا يصور لنا مدكور أبو العز لقاءه بالمشير عبدالحكيم عامر بدقة بالغة، فهذا هو المشير يصادر على رأى مدكور الداعى إلى نقل الفريق صدقى محمود من منصب قائد القوات الجوية إلى منصب رئيس مؤسسة الطيران، وتأتى هذه المصادرة فى صورة ثناء من المشير على الفريق صدقى، لكن مدكور لا ييأس ويبحث عن مدخل آخر:

«أعدت اقتراحى على المشير عامر بتعيين الفريق أول صدقى رئيساً لمؤسسة الطيران غير أن سيادته قد أثنى عليه فكان لزاماً علىّ أن أذكر أن الفريق أول صدقى قد استنفد كل جهد فى القوات الجوية، وإذا كان الإصرار عليه فليكن فى مكان آخر غير القوات الجوية، وأردت أن أستوضح سيادته فى عدة نقاط فتساءلت:

١ ـ ألا يدل استدعاء الفريق أول جمال عفيفى للعودة إلى القوات الجوية بعد غيبة طويلة عنها، أن القوات الجوية تفتقر إلى قيادات واعية؟؟ فأجاب سيادته بالإيجاب.

٢ ـ ألا توافقنى أن بقاء قائد فى سلاح أو وحدة خمسة عشر عاماً ولم يستطع فى هذه المدة الطويلة أن يهيئ من ضباطها من يقدر على القيادة بعده يعتبر أنه قصر فى

مسئوليته وكان يعمل لحساب بقائه فى موقعه مدة طويلة؟ فوافقنى على ذلك، فقلت: فإذا كان الأمر كذلك كما توافقوننى فلماذا التمسك به إذن؟!

❑

هكذا نرى كيف استطاع مدكور أبو العز - فيما يبدو من روايته - أن يسحب بساط المنطق من تحت قدمى المشير، وهو يبدأ بعد هذا فى انتقاد الفريق أول صادقى لصديقه المشير دون وجل، وهو يتهم الفريق صدقى محمود بأنه كان حريصاً على ضرب مَنْ يلونه بعضهم ببعض حتى استنفد كل مَنْ كانوا تالين له ولم يعد من حل غير بقائه فى موضعه.

وليس من شك أن مدكور كان أكثر من شجاع وأكثر من دقيق فى هذا التشخيص الذى صارح به المشير عامر، ومع هذا فإنه لا يقف عند حد تشخيص أزمة الفريق صدقى محمود، لكنه يحذر من أن وجود جمال عفيفى معه لن يحقق شيئاً:

«وهنا أردت أن أبين لسيادته هذا الواقع المخيف فقلت: إن ذلك دون شك يرجع إلى الفريق أول صدقى نفسه، فإن له أسلوبا فريدا فى العمل، فكثيرا ما كان يوقع الشقاق بين القيادات التى تليه، ويدفعهم إلى المزيد من الخلاف حتى إذا اشتد عرض الأمر على سيادته فيأمر بإبعادهم بالإحالة إلى المعاش، يتم ذلك بهدف التخلص من العناصر الصالحة بعده».

«فى ضوء هذا التخطيط وأمام التخبط وأمام الأمر الواقع الرهيب، لم تجد القيادة العليا - على غير علم بحقيقة الأمر - أحدا قادرا على القيادة فلا تجد أمامها إلا إبقاءه فى موقعه. وهكذا فى كل مرة تحرم القوات الجوية من عناصر ذات فاعلية وكفاءة ممتازة، فليس أدل على هذا من إعادة الفريق أول جمال عفيفى إلى القوات الجوية بعد غيابه عنها خمس سنوات».

«وأضفت أن الفريق أول جمال عفيفى لن يحقق شيئا مع وجود الفريق أول صدقى قائداً للقوات الجوية، وسوف «تتبينون تلك الحقيقة ولكن فى وقت متأخر».

(٤٠)

ويعترف مدكور أبو العز أنه فوجئ بأن المشير عبدالحكيم عامر كان فى مطلع ١٩٦٧ على وعى كامل أو شبه كامل بالانهيار الحادث فى القوات الجوية:

«لم يكن غريباً علىّ أن أسمع من بعض أفراد القوات الجوية أن القوات الجوية دائماً فى انحدار سنة بعد سنة».

«ولكن الغريب والمفاجأة فى الأمر أن أسمع من المشير عبدالحكيم عامر نفسه وهو يقول إنه أحس بانهيار القوات الجوية، وكان ذلك فى هذا اللقاء، أى قبل أربعة شهور من حرب يونيو عام ١٩٦٧ التى هيأنا لها».

❑

ويقدم مدكور أبو العز بعض التفصيلات المهمة التى ترينا كيف كان الفساد قد تسلل إلى النظام الهيكلى للقوات الجوية:

«وفى هذا الحديث عن القيادات غير الشرعية وسيطرتها على قيادات القوات الجوية والتكتلات الكريهة، يصرح بأنه سمع عما يفعله العميد طيار إسماعيل لبيب والعقيد طيار محمد أيوب وأعوانهما، والأخير كان مديراً لمكتب المشير عامر فذكر لى سيادته أنه حينما كان عائداً بالطائرة من رحلة الباكستان أعطى سيادته للأخير درساً قاسياً لدرجة أنه كان على وشك أن يتعدى عليه بالضرب وأنذره بالنسف إذا لم يبتعد عن هذا المنهج البغيض، فبدلا من أن يعمل على تأكيد الوحدة والتماسك والتعاون بين أفراد القوات الجوية، فقد غذى التكتلات الكريهة».

❑

ويمضى مدكور أبو العز ليؤكد على حقيقة مشاعره التى خرج بها من هذا اللقاء فيقول:

«وقد هالنى وأسعدنى فى الوقت نفسه أن أسمع من المشير عامر أن ما أخبرته به قد لمسه بنفسه، وكم كان متأثراً من هذا الوضع، مما جعله يلعن هؤلاء».

«أما الهول فكان لمعرفته الحقيقة فى وقت متأخر، وأما السعادة فلأنه أيقن أننى لم أذكر إلا حقيقة الواقع المر».

(٤١)

هكذا تصل الدقة بمدكور أبو العز فى التعبير عن مشاعره فى أعقاب ذلك اللقاء.. ويصل مدكور إلى أن يعبر عن أنه كان لا يمانع فى أن يعمل رئيساً للأركان تحت قيادة جمال عفيفى كقائد للقوات الجوية (كان عفيفى قد تولى رئاسة الأركان فى مطلع ١٩٦٧ بعدما كان مدكور نفسه قد تولاها من قبل فى ١٩٦٣):

«قلت للمشير عامر: إننى لم أكن سعيداً بتعيينى رئيساً للأركان بوجود الفريق أول محمد صدقى قائداً لها، فليس من نتيجة يرجى منها إذا اجتمع الضدان، وكم كنت أتمنى لو كان الأمر بيدى أن يعين وقتها الفريق أول جمال عفيفى قائداً للقوات الجوية وأعين أنا رئيساً للأركان إذا كان الإصرار على وجودى، فالفريق أول جمال عفيفى يتمتع بمزايا كثيرة تؤكد التعاون معه».

❑

ربما نتوقف هنا لنتأمل ومع أن الأمنيات قد أغلقت أبوابها منذ زمن طويل فإنى أحب أن أطرح سؤالا مهما وهو: إذا كان الرئيس عبد الناصر قد تقبل وقرر أن يولى الرجل الثانى فى قيادة القوات المسلحة وهو رئيس الأركان الفريق أول محمد فوزى منصب القائد العام بعد هزيمة ١٩٦٧، فلماذا لم يفعل نفس الشيء فى القوات الجوية بأن يولى نائب قائدها وهو الفريق أول جمال عفيفى قيادة القوات الجوية؟ بدلاً من أن يقدمه للمحاكمة فيحصل فى النهاية مرتين على البراءة هو واللواء عبد الحميد الدغيدى؟

إن المرء ليعجب من هذا الذى حدث، ويزداد العجب حين يبدى مدكور نفسه استعداده لأن يعمل رئيسا للأركان تحت رئاسة جمال عفيفى بدلا من الوضع الذى وضعوه فيه تحت قيادة محمد صدقى محمود!!

بل إن الأمور لم تقف عند هذا الحد وإنما اضطر مدكور نفسه إلى أن يساعد

الفريق أول جمال عفيفى فى أثناء محاكمته لاعتقاده الراسخ بأنه كان مظلوما بالفعل(!!)

ترى لو أن عبد الناصر عين جمال عفيفى قائدا للقوات الجوية هل كانت الخلافات بينه وبين الفريق أول محمد فوزى تحتدم على نحو ما احتدمت بين مدكور وفوزى، أم بأشد أم بأقل؟ علم ذلك كله عند علام الغيوب!!

❑

لكن المؤسف بعد هذا كله أن المشير لم يتخذ أية خطوة فى الاتجاه الصحيح، فلا هو أبعد محمد صدقى محمود عن القوات الجوية ولا هو عينه رئيساً لمؤسسة الطيران العربية، ولا هو أبعد الفئة الباغية من حول محمد صدقى محمود، ولا هو حد من صلاحياتهم، ولا هو ضاعف من سلطات جمال عفيفى أو قوى موقعه.. كل ما فى الأمر أن المشير استمع إلى مدكور وأكد لمدكور صواب ما ذهب إليه وزاد على ذلك معلومات لم يكن مدكور نفسه يعلمها.. ثم بعد هذا كله تم البحث فى التالين لمدكور عن قائد أحدث منه ليتولى رئاسة مؤسسة الطيران.. فوجد العميد عبدالرحمن عنان وصدر له القرار بتعيينه فى الموقع الذى كان مدكور مرشحاً له، والذى كان مدكور يرشح له محمد صدقى محمود.. وهكذا بقى رئيس أركان القوات الجوية فى موقعه لأن موقع مدكور كمحافظ لأسوان لم يخل على حين عُين أحد العمداء الجويين لما كان الفريق السابق مرشحا له:

«وانتهى اللقاء مع المشير عامر على هذا النحو، واستأذنت فى الانصراف، وفى اليوم الثانى عدت إلى أسوان وعين العميد طيار عبدالرحمن شحاتة عنان رئيساً لمؤسسة الطيران وبقيت فى موقعى محافظاً لأسوان، فماذا حدث بعد ذلك؟!».

....

«التقيت مع الفريق أول جمال عفيفى وكلانا على اتصال دائم، بعد إعادته إلى القوات الجوية ولم يكن مفاجأة لى أن أسمع منه شكواه من حال القوات الجوية، فقد شكا لى من أسلوب الفريق أول صدقى ومن سيطرة القيادة غير الشرعية عليه، وشكا من التكتلات البغيضة ومن الانهيار الذى أحسه، وأوضح أن الأمر لن يستقيم، وأنه سوف يستقيل».

(٤٢)

ونأتى الآن إلى المرة الثانية التى اعتذر فيها مدكور أبو العز عن تولى المسئولية عن قطاع الطيران والشركات والهيئات العاملة فيه، وقد كانت فى أثناء عمله كمستشار للرئيس عبد الناصر وقبل إحالته نهائيا للتقاعد وقد قدم له العرض هذه المرة على صبرى.

ونحن نرى فيما يرويه مدكور أبو العز أن ثقة عبد الناصر فيه كانت كاملة بحيث كان يرى أن تسند إليه الشركة والهيئات التى تراقب فى عملها بعض نشاط الشركة، مع أن هذا يتعارض مع ما هو معروف [لرجال الدولة المسئولين من مستوى على صبرى] من استحالة هذا بسبب تعارض المسئولية بين القطاعات المختلفة المفترض أن بعضها يراقب البعض الآخر، لكن عبد الناصر بحكم أنه الرئيس المسئول عن كل شىء لم يكن يمانع فى تجاوز القانون فى مثل هذا استنادا إلى ثقته فى مدكور، لكن مدكور نفسه لم يكن ليرغب فى تكرار التجارب المريرة:

«قبل إحالتى إلى المعاش بأربعة شهور وكنت أشغل منصب مستشار رئيس الجمهورية، طلبنى السيد على صبرى للقائه ليعرض علىّ بتكليف من الرئيس عبدالناصر، رئاسة مجلس إدارة شركة الطيران العربية (مصر للطيران)، وهذه هى المرة الثانية التى تعرض علىّ رئاستها، وكان العرض فى هذه المرة لا يقتصر على رئاسة الشركة وحدها، بل يشمل كل ما يتعلق بالطيران المدنى من هيئات ومصالح، على أن تيسر لى كل الإمكانات التى أطلبها لإصلاح هذا المرفق الحيوى الهام. وقد أبلغنى السيد على صبرى أنه حينما كلفه الرئيس بهذه المهمة نبه الرئيس عبد الناصر إلي أن إسناد رئاسة الشركة يتعارض مع الجمع بينها وبين الهيئات والمصالح، لأن الأخيرة تشرف وتراقب أعمال الأولى فى نواح معينة، ورغم ذلك أصر الرئيس عبدالناصر على أن أتولى عملية الطيران المدنى كلها، بما فيها شركة الطيران. طلب السيد على صبرى من الرئيس عبدالناصر إصدار القرار فوراً، لكن الرئيس طلب منه أن يأخذ رأيى أولاً».

«تحدثت مع السيد على صبرى فى هذا الموضوع فى صراحة كاملة، فأبلغته بتبليغ شكرى وتقديرى للسيد الرئيس، واعتذارى عن قبول المنصب، فطلب إلىّ أن يعرف الأسباب لأن هناك تكليفاً من الرئيس، والرد يتطلب عند الاعتذار عنه معرفة الأسباب».

❑

وها هو على صبرى يحاول بكل قوة أن يحاصر مدكور أبو العز حتى يعرف منه أسباب رفضه لمثل هذا العرض الجيد:

«كان لزاماً علىّ أن أذكر الأسباب، فقلت: لقد سبق أن وعدنى الرئيس عبدالناصر عند اللقاء به وقت إسناد قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى إلىّ بعد الهزيمة مباشرة وحملنى مسئولية أمانة الدولة، ورغم الأهمية البالغة لهذه المهمة الخطيرة فلم أحظ بالعون والتأييد، وقد رأيتم سيادتكم النتيجة، فقد تركت القوات الجوية بعد فترة لم تتجاوز أربعة شهور ونصف شهر، فكيف يحرمنى من عونه وتأييده فى موقع بالغ الخطورة والمسئولية وفى ظروف قاسية، بينما يقول إنه سيمنحنى العون والتأييد فى موقع أقل خطورة ومسئولية. إننى لن أستطيع أن أفعل شيئاً وهناك المعوقات والمشاكل والمعاناة، وفى النهاية يرحل مَنْ أثبتوا تقدماً وتفوقاً فى مهمتهم ويبقى المعوقون، إن الحياة مليئة بأمثال عديدة لذلك ... وليس تحركى من القوات الجوية والدفاع الجوى ببعيد».

❑

«كان اللقاء طويلاً والحديث متشعباً، حاول السيد على صبرى أن يعطينى مهلة ثلاثة أيام للمزيد من التفكير حتى لا يكون قرارى على عجل، وقد حاول كثيراً إقناعي بقبول المنصب».

«قلت: لقد توقعت عند طلبكم إياى للقاء، أن اللقاء سيكون لموضوعات حددتها من بينها ما تعرضونه علىّ الآن، وفكرت كثيراً فى الموضوع وانتهيت إلى قرارى هذا بالاعتذار عنه، وعليه أرجو ألا تعتبر اعتذارى هذا قراراً متعجلاً، واستأذنت فى الانصراف».

ويتحدث صاحب المذكرات بعد هذا كله عن إحالته للمعاش برضا نفسى بالغ هو رضا الإنسان الذى يشعر أنه لم يقصر فيما كلف به من مهام رغم ما كان يتمناه من نجاح وإنجاز أكبر.

«بعد أربعة شهور من هذا اللقاء [يقصد الذى عرض على صبرى فيه عليه تولى منصب مؤسسة الطيران] طلبنى السيد حسن التهامى وكان وزيراً للقصر الجمهورى لزيارتى بمنزلى فى ضاحية المعادى، واستقبلته فى الميعاد المتفق عليه ، وفى اللقاء أخبرنى بقرار إحالتى إلى المعاش، وطلب منى ما إذا كانت لى طلبات معينة يبلغها للسيد الرئيس كمعاش استثنائى أو تعيين عربة لى من الرئاسة، شكرته وقلت له: ليس لى طلبات من هذا النوع، ورجوته فى طلبين، الأول: صرف المعاش دون تأجيل، والثانى: الاحتفاظ بالسائق الذى عين لقيادة العربة المخصصة لى، وقد استجاب على الفور، فصرف المعاش فى ميعاده، أما السائق فقد احتفظ به وعينه سائقاً للعربة المخصصة له، وانتهت بذلك علاقتى بالرئيس جمال عبدالناصر اللهم إلا فى لقاءات عامة لها مناسباتها الاجتماعية».

(٤٣)

ونتناول الآن علاقة مذكور أبو العز بالرئيس عبد الناصر وتطورات هذه العلاقة، ونبدأ بفقرة مهمة وردت فى حديث الفريق مذكور أبو العز عن شعوره وهو قائد للقوات الجوية:

«بعد تعيينى قائداً للقوات الجوية والدفاع الجوى بفترة وجيزة، طلب منى الرئيس عبدالناصر أن أكون صديقاً له، فقلت له: «نحن أصدقاء».

«فقال: «إننى أعنى بالصداقة أن تكون بجانبى طوال الوقت».

«قلت: «إن مهمتى التى كلفتنى بها تتطلب أن أكون فى موقع عملى بصفة مستمرة، فمن لا يسعى أن يكون صديقاً لرئيس الجمهورية ويكون بجانبه طوال الوقت، ففى أى وقت تطلبنى فسوف أحضر إليكم فورا!».

«بعد شهر من تعييني طلب الاتحاد السوفيتي إبعادي عن القوات الجوية وتعيين شخص بذاته أو بمواصفات معينة بدلاً مني، فإذا بعبدالناصر يستجيب إليه».

❑

وسنجد أن عبد الناصر نفسه كان واعياً بقدر مدكور أبو العز وكان حريصاً على أن يجعله في الموقع الذي تفيد منه بلاده منذ مرحلة مبكرة، وها نحن نجد في مذكرات ثروت عكاشة من أن عبد الناصر قال له ضمن ما قال في لقاءاتهما بعد وقوع هزيمة ١٩٦٧ :

«... ولطالما ألححت على المشير منذ أكثر من عشر سنوات أن يتخلص من قائد الطيران، وفي سنة ١٩٦١ حاولت أن أحرر سلاح الطيران منه بترشيحه وزيراً للحربية، ولكنه أبى مؤثراً البقاء في موقعه، وفي نهاية الأمر عندما اقترحت عليه مدكور أبو العز ليكون قائداً لسلاح الطيران قبل المشير على أن يتم هذا الإجراء على مراحل، فيعين مدكور رئيساً لأركان حرب الطيران كخطوة أولى. ولكن ما كادت الآثار المترتبة على حركة الانفصال في سوريا تزول حتى تراجع المشير ورفض تنفيذ الاتفاق ، ودبر المحيطون به مؤامرة تخلصوا بها من مدكور، لقد كان وضعي دقيقاً للغاية، ولم يكن مسموحاً لي بالتدخل في شئون الجيش بأي حال من الأحوال، أما عن محاكمة الفريق صدقي محمود فإنني في انتظار تقرير القوات الجوية على يد الفريق مدكور أبو العز الذي طلبت منه ألا يظهر بمظهر المنتقم وأن يبدأ بالتخلص من الجبناء والفاسدين فقط!! ».

(٤٤)

نأتي بعد هذا كله إلى المشكلات التي صادفت مدكور في أثناء رئاسته لأركان القوات الجوية في ١٩٦٣، ومدى ما توحي به هذه المشكلات من طبيعة اهتمامات وتركيز القيادة السياسية في ذلك الوقت، ولعل من أهم المواضع في هذه المذكرات ما

يرويه صاحبها عن مناقشاته ومفاوضاته المبكرة وهو رئيس لأركان حرب القوات الجوية من أجل توفير الاعتماد اللازم لبناء دشم الطائرات، وسنرى مما يرويه عجباً، فهو يستعين بكل الوسائل لإقناع المسئولين بأهمية هذه الخطوة ولكن لا حياة لمن تنادي.. وهو يعترف بأسى بالغ أن كل ما نبه إلى خطورته قد وقع بالفعل:

«وفى عام ١٩٦٣ أتيحت لى فرصة أولى وأخيرة لمناقشة ميزانية القوات الجوية والدفاع الجوى مع مندوب القيادة العامة للقوات المسلحة، حيث كنت وقتذاك فى موقع المسئولية لأننى قد عينت حديثاً رئيساً لأركان القوات الجوية والدفاع الجوى، وتضمنت المناقشة إصرارى على توفير الاعتمادات لبناء دشم الطائرات كمرحلة أولى».

«كان المقدم أحمد عبدالدايم هو المعتمد من جهاز القيادة العامة لمناقشة الميزانيات، وكانت له الكلمة المسموعة لدى القائد العام للقوات المسلحة فى كل ما يخص ميزانية القوات المسلحة بأفرعها الثلاثة»، (وكان واحدا من أهل الثقة ومن مراكز القوى، وترك القوات المسلحة لاشتراكه فى مؤامرة ضد النظام)، فاعترض على طلبى بحجة عدم توافر الاعتمادات بالميزانية، فحاولت إفهامه هو وجهازه مغبة عدم الموافقة».

«فمرة أذكره بما حدث للقوات المسلحة عام ١٩٥٦ بعد تدمير طائرات القوات الجوية وهى على الأرض وخروج القوات الجوية من المعركة وما تكبدته من خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات وكثرة عدد الأسرى، وانهيار معنويات الأفراد ضباطاً وجنوداً وما أصاب الوطن من هزيمة مروعة فى الاعتداء الثلاثى على مصر».

....

«ومرة أخرى حاولت أن أنبههم إلى أن مطاراً واحداً بما فيه قد تصل قيمته إلى مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن يدمر فى خمس دقائق».

....

«ومرة ثالثة أوضح لهم أن تدمير الطائرات وهى على الأرض يحرم القوات المسلحة من قوة هائلة لها فاعليتها».

«ولكن لا حياة لمن تنادى.. وكأنك تنفخ فى أذن صماء».

«وكل ما قلته من مبررات لبناء دشم الطائرات، وكل ما أوضحه مَنْ سبقونى أصبح معروفاً وواضحاً بدءا من رئيس الجمهورية ـ وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة ـ إلى أصغر جندى فيها، وكلهم مارسوا التجربة القاسية عن قرب وكل شاهد عليها».

❑

ويروى مدكور أبو العز فى صراحة تحمد له أنه كان يطلب وضع أولوية لدعم الطائرات قبل شراء مدمرة بحرية لأن هذه الخطوة أولى من تلك:

«كان الرد بعدم توافر اعتمادات بالقوات المسلحة، فقلت لمندوب القوات المسلحة: أنا أعلم أن اعتماداً ما موجود فى ميزانية القوات البحرية بشراء مدمرة بحرية قيمتها ضعف الاعتماد الذى طلبته كمرحلة أولى، فرد على المقدم أحمد عبدالدايم: لو خصص هذا الاعتماد للقوات الجوية فسوف (يزعل) الفريق أول سليمان عزت قائد القوات البحرية، فقلت: إن عمل المدمرة الرئيسى يكون فى مياه العدو الإقليمية ولن تستطيع أن تقوم بمهامها دون حماية جوية وإلا تعرضت للهلاك».

ليس هذا فحسب ولكن صاحب هذه المذكرات كان يرى ويجاهر بأنِ بناء الدشم أهم من تأسيس فرقة جديدة فى الجيش:

«وقلت: هناك كما أعلم أيضا فرقة من الجيش يزمع إنشاؤها فى ذلك العام ولها اعتمادات، وإذا كانت هذه الفرقة وغيرها سوف تنسحب من المعركة أو يقع عدد كبير منها فى الأسر بمجرد غياب القوات الجوية عن المعركة، فيمكن تأجيل إنشائها وأخذ الاعتماد لاحتياجات القوات الجوية، ويجب أن تعطى الأولوية للأهم فالمهم».

ويروى صاحب المذكرات أن المقدم عبد الدايم كان يعمل حساباً لزعل رئيس أركان القوات المسلحة، وهذا المبدأ يستنكره مدكور بوضوح:

«فرد علىّ وقال: الفريق على على عامر ـ وكان رئيساً لأركان القوات المسلحة ـ

(يزعل)، قلت متسائلا: وهل المفروض فى مناقشة للميزانية أن أعمل حساباً لزعل فلان أو فلان أم أعمل حساباً لمعركة تتأكد فيها كرامة القوات المسلحة وكرامة مصر؟!».

❑

ويحرص صاحب المذكرات على أن ينبه إلى أنه كان حريصاً على الحماية الحقيقية (القوة والمنعة) للقوات البرية وللجيش، وأنه كان يفهم الأمور على نحوها الصحيح ولم يكن بأى حال من الأحوال ضد تقوية الجيش أو البحرية:

«لم يكن قصدى من هذه المناقشة بطبيعة الحال حرمان القوات البحرية من مدمرة، أو حرمان الجيش من فرقة، بل العكس هو الصحيح، ولكننى حريص أيضاً كما هما حريصان على أن يكونا فى قوة ومنعة، وعلى العكس كان قصدى هو تأكيد وجودهما فى المعركة بحماية طائرات القوات الجوية وهى على الأرض لتكون قادرة على الوجود فى المعركة تؤدى دورها الكامل فيها».

❑

ويعترف مدكور أنه تذمر وأظهر تذمره بعدما يئس وبخاصة أن قائد القوات الجوية (الذى هو الشخص الأول فيها بينما مدكور هو الشخص الثانى) رأى أن يبحث الموضوع بنفسه مع المشير عبد الحكيم عامر، وهنا أدرك مدكور أن الأمور ستسير على ما سارت عليه وأحس بالإحباط الشديد:

«ولما لم أجد تجاوباً لطلبات القوات الجوية من جانب مندوبى القوات المسلحة، امتنعت عن مواصلة النظر فى بنود الميزانية ما لم يستجب إلى هذه الطلبات، وقد تطلب الأمر عرض الموضوع فى حينه على قائد القوات الجوية الذى رأى أن يترك له الموضوع ليبحثه مع القائد العام للقوات المسلحة المشير عبدالحكيم عامر، وهنا أحسست بإحباط شديد وقلت فى نفسى سوف يكون مصير الاعتماد فى هذا العام هو نفس المصير فى السنوات الماضية، أعيدت مناقشة الموضوع مع المختصين فى القيادة العامة للقوات المسلحة، ولم تقرر أى اعتمادات فى ميزانية ذلك العام، وكما

هو واضح لم تقرر أيضاً فى الأعوام اللاحقة حتى جاء عام ١٩٦٧ ولم تنشأ الدشم ولا المطارات وظلت الطائرات على أرض المطارات فى العراء».

(٤٥)

ويمكن لنا أن نقول إن الدفاع ببسالة وصلابة وبصيرة عن شرف القوات الجوية المصرية وكفاءتها كان أحد أبرز المحاور التى تتضمنها هذه المذكرات.

ويقدم مدكور أبو العز فى هذه المذكرات نظرة مأساوية للمذابح التى تعرضت لها القوات الجوية التى يرى أنها تمت على ثلاث مراحل:

«لقد ذبحت القوات الجوية ثلاث مرات:

«الأولى على يد قيادة القوات الجوية والقيادات غير الشرعية قبل الهزيمة».

«والثانية على يد قيادة القوات المسلحة فى يونيو عام ١٩٦٧».

«والثالثة على يد السوفييت بخضوع القيادة العليا والقيادة العامة للقوات المسلحة إلى رغباتهم، وذلك عند تغيير قيادات القوات الجوية كلها الذين اعتبرهم السوفييت مناهضين لهم كما حدث فى نوفمبر عام ١٩٦٧، وكان عددهم حوالى عشرين قائداً، كلفوا الدولة لإعدادهم مئات الملايين من الجنيهات دون اكتراث بما سوف يترتب على هذا الإجراء الأحمق من نتائج وخيمة».

❑

ويتصدى مدكور أبو العز بشجاعة وإخلاص للدفاع عن طيارى القاعدة الجوية الذين تعرضوا لشائعات الحرب النفسية بالحديث عن إقامتهم حفلاً ساهراً حتى الصباح ليلة الخامس من يونيو وإلقاء التبعة فى الهزيمة على هذه القاعدة بسبب هذا الحفل، وهو يرى أن الحفل لم يكن له أى تأثير فى سير المعارك الجوية، بل ويسجل مدكور أبو العز بكل ثقة أن مَنْ بين طيارى هذه القاعدة مَنْ قاموا ببطولات نادرة، ومَنْ استشهدوا:

«إن القاعدة الجوية التى اتهمت زوراً بهـذا الحفل قد أدت دوراً عملاقاً فى المعركة حينما فوجئت بالـضربة الجوية الأولى الإسرائيلية، فمن بين طياريـها وأطقم طائراتها مَنْ قامـوا ببطولات نادرة سجـلها لهم الـتاريخ بأحرف مـن نور، ومنهم من سـقطوا شهـداء فى سـاحة الشـرف والكـرامة فاسـتحقـوا بجـدارة واقتدار أعـلى الأوسـمة العسكرية».

«إن الحفل بـالتالى لم يـكن له أى تأثيـر فى سير المـعارك الجوية فى الخـامس من يونيو، ولم يكن سبباً فى ضرب الطائرات وهى على الأرض».

«لقد دعا قائد القاعدة جميع أفراد الفرقـة الذين قاموا بإحياء هذا الحفل إلى مأدبة عشاء بريئة لم يحـضرها من الطيارين سوى قائد القاعدة صاحـب الدعوة ونفر قليل من الضباط الإداريين الذين أشرفوا عليها».

«كان الحفـل مقصوراً علـى أفراد القاعدة الجـوية فقط من غـير المعينـين فى درجة الاستعداد».

❑

ويؤكد مذكـور أبو العز أنه ـ وهو قـائد للقوات الجويـة ـ وافق على قرار اللـجنة التى برأت هذه القاعدة الجوية من هذه التهمة الظالمة، وهو لا يعجب من تكرار ادعاء المسئولين أن هذا الحفـل كان من الأسباب الأساسية للهزيمة، ويـصل مذكور فى هذا إلى حـد الإشارة إلـى أن أخلاق الـفريـق فوزى كانـت تحبـذ هذا الـنوع مـن الظـلم والضلال والتضليل:

«لقـد أبديت رأيى فـى قرار اللـجنة بالمـوافقة وأن القـوات الجوية تـكتفى بـه عن اقتناع، ورفعته إلى القائد العام الفريق أول محمد فوزى، وبانتهاء هذا التحقيق خفت حدة هجوم المـسئولين على هذا الحـفل، وإن لـم تسلم أقلام بـعضهم من الكتـابة عنه إصراراً على الضلال والتضليل، أما تعليـقى فإن ادعاء المسئولين بأن هذا الحفل سبب من أسبـاب الهزيمة كان جزءاً مـن سياسة إخفـاء حقيقة الأسـباب الأساسية للـهزيمة لتكون الـقوات الجوية هى كبش الـفداء أثناء الهزيـمة وذبحها بعد الهـزيمة.. وقد قام الفريق أول محمد فوزى بهذا الدور الذى يتفق مع شخصيته بصفة عامة».

ويقدم مدكور أبـو العز ـ فى النهاية ـ تـساؤلا ذكياً ينسف كل المحـاولات الظالمة لإدانة القوات الجوية بسبب هذا الحفل فيقول:

«والسؤال: لـو أن هذا الحفل لم يقـم فهل كان عدم قـيامه يمنع ضرب الـطائرات وهى علـى الأرض فى المطار الذى أقـيمت فيه؟ وهـل كان هذا الحفل سـبب ضرب الطائرات وهى على الأرض فى المطارات الأخرى التى لم تقم فيها حفلات؟!».

(٤٦)

وفى موضـع آخر من هذه المـذكرات يروى مدكور أبـو العز بتفـصيل أكبـر قصة إحالة مجموعة أخرى من الطيارين إلى المـعاش، وكيف أن اعتبارات السياسة قصيرة النظر كانت هى الفيصل فى مثل هذه القرارات الخطيرة:

«كانت لقاءاتى مع الرئيس عبدالناصر بعـد الهزيمة مباشرة تكاد تكون يومية، وفى أحد هـذه اللقـاءات طلب منـى إعداد كشـف الإحالة إلـى المعاش لـعدد من ضـباط القوات الجوية، فقلـت لسيادته: إن القوات الجوية فى وضع دقيق ومـهنها فى السوق نادرة، أعنى مـهن العاملين بـها، فلا أستطيـع فى الوقت الحاضر أن أحـيل أحداً إلى المعاش، إن المـوقف يتطـلب منى أن أستـثمر كل جهـد، ولما لم أجد رداً مـن جانب الرئيـس حسبت أنه وافـقنى على وجـهة نظرى وعلـيه فلم أتخـذ أى إجراء لإخراج أحد».

«بعد مرور حوالى أربعة أيام طلبنى الرئيس عبدالناصر تليفونياً مستفسراً عن عدم إعداد الكشف المشار إليـه، فقلت: لقد أوضحت لسيادتكم حاجـتى الشديدة إلى كل مجهود، فرد علىّ فى ضيق: أنت مش فاهم الوضـع إيه، العملية سياسية، فقد أصدر الجيـش والبحـرية نشرتـهما بـإحالة الـضباط عـلى المعـاش، بينمـا القوات الجـوية ـ والمفروض أنها سبب النكسة ـ لم تصدر نشـرتها بعد. إن مجلس الأمة يتساءل كيف يصدر كل من الجـيش والبحرية نشرتهـما والقوات الجوية ـ وهى سبب الـنكسة ـ لم

تصدر نشرتها. وأصر الرئيس على إعداد الكشف على وجه السرعة. تم إعداد الكشف بعد موافقة لجنة شئون ضباط القوات الجوية».

«إن تقديم هذا الكشف لم يكن يتفق مع رغبة القوات الجوية، لكنها اضطرت إليه تجنباً لصراعات أو مشاكل مع القيادة العليا وغيرها من القيادات. وقد يلاحظ القارئ [الكريم] أننى سكت عن بعض تجاوزات شخصية فى هذه المذكرات، وتحقيقاً لهذا الغرض قدمنا الكشف المطلوب فى أضيق الحدود وفى نيتنا المؤكدة العودة لبحث حالة من تضمنهم الكشف ليأخذ كل ذى حق حقه وقتما تستقر الأمور وتهدأ الانفعالات».

«كان الرئيس قد أمر بخروج فلان وفلان وبإرجاء خروج فلان وفلان وحددهم بالاسم، وكان العدد محدوداً جداً. كان ذلك بين الرئيس وبينى، ويبدو أن القائد العام لم يكن يعلم رغبة الرئيس فى خروج أو بقاء هؤلاء».

«قمت بعرض الكشف على القائد العام تمهيداً لعرضه على الرئيس، كان الكشف متفقاً مع رغبة الرئيس، فمن أمر بإخراجهم خرجوا، ومن أراد إرجاء خروجهم بقوا، وبعد مراجعة الكشف مع القائد العام بحضور اللواء أحمد منير عبدالرحيم مدير إدارة شئون الضباط بالقوات المسلحة،استقر الرأى بينى وبين القائد العام على الكشف متفقاً مع ما أمر به الرئيس».

....

«طلبنى الرئيس تليفونياً على أثر وصول كشف القوات الجوية إليه، وفى عصبية ظاهرة قال: وبعدين معاك، لقد وصلنى كشف القوات الجوية بإحالة الضباط على المعاش ولاحظت أن أوامرى لم تنفذ، فلماذا لم تنفذ ما أمرتك به؟ وأجبت: إن الكشف الذى اتفقت مع القائد العام عليه بحضور اللواء أحمد منير عبدالرحيم جاء متفقاً مع رغباتكم».

« قام الرئيس بمراجعة الكشف معى فرداً فرداً وتأكد بنفسه من صحة ما قلت، فتساءل الرئيس فى دهشة قائلاً: وليه فوزى يعمل كده، وتناوله بلفظ غير كريم.. فلم أجبه بشىء وصمت(!!)».

«بعد خمس دقائق من انتهاء محادثة الرئيس معى طلبنى القائد العام ليقول لى إنه يريدنى أن أحضر إلى مكتبه لإعادة مراجعة كشف ضباط القوات الجوية معه بصفة نهائية قبل عرضه على السيد الرئيس».

«توجهت إلى مكتب القائد العام للقوات المسلحة، وعرضت عليه كشف القوات الجوية الذى سبق أن أعددته وأجرى تصحيحاً فى الكشف الذى كان معه بما يتفق مع كشف القوات الجوية ورغبات السيد الرئيس، بعد أن تم الاتفاق النهائى عليه بين القائد العام وبينى».

«وعند صدور النشرة لاحظت رغم كل الذى حدث أن القائد العام قد غير فى اسم واحد لم أتفق معه عليه، فلم أشأ أن أعمل منه مشكلة لأننى أصلاً لم أوافق على الكشف كله من ناحية المبدأ، لكن السياسة تريد للأشياء أن تسير هكذا.. فقد تغاضيت عن كثير تجنباً للصراعات التى قد تعوق مهمتى الجليلة».

❑

وعند هذا الحد يعقب الفريق مدكور أبو العز بما انتهى إليه رأيه بعد هذا الموقف الواضح فى دلالته ويقول:

«خرجت من هذه الواقعة بنتيجتين:

«النتيجة الأولى: أن الرئيس عبدالناصر عرف أن القائد العام الذى عينه لا يتصف بصفات حميدة».

«النتيجة الثانية: أننى أصبحت أتعامل مع قيادات عليا لا أطمئن إليها ولا أتفق معها، فكيف لقائد عام القوات المسلحة أن يتفق معى على كشف يقدمه لرئيس الجمهورية ويقدم هو كشفاً آخر يخالف ما اتفقنا عليه. فلولا اتفاقى السابق مع رئيس الجمهورية على أسماء بعينها لا يعلم القائد العام من أمرها شيئا لما اكتشفت هذه المأساة، والسؤال المحير: كيف للرئيس عبدالناصر أن يكتشف فيمن عينه قائدا عاماً للقوات المسلحة أنه«... » ويبقيه فى مكانه؟».

«وكيف نطمئن نحن القيادات الرئيسية لفروع القوات المسلحة أن نعمل مع قائد

عام هكـذا وصفه رئيس الجمـهورية، فهو بحـكم موقعه يُسـمح له بالاتصال المـباشر بالرئيس، فـإذا كانت الظروف التى كنا نجتـازها حينئذ تستوجب اتـصال قادة الفروع الرئيسيـة للقوات المسلحة اتـصالاً مباشراً بالرئيس، فـماذا يكون الحال حينمـا تستقر الأمور و(يصـبح) القائـد العام وحده هو وسـيلة الاتصال بـين الرئيس وبـين الفروع الرئيسية للقوات المسلحة، فإذا (أمور) شئون الضباط يُلعب بها هكذا .

فكـيف نطمـئن إلى القـائد العـام فى أمور أكثـر خطورة حـينما تـتخذ القـيادات الرئيسية لأفرع القـوات المسلحة قرارات مصيرية فيبلغ القائـد العام الرئيس بقرارات تخالف ما استقرت عليه مجموعة القيادة».

❑

ونعود إلـى حديث صاحب هـذه المذكرات فى موضـع آخر عن روح التآمـر عند الفريق أول محمد فوزى حيث يقول:

«ونسى أو تـناسى قول الـله سبحـانه وتعالـى:« إن الله يدافـع عن الذين آمـنوا»، والمعروف أن عبدالناصر أراد بمحاكمتهم أن يلصق الهزيمة بالقوات الجوية.. ونسى أو تناسى أيضاً أن منصبى الذى أحتله من وجهة نظرى تكليف وليس تشريفاً ولا يهمنى البقاء فيه لحظة واحدة».

« فلم يكف القائد الـعام ونفر من معاونيه عن تخريب القـوات المسلحة والإطاحة بها فى حرب الهزيمة فحسب، بل أصر علـى أن يهيىء لى وأنا أقوم بأخطر مهمة جواً خانقاً، فاسداً، عفنـاً يعوق ويشوه جلال معركة البناء من جديد.. فـلن يستطيع لا هو أو غيره أن يضرونى إلا بشىء كتبه الله ـ جلت قدرته ـ على».

❑

ثم يضيف الفريق مدكور أبو العز ما يعتقـد أنه بمثابة الأسباب الحقيقية لهذا التآمر الذى لم يكف الفريق أول محمد فوزى عن ممارسته فيقول:

«كما أحسـست ثالثاً أننـى لم أعد أتعامل مـع الرجال، وأحسست رابـعاً أن حقد القائد العام إنما مبعثه عقدة الذنب التـى كانت تطارده دائماً باعتباره أنه أول المسئولين

عن الهزيمة، هذه العقدة التى كانت تحكم تصرفاته معى بصفة خاصة، ومع الآخرين بصفة عامة».

(٤٧)

وليس من الصعب على قارئ هذه المذكرات أن يكتشف أن الفريق أول محمد فوزى هو أكثر القادة حظا فى انتقاد الفريق مدكور أبو العز والهجوم عليه، وهو مصدر كل الشرور فى نظره، وسنرى مما يرويه مدكور أنه كان له - أى لمدكور - الحق فى الوصول إلى مثل هذا الاقتناع، ذلك أن محمد فوزى لم يقصر أبدا فى مضايقة مدكور والكيد له والتآمر عليه طيلة فترة عملهما معا بعد حرب ١٩٦٧.

وتحفل هذه المذكرات بحديث صاحبها عن تفاصيل المناقشات المحتدمة بينه وبين القيادة العامة للقوات المسلحة (أى الفريق أول محمد فوزى)حول كثير من الشئون الفرعية الخاصة بالقوات الجوية، وسنعجب من سيطرة روح الخلاف بدون مبرر وفى جزئيات لا تستحق تكرار الخلاف بسبب بداهتها، لكن يبدو أن روح الهزيمة كانت متغلغلة إلى حد بعيد فى فكر القيادة العامة، وعلى سبيل المثال يتحدث مدكور أبو العز عن أن تغذية الطيارين كانت إحدى هذه المشكلات:

«إن الطيارين الذين يطيرون على الطائرات النفاثة السريعة على الارتفاعات العالية (ولها القدرة على تغيير الارتفاعات بصورة مفاجئة) كطيارى المقاتلات والمقاتلات القاذفة، أو هؤلاء الذين يقومون بمهام خاصة يلزم أن يأكلوا أطعمة تحقق لهم التغذية الكاملة التى تتناسب مع مهامهم الشاقة، فلا يأكلون مثلاً أطعمة من شأنها إحداث اضطرابات معدية أو معوية وهم طائرون فى الجو».

❑

وحين يشرع مدكور أبو العز فى تصوير المصاعب التى اكتنفت إعداد القوات الجوية فيما بعد هزيمة ١٩٦٧، فإنه لا يقف فى تصويره عند حدود تصوير ندرة

الشباب الصالحين لاجتياز اختبارات الطيران ثم تـعليمه ثم اجتياز أخطاء المهنة، لكنه يشير كذلك إلى بعض المعوقات التى خلقها الفريق أول محمد فوزى نفسه [منذ كان مديراً لـلكلية الحـربية لوقت طويـل] حين تعسف ورفـض قبول الذين عـجزوا عن تعلم الـطيران لاستكمـال دراستهم فى الكـلية الحربية، بـل إنه عمل على إلـغاء فرع الإدارة الذى حاولـت القوات الجويـة أن تحل به مشـكلة هؤلاء الـذين يعجـزون عن تعلـم الطيران بعـد أن يلتحقـوا بالقوات الجوية، وهـم يمثلون نسـبة كبيرة مـن الذين يجتازون بالفعل اختبارات القبول بالقوات الجوية رغم صعوبتها، وهكذا كان تعسف الفريق فـوزى يخلق وضعاً كـفيلاً بتقليـل الرغبة فى الإقبال عـلى الالتحاق بالـكلية الجوية:

«إن نسبة النجاح فى الكشف الطبى لمن يتـقدم للالتحاق بالكلية الجوية تتراوح بين ٢٪ و٥٪ علـى أقصى تـقدير، بمـعنى أن الألـف من المتـقدمين يـجتاز مـنهم ثـلاثون فقط،وأن نصف هؤلاء يثبتون عجزهم عن تعـلم الطيران فى أثناء ممارستهم التدريب العملـى فى الطيران فى الكـلية الجوية، فضلاً عـن أن أخطار الخدمة بعد الـتخرج من الكلية والحوادث التى يتعرضون لها تخفض من نسبة صلاحية الطيارين للطيران».

«تلك مـشكلات تعـرضت لها الـقوات الجوية مـن أجل توفيـر الأعداد المطلـوبة للالتحـاق بالكلية الجويـة. هذا بالإضافة إلى المعوقـات التى كان يضعهـا الفريق أول محمد فوزى عندما كان مديراً للكلـية الحربية، فكم رفض إلحاق هؤلاء الذين عجزوا عن تعلم الطـيران لاستكمال دراستهم فى الكـلية الحربية ليتخرجوا ضـباطاً بالقوات البرية مما كان له أسوأ الأثـر على إقبال الملتحقين على الكلية الجـوية، وحينما انفردت القوات الجوية بإنشاء فرع للإدارة فى الكلية الجوية اعتبره انفصالاً وعمل على إلغائه، تم ذلك بعد تركى القوات الجوية فى المرة الأولى».

❑

ويشـكك مذكور أبـو العز ـ بطـريقة مبـهمة ينـقصها الإيـضاح ـ فى مدى جـدية وصواب الدور الذى قام به الفريق أول محمد فوزى فى نهاية معركة ٥ يونيو ١٩٦٧ ويقول:

«عندما صدرت الأوامر مرتبكة مترددة بعبور وحدات القوات المسلحة سيناء، هل كلف الفريق أول متقاعد محمد فوزى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة وقتئذ بمهام معينة من قبل المشير للذهاب إلى الإسماعيلية والبقاء فيها ولا يعود، وماذا كان تصرف الفريق أول فوزى عندما سمع باقتراب العدو إلى الضفة الشرقية للقناة؟ هل بقى فى المنطقة كما صدرت إليه الأوامر؟ أم أخذ حقيبته وتوجه إلى القاهرة دون أوامر؟».

وهنا يتوقف الفريق مدكور أبو العز مؤثراً الصمت ويقول :

«الفريق أول مرتجى يعرف تماماً هذا الموقف».

(٤٨)

ويروى مدكور أبو العز فى هذه المذكرات قصة أغرب من الخيال تبين لنا مدى ما وصلت إليه سياسات التآمر بين مَنْ يفترض فيهم قوة الشخصية وسمو النفسية.

فما بالنا إذا كان الحديث على مستوى القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول محمد فوزى نفسه، ونحن لا نستطيع إلا أن نورد ما يرويه مدكور أبو العز بنصه مع إثبات تعجبنا الشديد من أن تصل الأمور إلى هذا الحد:

«فى أعقاب هزيمة يونيو شكلت لجنة للتحقيق فيها على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة برئاسة العميد أحمد هاشم حسين المدعى العسكرى العام لمعرفة المتسببين فى الهزيمة.. جاءت إلىّ اللجنة بمكتبى تستطلعنى الرأى وتستفسر منى عن بعض النقاط، قلت للعميد هاشم: إننى لا أستطيع أن أفيدكم فى شىء لأنى كنت محافظاً لأسوان على مدى ثلاث سنوات قبل الهزيمة ولم أحضر وقائعها، فأخبرنى أنهم حضروا إلىّ بناء على أوامر الفريق أول محمد فوزى القائد العام للقوات المسلحة، قلت: لا أرى مبرراً لإقحامى فى هذه القضية.. وعلى أى حال إن شئتم فاستطلعوا واستوضحوا ما تريدون، ثم بدأت اللجنة فى ممارسة مهمتها، وقمت بدورى بالإجابة عن النقاط موضع الاستطلاع والاستيضاح».

ويصرح مدكور أبو العز بما فهمه من أن الفريق أول محمد فوزى حاول أن يستغل خلافاته مع الفريق أول محمد صدقى محمود فى الإجهاز على الأخير:

«لم أجد من سبب يصر عليه القائد العام لأخذ أقوالى، وكنت أوثر أن يكون أخذ أقوالى نابعاً من اللجنة وحدها دون توجيه من أحد».

«ولكن يبدو أن القائد العام لما كان يعلمه من خلاف جذرى بينى وبين الفريق أول صدقى، خُيل إليه أنها فرصة يمكن فيها الإجهاز على الفريق أول محمد صدقى محمود الذى أودعه فى السجن رهن التحقيق هو وآخرين من قيادات القوات الجوية هم: الفريق أول محمد جمال الدين عفيفى، وقد عين نائباً لقائد القوات الجوية التى عاد إليها قبل حرب يونيو عام ١٩٦٧ بأربعة شهور فقط بعد غيبة طويلة تقرب من خمس سنوات، واللواء طيار عبدالحميد الدغيدى وكان قائداً للقوات الجوية لمنطقة القناة، والعميد طيار إسماعيل لبيب وكان قائداً للدفاع الجوى ومديراً لمكتب الفريق أول صدقى محمود ومديراً لفرع الأمن للقوات الجوية».

«ولما لاحظت أن اللجنة تقوم بالتحقيق مع قادة الطيران وحدهم استفسرت من العميد هاشم حسين عما إذا كان التحقيق يشمل القادة من باقى الفروع الرئيسية للقوات المسلحة، فأخبرنى أن مهمة اللجنة لا تقتصر على قادة القوات الجوية بل تشمل الجميع، لكنهم بدأوا بقيادة الطيران».

❑

ثم يروى مدكور أبو العز كيف تصاعدت ذروة هذه الأحداث الدائرة فى إطار التآمر المحدود، ونحن نراه يروى التفاصيل وقد جاءته حيث هو دون أن يسعى إليها، وكأنه كان فى غفلة مما يدبر له لولا عناية الله ورعايته:

«مرت أيام قلائل وجاء إلى مكتبى العميد طيار عهدى محمد خيرت مدير مكتبى ليخبرنى أن العميد هاشم موجود بمكتبه ويطلب مقابلة شخصية معى على انفراد، دهشت للطلب وأذنت له».

«دخل العميد هاشم مكتبى ولما أشرت إليه بالجلوس لاحظت عليه الاضطراب

وبدا عليه التردد فى أمر يريد أن يقوله، وأحسست أنه من شدة اضطرابه لم يعرف كيف يبدأ ولم تسعفه الكلمات التى يبدأ بها الحديث».

....

«قلت: ما بك؟ قال: أنا لا أعرف ماذا أقول لسيادتكم، لقد جئت لكم لكى أقدم الاعتذار عن خطأ جسيم ارتكبته فى حقكم لم يرتضه ضميرى ولا أدرى بماذا تصفنى؟ قلت: خيرا... ماذا حدث؟ بدأ يحكى القصة فقال: إن لجنة التحقيق قد اعتادت بناء على تعليمات القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول محمد فوزى أن أقابله يومياً ليلاً بعد الانتهاء من عمل اللجنة اليومى أعرض عليه حصيلة اللجنة كل يوم، وكنت قد أخبرت القائد العام بما دار من حديث عابر بشأن استفساركم عن اختصاص اللجنة، وقد لاحظت عليه اهتماماً غريباً غير عادى بما قلته لى سيادتكم فبادرنى بسؤال: لماذا لم تسجل ذلك ضمن الأقوال؟ فأجبته: إن استفسار الفريق مدكور كان حديثاً عابراً لا يغير موضوع التحقيق، فوجئت بأنه أعطانى ورقة وأمرنى أن أكتب الحديث الذى دار بينكم وبينى على الورقة».

....

وعند هذا الحد فإن المدعى العسكرى العام بدأ بخبرته وعلمه يدرك أن شراً يدبر لقائد القوات الجوية وهو يعترف بهذا بصراحة لهذا القائد (الذى هو مدكور أبو العز صاحب هذه المذكرات) ويقول:

«هنا أيقنت أنه إنما يريد ضرراً بسيادتكم وفكرت قليلاً فيما يمكن أن يأخذه القائد العام عليكم.. فاضطربت للمفاجأة واعتذرت.. فأصر القائد على الكتابة فكتبت ما حدث، ولما قرأه قال: لأ مش ده اللى أنا عايزه.. وأعطانى ورقة أخرى فكتبت كلاماً.. فلما قرأه لم يعجبه هو الآخر، فقال القائد العام: لأ مش ده اللى أنا عايزه، وأعطانى ورقة ثالثة وأوحى لى بكلمات وأملانى بعضها فكتبتها، وعندما قرأها قال: أيوه هو ده اللى أنا عايزه واحتفظ بالورقة.. قلت له: وماذا كتبت؟ قال: لا أعرف لقد أنسانى الموقف كل شيء وأفقدنى كل تصرف لهول المفاجأة».

(٤٩)

إلى هذا الحد كان المدعى العسكرى يعانى من ذلك الموقف الذى لم يكن فى حسبانه لولا أن حديثاً عابراً على حد روايته هو الذى دفعه إلى هذا الموقف الذى لم يكن يتوقعه بسبب عدم وعيه بطبيعة أخلاق الفريق أول محمد فوزى وطبيعة الخلاف والتربص بينه وبين الفريق مدكور أبو العز.

ونمضى مع رواية صاحب المذكرات:

«استطرد العميد أحمد هاشم فى حديثه فقال:

«إنى أشعر أننى أخطأت معكم ولست أدرى ماسوف تأخذه من فكرة عنى. لقد كان الموقف عصيباً بالنسبة لى ومفاجئاً، لم أتوقع أن يصدر هذا التصرف من القائد العام، فكم لاقينا منكم فى مكاتبكم كل معاملة طيبة، لقد أنبنى ضميرى كثيراً وجئت أطلب منك العذر، ولتأخذ الحذر ، وتتصرف بما تراه حتى لا يصيبكم أى ضرر، هذا ما استطعت أن أفعله تكفيراً عن الخطأ الذى ارتكبته. قلت: لن أتخذ أى إجراء، إن الله يسمع ويرى، إن الله يدافع عن الذين آمنوا».

❑

وهنا يعقب مدكور أبو العز بما استشعره من رثاء لضابط عظيم فى موقع متقدم كهذا المدعى العسكرى، وبما استشعره أكثر فيما يتعلق بالفريق أول محمد فوزى:

«كانت حالة العميد هاشم يرثى لها، فبرغم أن الخطأ الجسيم الذى ارتكبه تجاهى لا يغتفر إلا أنى رثيت لحاله، ورثيت أكثر لحالة القائد العام للقوات المسلحة نفسه.. رثيت لحال العميد هاشم لأنه وهو ضابط عظيم في رتبة العميد ويشغل منصباً خطيراً وهو منصب المدعى العسكرى العام، فى يده رقاب أفراد القوات المسلحة، وقد اؤتمن عليها وهكذا يفرط فيما اؤتمن عليه فاستجاب لرغبة وضيعة وعمل حقير، وكان رثائى أكثر لحال القائد العام».

ويعترف مدكور أبو العز أنه أبلغ هذه القصة للرئيس عبد الناصر عند إصرار

الأخير علـى معرفتها، لكـن مذكور قبل أن يروى هـذا يذكر لنا أنه حيـا فى المدعى العسكرى شجاعة التبليغ مع أنها قد تفقده منصبه، وقد أفقدته ـ كما سنرى ـ المنصب بالفعل، وعلى يد مَنْ؟ على يد مذكور أبو العز نفسه!!

ومع هـذا فإن صاحب المـذكرات يذكر أنـه نصح المـدعى العسـكرى العام بـترك موقعه لغيره:

«وكان لزامـاً علىّ وقد خشيـت أن يخطئ المدعى الـعام العسكرى مـع غيرى، أن أقدم لـه النصـيحة، وقـد أصبح غـير قادر علـى أن يواجه المـؤامرات الخسـيسة الـتى يمارسها الكبار والصغار، أو غير قادر على أن يؤكد العدالة بين أفراد القوات المسلحة أو يدفع الظلـم عنهم، كان لزاماً علىّ أن أقدم لـه النصيحة بأن يترك المكـان لغيره من القادرين».

«قدمت الـنصيحة إلـيه بغير حقـد أو غضب بل وشكـرته على إبلاغـى بما حدث والاعتذار عنه وتحذيرى مما يبيته لى القائد العام،وحييت فيه شجاعة الـتبليغ استجابة لنداء الضمير، وهو يعلم أن هذا التبليغ قد يدفع ثمنه غالياً، وهذا ما حدث فقد أحيل (المدعـى العـسكـرى) إلى المعـاش عنـدما عُـرف أن القـصة قد أبـلغـت إلى رئـيس الجمهورية، حيـث أصر الرئيس على أن يعرف القـصة بتفاصيلها عنـد لقائى به وقت تركى القوات الجوية وتعيينى مستشاراً لرئيس الجمهورية».

(٥٠)

وليست هذه القصة بمـثابة الدليل الوحيد على روح التآمر عـند الفريق أول محمد فوزى كما يصورها مذكور أبو العز، لكنه يقدم لنا قصة أخرى لهذا التآمر:

«ومرة أخرى كـنت فى اجتمـاع مع بعض قيادات الـقوات الجوية، وإذا بالـهاتف يدق وإذا بالمتحدث الفريق أول فوزى يسألـنى فى صورة استجواب عما إذا كان أحد المحامين القائـمين بالدفاع عن الطيارين المـتهمين فى قضية الطيـران قد أخذ رأيى فى

موضوع معين أو أني أيدتهم في شيء؟ قلت في نفسي: سؤال غريب وما يهدف إليه سائله أكثر غرابة، فلم يجف بعد المداد على الورقة التى استكتبها القائد العام للمدعى العام العسكرى العميد أحمد هاشم حسين. أجبت متعجباً: أى موضوع هذا الذى أعطيت رأيى فيه لأحد المحامين، وأى شيء أيدتهم فيه، قال: يعني أنا أسأل سؤال».

«قلت: ما حدث بشأن المحامين أن العميد هاشم طلب مقابلتى ليأخذ رأيى فى الضباط الطيارين الذين طلبهم الطيارون المتهمون للدفاع عنهم وطلب منى اعتمادهم بعد أن عرض علىّ كشفاً بأسمائهم، ثم قلت: وما شأنى باعتماد محامين عن المتهمين، أنا لا أستطيع أن أقنع ضابطاً للدفاع عن زميل له متهم فى قضية ما ولا أسعى لدى أحد من الضباط للدفاع عن زميل له، فالأمر موكول أولاً وأخيراً إلى المتهمين وإلى الضابط والمحامى : قبولاً أو رفضا، فإذا كان لابد من موافقتى فيسأل الضابط نفسه، فرد القائد العام: يعنى أعطيت رأيك وأيدت المحامين؟ قلت فى غضب: فسر ذلك كيفما تشاء.. وانتهى الحديث.. كان الحديث مكشوفاً أمام المجتمعين وكلهم كانوا فى دهشة لتصرف القائد العام معى».

❑

ربما ينبغى لنا أن نقطع تواصل حديث الفريق مدكور أبو العز هنا لنذكر أن الرئيس عبد الناصر نفسه كان قد أبدى دهشته من أن مدكور أبو العز وقف فى صف الفريق أول محمد صدقى محمود عند محاكمته، وكان عبد الناصر يتوقع بالمنطق أن يقف مدكور فى كل موقع يتمكن فيه من الإجهاز على الفريق محمد صدقى محمود، وقد وردت رواية عبد الناصر فى مذكرات الدكتور ثروت عكاشة.

(٥١)

ويفجر مدكور أبو العز الحديث عن هذه القضية فى موضع آخر من هذه المذكرات، ويجد الشجاعة فى تسمية الأسماء بمسمياتها على نحو ما هو شائع فى

لغة المتحدثين وإن لم يكن قد أصبح بعد شائعاً فى الكتابات التاريخية والعسكرية، وهكذا فإنه يستخدم للدلالة على هذا المعنى القول الشائع: «عقدة الجيش بالنسبة للطيران»، ومع أن القارئ قد يستغرب أن يتناول مدكور مثل هذا المعنى بهذه الصراحة إلا أن الحقيقة أن مدكور فى مذكراته كان حريصاً على أن ينبه إلى خطورة وخطأ هذه النظرية فى أكثر من موضع منها قوله:

«كم حاولت القوات الجوية والدفاع الجوى طلب الاعتمادات بعد حرب ١٩٥٦، سنة بعد سنة، لكن طلبها كان لا يجد آذاناً مصغية من قيادات القوات المسلحة، خصوصاً قيادة الجيش ومنهم الفريق أول متقاعد محمد فوزى، ولم تأخذ هذه القيادة درساً مما حدث فى عام ١٩٥٦ ولم تأبه لما سوف تتعرض له القوات الجوية والدفاع الجوى من تدمير فى الساعات الأولى إذا نشبت حرب، وللأسف الشديد كانت عقدة الجيش بالنسبة للطيران هى السبب، فكيف يأخذ الطيران ميزانية ضخمة بينما الجيش وهو الغالبية العظمى لا يكون له النصيب الأكبر فى الميزانيات، دون مراعاة لمصلحة عامة أو مصلحة القوات المسلحة نفسها، وفى المقام الأول أمنها».

«وقد حاول الفريق أول متقاعد محمد فوزى حتى بعد هزيمة يونيو وبعد أن تلقى درسا ثانيا عنيفا نتيجة تدمير الطائرات وهى على الأرض دون حمايتها فى دشم، حاول المساومة فى الاعتمادات التى قررها رئيس الجمهورية لهذا الغرض، (قاصدا) إنقاصها، ولكننى صددته بعنف تجاوز كل شىء، الأمر الذى جعله يخضع لطلبى دون مناقشة».

❑

ويعرض مدكور أبو العز نفس القضية بطريقة أخرى فيقول:

«وفى مجال التباطؤ وإهمال بناء المطارات والدشم وتطور الدفاعات عن المطارات فهل الأفضل أن يدعم الطيران بالحماية اللازمة ليقوم بدوره الفعال فى المعركة فيمنح من الميزانيات ما يمكنه من ذلك، أم الأفضل أن نشترى مدمرة بحرية مجال عملها فى مياه العدو الإقليمية، لا يمكن أن تقوم بمهامها إلا إذا توافرت لها الحماية الجوية، أم تشكل فرق جديدة من الجيش».

ويشير صاحب المذكرات إلى النتائج الإيجابية التى تحققت بفضل اتباع التصرفات السليمة فيقول:

«... كما يفخر كل من أسهم فى هذا العمل حينما يسمع تصريح قائد القوات الجوية فى معركة العبور فى العاشر من رمضان أن العدو لم يكن يعرف أين كانت طائراتنا، ولهذا تمكنت قواتنا الجوية من إثبات دورها العملاق فى حرب أكتوبر بجدارة وشرف».

(٥٢)

ويتناول مدكور أبو العز بالتفصيل موقفه الحاسم من رغبة القائد العام (الفريق أول محمد فوزى) فى إلغاء قيادة القوات الجوية، وهو يبدى اعتراضات صارمة وصارخة ضد هذه الرغبة التى لم تتحقق بفضل الله وكرمه، ومن العجيب أن تنشغل القيادة العليا بعد هزيمة ١٩٦٧ بمثل هذه الأفكار القاتلة التى كانت كفيلة بالقضاء على البقية الباقية من ثقة قواتنا بأنفسها لولا أن قيض الله رجالاً أشداء من طراز مدكور أبو العز للتصدى لمثل هذه الأفكار:

«لقد أصر القائد العام فى التنظيم الذى يريده على إلغاء قيادة القوات الجوية واكتفى بأن تكون أجهزة القيادة العامة هى فى الوقت نفسه أجهزة قيادة القوات البرية، فلا معنى لذلك إلا أن القائد العام يريد أن يقود القوات المسلحة بأفرعها المختلفة برية وبحرية وجوية بأجهزة القوات البرية، كما أراد من التنظيم أن تكون القوات الجوية والبحرية على مستوى أسلحة القوات البرية كالمشاة والمدرعات والمدفعية والإشارة مثلاً، فإنه بذلك يكون قد خرج عن الأسس السليمة التى تؤكد التنظيم الجيد لها والسابق الإشارة إليها ويكون قد اخترع أساسا جديدا بفلسفة جديدة لا يدركها عقلنا».

❑

وفى موضع آخر من هذه المذكرات يعود مدكور أبو العز إلى التأكيد على الموقف السلبى الذى وقفته قيادة القوات المسلحة من بناء دشم الطائرات فيقول:

«أولاً: لم يخصص لبناء دشم الطائرات أى مبالغ فى أية موازنة للقوات الجوية

منذ الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ حتى قيام حرب يونيو عام ١٩٦٧، اللهم إلا مبلغ ضئيل قد استقطع من موازنة القوات الجوية لبناء دشمة واحدة على سبيل التجربة، وقد ثبت أنها لا تفى بالغرض».

«ثانياً: رفضت القيادة العامة للقوات المسلحة بغير أساس من المنطق دون مراعاة لمصلحة القوات المسلحة نفسها، إدراج أى اعتمادات مالية لبناء دشم الطائرات حتى عام ١٩٦٧».

❑

ويحاول مدكور أبو العز أن يلتمس الأسباب الحقيقية التى جعلت الفريق أول محمد فوزى ينهج هذا النهج الذى حاول به أن يقلم أظافر قيادة القوات الجوية، وأن يخضعها تماماً لقيادته ورغباته، ويجد مدكور ـ ولعله على حق ـ فى الماضى القريب ما يفسر له هذا النزوع الشاذ عند الفريق فوزى إلى الحقد على القوات الجوية:

«إن العُقدِ الأزلية [هكذا يقول مدكور وربما هو يقصد عُقدة واحدة تكرر التصرف المتأثر بها] التى حكمت تصرفات القائد العام معى هى أن سلفى الفريق أول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية السابق كان يتمتع بمكانة ممتازة لدى المشير عبدالحكيم عامر مما سبب حقداً دفيناً من الفريق أول فوزى عليه، وانعكس ذلك على القوات الجوية وعلىّ أنا شخصياً، خصوصاً بعد أن اتضح له أننى أتمسك بتأكيد الشخصية الاعتبارية للقوات الجوية لتأمين احتياجاتها لتستطيع القيام بمهامها، ولم تكن الأمور مظهرية كاذبة، وكل جهد بذلته ليتفهموا وجهة نظرى ذهب مع الريح».

ويفيض مدكور أبو العز فى الحديث عن هذا المعنى فيقول :

«وكان القائد العام (أى الفريق أول فوزى) يقحم الفريق أول صدقى فى كل حديث معى بشأن التنظيم أو بشأن أى خلاف فى الرأى بينه وبينى، الأمر الذى حدا بى إلى أن أضع حدا لذلك... فأوضحت فى حزم أننى الفريق مدكور أبو العز ولست الفريق أول صدقى محمود، فكل منا له سلوكياته وأسلوبه ومبادئه وأهدافه».

ويمضى مدكور فى هذا الصدد إلى النقيض مما كان يبتغيه الفريق أول فوزى من تهويش، وهو يروى أنه وصل بحديثه وحواره إلى أن يرهب الفريق أول فوزى بأنه لن يتساهل كما كان الفريق أول صدقى محمود:

«... وأكدت له أنه إذا كان ما يزعمه بأن الفريق أول صدقى قد نحا بالقوات الجوية منحى معيناً فإن الخلاف الرئيسى بين الفريق أول صدقى وبينى كان لأنه فرط فى مسئوليته تجاه أمن سلاحه بتساهله مع القيادة العامة للقوات المسلحة التى لم تتفهم أو ادعت عدم الفهم أو تغاضت عن الاستجابة إلى الاحتياجات الملحة للقوات الجوية لتأمين طائراتها، فكانت النتيجة أن طائراتها قد دمرت فى أول ضربة جوية كما حدث فى عامى ١٩٥٦ و١٩٦٧».

ويؤكد مدكور على معنى تزمته المطلق فى الالتزام بمسئوليته وما تخوله له:

«وأكدت له فى حزم أننى لن أكون متساهلاً أو مفرطاً فى كل أمر يتعلق بتأمين مسئوليتى. إن كل تنظيم يفرض على ولا يؤمن هذه المسئولية لن يتم بوجودى.. تلك المسئولية أصبحت بعد درس الهزيمة مطلباً من جماهير الشعب كله قبل أن تكون مهمة أسندها إلىّ الرئيس».

(٥٣)

وفى موضع آخر من هذه المذكرات يتحدث مدكور أبو العز عن مشكلة التنظيم التى كانت فى ذلك الوقت بمثابة المشكلة البارزة على مستوى القيادة العليا فى القوات المسلحة فيقول :

«إن مشكلة التنظيم كانت عقبة أمامى، فقد دعا الرئيس جمال عبدالناصر إلى اجتماع معه ضم الفريق أول محمد فوزى والفريق عبدالمنعم رياض والسيد صلاح نصر وأنا، وكان موضوع الاجتماع تنظيم القوات المسلحة ووضع القوات الجوية فيه».

« ... بدأ الرئيس مناقشة الموضوع بقوله:

«إنه ليس من المعقول أن تكون قيادة القوات المسلحة ثلاث وزارات، إلى جانب أن هذا نوع من الإسراف، فإن كان كل فرع من الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة كان وزارة قائمة بذاتها، فلابد من إعادة التنظيم لتعمل تحت قيادة موحدة» .

❑

وهنا يستطرد الفريق مدكور ليجأر بالقول إنه ـ أى مدكور ـ لم يكن هو الذى أوصل الأمور إلى هذا الوضع من الاستغلال والتسلط.. كما أن درجة الوزير هذه التى تصور وكأنها نهاية المطاف لم تكن شيئاً ذا بال، فقد حصل عليها كثيرون «كل من هب ودب» ممن لا تصل خطورة مسئوليتهم إلى مرتبة مسئولية قادة الأفرع الرئيسية:

«وقبل أن أبدى الرأى فيما قاله السيد الرئيس فإننى أتساءل: من الذى قرر أن يكون رؤساء هذه الفروع فى درجة وزير؟ ومن الذى أبقاهم فى مواقعهم ما يقرب من خمسة عشر عاماً؟ ومن الذى منحهم ثقته؟ ومن الذى أتى بواحد منهم وقد ثبت فشله فى موقعه كرئيس لأركان القوات المسلحة وكأحد المسئولين عن الهزيمة وعينه قائداً عاماً بعد الهزيمة؟ فلست أنا قطعاً المسئول عن ذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدرجة الوزير لم يقتصر منحها على قادة فروع القوات المسلحة وحدهم، فقد منحت لكل مَنْ هب ودب، منحت لكثير من المقربين، ومُنحت لأهل الثقة، وبصرف النظر عن المواقع التى كانوا يحتلونها، فقادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة لا يقلون فى مسئولياتهم وتشعب أعمالهم عن هؤلاء ولا عن الوزراء أنفسهم».

❑

وأكثر من هذا فإن مدكور أبو العز لا ينخدع فى الأحاديث الناقدة دون تمحيص، وهو يقول إن المسئول فى النهاية هو الرئيس عبد الناصر:

«إن منحهم درجة الوزير لم يكن سبب الهزيمة، ومهما قيل فى هذا الأمر، فإن المشير عامر كان وكان، فمن الذى جعله هكذا؟... إن المسئولية تقع على مَنْ يملك اتخاذ القرار.. إن المسئولية تقع على الرئيس عبدالناصر».

وبعد هذا الاستطراد بكل دلالاته القاطعة يعود مدكور أبو العز إلى جوهر الانتقادات التى صارح بها الرئيس عبد الناصر فيما يتعلق بأسس التنظيم التى اقترحها الفريق فوزى، ويبتدع مدكور مصطلحا جميلا يعبر به عن انتقاده للفكرة، وهو أن التنظيم المقترح كان يعنى «تجييش القوات الجوية»، وهو الأمر الذى لا يمكن له قبوله ولا العمل على أساسه:

«قلت للرئيس: لم أعترض على هذه الأسس، لكن التنظيم الذى يريده الفريق أول فوزى هو وضع القوات الجوية والدفاع الجوى تحت قيادة القوات البرية «الجيش» باسم القيادة العامة للقوات المسلحة، وهذا يعنى تجييش القوات الجوية، الأمر الذى يضع إمكانات الوفاء بمسئوليتها فى يد غير المسئولين عنها، ويد غير متخصصة. إن شيئاً من هذا لا يمكن قبوله من جهتى، ولا أستطيع أن أعمل فى ظل هذا التنظيم، فالأسس السليمة لا اعتراض عليها. فوجه الرئيس عبدالناصر حديثه إلى الموجودين قائلاً: أهكذا أسماه مدكور أبو العز: «تجييشا واستعمارا».. ولما كانت وجهات النظر مختلفة تماماً فقد أنهى الرئيس عبدالناصر الحديث فى هذا الموضوع وأمر بأن نجلس معاً فى اليوم التالى لمناقشة الموضوع والوصول إلى حل يُعرض عليه».

ويبدو أن نقل مناقشة القرار الخاص بوضع أسس للتنظيم الجديد إلى مستوى القادة العسكريين أنفسهم لم يكن كفيلاً بحل المشكلة بل بزيادة تعقيدها:

«وفى اليوم التالى توجهت إلى القيادة العامة للقوات المسلحة واجتمعنا: الفريق أول محمد فوزى والفريق عبدالمنعم رياض رئيس الأركان والفريق فؤاد أبو ذكرى قائد القوات البحرية وأنا».

«بدأ الفريق أول محمد فوزى حديثه بأن استقلال القوات الجوية عن القوات المسلحة كما كان أيام صدقى محمود لا يمكن أن نعود إليه، فقلت: لو أن القوات الجوية كانت مستقلة وتمسكت بمسئولياتها بتوفير احتياجاتها لما دمرت طائراتها كلها التى على الأرض فكانت صيداً ثميناً للعدو ـ على النحو الذى شرحته مسبقاً ـ إن مسئولية تدميرها تقع فى المقام الأول على القيادة العامة للقوات المسلحة. وتضمنت

المناقشة الأسس السليمة للتنظيم وعدم انطباقها على التنظيم الذى يحاول القائد العام أن يفرضه على القوات الجوية».

(٥٤)

هكذا يبدو لنا أن مدكور أبو العز كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأن خطأ الفريق أول محمد صدقى محمود لم يكن كما يشخصه الفريق أول محمد فوزى، بل كان على النقيض منه.. وإذا كانت أدبيات السياسة تعرف تعبير الصقور لوصف التشدد فإنه من الواضح أن مدكور نفسه لم يكن يعتبر الفريق صدقى محمود صقراً بمعنى الكلمة على نحو ما كان محمد فوزى يشكو منه.

ويبدو من المؤكد أن ثقة مدكور أبو العز فى نفسه، وفى رأيه كانت بلا نهاية، فهو على حد ما يرويه فى أكثر من موضع من هذه المذكرات التى نشرت فى صحيفة يومية على مدى ثلاثة شهور يجاهر بمواقف وقفها فى إباء وشمم وقوة فى مواجهة الفريق محمد فوزى دون أن يرد الفريق فوزى على هذا الذى نشر وتردد على لسان وقلم مدكور قبل أن يتوفى الفريق فوزى بعشر سنوات على الأقل.

ولنقرأ هذا النص الحافل بالشجاعة:

«وحينما لم أجد نتيجة ما للاستمرار فى المناقشة استفسرت من القائد العام عما إذا كان مجيئنا للمناقشة أم أن التنظيم مفروض وواجب التنفيذ؟».

«فأجاب بأنه مفروض وواجب التنفيذ».

«فقلت أنا حضرت بناء على أوامر الرئيس جمال عبدالناصر لنجلس معاً ولنبحث الموضوع لإيجاد حل له وعرضه عليه، وحينما أرى القائد العام يقرر غير ما أمر به الرئيس فليس لدى كلام إلا أن أقول مثل هذا التنظيم لا ترتضيه القوات الجوية ولن يتم فى وجودى بأى حال من الأحوال».

ويحرص مدكور أبو العز على أن يروى موقف القائدين الآخرين اللذين حضرا الاجتماع، ومع أنهما لم يتكلما كلمات كثيرة فإن الشهيد رياض كان بطبيعة الحال يؤيد فوزى، على حين كان فؤاد أبو ذكرى يؤيد مدكور أبو العز، ولكن فى غير حماس، وهكذا انحصر الخلاف بينه وبين القائد العام:

«كان دور الفريق عبدالمنعم رياض فى هذا الحديث لايتعدى بعض كلمات تؤيد - بطبيعة الحال - رأى الفريق أول فوزى، أما الفريق فؤاد أبو ذكرى فكان مستمعاً أكثر منه متكلماً إلا بكلمات تعبر عن تأييدى، لكن فى غير حماس، وذلك يتناسب مع طبيعته الهادئة.. فموقف القوات البحرية من التنظيم المعروض لا تتأثر به القوات البحرية كتأثر القوات الجوية به، لما للقوات الجوية من التصاق شديد بالقوات البرية فى السلم وفى الحرب».

❑

ولا يكتفى مدكور أبو العز بأن يقدم الأسباب النظرية والمنطقية لمطالبته باستقلالية عملية للقوات الجوية، لكنه يقدم لنا أمثلة حية من تاريخنا المعاصر على خطأ النظرية المضادة القائلة بإمكان عمل القوات الجوية تحت قيادة القوات البرية، وهو يقول فى هذا الصدد:

«كم قاست القوات الجوية من سوء استخدامها بواسطة القوات البرية، فكثيراً ما كانت توجه طائراتها التى أقلعت للقيام بمهام أخرى لها أهميتها القصوى.. إلى إسكات موقع معاد يهدد إحدى وحداتنا البرية».

ويضرب مدكور أبو العز مثلاً واقعياً على هذا الذى حدث من سوء استخدام القوات الجوية فيقول:

«وأذكر فى هذا المجال أن سرباً من القاذفات كان معداً لضرب أهداف استراتيجية ليقلع فى وقت معين من المطار الذى يتمركز فيه، فتعطل إقلاعه لانتظار أوامر جديدة، وأن بقاء الطائرات على أرض المطار مدة طويلة وهى محملة بالقنابل فى حالة العمليات يعرضها ومنشآت المطار لخسائر جسيمة. وصدرت الأوامر أخيراً بإلغاء مهمتها الاستراتيجية لتقوم بتقديم المعاونة الجوية لوحدة برية، وإذا بطائرات

العدو تهاجم المطار وتضرب القاذفات وهى محملة بأسلحتها وذخائرها وقنابلها فدمرتها وأحدثت انفجارا شديدا نتجت عنه خسائر جسيمة فى الطائرات الأخرى أيضاً ومنشآت المطار».

«إن القوات البرية لم تتلق التدريب الكافى دون غطاء جوى فوقها، ومن هنا كان انهيارها حينما دمرت طائرات القوات الجوية فى الضربة الجوية الأولى التى قامت بها إسرائيل فاستسلمت».

(٥٥)

ويضرب الفريق مدكور أبو العز مثلاً آخر يدلل به على فساد النظرية القائلة بإمكانية عمل القوات الجوية تحت قيادة القوات البرية فيقول:

«ليس من المعقول أن يطلب منى القائد العام الفريق أول محمد فوزى أن يتمركز سرب من الطائرات فى مطار معين غير معد للعمليات الجوية فلا هو مدافع عنه ولا توجد به دشم لحماية الطائرات وهى على الأرض، لا هو مجهز لأجهزة الإنذار المبكر، وحتى لو جهز (أى المطار) فهى (أى أجهزة الإنذار) غير قادرة على الكشف».

«إلى جانب أن المطار معرض للهجوم الجوى المفاجئ، ولا تستطيع القوات الجوية حمايته لبعده عن المدى التكتيكى للطائرات المقاتلة أو المقاتلة القاذفة المتاحة».

❑

ثم ينبه مدكور أبو العز إلى خطورة الاندفاع فى هذا السبيل خوفاً من أن يقال إن القوات الجوية متمردة على أوامر القيادة العامة:

«وحينما تعترض القوات الجوية يقال إنها متمردة.. ويصعب التعاون معها.. فيذهب السرب ليتمركز فى هذا المكان بعد أن تركت القوات الجوية ويكون مصيره إصابته بخسائر جسيمة».

ويمضى صاحب المذكرات ليضرب مثلاً ثالثا يدلل به على فساد نظرية القائد العام التى قاومها هو بكل ما كان يملك من قوة :

«ليس من المعقول أن يطلب منى القائد العام نتيجة هجوم جوى معاد مفاجئ عليه أن يتمركز سرب آخر من الطائرات فى مطار آخر معزول، ظروفه أسوأ من المطار السابق ذكره لحماية ثلاث وحدات حربية عاجزة عن الحركة الطويلة، وبالتالى تكون غير قادرة على الاشتراك فى عمليات حربية، فلا السرب قادر على حماية نفسه هناك، ولا هو قادر على حماية هذه الوحدات الحربية، ولا القوات الجوية قادرة على حماية هذا السرب حينما ينفرد به العدو فيجده لقمة سائغة وأكلة شهية يلتهمها، ليس السرب وحده بل والوحدات التى ذهب إلى هناك لحمايتها أيضا».

❑

بل أكثر من هذا فإن مدكور أبو العز يعبر بعبارات تحمل نكهة نظرية الجدوى الاقتصادية :

«وأن ثمن هذا السرب يفوق أضعاف ثمن الوحدات الحربية وقيمته الحربية لا تقدر بمال ،وحينما تعترض القوات الجوية يقال إنها متمردة».

❑

ثم يورد الفريق مدكور أبو العز بأسف شديد قصة ما حدث فى أحد هذه المواقع بعد تركه قيادة القوات الجوية:

« يطير السرب إلى هناك بعد تركى القوات الجوية ويكون مصير إحدى الوحدات الحربية الإصابة بخسائر جسيمة نتيجة هجوم جوى معاد خاطف عليها».

(٥٦)

ويقدم مدكور أبو العز مزيداً من التفسيرات لسلوك الفريق أول محمد فوزى تجاهه.. وهو يشخص عقدة فوزى تجاه صدقى محمود التى انسحبت فأصبحت تجاه

القوات الجوية كلها وتأثر بها مدكور بالذات لأنه كان أكثر تشدداً فى التمسك بمسئوليته:

«وهنا أستسمح القارئ الكريم فى جملة اعتراضية.. إن العقدة التى كانت مصدر تعب لى وهى أن الفريق أول محمد فوزى كان أحد القيادات الرئيسية المسئولة عن النكسة هذا أولا، وثانيا أنه كما أقر فى مقال كتبه فى الصحف كان شبه مجمد.. فما كان بمستطيع أن يفعل شيئا، فحينما عين قائدا عاما للقوات المسلحة بعد الهزيمة المسئول عنها عام ١٩٦٧، كان يعتمد على السلطة فى إصدار الأوامر لأن هذه العقدة كانت لاصقة به وبالأخص تجاه الفريق أول محمد صدقى، وبالتالى تجاه القوات الجوية، فانعكست هذه العقدة علىّ لأنه تبين أننى أكثر تشدداً فى التمسك بمسئوليتى... كان يعتمد على السلطة فى إصدار الأوامر حتى لو تبين له أن الأوامر خاطئة، وأن النتائج وخيمة».

ويجأر مدكور بالقول بأن وضع الفريق أول محمد فوزى كان وضعاً خاطئاً لأنه كان قائداً مهزوماً وكان وضعه أمام جنوده وضباطه غير كريم :

«وهذا الضعف من القادة يشكل خطورة على أمن الدولة. إن من فشلوا فى قياداتهم فى هزيمة مروعة ينحون عن مواقعهم فوراً ولا يرقون إلى مناصب أكبر، إن ذلك يضعهم أمام الضباط والجنود موضعاً غير كريم وتنعدم الثقة بهم».

❏

ويصل مدكور فى تشخيصه لشذوذ فكر الفريق فوزى إلى حد أن يقول إن فوزى كان يخطئ من ناحيتين :

الأولى: أنه كان يصدر أوامر لا يمكن تنفيذها.

والناحية الثانية: أنه كان ينسى أن مدكور نفسه على قدم المساواة معه فى المسئولية والقيادة، وأن رجل الشارع نفسه يعرف هذا.

ولسنا نستطيع أن نقول إن مدكور أبو العز يتزيد فى هذا الذى يرويه، فقد كان هذا هو الواقع بالفعل، خاصة كنتيجة حتمية لإلحاح القيادة السياسية والتنظيم السياسى فى الحديث الدءوب عن مسئولية القوات الجوية عن هزيمة ١٩٦٧.

وهكذا فإن مدكور أبو العز لم يكن واهما.. على حين أن محمد فوزى لم يكن مدركا أبعاد مسئوليته وحقيقتها، وهو على ما يعرف الناس جميعاً يكتفى فى أدائه لهذا المنصب الكبير بالطاعة لمن هم فوقه لحماية مركزه وبالضبط والربط فحسب:

«وكم من مرة عمد (أى الفريق فوزى) إلى إصدار أوامر لا يمكن تنفيذها، سواء كانت خاصة بالعمليات الجوية أو فى النواحى الإدارية، وكان ينسى دائماً فى طريقة إصداره للأوامر إلىّ كواحد من قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة أنه يتعامل مع شخص على قدم المساواة معه فى المسئولية الخطيرة، بل إن مسئوليتى كقائد للقوات الجوية قد اتضحت خطورتها لرجل الشارع المصرى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧».

❑

ويروى مدكور أبو العز أنه قدم بالفعل عدة استقالات، وأنه هدد فى مرة أخرى بأن يطبع نسخاً من الاستقالات الجاهزة (لا لكى يوزعها كما فعلت حاشية المشير عبدالحكيم عامر) لكن ليقدمها فى كل مرة يحس فيها أنه لابد أن يقدمها من أجل المصلحة العامة:

«ولما كثرت المشاكل والمضايقات ولما تأكد لى أن هناك استحالة فى الاستمرار فى موضعى تقدمت بعدة استقالات لدرجة أننى قلت للقائد العام مرة إننى سوف أطبع نسخاً من الاستقالات أقدمها فى كل مرة أحس أن ما يطلب منى لا يتفق مع المصلحة الوطنية».

ويعترف مدكور بأنه كان يعانى من الفريق فوزى بقدر ما كان يسبب المعاناة له:

«والواقع أننى كنت متعباً لتجاوز هذه المضايقات والمعوقات من قبل القائد العام ونفر من أجهزته، وكنت مُتعباً (بضم الميم وكسر العين) لإصرارى على القيام بمسئوليتى كاملة دون تفريط أَو السماح بالتفريط مهما كانت النتائج».

(٥٧)

فى مقابل كل هذا الانتقاد لمحمد فوزى فإن الفريق مدكور أبو العز حريص على أن يشيد بأمين هويدى وهو وزير الحربية فى الفترة التى عمل فيها مدكور كقائد

للقوات الجوية، كما أنه كان بمثابة وزير شئون مجلس الوزراء حين التقى به مدكور أبو العز وهو محافظ لأسوان قبل اندلاع حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، وعلى الرغم من التنافر الشديد بين مدكور أبو العز ومحمد فوزى الذى هو أكبر منه دفعة وسناً فإنه كان يرتاح تماماً إلى أداء أمين هويدى وأمانته وروحه وأسلوبه فى التعامل .

[مع أنه يليه بدفعات، وفى هذا ما يدلنا على مدى ما كان يتمتع به مدكور أبو العز من إنصاف] وهو يقول فى إحدى فقرات هذه المذكرات:

«كنت دائم الاتصال بالسيد أمين هويدى وزير الحربية، كما كان هو دائم الاتصال بى، وكنت أحس أن تعيينه وزيراً للحربية كان بمثابة عامل تهدئة للموقف المتأزم بين القائد العام وبينى، فقد استطاع بأسلوبه الهادئ وطريقته المنطقية فى تحليل الأمور وتفهمه للمشاكل والطرق المثلى التى يتناولها فى حل هذه المشاكل، أن يحصل على ثقتى الأكيدة به، ولهذا فتحت له صدرى، ولهذا كان حديثى معه دائماً يتسم بالصراحة والوضوح».

«كنت أضعه دائماً فى الصورة الكاملة عن القوات الجوية، عن إنجازاتها والمضايقات والعراقيل التى ينصبها أمامى القائد العام. فكم عمل على تنقية الجو وتقريب وجهات النظر بعد أن لمس بنفسه كل شىء على حقيقته».

....

«ويبدو أن كل ما كنت ألاقيه من متاعب قد أبلغه إلى السيد الرئيس، فقد أنبأنى فى محادثة تليفونية بأن الرئيس عبدالناصر يطلبنى لمقابلته وحدد لى الميعاد، تمت المقابلة وقدمت للرئيس الموقف كاملاً عن القوات الجوية والإنجازات التى تمت، والبرامج التدريبية للأفراد والطيارين بصفة خاصة وإنشاء الوحدات الجوية حسب خطة موضوعة، والمشاكل والتعقيدات التى كانت تعترضنى».

«وفى هذا اللقاء طلب منى الرئيس تخفيف العبء عن الطيارين ومنحهم فرصة للراحة، ولكنى استأذنته فى أن يؤجل ذلك إلى وقت لاحق، إلى وقت أرى فيه ضرورة تخفيف العبء حيث إن الوقت كان يتطلب المزيد من الجهد، وهذا أمر أنظر

إليه بعين الرعاية والتقدير، وسوف لا أتردد لحظة واحدة فى تهيئة الراحة لهم، وتوقعت أن هذا الوقت سيكون قريباً إن شاء الله».

❏

ويروى صاحب هذه المذكرات قصة حوار دار بينه وبين الرئيس عبد الناصر بحضور أمين هويدى وزير الحربية الذى رتب للقاء، وسنرى فى هذا الحوار طابع الرئيس عبد الناصر فى عدم الارتياح إلى استقالة أحد مساعديه ومن الواضح أن هذا اللقاء كان قد تم بناء على تصميم مدكور على الاستقالة:

«واستأنف الرئيس حديثه قائلا: «أنا زعلان منك لأنك قدمت استقالتك، أنا ما عنديش حد يستقيل».

«فأجبت متسائلاً: كيف ذلك ياسيادة الرئيس.. إنه حينما يتأكد لى فى أية لحظة فى ظل المضايقات والعراقيل والمشاكل التى يصر القائد العام على وضعها أمامى ونفر من أجهزته، أننى لن أستطيع الوفاء بمسئوليتى التى عهدتم بها إلىّ، وقد لجأت لسيادتكم مرات ولم يتيسر لى شىء، لم يكن أمامى إلا أن أطلب إعفائى من موقعى».

«إن وطنيتى تحتم علىّ أن أفعل ذلك، وليس فى الاستقالة فى الظروف التى أعيشها ما يغضب أحداً. فها هو التنظيم مثلاً الذى يحاول أن يفرضه القائد العام الفريق أول محمد فوزى، فمع أن سيادتكم أمرتم بأن نجتمع لنتناقش فى موضوع التنظيم ونعرض على سيادتكم ما توصلنا إليه من حلول، فحينما اجتمعنا لم يقبل القائد العام المناقشة فيه واعتبر (المناقشة) أمراً مرفوضاً، واعترضت عليه كلية ووجدت أننى فى ظله لا أستطيع الوفاء بمسئوليتى، فإذا كان الأمر كذلك وقد حُرمت من العون والتأييد والمساندة التى وعدتنى بها، فليس أمامى سوى الاستقالة».

«إن السماح لنفسى بالبقاء فى ظل هذه المعوقات أعتبره عرقلة لمبدئى ولا أستطيع الوفاء بأمانة المسئولية».

هكذا ألقى مدكور أبو العز بهذه الخطبة البليغة أمام عبد الناصر ويبدو أن الرئيس عبد الناصر كان قد بدأ يفكر فى استبقائه إلى حين يتقرر له من هو الأنسب من القادة

لطاعة أوامره وراحة باله، وهذا هو التفسير الوحيد الذى يمكن أن نخرج به من استبقاء الرئيس عبد الناصر للفريق فوزى وتضحيته بآخرين من طراز مدكور أبو العز وأحمد إسماعيل على وفؤاد أبو ذكرى.. إلخ.

❏

ويعترف مدكور أبو العز فى هذه المذكرات أن شكاواه للرئيس عبد الناصر قد حققت تأثيراً فعالا ـ وإن لم يكن دائما ـ فيما يتعلق بسياسة القائد العام (أى الفريق محمد فوزى) معه:

«لاشك أن القائد العام بدأ ـ بعد لقائى مع الرئيس ـ يغير من سياسته وأسلوب تعامله معى، وقد ظهر فى الأفق تحسن كبير فى أسلوب العمل مع القيادة العامة للقوات المسلحة، لدرجة أن القائد العام قد أبلغنى أن أية عمليات يتطلب الأمر اشتراك القوات الجوية فيها فلن تنفذ إلا بعد موافقة القوات الجوية عليها».

«ولكن هل انتهت المشاكل حقا.. لم تنته، فإن التعامل مع القائد العام على الطريق المستقيم أصبح مستحيلا، فلا يرجى من أشياء خلقت معوجة أن تعتدل».

(٥٨)

ولا يقف انتقاد مدكور أبو العز للقيادة العامة للقوات المسلحة عند أى حد، بل يصل هذا الانتقاد إلى جزئيات كثيرة لا نكاد نتصور أن يصيبها الانحراف فى الأداء، ومن ثم تصيبها انتقادات مدكور أبو العز، وعلى سبيل المثال فإن القيادة العامة للقوات المسلحة شكلت (على حد ما يرويه مدكور) لجنة أغلبيتها من القوات البرية وفيها واحد فقط من القوات الجوية لتقوم بالتفتيش على القوات الجوية، وقد اختير لرئاسة هذه اللجنة الفريق صلاح محسن، وهذا هو مدكور ينتقد اللجنة وتشكيلها وأداءها بل ورئيسها وتاريخه بكل علانية ويقول:

«ليس من المعقول أن تحضر لجنة من القيادة العامة للقوات المسلحة لتقوم بالتفتيش

علـى تدريبات الـقوات الجوية بـرئاسة الفـريق صلاح محـسن الذى كان فـى حرب الهزيمـة الرجل الثـانى الذى يلـى فى القيـادة الفريق أول عـبدالمحسن مـرتجى، وكان واحداً من الـقيادات غير الـشرعية من أهل الـثقة، وهو أحد الـقيادات المسئـولة عن حرب الهـزيمة، ولا أدرى كيف كـانت القيـادة العامة لـلقوات المسـلحة تهـتدى إلى هؤلاء لتضعهم فى مـواضع حساسة، وما الفلسفة التى على أساسـها كان يتم اختيار هؤلاء، لاشـك أنها فـلسـفة الضـياع والتـخريـب، واستغـلال السلـطة بـكل السـفه والجهالة».

«جاء الـفريق صلاح مـحسن ولجنـته إلى إحدى الـقواعد الجـوية للتـفتيش عـلى تدريبات الطيارين وغـيرهم من الفنيين من جميع التخصـصات، وكان جميع أعضاء اللجـنة من الجيـش وهم مع الاعتـذار لأشخاصهم، لا يـفهمون شـيئاً عن تـدريبات الطياريـن والأطقم الفنية، بـاستثناء عضو واحد مـن القوات الجوية وعين فى الـلجنة حتى تتسم بأنها تمثل القوات المسلحة كمظهر فقط، وحتى لا تكون محل اعتراض».

ويستطرد مدكور أبو العز ليجأر بقوله:

« إن لجنة كـهذه إذا كان الغرض مـنها هو التـفتيش عـلى تدريبات أفـراد القوات الجوية تحقيقاً لـلوقوف على درجة كفاءة هؤلاء الأفراد، يلزم أن يـكون جميع أفرادها من القوات الجـوية، بل ومن المتخـصصين فى كل التـخصصات التى تـكون موضوع تفتيش اللجنة».

❑

كذلك يحرص مدكور أبو العز فى هذه المذكرات على التفرقة بين مجموعتين من القادة الـذين كانوا مسئـولين عن القوات المـسلحة فى ١٩٦٧، فـفريق منهم مـسئول يسـتأهل المحاكـمة لكـنهم تركـوا أحراراً، وفريـق آخر برىء قدم ظـلماً لـلمحاكـمة العسكـرية وكان فى حاجة إلـى شهادة أمثال مدكـور لتبرئتهـم مما نسب إليهـم ظلماً وعدواناً، وهو يسجل هذا المعنى بعبارات واضحة وصريحة يقول فيها:

«... لست ضد محاكمة المتسببين فى الهـزيمة كمبدأ وسماع شهادتى أمام المحكمة العسـكرية التى حوكـم أمامها الطيـارون شاهدة على ذلك، لـكنى كنت ضد الـظلم

والغبن، كنت مع الأبرياء ممن قدموا إلى المحاكمة العسكرية، وكنت ضد من أجرموا في حق القوات المسلحة وتركوا أحرارا».

(٥٩)

ويؤكد مدكور في أكثر من موضع من مذكراته على اقتناعه بأهمية إنصاف القادة الأبرياء الذين قدموا ظلماً للمحاكمة واعتبروا بمثابة كباش الفداء عن خطيئة الهزيمة في ١٩٦٧، ضارباً المثل على هذا بالفريق أول جمال عفيفي رئيس أركان حرب القوات الجوية في حرب ١٩٦٧ مقدماً المبررات التي يرى أنها تبرئ هذا الرجل الذي كان ثاني المتهمين في قضية الطيران:

«وحينما أسعى لمساعدة أي من المتهمين فإنني أعمل في ضوء النهار لتحقيق العدل والمساواة وألجأ إلى رئيس الدولة مباشرة، فإنني بالحق أقرر أن الفريق أول جمال عفيفي وكان أحد المتهمين في قضية الطيران كان ضحية كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ للأسباب الآتية:

«أولاً: كان قد أعيد إلى القوات الجوية نائباً لقائد القوات الجوية منذ أربعة أشهر قبل حرب يونيو ١٩٦٧ بعد غيبة عنها استغرقت خمس سنوات لإنقاذ ما يمكن إنقاذه».

«ثانياً: إنه في هذه المدة القصيرة لم يكن في استطاعته عمل شيء للإصلاح».

«ثالثاً: قدم في هذه المدة الوجيزة استقالته منتقداً الأسلوب الذي كانت تُقاد به القوات الجوية وسيطرة القيادة غير الشرعية على قائدها، وأنه في ظل هذا الأسلوب لن يستطيع أن يفعل شيئاً، وهكذا أخبرني في زيارة له لأسوان حينما كنت محافظا لأسوان».

❑

ويردف مدكور بعد هذا أنه تحدث في شأن الفريق أول عفيفي إلى الرئيس

عبدالناصر، ومن العجيب أن مذكور لا ينتبه إلى أن هذا الذى فعله يتعارض ظاهريا مع مبدأ استقلال القضاء، ولكنه معنى كما نفهم بما هو أكثر أهمية فى نظره وعقيدته من هذا المبدأ:

«لما كنت أشعر أن الفريق أول جمال عفيفى مظلوم فى هذا الاتهام وفى تقديمه إلى المحاكمة، فقد تحدثت إلى الرئيس عبدالناصر بشأنه مرتين، ولست فى حاجة إلى أن أقول رأياً لأحد المحامين فى موضوع معين أو أن أؤيد محامياً فى شيء معين كما كان يحاول القائد العام أخذ اعتراف منى بذلك».

❑

ويفاجئنا مذكور أبو العز على صفحات هذه المذكرات بما أنهاه إليه الرئيس عبدالناصر نفسه من اقتناعه أى اقتناع الرئيس وهو القائد الأعلى بأن جمال عفيفى قد تعرض للظلم ويعلق على هذا بقوله:

«إننى لجأت إلى رئيس الدولة مباشرة وكم كانت دهشتى حينما فاجأنى الرئيس عبدالناصر بقوله: «الحقيقة أن جمال عفيفى راح فى الرجلين»، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على:

«أولاً:أن الفريق أول جمال عفيفى مظلوم من وجهة نظر الرئيس عبدالناصر كما هو من وجهة نظر العدالة،أما لماذا قدم للمحاكمة العسكرية؟ فهذه علامة استفهام الإجابة عنها واضحة وهى من أجل تغطية موقف سياسى».

«ثانياً: إننى لا أعمل فى الخفاء بل أعمل فى ضوء النهار دائماً؛ هادفاً إلى تحقيق العدل والمصلحة العامة.. لا أتردد فى التصريح بالرأى الحر ولا أعمل حساباً للنتائج التى قد تترتب عليه مادام الأمر قد استقر فى وجدانى أنه الرأى الصحيح».

ثم يردف مذكور بعبارة يؤكد بها أن موقفه من زميله الفريق أول جمال عفيفى لم يكن لشخصه، وأنه لو كان يعلم عن موقف أى متهم من المتهمين الآخرين ما يعلمه عن موقف جمال عفيفى لوقف منه نفس الموقف:

«ولو أننى كنت على يقين بتفاصيل ظروف أى من المتهمين من غير الفريق أول

جمال عفيفى لما ترددت لحظة واحدة فى أن أفعل كما فعلت مع الفريق أول عفيفى، سواء كان المتهم من الجيش أم الطيران».

(٦٠)

ولا ينجو الفريق أول محمد أحمد صادق من انتقادات الفريق مدكور أبو العز اللاذعة والشديدة، وهو يدين أداءه وأداء المخابرات الحربية حين كانت هذه المخابرات لا تكف عن التنبيه إلى تحركات وهمية للعدو، مما كان يستدعى ـ بالطبع ـ انصراف قيادات القوات الجوية إلى غرف العمليات وتكون النتيجة الحتمية أن تصاب خطوات بناء القوات الجوية بالتعطيل، وها هو مدكور يشكو مر الشكوى من هذه الروح غير المسئولة فى أداء المخابرات الحربية فى ذلك الوقت فيقول:

«والسؤال: هل اتخذ القائد العام أى إجراء ضد مدير المخابرات الحربية؟!» وهنا يجيب مدكور مباشرة وباطمئنان وثقة ويقول: « لم أعلم أن إجراء ما قد اتخذ».

ثم يورد مثلا آخر لما ينتقد به تصرفات الفريق صادق والمخابرات الحربية فى عهده:

«كثيراً ما كان يحدث أن تصلنا مساء كل يوم بعد الهزيمة أنباء من مدير المخابرات الحربية تؤكد أن قوات إسرائيلية سوف تعبر قناة السويس للهجوم على قواتنا فى الصباح المبكر فى اليوم التالى، فيمر الصباح كله واليوم كله ولا يحدث الهجوم المنتظر ولا تتبين أية إشارة تدل عليه.. إن معنى ذلك أن تحتل قيادات القوات الجوية مواقعها فى غرف العمليات استعداداً لمواجهة هذا الهجوم، ومعنى ذلك أن تتوقف أو تتعطل عملية البناء فى كل الاتجاهات، ومعنى ذلك أيضاً أننا لا نشتغل».

❑

ويضرب الفريق مدكور أبو العز مثلاً حياً وضخماً على هذه المشكلة التى كانت المخابرات الحربية والقيادة العامة لا تفتأ تخلقها للقوات الجوية (على حد تشخيصه)،

يضرب هذا المثل بالإشارة إلى وجود تحركات إسرائيلية دون أن يكون لهذا التقدير أى أساس من الصحة.

ويروى مدكور أبو العز حقيقة القصة التى رواها الرئيس السادات بناء على معلومات القيادة والمخابرات الحربية بطريقة مخالفة.

ترينا رواية مدكور أبو العز - إن صحت، وليس هناك حتى الآن فيما طالعناه ما يدفع إلى الاعتقاد فى عدم صحتها - كيف أنه كان يستحيل على مصر أن تحرز أى نصر فى ظل وجود هذه القيادات التى كانت مسئولة من قبل عن هزيمة يونيو ١٩٦٧.

❑

ونحن نكاد نقرأ فى نصوص مدكور أبو العز نفس الروح والوقائع والأسلوب الذى لخصه اللواء الدغيدى فى اتهامه للفرقاء محمد فوزى ومحمد أحمد صادق وصلاح محسن وأدائهم الغريب غير المسئول:

«وليذكر القارئ الكريم أن الرئيس أنور السادات وهو يحكى فى إحدى خطبه عن لوا ء مدرع إسرائيلى كان فى طريقه لعبور قناة السويس على الطريق الشمالى العريش - القنطرة شرق، وأن القوات الجوية قد استعدت لتدميره لكن العملية لم تتم بسبب الضباب. والواقع المر يخالف ذلك كلية، فلما أجبر القائد العام على أن تقوم القوات الجوية بضرب هذا اللواء المدرع المزعوم بأكبر قوة جوية رغم استكشاف الطريق قبل آخر ضوء مباشرة بواسطة الطائرات فى عمق سيناء فلم تجد أى أثر له، أصر القائد العام على ضرب هذا اللواء المدرع فى الصباح المبكر لليوم الثانى، مؤكدا أن رجال المخابرات الحربية هم رجاله وهم موضع ثقته الكاملة».

«وفى صباح اليوم التالى قبل أول ضوء أمرت بإقلاع طائرتين مقاتلتين لاستكشاف الطريق قبل صدور الأمر بإقلاع أكبر قوة جوية والحصول على المعلومات بالرؤية وبالتصوير، للتأكد من وجود هذا اللواء المدرع، وأذكر أن العقيد طيار تحسين زكى وهو من أكفأ طيارينا كان المكلف بهذه المهمة، أقلعت الطائرتان وعادتا إلى قاعدتهما وقدم قائد المهمة الجوية تقريراً مفصلاً عن عملية الاستكشاف فاتضح عدم وجود أى أثر للواء المدرع المزعوم».

«استدعيت الفريق صلاح محسن وأطلعته على نتيجة الاستطلاع وكلفته بعرض الأمر على القائد العام، وقد كان القائد العام مصراً على الضرب، فلم يكن أمامه إلا أن يصدر الأوامر بإلغاء الضربة».

«لم أكن مستريحاً لهذا الذى كان يحدث، وتساءلت: ماذا كان يقال عن القيادة الجديدة للقوات الجوية لو أن أكبر قوة جوية قد أقلعت لضرب اللواء المدرع المزعوم فلم تجد أمامها إلا الرمال لتقصفها.. وماذا يكون أثر ذلك فى العمليات الجوية؟».

«إن مثل هذه الأنباء التى تؤكد وجود قوات إسرائيلية متأهبة لعبور القناة للهجوم على قواتنا فى صباح كل يوم أو وجود لواء مدرع متقدم، فيتضح عدم صحة هذه الأنباء، أوجد حالة من عدم الثقة فى صحة هذه الأنباء، فضلاً عن أنها كثيراً ما صرفتنا عن عملية البناء».

ويبلور مدكور هذه المعانى فى قوله:

«إن ذلك يؤكد أحد أمرين: إما عدم كفاءة عملاء المخابرات الحربية، وإما أن المخابرات الحربية تعتمد فى الحصول على المعلومات على عملاء المخابرات الإسرائيلية الذين تدفعهم إسرائيل للتضليل بهدف استنزاف القوى والمجهود والمال فيما لا فائدة فيه حتى إذا فكرت إسرائيل فى عمليات هجومية حسب التخطيط لعملياتها الحربية تكون كل الظروف الحسنة متاحة لها».

❑

ثم يلخص مدكور أبو العز الفكرة التى شرحها من خلال المثال السابق فى فقرتين يتهم فى الأولى المخابرات الحربية (أى الفريق صادق) بالقصور وسوء الأداء، ويتهم فى الثانية القائد العام بإصدار أوامر عفوية دون أى دراسة أو تقدير لحقوق الأفراد :

«إن إعلام القوات الجوية بهجوم معاد مزعوم متكرر كل صباح على أنه مؤكد، سرعان ما يتضح عدم صحته، يؤكد عدم قدرة أجهزة المخابرات على تحمل المسئولية وإسنادها إلى القوات الجوية دون تقدير ما سوف يترتب عليه من تعطيل إنشاء وحدات جوية جديدة ، فيكون معدل الزيادة فى قوتها بطيئاً ويكون ذلك حائلاً أمام

تنفيذ خططها، الأمر الذى يترتب عليه عدم تجهيزها كاملاً للقيام بمهامها فى المعركة فى الوقت الذى حددته».

....

«إن عشرات الأوامر قد صدرت عن القائد العام عفوية دون دراسة تشوبها العيوب ولا يمكن معها التنفيذ، أو صدرت متجاهلة حقوق الأفراد لفرع من الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة، أو صدرت بخصوص عمليات جوية يصر عليها رغم توضيح النتائج الوخيمة التى تترتب عليها لمجرد أن القائد العام صاحب سلطة، فكم أدخلتنا فى متاهات لاشك أنها كانت تصرفنا عن العمل الجاد وخلقت جواً كريهاً استحال معه العمل فى هدوء، وشابه عدم الثقة وعدم الانسجام المأمول».

(٦١)

وعلى الرغم من اعتزاز الفريق مدكور أبو العز بما تحقق من نصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبقيادة وجنود هذا النصر إلا أنه بحكم بشريته لا يستطيع أن يسامح زميله المشير أحمد إسماعيل، لا لسبب عسكرى ، أو لقصور فى أدائه الحربى ولكن لموقفه منه وهو مدير للمخابرات العامة حين اتهم الرئيس السادات «مدكور» بالتدبير للانقلاب عليه، وسنرى فى الفقرات التالية الأسباب التى دفعت مدكور إلى أن ينتقد أحمد إسماعيل فى هذا الموقف صراحة وعلانية، ولكن إنصاف مدكور لم يدفعه إلى أن يتخذ من هذا الموقف دافعا لكى يضم أحمد إسماعيل إلى سلفيه (محمد فوزى ومحمد أحمد صادق) فى انتقاده لأدائهما العسكرى سواء فى منصب الوزير أو قيادة الأركان أو إدارة المخابرات الحربية.. ومع هذا فإن نفسية مدكور غير المستريحة من سلوك أحمد إسماعيل معه فى ١٩٧٢ لم تمكنه أيضا من أن يسجل إعجابه بأداء أحمد إسماعيل سواء فى ١٩٦٧ فى أعقاب الهزيمة أو فى ١٩٧٣ حين قاد الجيوش إلى النصر.

ويتحدث صاحب المذكرات فى أسف بالغ عن موقف زميله الفريق (المشير)

أحمد إسماعيل حين كان فى ١٩٧٢ مديراً للمخابرات العامة وتولت المخابرات العامة تقديم التقرير الذى تم على أساسه اتهام مدكور أبو العز وتقديمه للاستجواب أمام نيابة أمن الدولة.

ونحن نرى مدكور ينتقد زميله القديم فى جزئيتين:

الأولى أنه قدم الاتهام وكان الواجب عليه أن يتأكد بنفسه من توافر القرائن والأدلة.

أما الجزئية الثانية فهى أن يتشفع لزميله مدكور أبو العز عند الرئيس السادات بدلاً من أن يقترح عليه تحويله للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية.

ومع أن مدكور لا يقدم فى مذكراته سنداً على صحة الرواية التى يرويها مُسندة إلى أحمد إسماعيل، فإن خبرتنا بمثل هذه الاتهامات السياسية وتحقيقها تجعلنا نقول إن ما انتقده مدكور من تقديم جهاز المخابرات الاتهام عارياً مكشوفاً كانت أجل خدمة قدمت لمدكور أبوالعز، وليس معنى هذا أن المخابرات قصدت خدمته بتقديم الاتهام هكذا عارياً دون أدلة أو قرائن على نحو ما يروى مدكور أبو العز، ولكن المقصود هو أن ننبه إلى ما هو أهم وهو أن المخابرات العامة لم تتورط فى اصطناع أدلة أو تلفيق قرائن تستتبع تحقيقا طويلا يطيل العنت والتعسف على مدكور أبو العز.

ويبدو لى الآن وقد تكثفت معرفتنا بالفترة التى يتكلم عنها مدكور ومدى الحساسيات التى كانت تثار فى وجه الرئيس السادات واستعداداته للمعركة أنه كان يطلب إلى أجهزة الأمن الوطنى اتخاذ إجراءات كفيلة بصرف النظر عن هذه البؤر المعارضة، والتى كان فتح الحوار معها ـ فى حد ذاته ـ كفيلاً بكشف الاستعدادات والخطط الاستراتيجية للقوات المسلحة المصرية ولو بطريقة جزئية.

وهكذا فلم يكن هدف المخابرات العامة ولا أحمد إسماعيل ولا غيره اتهام مدكور أو غيره وإنما كان كل هدف المخابرات هو تنفيذ فكرة الرئيس السادات فى أن يجعل مدكور يسكت وأن تنصرف الأنظار عن موضوع «العريضة» ومضمونها فى وقت لا ينبغى فيه الانصراف ولو لدقيقة إلى مثل هذه المناقشات السفسطائية.

ومع هذا كله ومع تقبلنا له بحكم ظروف تلك الفترة فقد كان من الواجب على

الرئيس السادات وعلى نظامه أن يعود بعد النصر الساحق الذى حققناه فى الحرب أن يعود ليكرم مدكور أبو العز وأصحاب العريضة، وأن يبرر له ولهم ما فعله فى ذلك الوقت، وظنى أن هذا لو حدث لكان مدكور نفسه أول المقدرين، ولكن يبدو أن تزاحم الأحداث وتدافعها لم يمكن السادات ولا نظامه من هذه المصالحة وهذه الترضية الواجبة، وأنا أقول كل هذا الذى أقول مفترضا صواب وصدق مدكور فى كل ما رواه، ومؤسسا وجهة نظرى على براءته من الاتهام ومن روح الاتهام:

«كان التحقيق معى مواكباً للوقت الذى كان يتولى فيه رئاسة المخابرات العامة ـ أحمد إسماعيل ـ وباختصار شديد انتهى التحقيق معى إلى لا شىء. هذا موقف نيابة أمن الدولة والنائب العام، وهذا رأى آخرين ممن أخذ برأيهم، ومرة أخرى أشعر بالقيم تنهار حينما يبدى الفريق أحمد إسماعيل رأيه مجافياً للعدالة ومجاملة للرئيس السادات فيقترح محاكمتى أمام المحاكم العسكرية لأن المحكمة المدنية قد تبرئنى».

ويستعيد مدكور أبو العز الماضى الجميل الذى لم تكن قد مرت عليه فى ذلك الحين إلا سنوات معدودة:

« وهنا أذكر القارئ الكريم بيومى ١٤ و١٥ يوليو حينما هاجمت الطائرات الإسرائيلية بشراسة قواتنا المسلحة على طول جبهة القناة وطلب اللواء أحمد إسماعيل ـ وكان وقتذاك قائداً للجبهة ـ من القيادة العامة تدخل القوات الجوية لتخرجه من المأزق الذى كان فيه، وكنت وقتذاك قائداً للقوات الجوية، فرفض طلبه القائد العام الفريق أول محمد فوزى، فطلب منى اللواء أحمد إسماعيل التدخل ولما تبينت منه أن الموقف عصيب، والمأزق الذى يتعرض له وتتعرض له قواتنا المسلحة شديد والصورة التى كان عليها مهتزة شديدة الاهتزاز، وهو يطلب منى التدخل، فقد وعدته بتدخل القوات الجوية فى المعركة متحملاً ما ينتج عن ذلك من تبعات».

«كان تدخل القوات الجوية حاسماً وأتى بأحسن النتائج على النحو الذى شرحته، أما موضع الألم فإننى وقد ثبت للفريق أحمد إسماعيل من موقفى هذا، المعادن الأصيلة للرجال، فكنت أتوقع منه أن يكون عوناً لى فى موقف يعرف فيه أن الرئيس

السادات يتربص للنيل منى فلا يكون خصماً لى ونداً لا لخطأ ارتكبته ولكن درءا لاتهامات أنا برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب».

«كنت أتوقع منه أن موقفى هذا حين طلب منى النجدة وهرعت لتلبية النداء يجعله يشفع لى بدلاً من أن يتقرب إلى السادات على حسابى فيقترح تطوعاً محاكمتى عسكرياً كمنفذ لإيذائى عندما تبين للسادات أن المحكمة المدنية سوف تبرئنى وتجعل المحاكمة المدنية منى بطلا».

«وكنت أتوقع منه أيضاً وهو مدير المخابرات العامة ألا يقدم تقريراً باتهامى أمام نيابة أمن الدولة قبل أن يتأكد بنفسه من توافر القرائن والأدلة لديه بما يكفى للإدانة، أما تقديم الاتهام عارياً مكشوفاً، واهيا أوهى من نسيج العنكبوت، فإن ذلك لا يدل على شىء إلا أنه أراد أن يجامل السادات على جثث الأبرياء الأشراف».

«استطاع القضاة (يقصد رجال نيابة أمن الدولة) الذين قاموا بالتحقيق معى الوصول إلى الحقيقة، وهم ليسوا فى حاجة إلى ثناء منى أو من غيرى، وكنت أريد أن أزين صفحات هذه المذكرات، فأذكر أسماءهم، فآثرت عدم ذكرها تجنباً للإحراج.. إن القاضى لا يقبل من أحد شكراً لحكم أصدره ببراءته، كما أنه يرفض من أحد لوماً لحكم أصدره بإدانته، فلو أنه قبل الشكر مرة، فقد أعطى الفرصة لتوجيه اللوم له ولغيره من القضاة مرات، وليس لأحد كائناً من كان الحق فى مدح القاضى أو قدحه على حكم أصدره، ندعو الله لهؤلاء ولقضائنا بالتوفيق والسداد.. ولست أملك هنا إلا أن أقول وأؤكد أن فى ساحة قضائنا عمالقة».

(٦٢)

وبعد عرضنا لمضمون هذه الانتقادات الواضحة التى تناول بها مدكور زملاءه من القادة العسكريين الذين تولوا منصب وزير الدفاع فإننا لا نجده ينتقد سلفه فى قيادة القوات الجوية بما يتوقعه القراء العرب من مذكرات قائد لابد له أن يركز انتقاده على سلفه المباشر، كما هى العادة ، والحقيقة أن مدكور كان نبيلاً جداً فى تعامله مع

سياسات سلفه الفريق أول محمد صدقى محمود وتكاد انتقاداته له تنحصر فى جزئيتين مهمتين تناولناهما فى هذا الباب؛ الجزئية الأولى هى قبوله بالإهمال المفروض على احتياجات القوات الجوية، ومن ثم قبوله البقاء على رأس هذه القوات فى هذه الظروف غير الملائمة بأداء هذه القوات لواجبها، ومن ثم ـ أيضا ـ دخول هذه القوات ما دخلت بدون الاستعداد اللازم، أما الجزئية الثانية فهى قبوله أيضا بل واستمراؤه للجشع فى تولى عدد من المناصب المتعارضة، والتى يلزم التفرغ التام لكل منها.

ويورد الفريق مدكور أبو العز ما يعتبره أكثر من مثل على ما يسميه: «جشع القيادات العليا فى شغل المناصب المتعددة فى وقت واحد»، وهو يجهر بالقول إن هذه القيادات لم تكتف بطول البقاء بل امتدت سلطاتها إلى شغل مناصب لا يجوز أن تجتمع مع بعضها، ويقول ما نصه:

«لم تكتف هذه القيادات بالبقاء فى مواقعها مدداً طويلة، بل فرضت نفسها على مواقع أخرى هامة، فلم يكتف مثلا الفريق أول محمد صدقى بقيادة القوات الجوية والدفاع الجوى وحدها بأعبائها الضخمة ومسئولياتها المتشعبة الخطيرة، بل سعى إلى رئاسة مؤسسات أخرى إلى جانب مسئولياته فى القوات الجوية، فمرة نجح فى أن يجمع معها وكالة الوزارة لشئون الطيران، ومرة أخرى رئاسة مؤسسة الطيران (شركة مصر للطيران)، ومرة ثالثة نيابة رئاسة مصانع الطائرات والصواريخ، كأن قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى أمر تافه لا يحتاج إلى تفرغ كامل من قائدها مع أن مسئوليته الأخيرة كنائب لرئيس هيئة مصانع الطائرات تتطلب خبرات وكفاءات متخصصة من مستوى معين لا تتوافر فيه».

(٦٣)

يكاد العداء للسوفييت وللسياسة السوفيتية أن يكون الطابع الغالب على هذه المذكرات، لهذا فقد يكون من الأحرى أن نبدأ ببيان موقف مدكور من الأمريكيين والولايات المتحدة الأمريكية، وهو موقف عدائى أيضا يحفل بالبغضاء الشديدة.

وينبه مدكور أبو العز إلى ما يصفه بأنه حقيقة التغافل المقصود من الرئيس عبدالناصر عن موقف أمريكا المتوقع فى حرب يونيو ١٩٦٧، وهو ينقل نص إجابة الرئيس عبد الناصر عن سؤال وجه إليه فى المؤتمر الصحفى الذى انعقد قبل حرب يونيو بأسبوع واحد، وفى الإجابة تتضح وجهة نظر عبد الناصر بما لا يقبل أكثر من تفسير، وفى هذا الصدد يقول صاحب المذكرات:

«أقول إننا أغفلنا موقف أمريكا، ففى المؤتمر الصحفى العالمى الكبير الذى عقد فى يوم ٢٨ مايو عام ١٩٦٧ سأل أحد الصحفيين العرب [وهو هشام أبو ظهر رئيس تحرير صحيفة المحرر اللبنانى] الرئيس عبدالناصر:

«هل وضعت الجمهورية العربية المتحدة فى احتمالات الموقف تدخل أمريكا المسلح لصالح إسرائيل؟».

فأجاب الرئيس:

«أولاً الموضوع ده فى حساباتى... أنا محسبتش أمريكا لأن إذا كنت حاأحسب أمريكا و الأسطول السادس والأسطول السابع والجنرالات الأمريكان مش حاقدر أعمل حاجة، مش حانقدر نتحرك.. إحنا ما بنحسبش حساب لأمريكا فى هذا، إذا أمريكا تدخلت لابد أن ندافع عن أنفسنا وندافع عن حقوقنا، ولكن إذا جيت أحسب أد إيه قوة أمريكا وأد إيه قوتى يبقى حطلع برضه من قبل ما أحسب أن أمريكا متفوقة علىّ برياً وبحرياً وجوياً. أنا ماحطش هذا فى حسابى أبداً، وإذا أمريكا تدخلت ده موضوع آخر علينا أن ندافع عن أنفسنا ولن تستطيع أى دولة كبرت أن تهزم أى شعب يصمم على أن يدافع عن نفسه وعن حقه فى الحياة وعن سيادة بلده.

ويعقب مدكور أبو العز فى أسى على رؤية عبد الناصر قائلاً :

«والسؤال عندى: هل جهز عبدالناصر الشعب مادياً ومعنوياً ليستطيع الشعب أن يحافظ على سيادة بلده وأن يدافع عن حقه فى الحياة، أم تركه أعزل ليواجه أمريكا؟».

❑

ومن المهم أن نذكر أن مدكور كان ينطلق فى هذا الفهم للدور الأمريكى من

بغضاء للأمريكيين لا من الانبهار بهم أو الحرص على تخويف شعبه منهم، وهو على مدى صفحات الكتاب لا يخفى عداءه للسياسة الأمريكية ولأغراضها غير الشريفة، ويذهب مدكور أبو العز فى اتهامه لأمريكا بالتخطيط للهزيمة إلى أقصى الحدود المتصورة عن هذا التخطيط، وهو يروى القصة التى جعلت الرئيس عبد الناصر يلقى بتصريحه القائل بشرب أمريكا من البحر، ويعقب مدكور فى أسى بقوله الحقيقة على نحو ما تراءت له، وهى أن أمريكا لم تشرب من البحر الأحمر ولا البحر الأبيض، وأن جمال عبدالناصر لم يشرب من مجارى القاهرة، لكن الذى شرب من مجارى القاهرة كان هو الشعب المصرى الضحية:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية قد هيأت فى رأيى لكل المواقف التى حدثت فى الأيام القليلة قبل الهزيمة، وخططت لها بالتعاون مع إسرائيل، واشتد التوتر بيننا وبين الولايات المتحدة. ففى لقاء تم بين الدكتور رمزى ستينو وزير التموين والتجارة الداخلية الأسبق مع السفير الأمريكى بالقاهرة بمناسبة طلب الأول من الأخير صفقة أذرة، أبلغ السفير الدكتور رمزى ستينو أن الشعب الأمريكى غاضب من هجوم الرئيس عبدالناصر عليه بصفة مستمرة، فأثار هذا التبليغ حفيظة الرئيس عبدالناصر فأعلن فى خطاب له: «اللى يزعل يشرب من البحر الأبيض، وإذا لم يكفه البحر الأبيض يشرب من البحر الأحمر»، فرد عليه الرئيس الأمريكى الأسبق ليندون جونسون: «إننى سوف أجعل عبدالناصر يشرب من مجارى القاهرة»، فماذا حدث؟ لم يشرب الشعب الأمريكى من البحر الأبيض أو البحر الأحمر، ولم يشرب جمال عبدالناصر من مجارى القاهرة لأن أجله لم يمتد، لكن الذى شرب من مجارى القاهرة هو شعب مصر.. الشعب الضحية».

❑

وفى المقابل يقف مدكور من الاتحاد السوفيتى موقفاً عدائياً صريحاً واضحاً لا لبس فيه، وسنرى تفصيلات مذهلة على مدى صفحات هذا الباب يوردها مدكور ويستشهد بها ويستنتجها، لكن خلاصة رأيه فى الاتحاد السوفيتى تكمن فى قوله: «إن الاتحاد السوفيتى جدير بالاحتقار لأنه صديق خائن»:

«إننا قد نحترم الخصم الذى يصرح بخصومته لنا، أما الصديق الذى يقدم لنا

الفئات من أسلحته ويخدع ويخون فهو جدير بالازدراء والاحتقار. كان الأحرى بنا أن نفقد ثقتنا فيه أولاً ولا نتعامل معه كلية، على الأقل فى أمور تتعلق بأمن قواتنا المسلحة وسيادتنا على أرضنا».

(٦٤)

ويصل مدكور أبو العز إلى أدق تشخيص لموقف الرئيس جمال عبد الناصر فى ١٩٦٧ وما سبقها، وهو لا يبحث عن التشكيك فى وطنية الرجل أو رجاحة عقله، ولا يعبر عن الحيرة تجاه موقفه، ولا يلقى بالعبء على آخرين، لكنه يشخص موقف عبد الناصر فى وضوح بأنه تورط، فلما وصل إلى نقطة اللاعودة عالج الأمور بخطأ جديد وهو إعلانه أنه لن يكون البادئ... وهنا كانت المصيبة:

«... لقد أصبح واضحاً أن الرئيس عبد الناصر قد تورط فى إعلان القرارات العفوية، واتضح له فى وقت متأخر أن الموقف جد خطير للغاية، ووصل إلى نقطة اللاعودة، وأنه مقبل على حرب مع إسرائيل لا محالة.. فلم يجد من وسيلة للتراجع أو تخفيف حدة التوتر عن الإجراءات الانفعالية غير المسئولة إلا أن يعلن على العالم كله أنه لن يكون البادئ فى القتال.. وهنا كانت الطامة الكبرى، فبدلاً من أن يصلح من أمر ما فعل فقد زاد الطين بلة».

❑

ولا ينكر مدكور أبو العز أنه كان حريصاً على أن يدلى بدلوه فى الحديث عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ كلما أتيحت له الفرصة لذلك، كما لا ينكر أنه كان على الدوام يخشى أن يصدق الشعب ما يرويه الفريق أول محمد فوزى مع أنه أحد المسئولين عن الهزيمة فى رأى مدكور.

ويشير صاحب المذكرات إلى أنه لم يقف عند حدود الرد على الفريق فوزى على صفحات الجرائد، لكنه طلب الكلمة للحديث فى مجلس الشعب عندما بدأ نشر مقالات الفريق فوزى، وقد كان فى ذلك الوقت عضواً منتخباً عن دائرة كفر سعد:

«إننى كنت أنتهز كل فرصة لإثارة موضوع هزيمة يونيو عام ١٩٦٧، فقد أثارنى ما قرأته فى جريدة الأخبار الغراء يوم ٢٢ أكتوبر ١٩ ٧٧ عن بداية لسلسلة من المقالات تحت عنوان «وثائق ٥ يونيو» قدمها الأستاذ موسى صبرى على لسان الفريق أول متقاعد محمد فوزى، وهو من كبار المسئولين عن الهزيمة».

«ولما كنت على يقين بأن ما يقوله الفريق أول محمد فوزى لا يعبر عن الحقيقة، وأن ما كتبه قد يدخل فى أذهان الشعب أنه الحقيقة».

....

«ففى صباح اليوم الذى صدر فيه المقال الأول من سلسلة هذه المقالات وفور افتتاح الجلسة فى مجلس الشعب، طلبت من المهندس سيد مرعى رئيس المجلس الكلمة فأذن لى».

(٦٥)

ويذكر مدكور أبو العز أنه كان معارضاً للطريقة التى حاول بها مجلس الشعب إغلاق موضوع الحديث عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ بتقرير أعده حمدى عاشور مقرر لجنة تقصى الحقائق التى شكلت لهذا الغرض، ومع أنه حذر حمدى عاشور من أن يتبنى مشروع التقرير الذى أعد بالفعل للعرض على المجلس فإنه يصرح بأن اختيار حمدى عاشور كان مناسباً لهذا الغرض:

«وفى يوم من أواخر أيام مجلس الشعب جاءنى مقرر اللجنة حمدى عاشور وهو الذى عين مقرراً للجنة تقصى الحقائق ليعرض علىّ مشروع تقرير أعده يقع فى ثلاث أو أربع ورقات فلوسكاب ليأخذ الرأى، وكان الأحرى به ألا يأخذ أقوالى أمام لجنة تقصى الحقائق، وقرأه علىّ، كان اللقاء فى مجلس الشعب فوجدته تقريراً تافهاً لم يمس المهم من الأمور، كان مشروع التقرير مركزا على الفريق أول محمد صدقى محمود وعلى تقصير القوات الجوية ويعبر عن اتجاه التستر على الموضوع وإنهاء الحديث عنه بأى شكل دون إثارة».

«ولعل اختيار النائب حمدى عاشور كان لهذا الغرض، فسألته: هل حوّل المهندس سيد مرعى خطابى الذى سلمته بيدى له فى اليوم التالى لإثارتى موضوع الهزيمة فى المجلس والخاص بنقاط يلزم اللجنة تحقيقها والوصول إلى رأى فيها؟. فأجاب بأن خطاباً ما بشأن هذا الموضوع لم يحوّل إليه من رئيس المجلس وليس لديه علم به».

«أبديت له الرأى مخلصاً وقلت فى صراحة: يا أخ حمدى أنصحك بألا تقدم هذا التقرير، إنك إن فعلت كنت قد حكمت على نفسك بالموت، فحرام عليك»..

ويمضى مذكور ليقول: «لا أقول إن التقرير لم يقدم إلى رئيس المجلس، ولكنى أقطع بأن تقريراً ما للجنة تقصى الحقائق عن هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ لم يقدم إلى المجلس لمناقشته، ولم تمض أيام قليلة حتى صدر بعدها قرار بقانون أعرج بناء على استفتاء أعرج تم بقرار غير مسئول بحل مجلس الشعب الذى كان عظمة فى حلق الرئيس الراحل السادات قبل انتهاء مدته بسنتين وثمانية شهور».

ويطرح مذكور أبو العز عدداً من التساؤلات المهمة الكفيلة فى رأيه بتكوين صورة حقيقية عن أسباب هزيمة يونيو ١٩٦٧، وهو يميل من خلال هذه التساؤلات إلى ترجيح القول بأن عبد الناصر خاض هذه المعركة معتمدا على إمكانية نجاح وفعالية نظرية «التهويش»:

«هل كانت القيادة السياسية تعنى حرباً أم هو التهويش والمقامرة بالبلاد والقوات المسلحة.. وفى هذا (الصدد) فقد سمعت الرئيس الراحل جمال عبدالناصر يقول فى سجال الندم على تصرفاته التى حدثت بشأن الهزيمة: «إن تهويشة المرة دى منفعتش»، وكان ذلك فى حضور القيادات العسكرية للقوات المسلحة بعد الهزيمة، وأذكر منهم الفريق أول متقاعد محمد فوزى القائد العام السابق للقوات المسلحة، والمرحوم الفريق عبدالمنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة سابقاً، والسيد صلاح نصر مدير المخابرات العامة وقتذاك».

❑

ويصرح مذكور أبو العز - بعد صفحات - باستنكاره الشديد لأن يقبل قائد سياسى كبير على نفسه خوض معركة دون إعداد الدولة للحرب:

«لا أتصور أن يبقى القائد السياسى فى موقعه هذه المدة وهو يعلم أنه ليست هناك استراتيجية سياسية أو استراتيجية عسكرية، ثم يصعدون الموقف ويهددون العدو وتُحشد الجيوش إلى مسرح العمليات، والقوات لا تعرف مهامها العسكرية.. ماهو صنف هؤلاء الرجال؟ وكيف تستبيح لنفسها البقاء فى مواقعها على هذه الصورة؟ وإذا كانت الدولة لم تعد نفسها للحرب فكيف صعدت القيادة السياسية الموقف وسمحت لها القيادة العسكرية بذلك؟!».

(٦٦)

وفى كثير من مواضع هذه المذكرات تتضح قدرات مدكور أبو العز على الفهم الاستراتيجى العميق، وهو لا ينساق وراء الانخداع فى تصرفات عاطفية أو مظهرية دون أن يحسب آثار هذه التصرفات على الجانب الآخر، وما قد تعطيه له من مزايا وقتية أو طويلة المدى.

وهو يتحدث بتقدير مسئولية يقظ عن آثار إبرام الاتفاقية العسكرية بين مصر والأردن قبل الهزيمة ويقول إن هذا القرار كان خطيراً جداً، ويلفت النظر إلى دلالة هذا القرار من الناحية الاستراتيجية ويقول: إن معناه الوجود المصرى العسكرى فى الأردن، وهذا الوجود يشكل خطورة محققة على إسرائيل ويهددها تماماً ولا يمكن لإسرائيل أن تسمح به، وفى اعتقادى أن تلك مصيدة وقعنا فيها».

❑

ولهذا السبب فإن مدكور أبو العز يفهم ويتفهم بطريقة استراتيجية واعية الموقف على الجانب الآخر، أى فى إسرائيل، وهو يستعرض تقدير الموقف المتاح أمام قادتها فيقول:

«إن هذه القرارات العشوائية غير المدروسة وغير المسئولة، قد ضيقت الخناق على إسرائيل فلم تجد أمامها إلا القيام بحرب وقائية ضد مصر، ولا أعتقد أن عاقلاً فى

إسرائيل يمكن أن يسكت أمام هذه القرارات فى الوقت الذى يملكون فيه جيشاً، ولو أننا فى محلها لما فعلنا غير ما فعلت».

على هذا النحو كان مدكور يسبق كل زملائه إلى مثل هذا الحديث الصريح الواضح الذى يقدر الأمور قدرها الصحيح دون أن يعنى هذا بالبداهة أنه يؤيد إسرائيل فى عدوانها أو يبرر لها ما فعلت، لكنه يلفت النظر إلى أننا الذين قدمنا لها الفرصة بقرارات عشوائية غير مدروسة وغير مسئولة لم تكن لها من نتيجة إلا تضييق الخناق عليها فى الظاهر.

❑

ويبصرنا صاحب هذه المذكرات بالفارق الكبير بين خطط الانسحاب الذكية والانسحاب الفاشل، ويصل إلى تقرير أن خطط الانسحاب التنفيذية تفوق فى أهميتها العمليات الهجومية الناجحة:

«إنها تكون أكثر أهمية فى حال اختلال التوازن بين الطرفين المتحاربين اختلالاً خطيراً، ولم يكن الموقف يسمح بغيرها كما حدث فى حرب أكتوبر ١٩٥٦. إن خطط الانسحاب إذا أعدت بإحكام ونفذت بدقة أكثر، فإنها تفوق العمليات الهجومية الناجحة لأنها تحمى القوات والمعدات، استعدادا لعمل جديد. إن الانسحاب الفاشل يحدث ذعراً فى صفوف القوات المسلحة ويجهز على جميع القوات بأفرادها ومعداتها، وهذا للأسف الشديد ما حدث فى هزيمة يونيو».

❑

ويجاهر مدكور أبو العز فى مواضع كثيرة ومتعددة من هذه المذكرات باعتقاده فى توريط السوفييت لمصر فى حرب ١٩٦٧، وهو يصرح بما لم يصرح به غيره من أن الرئيس عبد الناصر نفسه كان قد بدأ يدرك هذه الحقيقة، بل إنه (أى الرئيس عبدالناصر) صرح للقادة الكبار بحقيقة أدركها مبكراً، وهى أنه لا سبيل لحل المشكلة إلا بالتفاهم مع الأمريكان:

«ما هى حقيقة رحلة شمس بدران وزير الحربية السابق إلى موسكو قبل الهزيمة.. هل أخذ وعداً من القيادة السوفيتية بالوقوف بجانب مصر فى المعركة، وإذا كان وعداً

لم يُقطع فهل من المتصور أن يبلغ شخص مسئول فى موقع شمس بدران بشيء على جانب من الأهمية كهذا على غير أساس من الواقع.. وإذا كان هذا الوعد لم يعط.. فلماذا يقول الرئيس الراحل عبدالناصر فى مجال الحديث عن الموقف المعيب للاتحاد السوفيتى من الهزيمة.. يقول الرئيس الراحل: روس إيه وبتاع إيه.. الروس خلوا بينا.. أدينا اعتمدنا على الروس وودونا فى داهية».

«وفى مجال آخر يقول (أى الرئيس عبد الناصر):

«اتحاد سوفيتى إيه.. وحياد إيه، الاتحاد السوفيتى غير مؤثر فى المشكلة.. المشكلة فى يد الأمريكان، فلا سبيل لحلها إلا بالتفاهم مع الأمريكان.. وهذا ما كان يجب عمله فى الأول. علينا أن نتبع هذه السياسة ونحلها مع الأمريكان وينتهى الأمر، ونهيئ أنفسنا لهذا الاتجاه، كان حاضراً فى الجلسة الأولى والجلسة الثانية الفريق أول متقاعد محمد فوزى، والمرحوم الفريق عبدالمنعم رياض، وربما السيد صلاح نصر».

(٦٧)

وفى موضع آخر يؤكد صاحب المذكرات على هذه المعانى التى يتكون منها موقفه ورأيه تجاه الاتحاد السوفيتى وسياساته واستراتيجيته. بل وقياداته المعاصرة له، كما يؤكد على كراهيته الشديدة لزخاروف، ويبدو لنا كما لو أن الأمر تحول إلى ثأر شخصى بين مدكور أبوالعز وزخاروف ومن الطريف أن يبدو مدكور فيما يرويه ممثلاً بطريقة أو أخرى لنمط من التفكير المصرى السائد فى ذلك الحين، كان يقارن بين عقلية الانجليز وعقلية السوفييت، ذلك أن القيادات العسكرية المصرية فى ذلك الجيل بدأت بالتعامل مع الانجليز فى بداية خدماتها ثم انتهت فى مرحلة القيادة إلى التعامل مع الاتحاد السوفيتى، ومن ثم كانت المقارنة تطرح نفسها.

«هكذا كانت غطرسة الاتحاد السوفيتى وصلافته وتجاوزه كل القيم المتعارف عليها، ممثلة فى رئيس أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية زخاروف حينما زار مصر على رأس وفد عسكرى عال سوفيتى فى أعقاب الهزيمة التى كانت مصر فيها

إحدى ضحاياها، هكذا كانت غطرسة الاتحاد السوفيتى وسخريته بنا وتجاوزه فى الحديث مع قيادات القوات المصرية تجاوزاً تعدى كل الحدود».

«لقد مارسنا [يقصد: جربنا أو خبرنا أو عاشرنا] الاستعمار الإنجليزى وتعاملنا مع البعثة العسكرية البريطانية أداته فى الجيش المصرى التى كانت تتحكم فيه وتسيطر عليه قبل عقد المعاهدة المصرية ـ الإنجليزية عام ١٩٣٦ التى أبرمها زعيم مصر مصطفى النحاس والتى على أثرها انتهت سيطرة البعثة العسكرية البريطانية واحتلت القيادات المصرية مكان الجنرالات الإنجليز».

«وعلى الرغم من أن الاستعمار بكل صوره آفة بغيضة وأمر مرفوض من المواطنين رفضاً تاماً حتى لو تمثل فى أشخاص يعملون على تطوير الجهات التى كانوا معينين فيها، فإن تعامله معنا ـ ولنا معه خبرة طويلة ـ فى حدود الاحترام والالتزام بالقيم الفاضلة دون أن يبخلوا علينا بالعلم الصحيح والخبرة التامة والمران الجاد، اللهم إلا فى حالات فردية صدرت من بعضهم استحقوا عليها الجزاء الرادع فى حينه، فلم يخل ـ وهذا شأن الاستعمار ـ من الغطرسة والصلافة، لكن فمهما وصلت حدتها لم تصل إلى حد البجاحة والتجاوز المرفوض والخروج عن التقاليد والقيم التى يجب أن يلتزم بها الضيف أو المفاوض الأجنبى مع دولة لا تفرط فى سيادتها أو كرامتها ومع أبنائها الذين يحافظون على كرامتهم ووقارهم، كما فعل الاتحاد السوفيتى معنا فى أعقاب هزيمة يونيو عام ١٩٦٧».

❑

ويمضى مذكور أبو العز ليضيف إلى رأيه بعداً آخر يستوحيه من وحى ما حدث فى ١٩٨٧ أى بعد حواراته مع مارشال الاتحاد السوفيتى بعشرين عاماً كاملة:

«كم كنت أود أن يمد الله سبحانه وتعالى فى أجل المارشال زخاروف الذى كان يتصنع العجرفة، ليشهد بنفسه مأساة القوات المسلحة السوفيتية والذى كان يرأس هيئة أركان حربها يوما ما، حينما اجتاز الطيار الألمانى «ماتياس راست» حدود الاتحاد السوفيتى بطائرته الصغيرة، ذات المحرك الواحد من طراز «سستا ١٧٢» فى الثامن من شهر مايو عام ١٩٨٧ وهو ـ كما يقولون ـ يوم احتفال القوات المسلحة السوفيتية

بعيد الحدود، ووصل إلى قلب الاتحاد السوفيتي إلى عاصمته موسكو، وأجرى عملية الهبوط فى الميدان الأحمر أمام القصر، وعلى مرأى ومسمع من الشعب السوفيتى الأحمر. بمعنى أن الطيار الألمانى قد اخترق سياج الدفاع الجوى السوفيتى حتى وصل إلى الأسرة التى كان ينام فيها قادة الاتحاد السوفيتى وهبط الطيار الألمانى بطائرته فى أحضانهم دون أن ترصده أجهزة الدفاع الجوى السوفيتى العملاقة».

«كنت أتمنى أن يمد الله سبحانه وتعالى فى أجل فصيح الاتحاد السوفيتى زخاروف ليرى بنفسه هذه المهزلة، مهزلة الدفاع الجوى السوفيتى وعجزه عن رصد تلك الطائرة فور اجتياز حدود الاتحاد السوفيتى، وهو ما تبين منه أن السوفييت لم يستطيعوا استخدام الأسلحة المتطورة التى يدعون أنها أحسن الأسلحة فى العالم.. كما كان يردد دائماً مارشالهم الفصيح زخاروف».

ويصل مدكور بعد هذا كله إلى أن يقول:

«فلو أنه عاش ليرى هذه المهزلة لردد فى خزى عار وتساءل: كيف لنا أن نوجه اللوم للقوات المسلحة المصرية لأنها لم تستطع استخدام أسلحتنا الهزيلة التى كانت فى أيديهم، وهو يعلم أنها قاصرة وغير مؤثرة، حينما نجحت إسرائيل فى توجيه الضربة الجوية الأولى القاضية ضد الطيران المصرى فى هزيمة يونيو عام ١٩٦٧».

«إن خيبة أملنا فى دفاعنا الجوى رغم ما يملكه من أسلحة متطورة كانت أشد قسوة حينما اخترق مجالنا الجوى طيار أعزل بطائرته العرجاء ليصل إلى الميدان الأحمر فى قلب موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتى دون أن ترصده أجهزة دفاعنا الجوى العملاقة.. أحسن أجهزة الدفاع الجوى فى العالم! لاشك أنه كان يردد هذا ولكن فى خجل وبصوت منخفض هذه المرة ورأسه منكس إلي أسفل.. ويحق لى هنا أن أردد: أيها الخجل أين ألوانك الباهتة».

«ومن الغريب حقا أن نقرأ أن الاتحاد السوفيتى يقدم الطيار الألمانى الأعزل إلى المحاكمة، وهنا أهمس فى أذنه: «بدلا من أن تحاكموه امنحوه أرفع الأوسمة بالاتحاد السوفييت لأنه أثبت للسوفييت بالدليل أن دفاعهم الجوى هش وهزيل، وأن القائمين عليه غير قادرين على استخدام ما لديهم من أجهزة متطورة، وبالتالى لا يستطيعون

رصد الأهداف التى تخترق أجواء الاتحاد السوفيتى، وأيضاً لأن الطيار الألمانى قد كشف عن خلل خطير فى ناحية هامة فى القوات المسلحة السوفيتية، الأمر الذى يستوجب على المسئولين فيه معالجة هذا الخلل الخطير، فإذا كان حال أجهزة الدفاع الجوى السوفيتى عاجزة هكذا عن رصد طائرة الألمانى، فكيف يكون حالها عندما توجه إحدى القوى العالمية الضربة المفاجئة إلى الاتحاد السوفيتى الذى يملك الصواريخ عابرة القارات أو يملك أسلحة أكثر تطوراً بما يناسب ما أسموه بـ«حرب الكواكب»؟!».

(٦٨)

ويبدى مدكور أبو العز على مدى صفحات كثيرة من هذه المذكرات ضيقاً لا نهائياً من سلوك السوفييت وخبرائهم وتفكيرهم، ويصل به الأمر فى بعض فقرات مذكراته إلى أن يتهمهم بأقذع التهم، وخذ على سبيل المثال هذه الجملة التى نقتطفها من روايته عما دار فى أحد الاجتماعات:

«فى الاجتماع الثالث للمباحثات، أو على الأصح للمشاجرات».

❑

وهو يتحدث عن سلوك السوفييت بعبارة غير ودية على الإطلاق ويتهمهم بأنهم كانوا يظنون أنفسهم قادرين على إجبارنا على قبول نوع بغيض من الاستعمار، وهو يندفع إلى القول بأن قبول الاستعمار من السوفييت ليس أقل وطأة من فرض الاستعمار من إسرائيل!! وعلى الرغم من أن هذا الحديث يأتى فى إطار ذكر المارشال زخاروف الذى اختلف مع مدكور أبو العز، فإن مدكور يلجأ فى سرعة إلى أن يعمم ولايخصص على الرغم من أنه فى فقرة أخرى يحاول الإنصاف بعيداً عن التعميم:

«ولكن المارشال زخاروف قد خرج عن مهمته ونسى أو تناسى أنه ضيف، فلجأ إلى أسلوب مرفوض من التجاوزات فى الاجتماع الثانى، الذى لم أحضره، وسأل

عنى وخيل إليه أنه يستطيع أن يمارس معى نفس الأسلوب لكنى صددته منذ اللحظة الأولى، فهو يعلم أن مصر الجريحة بعد الهزيمة وأن قواتها المسلحة فقدت كل شىء فى هذه الحرب، فالشهامة السوفيتية تصورت أننا سوف نتحمل ونقبل التجاوز فى العبارات بما يخرج عن التقاليد الأصيلة فى المباحثات بين بلدين، وكانت مصر هدفهم المرتجى باعتبار أن السوفييت يعتقدون أنهم يملكون إخراجنا من المأزق الذى كنا فيه، ونسوا أو تناسوا أن قبول التجاوز بالعبارات غير اللائقة، من لوم أو إهانة، إنما هو نوع بغيض من الاستعمار، فليست الهزيمة أقل وطأة منه، ونسى السوفييت أو تناسوا أن قبول الاستعمار من السوفييت ليس أقل وطأة من فرض الاستعمار علينا من إسرائيل وغير إسرائيل، فكلاهما استعمار بغيض، مهين، مرفوض يجب مقاومته».

❑

ويصل صاحب هذه المذكرات إلى أن يقرر حقيقة أخرى فى نفس الموضوع:

«فالسلاح المشروط المقرون بالإهانة والإذلال سلاح منبوذ لا يستحق إلا أن يقذف فى وجه صاحبه، وهو فى الوقت نفسه سلاح سام يوجه إلى صدورنا قبل أن يوجه إلى إسرائيل».

❑

ويعود مدكور أبو العز إلى انتقاد زخاروف كنموذج للخبراء السوفييت المتغطرسين الذين لم يكونوا على مستوى المسئولية ولا العلم المطلوب، وسنرى من رواية مدكور مدى حساسيته ومدى حرصه على الاعتزاز بنفسه وكرامته مهما كانت الظروف:

«اتصف حديث زخاروف بالغطرسة والصلافة والتجبر والتجاوز بما لا يتوافق مع القيم المتعارفة».

....

«فهو بطبيعته لا يحسن اللياقة فى الحديث، فكان يتحدث بصوت مرتفع كثير الإشارة بيديه، كثير الحركة، حتى إذا ضحك ضحك بصوت مرتفع، يضرب بيديه المنضدة التى نجلس حولها تارة، ويشير بيديه تارة أخرى».

«شيء من ذلك لا يمكن قبوله ولابد من الرد عليه حتى لو كان ضيفاً، فتعاملت معه بالمثل فليس أقوى منى صوتا أو أشد منى ضربا على المنضدة، وحاول القائد العام أن يثنينى عنه، فقلت إذا لم يغير طريقته فى الحديث فلن أسكت، وكلت له الصاع صاعين، وأعددت نفسى لشيء آخر إذا خرج عن الحدود».

❑

وحسنا فعل مدكور أبو العز حين قدم لنا تشخيص المارشال زخاروف لأسباب الهزيمة، وقد أتبع مدكور كل سبب من هذه الأسباب برده القوى القاطع عليه:

«حاول المارشال زخاروف أن يعزو الهزيمة إلى:

١ ـ أننا لم نستطع استخدام السلاح الذى فى أيدينا، ونسى أن السوفييت هم الذين دربوا طيارينا على استخدام هذا السلاح!!

٢ ـ أن سلاحنا الجوى سلاح بورجوازى، فتساءلت: وما دخل البورجوازية أو الاشتراكية أو الشيوعية فى الموضوع الذى كنا بصدده؟!

٣ ـ أن هناك قصوراً فى التدريب وخللاً فى الانضباط العسكرى.

٤ ـ أننا لم ندمر المطارات فى سيناء قبل الانسحاب، ولى فى ذلك حديث لاحق.

٥ ـ أن طائرات الميج، وهى روسية الصنع، التى نستخدمها أكفأ من الطائرات ميراج فرنسية الصنع التى تستخدمها إسرائيل، وكان موضوع القصور فى الطائرات مثيراً للمارشال زخاروف لإحساسه بالنقص».

(٦٩)

ثم يورد صاحب هذه المذكرات تفصيلات فى غاية الأهمية عن الحوارات العسكرية المصرية ـ السوفيتية التى دارت بشأن تنسيق العمليات مع السوفييت، وقد كان مدكور وقادته يشكون من قصر مدى الطائرات السوفيتية المتاحة، بينما كان زخاروف يجادل بالباطل، ووصل الأمر بالقادة المصريين أن يقولوا للقائد السوفيتى:

«هذه هى المطارات، وهذه هى الطائرات، وهذه هى الأرض الشاسعة، وهذا هو

الجو الفسيح، فليجلسوا وليبحثوا بطريقة عملية، ثم يعرضوا النتيجة التى أعلمها جيداً قبل البحث».

«وفى الاجتماع الأخير بين الوفدين قلت (الحديث لمدكور أبو العز) لزخاروف: لقد قام رجالكم بدراسة مدى الطائرات واتضح لكم أن مدى طائراتنا لا يغطى دولة إسرائيل، فهل يمكنك كقائد لك خبرتك أن تضرب بهذه الطائرات جميع مطارات إسرائيل؟ أجاب المارشال زخاروف فى صوت منخفض هذه المرة: لابد أن تشترك مع جيرانك من الدول العربية كسوريا والعراق مثلاً».

«سألته للحصول على مزيد من الاعتراف منه: وكيف ذلك؟».

«فقال: «تتفقون مع بعضكم البعض، فالعراق وسوريا يتكفلان بالقطاع الشمالى والأوسط لإسرائيل، وأنتم تتكفلون بالقطاع الجنوبى».

«قلت: معنى هذا أننا لا نستطيع بإمكاناتنا من الطائرات بمداها المحدود ضرب مطارات العدو فى القطاعين الأوسط والشمالى».

«قال المارشال زخاروف: قلت تتفق مع جيرانك من الدول العربية. ثم انتهت هذه المناقشة أو المشاجرة باعتراف المارشال زخاروف وبوجود جميع أفراد الوفدين المصرى والسوفيتى ومن بينهم الفريق أول محمد فوزى القائد العام والفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان القوات المسلحة بصحة رأينا».

❑

وفى مقابل انتقادات مدكور القاسية لزخاروف فإنه حريص على أن يبدو عادلاً أو منصفاً لخلفه الطيار استافتسكى، وفى هذا ما قد يدلنا على أن مدكور لم يكن يكره السوفييت كراهية مطلقة أو أبدية:

«والحق أن المارشال الطيار استافتسكى كما بدا من خلال هذه اللقاءات والمناقشات قد أظهر تفوقاً كبيراً على المارشال زخاروف، وكان الفرق بينه وبين المارشال زخاروف شاسعاً كالفرق بين السماء والأرض، فى الكفاءة العلمية والعملية فيما يختص بالطيران على الأقل، وفى القدرات وفى طريقته المثلى لبحث الموضوعات، وفى الصراحة والصدق، وفى الرد على الاستفسارات، وهو فوق هذا ـ كما علمت ـ من أكفأ الطيارين ومن الأبطال الذين يعتد بهم الاتحاد السوفيتى».

«وفى الحديث معه (أى مع استافتسكى) عن دشم الطائرات وتصميماتها المختلفة، سألته فى تهكم على ما قاله المارشال زخاروف فى هذا الصدد هل تستخدمون مثل هذه الدشم لحماية الطائرات وهى على الأرض، أم أنكم تحفرون حفراً وتضعون الطائرة فيها؟ فأجاب فى دهشة: كيف نحفر حفراً ونضع الطائرات فيها.. واستأنف موضحاً أنهم دولة عظمى ولديهم كل أنواع الدشم ولديهم كل أنواع الطائرات، ما نتصوره وما لا نتصوره، وإذا أتيحت لى فرصة زيارة الاتحاد السوفيتى فسوف يرينى ما هم فيه من تقدم وإعجاز».

«وهكذا كان المارشال استافتسكى صريحاً واضحاً، وهكذا كان المارشال زخاروف صلفاً متعجرفاً خادعاً لنفسه».

(٧٠)

ويصل مدكور أبو العز فى اتهاماته للسوفييت إلى حد تصويرهم وقد عملوا كجواسيس على مصر، وقد انتقلوا بعد طرد السادات لهم من غرب القناة (فى ١٩٧٢ وما قبلها) إلى شرق القناة (فى ١٩٧٣)، ويستشهد مدكور فى تقديمه لهذا الحكم بما رواه أحد قادة القوات الجوية من نجاح العمليات الجوية التى لم يعلم بها السوفييت وفشل أغلب العمليات التى علموا بأمرها، ولست أستطيع أن أفصل فى صحة هذا الذى يذكره الفريق مدكور أبو العز، لكنى أعتقد أن مثل هذا الموضوع جدير بدراسات عسكرية وتاريخية مفصلة لست أستطيع منها شيئاً بجهدى المحدود وعلمى الأقل محدودية:

«لقد عمد السوفييت إمعاناً فى التحكم فى مصر بهدف احتوائها مثلما احتووا بلاداً عزيزة علينا من قبل تعمل على تحقيق الهدف تدريجيا فمنحتهم القيادة السياسية والعسكرية حرية استخدام بعض قطعهم الحربية لموانينا البحرية خاصة ميناءى الإسكندرية ومرسى مطروح، كما كانت لهم مطارات عسكرية أطلقت فيها أيديهم لا يدخلها مصريون اللهم إلا ضابط واحد يعمل كضابط اتصال».

«يقول أحد قادة القوات الجوية: إن أغلب العمليات الجوية التى قامت بها القوات الجوية وعلم بها السوفييت قد باءت بالفشـل، أما تلك العمليات الجوية التى لم يعلم بها السوفييت فقد كللت بالنجاح».

«حينمـا قررت مصر فى عهـد الرئيس أنور السـادات طرد الخبراء السوفـييت من مصر ـ وحسناً فعل ـ (إن هذا القرار قرار عمـلاق للسادات سجله له التاريخ بأحرف من نور) فقد انتقل بعض هؤلاء الخبراء وكانوا بطـبيعة عملهم على علم تام بأوضاع القوات المسـلحة وأسرارها، من غـرب القناة حيث كانـت قواتنا المسلـحة، إلى شرق القناة حيث كانت الـقوات المسلحة الإسرائيلية، وذلك ضمن الـسماح الجزئى لهجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل».

«هؤلاء هم مَنْ كنا نعتـبرهم أصدقاء، وبالرغـم من ذلك مازلنا نقـرأ لبعض قادتنا العسكريين الكبار من يمجد السوفييت لأنهم أمدونا بالأسلحة، والسؤال الذى يفرض نفسه: هـل أمدونا بأسلحـة هجومية متطـورة وأهمها الطائـرات والصواريخ أرض ـ أرض، أو جو ـ أرض بعيدة المدى؟ وهل يمكن تحرير الأرض بغير هذه الأسلحة ذات اليد الطولى؟».

❑

وفى مواضع كثيرة يستشهد الفريق مدكور أبو العز بأقوال زملائه العسكريين على مدى الضرر والغُرم الذى أصاب مصر من جراء تحالـفها مع الاتحاد السوفيتى، وعلى سبيل المثـال فإنه يستشهد بـحديث للواء حسن أبو سـعدة رئيس هيئة العـمليات قال فيه:

«إننـى أود أن أتساءل (والحديـث مازال للـواء حسن أبـوسعدة) إذا كان الـسلاح السوفيتى هو الذى انتصر فى حرب ١٩٧٣، فلـماذا لم ينتصر هذا السلاح فى سوريا أثناء الحـرب؛خاصة أن الخبـراء السوفـييت كانوا مـوجودين فى سـوريا على جـميع المستويات».

❑

كما يشير صاحب هذه المذكرات إلى حديث للواء أحمد فتحى عبدالغنى نشر فى

مجلة «آخر ساعة» وفيه يكشف النقاب عن محاولات الضغط السوفيتية فى مقابل كل سلاح كانوا يقدمونه لمصر:

«يقول اللواء أحمد فتحى عبد الغنى فى حوار له مع أحد محررى مجلة آخر ساعة الغراء الصادرة فى ٧ أكتوبر عام ١٩٨٧ تحت عنوان «أسرار حرب اليمن» صفحة ٣٦، وكان اللواء فتحى عبدالغنى مديراً لمشتريات السلاح فى موسكو قبل وأثناء وبعد حرب يونيو عام ١٩٦٧».

....

«وفى حديثه عن رحلة شمس بدران يقول:

«المسألة لها جذور، كان الاتحاد السوفيتى يطلب دائما قواعد استطلاع جوية استراتيجية، وكان يطلب تسهيلات بحرية متميزة، وكان عبدالناصر والمشير عامر وكل المصريين يرفضون ذلك، لكن الطلب كان مستمراً ومتجدداً، وفى كل مناسبة يطرح هذا المطلب لأنه هام جداً بالنسبة لهم، ومن الطبيعى أن تستغل دولة كبيرة مثل الاتحاد السوفيتى حاجتنا للسلاح أو لأى شىء آخر.. لتطلب مميزات ولكن سياسة مصر كانت واضحة، ولهذا كان الضغط مستمرا فى (مقابل) طلبات السلاح، فإذا طلبنا يستجاب لجزء منها، وذكر أنه فى إحدى مباحثات السلاح حضر المشير عامر إلى موسكو واعتذر مارشال مالوفسكى وقيل لنا إنه أصيب بوعكة وأن علينا أن نتكلم مع جريتشكو، فاعتذر المشير عن المباحثات وألغى برامجه وعاد، كان ذلك قبل نوفمبر ١٩٦٦، وهذه خلفية لابد أن نعرفها قبل الوصول إلى الكلام عن رحلة شمس بدران الشهيرة».

(٧١)

ومع هذا فإن مدكور أبو العز يجد نفسه ملزماً بأن يقدم للقارئ تفسيراً محدداً لثناء الرئيس عبدالناصر على الاتحاد السوفيتى، على الرغم من عدم استجابة الاتحاد السوفيتى لطلبات مصر وقواتها المسلحة من الأسلحة:

«وإذا لم يكن الاتحاد السوفيتى قد استجاب إلى طلباتنا من الأسلحة موضع

التساؤل، فهل يستحق التمجيد الذى قرأناه على لسان الرئيس عبد الناصر والفريق أول محمد فوزى قائد القوات المسلحة الأسبق وقائد حرب الاستنزاف؟ وماذا يعنى هذا التمجيد فى الاتحاد السوفيتى إذا لم يكن قد استجاب إلى طلباتنا، فلا معنى لذلك إلا أحد أمرين أو كلاهما معا:

«أولهما: تضليل الشعب المصرى وتعتيم الرأى العام ليقبل الشعب المصرى مغبة تصرفاتهم ذات الانفعال الطائش وتبرير مواقفهم الناتجة عن هذا الانفعال غير المسئول».

«أما ثانيهما: أن قياداتنا لم تكن تعرف ما يجب أن تجهز به القوات المسلحة المصرية لإحراز النصر فى معركتنا مع إسرائيل، أو عرفت ولكنها تجاهلت لسبب أو لآخر».

(٧٢)

ومن المهم أن ننقل للقارئ بعضاً من خطاب صاحب هذه المذكرات المطول الذى يروى فى مذكراته أنه بعث به إلى الرئيس السادات، وهو الخطاب الذى يتناول فيه بإفاضة العلاقات مع الاتحاد السوفيتى، ويذكر مدكور أبو العز أنه بعث بهذا الخطاب إلى الرئيس السادات فى وقت مواكب للعريضة التى وقع عليها ضمن عشرة من كبار السياسيين المصريين فى ١٩٧٢.

وأستطيع أن أجزم أن هذا الخطاب بما احتواه كان السند الأول للرئيس السادات فى اتخاذ قراره بالاستغناء عن الخبراء السوفييت، بل وفى التفكير فى الاستغناء عن السوفييت أنفسهم، ولأن الرئيس السادات كان على الدوام قادراً على الفهم والتحليل واتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، فقد أفاد (دون أن يعترف) من الخبرة الهائلة التى قدمها له مدكور أبو العز فى هذا الخطاب، وقد تمثلت استفادته فى اتخاذ قرار الاستغناء عن الخبراء السوفييت دون أن يحسب حسابا لتوجسات المتوجسين، وآمال الذين كانوا لا يزالون يؤملون الخير من الاتحاد السوفيتى.

وربما كلف السادات أحد معاونيه الكبار من رجال القوات الجوية بأن يقيّم مدى صدق ما فى هذا الخطاب، فلما اطمأن إلى أنه يتمتع بنسبة صدق عالية، اتخذ قراره بينما هو يصيح ويجأر ويتظاهر بالصداقة مع السوفييت ،ولكن الأيام أثبتت أنه كان قد اتخذ قراره بالاستغناء عنهم فى مرحلة مبكرة.

واعتقادى أن مدكور أبو العز قد أدى لوطنه أجل الخدمات بهذا الخطاب الجميل المنظم الدسم الذى وضع فيه عصارة فكره وخبرته وعقليته وقدمه لرئيس الجمهورية على صينية من فضة.

ومع هذا فقد أجاد الرئيس السادات تمثيل الدور وقدمه (أى قدم مدكور أبو العز صاحب الخطاب) لأمن الدولة كأنه يفشى الأسرار ، ومدكور بحسن خلقه وطيبة مقصده يظن أن السادات منفعل وأنه يطغى بعدما غيّره كرسى الحكم، لكن السادات يتظاهر بهذا حتى يفيد من عصارة فكر مدكور دون أن ينتبه أحد [ولا مدكور نفسه] إلى هذا، ويظن مدكور أن المخابرات العامة بقيادة أحمد إسماعيل تملقت السادات حين حولت الموضوع إلى النيابة بمذكرة سريعة بدون دلائل.. والنيابة تحقق وتسأل، ومدكور يجيب.. وكل هذا يمضى فى طريقه بينما السادات قد استقر على كل ما أوحى به إليه مدكور.. فلما قضى السادات وطره من كل هذا أصبحت كل هذه الإجراءات التمثيلية التى اتخذها غير ذات موضوع فانتهت من تلقاء نفسها بينما يظن مدكور أن دفاعه الجيد الصادق أمام النيابة هو الذى تكفل بهذا.. ومع هذا فإن مدكور أبو العز المستقيم الصريح سليم النية ربما لم يدرك كل هذه الحقائق والتمثيليات حتى الآن، وربما لم يدرك مدكور أنه كان بفضل خطابه هذا بمثابة العامل الحاسم فى قرارات السادات الاستراتيجية فى ١٩٧٢ و١٩٧٣.

ولست أبالغ فى اعتقادى فى صواب كل هذا الذى أقرره، ولكنى أستطيع أن أسأل مَنْ يعارضنى فيما استنتجته هل أتيح لأنور السادات أو لجمال عبد الناصر من قبله مثل هذا النص العبقرى الذى يحلل كل جانب فى العلاقات المصرية ـ السوفيتية بدقة شديدة ومنطقية أشد، وبعبارة واضحة يستطيع كل قارىء أن يفهم محتواها جيدا.

❑

ولا أظن أحدا كان قادرا على أن يقدم هذا العرض الشامل والتحليل الدقيق

للحقائق على نحو ما قدمه مدكور فى هذا الخطاب.. ولا أظن مدكور نفسه كان قادراً على أن يقدم هذا الذى قدمه بعد ذلك، ونحن نرى مستوى مذكراته نفسها مع رفعة هذا المستوى وتميزه أقل بكثير من هذا الخطاب الجامع المانع ذى الرؤية الواضحة، فى وقت كان الضباب فيه كثيفا وكان من الصعب على أى قائد عسكرى ـ دعك من أى سياسى ـ أن يصل فيه إلى بعض ما وصل إليه مدكور من هذا التحليل الاستراتيجى المتميز دون أدنى خوف أو وجل.

ولست أعجب إلا من شىء واحد وهو أن مدكور وصل إلى كل هذه الحقائق دون أن تطأ قدمه أرض الاتحاد السوفيتى، فما بالنا لو أنه كان قد تلقى تعليما أو تدريبا أو قام بمفاوضات هناك واكتشف بقية الحقيقة؟

يبدأ مدكور أبو العز خطابه بالتنبيه إلى أهمية موضوعه ويقول :

«إن الظروف التى يمر بها بلدنا مصر الآن ظروف دقيقة وصعبة غاية فى الدقة والصعوبة، والخطر الداهم يحيط بها من كل جانب، لذلك أحسست ـ وقد تطورت الأمور ـ أن الخطر لم يعد يكمن فى أمريكا وربيبتها إسرائيل، بل تعداه إلى ما نسميهم الأصدقاء، أعنى الاتحاد السوفيتى».

«فباعتبارى مواطناً مصرياً فوق كل اعتبار، وباعتبارى جندياً فى المقام الأول، قد أكرمنى وطنى فمنحنى شرف المراكز الرفيعة فيه لقاء ما منحته كل ما أملك من جهد وفكر وتضحية، أجد لزاماً علىّ أن أبسط أمام سيادتكم فكرى تجاه الخطر الجديد الذى تواجهه مصر الآن، وأضع بين يديكم الحقائق المريرة التى عشتها والتجارب القاسية التى مارستها على ضوء خبرتى حينما كنت فى موقع المسئولية. وأقول الكلمة الحرة وكلمة الحق مجردة من كل شىء إلا من مصلحة الوطن، ومصلحة الوطن هى العليا، وإنى على يقين من أن هذه الكلمة الحرة سوف تلقى من سيادتكم كل اهتمام وعناية».

وتحت عنوان رئيسى: «السوفييت لم يكونوا مخلصين فى نكسة يونيو سنة ١٩٦٧» يدلل مدكور أبو العز على هذا المعنى بأدلةٍ كثيرة تناولها فى مذكراته التى بين أيدينا فى أكثر من موضع، لكنه يرتبها فى خطابه إلى الرئيس السادات على النحو التالى:

□ إبان الأزمة المفتعلة قبل يونيو سنة ١٩٦٧ وعلى أثر وصول أنباء حشود إسرائيلية تجاه الجبهة السورية، أرسل رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية إلى قائد البوليس الدولى يطلب منه أن تجلو قواته عن مواقعها، ويحذره من الخطر الذى سوف تتعرض له عند قيام العمليات الحربية بيننا وبين إسرائيل، كان مصدر هذه الأنباء الاتحاد السوفيتى نقلاً عن إخواننا السوريين.

□ الحقيقة أن النبأ ليس له أساس من الصحة، فلم تكن هناك أى حشود إسرائيلية على الحدود السورية ـ الإسرائيلية.

(٧٣)

ونأتى إلى أخطر فقرة فى مذكرات الفريق مدكور أبو العز، وهى التى ينهى إلينا ـ أو بعبارة أدق إلى الرئيس السادات ـ فيها أن السفير السوفيتى طلب مقابلة الرئيس عبد الناصر فى الساعة الثالثة صباح يوم الحرب وطلب منه ضبط الأعصاب وعدم بدء العمليات:

« فى الساعة الثالثة صباح يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧، وهو يوم الاعتداء على مصر، طلب السفير السوفيتى لدى القاهرة مقابلة عاجلة مع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، وفى المقابلة أخبر السفير السيد الرئيس بضبط الأعصاب وعدم بدء العمليات من جانب مصر».

«فى حوالى الساعة التاسعة صباحا هجمت القوات الجوية الإسرائيلية هجوما شاملاً مركزاً على جميع مطاراتنا، وقضت على طائراتنا جميعها وهى جاثمة على الأرض».

□

ثم يلفت مدكور أبو العز النظر بتحليل استراتيجى متميز إلى حقيقة غابت عنا وهى أنه كان فى قدرة الاتحاد السوفيتى أن يكتشف طبيعة تلك الحشود [المزعومة] على الحدود السورية التى دفعتنا إلى تحريك قواتنا ثم إلى اكتشاف حدود ما أعدته

القوات الإسرائيلية من أجل هجومها الذى وقع بالفعل فى ٥ يونيو، ويميل مدكور أبو العز كما سنرى إلى الرأى القائل بأن السوفييت كانوا يعلمون يقينا بالهجوم الإسرائيلى وبقدراته وقدراتنا المحدودة:

«إن للاتحاد السوفيتى سفارة فى إسرائيل بأجهزتها ومنها أجهزة المخابرات، وإن إسرائيل بلد صغير لا يزيد طوله على ٣٥٠كم وعرضه فى المتوسط حوالى ١٥كم، فلا يعقل أن تعتزم إسرائيل هجوماً شاملاً على مصر فى البر والبحر والجو والسوفييت لا يعلمون، فإن كانوا لا يعلمون فتلك مصيبة، وإن كانوا يعلمون وفى الوقت نفسه يطلب السفير السوفيتى مقابلة عاجلة فى الساعة الثالثة صباحا ليخبر رئيس الجمهورية بضبط النفس وعدم البدء فى الهجوم ولا يشير إلى اعتزام إسرائيل بالهجوم، فتلك مصيبة أكبر».

❑

ويؤكد مدكور أبو العز استنتاجاته المنطقية بثقة شديدة ووضوح فكرى ويقول:

«فالمنطق يحدثنا ـ دون شك ـ بأن السوفييت كانوا يعلمون يقيناً بالهجوم الإسرائيلى، فمجرد التبليغ عنه فى الساعة الثالثة صباحاً دليل عليه، خصوصاً أنهم يدركون خطر إعطاء المبادرة للهجوم الإسرائيلى، فهم على علم بقدرات العدو وإمكانياته ومدى ما تقدمه لهم أمريكا من مساعدات، وهم أيضاً على علم بقدراتنا المحدودة على مواجهة هذا الهجوم المفاجئ. فلديهم من وسائل الحصول على المعلومات الدقيقة والحديثة من أقمار صناعية وأجهزة إليكترونية ما يمكنهم من الحصول على المعلومات بسهولة، كما سيتضح ذلك عند تناول الموضوعات الأخرى».

❑

وهنا يصل صاحب المذكرات إلى أن يبلور سؤاله فى وضوح شديد ويقول:

«والسؤال المحير آنذاك هو: لماذا يتصرف الأصدقاء هذا التصرف؟!».

❑ الموقف السلبى الذى اتخذه السوفييت إزاء أحرج وقت يمر به بلدنا، بل الوطن العربى كله.

□ إذا كان لما حدث مـن دلالة واحدة فهى أن الاتحاد السـوفيتى كان متواطـئاً، فما حدث كاف لفقـد الثقة به نهائيـاً.. ولكن للأسف الشديد فـقد اعتمدنا عليـه اعتماداً كلياً، بل وأخذنا فى كل مناسبة نشيد بصداقته وبمعاونته لنا».

ونحن لا نستطيع أن نمضى فى قراءة خطـاب مدكور أبو العز دون أن نسأل أنفسنا ـ كقراء ـ عن البديل الذى يقدمه الفريق مدكـور أبو العز بعد هذا التشخيص الجيد.. ومن حسن الحظ أن مدكور كـان واعياً لهذا المعنى وسيقدم هذا البديـل فى فقرة تالية من خطابه المطول.. ولكن بعد أن يتعمق فى دراسة موقف الاتحاد السوفيتى.

(٧٤)

ويخصص مدكور أبو العز الجزء الثانى من خطابه التاريخى إلى الرئيس السادات للـحديث عن ضـعف المعونـة العسكـرية والتـسليح الـذى حصلنـا عليه مـن الاتحاد السوفيتى ويضع لهذا الملخص التالى كعنوان للبند الثانى من خطابه:

«عمد الاتحـاد السوفيتـى إلى تسليح الـقوات الجوية والدفـاع الجوى قبل النـكسة وبعدها بأسلحة وطائرات لا تحقق لهما واجبهما فى مواجهة العدو».

ويشرح مدكور مبرراته التى دفعته إلـى مثل هذا الرأى الحاسم الذى يذكر مبرراته على النحو التالى :

□ القوات المسلـحة لكل دولة ومنها الـقوات الجوية، لها هدف، وللـوصول إلى هذا الهدف يجب أن تشكل وتهيأ بحيث تكون قادرة على تحقيق هذا الهدف».

□ يترجـم هذا الهدف فـى صورة يتضمـن إطارها «أفراد ـ مهـمات ـ أسلحـة مؤثرة للقوات المسلحة»، وفى المقام الأول أسلحة القوات الجوية والدفاع الجوى، لتكون قادرة على الحـصول على السيادة فى المـعركة أو على الأقل التفـوق الجوى، تلك أداة النصر فى حربنا التقليدية مع العدو الإسرائيلى.

□ لا يفيد أن تكون الأسلحة البرية أو البحرية عـلى مستوى عال بينما أسلحة القوات الجوية والدفاع الجوى غير قادرة لا على الـهجوم ولا الدفاع، أستطيع أن أؤكد أن فاعـلية فروع الـقوات المسـلحة الأخرى تـكون شبـه منعدمـة مهمـا كانت قوتـها

وكفاءتها دون أن يكون للقوات الجوية السيادة الجوية أو على الأقل التفوق الجوى، خصوصا فى أرض معركة مكشوفة كسيناء، فإذا حصل العدو على هذه السيادة أو هذا التفوق فإن الهزيمة لنا هى النتيجة الحتمية، وهذا ما حدث فى سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧.

- لم يكن لقيادة القوات الجوية والدفاع الجوى رأى فى تحديد نوع السلاح الذى تزود به أو فى كميته، فكان ذلك موكولاً ـ رغما عنا ـ للاتحاد السوفيتى يعطى ما يريد ويمنع ما يريد.

❑

كذلك يتناول مدكور أبو العز بتفصيل واضح جوانب القصور فى السلاح الجوى السوفيتى الذى تسلحت به القوات الجوية المصرية ويقرر فى وضوح شديد عدة حقائق يوردها على سبيل السرد المتتالى:

- كانت كل طائراتنا المقاتلة أو ما يسمونها قاذفة مقاتلة ذات مدى قصير لا يغطى الأهداف الحيوية للعدو، فضلاً عن أن تسليحها كان دون تسليح طائرات العدو».

«أما الطائرات القاذفة فمع أن مداها كان طويلاً إلا أن سرعتها كانت بطيئة يسهل اصطيادها بوسائل الدفاع الجوى للعدو مما يتسبب عنه خسائر جسيمة محققة فى حالة إغارتها عليه، فلو أن هذه الطائرات زودت بالصواريخ «جو ـ أرض» الحديثة بعيدة المدى فيمكن لهذه الطائرات أن تصيب الأهداف الحيوية للعدو دون أن تتعرض لدفاعات العدو، وكذلك بالنسبة للطائرات قصيرة المدى.

- «مع أن السوفييت يشاهدون أمريكا وهى تزود إسرائيل بالطائرات الفانتوم طويلة المدى ثقيلة التسليح التى تتعدى سرعتها ضعف سرعة الصوت والقادرة على أن تغطى جميع أهدافنا الحيوية على طول البلاد وعرضها على الارتفاع المنخفض، فمع ذلك لم يحرك السوفييت ساكناً ولم يستجيبوا إلى طلباتنا، وقد مضى ما يقرب من خمس سنوات على احتلال العدو لبلادنا».

(٧٥)

ثم يخصص الفريق مدكور أبو العز جزءا من خطابه للحديث بالتفصيل عن

النقص البارز فى تسليح الطائرات السوفيتية عامدا إلى المقارنة مع ما كانت تملكه إسرائيل فى نفس الوقت من سلاح مضاد، وهو يتحدث فى البداية ملخصاً رأيه فى العنوان الفرعى الذى يقول فيه :

«السوفييت يزودوننا بطائرات دون التسليح المقرر لها أو دون خزانات الوقود كلها الممكن تزويدها للطائرات».

❑

ويفصل صاحب هذه المذكرات هذه الفكرة الذكية من خلال سبع زوايا متكاملة فيقول :

١ ـ لم يكن يُستساغ أن تكون الميراج (الفرنسية) ذات مدى طويل والميج ٢١ (السوفيتية) ذات مدى قصير، وهما الطائرتان المتقابلتان، فالميراج كما هو معروف تستخدمها إسرائيل والميج ٢١ نستخدمها نحن، الأمر الذى دعانا ـ بعد النكسة ـ إلى الاعتماد على أنفسنا بعد أن امتنع السوفييت عن إمدادنا بطائرات طويلة المدى، فقررنا العمل على زيادة مدى الطائرات ميج ٢١، وبالفعل تم لنا ذلك وإن كان ليس بالقدر المطلوب، ولما علم السوفييت بما وصلنا إليه أبلغونا بتعديل لزيادة أخرى فى المدى، وإن كانت هذه الزيادة أيضا ليست بالقدر المطلوب».

«كذلك حدث بالنسبة للطائرات (سوخوى ٧)، فلم نكن نتصور أن طائرة كهذه مزودة بماكينة ذات قدرة فائقة ويكون مداها محدوداً وتسليحها محدوداً أيضا، وإلا كان هناك خلل فى صناعة الطائرات بالاتحاد السوفيتى، فذلك أمر نستبعده كلية، فاجتهدنا فى زيادة مدى هذه الطائرات فزودناها بخزانات وقود إضافية، وإنى على يقين ـ تأكيدا للخبرة ـ أن السوفييت لديهم تعديلات أخرى لمدى أكبر أو أسلحة أكثر فاعلية وأقوى بعيدة المدى كالصواريخ (جو ـ أرض) مثلا، ولا يمكن أن يقتصر مداها أو تسليحها على القدر الذى زودت به طائراتنا.

٢ ـ عندما زارنا المارشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية على رأس وفد عسكرى كبير عقب النكسة مباشرة، طلبت منه تزويدنا بالطائرات السريعة بعيدة المدى التى تغطى أهداف العدو الحيوية، فرد قائلا: «ليس لدينا هذه الطائرات التى تطلبونها»، وعندما زارنا بعده المارشال استافسكى نائب قائد

الدفاع الجوى الروسى طلبت منه نفس الطلب فقال: «نحن لدينا كل شىء وإننا نخشى أن نعطيكم الطائرات فتقع فى يد الأمريكان عن طريق إسرائيل»، فقلت له: «نفس الشىء يحدث لطائرات إسرائيل عندما تسقط فى أراضينا فهذه هى الحرب»، وأضفت أن الطائرات التى نستخدمها فى حربنا مع إسرائيل لن تكون هى التى تستخدم فى حروب عالمية شاملة واكتفيت بهذا التعليق.

٣ ـ إن التركيز على الحصول على طائرات لخوض المعارك مع إسرائيل وبنفس التركيز على رفع القدرة القتالية للطيارين وأطقم الطائرات وأجهزة الدفاع الجوى، للحصول على السيادة الجوية أو التفوق الجوى فى المعركة من أجل تمكين أفرع القوات المسلحة الأخرى من القيام بدورها، فيمكن تدمير أهداف العدو الحيوية ومنها مطارات وطائرات لشل حركته نهائيا فلا يستطيع الاستمرار فى القتال، وبالتالى نحقق لقواتنا المسلحة وأهدافنا الحيوية فى العمق الحماية، ذلك أمر ضرورى وفى المقام الأول للنصر، وإنى لا أتصور أن ندخل معارك مع العدو بمثل تجهيزه وطائراتنا عاجزة عن الوصول إلى أهدافه الحيوية.

٤ ـ إن مجرد تقوية الدفاعات لا يكفى للنصر، فمع أنها قد تكون مؤثرة فى العدو بإحداث خسائر فى أسلحته الهجومية، إلا أنه فى سبيل الحصول على هدفه يستطيع ـ بالإصرار ـ تحطيم دفاعاتنا شيئا فشيئا حتى يحقق هدفه،خصوصاً أن أمريكا تقف وراءه تمده بما يريد من سلاح وعتاد وبالأفراد وبالتدخل بنفسها لو تطلب الأمر تدخلها، بينما الاتحاد السوفيتى لا يقف بجوارنا بهذا القدر.

٥ ـ الرادارات كانت من نوع عتيق:

(أ) لأن قدرتها محدودة لا تغطى الطيران المنخفض.

(ب) لم تكن بالقدر الكافى الذى يغطى بلدنا أو على الأقل الأجزاء الهامة منه.

(جـ) لم تكن مجهزة بالأجهزة المانعة للتشويش الرادارى.

٦ ـ الصواريخ المضادة للطائرات لا تناسب عصر المعارك التقليدية بيننا وبين العدو.

٧ ـ نعرف ذلك ولا نستطيع أن نفعل حياله شيئا، يعرف الاتحاد السوفيتى ذلك، ويعرف إلى جانب ذلك تسليح عدونا ومدى تأثير أسلحته فينا فلا يعطينا إلا ما يقرره هو وليس ما نقرره نحن.

وليس علينا إلا أن نقبل، فإن شيئا أحسن من لاشيء، لأنه احتكر تزويدنا بالسلاح كما كان يفعل معنا الاستعمار الغربى قبل الاتحاد السوفيتى.

(٧٦)

ويقارن مدكور أبو العز بذكاء وحنكة بين الوضع الذى وجدت قواتنا المسلحة نفسها فيه وبين وضع القوات المسلحة للعدو الإسرائيلى فيقول:

❑ على الجانب المضاد فإن الولايات المتحدة الأمريكية جادة فى مساعدة إسرائيل، فهى تعرف هدف إسرائيل، بل هى التى حددته لها على أصدق تعبير، وتعرف يقيناً مدى تسليحنا براً وبحراً وجواً، فحرصت على تسليح قواتها المسلحة بالأسلحة التى تحقق لها هدفها بالكم والنوع، فأولت القوات الجوية الإسرائيلية ودفاعها الجوى الاهتمام الأول، فلم تبخل عليها بأى شيء، فكل مبلغ صُرف كان فى محله لأنه يحقق هدف النصر.

❑ كل مبالغ تصرف على أسلحة القوات المسلحة لا تحقق التكامل بين فروع القوات المسلحة أو الهدف، فإنها لا تجدى وتكون بمثابة تحطيم للاقتصاد القومى للدولة، وهذا ما حدث لنا، خصوصاً أن المبالغ التى صرفت قد وصلت إلى عدة مليارات من الجنيهات.

❑ زار مصر بعد النكسة مباشرة وفد عسكرى سوفيتى على مستوى عال برئاسة المارشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية، يتكون الوفد من جميع أفرع القوات المسلحة برية وبحرية وجوية، وكانت مهمته عملية استكشاف لما حدث من أمر نكسة يونيو ١٩٦٧، كأنهم كانوا فى حاجة إلى استكشاف، والعمل على بناء القوات المسلحة بتزويدنا بما نحتاجه من أسلحة أو أمتعة، وذلك على ضوء ما فهمناه من المارشال زخاروف فى الجلسة الافتتاحية للمباحثات العسكرية التى كنت أنا عضواً فى الوفد المصرى برئاسة الفريق أول محمد فوزى القائد العام وقتذاك.

❑ فى الجلسة الثانية لم أكن حاضراً، وعلمت بما جرى فيها، إذ خرج المارشال زخاروف عن المهمة التى حضر من أجلها وتجاوز كل الحدود لدرجة أنه تطاول على

القيادات البرية والبحرية بكلمات غير لائقة، ونظرا لأنى لم أكن موجوداً فى الاجتماع فقد هيئ له أن ينالنى بمثل ما نال الزملاء من الجيش والبحرية فأرجأ ذلك إلى أن يلتقى معى..

لعله واضح لماذا لجأ المارشال زخاروف إلى طريق العنف.. ذلك لأنه أراد أن يغطى خطأ دولته حيالنا وتقصيرها تجاهنا.

❏ فى الجلسة التالية التقينا وحاول أن يلقى تبعة ما حدث علينا ذاكراً أننا لم نستطع استخدام السلاح الذى فى أيدينا وأنه سلاح «بورجوازى»، فصددته منذ البادرة الأولى وقلت له: «إن العجز الرئيسى هو عدم تسليحنا بالطائرات الهجومية بعيدة المدى التى تغطى أهداف العدو الحيوية وتكون قادرة على ردعه، إذ كيف أحارب عدواً وطائراتى لا تستطيع أن تصل إليه.. وقد اعترفت له ـ والحقيقة يجب أن تقال ـ أن قصوراً من ناحيتنا قد حدث ويجب تلافيه كلية.

❏ حاول أن يدافع عن طائراته وأراد أن يفلت من الحقيقة المرة، ولكنى ضيقت عليه الخناق، فلجأ إلى سياسة العنف والتجاوز فى المناقشات فأوقفته وطلبت أن تعقد لجنة من الجانبين المصرى والسوفيتى وكلهم على مستوى عال لبحث أينا صاحب الرأى الصحيح، اجتمعت اللجنة وبحثت وهى موقنة قبل الاجتماع بأن موضوع البحث لا يحتاج إلى بحث، فالحقيقة معروفة واضحة وضوح الشمس، وانتهت اللجنة كما انتهى المارشال زخاروف نفسه إلى الإقرار بعجز الطائرات بالنسبة للمدى حيث قال: «إذا كان الأمر كذلك فلابد من التنسيق مع الدول العربية فيعهد إلى مصر بالمطارات الجنوبية للعدو والقريبة منا، ويعهد إلى سوريا والعراق بالمطارات الشمالية». ولخطورة هذا الاعتراف طلبت تكرار ذلك ليسمعه القائد العام للقوات المسلحة المصرية ورئيس هيئة أركان حربها والقادة من جميع الفروع.

❏ انتهت اجتماعات الوفدين بعد صدام عنيف وعديد بينى وبين المارشال زخاروف، تخلله تهديدات لى من رئيس وفدنا بالصمت، وما كان لى أن أصمت عن أى بادرة إهانة من سوفيتى أو غير سوفيتى، وما كان للمارشال زخاروف أن يجرؤ على ذلك إلا لأنه يعتقد أن حاجتنا إلى السلاح كحاجتنا إلى الحياة، ولأنه

محتكر السلاح فخيل إليه أننا سوف نسكت عن كل ما يقذفنا، لكنني كلت له الصاع صاعين ورفضت تهديدات رئيس وفدنا وقلت له: «هذا نوع من الاستعمار لا أقبله، وإذا كان لى أن أقبله فلماذا إذن أهيئ نفسى من أجل بناء قوات مسلحة جديدة لأزيل الاستعمار الأمريكى ممثلا فى إسرائيل، إنه يفعل بمثل ما يفعله الاستعمار، كلاهما استعمار يجب مقاومته».

(٧٧)

ويتناول الفريق مدكور أبو العز فى الجزء الرابع من خطابه إلى الرئيس السادات موضوع التدريب، وهو يبدأ حديثه بأن يقرر أن الاتحاد السوفيتى لم يكن مخلصاً لنا فى تدريب طيارينا، وأنه وضع العراقيل أمام خلق أجيال من الطيارين فى الوقت القصير الذى نريده لنواجه العدو لتحرير أرضنا، وذلك بتضليل قياداتنا العليا التى لا دراية لها بتفصيلات التدريب الجوى.

ويفصل مدكور أبو العز الحديث فى الجزئية الخاصة بالتدريب فى مواضع مختلفة من مذكراته، وينبغى لنا ألا ننسى أن خبرة مدكور العريضة فى مجال التعليم والتدريب كرئيس لهيئة التدريب وكمدير للكلية الجوية كانت وراء تشخيصه الجيد لطبيعة الإنجاز المطلوب ويمكن لنا أن نلخص رؤيته على النحو التالى:

١ ـ كان لزاما لإعادة بناء القوات الجوية خلق أجيال جديدة من الطيارين والتركيز على التدريب فكانت هيئة التدريب الجوى تقوم بعقد عدة دورات تدريبية بالتعاون مع الخبراء السوفييت الذين كانوا يريدون تخصيص فترات طويلة لهذه الدورات، كنت أرى أن الفترات الطويلة لا تناسب المرحلة الدقيقة التى كنا نجتازها، وكم حاولت هيئة التدريب الجوى أن تخفض هذه الفترات فلم تجد محاولتها نتيجة ما، الأمر الذى جعلنى أتدخل بنفسى وأناقش معهم الموضوع بتفاصيله ودقائقه، فما كان يدهشنى أن ما كان مستحيلاً أصبح ممكناً، فخفضت الفترات إلى نصف مدتها أو أقل مع زيادة البرامج التدريبية، وتم التنفيذ على الوجه الذى نريده، وموضع دهشتى فى

هذا الأمر هو إذا كان مـا نريده ممكناً، فلماذا المـساومات والمناقشات وتضـييع الوقت والجهد؟ فكان لزاماً أن ينتهى الأمر عند مستوى هيئة التدريب الجوى.

٢ ـ ذلك ما كان يحدث بالنسبة للطيارين والأطقم المراد رفع قدراتهم القتالية، أما بالنسـبة لتخريج أجيـال جديدة من الطيارين الذين تتطلـبهم المعركة القـادمة بأعداد كبيرة، فكان من الضرورى الحصول على طائرات للتدريب، فامتنعوا عن تزويدنا بها واستطاع السـوفييت إقناع القيادات الأعلـى بأن يكون التدريب فى الاتحاد الـسوفيتى وتعهدوا أن يتـم تدريب الطيار تدريباً كـاملاً بحيث يكون مؤهـلاً لخوض المعارك فى مدة عام واحد، فاعترضت وللأسف الشديـد صمت آذان القيادات الأعلى واستجابوا إلى اقتراح السوفييت، وكان اقتراح السوفييت فى نظرهم هو الصحيح دائماً»..

(٧٨)

ويبدو لى أن جوهر فلسفة مدكور أبو العز فيما يتعلق بالتخطيط للتدريب كان أن يتم هذا التدريب عـلى أرض مصر لأسباب متعددة سنوردها بالـتفصيل، وربما وصل الأمر فـى اقتناع مـدكور إلى حد أنـه كان يرى أن إتمام الـتدريب الجوى عـلى أرض مصر يمـثل حتمـية لا مناص منـها وليس مـجرد البديل الأفـضل، وهو يذكـر أسباب اعتراضه على إتمام عمليات تدريب الطيارين فى الاتحاد السوفيتى:

(أ) لا يمكن أن يترك أمر تفريـخ الطيارين فى يد أجنبية مهما كـانت، فمن يتحكم فى الوقت اللازم لتدريبهم يتحكم فى وقت بدء القتال لتحرير الوطن، فما كان لأفرع القوات المسلحة الأخري أعنى الجيش والبحريـة ـ مهما بلغت من التجهيز والإعداد ـ أن تحدد المعركة دون أن يكون الطيران جاهزاً لها ـ وتلك حقيقة مسلم بها.

(ب) إن العام الواحد لا يكفـى لخلق الطيار الكفء المؤهل للقـتال إذا كان تدريبه بالاتحاد السوفيتى وبخبراء سوفييت لا يتكلمون العربية، وفى جو لا يناسب التدريب طول العـام كجو مصر، فـضلاً عن أن هدفنا لـتحرير الأرض وحرصـنا عليه يـجعل

الضمير المصرى يقظاً دائماً (يتقبل) كل تضحية للعمل الجاد، الشىء الذى لا يمكن أن يتوافر مهما حسنت نية السوفييت... وحسن نية السوفييت كان أمراً مشكوكاً فيه.

(جـ) كان تقدير خبرائنا ـ وهم أصحاب خبرة طويلة ـ فى مجال تعليم الطيران، هو أن الطالب لن يستوفى أكثر من ١٢٥ ساعة طيران فى عام واحد بالاتحاد السوفيتى تحت أحسن الظروف، وهو قدر لا يمكن معه أن يكون الطيار مؤهلاً للقتال، فإذا علمنا أن تأهيل الطيار للقتال يحتاج إلى ٥٠٠ ساعة فى المتوسط على المستوى الإنجليزى عام ١٩٥٤، فإن مدة العام ضرب من التخريف تكمن وراءه نيات غير حسنة، وقد نبهت القيادات العليا وحذرتهم من ذلك كله على كل المستويات.

(د) خبرتنا مع السوفييت أن الطيارين الذين يرسلون إلى الاتحاد السوفيتى للتدريب على الأنواع الجديدة من الطائرات كانوا يعودون إلى الوطن بمستوى غير مناسب، الأمر الذى كان يدعونا دائماً إلى إعادة تدريبهم عند وصولهم إلى الوطن، ولعل ذلك يرجع إلى أن المكلفين من السوفييت لهذا العمل غير أكفاء.

(هـ) الضبط والربط أمر هام لتدريب الطيارين لا يمكن تحقيقه فى الاتحاد السوفيتى.

(و) احتمال حدوث تدهور فى الموقف السياسى بيننا وبين الاتحاد السوفيتى مما قد يتسبب عنه إيقاف التدريب وترحيل الطلبة إلى مصر، فنقع فى حيص بيص.

(٧٩)

ويحرص مدكور أبو العز على ذكر ومناقشة التفصيلات التى مضت فيها سياسات التدريب ومدى تأثير السوفييت على خط سير هذه السياسات، وهو يتحدث فى هذه الجزئية بأسى بالغ موضحا بعض الحقائق التى غابت عن شعبنا بل وعن قواتنا المسلحة لفترة طويلة وربما لا تزال بعض جوانبها غائبة تماما:

«ضُرب برأينا عرض الحائط، ضرب برأى الخبراء الفنيين، رأى ذوى الاختصاص، رأى أصحاب المصلحة الفعلية، وأخذ برأى السوفييت وتم التنفيذ بعد تركى القوات الجوية مباشرة، ولم يكن يتم ذلك بوجودى بطبيعة الحال.

«ومن الذى قرر ذلك، الذى قرره مَنْ ليست له الخبرة ومن لا يفهم من أمر التدريب الجوى شيئا».

❑

على هذا النحو يكتب مدكور أبو العز بأسى بالغ وهو خارج الخدمة وقد أصبح غير مسئول عن إجراءات اتخذت بعد خروجه من الخدمة، ولكن الوطنية التى تسرى فى دمه تدفعه إلى أن يتحدث بتفصيل أكثر فيقول:

«سافر الطلبة إلى الاتحاد السوفيتى ليتعلموا الطيران وليؤهلوا للقتال فى مدى عام، وعادوا بعد العام ولم يستوفوا إلا العدد القليل من ساعات الطيران لا يتعدى نصف ما قدرنا، ويبدو أننا كنا حسنى الظن بالاتحاد السوفيتى، وبطبيعة الحال كانوا فى مستوى ضعيف فأعيدوا ثانية إلى الاتحاد السوفيتى، وعندما انتهوا من التدريب عادوا إلى مصر ثانية وللأسف الشديد كان مستواهم مازال ضعيفاً، فعدل نهائياً عن فكرة تدريب الطلبة فى الاتحاد السوفيتى وتقرر أن يكون التدريب فى مصر، تلك هى شرعية التدريب، وذلك هو المنطق الذى لا منطق غيره».

ويعود مدكور أبو العز إلى تأكيد وجهة نظره بدلائل أخرى ويقول:

«إن أكبر دليل على ما ارتأيناه فى هذا الشأن إلى جانب الأدلة الدامغة السابقة، هو أن جزءا من الطلاب فى دفعة واحدة قد أرسلوا إلى الاتحاد السوفيتى لتعلم الطيران بعد مرحلة التعليم الأولى التى تمت فى مصر، فإذا الجزء الذى بقى فى مصر قد أتم تدريبه فى الكلية الجوية بمستوى جيد، بينما الجزء الذى أرسل إلى الاتحاد السوفيتى قد تأخر كثيراً وعاد دون المستوى بكثير».

«بذلك يكون قد ضاع منا مدة سنتين كان من الممكن طبقاً للتخطيط الأولى الذى

اتفق عليه وهو أن يتخرج من الكلية الجوية ثلاث دفعات كل عام بمعدل دفعة كل أربعة شهور قوامها ستون طياراً ، أى حوالى ٢٠٠ طيار فى العام الواحد، يصل العدد إلى ١٠٠٠ طيار فى الخمس سنوات التى أوشكت أن تنتهى ويكون الصالح الكفء منهم للقتال من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ طيار لا يقل متوسط عدد ساعات طيران كل منهم عن ٦٠٠ ساعة، وهو القدر الذى يؤهله للكفاءة القتالية المطلوبة».

❑

وهنا يصل مدكور أبو العز إلى أن يضع نقطة ويبدأ من أول السطر ليقرر فى كل وضوح حكما نهائيا باتاً كأنه لا يقبل النقض:

«بهذا كان الاتحاد السوفيتى أداة تعويق للتدريب الجوى».

(٨٠)

ويستطرد مدكور أبو العز فى فقرات تالية من مذكراته إلى أن يقرر أن الاتحاد السوفيتى لم يكن مخلصاً فحسب بل كان معوقاً أيضاً سواء للتسليح أو للتدريب أو الصيانة، ولنقرأ ما يرويه فى خطابه الذى أفاد منه الرئيس السادات ـ كما ذكرنا ـ أقصى إفادة حققها رئيس من خطاب مسئول عسكرى سابق:

❑ هل معنى ذلك أنى أقول إن الاتحاد السوفيتى عجز عن تدريب طيارينا، إن ما حدث ليس دليلاً على عدم إخلاصه فحسب، بل دليل على أنه كان معوقاً يستهدف دائماً السلاح المؤثر فى المعركة وهو الطيران. فمثلما حدث فى التسليح حدث فى التدريب، وحدث أيضاً فى تمويل الطائرات بقطع الغيار فكان يكثر من قطع الغيار التى لا تستهلك عادة بكثرة، بينما يقبض يده عن ذات الأهمية والتأثير على صلاحية الطائرات للطيران، مثله فى ذلك مثل الاستعمار الذى مارسناه قبل ذلك هادفاً إلى أن يضع الحبل حول أعناقنا لكى يوجهنا الوجهة التى يرضاها أو يشده بإحكام إذا نحن حاولنا طريقاً لا يرضاه.

❑ حينما كنت رئيساً لأركان القوات الجوية والدفاع الجوى وفى ذات اليوم وفى الساعة الخامسة مساء، كنت فى مكتبى وإذا بتبليغ عن طائرة أنتينوف ١٢ قد تحطمت فى مطار ألماظة أثناء الهبوط فى المطار أثناء التدريب، توجهت على الفور إلى المطار، ومن معاينة الحادث تبين أن الطيار المسئول كان سوفيتياً وكان يقوم بتدريب أحد طيارينا، وأن الطائرة أثناء هبوطها اصطدمت بالأرض قبل ممر النزول فانكسرت العجلات وتحطمت الطائرة ولم يكن للطيار المصرى أى تدخل فى القيادة لأن أجهزة القيادة كانت فردية وليست مزدوجة كما هو الحال فى بعض طائرات التدريب، هذا مع ملاحظة أنه حتى لو افترضنا تدخل الطيار الذى يتدرب مما يتسبب عنه حادثة فإن المسئول أولاً وأخيراً الطيار المدرس لأنه هو المدرس.

❑ فى اليوم التالى وفى نفس الوقت وفى نفس المكان وبنفس الطريقة وبنفس نوع الطائرة، لكن بقيادة طيار سوفيتى آخر، وقعت حادثة أخرى تمت - فى هذه المرة - معاينتها بواسطة قائد القوات الجوية والدفاع الجوى آنذاك وبواسطتى.

ويستطرد مدكور أبو العز عند هذه النقطة ليشير إلى أن ثمن الطائرة الواحدة من هذا النوع كان يبلغ حوالى ثلاثة أرباع المليون جنيه.

❑ لست أعنى أن الطيارين السوفييت ليسوا أكفاء، فهذا شىء لم يخطر ببالى قط، لكن ما أعنيه هو أن الخبراء السوفييت المكلفين بتدريب طيارينا قد اختيروا من مستوى ضعيف، ولعل ما ذكرته فيه الدليل عليه، لذلك فقد كانت ملاحظتى الهامة بالنسبة للخبراء الذين يكلفون بتدريب طيارينا فى مرحلة ما بعد النكسة إلى الجنرال استافستكى نائب قائد الدفاع الجوى السوفيتى الذى زارنا عقب زيارة المارشال زخاروف، كانت ملاحظتى الهامة له بالنسبة لهؤلاء الخبراء، هى التركيز على أن يكون اختيارهم من الطيارين الأكفاء ذوى قدرة قتالية عالية، وكان تحذيرى له لما أعرفه عن طيارينا من أنهم سرعان ما يتبينون مدى كفاءة الخبراء، فإن كانت دون المستوى فسوف لا يكونون موضع احترامهم وتقديرهم فيضطرب الحال.

(٨١)

ويعود مدكور أبو العز ليتحدث بتفصيل أكثر عن نقطة مسها على نحو سريع فى

البنـد الرابع من خطابـه، وهى تمويل الطـائرات بقطع الـغيار، وفى هذا الصـدد يقرر مدكور بوضوح ما نصه :

«كانت سياسة تمويل الطائرات بقطع الغـيار سياسة ترمى إلى خنق القوات الجوية (وتعجـيزها) إذا ما تدهور المـوقف السياسـى بهدف إخضاعـنا لما يريدون والتـحكم فينا».

ويدلل مدكور أبو العز على هذا الاستنتاج بما يلى:

١ ـ يكثرون من قطع الغيار التى لا تستهلك عادة.

٢ ـ يقترون فى القطع الهامة التى تستهلك بسرعة.

٣ ـ يأخذ تمـويل الطائرات بـالقطع الـهامة وقتاً طـويلاً لا يتناسـب مع أهميـة الحاجة الملحة إلى رفع نـسبة صلاحية الطائرات، ويتـعللون فى ذلك بأسباب غيـر مقنعة ومكشوفة. لقد امتنعوا عن تزويد الطـائرات السوخوى بقطع غيار، ومنها كاوتش العـجلات عنـدما لم يوافـق الاتحاد السـوفيتـى على سـياستـنا تجاه ما حـدث فى السودان عند محاولة الشيوعيين السيطرة على السودان.

٤ ـ استمراراً فى سياسـة التحكم كانت عمرات ماكينـات الطائرات تجرى فى الاتحاد السوفيـتى، وهذا شىء غير طبيـعى، فما كان يحدث بـالنسبة لماكينـات الطائرات الغربية، فإن عمرتها كانت تجرى فـى مصر، وكم أخذت المباحثات فى مصر وفى الاتحاد السوفيتى من وقت وجهد باءت بالفشل، ولا أدرى ماذا تم بشأنها الآن.

٥ ـ كانت مصانعنـا الحربية فى حاجة إلى نوع من «البودرة» لصنـاعة الصواريخ التى تستخدم فى الطائرات، وقد طلبت هذا الـنوع من السوفييت ومن كثير من الدول التـى تدور فى فـلكه وامتـنعوا بـحجة أنـهم لا يصـنعون هذا الـنوع، ومثـل هذه «البودرة» أمر تافه بالـنسبة لأى من هذه الدول، ولعلهم فعلوا ذلـك ليعجزونا عن تصنيع هذه الصواريخ أو ليضطرونا إلى أن نـلجأ إليهم لشراء الصواريخ منهم أو لتكون كأداة للضغط علينا.

ويتعـرض مدكور أبو الـعز فى الجزء السـادس من خطابه لـلرئيس الـسادات إلى نقطة فى غاية الأهمية، وربما يزداد إدراكنا لأهمـيتها مع الزمن، وهى بخل السوفييت على قواتـنا بالمعلومات المتوافرة لديهم عن قوات الـعدو على الرغم من أنـهم كانوا يتمتعون بوسائل استطلاع وأجهزة متعددة قادرة على خدمتنا.

وفى هذا المعنـى يقرر مدكور بوضوح أن السـوفييت كانوا يعلـمون كل شىء عن عدونا ولم يزودونـا بأى شىء مما يعلمون، وكانت لـديهم جميع الوسائل الـتى تيسر لهم الحصول على المعلومات ويدلل على استنتاجه هذا بقوله:

«إن السوفييت يملكـون من وسائل الحصول على المعلومات الكثـير، منها: أجهزة المخابرات، المساعدات الإلكـترونية، الأقمار الصناعية، وكانت لديـهم كل المعلومات عن العدو ولم يزودونا بشىء منها».

ثم يردف مدكور بذكر قصة حوار دار بينه وبين المارشال زخاروف أكد فيه الأخير أن الاتحـاد السوفيـتى كان يلـم بمعـلـومـات وافــرة عـن قـواتنا المسـلحة ومســرح العمليات:

« عمـد المارشال زخـاروف أثنـاء المناقـشات التـى دارت بينـى وبيـنه إلى إثـارتى فسألنى: هل دمرتم طائراتكم فى سيناء قبل الانسحاب؟».

قلت: معلوماتى أنها دمرت.

قال: لا لم تدمر.

قلت مؤكداً: معلوماتى أنها دمرت.

قال مؤكداً: إنها لم تدمر.

قلت: ما الدليل ؟

قال: إن أقمارنا الصناعية تقول إنها لم تدمر.

قلت: إذا كانت أقماركم تقول إن مطاراتنا فى سيناء سليمة ولم تدمر، فإن مطاراتنا فى غرب القناة كلها سليمة الآن كأنها لم تدمر، وأضفت: إذا كانت أقماركم الصناعية تمكنكم من الحصول على هذه المعلومات الدقيقة، فلماذا لم تزودونا بالمعلومات عن إسرائيل ـ ونحن أصدقاء ـ خصوصاً أننا نفتقر إليها؟! فسكت وغير موضوع الحديث».

❑

وعند هذا الحد يصل مدكور إلى تأكيد رؤيته المناهضة للفكرة القائلة بإمكان الاعتماد على إخلاص الاتحاد السوفيتى، وهى الفكرة التى تسيطر على مذكرات مدكور فى كل مواضعها :

«هذا موقف السوفييت من عدم تزويدنا بالمعلومات عن العدو، وهؤلاء الذين نشيد بصداقتهم دائماً، فكيف كان موقف أمريكا فى هذا الموضوع بالنسبة لإسرائيل، فلعلنا نذكر جميعاً أن سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» كانت جاثمة فى البحر أمام منطقة العريش تقوم بمهمة التجسس والحصول على معلومات عن قواتنا، وكانت لها إلى جانب ذلك أغراض أخرى، قامت القوات الجوية الإسرائيلية بضربها على سبيل الخطأ ظنا منها أنها سفينة معادية، لم تكن هذه السفينة وحدها هى الوسيلة للحصول على المعلومات عنا، بل كانت هناك الأقمار الصناعية الأمريكية، والمخابرات المركزية الأمريكية، وربما أيضا من نعتبرهم أصدقاء، فقد كانت إسرائيل تعلم عنا كل شىء كأنها تعيش معنا، وكنا لا نعلم عنها أى شىء».

(٨٣)

ويتناول مدكور أبو العز فى الجزء السابع من خطابه أهم الجوانب السلبية فى علاقتنا العسكرية والاستراتيجية بالاتحاد السوفيتى، ولعله أخّر هذا الجانب إلى الموضع السابع لأن فيه جزءاً يتعلق بشخصه هو من حيث كان للسوفييت دور واضح

فى إبعاده عن القوات الجوية، وهو يذكر للسادات صراحة قوله:[« طلب السوفييت إبعاد القيادات العسكرية الوطنية عن مواقعها فتأثرت بذلك الوحدات العسكرية خصوصاً قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى»]، ويدلل مذكور على هذا المعنى بمجموعة من الأدلة:

١ ـ كشفت المناقشات الصريحة التى دارت بينى وبين المارشال زخاروف عن مواقف السوفييت بالنسبة لتسليح القوات الجوية والدفاع الجوى، مما جعله يثور أكثر من مرة لدرجة أنه قال لى: «سوف أشتكيك للرئيس عبدالناصر»، فقلت له: لك الحرية فى الشكوى بما تشاء، وأضفت: «إن الرئيس عبدالناصر يعلم كل ما أقوله الآن». كانت نتيجة ذلك أنهم طلبوا إبعادى عن القوات الجوية، فأبعدت كما أبعد الكثيرون من القيادات بناء على طلب السوفييت وماداموا قد فعلوا ذلك تجاهى فإنى أصدق ما يقال عن غيرى نفس الشىء.

٢ ـ إن هدفهم من ذلك واضح، وهو أنهم يحاولون إبعاد العناصر الوطنية التى تقف تجاههم أمام كل محاولة لإضعاف القوات المسلحة، ومن ناحية أخرى لكى يسيطروا على القوات المسلحة.

٣ ـ إن إبعاد القيادات ذات الكفاءة الممتازة والعناصر الوطنية يؤثر فعلاً فى قدرة القوات المسلحة، ونظرة إلى مَنْ أبعدوا فى الفترة مابعد النكسة نجد أن بينهم المئات من خيرة القادة وأكفئهم ممن حصلوا على دراسات متقدمة فى أفرع القوات المسلحة المختلفة، وأخص بالذكر القوات الجوية والدفاع الجوى. فقد تركتها معى(أى تركت القوات الجوية) العناصر الممتازة (يقصد القادة الذين أخرجوا من الخدمة) مما كان له أسوأ الأثر».

....

«وأستطيع أن أؤكد أن الجهاز الذى كان يعمل معى والذى خرج معظمه كان أكفأ الأجهزة الموجودة فى القوات الجوية ولعل وقتاً طويلاً يمر لتهيئة جهاز آخر له نفس الكفاءة، فقد أنجز فى فترة بسيطة المعجزات، فأنشأ قوات جوية جديدة أساسها العمل الجاد والكفاءة والضبط والربط، فهزت بعد شهر واحد من النكسة العدو وزلزلت

أقدامه وأصبح يعمل لها حساباً، فلا تزال ضربات ١٤ و١٥ يوليو سنة ١٩٦٧ ماثلة فى الأذهان والتى ألح العدو على أثرها الطلب بإيقاف ضرب النار من الأمم المتحدة، والذى صدر بشأنها بيان رسمى من القيادة العامة للقوات المسلحة يقول: «إن العدو يستجدى طلب وقف إطلاق النار».

(٨٤)

ونأتى إلى الجزء الثامن من خطاب مدكور أبو العز وفيه ينبه مدكور الرئيس السادات إلى أن الاتحاد السوفيتى لم يحاول بل لم يستجب إلى طلبنا من الأسلحة المؤثرة الفعالة التى تهدد العدو رغم الغارات شديدة العنف التى شنها العدو على الجبهة وفى العمق، ولم يحركوا ساكناً مما اضطر الرئيس الراحل جمال عبدالناصر للسفر إلى الاتحاد السوفيتى يطلب من الشعب السوفيتى حماية الشعب المصرى، فزودنا بأسلحة دفاعية فقط أساسها الصواريخ أرض ـ جو، ومازال مصراً على عدم تزويدنا بالطائرات السريعة ذات المدى الطويل:

«إن أصدقاءنا السوفييت يصرون على أن نتخذ موقفاً دفاعياً فكان أساس التسليح فى القوات الجوية أسلحة دفاعية، فحتى هذه لم تكن على المستوى المطلوب».

«وتناسى «السوفييت» أن أهم وسيلة للدفاع هى الهجوم، وكأنه ارتضى لنا ـ وأرضنا محتلة ـ أن نتعرض للقصف من طائرات العدو وأن (طائرات العدو) تهدد جماهيرنا، و(تعرض) مرافق الحياة للخطر، ولا يرتضى أن تهدد جماهير إسرائيل ومرافق الحياة فيها للخطر، هذا منطق الاتحاد السوفيتى الصديق.

❑

ويخرج مدكور من نطاق العسكرية البحتة إلى نطاق السياسة الاستراتيجية فينسب إلى كبار العسكريين السوفييت قولهم الصريح: «اتركوا إسرائيل لتعيش»:

يذكرنى هذا الموقف بواقعة حدثت أثناء زيارة الوفد المرافق للمارشال زخاروف،

فعند اجتماع المختصين منهم بالدفاع الجوى مع ضباطنا، وفى أثناء المناقشات، كان طلبنا دائماً هو الطائرات بعيدة المدى قوية التسليح، وكم عمت الدهشة ضباطنا حينما تساءل السوفييت:

«لماذا تريدون طائرات بعيدة المدى؟ اتركوا إسرائيل تعيش».

....

«كأنهم بقولهم هذا حريصون على حياة إسرائيل وأن حياة إسرائيل لا تكون إلا باستمرار العدوان علينا، وكل محاولة من جانبنا لاسترداد أرضنا وكرامتنا تكون محاولة للتعدى على حياة إسرائيل».

....

«هذا منطق غريب لا يمكن أن يصدر عمن نعتبرهم أصدقاء ولا يمكن أن يكون ذلك إلا تعبيرا عن رأى قادتهم».

❑

هل يستطيع القارئ أن يتصور أنه كان بإمكان أحد كائناً من كان فى ١٩٧٢ أن يصرح بمثل هذه الحقائق الفظيعة وأن يضع روحه على كفه وهو يكتبها ويسجلها بخطه فى خطاب إلى رئيس الجمهورية.

(٨٥)

ويصل مذكور أبو العز فى الجزء التاسع من خطابه إلى أن يقرر فى وضوح أن الاتحاد السوفيتى يعمل على تحطيم اقتصادنا القومى، وهو يقدم أدلة قوية على هذا فيبدأ بأن يزيل تعجب الرئيس أو القارئ من مضمونها ويقول:

«إن مجرد النظر إلى عنوان هذه الفقرة يوحى بالاعتراض، إذ كيف يعمل الاتحاد السوفيتى على تحطيم اقتصادنا القومى بينما أسهم فى بناء السد العالى أحد مصادر الثروة القومية لنا، كما أسهم فى تمويل بناء المشروعات الاقتصادية الأخرى؟».

ويرد مدكور على هذا التساؤل بقوله:

«لن أتعرض لتفاصيل بعض هذه المشروعات، فليس هذا هو موضوعنا، لكنى سوف ألمس الموضوع من جانب غاية فى الأهمية، وهو ربط تسليح القوات المسلحة باقتصادنا القومى».

❑

ويفيض مدكور أبو العز بعد هذا فى ذكر الأمثلة الكفيلة بالتدليل على صحة وجهة نظره فيقول :

❑ إن ثمن الأسلحة المشتراة من الاتحاد السوفيتى حتى الآن يبلغ عدة مليارات من الجنيهات، هو الذى يحدد كميتها ونوعها، ونحن فى ذلك مسيرون لا نملك إلا الموافقة على ما يقرره لأنه المحتكر للسلاح وليس لنا وجهة أخرى نتجه إليها.

❑ الأسلحة التى يزودنا بها (السوفييت) خصوصاً أسلحة القوات الجوية والدفاع الجوى، غير مؤثرة كما سبق أن أوضحت ولا تحقق هدف القوات الجوية أو القوات المسلحة، كأننا نضيع هذه المليارات فيما لا يعود علينا بالفائدة، هذا فضلاً عن أن شخصيتنا كدولة تنهار وتضيع فى حالة الالتحام مع العدو كما حدث فى يونيو عام ١٩٦٧، فالحرب تتطلب شيئين أساسيين، أولهما: العامل البشرى.. أى الفرد، وثانيهما: العامل المادى.. أى السلاح، فلا تكفى نوعية الفرد وحدها أو نوعية السلاح وحدها لتحقيق أهداف الدولة، وإنما تحقيقها يتطلب التكامل بينهما معاً، فإذا لم يتوافر أحدهما كان الآخر عاجزاً ولا يكون لنا فى النصر من أمل.

❑ وفى حالتنا هذه قد صرفنا المليارات من الجنيهات فلا نحن حققنا نصراً ولا نحن استثمرنا هذه المليارات فيما يعود على الشعب بالنفع فى جميع مجالات الحياة اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، ومع ذلك نجد أنفسنا نستمر فى سياسة الاعتماد على الاتحاد السوفيتى، نشترى منه السلاح بالمليارات من الجنيهات، ويحرمنا من الأسلحة المؤثرة فى المعركة، فإلى متى يستمر ما نحن فيه، وإلى متى يستمر هذا الاستنزاف!

❑ إذا قورنت الأموال الضائعة التى صرفت على التسليح غير المؤثر بتلك الأموال

التى تُصرف على المشروعات الإنتاجية التى أسهم فى بنائها الاتحاد السوفيتى، نجد أن الأخيرة ضئيلة بحيث لا يمكن مقارنة الزيادة فى الدخل القومى الناتج منها بالخسارة الفادحة التى يسببها لنا الاتحاد السوفيتى نتيجة شراء الأسلحة غير المؤثرة.

❑ لحاجتنا الشديدة للسلاح من السوفييت فإنهم يحاولون فى كل المجالات ربط السلاح بجميع المشروعات الاقتصادية، يهدفون أول ما يهدفون إلى مصلحتهم دون مبالاة بمصالحنا».

(٨٦)

ويصل مدكور أبو العز إلى أن يقرر أنه لا فرق بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا فى الأهداف الاستعمارية.. وعلى الرغم من أننا قد نستوعب الآن مثل هذه الأفكار والموضوعات بطريقة أوسع وأعمق وأشمل بحكم التجربة المرة والانفتاح على الآخرين، إلا أن الخطاب الرسمى فى بداية السبعينيات حين كتب الفريق مدكور هذا الخطاب للرئيس السادات كان يحرص على أن يصور أمريكا على الدوام فى صورة الشيطان الرجيم، ولهذا فقد كان من الصعب أن يجاهر أحد بأن الاتحاد السوفيتى شيطان رجيم هو الآخر، فقد كان هناك شيطان واحد فقط هو الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن مدكور فى شجاعة وجرأة يصل فى البند العاشر من خطابه إلى أن يصرح بأن الاتحاد السوفيتى يتساوى مع أمريكا فى تحقيق الأهداف الاستعمارية، ويفصل هذا المعنى الذى كان لا يزال غامضا وبعيدا عن التناول أو التداول حين كتب صاحب المذكرات ما كتب:

«إن الاتحاد السوفيتى يريد مناطق النفوذ كما تريد أمريكا مناطق النفوذ».

«يريد القواعد العسكرية كما تريد أمريكا القواعد العسكرية، يريد التحكم واستغلال مواردنا الاقتصادية كما تريد هى كذلك، يريد السيطرة على مقوماتنا كما تريد هى نفس السيطرة».

«يتساوى مَنْ نعتبره صديقاً بمن نعتبره عدواً واستعمارا».

أليس من الجدير بالاستشراف - إذن - أن نتأمل رؤية هذا القائد العسكرى المتقاعد فى ذلك الوقت المبكر وهو يدلل على صحة رؤيته بقوله :

❑ «إن الاتحاد السوفيتى يدفعنا إلى الأخطار كما حدث عام ١٩٦٧ أو يستفيد من الأخطار التى نتعرض لها، يتركنا حتى نعانى الأزمات العاتيات والتعرض للمهالك فلا نجد من سبيل للخلاص منها إلا هو لنلجأ إليه وطلب العون منه لأنه احتكر سلاحنا فلا سوق لنا فيه إلا سوقه، واحتكر اقتصادنا فلا نتعامل إلا معه، والدول التى تدور فى فلكه، واحتكر سياستنا فأصبح يتكلم فى مشاكلنا العالمية كأنه نحن، واحتكر فكرنا فلا يريد لفكرنا أن يتحرر من فكره، يتركنا نتعرض للخطر فلا نلجأ إلا إليه لنطلب العون».

«وللعون ثمن.. وما الثمن ياترى!! أهى طلباته وعلينا أن نستجيب إليها، وماذا تكون طلباته أهى السلاح؟ أو هى المساهمة فى مشروعاته القومية؟ ليست هذه أو تلك بطبيعة الحال، فهو ليس فى حاجة منا لهذه أو تلك، لكنه يستهدف الكرامة الشخصية للدولة وسيادتها إلى جانب الاستغلال الاقتصادى لمواردنا، يأخذها تدريجياً مقابل أسلحة هى فى الواقع فتات مصانعه ووحداته العسكرية، حتى نقع فى براثنه وبين أنيابه فلا نملك إلا الخضوع له والاستسلام إليه كلية».

«هذا ما أخشى أن نقع فيه. إنها تجارة خاسرة تماماً نفقد فيها كل شىء، ولم نستفد منها أى شىء».

(٨٧)

وفى هذا الصدد فإن الفريق مدكور أبو العز يعبر فى أكثر من موضع من هذه المذكرات عن ألمه الشديد للموقف الذى اضطر إليه الرئيس عبد الناصر حين ذهب إلى الاتحاد السوفيتى يطلب الحماية للشعب المصرى من غارات الإسرائيليين على أعماق البلاد:

«إن الشيء الذى يؤثر فىّ كمواطن أشد التأثير، هو أن أرى الرئيس الراحل يذهب إلى الاتحاد السوفيتى فى أعقاب غارات العدو فى العمق فى طلب حماية الشعب السوفيتى للشعب المصرى، أعلن ذلك الرئيس الراحل بنفسه أمام جماهير الشعب، شيء من هذا ما كان من المقبول إطلاقاً أن يحدث، وممن؟ من الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، لكنه للأسف الشديد قد حدث».

❑

ويشير الفريق مدكور أبو العز إلى المزايا التى حصل عليها الاتحاد السوفيتى بعد يونيو عام ١٩٦٧ فيقول :

«هناك حقائق تتعلق بمشكلة الشرق الأوسط تصلح كل منها أن تكون موضوع بحث بذاته رأيت أن أسردها لأنها تتصل بحياتنا وكفاحنا من أجل التحرير، وإنى أكتفى بسردها كرءوس موضوعات فقط:

❑ تأييد الولايات المتحدة الأمريكية المطلق لإسرائيل ضدنا إلى أبعد الحدود ومساندتها لها عسكرياً وسياسياً واقتصادياً إلى درجة أنها كانت مستعدة للمواجهة مع روسيا إن هى فكرت فى التدخل العسكرى فى صفنا وهو شيء مستبعد حدوثه.

❑ روسيا بجانبنا سياسياً وتساندنا عسكرياً فى نطاق مقصور على التمويل المحدود بالسلاح والعتاد، وليس لديها الاستعداد للتورط فى حرب مع أمريكا من أجلنا.

❑ أمريكا وحدها القادرة على أن تضغط على إسرائيل فى أى حل سلمى.

❑ إن شراسة أمريكا فى موقفها المعادى المتشدد وتأييدها المطلق لإسرائيل ليس مرجعه عداء العرب بقدر ماهو عمل مضاد للسوفييت.. خصوصاً بعد أن أصبح للسوفييت وجود فى منطقة الشرق الأوسط، تعتقد أمريكا أننا الذين ساعدناهم من أجل هذا الوجود وسعينا إلى زيادته بالارتباط به كما فتحنا موانينا ومطاراتنا للسوفييت.

❑ كلما زاد ارتباطنا بالاتحاد السوفيتى وكلما زادت سيطرته علينا ازدادت أمريكا تعنتا فى معاداتها لنا وازدادت تأييدا لإسرائيل فتحصل منها ـ أى إسرائيل ـ على ما

تريد من المال والعتاد الحربى بينما نحن فى ظل الارتباط مع السوفييت وما نسميه بالصداقة لا نحصل على أهم ما نريد.

(٨٨)

وتأسيسا على هذه المقدمات يصل صاحب هذه المذكرات إلى أن يقرر فى وضوح أن أطراف مشكلة الشرق الأوسط ليست العرب وإسرائيل وحدهما بل هناك روسيا وأمريكا أيضا وأن هذه الأطراف كلها سعيدة بالموقف (الآن) ومستفيدة منه فيما عدانا نحن.

ويفصل مدكور أبو العز سر ارتياح الأطراف كلها للموقف الذى وصلنا إليه فى بداية السبعينيات فيقول:

❑ فإسرائيل :

● سعيدة بما حققته من انتصار.

● سعيدة بإذلالنا.

● سعيدة لأن روسيا [يقصد الاتحاد السوفيتى] لا تمدنا بالسلاح الذى يهددها فتستمر فى اطمئنان على الاعتداء وفى الاحتلال.

❑وأمريكا :

● سعيدة لأنها تسيطر على الموقف من كل نواحيه ترقب بسعادة ذلنا وهواننا.

● سعيدة بأن مشكلة الشرق الأوسط أصبحت بالنسبة لها لا شىء ولا تسبب لها أى نوع من الإزعاج.

● مطمئنة لأن روسيا لا تمدنا بالسلاح الذى يهدد الاعتداء الإسرائيلى.

● مطمئنة لأنها تفعل ما تريد فى الشرق الأوسط، وروسيا واقفة لا تملك إلا الكلمة على منبر الهيئة الدولية.

❑ وروسيا (يقصد الاتحاد السوفيتى):

• سعيدة أنها تحتكر السلاح، فهى على يقين من أنها السوق الوحيدة أمامنا للاعتماد عليها فى تمويلنا بالسلاح.

• سعيدة لأنها تحتكر اقتصادنا أو على الأقل الجزء الأكبر منه.

• سعيدة لأنها تستطيع أن تفرض ما تشاء علينا لقاء الحصول على السلاح والمعاونة الاقتصادية فتزيد سيطرتها علينا.

• سعيدة لتثبيت أقدامها فى الشرق الأوسط وأصبح أسطولها يصول ويجول فى البحر المتوسط وله موانىء يطمئن إليها وتموله بما يحتاج.

• سعيدة بأنه كلما زادت مشكلة الشرق الأوسط تعقيداً كلما زاد استغلالها لمواردنا وزاد نفوذها وتحكمها وزاد تثبيت أقدامها فى المنطقة.

❑

وعند هذا الحد يؤكد مدكور وجهة نظره التى أثبتت الحوادث فيما بعد صدقها وصوابها:

«وهنا نتساءل لماذا تسعى كل من أمريكا وروسيا للإسراع فى حل مشكلتنا مادامت فى مرحلة لا يؤثر وجودها فى كل منهما؟».

«لماذا تسعى روسيا إلى حل المشكلة وهى تعلم أن حلها سوف يقلل من اعتمادنا عليها ويجعلنا لسنا فى حاجة ماسة إليها، فلن تكون هى محتكرة لسلاحنا، ولن تكون هى محتكرة لاقتصادنا، ولن تكون محتكرة لسياستنا، ولن تكون لها القوة للسيطرة علينا لتحتكر فكرنا؟ فكل من إسرائيل وأمريكا وروسيا سعيدة ببقاء المشكلة بغير حل».

«أما نحن فإنا نعانى الذلة والهوان، نستعطف هذه الدولة، نستسلم لتلك، نستجدى تأييد الدول والعون المالى منها، فضاعت كرامتنا، وأصبحنا فى حالة يرثى لها، فلا نحن استطعنا ـ بكل ما فعلناه وبكل ما صرفناه وبكل ما عانيناه ـ إزالة آثار النكسة، وقد مضى عليها ما يقرب من خمس سنوات، ولا نحن تجنبنا سيطرة القوى

الكبرى التى تهدف إلى احتوائنا، فإن تحركنا لإجراء عمل إيجابى لطرد إسرائيل التى تجثم على قلبنا فى شرق القناة، فكيف نتخلص من روسيا التى تجثم على قلبنا فى غرب القناة».

(٨٩)

ويصل مدكور أبو العز بعد كل هذا التحليل إلى أنه يشخص الحالة التى أصبحت عليها مصر فى ١٩٧٢ وأن يدلف من هذا التشخيص إلى ما يراه ضروريا للعلاج وهو يطرح تصوره للحل الذى ينبغى أن نسلك طريقه:

«ذلك موقف عصيب يتطلب العمل الجاد، والتضحيات الكبرى، وإنكار الذات، ووضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار وإقرار سياسة إيجابية دون تردد، لا شرقية ولا غربية أساسها الاعتماد على النفس كلية أولا، والاعتماد على النفس كلية ثانيا، والاعتماد على النفس كلية أخيراً، فلدينا الإمكانات الضخمة بشرياً ومادياً ومعنوياً لطرد الغزاة لو أحسن استغلالها».

«فقد يمكن أن نفتح أسواقاً جديدة لشراء السلاح غير المشروط ونكسر احتكار السلاح للاتحاد السوفيتى ليس ذلك مستحيلاً، فقد سبق أن نجحنا فى كسر احتكار الغرب له».

«يمكن أن نعتمد ـ لتحرير أرضنا ـ على أسلحة المقاومة وما تنتجه مصانعنا وما يمكن أن نحصل عليه من أسواق جديدة إن وجدت».

«إن التاريخ يحدثنا، كم من دولة صغيرة جثم الاستعمار على صدرها واستطاعت أن تحرر نفسها وتطرد المستعمر من أرضها وكانت لا تملك من أسلحة الدمار شيئاً، فلم تكن تملك الطائرات ولا الغواصات ولا الصواريخ الموجهة، لكنها كانت تملك نفسها، تملك إرادتها، تملك عزيمتها، تملك مصيرها، والمثل الحى لذلك الجزائر مع فرنسا».

«إن تقديم التضحيات ضريبة على كل مواطن يجب أن يقدمها بسخاء وكرم، وعلينا ما دمنا جادين فى تحرير أرضنا تقديم الملايين من التضحيات، فإن نحن بذلنا الأرواح انتصرنا، وإن نحن تخاذلنا فالموت للجميع والاستعباد للجميع».

❑

ويجيد مدكور أبو العز عرض وجهة نظره القائلة بعدم التعويل على الحلول الدبلوماسية لأن ثمارها إن تحققت لا تصل فى قيمتها إلى الثمار التى تحققها التضحية بالدم:

«إن الحرية التى تأتى بورقة موقعة من الأمم المتحدة لهى حرية هزيلة تمزق بسهولة كما تمزق الورقة، أما الحرية التى تأتى بالدم وغالى التضحيات فهى حرية أصيلة لا تستطيع قوى البغى والطغيان مهما بلغت ومهما ملكت من أسلحة الدمار أن تنال منها أو تجرؤ على الاقتراب منها لمجرد خدشها».

«إذا كان فى سبيل الحصول على السلاح تهدر كرامتنا وتضيع شخصيتنا ونفقد استقلالنا، فإن مثل هذا السلاح سهام فى قلوبنا نحن، أكثر ما تكون موجهة لأعدائنا، مثل هذا السلاح يجب أن نلفظه وهو سلاح سام ويجب أن نعتمد على ما لدينا من أسلحة وعتاد، وعلينا أن نخوض المعركة بعد التخطيط لها، وتهيئة الظروف المناسبة لها على أن يكون شكلها ليس كتلك الحروب التقليدية التى نعرفها، فلتكن حرب العصابات، حرب المقاومة الوطنية، خاماتها الأساسية الدم والروح المعنوية العالية، والسلاح الصغير، وكلها إمكانات نملكها ونقوم بخلقها وتصنيعها، لا يحتكرها إلا نحن ولا يتحكم فينا أحد».

(٩٠)

ونعود إلى ما يرويه مدكور أبو العز عن تفاصيل مشاركته فى الحياة السياسية المصرية فى بدايات عهد الرئيس السادات.

وسنلاحظ مما يرويه مدكور ما هو واضح وضوح الشمس من استعادة رجال العمل الوطني للرغبة فى المشاركة فى الحياة السياسية عقب وفاة الرئيس جمال عبدالناصر مباشرة، وكأنهم ـ أى هؤلاء ـ يحسون أن عليهم دينا لوطنهم لا يمنع من أدائه إلا عدم ترحيب الرئيس به ، فهؤلاء أعضاء سابقون فى مجلس قيادة الثورة ووزراء سابقون وسفراء، بل وقادة من طراز مدكور أبو العز يبدون آراءهم ويتشاورون فيها ويتداولون الرأى ويصوغون كل هذا فى النهاية فى مذكرات (أو عرائض) على حد تعبير الرئيس السادات ويبعثون بها إلى الرئيس الجديد.

وسنجد أن لمدكور أبو العز دورا فى ثلاث مذكرات، الأولى هى تلك التى أرسلت عقب وفاة الرئيس عبدالناصر وقبل أن يستتب الأمر للرئيس السادات، والظاهر أنها كانت محاولة مبكرة لإجهاض ما توقعه أصحابها من إمكان سيطرة المجموعة الباقية حول عبدالناصر فى أخريات أيامه على مقاليد الأمور، ولم يكن هؤلاء يرتاحون إلى مستوى هؤلاء الذين عرفوا فيما بعد بمجموعة ١٥ مايو ١٩٧١ حين تمكن الرئيس السادات بمفرده ودون عون من زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين من القضاء عليهم جميعا.

أما العريضة الثانية فهى أكثر شهرة وهي التى وقعها عشرة أصبح أحدهم رئيسا للوزراء فى نهاية عهد الرئيس السادات، وكان مدكور أبو العز أحد الموقعين عليها، بل كان أحد اثنين وقعا باسميهما على كل صفحة من صفحات العريضة وليس فى نهايتها فحسب.

أما المشاركة الثالثة فكانت الخطاب المطول الذى بعث به صاحب المذكرات فى وقت متزامن مع وقت إرسال العريضة وضمنه آراءه وتوجهاته فيما يتعلق بالعلاقات المصرية ـ السوفيتية، وقد درسنا نصوص هذا الخطاب بتحليل وتفصيل فى فقرات سابقة من هذا الكتاب.

❑

لنبدأ بما تنفرد به مذكرات مدكور من حديث عن الجهود التى أتيح له أن يدعى إلى المشاركة فيها عقب وفاة الرئيس عبد الناصر مباشرة، وربما يكون من المناسب أن

نذكر أن أصحاب هذه الجهود فاتحوا مدكور أبو العز فى هذا الموضوع لسببين؛ الأول ما عرف عنه من متانة الأخلاق ونزاهة الغرض فضلا عن الوطنية، فلم يكن لأحد أن يظن أن مدكور يشى بهم ولا هو سيتراجع من وسط الطريق، ولا هو سينكث عن جهد من أجل وطنه، أما السبب الثانى وهو الأهم فإنه كان معروفا بصداقته لعبداللطيف البغدادى وقدرته على التأثير عليه وإقناعه.

وهذه هى رواية مدكور:

«عقب وفاة عبد الناصر بأيام طلبنى تليفونياً محب عبد الغفار سفير مصر لدى بلجيكا وهولندا الأسبق لألتقى به، وكان معه أمين شاكر وزير السياحة الأسبق».

«التقينا بمنزله بالمعادى، وكان الحديث بشأن الحالة التى تمر بها البلاد والقلق الزائد على مستقبلها من الأخطار التى قد تتعرض لها، وكان من رأيهما أن مصلحة البلاد تقتضى ـ تجنباً للأخطار والاضطرابات ـ أن يجتمع شمل مجلس قيادة الثورة بصورة أو بأخرى بحيث تكون القيادة جماعية لمرحلة انتقالية لاعتقادهما أن الرئيس السادات لا يقدر على مواجهة الموقف الصعب أو التصدى لمراكز القوى الرهيبة وحده.

وأضافا أنهما عرضا الأمر على السيد زكريا محيى الدين للتحرك فى هذا الاتجاه لكنه رفض على أساس أن السادات ـ كما يعرفه جيداً ـ لن يستجيب إليهم وليس منه فائدة، فطلبا منى ضرورة اصطحابهما إلى عبداللطيف البغدادى لما تربطنى به من علاقات وثيقة للتحدث فى الموضوع ومحاولة إقناعه بالعمل على ضم الصفوف من جديد وعرض الأمر على الرئيس السادات».

❑

ويذكر مدكور أنه لم يقتنع بالفكرة التى عرضها عليه كل من أمين شاكر ومحب عبدالغفار نظرا لأفكاره التى كونها عن الثورة ونظام الحكم، وهى الأفكار التى عرضناها ضمن فكره السياسى:

«من هذا المنطلق لم أقتنع بالفكرة بادئ الأمر، واعتذرت عن المشاركة فيما يعرضونه علىّ، إذ كيف أسعى فى موضوع لست مقتنعاً به؟».

«طالت المناقشة وكثر الجدل ففكرت بعمق أكثر وأنا على اقتناع بالخطر الذى يهدد البلاد، انتهى رأيى إلى أن ما يعرضه الصاحبان من اقتراح، رغم ما فيه من شوائب، يجب ألا يرفض من أول وهلة، وقد يكون فيه فائدة، فكرت بصوت خافت، وقلت فى نفسى: إذا لم تحكم البلاد بهؤلاء فى قيادة جماعية لفترة انتقال محددة، فالبديل الوحيد هو أن تحكم بواسطة مجموعة مراكز القوى بعد نجاح مخططهم فى إزاحة السادات وهو يقف وحده، والحراب كلها موجهة إلى جسمه من كل الاتجاهات، وسوف يأكلونه لا محالة».

«لهذا وافقت على الاقتراح حيث لا ضرر من القيام بهذه الخطوة، خصوصاً أن القيادة ستكون جماعية لفترة محدودة إلى حين تستقر الأوضاع، وأنها سوف تكون مؤثرة بعد أن أيقن الجميع، وأولهم أعضاء مجلس الثورة، أن الهزائم والنكسات كانت حصيلة الحكم الفردى الدكتاتورى المستبد».

(٩١)

هكذا فإن مدكور أبو العز يذكر فى وضوح شديد أنه وافق على الاقتراح خوفاً على بلاده من أن تقع فريسة فى يد مراكز القوى إذا ما استطاعوا إزاحة السادات وهو يقف وحده. ومن الجدير بالذكر أن صاحب المذكرات يذكر مثل هذا السبب الحقيقى بينما كان فى وسعه فى نهاية الثمانينيات أن يفتعل أسبابا أخرى أكثر قيمة، وأشد وجاهة، فضلا عن أن تكون الأسباب الجديدة المخترعة كفيلة بأن تنجيه من مدفعية مجموعة ١٥ مايو الذين أصبحت لهم مدفعية صحفية كفيلة بالهجوم على من يتصدى لهم من بعيد أو قريب، لكن مدكور لحسن الحظ لم يغير أقواله أو معتقداته عن هذه الفترة.

ثم هو يروى تفاصيل اللقاء بعبد اللطيف البغدادى فى منزله بمدينة نصر:

«قمنا نحن الثلاثة محب عبد الغفار وأمين شاكر وأنا بزيارة السيد عبداللطيف البغدادى فى منزله بمدينة نصر، وقمت بشرح الاقتراح المشار إليه، فاتفق معنا فى

تقدير الموقف بنتائجه الوخيمة المتوقعة، لكنه اعتذر عن قبول الاقتراح وكانت وجهة نظره أن الرفض ليس لموضوع الاقتراح نفسه، لكن بالنسبة للشكل، لمسائل شخصية حساسة، فقال: إن أنور السادات يحرص على الحكم بكل قوة، وإلا ما قبل أن يتحمل من عبدالناصر كل الإذلال والمتاعب والمشاق التى لاقاها منه، وسوف يتشكك فى نواياهم لو تقدموا بهذا الاقتراح».

❑

ثم يشير مدكور أبو العز إلى واقعة مهمة فى بداية عهد السادات رواها التهامى للبغدادى ورواها البغدادى نقلا عنه:

«كان السيد حسن التهامى بحكم موقعه قد شاهد أوضاعاً غريبة تشير إلى محاولة مراكز القوى للوثوب إلى الحكم والاستيلاء عليه، الأمر الذى حدا بحسن التهامى أن يعرض على السادات اقتراحاً باستدعاء السيد عبداللطيف البغدادى ليرأس الوزارة فرد عليه الرئيس السادات معترضاً: «أنت عايز البغدادى ييجى رئيس وزارة علشان يلطش منى الحكم، أنت مش عارف البغدادى طموح أد إيه»، فرد عليه حسن التهامى بأن البغدادى لا يفعل ذلك، نفس هذا الحديث قاله لى حسن التهامى فى لقاء سابق لى معه ».

وهنا يستطرد مدكور أبو العز ليقول:

«غير أننى لم أفصح عنه للبغدادى إلا بعد أن حكاه حسن التهامى له بنفسه ونقله البغدادى إلىّ، لهذا اعتذر عبداللطيف البغدادى عن عدم قبول الاقتراح بانضمامه».

«وحاول صاحباى محب عبدالغفار وأمين شاكر إقناع البغدادى لكنه أصر على الاعتذار خصوصاً بعد أن علم أن زكريا محيى الدين لم يوافق عليه، ولكنى اقتنعت بالاقتراح بعد أن تبينت أنه لا بديل له، وسألت البغدادى: هل تعتقد أن ما نعرضه عليك من احتمالات يمكن وقوعها، أجاب: لاشك أن تقدير الموقف سليم وأن احتمالاته متوقعة، وأن وثوب مراكز القوى إلى الحكم يشكل خطراً على مصر يتمثل فى سيطرة الاتحاد السوفيتى على مصر وبالتالى على احتوائها ضمن مجموعته، فالموقف يحتاج إلى يقظة كاملة ووعى ناضج».

«قلت: «إذا كان الأمر كذلك، فلا مجال للحساسية إذا تعلق الأمر بمصلحة مصر، فعليك أن تؤدى الواجب سواء قبل السادات أو رفض»».

«وافق البغدادى أخيراً على الاقتراح ووعدنا بأنه سوف يدعو السادة زكريا محيى الدين وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين إلى اجتماع ليعرض عليهم الموقف مع احتمالاته، وهنا انتهى دورنا نحن الثلاثة محب عبدالغفار وأمين شاكر وأنا».

«تم الاجتماع بينهم وانتهوا إلى كتابة مذكرة تتضمن أبعاد الموقف وما يرونه من آراء لمواجهته، وكلفوا البغدادى بالاتصال بالسادات لتهيئة مقابلة معهم لشرح الموقف وتقديم المذكرة له، أما حسن إبراهيم فقد بارك ما اتفقوا عليه لكنه آثر عدم الاشتراك معهم فى المذكرة، ثم اتصل البغدادى بالسادات للاتفاق على موعد للقاء المجموعة صاحبة المذكرة، اعتذر السادات عن لقائهم مجتمعين واكتفى بأن يكون اللقاء مع البغدادى وحده لأنه ـ على حد قوله ـ لا يقابل مجاميع».

(٩٢)

ويحرص مدكور أبو العز على أن يورد ضمن مذكراته نص مذكرة البغدادى وزملائه للرئيس السادات فى أول عهده:

«تضمنت المذكرة التى قام بتقديمها السادة عبداللطيف البغدادى، وزكريا محيى الدين، وكمال الدين حسين إلى السيد أنور السادات البنود الأساسية الآتية:

١ ـ إقامة مجلس يكون رئيسه السيد أنور السادات باعتباره نائباً لرئيس الجمهورية.

٢ ـ تكون مهمة هذا المجلس مؤقتة وليست دائمة وذلك إلى حين استقرار الأوضاع وإقرار دستور دائم للبلاد وإجراء انتخابات عامة.

٣ ـ إلغاء الاتحاد الاشتراكى العربى.

٤ ـ تأمين سلامة المواطن على حريته وحياته وماله.

٥ ـ سيادة القانون وتأمين استقلال القضاء.

«ألقى الرئيس محمد أنور السادات خطاباً أمام مجلس الشعب... شنّ فيه هجوماً عنيفاً على الموقعين على المذكرة المشار إليها وكانوا زملاء له فى مجلس الثورة».

«فى هذا الخطاب وصف مضمون المذكرة بأنه رجوع إلى الوراء، بمعنى أن إقامة مجلس يرأسه هو يكون رجوعاً للوراء، واعتبر أن موقعيها يريدون فرض الوصاية على البلد، وأنهم حاقدون، وأن مجلس الثورة انتهى منذ عام ١٩٦٧، وأنهم يتجاهلون المؤسسات الدستورية».

«وتجاهل السادات باقى المبادئ التى تضمنتها المذكرة،وتجاهل الأوضاع المتداعية والصراعات الخفية التى يعلمها تماماً والخطط التى تدبر فى الخفاء للإطاحة به والنتائج الوخيمة المتوقعة. تجاهل كيف أقيمت المؤسسات الدستورية للدولة؟ وكيف سيطرت عليها القيادة السياسية سيطرة كاملة، ونظام الحزب الواحد المتعثر، وانفراد الحاكم بالسلطة، وغياب الديمقراطية، وذبح العدالة وتشريدها، فالقرارات العفوية العشوائية، فالنكسات والهزائم، فالفساد، فالضياع».

«أخذ يتشدق بالمؤسسات الدستورية، والمؤسسات الحزبية ونظام الدولة الراسخ الذى استقر على مدى ثمانية عشر عاماً، والذى انتهى فى هزيمة يونيو إلى أسوأ مصير، إلى الاحتلال الصهيونى لقناتنا وسيناء البالغة مساحتها ثلث مساحة أراضى مصر كلها».

❑

وينتبه مدكور أبو العز إلى حقيقة قدرة السادات على الإفادة من خطط يقوم بوضعها غيره ويهاجمها هو فى العلن وإن كان يغلف هذا الانتباه بالعجب!:

«إن الأمر الغريب أن الرئيس السادات وهو يهاجم هؤلاء الذين تقدموا بهذه المذكرة وما تضمنته من مبادئ اتخذها دستوراً له فى العمل».

(٩٣)

كذلك يقدم مدكور أبو العز فى مذكراته التى بين أيدينا تفصيلات مطولة عن المذكرة التى شارك ضمن عشرة فى توقيعها ورفعها إلى الرئيس السادات فى عام ١٩٧٢:

«كنت دائم اللقاء مع المستشار محمد عصام حسونة وزير العدل الأسبق والمهندس عبدالخالق الشناوى وزير الرى الأسبق ونقيب المهندسين والسيد كمال أبو الفتوح محافظ القليوبية الأسبق، وكنا نتحدث دائماً فى الحالة التى تمر بها البلاد فى تلك المرحلة، وكلنا على اتفاق فى تقدير الموقف الصعب، وكلنا فى قلق على مستقبل البلاد، بينما التحرك المصرى نحو التحرير يسير بخطى بطيئة فى الوقت الذى تحاول إسرائيل أن تثبت أقدامها فى سيناء وتجعلها جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل».

«وقد رأينا أن الموقف يحتاج إلى تجمع مجموعة من القيادات الوطنية التى عرفت بولائها لمصر من ذوى الشجاعة الأدبية والخبرة والكفاءة حتى تلتقى بالرئيس أنور السادات فى حوار معه حول الموقف وما يرونه من آراء وحلول».

«قمنا بزيارة للسيد عبد اللطيف البغدادى وكنا على اتصال دائم به وعرضنا عليه الموقف وكلنا فى اتجاه واحد، وقد أحس هو الآخر والسيد كمال الدين حسين بخطورة الموقف، وكان متحمساً للفكرة مؤيداً ضرورة التحرك فى أسرع وقت.. ولم يبق إلا تحديد العدد والأسماء، وقد حرصنا على أن يكون العدد قليلاً لا يتجاوز العشرة وأن يكونوا من الشخصيات الوطنية التى تتمتع بالكفاءة والقدرة والتاريخ الناصع النقى والسمعة الطيبة والمكانة الرفيعة فى المجتمع المصرى.. وكان لزاماً قبل أن يطلب السيد عبداللطيف البغدادى مقابلة الرئيس السادات أن تجهز مذكرة مكتوبة لتقديمها إلى رئيس الجمهورية».

«كلفنا المستشار محمد عصام الدين حسونة بصياغة المذكرة وكان اختياره على أساس أنه الأقدر على صياغتها بما يتفق مع القانون دون ترك أية ثغرة يمكن أن ينفذ منها مَنْ يريد أن يشوه حسن النية وجلال القصد».

«وقع الاختيار على بعض الشخصيات المعروفة وعرضنا عليهم ما اعتزمنا عليه، فمنهم من رحب بشدة، ومنهم مَنْ رحب بالرأى لكنه اعتذر عن المشاركة فيها، وفى صراحة قال بأن تلك خطوة تعلو قدراته، ومنهم مَنْ ماطل أو تهرب تجنباً للمشاكل التى قد يتعرض لها، ومنهم مَنْ اعترض على المشاركة وهو السيد زكريا محيى الدين لأنه فاقد الثقة فى شخص الرئيس السادات لأن العمل الكبير الذى نقوم به سوف

يؤول بشكل أو بآخر ولن تكون له أية نتيجة إلا التجاوزات المرفوضة والتطاول علينا، ولم يحدث أن أحدنا قد ضغط على أحد ليوقع هذه المذكرة، بل على العكس، فإن الكثير قد تطوع بتوقيعها بمجرد أن سمع عنها، لكننا أردنا كما ذكرت أن يكون العدد فى حدود ضيقة».

«أخذ إعداد المذكرة وقتاً طويلاً، يقرب من شهر ونصف شهر لاعتراض نفر منا على بعض عبارات المذكرة، ولأن اللقاء لم يكن حسب برنامج معين أو بناء على اتفاق سابق، كما أن الشخصيات التى وافقت على توقيع المذكرة لم يكن بعضها يعرف الآخر. فأنا مثلاً لم أشرف بلقاء الدكتور رشوان فهمى نقيب الأطباء الأسبق رحمه الله رحمة واسعة».

«لم يكن لقاؤنا بكامل العدد، ولكن لقائى والمستشار عصام حسونة والمهندس عبدالخالق الشناوى وكمال أبو الفتوح بالسيد عبداللطيف البغدادى كان كثيرا».

«لقد رأيت لبعد الفترة بين لقاء ولقاء ولاعتراض أحدنا على بعض العبارات التى تصاغ بها المذكرة أن موضوعها قد أخذ وقتاً طويلاً وأن الموقف لابد أن يحسم بسرعة. فقد رأيت إما المضى فى المذكرة أو صرف النظر عنها حين ساورنى الشك فى أن المذكرة التى نحن بصددها قد لا تُقدم».

(٩٤)

ومع أن مذكرة ١٩٧٢ كتبت ـ كما يروى مدكور أبو العز فى هذه المذكرات ـ بأسلوب عصام حسونة وصياغته، فإنها عبرت بوضوح عن مجمل آراء المجموعة، بل ومَنْ تمثله هذه المجموعة من رجال العمل الوطنى، ولهذا فإنى أوثر أن أورد نصها كاملا، ودون تعليق، وهذا هو نص العريضة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الرئيس

تحية طيبة وبعد ..

«ما من مصرى يملك اليوم أن يلوذ بالصمت، وأولئك الذين يملكون الرأى، ويحبسونه، ضنا به، أو حذر العواقب إنما يرتكبون فى حق مصر إثماً لا يغتفر».

«إن الموقعين على هذا الخطاب مصريون، تلك هى صفتهم الوحيدة، يتوجهون به إلى رئيس الدولة، مدركين كل الإدراك أنهم لا يفضلون أحداً من أبناء مصر إلا بأمر واحد، أنهم أثقل حملاً، لقد منحتهم مصر ذات يوم شرف خدمتها، وبوأتهم مكاناً رفيعاً بين الصفوف الأولى من خدامها. إن لمصر إذن فى ذمتهم ديناً مضاعفاً، إنهم ليتقدمون بهذا الخطاب، وفاء لدين مصر وولاء لها».

«السيد الرئيس

«لم تعرف مصر على ما حفل به تاريخها من محن.. محنة كتلك التى تمر بها، إن المحنة التى أطبقت على مصر لا تهدد الأرض وحدها، إن مصر حضارة وتراثاً، عقيدة وقيماً، نضالاً وعملاً، فكراً وعلماً وأملا، إن مصر وجوداً ومصيراً، تمتحن اليوم امتحاناً شديداً، ود الأعداء لو كان فيه هلاكها».

«إن الغزو الإسرائيلى يدنس منذ خمس سنين جزءاً غالياً من أرض مصر، وفى نيته، وقد أعد لها ما استطاع من قوة، أن يجعل منه جزءا لا يتجزأ من إسرائيل».

«إن الولايات المتحدة الأمريكية، إحدى القوتين الكبريين، تقدم لإسرائيل من العون القدر الذى يأذن لها بالإصرار على العدوان، ويغريها بالمزيد».

«إن الاتحاد السوفيتى، القوة الكبرى الأخرى، يقدم لنا من العون القدر الذى لا يأذن ـ حتى اليوم ـ بتحرير الأرض واسترداد الحق».

«إن الدول العربية لأسباب متباينة عند كل منها، لم تستجمع بعد كل قواها، ومن ثم فإن العمل العربى من أجل التحرير لم يرق بعد إلى مستوى الخطر الذى يهدد الأمة».

«إن البناء الداخلى يوشك أن ينقض».

«فإن هزيمة يونيو بأسبابها وأحداثها وعواقبها، قد زلزلت البناء الوطنى، فكشفت فيه صدوعاً، وأحدثت صدعاً . وُلدت هزيمة يونيو فى حضن استبداد الفرد بالسلطة،

و«صورية» التنظيم الشعبى والمؤسسات الدستورية، وغيبة القانون، وغلبة التشريعات الاستثنائية، وامتهان الكلمة الحرة، وشيوع الخوف، فالنفاق، فالهوى، فالهوان».

«ولقد وعى الشعب درس الهزيمة ولن ينساه، إن طريق النصر لا يمكن بحال أن يكون طريق الهزيمة».

«السيد الرئيس..

«صنعت مصر أمسها وحدها، ولن يصنع الغد سواها، تلك هى الحقيقة الأولى بل الكبرى، التى ينبغى أن نعود إليها. لقد انقضت على هزيمة يونيو سنوات خمس، ولئن صح أن الزمن عامل محايد، فالأصح أنه ينحاز بغير تردد ضد أولئك الذين لا يحسنون تقديره».

«ولقد آن لمصر أن تحسن تقديره، آن لمصر أن تستخلص بأمانة وشجاعة تلك الحقيقة الكبرى، التى أسفرت عنها استراتيجية العمل الوطنى بعد خمس سنين من الهزيمة».

«لقد آن الأوان لأن ترسم سياسة التحرير الوطنى على أساس أن قوى مصر الذاتية وحدها، روحية ومادية، هى الركيزة الأولى والأمينة لتلك السياسة. نحن وحدنا أصحاب الشرف المثلوم، والكرامة الجريحة، والأرض المحتلة، ولن يسترد الشرف والكرامة والأرض سوانا. إن حسابات معركة التحرير الوطنى ينبغى أن تُراجع على هدى من إمكانات مصر وحدها».

«لقد عادت مصر «الخالدة» تحارب من أجل استقلالها فى جبهتين: الغزو الإسرائيلى، وأطماع القوى الكبرى، حينئذ فإن الإمكانات الوطنية هى التى تحدد طبيعة النضال الوطنى من أجل التحرير وأسلوبه».

«وآن الأوان ـ من ثم ـ لمراجعة سياسة «الإسراف فى الاعتماد» على الاتحاد السوفيتى. إن تلك السياسة لم تحقق بعد خمس سنين من الهزيمة تحرير الأرض وردع العدوان واسترداد الحق».

«ونحن لا نقصد بحال المساس بالصداقة المصرية ـ السوفيتية، فإنه من قبيل الطيش أن تستغنى مصر عن صداقة إحدى القوتين الكبريين، وإنما نقصد أن تعود العلاقة المصرية ـ السوفيتية إلى «الإطار الطبيعى والمأمون» للعلاقة بين دولة حديثة الاستقلال، حريصة عليه حرصها على الحياة، ودولة كبرى لا تبرأ استراتيجيتها، بحكم العقيدة والمصلحة، من جموح الرغبة فى بسط النفوذ».

«وليس يدور بخلد واحد منا، أن الخط السياسى المقترح، يمكن أن يتم بخطى غير متأنية، أو بأسلوب غير محكم الإعداد والتنفيذ. إن التحول إلى الخط الجديد ينبغى أن يستوفى حقه من الوقت، ومن الإعداد المحكم والحكيم. إن أمنه وضمانه وجدواه تكمن كلها فى سلامة الخطوات التكتيكية المنفذة له ودقتها».

«وآن الأوان إذن كى تعود مصر إلى منطقة الأمان بين القوتين الكبريين، بل بين القوى الكبرى، بعد تعدد الأقطاب.. لقد كانت مجاوزة حدود تلك المنطقة بغير شك، سبباً من أسباب المحنة. إن سياسة محالفة الشيطان لا اعتراض عليها إلا إذا كانت أو انتهت لحسابه، وهى بالضرورة مفضية إلى حسابه إذا لم يكن الحليف كفؤا له، ونداً».

«السيد الرئيس

«لقد عبرت حركة الطلاب الأخيرة عن مشاعر القلق التى تنتاب مصر على مصيرها، قلقا فجره التشكيل الوزارى الأخير. إن الشعب قد ازداد شكا فى قدرة الأوضاع الراهنة على تحرير مصر».

«إن الموقعين على هذا الخطاب يقدرون ما تبذلون من جهد صادق مخلص من أجل الوطن.. على أن تبعات مصر اليوم تبعات كبرى، والتبعات الكبرى لا يقوى على حملها غير العصبة أولى القوة والاقتدار والشجاعة من أشرف الرجال».

«إن كل الشخصيات الوطنية التى عُرفت فى ولائها لمصر ولثورة ٢٣ يوليو بشجاعة الرأى والاقتدار، ينبغى أن تدعى لمناقشة شئون الوطن العامة، واقتراح تشكيل جبهة وطنية تتولى تخطيط سياسة النضال الوطنى من أجل التحرير».

«والله نسأل أن يوفقنا جميعاً، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا».

«القاهرة فى ٤ أبريل ١٩٧٢»

«عبداللطيف البغدادى ـ كمال الدين حسين ـ أحمد عبده الشرباصى ـ المستشار محمد عصام الدين حسونة وزير العدل السابق ـ فريق مدكور أبو العز قائد القوات الجوية والدفاع الجوى سابقا ـ مهندس عبدالخالق الشناوى نقيب المهندسين ووزير الرى سابقا ـ أحمد كمال أبو الفتوح محافظ القليوبية السابق ـ دكتور رشوان فهمى أستاذ بكلية طب الإسكندرية ونقيب الأطباء الأسبق ـ صلاح دسوقى ـ د. مصطفى خليل».

(٩٥)

ويروى صاحب المذكرات دوافعه إلى كتابة خطاب منفصل للسادات عن انطباعاته عن سياسة السوفييت في التعاون العسكرى والسياسى مع مصر:

«ولما كنت أسمع من الرئيس السادات تمجيداً فى السوفييت فى غير موضعه أو أسمع منه أحداثاً ـ لم تقع ـ كنت أحد أطرافها، فقد أصبح واجبا علىّ ـ لا يمكن التفريط فيه ـ أن أعلم الرئيس بالحقيقة، وخبرتى مع الاتحاد السوفيتى وأسلوب تعامله معنا بما يتأكد معه خيانته لمصر بصفة خاصة وللقضية العربية بصفة عامة».

....

«أعددت خطاباً إلى الرئيس السادات واضحاً صريحاً لا تنطق كل كلمة فيه إلا بالحق والصدق، كتبت الخطاب بخط يدى فى سبع وأربعين صفحة نصف فولسكاب، أرفقت معه ملخصاً لما كتبت لأننى أعلم أن الرئيس السادات لا يحب القراءة كثيرا حتى أسهل له الإلمام بما أريد أن أحيطه به علماً فى أقصر وقت».

«وقد عزمت على تقديمه سواء قدمت المذكرة الجماعية التى نحن بصددها أو لم تقدم».

«وفى الوقت نفسه اتفقت مع المهندس عبدالخالق الشناوى ومع كمال أبو الفتوح والمستشار عصام حسونة على أن نمضى فى كتابة المذكرة ونقوم بتوقيعها نحن الأربعة ونرسلها أمانة فى يد السيد عبداللطيف البغدادى لاستكمال التوقيعات التى يراها وله أن يتصرف فيها كما يشاء».

هكذا يبدو لنا أن مدكور دونا عن كل الموقعين معه على المذكرة الشهيرة كان يستشعر مسئولية مضاعفة تجاه وطنه وتجاه الرئيس السادات وتجاه الظروف القائمة، وقد وجد الرجل أن مسئوليته هذه تفرض عليه واجبا آخر غير ذلك الواجب الجماعى الذى شارك فيه بالفعل، كما أحس أن واجبه تجاه هذه المسئولية لا يحتمل التأجيل الذى قد تعانى منه المذكرة الجماعية، ومن ثم استقر رأيه على أن يضيف جهداً فردياً تمثل فى الخطاب الشهير الذى استعرضناه في هذا الباب، وهو يقص علينا ما حدثته به نفسه من شأن هذا الخطاب وكتابته وتوقيته وإرساله، وقد آثرت أن أؤجل نشر مقدمة هذا الخطاب إلى هذا الموضع من هذا الباب بعد أن حللت فيما مضى معظم ما تضمنه فيما يتعلق بمنظور مدكور أبو العز للعلاقات المصرية السوفيتية:

«السيد رئيس الجمهورية ..

«كان لى شرف عرض حالة القوات الجوية والدفاع الجوى على الرئيس الراحل جمال عبدالناصر فى مايو ١٩٦٤ عندما عينت محافظاً لأسوان بعد تركى للقوات الجوية مباشرة، تلك الحالة التى عبرت عنها بأنها خطيرة تتطلب عنايته ورعايته الشخصية، ولأهمية ما قلته فقد كررتها على سيادته مؤكدا وضع القوات الجوية والدفاع الجوى تحت عنايته ورعايته الشخصية».

«كنت أراها فى حالة انهيار وانحلال لا يمكن معها أن تخوض أية معركة، وكنت على خلاف فى الرأى مع القيادة وأسلوب العمل فى القوات الجوية، ولم تكن القوات الجوية والدفاع الجوى وحدها الفريدة بهذا الانهيار والانحلال، بل كانت أفرع القوات المسلحة الأخرى، وربما كانت القوات الجوية أحسن حالاً ومع ذلك تركها الأوفياء من قادتها للعمل فى مكان بعيد عن خبرتهم التى مارسوها زهاء أكثر من ربع قرن، ومع ذلك أيضا وللأسف الشديد لم يتخذ أى إجراء».

«وإنى مازلت أقول بأن القوات الجوية والدفاع الجوى فى المرحلة التى نمر بها غاية فى الأهمية لسلامة الدولة والوطن، ولعل أبلغ تفسير لذلك، ذلك التكليف الذى تشرفت به فى الحادى عشر من يونيو ١٩٦٧ بعد النكسة مباشرة من الرئيس الراحل جمال عبدالناصر عند تعيينى قائداً للقوات الجوية والدفاع الجوى، إذ قال: «إنى أضع أمانة الدولة فى يدك»، ذلك التكليف الذى تشرفت به، وفى خلال المدة القصيرة التى قضيتها قائداً للقوات الجوية والدفاع الجوى [من ١١ يونيو ١٩٦٧ إلى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٦٧] لم يغب عن نظرى هذا التكليف، فلم أفرط ولم أسمح لأحد بأن يفرط فى أمانة الدولة، ولعل هذا هو سبب بقائى مدة قصيرة».

«كما كان لى شرف عرض رأيى على كبار المسئولين فى الحكومة بصراحة تامة قبل نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ مباشرة، وبالتحديد يوم ووقت وصول الملك حسين إلى القاهرة لتوقيع معاهدة التحالف العسكرى بين مصر والأردن، قلت رأيى الصريح للسيد أمين هويدى وزير الدولة لشئون رئاسة مجلس الوزراء وقتذاك حينما سألنى باعتبارى كنت رئيساً لأركان القوات الجوية والدفاع الجوى قبل تعيينى محافظاً لأسوان عن الموقف العسكرى، قلت لسيادته بالحرف الواحد: «إنه من الخطأ الجسيم أن نعلن إعطاء المبادأة للعدو، فسوف لا نتحمل الضربة الأولى وسوف يقضى على طائراتنا وهى جاثمة على الأرض، فمطاراتنا عارية وطائراتنا مكشوفة فى العراء ودفاعنا الجوى هزيل، فيحصل العدو على السيادة الجوية ويحصل لنا كما حدث فى ١٩٥٦، لكن بصورة أشد، ويعود جيشنا مشتتاً فى الصحراء. فالقوات الجوية والدفاع الجوى فى حالة غير صالحة لحرب، وأعتقد أن الجيش والبحرية ليسا فى حالة أحسن، وإننى لست فى الجانب الذى ينادى بالحرب مع الإسرائيليين، فليس الوقت وقته».

«فوجئ السيد أمين هويدى بهذا الحديث وقال: كيف ذلك وكل ما لدينا ينبئ بأن الحالة جيدة جدا! قلت: هذا ما نرجوه وربنا يستر».

«وأضفت: «قد يكون الأمر كذلك!! وعلى أى حال فقد تركت القوات الجوية منذ ثلاث سنوات ولكن الشىء الذى أعلمه يقيناً أن القوات الجوية فى نظرى كانت

فى حالة سيئة عندما تركتها، وأعتقد أن حالتها الآن كانت أسوأ، ويمكن الحكم على القوات المسلحة بمجرد النظر إلى العسكرى الذى يسير فى الشارع».

❑

ويبدو مدكور أبو العز فى الفقرات السابقة والفقرات التالية حريصا على أن يحيط الرئيس السادات علما بما يظن أنه ربما لم يحط به علما فى أثناء رئاسة الرئيس عبدالناصر وهو يستطرد ليقول:

«للأسف الشديد حدث ما توقعته، وكأنى أقرأ فى كتاب مفتوح».

«وقد علمت يقيناً أن ما قلته قد أبلغ إلى الرئيس جمال عبدالناصر فى حينه، ولعلى كنت صريحاً فى الحديث بقصد الأمانة في أخذ رأيى وأيضاً لتبلغ إلى الرئيس خصوصاً أن لقائى مع السيد هويدى كان أول معرفة لى به وبطبيعة الحال فإن أساس هذا الرأى هو المعرفة والخبرة، فلو أن القيادات العسكرية المسئولة وقتذاك ملكت حرية الرأى والشجاعة الأدبية دون خوف لانتهوا إلى ما انتهيت إليه، لكن هناك فرقاً بين من يعرف الرأى الصحيح فيكتمه ومن يعرف الرأى الصحيح فلا يتردد بالتصريح به للمسئولين، وإنى على يقين بأن قواتنا العسكرية كلها كانت ضد الحرب لكنها خشيت التصريح برأيها خصوصاً أنها بقيت فى مواقعها ما يقرب من خمسة عشر عاما».

«ما صرحت به للسيد هويدى قلته لزملائى المحافظين الذين كانوا معى فى زيارة إلى العراق».

«بمناسبة تركى القوات الجوية والدفاع الجوى بعد النكسة. كان لى شرف مقابلة رئيس الجمهورية فرأيت أن الأمانة تقتضى وأنا أتحرك من موقع المسئولية الخطيرة أن أعرض على سيادته ما أراه، وعرضت عليه الرأى وتضمن الآتى:

١ ـ إن خروج القيادات الممتازة معى أمر خطير وخاطئ، ولسوف تدركون الخطأ لكن فى وقت متأخر.

٢ ـ إن القوات الجوية والدفاع الجوى سوف تتعثر لافتقارها إلى قيادات لها خبرتها.

٣ ـ أما وقد قررتم التغيير فالمرجو إعطاء القائد الجديد كل ما حرمت منه، فلم أكن سعيد الحظ لكسب تأييدكم الكامل، وأن تفتح له بابكم وامنحه الثقة ليقول لسيادتكم الكلمة الحرة التى تتفق مع الواقع دون تردد أو خوف.

٤ ـ إن سيناء لا تصلح أرضاً لمعركة، ولا يجوز العبور إلا بعد تحطيم العدو أو على الأقل الحصول على التفوق الجوى.

٥ ـ يكون الاهتمام بالقوات الجوية والدفاع الجوى بالدرجة الأولى بحيث تكون قادرة على الردع والحصول على السيادة الجوية.

٦ ـ القيادة العامة للقوات المسلحة ليست على المستوى المطلوب من جميع الوجوه.

٧ ـ يكون حجم قوات الصاعقة أكبر ما يمكن وبالكفاءة الممتازة ولا يقل عددهم عن خمسين ألف جندى أو يزيد.

٨ ـ قوة المدرعات ووحدات الجيش بحجم مناسب للمعركة لا أكثر ولا أقل.

٩ ـ قوات بحرية دفاعية مادام الطيران لا يستطيع أن يحقق الحماية الجوية لقطعنا البحرية الهجومية.

١٠ ـ توفير الضبط والربط بين أفراد القوات المسلحة كأساس لبناء القوات المسلحة بالمعنى الصحيح للضبط والربط.

«ففى جميع المناسبات التى تتطلب فيها إبداء الرأى الحر فإننا كمواطنين نشعر بدين علينا إزاء هذا الوطن الحبيب أن نسارع فى إبدائه ليكون أمام قياداتنا وبين أيديهم، وفى هذا الخطاب أعرض على سيادتكم فكرى وآرائى إزاء المرحلة الصعبة الدقيقة غاية الصعوبة والدقة، فكل ما جاء به من وقائع فهى حقيقة لم أراع فيها إلا وجه الله الكريم».

(٩٦)

ويروى مدكور أبو العز بامتعاض شديد قصة تعرضه للاتهام أمام نيابة أمن الدولة، ولسنا نعرف حقيقة الاتهام الذى وجه إلى مدكور، ولكن مدكور نفسه يكاد

يتجاوز عن حقيقة هذا الاتهام وعريضته وأسانيد النيابة فيه، وسنرى فى فقرات أخرى ما يرويه صاحب المذكرات من حديث الرئيس السادات ومدير المخابرات العامة (أحمد إسماعيل) ووزير الداخلية (ممدوح سالم) حول ما ينبغى عمله تجاه ما أطلق عليه مؤامرة مدكور فيما يرويه عن اصطناع هذا الاتهام، إلا أن ظننا كقراء أن النيابة لا تقدم اتهامها من فراغ،كما أن المخابرات لا تذهب إلى حدود الاصطناع الكامل.

وقد يبدو أن هناك من زج باسم مدكور فى إحدى القضايا أو التحريات مما طور الأمور إلى هذا الحد، ونظرا لأن مدكور بالفعل برىء من مثل هذا السلوك فإننا نرى فى مذكراته أنه نجا من هذه الاتهامات فى مرحلة مبكرة من عرضها على النيابة، وقد كان رئيس النيابة الذى أنيط به التحقيق مع صاحب هذه المذكرات رجلا من أفاضل رجال القضاء، وقد وصل فيما بعد إلى منصب النائب العام كما نعرف.

كل هذا الظن قد يكون صواباً، ولكنى أرجح احتمالا آخر وهو أن السادات بنفسه دبر هذا التحقيق لمدكور دون أن يدرى مساعدوه شيئاً من هذا التدبير وذلك حتى يمكنه بالدهاء المعروف عنه أن ينفذ خطوات السياسة التى أوحى بها إليه مدكور فيما يتعلق بالسوفييت والخبراء السوفييت، ودليلى على هذا أن الاتهام سقط من تلقاء نفسه بعد مدة دون أن يؤذى مدكور أو يؤاخذ بسببه، مع أنه اتهام خطير!! وعلى كل الأحوال فلابد لنا من قراءة ما يرويه مدكور عن استدعاء النيابة:

«بعد إلقاء خطاب الرئيس السادات أمام مجلس الأمة (يقصد مجلس الشعب) بأيام قليلة، هاجم فيه مقدمى العريضتين كما هاجمنى، جاءنى إلى منزلى بضاحية المعادى أحد ضباط الشرطة من مباحث أمن الدولة يخبرنى بأننى مطلوب لمقابلة الأستاذ بدر المنياوى رئيس نيابة أمن الدولة صباح اليوم التالى، وهنا تبينت ما يضمره لى الرئيس السادات، لقد اختصمنى السادات ووجدت نفسى ماثلاً أمام نيابة أمن الدولة متهماً:

«أولا: بإفشاء أسرار عسكرية تضمنها الخطاب الذى أرسلته إلى السادات».

«ثانيا: بالاشتراك فى مؤامرة ضد رئيس الدولة».

«ثالثا: برئاسة حزب سياسى يضم ثمانية منهم المهندس أحمد عبده الشرباصى والدكتور مصطفى خليل نائبا رئيس الوزراء الأسبقان».

«لقد تضمن التحقيق كل كلمة فى العريضة الجماعية الثانية التى كان لى شرف توقيعها، وكل كلمة فى خطابى المشار إليه آنفاً والظروف والدواعى التى أدت إلى كتابتهما».

❏

«لقد غمرنى الحزن والأسى العميق لا لندم على ما فعلت بل على العكس كنت أزهو بنفسى وأفخر للاشتراك فى هذا العمل الوطنى الجليل، ولكن الحزن والأسى العميق كانا لأن رئيس الدولة وهو مقتنع تماماً بما كتبت وأننى لست الشخص الذى يرتكب مثل هذه الجرائم ولست كمثل مَنْ كانوا يتعاونون مع جيوش الألمان المتقدمة لاحتلال مصر فى العلمين، وباعترافه هو بأن ما كتبته فى هذا الخطاب كان صحيحاً مائة فى المائة، هذا من ناحية».

«من ناحية أخرى كان الحزن لأن عبدالناصر يوم تعيينى قائداً للقوات الجوية والدفاع الجوى على أثر الهزيمة، قد وضع أمانة الدولة فى يدى، فيقدمنى بعده الرئيس السادات أمام نيابة أمن الدولة بجرائم ضد أمن الدولة».

❏

ويلتمس مدكور أبو العز فى فقرات رائعة الخير من ركام الشر والسوء ويقول:

«لقد شاركنى فيما شعرت به الكثير ممن علموا أن السادات قدمنى إلى نيابة أمن الدولة للتحقيق معى، وأحسوا بما كنت أعانيه من ألم وأسف شديدين، فكانوا يقولون لى لا تأسف على شىء إن ما قمت به من عمل يشرف كل مواطن، ولولا هذا التحقيق لذهب مع الريح ما قمت به من عمل عملاق وأصبح فى طى النسيان، ولا يدرى به أحد،أما وقد أجرى معك التحقيق فإن ما فعلته سوف يبقى وثائق من وثائق الدولة لا يمكن أن تصل إليها يد عابث أو حاقد».

«إن المجال هنا لا يتسع لذكر كل ما سئلت فيه وما أجبت به، ولكنى سوف أقصر

الكلام على ذكر ما يخص الاتهامات التى وجهت إلىّ فى إيجاز شديد، كنت فى أقوالى كما هى طبيعتى واضحاً صريحا».

وعلى هذا النحو يحرص مدكور على تفنيد الاتهامات التى وجهت إليه عقب تقديمه لخطابه إلى الرئيس السادات فى ١٩٧٢ فيقول :

❐ بالنسبة للاتهام الأول :

«إن الخطاب الذى أرسلته للرئيس السادات كان مباشراً منى إليه، كتبته بخط يدى لم أمس فيه أى سر عسكرى بالإفشاء، فكل ما ذكرته عن طائراتنا لم يكن سراً يخفى على أحد،وكله معلن ومكتوب فى مجلة اسمها (جينز) تباع فى المكتبات العامة، ولأهميته القصوى تحرص جميع مكتبات القوات الجوية والقوات المسلحة للعالم كله على اقتنائه، تشمل هذه المجلة المعلومات الدقيقة عن جميع أنواع الطائرات التى تنتجها دول العالم الحديث منها والقديم، كما تشمل أيضاً المعلومات الدقيقة عن أسلحة القوات البرية والقوات البحرية».

«إن التأكد مما قلت أمر سهل بمجرد الحصول على هذه المجلة من المكتبات العامة أو عن طريق المخابرات الحربية التى تقتنيها هى الأخرى».

«وبالإضافة إلى ذلك فقد أطلع الرئيس السادات الأستاذ محمد حسنين هيكل - وهو صحفى - على هذا الخطاب فإذا خرجت المعلومات عن نطاق الرئيس وعن نطاقى أو تسربت إلى الخارج فإن مسئولية إفشاء ما فيه بعد ذلك إذا اعتبر ما فيه أسراراً تقع على مَنْ أخرج هذا الخطاب عن النطاق المحدود إلى الصحافة».

❐ بالنسبة للاتهام الثانى :

«وبالنسبة للاشتراك فى مؤامرات ضد رئيس الدولة قلت: ليس من طبيعتى أن أشترك فى مؤامرات، فإذا اتضح لى يوماً أن أسلوب العمل لا يروق لى فإذا استطعت الإصلاح بقيت فى عملى، وإذا كان الإصلاح يفوق طاقتى البشرية فإننى لا أخون أو أفرط بل أوثر ترك موقعى فوراً وحتى لا أشترك فى جرائم أو نكسات أو هزائم وهذا أضعف الإيمان».

«وتساءلت: كيف يكون التآمر وأنا فى المعاش أرتدى الملابس المدنية، أعزل من السلاح، لا أملك من مقومات التآمر شيئا، وكان الأحرى أن يكون تآمرى ـ إذا افترضنا أننى من المتآمرين ـ وأنا فى موقع القوة أتولى قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى، وكان العهد كله وقتذاك هزيلاً مهزوزا ومرتعشاً يسهل القضاء عليه بنفخة هواء، وكانت الظروف كلها مهيأة للإطاحة به».

«ولكن القيم التى تعلمتها وتربيت عليها وتمسكت بها وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من كيانى تمنعنى من مجرد التفكير فى التآمر على أحد حتى لو استحقه، لقد استدعيت لقيادة القوات الجوية لإعادة بنائها من جديد لتقف على أقدامها وتؤدى دورها الهائل فى معركة التحرير فى أقل وقت مستطاع لا لأتآمر على أحد».

«لقد تساءلت: لماذا يضيق صدر الرئيس السادات بالرأى الحر فيعتبر ما أقدمت عليه من واجب وطنى فرض علىّ، فمرة يعتبره إفشاء أسرار، ومرة أخرى تآمرا، ومرة ثالثة فرض الوصاية على الشعب».

«أليس من حق المواطن الحريص على أمن وطنه إذا شاهد الأحداث تجرى من حوله تنبئ بخطر داهم يهدد أمن الوطن وسلامته وكنت يومها فى موقع المسئولية الكبرى أن يكتب إلى المسئول الأول ليعرف الحقيقة ويأخذ الحذر من الاتحاد السوفيتى الذى اعتبره الصديق الأوحد ، فلا يستمر فى تمجيده ويصحح ما أذاعه على الناس من أحداث عاصرتها حتى لا تتكرر إذاعة وقائع لا تمت للحقيقة بصلة، إننى أردت أن أحذر المسئول الأول وأبدى له الرأى فيما أراه مناسباً لمواجهة الموقف».

❑

ويذكر صاحب هذه المذكرات أنه أبدى تعجبه فى التحقيق معه من ضيق صدر الرئيس السادات بالنصيحة والرأى الآخر، على الرغم من أنه أى السادات نفسه حاكم زعماء ما قبل الثورة ووجه لهم الاتهام بنفس التهمة:

«إن الأمر الذى يؤلمنى كثيراً أن تتغير مبادئ الثوار الذين يقومون بثورة للإطاحة بالحكم القائم، فلما يحتلون موقع القيادة يفعلون ما كان يفعله الحاكم الذى أطاحوا به. فتساءلت فى التحقيق متعجباً ومذكراً: لقد كان السادات عضو اليمين فى محكمة الثورة التى قامت بمحاكمة قيادات مصر الذين أسموهم برجال العهد البائد لأنهم

كانوا منصاعين للملك السابق فاروق ومستسلمين له، ولم يحاول أحد منهم أن يعارضه أو يتصدى له وحكمت المحكمة على بعضهم بالإعدام والسجن ومصادرة الأموال، فكيف والسادات الآن رئيس الجمهورية يحاكمنا لمجرد أننا كتبنا له ليصحح ما يذيعه على الشعب أو لتقديم النصيحة أو إبداء الرأى.. أهكذا يتغير الناس وتتغير المبادئ بمجرد توليهم الحكم».

(٩٧)

ونعود إلى حديث صاحب المذكرات عن التطورات التى مر بها إعداد وتوقيع ورفع المذكرة (العريضة) الشهيرة إلى الرئيس السادات فى ١٩٧٢ ونحن نرى مدكور أبو العز وهو يتحدث عن صياغة «العريضة» ومضمونها باعتزاز وفخر، وهو يقرن هذا بحديثه الآسف لصدور بعض انطباعات غير مسئولة وغير منصفة من شخصيات المنافقين وله كل الحق فى هذا:

«إن العريضة كما يبدو قد صيغت بأسلوب رفيع يتناسب مع قدر ومكانة موقعيها كصف أول من خدام مصر، إنها شملت حقائق لا يستطيع أى منصف أن يشك فيها، وكادت تنطق بحقيقة ما كان يحسه كل مصرى غيور على مصلحة وطنه، ومع كل ذلك فالنفاق آفة خطيرة يتقنه المفسدون فى الأرض فيقلبون الحق إلى باطل».

❑

«وبالرغم من أن هذا العمل الذى قام به موقعو هذا الخطاب عمل كبير، وبالرغم من أن موقعيه هم وحدهم الذين كانت لهم المبادأة فى التعبير لدى القيادة السياسية بكل ما يجول بخاطرهم فى صراحة المؤمن بوطنه فى وقت تكممت أفواه أصحاب الرأى وجفت أقلام الكتاب».

«فبالرغم من ذلك كله يتطوع المنافقون فى جرأة مهيبة وفى بجاحة منقطعة النظير فيصورون هذا العمل الجليل الإيجابى كوسيلة لحل المأزق الذى تعرضت له مصر

والدول العربية على إثر الهزيمة البشعة فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ بصور باهتة، ويصفونه بصفات يبرأ منها كل وطنى غيور».

❏

ويصل مدكور أبو العز إلى المراحل النهائية فى قصة المذكرة:

«أتم المستشار عصام حسونة المذكرة ووقعنا نحن الأربعة (يقصد هو وعصام حسونة وعبدالخالق الشناوى وأحمد كمال أبو الفتوح) المذكرة وقمنا بتسليمها للسيد عبداللطيف البغدادى، الذى قام باستكمال توقيعات باقى الزملاء كالآتى:

١ ـ السيد عبد اللطيف البغدادى، نائب رئيس الجمهورية الأسبق وعضو مجلس قيادة الثورة.

٢ ـ السيد كمال الدين حسين، نائب رئيس الجمهورية وعضو مجلس قيادة الثورة.

٣ ـ المهندس أحمد عبده الشرباصى، نائب رئيس الوزراء الأسبق.

٤ ـ المستشار محمد عصام حسونة، وزير العدل الأسبق.

٥ ـ الفريق مدكور أبو العز، قائد القوات الجوية والدفاع الجوى الأسبق.

٦ ـ المهندس عبد الخالق الشناوى، نقيب المهندسين ووزير الرى الأسبق.

٧ ـ السيد كمال أبو الفتوح، محافظ القليوبية الأسبق.

٨ ـ الدكتور رشوان فهمى، نقيب الأطباء الأسبق.

٩ ـ الدكتور مصطفى خليل، نائب رئيس الوزراء الأسبق.

١٠ ـ السيد صلاح دسوقى، محافظ القاهرة الأسبق.

«اجتمع بعضنا فى منزل السيد كمال الدين حسين بالزمالك بعد إعداد المذكرة نهائياً، وقد رئى أن يوقع على كل ورقة منها، وكانت فى أربع ورقات فلوسكاب. ولأنى كنت والسيد كمال الدين حسين بجوار المكتب الذى كانت عليه المذكرة فقد وقع كلانا (السيد كمال الدين حسين وأنا) على كل ورقة حتى تصل إلى الرئيس السادات كما أردناها دون عبث».

«حاول السيد عبد اللطيف البغدادى الاتصال بمكتب الرئيس السادات ثلاث مرات لتحديد موعد للقائه مع المجموعة كلها، لكنه لم يتلق أى رد، الأمر الذى حدا به أن يرسل المذكرة إلى الرئيس مرفقة مع خطاب منه، وقد حرص البغدادى على أن تسلم شخصياً باليد إلى الرئيس، فاختار الأستاذ محمود أبووافية زوج شقيقة حرم الرئيس السادات. تم لقاء البغدادى بأبى وافية وسلم له الخطاب والمذكرة».

«أما خطابى الخاص فقد قابلت اللواء طيار محمد سعد الدين شريف وكان نائباً لكبير الياوران، وطلبت مقابلة الرئيس، غير أن اللواء طيار شريف قد أخبرنى أن اللقاء ـ حسب معلوماته ـ سوف يتأخر، فقمت بتسليم الخطاب له ليقوم بدوره بتسليمه إلى الرئيس وقد تم ذلك، كانت المذكرة الجماعية بتاريخ ٤ أبريل عام ١٩٧٢، وكان خطابى بتاريخ ١٠ مارس عام ١٩٧٢، ولقد سمى الرئيس السادات المذكرة الأولى التى أرسلها كل من بغدادى وكمال الدين حسين وزكريا محيى الدين بالعريضة الأولى، وسمى المذكرة الثانية الجماعية الموقعة من العشرة المذكورين آنفاً بالعريضة الثانية».

(٩٨)

ثم يحكى الفريق مدكور أبو العز بألم شديد شعوره المستاء مما بدا من انطباعات الرئيس السادات وانفعالاته تجاه المذكرة والذين كتبوها على نحو ما يعلم الناس جميعاً من خطابه فى مجلس الشعب فى الذكرى الأولى لثورة التصحيح:

«ألقى الرئيس السادات خطاباً أمام مجلس الشعب فى ١٥ مايو عام ١٩٧٢ وفوجئنا بهجوم عنيف على مقدمى العريضتين، الأولى والثانية، وخطابى إليه، كان خطاب الرئيس مليئاً بالمغالطات والتجاوزات والسخرية منا، ولا أدرى لماذا يضيق صدر الرئيس السادات برأى أو آراء لمجموعة من المواطنين لهم مكانتهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه، قاموا بواجبهم نحو وطنهم بأسلوب رفيع لا يحملون فى أيديهم غير القلم الحر، ولا يسيطر على عقولهم غير الفكر الحر ومصلحة مصر وكلهم

زملاء لرئيس الجمهورية، قد توجهوا إليه شخصياً برأيهم وفكرهم ولم يتقدموا إليه بالمدافع الرشاشة أو القنابل اليدوية أو الدبابات، تشد أزرهم ليفرضوا عليه رأيا، فله أن يقبله وله أن يرفضه، وعليه إذا رفض رأيا فهو ملتزم بالقيم الفاضلة والمبادئ السامية بما يتفق مع الكرسى الموقر الذى يجلس عليه كقدوة يتأسى بها الناس».

«فنحن لم نرتكب جرماً أو إثماً،وعلى رئيس الجمهورية أن يرد الحجة بالحجة رداً موضوعياً فى غير حقد أو بغض أو كراهية».

«فكم دعا الرئيس السادات إلى القيم الفاضلة والمبادئ السامية وإلى التمسك بأخلاق القرية ونبذ الحقد والبغض والكراهية من النفوس».

«وصاحب الدعوة إذا أراد لدعوته الاستجابة أو إذا كان جاداً فيها، وجب أن يعطى المثل الذى يحتذى به وإلا تشبه المجتمع به «والناس على دين ملوكهم» حتى لا تعمه الفوضى، فالفساد، فالانحلال».

«إن الرئيس السادات قد فعل ذلك فى حماية السلطة وكبت الحريات والتسلط، ولولاها لما استطاع أن يتجاوز معنا هكذا، وهنا أكرر قوله: «إن الخفافيش لا تخرج فى النور».

«إن علينا كقيادات سابقة ديناً مضاعفاً للوطن المفدى، فإذا لم يكن التحرك بالرأى من جانبنا ـ وهذا أضعف الإيمان ـ فمن الذى يتحرك إذن؟ وإذا تحركت الجماهير وهى لا تملك إلا الحناجر لتعبر عن رأيها والحجارة لتدافع بها عن نفسها، أصبحوا خارجين على القانون واتصفوا بالغوغائية والفوضوية».

«وصف الرئيس السادات فى ذلك الخطاب الذى ألقاه أمام مجلس الشعب، الرأى الحر الذى تقدمنا به بالجبن، وصفنا بالجبن لأننا تقدمنا لشخصه مباشرة، وصفنا بالعمل فى الظلام، وأن النور يمنع الخفافيش (مع أن) تحركنا كان فى ضوء الشمس ووضوح النهار، وصفنا بالحقد، وصفنا بأننا نريد الوصاية على البلد وعلى الحكم، وصف دعوتنا إلى الجبهة الوطنية بالصورة التى شرحتها على أنها تخريب، وصف حرصنا على الوطن وتحذيرنا من العابثين به، انفعالا وتشنجا، وتناسى السادات أن هجومه على هذه العرائض كان انفعالا وتشنجا».

«اعتبر مَنْ قاموا بالثورة يوم ٢٣ يوليو التى لم يكن له دور مرموق فيها أنهم انتهوا بانتهاء مجلس الثورة عام ١٩٦١، واعتبرهم معزولين سياسياً، فليس من حقهم كمواطنين إبداء الرأى فى أمر يخص مصر، واعتبرهم أمواتاً لا يخرجون من قبورهم أبداً، وكذلك مَنْ أحيلوا إلى المعاش بعد أن أدوا أجل الخدمات للوطن العزيز ليس من حقهم أن ينطقوا بكلمة سواء، فقد عزلهم عن الحياة ومنع عليهم استنشاق نسيم الحرية والآدمية».

«اعتبر (أى السادات) الموقعين على هذه العرائض وكلهم معروفون بمكانتهم المرموقة كصف أول من خدام مصر، على مدى تاريخهم الناصع البياض، فلم يحدث من أحدهم أن قام بالاتصال بأجهزة المخابرات الألمانية لإعطاء المعلومات عند هجوم الألمان على مصر فى الحرب العالمية الثانية كما فعل السادات باعترافه شخصياً وهو يحكى تاريخه، واعتبر الموقعين على العريضة الثانية شوية «لمامة لموهم» أعضاء مجلس قيادة الثورة للتوقيع على هذه العريضة».

«ثم خرج علينا الرئيس السادات الله يرحمه، بتقليد جديد، وهو أنه إذا كان لأحد رأى فليتقدم به إلى مجلس الأمة، ودعا المجلس لاستدعاء مَنْ يريد أن يبدى رأياً أن يأتى إليهم ويناقشوه ويحاسبوه، هذا تقليد جديد لم يعرفه دستورنا ولا دساتير دول العالم كله».

(٩٩)

ومن الجدير بالذكر هنا أن الفريق مدكور أبو العز كان حتى كتب خطابه للسادات فى ١٩٧٢ معجبا بالرئيس وبخطواته فى الإصلاح السياسى والداخلى، كما أنه كان طموحا إلى أن ينهج الرئيس السادات نفس المنهج فى مجالات أخرى من إصلاح الإدارة الحكومية والقضاء على الفساد والسلبية والتحلل الخلقى:

«وقبل أن أختم خطابى لا يفوتنى أن أذكر بالتقدير العظيم لشخصكم الكريم ما قدمتموه للوطن المفدى منذ توليتم السلطة وشغلتم مركز القيادة، من الجليل من

الخدمات، فأطلقتم الحريات... ونريد المزيد، وضمدتم جروح القضاء... ونريد المزيد، وقضيتم على مراكز القوى الضالة وعلى أسس الفساد... ونريد المزيد، ونطلب من الله العلى القدير أن يوفقكم لإصلاح الإدارة الحكومية والقضاء على الفساد فيها وعلى السلبية التى تفشت فى كل فرد فلم تترك كبيراً أو صغيراً، وتحقيق الخلق الكريم، فإن النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، إن ديننا أساسه الأخلاق الكريمة ومنها تنبعث الفضائل كلها».

«وفقكم الله وسدد خطاكم وألهمكم من أمره رشدا، والنصر لنا بإذن الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

❑

ومع كل ما يبديه مدكور أبو العز من تقدير لإنجازات السادات فى بداية عهده، وفى انتصاراته المتوالية إلا أنه لا يكف فى مواضع كثيرة من مذكراته عن اتهام السادات بالدكتاتورية التى كان من ورائها التناقض في تصرفاته السياسية خاصة فى مواقفه من الاتحاد السوفيتي، وتحفل المذكرات بفقرات مدكور أبو العز التى يتحدث فيها عن دهشته من تصرفات السادات معه، ولمدكور أبو العز أن يدهش من تصرفات السادات الداهية فى ١٩٧٢، أما وقد فهم الصورة كلها بعد حرب ١٩٧٣ وبعد معاهدة السلام وبعد أن نزع السادات يده نهائياً من التعاون مع الاتحاد السوفيتى فقد كان الأولى بمدكور أن يتأمل الأحداث من علٍ أكثر من هذا، وبخاصة أنه كان بلاشك صاحب الفضل على السادات فى كل هذا الفهم الذى مكن السادات من اتخاذ قرارات مبكرة كانت صعبة على غيره:

«السادات يقدمنى متهما أمام نيابة أمن الدولة للتحقيق معى بشأن ما تضمنه هذا الخطاب، وفى وقت قريب يطلب منى نشر مضمون الخطاب الذى قدمنى من أجله متهماً إلى نيابة أمن الدولة فى إحدى الصحف القومية ليعرفه الشعب».

«إنه من الأمور المثيرة للعجب أنه عندما اختلف السادات مع السوفييت طلب منى نشر مضمون الخطاب فى إحدى الصحف القومية، ذلك الخطاب الذى سبق أن قدمنى بشأنه متهماً إلى نيابة أمن الدولة للتحقيق معى، كان ذلك على لسان الأستاذ محمد حامد محمود وزير الإدارة المحلية الأسبق وسكرتير عام حزب مصر سابقا».

«وقد نشر بالفعل مضمون الخطاب المشار إليه على صفحات جريدة الأخبار بتاريخ ٢٢ يونيو عام ١٩٧٨ فى ثلاث صفحات ونصف صفحة تحت عنوان «خبرتى مع الاتحاد السوفيتى»، وذلك بهدف أن يتبين الشعب المصرى حقيقة هؤلاء السوفييت ونواياهم تجاهنا، فمرة يرى السادات فى هذا الخطاب إفشاء أسرار عسكرية فأراد أن يحاكمنى للتنكيل بى، ومرة يرى فيه دليلاً على النيات السيئة للسوفييت تجاهنا فيأمر بنشر مضمون الخطاب على الشعب».

«وفى وقت يرى أن الاتحاد السوفيتى الصديق الأوحد الذى يلبى مطالبنا ولا يريد أن يقرأ ما أسماه تشكيكاً فى صداقة الاتحاد السوفيتى لنا حتى ولو كان ما يكتب ضده بالحق والصدق، ومرة يرى فى الاتحاد السوفيتى العدو اللدود فيأمر بنشر الحقائق المريرة عنه ليعرف الشعب المصرى حقيقته مع تقارب الأحداث دون الاكتراث بما سوف يتعرض له المواطنون الأوفياء فى ظل هذا الأسلوب البغيض من أضرار».

«إن هذه سمة من سمات الدكتاتورية التى يسخر الحاكم المستبد فيها كل شىء لمصلحته الذاتية،تماماً تماماً كما كان يسخر مجلس الشعب فى إصدار القوانين المعيبة التى تجرم الحرية وتبغض العدالة والتى تفصل لإيذاء أشخاص بعينهم لمجرد أنهم من معارضيه.. أليس ذلك مدعاة للأسف الشديد».

(١٠٠)

ويصل مدكور فى الهجوم على السادات إلى آفاق غير مطروقة حتى الآن من أعداء السادات، فهو يورد نص ما يرويه السادات عن اتصالاته بالألمان ويحلل هذه النصوص ليثبت من خلالها أن دكتاتورية السادات هى التى دفعته إلى الاستخفاف بعقول المصريين حين روى ـ وهو رئيس للجمهورية ـ قصة اتصاله بالألمان، ويبدو مدكور كما لو أنه كان منذ مرحلة مبكرة واعيا لخطورة الاتصال بأجنبى من أجل الخلاص من عدو جاثم، وهو يسخر من فلسفة استبدال احتلال باحتلال.

وهو يورد كل هـذه الآراء [الفكرية] من أجـل تأديب السادات الذى قـدمه لأمن الدولة، ولـست أدرى كما ذكـرت مبررات السـادات فيما فـعل وإن كنت أرجـح ما يرويه مدكور مـن أن السادات كان بهذه الإجراءات يلـقى ستراً كثيفاً عـلى نواياه فى التخلص من التحالف السوفيتى ـ المصرى.

والدليـل على هذا واضـح مما يرويه مـدكور، لكن هـذا لا ينفي أن الـسادات كان مديناً لمدكور بالاعتذار وتقديم المبررات على نحو لائق.

ومع هذا فمـن المفيد أن نقرأ هـذا التحليل الذى يـقدمه مدكور أبو الـعز وبعد أن يورد نـصاً مطـولاً من حديـث السادات لـلتليـفزيون المـصرى حيـث يعلـق عليـه بما يستنتجه من فقرات هذا الحديث ويقول :

«وأستخلص [الكلام لمدكور أبو العز] من سرد قصة اتصاله بالألمان وبمن أسماهم بالجواسيس وقصة جهاز اللاسلكى أن السادات اعترف بالآتى:

«أولاً: إن السادات والتنظيم الذى يتحدث عنه اتـفقوا وعملوا معاهدة بينهم وبين روميل قائد الجـيوش الألمانية المتقدمة لاحتـلال مصر بمقتضاها تمنح مـصر الاستقلال عنـد احتلال الجيـوش الألمانية لمـصر، وعربونـا لذلك قامـوا بتصويـر جميع الـقوات الإنجليزيـة فى مصر وطارت طائـرة مقاتلة حربـية مصرية بالمـعلومات فى حقـيبة إلى العلمين دليلاً على حسن نيتهم للألمان».

«ثانياً: إنـه اتصل بحسين جعـفر وسامبى الألمانين الـلذين أسماهما بـالجواسيس الألمان واللذين أرسلهما روميل إلى مصر».

«ثالثاً: استأجر الجواسـيس «ذهبية» من الراقصة حكمت فهمـى وكانت «الذهبية» راسية فى النيل أمام مستشفى المواساة بالعجوزة».

«رابعاً: إنه حصل من الجاسوسين على جهاز لاسلكى أمريكانى جديد لنج.. قادر على الاتصال بأى مكان فـى العالم، وقام بنقله من الذهبية إلى مـنزله فى تاكسى، ثم حكى قـصة متابعـة المخابرات الحربيـة المصرية والداخلـية بالتعـاون مع الانتليـجنس سيرفز الإنجـليزى له وقيامهـم بتفتيش منـزله وفشلهم فـى العثور على الجهـاز بفضل حيله وذكائه اللذين ذكرهما فى الحديث».

وعند هذا الحد يتوقف مدكور ليعلق بقوله:

«وهنا أتساءل فى ظل هذه الاعترافات وهو فى موقع رئيس الجمهورية، بصرف النظر عن أن الأجهزة التى راقبته والتحقيق الذى أجرى معه قد فشلوا أو نجحوا فى إثبات أى اتهام عليه وقت القبض عليه والتحقيق معه وهنا أتساءل:

١ ـ هل توافرت عناصر اتهام السادات بالقيام بأعمال الجاسوسية أو التخابر مع دولة أجنبية أو إفشاء أسرار عسكرية، والتعاون مع الألمان وجيوشهم المتقدمة لاحتلال مصر ومصر فى حالة حرب مع ألمانيا؟ وهل تاريخ السادات ـ وهكذا يرويه على الصورة التى أوضحها فى حديثه المشار إليه ـ يمجده كأعمال بطولية قام بها ويفتخر بها بمناسبة عيد ميلاده السعيد؟

٢ ـ أليس إعطاء المعلومات للجيش الألمانى المتقدم لاحتلال مصر من شأنه تعريض المصريين والممتلكات المصرية والمرافق إلى الهلاك خصوصا لو علمنا أن المواقع الإنجليزية كانت متاخمة للمدن المصرية؟

٣ ـ هل يتصور عاقل أن الجيش الألمانى المتقدم لاحتلال مصر والذى قطع من أجل ذلك آلاف الأميال من ألمانيا حتى وصل إلى شمال أفريقيا وقد لاقى الكثير فى حروب طاحنة ليصل إلى العلمين على مشارف الدلتا المصرية، هل يتصور عاقل أنه جاء إلى مصر ليمنحها الاستقلال بمجرد احتلالها؟ وهل منح الاستقلال لبولندا أو هولندا أو بلجيكا أو فرنسا حينما اجتاحتها الجيوش الألمانية فى أسابيع تعد على أصابع اليد الواحدة؟ والمعروف يقينا على المستوى الدولى أن هدف هتلر من هذه الحرب التوسع ليقف على الكرة الأرضية يلعب بها».

«إن مثل هذه الوعود التى يتطلع إليها السادات حتى لو كانت فى معاهدة يوقعها روميل سوف لن تنفذ حينما تحتل الجيوش الألمانية مصر وتستقر فيها».

«إن وعود الدول الاستعمارية للشعوب المغلوبة على أمرها من أجل منحها الاستقلال لا تنفذ أبداً ولو افترضنا أن المعجزة قد حدثت، وطرد الألمان الإنجليز من مصر ومنح الألمان الاستقلال لمصر من أجل خاطر السادات فإن الاستقلال يكون مشبوهاً لا معنى له، يضع البلاد تحت وطأة الإذلال والمهانة حتى الموت.

«إن هذا المبرر للاتصال بالألمان وإعطائهم المعلومات والتعاون معهم ومع جواسيسهم نظير الحصول على الاستقلال المزعوم، إنما هو استخفاف بعقول المصريين وهذا شأن الديكتاتور وشأن الفرعون الذى قال عنه سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوه﴾ «إن مثل هذا الوعد سوف يذهب مع الريح حينما تحتل ألمانيا مصر وتتثبت أقدامها فيها، أى فلسفة هذه التى يراد من ورائها تبديل احتلال جثم على صدر مصر منذ عام ١٨٨٢ حينما احتلت انجلترا مصر، ذلك الاحتلال الذى أوشك على الرحيل بعدما لاقى من شعب مصر الكفاح المرير من أجل استقلاله فأضحى هزيلاً غير قادر على الصمود أمام الضربات القاضية التى كان يتلقاها من الشعب المصرى فأصبح رحيله منها موقوتا بفترة قصيرة».

«أى فلسفة هذه التى تبدل هذا الاحتلال الذى أوشك على أن يحمل عصاه ويرحل ليس من مصر فقط بل من جميع البلاد التى كان يحتلها، ليبدل به استعماراً محتلاً جديداً وهو ألمانيا النازية التى تريد السيطرة على العالم كله، و التى يحكمها هتلر الدكتاتور النازى لنبدأ معه من جديد ممارسة الاحتلال البغيض».

«لقد وضع هتلر الدكتاتور النازى الشعوب العربية فى كتاب له «كفاحى» فى ذيل القائمة بين الشعوب، حينما رتبت شعوب العالم حضارياً ترتيباً تنازلياً لأنه كان يعتبر أن الشعوب العربية لا تستحق الحياة فوق الكرة الأرضية التى أراد أن يلعب بها تحقيقاً لأحلامه وتخيلاته».

(١٠١)

ومن الطريف بعد هذا كله أن يقارن مدكور أبو العز بين موقف الرئيسين ـ عبدالناصر والسادات ـ منه فيقول:

«بعد إحالتى إلى المعاش لم يتخذ معى عبد الناصر أى إجراء عنيف كما فعل رئيس جمهورية آخر معى، وكل ما فعله الرئيس عبد الناصر هو أنه أمر بالرقابة علىّ

بإحكام فـى كل تحركاتى، فى الحى الذى أقـيم فيه، أو فى أى مكان آخـر أذهب إليه، ووضع اسمى فى قـائمة الممنوعين من السـفر إلى الخارج. إن ذلك لـم يقلقـنى كثيراً، وكان لمدة محدودة، إنه مع ذلك لم يتخذ معى إجراءات عنيفة كتلك التى اتخذها مع غيرى ممن عارضوه، بل فى كـل المناسبات التى يتغير فيها مـوقعى أو عند الإحالة إلى المعاش، كان يعبر لى عن تقديره لعملى المتميز».

❑

ومع كل حبه وتقديره لـعبد الناصر إلا أنه لا يأخذ عليه تفريـطه فى دعمه فحسب لكنه يعجب لوقوعه فى الأخطاء التى وقع فيها:

«إننى كـمواطن ما كـنت أحب أن يقـع الرئيس عـبدالناصـر فى أخطاء كـان من الممكـن تجنبها، وهنـا أتساءل: لماذا يرتـكب هو أو غيره أخـطاء يمكن تفاديـها؟ ولماذا يضيعون ما قدموه من خدمات لوطنهم هكذا؟ ولماذا لم يرحموا أنفسهم من النزوات التى تؤدى بالوطن إلى الهزائم حتى يرحمهم من فى السماء؟».

❑

ويلـخص مذكـور أبو العـز رأيه فى أحـداث الحركة التـصحيـحية الـتى قام بـها السادات فى ١٩٧١ فى قوله:

«إن ما حدث لا يدل عـلى عبقرية السادات ولا يـكشف عن خيبة جمـاعة مراكز القوى، بقدر ما يدل عـلى أن مصر فى رعاية الله دائما، فقد علا قـدرها وكرمها الله تبارك وتعالى أحسن تكريم فأتى ذكرهـا فى القرآن الكريم فى بضع آيات كريمة، ومع ذلك فقد غيرت ثورتنا المجيدة اسمها بالجمهورية العربية المتحدة وحذف اسم مصر».

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

فى أعقاب النكسة

2

مذكرات الفريق أول

محمد أحمد صادق

دار الخيّال



(١)

للفريق صادق مكانة بارزة جداً فى التاريخ المصرى المعاصر ، وعلى الرغم من أنه يتعرض لانتقادات لا حدود لها إلا أنه فى واقع الأمر خدم وطنه فى مايو ١٩٧١ خدمة جليلة ربما وفرت على هذا الوطن خمسين عاماً على الأقل من الصراعات الدموية بين الفصائل المختلفة من السياسيين والعسكريين ، واعتقادى أن موقف الفريق صادق فى مايو ١٩٧١ يضعه فى مكانة مرموقة بين السياسيين المصريين المعاصرين مهما اختلفنا بعد ذلك على مواقفه الأخرى، ومهما كانت درجات انتقادنا لفكره العسكرى والسياسى والاستراتيجى .

ومن الحق أن الفريق صادق كان بشراً يخطئ ويصيب ، كما أنه كان نتاج المؤسسة العسكرية المصرية بكل ما عانت ولقيت من مؤثرات وتأثيرات طيلة عهد الثورة ، ومن الحق أيضاً أنه كان يجتهد فيما يرى ، وكان يسعى بقدر ما يستطيع إلى أن يبلور اجتهاداته فى آراء وتصرفات ، ومن الحق ثالثا أن رؤيته لم تكن تتمتع بنفس القدر من المزايا العديدة المتاحة للرئيس السادات .. ولهذا كله فإن الفريق صادق اختلف بوضوح مع السادات ، وكان خلافه سابقاً لخروجه من الحكم ، وكان هذا على النقيض من موقف كثيرين غيره (فى القوات المسلحة وفى الصحافة وفى

السياسة) لم نعرف أنهم اختلفوا مع السادات إلا بعد خروجهم ، وإلا بعد يأسهم من عودتهم إلى السلطة رغم كل إنكارهم لهذه الرغبة التى يحترقون بها حتى يومنا هذا.

ومن سخرية الأقدار أن الفريق صادق عانى معاناة شديدة (ولايزال اسمه يعانى) من أقوال نسبت إلى الرئيس السادات ولم تنشر هذه الآراء إلا بعد وفاة الرئيس السادات نفسه ، وقد روج لها من أوذوا (سواء فى مناصبهم أو فى توجهاتهم) بسبب وقوف الفريق صادق إلى جوار الرئيس السادات فى حركة ١٥ مايو ١٩٧١، وقد وجد الفريق صادق نفسه على نحو ما سنرى فى هذه المذكرات مضطراً إلى أن يدفع الهجوم بهجوم ، وهكذا اجتمع على كاهل الفريق صادق أن يهاجم كل الفرقاء المختلفين فهو يهاجم أنور السادات، وجمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، ومحمد فوزى ، وشمس بدران ، ومحمد صدقى محمود ، وسعد الشاذلى ، والاتحاد الاشتراكى ولا مانع أيضا من أن يهاجم أحمد إسماعيل .

(٢)

ينتمى الفريق محمد أحمد صادق إلى بلدة القطاوية مركز أبى حماد محافظة الشرقية، وقد تخرج فى الكلية الحربية عام تسعة وثلاثين (١٩٣٩)، وتدرج فى خدمة القوات المسلحة حتى كان قائدا لحرس قصر رأس التين عند قيام الثورة، وكان من الذين ووجهوا بحصار قوات الثورة لقصر رأس التين فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢، شأنه فى هذا شأن الفريق مرتجى، لكنه كان بالطبع أحدث فى الرتبة من مرتجى.

وليس فى أدبيات السياسة المصرية كثير عن نشاطه الوطنى فيما قبل الثورة إلا فى كتابين الأول هو كتاب «الثائر الصامت» الذى يتضمن مذكرات عبدالعزيز على، وفيه يرد اسم صادق ضمن الضباط الشبان الذين حاولوا الاتصال بهذا الرجل الوطنى العظيم شأن السادات وعبدالناصر وعبداللطيف البغدادى وغيرهم، ويؤثر عبد العزيز على (أبو الفدائيين) أن يصفه بأنه كان «دبلوماسياً» أما الثانى فهو

مذكرات الدكتور ثـروت عكاشة التى يذكر فيهـا أنهما كانا عضوين فى خـلية سرية مبكرة. وفيما عدا هذا لا يظهر للرجل اسم أو نشاط وطنى فيما قبل الثورة أو بعدها.

وقد تدرج الفريق صادق فى مناصب عسكريـة متعددة حتى تولى منصب الملحق العسكرى فى ألمانيـا الغربية، وقبل حرب يونيو ١٩٦٧ بشهور، وبـالتحديد فى حركة سبتمبر ١٩٦٦ وقـع عليه الاختيار ليكون مـديرا للمخابرات الحربية، ومـن العجيب أنه بقى فى مـنصبه هذا رغم كل التغييـرات التى حدثت عقب الحرب، وفى سـبتمبر ١٩٦٩ وقع عليه الاختيار ليكون ثالث مَـنْ تولى منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧، بعد كل من الفريق أول عبدالمنعم رياض والمشير أحمد إسماعيل.

وكانت أقدمية الفريق صادق تقترب به من هذا المنصب، لكن الفارق فى الأقدمية بينه وبيـن الفريق فوزى كان كبيرا نـسبياً ، فالفريق فـوزى تخرج فى ١٩٣٦ ووصل إلى رتبة الفريق أول منذ ١٩٦٤، على حين تخـرج الفريق عبدالمنعم رياض فى فبراير ١٩٣٨، وتخرج المشير أحمد إسماعيـل فى أغسطس ١٩٣٨، وها هو الفريق صادق من دفعة أبريل ١٩٣٨ يصل إلى هذا الموقع المتقدم فى القوات المسلحة المصرية.

(٣)

وفى مايو ١٩٧١ انحاز الـفريق صادق إلى صف السادات فى مواجـهة مَنْ سموا بمراكز القوى، وهكذا عين وزيـرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحـة خلفا للفريق أول محمـد فوزى الذى أودع السـجن فى ذات الوقـت، وقد قيل فـى تفسيـر نجاح السادات فى ١٥ مايو إن الفريق أول محمد فـوزى اعتمد على رئيس الأركان الفريق صادق فـى أن يكون الجيـش فى صف مـجموعة عـلى صبـرى فأدار الفريـق صادق الجيش فـى اتجاه السادات ، وليس مـن شك أن موقف صادق فـى هذا اليوم بالنـسبة لمصر كان أروع من موقـف فوزى بمراحل كثيرة، ولعله فـى هذه الخطوة كان أول مَنْ أوضح الخيار العظيم أمام جيشنا العـظيم، ولو مشى صادق فى الخط الآخر لكانت

سابقة ربما كنا ننتظر السنوات الطوال قبل أن نقضى عليها ، وربما كنا قد دخلنا فى الدائرة المفرغة التى مضت فيها دول كثيرة من أمريكا اللاتينية حتى اليوم.

لكن النجاح [الوظيفى] الذى أحرزه صادق لم يكتمل على نحو يحتفظ له وحده بالمجد ، فقد عين معه فى نفس الوقت رئيس جديد للأركان كان هو اللواء سعد الشاذلى (من دفعة ١٩٤٠)، كما أن سلفه فى رئاسة الأركان (وهو المشير أحمد إسماعيل) أعيد فى نفس الوقت إلى الخدمة مديرا للمخابرات العامة، وبعد شهور قليلة أسند الرئيس السادات إلى وزير الدولة للشئون الخارجية محمد حافظ إسماعيل (وكانت الشائعات والروايات ترشحه لقيادة القوات المسلحة) منصب مستشار الأمن القومى.

وعلى الرغم من أن الفريق صادق نال منصب نائب رئيس الوزراء بسرعة، وأصبح ذا وضع مميز فى جهاز الدولة، فإنه أصبح كما نرى محاطا بعدد لا يستهان به ممن هم مرشحون لخلافته على المدى البعيد أو القصير.

وكان الفريق صادق بطبعه وبظروفه واحدا من الذين يحبون اللمعان والاتصال بالجمهور والصحافة، وقد دفعه هذا إلى أن يقع فى مصيدة الظهور (والمظهرين) ونتائجها الوخيمة.

ويمكن القول بلا مبالغة: إن الفريق صادق أصبح بمثابة أبرز ضحية فى التاريخ المصرى المعاصر للفيروس الإعلامى، وقد اندفع الفريق صادق إلى إبداء آرائه الاستراتيجية علنا، وإلى التعبير عن معتقداته على نحو لم يحدث أبدا فى القوات المسلحة المصرية ولا حتى فى عهد المشير عبدالحكيم عامر الذى لم يكن يهوى ما يهواه صادق بنفس القدر .

ومذكرات محمد حافظ إسماعيل وسعد الشاذلى وعبدالمنعم خليل ومحمد عبد الغنى الجمسى حافلة برواية تصريحات الفريق صادق التى أزعجت كل المعنيين بالشأن الوطنى ولسنا فى مجال تكرارها أو تلخيصها ، لكن لا ينبغى المضى دون الإشارة إلى الأزمات العديدة التى خلقها الفريق صادق وافتعلها وهو وزير للحربية مع الخبراء السوفييت بينما كان السادات يخطط فى دهاء لطريقة أخرى من أجل التخلص من وجودهم بغير هذه الفرقعات التى كان صادق يثيرها من آن لآخر.

وفضلا عن هذا فإن صادق فى تفكيره لخطة الحرب كان على نحو ما عبر الشاذلى والجمسى حريصا على تفاصيل خطة يستحيل علينا بإمكاناتنا فى ذلك الوقت أن نحققها، ولم يكن فى الواقع قادراً على أن يضع تصوراً لتحريك الموقف بما هو متوافر لديه من إمكانات قد تكون محدودة بالنسبة إلى ما يتصوره هو أو ما يتطلبه التحرير الكامل لسيناء.

وبالإضافة إلى هذا فقد كان دائم الخلاف والخلاف الحاد مع رئيس الأركان الفريق سعد الشاذلى، كما كان على نحو ما صور الشاذلى غير قادر تماماً على تحقيق روح الانضباط العسكرى، وهكذا كان لابد أن يترك هذا المنصب، وكان السادات منذ فترة طويلة يعد سلفه فى رئاسة الأركان (أى أحمد إسماعيل) ليخلفه فى منصب الوزير القائد العام، وقد تم هذا للسادات باقتدار لا يقل عن اقتداره فى ١٥ مايو ١٩٧١ إلى حد أن اللواء عبدالمنعم خليل (فى مذكراته) يرى هذه الخطوة من السادات بمثابة ثورة تصحيح ثانية.

(٤)

وقد ابتعد الفريق صادق فى هدوء ، وعاش فى بيته وقريته فى هدوء أيضاً طيلة عهد السادات، ثم بدأت وسائل الإعلام تستهويه بعد وفاة السادات لكنه بعد وفاة الرئيس السادات وجد نفسه فى أسوأ وضع يوجد فيه قائد سابق.

فقد كان سلفه فى الوزارة وهو الفريق فوزى يكرهه كراهة التحريم، لأنه يعتبره مصدر الكوارث التى حاقت به، وقد توجهت كل القوى اليسارية المناهضة للسادات بجزء كبير من عدائها للسادات لتصبه على الفريق صادق بطريقة مباشرة وغير مباشرة . كذلك كان رئيس الأركان الذى عمل مع الفريق صادق وهو الفريق الشاذلى قد قدم صورة قاسية له فى مذكراته التى نشرها سنة ١٩٨٠ وليست أقل الصور فيها أنه ضحية إغراءات السلطة التى جنحت به، فضلا عن تصوير دءوب من الشاذلى لنواحى النقص فى تفكير صادق الاستراتيجى والعسكرى ولروح المؤامرات التى دبرها [أى صادق] ضده [أى ضد الشاذلى] .

أما الصديق السابق لصادق وهو محمد حسنين هيكل، فقد تخلى عن تأييد كل أفكاره التى كانت فى رأى الكثيرين ترديدا أمينا للأفكار التى كان هيكل نفسه يتولى صياغتها، ووصل الأمر بهيكل فى كتابه عن حرب أكتوبر أن يرثى ـ متصنعاً الألم ـ للحالة النفسية والعقلية التى وصل إليها صادق حين أهداه (أى أهدى هيكل) أحد الأدعية التى كتبها بيده وبدأ يرددها بعد خلافه مع السادات ويعتبر هيكل هذا الدعاء بمثابة وثيقة يخصص لصورتها صفحة كاملة من الكتاب وهو يصف مصير صادق بقوله: «ثم تاه فى بحر من التدين والتصوف ثم مرض ومات مقهوراً». وقبل هذا يصف تدينه بشىء من الاستعلاء غير المبرر فيقول: «وقد لجأ إلى نوع غريب من التدين يمتزج فيه التصوف بالاستسلام للمقادير».

وقد نشر هيكل كل هذا وغيره فى كتابه عن حرب اكتوبر بعد ما كان صادق قد توفى فى ١٩٩١ ومن الغريب أن صادق فيما نشر من مذكرات فى ١٩٨٢ كان حريصا على الارتفاع بقدر هيكل ووطنيته وعلى التعبير عن ثقته فيه (!!).

على أن أبرز وأهم وأقسى تشويه لتاريخ صادق كله ولآرائه لم يحدث فى عهد السادات وإنما حدث بعد وفاته بفترة حين جاء أحمد بهاء الدين فى الحلقات التى نشرها فى المصور من مذكراته التى نشرت فيما بعد بعنوان: «محاوراتى مع السادات» وبدا بهاء الدين حريصا على أن ينتقم من الفريق صادق بكل دهاء ممكن فى تاريخ الانسانية مصورا ما يرويه من كلام جيد الصياغة والحبكة على أنه عقيدة السادات» تجاه صادق، ولم يكن السادات على قيد الحياة حتى يمكن الحكم على ما يرويه بهاء الدين عنه [وينسبه إليه] بالصواب والصدق أو عدمه، لكن أحمد بهاء الدين صور نفسه وهو يترافع أمام السادات بالنيابة عن كل الطلاب الذين تظاهروا فى ١٩٧٢ مبديا أنهم كانوا معذورين تماما لأن قائد الجيش نفسه (الفريق صادق) كان يصرح علنا بأننا لن نحارب.. ثم يصور بهاء الدين أن السادات أخذ نفسا عميقا وبدأ هو الآخر يشكو من صادق ومن تقاعسه، إلى حد أن صرح بأنه لولا سعادته بالنصر لكان قد أعدم الفريق صادق جزاء على تقصيره فى أداء واجبه.

وهكذا شُغل صادق عقب نشر أحمد بهاء الدين لهذا الذى نشره فى الهجوم غير المتزن على السادات لينتقم منه فى كل شىء بدءاً من ماضيه قبل الثورة وحتى حرب

أكتوبر المجيدة دون أن يعنى بما هو أكثر إيجابية فى تاريخه العسكرى الطويل، وهكذا أصبح الفريق صادق للأسف الشديد فى أدبيات السياسة المصرية [أو تحول ليكون] بمثابة مجرد عقار من العقاقير المضادة للسادات، وانصرف تماماً (فيما نشر) عن أن يشرح آراءه المتميزة أو الخاصة (ولا نقول الصائبة)، سواء فى التخطيط للمعركة أو التعامل مع السوفييت، أو الحفاظ على الشرعية فى ١٥ مايو وكلها آراء معقولة وإن لم تكن صائبة.

وليس سرا أن كل أنصار مجموعة ضحايا ١٥ مايو كانوا سعداء بأن صادق قاد خطوات نفسه فى هذا الاتجاه فحسب، وأصبح كل تركيزهم على الفقرات التى يهاجم فيها السادات، دون أن يبحثوا عن توجهاته الأخرى أو يتيحوا له التعبير عنها بنفس الدرجة.

وهكذا ظُلم الفريق صادق وظلم هو نفسه كثيرا.

على أن سوء حظ الفريق صادق لم يقف به عند هذا الحد وإنما كان حظه العاثر قد شاء أن يقدم أيضا للمحاكمة فى قضايا التعذيب ، وقد صدر عليه حكم مع إيقاف التنفيذ، وقد روى الدكتور سمير فاضل فى مذكراته تفاصيل الشروع فى اتهام صادق ثم إخراجه من قائمة الاتهام وتصديق الرئيس السادات والمشير الجمسى على أنه لا وجه لإقامة الدعوى الجنائية ضده ، ثم ظهور شاهد « برتبة لواء » فجأة فى أثناء المحاكمات ليشهد بأن الفريق صادق كان يأمر بالتعذيب ، ودعم شهادته شاهد ثان مما استدعى توجيه الاتهام إلى الفريق صادق وتعرضه للمحاكمة ، وبهذا كان الفريق صادق بمثابة وزير الحربية الوحيد الذى تعرض للمحاكمة فى قضية جنائية أما سلفاه الفريق فوزى وشمس بدران فقد حوكما فى قضيتين سياسيتين .

❑

ومما يروى أنه بعد تقاعد الفريق صادق عرضت عليه قيادة الجيش الليبى [فى إحدى موجات العداوة التى كان يبديها الرئيس القذافى ضد الرئيس السادات] ولكنه اعتذر، ونستطيع أن نقارن سلوكه هذا بما فعله الفريق سعد الشاذلى حين تنقل فى المنفى بين بعض بلاد عربية وأجنبية ومنها الجزائر وليبيا، ووصل الأمر بالفريق الشاذلى فى أبريل ١٩٨٦ أن يكتب عن الهجوم الأمريكى فى خليج سرت تحليلات

عسكرية جعل عنوانها « المكاسب السياسية الليبية تبرر الخسائر العسكرية الطفيفة» وهى فلسفة قريبة من الفلسفة التى يتناول بها بعض المزورين هزيمة ١٩٦٧ على أنها انتصار لما نتج عنها من بقاء النظام حتى وإن ضاعت الأمة والوطن والأرض.

(٥)

على الرغم من أن مذكرات الفريق محمد أحمد صادق لم تنشر كاملة حتى الآن لا فى كتاب كامل ولا فى مسلسلات صحفية إلا أن أجزاء كثيرة منها قد نشرت وهى لحسن الحظ الأجزاء التى تتناول أهم الأحداث التى عاصرها الرجل ولكنها موزعة على أكثر من موضع، وقد بدأ نشر هذه المذكرات كمذكرات موقعة باسم صاحبها وضمن أحاديث صحفية عقب وفاة السادات مباشرة، وسنعتمد فى هذا الباب على ما نشر فى أربع صحف أتيحت لنا من المواضع العديدة التى نشر فيها الفريق صادق آراءه :

(١) جريدة الشعب فى مايو ١٩٨٢ وهى صفحات من مذكراته كتبها بضمير المتكلم، وقد نشرت على حلقتين مطولتين، وتمثل أوفى المذكرات من حيث تعرضها بالتفصيل التام والدقيق لرؤية وذكريات الفريق صادق فيما يتعلق بالفترة الأولى من حكم الرئيس السادات بما فيها التفاصيل الدقيقة لأحداث مايو ١٩٧١ .

(٢) جريدة الشرق الأوسط فى يونيو ١٩٨٧، وهو أوفى الأحاديث من حيث تعرضه بالتفصيل التام لرؤية وذكريات الفريق صادق فيما يتعلق بمقدمات وتوابع الهزيمة فى ١٩٦٧ ، وقد أجراه الأستاذ حمدى لطفى.

(٣) حديث مطول أجراه الأستاذ أحمد حسن عبدون ونشر فى مجلة الشباب عقب وفاة الفريق صادق مباشرة فى مايو ١٩٩١ تحت عنوان : «الشهادة الأخيرة». «أكدت كمدير للمخابرات عدم وجود حشود إسرائيلية على سوريا فكذبونى وكانت شرارة حرب يونيو».

(٤) وبالإضافة إلى هذا فقد أدلى الفريق صادق بذكريات مهمة لجريدة الأحرار احتفظت بنصوصها دون أن أحتفظ فى ذات الوقت بتاريخها على وجه التحديد .

ومن المهم أن نذكر للقارئ أنه فى الحديث الذى نشر فى «مجلة الشباب» مباشرة

أكد الفريق صادق ما شاع من حرصه على تأجيل نشر مذكراته الكاملة إلى ما بعد وفاته، وقد قدم سببا تقليديا ـ وغير مقنع فى ذات الوقت ـ لهذا الحرص فى قوله:

«لأنها ستمس كثيرا من الأشخاص الذين أرتبط ببعضهم بصداقات أعتز بها، وربما ترتب على النشر مساس بهذه الصداقات فأتمنى ألا يغضبوا منى، وأطالبهم بأن يردوا على ما كتبت ويذكروا الحقيقة إذا كانت مخالفة لما قلته.. لقد انتهيت فعلا منها، وأعتقد أنها ستكون بين أيديكم قريبا، حيث أشعر حقيقة باقتراب الأجل لأننى أمر بظروف صعبة، وصحتى تتدهور بشدة، بحيث أقضى يوماً فى المنزل وأياماً فى المستشفى فى رعاية الأطباء».

(٦)

نبدأ مع نصوص المذكرات المتاحة فى أيدينا بالحديث عن الفترة التى وقعت فيها حرب ١٩٦٧ :

والواقع أن الفريق صادقه يتصدى للاتهامات التى وجهت إلى إدارة المخابرات الحربية تحت رئاسته فيما يتعلق بقصور عمل هذه المخابرات فى استطلاع إمكانات وتحركات العدو الإسرائيلى، وسنرى الفريق صادق يصرح بما لم يصرح به غيره من أن السوفييت تولوا فيما بعد الهزيمة تقييم أداء المخابرات الحربية، وهو يذكر أن السوفييت تعاطفوا مع المخابرات، لكنه لا يدلنا على صورة هذا التعاطف، كما أنه يشير إلى أن عمل اللجنة قد أحيط بالكتمان، وذلك على الرغم من أننا نعرف أن الفريق مرتجى اطلع على هذه التقارير، وعلق عليها فى مذكراته على حسب ما تناولنا فى الباب الثانى من كتابنا «الطريق إلى النكسة».

وهذه على كل حال الفقرة التى يتحدث فيها الفريق صادق لجريدة الشرق الأوسط عن هذه الجزئية:

«توليت إدارة المخابرات الحربية قبل وقوع الهزيمة بثلاثة أرباع العام، عملية التسليم من المدير السابق والوقوف على حقائق العمل فى فروعها تستغرق ستة أشهر

على الأقل، وأستطيع أن أقول فى شهادتى بكل الطمأنينة إن رجال المخابرات الحربية المصرية قاموا بواجبهم فى الحصول على المعلومات الكافية عن الجيش الإسرائيلى ونواياه، وحجم قوات العدو، وأوضاعه، وتحركاته المحتملة».

«والدليل على صحة هذا الكلام ما حدث بعد الهزيمة مباشرة ـ وهو ثابت فى أوراق المخابرات التى تحتفظ بها كوثائق ـ لقد جاءت إلى مصر لجنة عسكرية روسية برئاسة المارشال زخاروف فى يوليو ١٩٦٧، واجتمعت مع لجنة مصرية للتحقيق فى أسباب النكسة، وظل عمل اللجنتين محاطاً بالكتمان حتى اليوم، وتعرض خلاله السوفييت لدور المخابرات المصرية، ووضعنا أمامهم صور تقارير المعلومات التى قدمناها وزمن إرسالها، وهى تقارير يومية وأسبوعية مدعومة بتحليل من جانبنا... وتعاطف معنا السوفييت».

على أن الفريق صادق يفضل أن يلقى باللوم على أجهزة الاتحاد الاشتراكى فيما يتعلق بما أشيع عن جهل المخابرات بالعدو، ونحن نلاحظ أن الفريق صادق لا يعمد إلى التفريق بين المخابرات العامة والمخابرات الحربية، لكنه يؤثر أو يستسهل الجمع بينهما معا تحت اسم مخابرات مصر. لكن صادق مع هذا يؤكد أن الهدف من هذه الشائعات كان إبعاد مسئولية الهزيمة عن الرئيس عبد الناصر والقيادة السياسية ، وهو يقول:

«... لكن الأجهزة السياسية كالاتحاد الاشتراكى ظلت تشيع أن مخابرات مصر لم تكن تعرف شيئا عن العدو، وأن مخابرات مصر لم تكن تعمل فى غير مراقبة المصريين وعلاقاتهم الخاصة، وردد بعض الكتاب المصريين هذه النغمة غير الصحيحة، بهدف تعليق الهزيمة على كباش فداء بعيدا عن عبد الناصر والقيادة السياسية، ورددت الجماهير أيضا هذه الافتراءات وأطلقوا «النكت» سخرية وتندرا بالجيش المصرى».

ربما نتوقف هنا لنشير إلى أن بعض مَنْ رددوا مثل هذه الأقوال كانوا يلقون بالمسئولية أيضا على عبدالناصر ولا يعفونه من المسئولية عن الهزيمة بل وانحراف المخابرات كذلك.

(٧)

ويمضى الفريق صادق فى هذا الطراز من الدفاع " الظاهرى " عن المخابرات الحربية فيذكر واقعة لا يحدد تاريخها ولا شهودها، لكنه يركز فيها على أن عبد الناصر راجع بنفسه كمية المعلومات التى قدمتها المخابرات الحربية قبل حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، وأجرى مقارنة بينها وبين التقدير الخارجى فوجد تطابقا كبيرا، وهنا يقفز صادق مباشرة إلى القول بأن عبد الناصر بناء على هذه الواقعة أصدر توجيهاته للقادة بألا ينالوا من المخابرات الحربية بالانتقادات.

ومن العجيب أن تصدر مثل هذه الأقوال المرسلة عن مدير المخابرات الحربية الذى هو فى تصورنا معنى بالتدقيق الشديد وبالموضوع ، وهو نفسه الذى تحدث ذات مرة فى أثناء حرب الاستنزاف عن أن بإمكان المخابرات الحربية تحديد مواقع العدو بالشعرة!! وكأنما كل المطلوب من المخابرات الحربية أن تحقق مستوى من المعلومات يتناظر مع ما تتناثر به نصائح الأصدقاء الأجانب فحسب.

ومن العجيب أن روايات الفريق صادق لا تعرض ولا تعدد إنجازات بارزة قامت بها إدارة المخابرات كى ترد على ما أشيع عنها ، ويقع الفريق صادق فى هذا التقصير الواضح على حين تتوافر إشارات كثيرة إلى قصور المعلومات التى أتاحتها المخابرات فى أدبيات السياسة فيما كتبه كل من الدغيدى، ومرتجى، والحديدى، ومدكور، وفوزى، وصدقى محمود، وأنور القاضى، والجمسى، والشاذلى وعبدالمنعم خليل وغيرهم .

ومع هذا فلنقرأ هذا النص الذى يقدمه لنا الفريق صادق عن واقعة مجهلة الأسماء والتاريخ عن قصد:

«بل إن بعض القادة العسكريين عام ١٩٦٨ أراد استغلال «قصة» الحجم القليل البسيط الذى تمدهم به المخابرات المصرية عن العدو [ويلاحظ القارئ هنا من رواية صادق نفسه أن الشكوى من إدارة المخابرات وعلى مستوى القادة كانت لا تزال موجودة حتى ١٩٦٨] ورأى عبد الناصر القضاء على هذه الحكايات عمليا فى أحد

الاجتماعات العسكرية التى عقدت برئاسته بعد عام على الهزيمة [هكذا توحى الرواية بتعاطف الرئيس عبد الناصر مع المخابرات الحربية قبل أن يبدأ التحقيق والتمحيص ، وهو الأمر المستبعد حدوثه من قائد أعلى] فطلب تقرير المعلومات الذى حصلت عليه مصر بعد النكسة من خلال عدة مصادر غير مصرية، عن أوضاع القوات الإسرائيلية طوال الأيام الأولى من يونيو ١٩٦٧ حتى بدء العمليات الحربية».

« ثم طلب تقرير وخريطة المعلومات عن سيناء التى قدمتها المخابرات المصرية صباح يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ ، تلك التى نوقشت فى الاجتماع العسكرى الشهير الذى عقد برئاسة عبد الناصر مساء ذلك اليوم، وأعلن فيه عبد الناصر أن معلوماته التى حصل عليها شخصيا من مصادر دولية كبيرة كالهند تؤكد هجوم إسرائيل يوم ٤ أو ٥ يونيو، وجرت المقارنة بين تقديرنا والتقدير الخارجى، فوجدوا تطابقا كبيرا، أسكت الذين يرددون حكاية ضعف المعلومات بين القادة العسكريين على الفور، وقال عبد الناصر: لا تظلموا المخابرات الحربية».

والسؤال بعد هذا : هل يظن الفريق صادق مثل هذه الرواية كافية لنفى ما يريد نفيه أو إثبات ما يريد إثباته ؟

(٨)

ويؤثر الفريق صادق أن يتهم زملاءه من القادة الذين كانوا يتولون قيادة قواتنا المسلحة قبل حرب ١٩٦٧ بالعبث والاستخفاف، بل يصل إلى أن يذكر أنه لم يكن لديهم إلا الهزل فقط، ومع أن صراع القيادات مع بعضها ليس هزلا بل هو عمل له آثاره السلبية إلا أن الفريق صادق يؤثر هذا اللفظ بالتحديد لوصف سلوك زملائه:

«فالصراعات المقنعة كانت فى قمتها تلك الفترة ما بين ١٩٦٦ حتى ١٩٦٧، ورأيى أنهم تعاملوا مع خطورة المعلومات التى تضمنتها تقاريرنا باستخفاف ونظرة غير جادة، ولم يكن لديهم غير الهزل فقط!».

ويقدم الفريق صادق أمثلة يعدها كافية للدلالة على جهد المخابرات الحربية

بقيادته، ومن المدهش أننا لو شئنا تصديق الفريق صادق فى كل ما يرويه عن المعلومات التى أتاحها لوصلنا إلى أن هذه المعلومات كلها كانت أقل مما ينبغى توفيره للجيش المحارب، فلا هو تحدث عن مدى الطائرات، ولا عن قنبلة الممرات، ولا عن تشويش الرادارات، ولا عن إمكانات الدفاع الجوى.. إلخ، مما تناولناه عند مدارستنا لمذكرات أخرى من أمثلة القصور الاستطلاعى التى أصابت أداءنا العسكرى كله فى مقاتل عديدة:

«لقد تحدثنا فى تقاريرنا حتى ما بعد ٢ يونيو ١٩٦٧ عن حجم وتسليح القوات الإسرائيلية على محور رفح والعريش وكوم أبو سالم، ثم تجميع العدو فى أبو عجيلة، والمنطقة الوسطى وبير سبع. وذكرنا تفصيلا أشكال تجميع هذه القوات العدوة وحجمها ابتداء من مجموعة عمليات حتى تشكيل لواء، وهل هو ميكانيكى أو مدعم حتى مستوى الكتيبة، وأين تتمركز قوات الاحتياطى التعبوى للعدو والقوات الاحتياطية الاستراتيجية، بل أشرنا إلى التحركات الخداعية والهيكلية واتجاهاتها على المسرح، وحللنا اتجاهات القوات الإسرائيلية الرئيسية حين تقوم بالهجوم واتجاهاتها الفرعية».

(٩)

ولست أستطيع أن أزعم بأنى أكاد أقتنع ـ ولو قليلا ـ بدفاع الفريق صادق عن نفسه كمدير للمخابرات الحربية فيما يتعلق باتهامات زملائه، ذلك أن الفريق صادق فى فقرة تالية يحاول أن يستشهد على جهده بفقرات من تقاريره، فإذا هذه الفقرات كافية ـ تماماً ـ لإدانته، ولنتأمل على سبيل المثال التقرير الذى تشير إليه الفقرة التالية، فهو يبدو شأن الأطباء الشبان قليلى الخبرة حريصاً على ذكر كل التشخيصات الممكنة حتى لا يتهم فيما بعد بأنه فاته تشخيص من التشخيصات، ولنتأمل هذا المثل الذى آثر الفريق صادق التعبير به عن كفايته، بينما التقرير مربك ويستدعى من القوات المسلحة المصرية توزيع جهدها على المحاور الثلاثة المتاحة، فما جدوى الاستطلاع والمخابرات إذن، أليس هو الذى يقول:

«وقلت فى أحد التقارير: «إنه بالرغم من أن الحشد الإسرائيلى الرئيسى فى اتجاه المحورين الشمالى والأوسط إلا أنه لا يستبعد تحويله إلى المحور الجنوبى».

❑

بل إن الفريق صادق فى استشهاد تال يصل فى تقاريره إلى الاكتفاء بترديد البدهيات، وربما لم يكن المسئولون المصريون يومها يقدرون مثل هذه البدهيات، لكننا نعجب من أن يكون مثل هذا الاستنتاج الذى يسهل الوصول إليه بمثابة «كل» إنجاز مدير المخابرات الحربية:

«كما جاء فى تقرير آخر بعد سحب قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة من شرم الشيخ، أن إسرائيل لن تسكت، وأن إغلاق مضيق العقبة أمام إسرائيل سيدفعها إلى التحرك عسكريا وصباح يوم ٢ يونيو قلت فى نهاية تقريرنا: «لقد استكملت إسرائيل ما بين ٢٨ مايو حتى ٢ يونيو استعداداتها الحربية للهجوم، وإن الصورة التى قدمناها تنطق بحتمية الهجوم واتجاهاته».

يورد الفريق صادق هذا النص ويردفه مفتخرا بقوله :

«وثبت عمليا بعد ذلك سلامة وصحة تقديراتنا ومعلوماتنا».

(١٠)

ويبدو الفريق صادق بعد هذا مصابا بداء المديرين المصريين الذين يحصرون الأخطاء فى أداء منطقة معينة لا لشىء إلا لأنهم كانوا من الأساس يكرهون المسئول عن هذه المنطقة، فهذا هو الفريق صادق حريص على أن يبدو متزنا فإذا هو يبدأ فى الإشارة إلى بعض الثغرات، فلا يجد فى أخطاء إدارته إلا أخطاء المسئولين عن منطقة غزة، وكأن هذه الأخطاء بالذات كانت هى المسئولة عن كل هذه الهزيمة، ويبدو صادق فى هذا الموقف نموذجاً لمن ينطبق عليه الوصف الشائع فى كتابات الأدباء الانجليز حين يصفون الرجل بأنه لا يريد أن يكون كبيرا:

«غير أن الواجب يقتضى منى الإشارة إلى بعض الثغرات».

«ولكن رجال المخابرات الحربية بغزة فشلوا فى كشف تحركات العدو التى جرت جنوب إسرائيل، ..... الخسارة هنا تتمثل فى الوقت، وكان هناك فرع حديث للاستطلاع البرى يتبع قيادة القوات البرية لم ينجح فى دوره لحداثة تكوينه وتقييد استخدامه ما قبل ١٩٦٧، على أساس حالة السلم السائدة بين مصر وإسرائيل».

❑

ومن الطريف أن صادق يمرر علينا بسهولة فكرة أن ضباط الاستطلاع - الذين هم مرءوسوه وهو مسئول عن مستواهم واختيارهم واستمرارهم - كانوا قليلى الخبرة بالدروب التى ساروا فيها، ومن ثم فقد أمكن للاسرائيليين القبض على السيارة التى كانت تقلهم والتى كانت حافلة بالخرائط والأسرار:

«وقد قبض العدو على عربة مصرية بها بعض ضباط الاستطلاع المصرى بعد أن توغلوا فى دروب خاطئة نتيجة قلة الخبرة بهذه الأرض المحتلة».

❑

على أن الفريق صادق نفسه فى موضع آخر من هذه المذكرات يشيد صراحة بأداء رجال المخابرات الحربية فى فرعى العريش وغزة، ويصف المعلومات التى توصلوا إليها بأنها كانت صحيحة بنسبة ١٠٠٪، على حين لم تأخذ القيادة الجوية - على حد تعبير روايته - بهذه المعلومات:

«وهناك بعد ذلك جهود رجال المخابرات الحربية فى فرعى العريش وغزة ما قبل العمليات وطوال اليوم الأول والثانى للحرب، والذين قدموا لنا شرائط خطيرة من المعلومات حددت أمامنا بوضوح أسلوب الضربة الجوية الإسرائيلية صباح ٥ يونيو ورسمت أشكال نتائج هذه الضربة، وثبت صحة هذه المعلومات بنسبة مائة فى المائة، إلا أن القيادة الجوية المصرية التى تصرفت بشكل انفصالى مستقل بالعمل، منعزلا عن المخابرات الحربية نتيجة الصراعات بين القادة، رفضت الاهتمام بمعلوماتنا أو الأخذ بها كما تأكد من خلال التحقيقات التى أجريت بعد الهزيمة واستمرت إلى عام ١٩٦٨».

(١١)

والشاهد أن الفريق صادق بعد هذا الدفاع «الشوفونى» يتناول فى مذكراته جزئية فى غاية الأهمية، ويكاد يكون منفردا بالحديث عنها، وهى أن الاستطلاع الحربى المصرى نفسه كان يتوزع تبعا لمناطق النفوذ التى يتمتع بها القادة الكبار !! ، ومع صعوبة تصور أن يصل تنازع القادة مع بعضهم إلى هذا الحد المشين والقاتل، فإننا نقرأ رواية الفريق صادق على عهدته، لكننا مع هذا لا نستطيع تمريرها على علاتها، لأننا نجد الفريق صادق على حد روايته متمكناً من القدرة على تحديد الصواب من الخطأ فيما حصلت عليه قوات الاستطلاع الجوى، وكأن لم يكن للاستطلاع الجوى نفسه فائدة ولا جدوى، لأن إدارة المخابرات كانت تعرف ما لا يعرفه، بل وكانت ـ على حد رواية صادق نفسه ـ تعرف حقيقة ما يقدمه فى صورة خاطئة، ولست أجد تعبيرا عن روح التنافس القاتل أبلغ من هذا الذى يرويه الفريق صادق:

«كان [أى الاستطلاع الجوى] يملك إمكانيات هائلة، ففرضوا عليه القيود كما فرضوا عليه عدم التعاون مع إدارة المخابرات الحربية، لأن صدقى محمود رجل عامر، وصادق رجل عبد الناصر كما كانوا يرددون فى بداية ١٩٦٧، ولم أسكت بل ألححت عدة مرات على ضرورة طلعات الاستطلاع الجوى، فقاموا بطلعتين فقط قبل العمليات الحربية، ثم قدموا لنا معلومات مغلوطة للأسف، لا أعتقد أنها عن عمد ولكن عن جهل واستخفاف بالأمر. قدموا صورا لمنطقة العقبة الأردنية وقالوا إنها إيلات، وصورا لبير سبع وذكروا أنها منطقة العوجة، وهذه المعلومات رغم فسادها حصلنا عليها من القيادة العامة التى تتسلم حصيلة عمل فروع الطيران ثم تبعث بها القيادة إلينا أو تتجاهلها!».

❑

وعلى الرغم من هذا فإن الفريق صادق ينفى أن يكون الاستطلاع الجوى قد أخطأ عن عمد، [وذلك ردا على سؤال للأستاذ حمدى لطفى] ، وهو يؤثر التشخيص بالاستخفاف، ويدلل على رأيه هذا بمثل خطير يرويه عن قيام الطيران الجوى بقصف مطار إسرائيلى هيكلى:

«صور الاستطلاع الجوى مطارا إسرائيليا هيكليا وهو مطار «الخالصة» يستخدمه الطيران الإسرائيلى للتدريب عليه بالذخيرة الحية، وقال قراء الصور إنه مطار حربى، وقام الطيران المصرى بطلعة جوية لقصفه ثم تبينت القيادة خطأ المعلومات الواردة إليها.. هل كان يمكن أن يضللوا أنفسهم؟».

(١٢)

سنرى فى الباب الثالث من هذا الكتاب كيف ينكر الفريق أول محمد صدقى محمود أن لقاء عبد الناصر بقادة القوات المسلحة فى ٢ يونيو ١٩٦٧ كان فى الأصل اجتماعا مرتبا من قبل، مؤثرا أن يصفه بأنه كان لقاء بالمصادفة، وغير مرتب على نحو ما سنرى فى الباب الثالث من كتابنا هذا، وعلى النقيض من هذا الرأى فإننا نجد الفريق أول محمد أحمد صادق يتحدث عن هذا الاجتماع بصورة أخرى، وإن كان يعود ليؤكد صدق رواية صدقى محمود فيما يتعلق بموقفه ـ أى موقف صدقى ـ المعارض لفكرة تلقى الضربة الأولى، وليؤكد أيضا أن عبدالناصر أوحى ، بل وصرح بأن الأمور تسير فى طريق الحل السلمى:

«هذا الاجتماع سجلوه بالصوت والصورة، وتحفظه القيادة العامة بين وثائقها، وهو اجتماع رسمى تحدد موعده من قبل ولم يكن مصادفة، ربما اختلطت الصورة على الفريق صدقى محمود بعد أن قضى ٦ سنوات بالسجن، وقد اشتركت فيه كمدير لإدارة المخابرات الحربية وقدمت به تقريرا مزودا بخريطة تبين توزيع القوات الإسرائيلية، وجاء بالتقرير أن العدو يستطيع أن يبدأ الهجوم فجر يوم ٣ يونيو، أى بعد ساعات، أو فجر ٤ يونيو على الأكثر، وعلق عبد الناصر بصوت مسموع وهو يقرأ التقرير قائلا: «المرجح أن إسرائيل ستهجم يوم ٥ يونيو»، كما طالب عبد الناصر بتقوية الدفاعات المصرية فى منطقة رفح لمواجهة تجمع ضخم للعدو (ثلاث مجموعات عمليات) عند مثلث رفح ـ العريش ـ أبوعجيلة!».

«صحيح أن صدقى محمود اعترض على انتظار الضربة الجوية الإسرائيلية الأولى

ليقوم بالضربة الثانية، ودار نقاش حول خسائر الانتظار، وصحيح أن عبد الناصر قال: «إنه يعمل لحل الموقف سلميا وإنه سيرسل زكريا محيى الدين إلى واشنطن بعد أن اتفق معهم».

(١٣)

وبعد أن يقر الفريق محمد أحمد صادق بهاتين الجزئيتين فإنه يستدرك مباشرة بأن هذا كله لم يكن يعنى الاسترخاء، لكن المذهل بعد استدراكه أن الفريق صادق نفسه يذكر بكل وضوح أن خطته هو فى التحسب للحرب كانت تركز على تجنب المفاجأة بإخلاء مطارات سيناء الأمامية المتقدمة!

ولا ينبغى لنا أن نزعم أن بإمكاننا الحكم الصائب أو السليم على مدى جدوى مثل هذه الخطوة لو صحّ أن الفريق صادق كان قد اقترحها بالفعل، فقد رأينا من واقع المعركة نفسها أن يد إسرائيل الطويلة قد طالت كل مطاراتنا بما فيها المطارات الداخلية، وذلك بفضل المدى الطويل لطائرات العدو، وهو المدى الذى أخطأت المخابرات الحربية فى تقديره على نحو ما فصلنا القول عند مدارسة مذكرات اللواء عبدالحميد الدغيدى .

وهكذا فإن خطة الفريق صادق كانت لا تتيح إلا نقل الطائرات لتُضرب فى بنى سويف (مثلا) بدلا من ضربها فى سيناء فحسب، ومع هذا فمن الضرورى أن نقرأ تصوير الفريق أول محمد أحمد صادق لوجهة نظر قائد القوات الجوية الفريق أول صدقى محمود المعارضة لرؤيته وخطته، أما المذهل مرة ثانية وبعد هذا كله فهو أنه لم يكن هناك من القادة ممن هم أكبر من الرجلين مَنْ تولى المفاضلة بين خطتى الرجلين اللذين كانا يقودان سلاحين خطيرين هما القوات الجوية والمخابرات الحربية:

«... لكن ليس معنى ذلك أنه لا حرب، وعلينا الاسترخاء والركون إلى الطمأنينة، والدليل على وضوح هذا الفهم (يقصد وضوح الفهم فى ذهنه هو) أننى اقترحت على المشير عامر بحضور صدقى محمود إخلاء مطارات سيناء الأمامية المتقدمة بعد أن تعذر علينا تجنب المفاجأة المتوقع حدوثها خلال ساعات كتقديرى أو

يومين كتقدير عبد الناصر، وأيد المشير عامر هذا الاقتراح، لكن صدقى محمود اعتذر عن تنفيذ اقتراحى، وقال غاضبا: إننى أفهم عملى جيدا، ويجب أن تعرف ياصادق أن إخلاء المطارات المتقدمة سيقضى على الروح المعنوية للطيارين!».

(١٤)

والحاصل أن الفريق صادق فى موقع تال من هذه المذكرات يصرح بما لا يقبل أى تلميح أو تفسير بأن الرئيس عبد الناصر نفسه بعد مساء ٢ يونيو كان قد توصل إلى الاقتناع بأنه لن تقوم حرب وذلك بناء على نتائج اتصالاته السياسية الدولية:

«ورأيى أن عبد الناصر اقتنع بهذا الرأى (أنه لا حرب وأن الموقف سيحل سلميا) بعد مساء ٢ يونيو من خلال دائرة اتصالاته السياسية الدولية، خاصة مع واشنطن قبل موسكو».

❏

وهكذا نستطيع دون ذكاء كثير أن نستنتج أن اجتماع عبد الناصر بقادته العسكريين كان مخترقا من مخابرات معادية ـ أيا كانت ـ وبحيث كانت الجهود الدولية المنظمة والمنسقة تبذل لتطمين عبد الناصر إذا ما بدأ الرجل ينتبه إلى احتمال الحرب ويستعد لها، وربما تكشف لنا الأيام عن أدلة تثبت الاتهام على صاحب هذا الدور الخفى الذى أودى بأمته كلها إلى هذه الهاوية السحيقة.

ومن المؤكد أن جهودا دولية شارك فيها السوفييت كانت تتكثف من أجل شل حركة عبد الناصر ومصر والعرب فى اللحظات الأخيرة، وذلك من أجل تمكين إسرائيل من نصر أكيد، وهكذا فإنه ما إن عاد عبد الناصر من اجتماعه الذى رفع فيه درجة الاستعداد ونبه وحذر بما توافر لديه من معلومات من دول صديقة كالهند إلا ونقل هذا التصرف والتوجه بواسطة عميل إلى الدول المتآمرة، فإذا بالجهود تبذل لتحويل المسار، وإذا بعبدالناصر نفسه يبدأ فى الاقتناع منذ مساء ٢ يونيو بأن الموضوع سيحل حلا سلميا، وأن مبعوثه (أو نائبه) سيستقبل فى واشنطن بينما الاستعدادات لتدمير قواتنا تجرى على قدم وساق.

(١٥)

ويؤكد الفريق صادق فى هذه المذكرات فكرة نفى حدوث الحشود الإسرائيلية على سوريا، لكن الجديد فى رواية الفريق صادق حرصه على توريط كل من المشير عامر والفريق محمد فوزى فى تبنى السلوك الرافض لمعلومات المخابرات الحربية والأخذ بمعلومات المصادر الأخرى، ومع أن الفريق فوزى نفسه ينفى حدوث الحشود ويذكر فى مذكراته أنه طار بنفسه إلى سوريا وتأكد من عدم وجود الحشود، إلا أن الفريق صادق حريص على أن يضمه هو والمشير عامر إلى الذين أكدوا وجود الحشود .

بل إن الأكثر من هذا على نفس الخط أن الفريق صادق يستغل هذا الموقف[فى فقرة سنوردها فيما بعد] ليضم إلى هؤلاء المروجين للحشود عدوه [الجديد] الرئيس السادات، مع أن السادات كان مجرد ناقل لرسالة السوفييت فى هذا الصدد فحسب، ولم يكن بيده، ولا فى سلطته، ولا فى مسئوليته أن ينفى وقوع الحشود وهو لا يملك فى هذا المجال غير عينه المجردة.

والحاصل أن الفريق صادق لا يمضى فى طريق الاتهامات إلى نهايته، وإنما هو يذكر ـ ناسبا إلى نفسه الفضل ـ أنه نبه الرئيس عبد الناصر والمشير عامر بصوت مرتفع إلى عدم وجود الحشود، وأن جمال بركات ومحمد فوزى سافرا بالفعل إلى سوريا وتأكدا من عدم وجود الحشود، بل يضيف صادق ما يعترف به أن الاستطلاع الجوى المصرى قد توصل هو الآخر إلى نفس هذه المعلومات، ولكن القيادة السياسية رغم كل هذا حشدت قواتنا فى سيناء.

❑

وفى النهاية يلتفت الفريق صادق إلى المفارقة التى تمثلت فى أن سوريا لم تحشد حشودها إلا بعد أن تأكد لها الحشد المصرى:

«جميع التقارير التى وردت إلينا كجهاز مخابرات نفت أى حشد إسرائيلى على حدود سوريا، لكن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية ممثلة فى المشير عامر

والفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان وشمس بدران وزير الحربية رفضت معلوماتنا وأخذت بمعلومات حصلت عليها من مصادر خارجية تتعامل معها بالأجر ولا يستبعد أن تكون هذه المصادر تعمل سرا لحساب المخابرات الأمريكية أو الإسرائيلية أو الروسية فى الوقت ذاته، وأكدت هذه المصادر وجود العدو أمام سوريا وانساق معهم أنور السادات» .

« وحرصا منى على وضوح الموقف أصدرت الأوامر لمكتب المخابرات المصرية فى سيناء بإرسال بعض الفلسطينيين الذين يتعاونون معه إلى حدود سوريا عبر الأرض المحتلة للاستطلاع بالنظر، فعادوا يؤكدون: لا حشود، وارتفع صوتى أمام عامر ومحمد فوزى وعبد الناصر بالحقيقة، فقرر الفريق محمد فوزى إرسال العميد جمال بركات من ضباط المخابرات الذين يثق بهم إلى سوريا، ثم قرر أن يسافر معه، وعاد الاثنان يؤكدان أنه لا حشود إسرائيلية كما تدعى موسكو» .

« وعرفت أيضا أن الاستطلاع الجوى المصرى أكد معلوماتنا أيضا، وواقع الأمر أنه لم يكن هناك مبرر استراتيجى أو تكتيكى لمثل هذه الحشود» .

« ورغم كل هذه التأكيدات وافقت القيادة السياسية العليا فى مصر ومعها القيادة العسكرية على حشد قواتنا المسلحة فى سيناء» .

« ومن المثير أن سوريا أذاعت نبأ الحشود الإسرائيلية أمامها بعد أن تأكد لها حشد القوات المصرية، وحشد القوات الإسرائيلية الحقيقى أمام قواتنا ! ! ».

(١٦)

ومع أن الفريق صادق لا يقدم نظرية متكاملة يحدد من خلالها دور الأمريكيين والسوفييت فى التآمر على مصر، إلا أنه لا يغفل الإشارة إلى اعتقاده فى صواب فكرة التآمر:

«وأعتقد أن الأمر كله يمثل حلقة من حلقات النشاط السياسى الأمريكى

والروسى معا والصراع الدولى بينهما وحلقات التسابق بين القيادتين السياسية والعسكرية فى القاهرة، وأهدافا سرية لكل منها، وتحملت مصر النتيجة والخسائر الفادحة التى لم يكن يتوقعها أحد».

❑

وتنفرد مذكرات الفريق صادق بمناقشة واقعة تقديم إسرائيل للولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الوثائق العسكرية المصرية تضمنت أدلة قاطعة على انتواء مصر الهجوم على إسرائيل، ويتحدث الفريق صادق عن خطورة هذه الجزئية، وخلفياتها فيقول:

«أخطر ما فيها أن إسرائيل قرنت معلوماتها بوثائق عسكرية مصرية، وهذا حدث فعلا للأسف.. إنها قصة العربة العسكرية التى أمسكوا بها وبداخلها ثلاثة ضباط مصريين توغلوا فى دروب الأرض المحتلة رغم عدم خبرتهم الجيدة بهذه الأرض، وقد أشرت إليها وأنا أتحدث عن الاستطلاع البرى الوحيد عام ١٩٦٧ قبل الحرب، كان مع ضباطنا خرائط عسكرية دونوا عليها معلومات ذات أهمية وسرية، إلى جانب المعلومات التى أدلوا بها بعد تعذيبهم، وسجلتها إسرائيل بالصوت، ثم قدمت هذه الخرائط والتسجيلات إلى أمريكا لتدلل على نوايانا التعرضية لها، أى الهجوم عليها، وحصلت على تأييد حكومة واشنطن لكى تبدأ هى الحرب!».

(١٧)

ويحرص الفريق صادق على أن يعبر عن أنه يشارك الناس حيرتهم وتفكيرهم فى أهمية تحديد المسئول عن هزيمة ١٩٦٧، وهو يوحى بأنه هو نفسه يعانى من تشابك وتناقض المعلومات والتحليلات:

«كلنا جميعا نريد حكما واضحا صريحا حاسما عادلا، وللأسف لن نحصل على هذا الحكم إلا بتوافر شرائط معلومات متصلة كاملة عن القيادتين السياسية

والعسكرية، كل قيادة على حدة، بعد أن تشابكت المعلومات والتحليلات، وتناقضت حينا، وتناقضت فى قطاع أو أكثر، لكنها لن تستمر على هذه الحال طويلا، بعدها يمكننا أن نصدر حكما ونطمئن إليه، وليس معنى هذا التفسير أننى أهرب من الإجابة الصريحة، لأننى سأذكر بعض الأوضاع البارزة بعيوبها وأركز عليها، وتلك الأوضاع قد أسهمت فى الحصيلة النهائية للحرب وهى الهزيمة لنا!».

❑

والحاصل أن الفريق صادق لا يمنع نفسه من أن ينقد بعض الأوضاع العسكرية التى أدت إلى حدوث الهزيمة، لكنه فيما يبدو يؤثر أن يردد التشخيصات الشائعة فى السبعينيات دون أن يجهد نفسه فى الوصول إلى الأسباب الدقيقة التى لا ينبغى لأحد (إلا مَنْ هو فى وزن ومنصب مدير المخابرات الحربية) أن يصل إليها، فهو لا يتحدث على سبيل المثال عن طبيعة دورة أوراق المذكرات والتقارير والدراسات العارضة للمواقف، ولا عن المدى الذى تصل المعلومة فيه من مصدرها إلى القيادات، لكنه يفضل كما نرى أن يلجأ إلى التشخيصات العمومية التى نعرفها جميعا، ليس هذا فحسب، بل إنه لا يقدم شرحه لهذه التفسيرات من واقع القرارات التى مرت أمامه كأن يذكر المواضع الخطأ التى وضعت فيها شخصيات عسكرية مرموقة، أو الشخصيات الخطأ التى وضعت فى مواضع خطيرة، وإنما هو يؤثر التعويل فحسب على نقد كل من شمس بدران وعبد الحكيم عامر فى عموميات غير محددة:

«أرى أنهم طبقوا مبدأ الولاء قبل الخبرة على مستوى القيادات العسكرية المصرية بتوسع شديد، وكان شمس بدران ينادى دائما بتأمين الجيش قبل امتلاك الخبرات القتالية حماية للنظام والبقاء فى السلطة، فاختفت القيادات العسكرية المحترفة المالكة للمعلومات المتقدمة القادرة على التعامل مع السلاح الإلكترونى،ليس الذى نملكه فحسب، بل الذى يملكه العدو».

«فضلا عما لحق بالقوات المسلحة المصرية فى حرب اليمن من تلفيات فى المعدات، وتخريب فى الأرواح، وانهيار فى المعنويات، ولم يكن لدى القيادة العسكرية شجاعة وجرأة وطنية لتضع أمام عبد الناصر هذه الصورة بوضوح وجلاء

قبل أن توافق على حشد القوات فى سيناء بتلك المظهرية والاستعراضية الساذجة نهارا فى شوارع القاهرة، وفى صحف الصباح باليوم التالى، إن إخفاء هذه الحقائق جريمة كبرى والحروب لا تدار كما قال عامر لعبد الناصر حين أعطاه قرار الحشد بكلمة: «رقبتى ياريس!».

(١٨)

ومع أن الفريق صادق لا ينصف القوات الجوية وأداءها على نحو صريح أو ضمنى، ولا هو يدافع عن موقفها من الاتهامات التى وجهت لها فيما بعد الهزيمة، إلا أنه مع هذا لا يهمل الحديث عن مدى معاناة هذه القوات قبل الحرب فى أكثر من مجال، كما أنه يشير إلى معركتى الطيران اللتين تمت التعمية عليهما فى نهاية ١٩٦٦ رغم ما أصاب مصر والاتحاد السوفيتى فيهما من خسائر:

«كما كانت القوات الجوية المصرية تعانى قلة المطارات، وتخلف طائراتنا بمسافات كبيرة عن طائرات العدو، وتخلف تسليح طائراتنا أيضا، وقلة عدد طيارينا والأطقم البشرية المعاونة من المهندسين والفنيين، ولقد دارت معركتان جويتان فى ديسمبر ١٩٦٦ بين مصر وإسرائيل ولم يذع عنهما شىء، الأولى قادها طيارون مصريون والثانية أدارها طيارون سوفييت، وخسرنا الطيارين جميعا والطائرات أيضا، نتيجة تفوق طيارى إسرائيل وما تزود به طائراتهم.. ربما كان طياروها من الأمريكان المدربين جيدا، لكن المعركتين أثبتتا أننا لا نمتلك عناصر السيطرة الجوية تلك الفترة من ١٩٦٧!!».

❑

وعلى نفس الخط يتحدث الفريق محمد أحمد صادق عن قصور إمكانات الدفاع الجوى فيما قبل حرب ١٩٦٧:

«ويأتى دور الدفاع الجوى، وواضح للجميع أن حائط الصواريخ المصرية المضادة

للطائرات وأسلحة إسقاط طائرات العدو المتقدمة، لم تزود مصر بهما إلابعد نهاية ١٩٦٧، وصولا إلى عام ١٩٧٣».

(١٩)

أما الخطوة العسكرية التى تحظى بالنقد اللاذع المرير من الفريق صادق فهى مشروع التعبئة العامة للمعركة، ويصل الفريق صادق فى انتقاد هذه العملية إلى أن يصفها بأنها جريمة كبرى، وهو يقدم مبرراته لهذا التقييم الحاسم بقوله:

«جريمة كبرى، ولا يمكن أن أصفها بغير ذلك، تلك التى ارتكبوها فى حق الشعب المصرى وهم ينفذون مشروع التعبئة العامة لمعركة يونيو ١٩٦٧، عندما قاموا بكل الهزل، والاستخفاف بإرسال تشكيلات قوات الاحتياطى بملابسهم المدنية إلى مسرح القتال مباشرة، ودون أسلحة أو أغذية أو أدوية، بل ودون توفير مياه الشرب لهذه القوات، ودون معدات حفر لإقامة دورات المياه فى الصحراء».

«والأكثر جرما أنهم وضعوا هذا الاحتياطى.. بعضه يرتدى البدلة المدنية والبعض يرتدى الجلابية فى الخطوط الأمامية لتلقى الصدمة الأولي بأجسادهم، ونسى القادة الذين أرسلوهم إلى هذه الخطوط الأمامية أو مناطق القتل الحتمى، أن موت هذه الأعداد الكبيرة من البشر يصيب الدفاعات الخلفية بانهيارات سريعة!».

❑

وإن الإنسان ليعجب ـ اليوم ـ من أن يكون مدير المخابرات الحربية مدركا لكل هذه الحقائق، ومع هذا يستطيب البقاء فى منصبه، بل إن الأدهى من هذا ما يمضى الفريق صادق فى انتقاده فيما يتعلق بسياسات تسليح الوحدات المشاركة فى التعبئة التى أجريت فى سيناء، وهو يعترف ضمن حديثه بأن الخطة كانت للتهويش والاستعراض:

«أرسلوا مئات الدبابات دون وقود ودون إبر ضرب النار إلى سيناء، ذهبت الدبابات محمولة فوق سيارات النقل كجزء من خطة التهويش والاستعراض، وأطقم دبابات «ت٣٤» يرسلونها إلى دبابات «ت ٥٤»، ودبابات جديدة خرجت من المخازن بشحوماتها ودون بطاريات أو ذخيرة، وبينها دبابات «شيرمان» الغربية التى حصلت عليها مصر سرا قبل الحرب بفترة قصيرة!».

ويبدو لنا أن حرص صادق على ذكر هذه الجزئية الأخيرة المرتبطة بالدبابات الألمانية مرتبط بعمله أو دوره فى الحصول على هذه الدبابات حيث عمل ملحقا عسكريا لمصر فى ألمانيا قبل أن يستدعى ليتولى منصب مدير المخابرات الحربية، وربما كان له دور فى حصول مصر على هذه الدبابات، لكنه لم يشأ أن يصرح به.

(٢٠)

ونمضى مع حديث الفريق صادق عن معاناة التشكيلات البرية والمشاة التى شاركت فى هذا العمل الاستعراضى على حد تعبيره:

«تشكيلات برية دفعوا بها إلى سيناء دون أن يكون لدى قادتها خرائط بمواقعهم أو أوامر بواجباتهم القتالية، كما شحنوا إلى الجبهة بوحدات الحرس الوطنى دون مهام لها فتحولوا إلى عبء خطير إداريا وقياديا وإنسانيا، ولم يرسلوا إليهم بكميات الغذاء الذى يكفى أسبوعا أو يوما واحدا، وبالتالى مياه الشرب والدواء للأمراض المفاجئة!».

«ودفعوا بتشكيلات المشاة دون الأسلحة المعاونة كما تفرض ذلك أبجديات القتال، ودون قادة أصاغر من الضباط، ضمن خطة التهويش.. ذلك أن المشير عامر كانت لديه قناعة، ولدى عبد الناصر أيضا أن مثل هذا العمل المظهرى الاستعراضى أو «التهويشجى» كما تندر به عدد من القادة، سيصيب إسرائيل بالفزع ويجعلها تتراجع لا محالة، وكان الرجلان يحلمان!».

ويضيف الفريق محمد أحمد صادق إلى هذه الأخطاء الاستراتيجية القاتلة خطأ تبديل قادة الجبهة على مستوى التشكيلات الكبيرة والصغيرة قبل الحرب بأيام قليلة:

«وإجراء غريب ومثير نفذوه فجأة قبل الحرب بأيام قليلة، عندما أعادوا قادة من الجبهة ودفعوا بدلا منهم بقادة آخرين على مستوى التشكيلات الكبيرة والصغيرة معا، دون أن يكون لدى القادة الجدد أدنى فكرة عن تنظيم التشكيلات التى سيتولون قيادتها، واستمر تنفيذ هذا الإجراء الذى لم يعرف أحد تفسيرا له أو تبريرا حتى الساعات الأولى من نهار ٤ يونيو ١٩٦٧، وفسره كثيرون بأنها شكل جديد من أشكال «الكوسة» أو الفساد القيادى، لأن القيادة تخشى على حياة هؤلاء القادة الذين عادت بهم إلى القاهرة إذا نشبت الحرب».

(٢١)

وتنفرد مذكرات الفريق صادق بالإشارة إلى المصير القاسى الذى لقيته دفعة الكلية الحربية التى تخرجت قبل الحرب مباشرة:

«دفعة جديدة من الضباط تخرجت فى الكلية الحربية قبل ٥ يونيو بأيام قليلة، دفعوا بها كاملة إلى منطقة «جبل لبنى» بسيناء دون توزيع على الوحدات،ولحقت بهم خسائر كبيرة فى الأرواح».

❑

كما يشير الفريق صادق إلى الإهمال التام الذى عاملت به القيادة العسكرية مستودعاتنا الموجودة فى سيناء، مما أدى إلى تدميرها أو سقوطها بالكامل فى يد العدو، وقد أوردنا فى مذكرات المشير الجمسى (فى الباب الأول من كتابنا: «النصر الوحيد») ما يرويه عن سعادته بقيام القوات المصرية فيما بعد هزيمة ١٩٦٧ بالتسلل إلى سيناء لتدمير أحد المستودعات الكبيرة للذخيرة الذى كانت قواتنا قد فقدته بفقدانها سيناء، فإذا هى بعد الحرب تبذل الجهد من أجل تدميره حتى لا يفيد منه العدو:

«أكثر من ذلك ظلت مستودعات الذخيرة والبترول واحتياطيات الطعام الجاف متناثرة فى جبهة سيناء كما تستلزم حالة السلم دون نقلها إلى مستودعات حالة الحرب وتطبيق خطة الإمداد والتموين مع بداية العمليات الحربية، وكان مصير هذه المستودعات التدمير أو السقوط فى أيدى العدو الذى استخدمها وهو يزحف متقدما نحو الضفة الشرقية للقناة، وبين هذه المستودعات مخازن الذخيرة».

❑

ويتطرق الفريق محمد أحمد صادق بالإشارة إلى التنقلات التى حدثت على مستوى التشكيلات المدرعة ما بين منطقة وأخرى، وقد أفاض كل من الفريق أول مرتجى واللواء عبدالمنعم خليل والفريق يوسف عفيفى فى الحديث المفصل عن الآثار السلبية لهذه التنقلات العبثية:

«كما نقلت تشكيلات من القوات المدرعة من منطقة «تمادا» إلى منطقة «جنوب رفح»، لدعم المحور الساحلى، وهو محور رئيسى لهجوم العدو، وفجأة قرروا إعادة هذه التشكيلات بعد أن بلغت مواقعها، تعاد يوم ٤ يونيو إلى تمادا بلا أى أسباب معقولة! وما حدث فى رفح يتكرر فى غزة، مما جعل المنطقتين تنهاران قبل نهاية يوم ٥ يونيو.. اليوم الأول للحرب».

(٢٢)

وينسب الفريق صادق إلى المشير عامر أنه بسفره صباح يوم ٥ يونيو خالف ما توحى به المعلومات التى طرحت فى اجتماع ٢ يونيو، ومن المثير للتأمل أن الفريق صادق لا ينتقد المشير عامر بمثل ما انتقد به الفريق صدقى محمود وقادة القوات الجوية، ربما لأن المشير عامر نفسه لم يتح له ـ بسبب وفاته المبكرة ـ أن ينتقد الفريق صادق على نحو ما وجه قادة القوات الجوية سهام نقدهم للفريق صادق:

«وبعد هذا كله،وهو جزء من كثير، نجد المشير عامر يقرر مساء ٤ يونيو السفر إلى

سيناء وبرفقته عدد من القادة صباح ٥ يونيو، ضاربا عرض الحائط بالمعلومات التى طرحناها فى اجتماع ٢ يونيو الشهير، والتى تؤكد كلها احتمال نشوب القتال أو هجوم إسرائيل يوم ٥ يونيو، وأعتقد أن إسرائيل كانت تعلم تمام العلم بتحركات المشير عامر واتصالاته كلها حتى بدأت ضربتها الجوية الأولى التى أطلقت عليها «صهيون»».

«وعاد عبد الحكيم عامر ورفاقه والفزع يملؤهم جميعا، واستخدموا سيارات التاكسى وصولا من مطار القاهرة الدولى المدنى إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، ثم مضى اليوم الأول والأيام التى تلته والقيادات المصرية فى حالة شلل وعجز تام عن مواجهة الموقف، وانهيار بشع للاتصالات بين القوات المنتشرة فى أنحاء سيناء وقياداتها».

ثم يفجعنا الفريق صادق بقوله :

« وبعض هؤلاء القادة هرب يوم ٦ يونيو من مسرح العمليات إلى الإسماعيلية، واحتمى بفيللات معسكر الجلاء، وعندما طلبنا أحدهم تليفونيا بعد أن عرفنا بوصوله وحيدا إلى الإسماعيلية، رد الجندى المكلف بخدمة الفيللا أن سيادة اللواء فى الحمام!».

(٢٣)

ويتحدث الفريق صادق بانتقاد واضح ومكثف عن أوامر الانسحاب التى أصدرها المشير عبد الحكيم عامر فى ١٩٦٧، ولا يختلف حديث صادق عن أحاديث غيره من الذين تحدثوا عن الانسحاب إلا فى جزئية إكثار صادق من لوم كثير من القادة واتهامهم بالهروب، ومن المؤسف أن صادق لا يحدد هؤلاء، وبهذا يترك سيف الاتهام بالجبن مصلتا ـ للأسف الشديد ـ على قادتنا جميعا.

ومن الغريب أن الفريق صادق ينهى حديثه عن هذه الجزئية بالإشارة إلى أنه قال

فى بداية الستينيات [ولا ندرى أين قال هذا ولا أين نشره] إن مصر نكبت بحكم العسكريين:

«أوامر انسحاب ١٩٦٧ صدرت عن رؤى مضطربة مهزوزة،أقرب إلى الانهيار، لذلك أبلغت هذه الأوامر لبعض القيادات دون الأخرى، وفقدنا بذلك عوامل السيطرة على قواتنا كلها فى مسرح سيناء».

«هناك قادة انسحبوا دون تشكيلاتهم؛ سمحوا لأنفسهم بالهرب تاركين قواتهم فريسة للموت،بينما كانت تشكيلات أخرى تقطع الطريق ذهابا إلى سيناء لتنضم إلى القوات المتمركزة بها، فنتج عن ذلك انهيار وفوضى وذعر وتخبط وارتباك خطير،وسهل الأمر على الطيران الإسرائيلى لتدمير معظم القوات المنسحبة، وبقى الجرحى دون إسعاف،ووقع فى الأسر أكثر من خمسة آلاف جندى وضابط، ودمرت أغلب أسلحتنا وعتادنا وتركنا بعضها بحالته السليمة».

....

«لو كانت القيادة العسكرية تملك الخبرة والعلم العسكرى ومارست فن القيادة لا فن السيطرة على الشعب ومقاليد الحكم، لاستطاعت السيطرة على الموقف، وقامت بتنظيم انسحاب منظم مع التمسك بخطوط دفاعية متوسطة حتى «المضايق» دفاعا عن القناة من داخل سيناء، وليس من الضفة الغربية للقناة، لكن ذلك لم يحدث، ووقعت الكارثة التى تنبأ بها كثيرون».

«ومن هنا تجدنى محقا حين قلت فى بداية الستينيات: إن مصر نكبت بحكم العسكريين».

(٢٤)

أما فيما يتعلق بالمسئولية عن أمر الانسحاب فإن الفريق أول محمد أحمد صادق يلقى بكل هذه المسئولية على المشير عامر، ومن اللافت للنظر أن صادق حسب روايته التى تقدمها هذه المذكرات يذكر لنا أنه كان أحد القادة الذين شاورهم عبدالحكيم عامر أو استطلع رأيهم فى فكرة الرجوع عن قرار الانسحاب:

«عبد الحكيم عامر هو صاحب أمر الانسحاب بهذا المستوى، متخيلا أنه ينقذ الجيش المصرى به، حين علمت به من مكتب مخابرات العريش تليفونيا، ثم من بقية مكاتب مخابرات الجبهة فى سيناء، اتصلت تليفونيا أيضا بالمشير عامر مستفسرا عن الحقيقة، فأبلغنى بأنه هو الذى أصدر أمر الانسحاب، فقلت له: إنه انسحاب له خطورته على الرجال وسنواجه متاعب ومفاجآت، ولم يستطع الرد!».

«وبعد أقل من ساعة طلبنى تليفونيا وفوجئت به يسألنى:

«هل يمكن التراجع فى أمر الانسحاب.. هل نستطيع إلغاءه؟!».

«وشعرت بأن المشير عامر يتخبط فاقدا تماسكه، فأجبته: تراجع إيه؟ القيادات تحركت وانسحبت، وبعض القوات انسحبت خلفها دون أوامر، وثمة جنود أشعلوا النيران فى مستودعات الوقود، وسيناء الآن فى حالة ضخمة من الفوضى والحرائق!».

❑

ويبدو أن الفريق صادق لا يعتبر أن النكسة قد وقعت إلا بعد صدور قرار الانسحاب والتخبط فى تنفيذه:

«وهكذا وقعت النكسة أو النكبة، وبدأت حلقة جديدة من الصراع بين عبدالناصر وعامر على السلطة انتهت بانتحار عامر والقبض على عدد من ضباطه على رأسهم شمس بدران».

(٢٥)

ويعود الفريق صادق فى الحديث الذى أدلى به لمجلة الشباب (١٩٩١) إلى تأكيد هذه المعانى بأسلوب يتسم بجسارة أكثر حيث يصف بالجبن [هكذا] سلوك القيادة العسكرية فى مواجهة الرئيس عبد الناصر، كما يبدو أكثر قدرة ورغبة فى تحميل الفريق فوزى المسئولية عن الهزيمة:

«تكاتفت عدة عوامل لتؤدى إلى هزيمة ٦٧، أهـمها تطبيق مبدأ الولاء قبل الخبرة على مستـوى القيادات،مما أدى إلى اختفـاء القيادات المحترفة.. بالإضـافة إلى حرب اليمن التى كنا خـارجين منها لتونا والخسائر التى تكـبدتها مصر من أموال وأرواح.. كذلك لا ننسـى أن قوة ناصر وجبن القيادة العـسكرية جعلها لا تضـع أمامه الصورة كاملة قبل أن توافق على حشد القوات فى سيناء بهذا الشكل الغبى».

«لقد سـألت الفريق مـحمد فوزى فور إعلان مـصر قرارها بسـحب قوات الأمم المتحدة عن حقيقة استعدادنا للحرب، فلم يجبنى بنعم أو لا، بل طلب منى التنفيذ فى صمت.. لذلك لم أتعـجب حين قال عن نفسه فى حديثه «للـشباب» مؤخرا إنه كان «طرطورا» فى حرب ٦٧».

«وهناك عامل آخر وهو أن معلوماتى المؤكدة كـمدير للمخابرات الحربية فى ذلك الوقت جـزمت بعدم وجود حشـود عسكرية علـى حدود سوريا، إلا أن المشيـر عامر ومحمد فوزى وشمس بدران رفضوا كلامى واستعانوا بمعلومات مغرضة من مصادر خارجيـة.. وبجانب هـؤلاء كان السادات يـدفع عبد الـناصر دفعـا إلى حشد قـواتنا المسلحة فى سيناء».

«وقد حـدث وأرسلوا الجنـود إلى هناك بـدون أسلحة أو أغـذية أو حتى خـرائط بمواقعهم أو أوامر بواجباتهم القتالية».

«كـما أرسـلـت الدبـابـات بدون وقـود كـاف.. كل هـذه الأمـور أكدت لـى أن عبدالناصر يقصد مجرد «التهويش» بهذه الحشود، وأنه يسعى إلى حل الأزمة سلميا، لكـن الرياح لم تـأت بما تشتـهيه السـفن، فقد قـامت فعلا إسـرائيل بتـوجيه الضـربة الأولى».

«وحين أصدر المشير عامر الأمر بالانسحـاب أخبرته أنه قرار متعجل، وقد تكون له خطـورة شديدة، لكنـه لم يستمع لـى وبدأ فعلا الانسـحاب فى جو من الـفوضى والارتباك».

«لكنه بعد سـاعة عاد ليسألنى عن إمكـانية التراجع فى أمر الانسحـاب فأجبته بأن الوقت قد فات لذلك وأن الجنود قد بدأوا فعلا فى إشـعال النيران فى أسلحتهم حتى لا تقع فى يد العدو».

ويلخص الفريق صادق مبرراته للقول بأن الفريق محمد فوزى كان المسئول عن هزيمة ١٩٦٧ فى حديثه لمجلة الشباب فيقول:

«وفى النهاية أقول إن محمد فوزى ربما يكون المسئول الأول عن هزيمة ١٩٦٧، لأنه كان رئيس الأركان، أو كما يقال عن هذا المنصب «العقل المدبر فى القوات المسلحة»، والمفروض أنه القائد العسكرى الفعلى فى ظل عبد الحكيم عامر.. ولم تقنعنى إجاباته التى أدلى بها فى حديثه الأخير «للشباب»، وما يدعيه من بطولات كاذبة».

(٢٦)

ويبدو الفريق صادق ميالا إلى كل موجة تقلل من قدر الرئيس السادات على الرغم من أنه كان ـ كما صور هو نفسه ـ يمثل دعامة من أهم دعامات استمرار السادات فى السلطة فى مايو ١٩٧١، ويصل الأمر بالفريق صادق فى هذه الزاوية إلى حدود لا معقولة، حتى إنه يورد ما يتناقض مع توجهاته وسلوكه التالى لوقت حدوث الرواية التى يرويها، ويتجلى فى هذا السلوك الذى اتبعه صادق مدى انسياقه وراء كثير من الأوهام وهو الانسياق الذى دفعه إليه مَنْ لم يتورع بعد هذا عن أن ينفى مسئوليته عن دفعه إليه بنفس منطق الشيطان، ولنتأمل إجابة الفريق صادق على سؤال الأستاذ أحمد عبدون:

«لقد كنت موجوداً مع عبد الناصر قبل وفاته بساعة واحدة.. فماذا دار فى هذه الجلسة؟».

هنا يجيب صادق وهو على فراش المرض وفيما قبل وفاته بأيام معدودة فيقول:

«مازلت أذكر هذه الأحداث وكأنها حدثت بالأمس.. فقد أكد لى عبد الناصر قبل وفاته بساعة واحدة أنه ينوى إجراء تغييرات شاملة ستساعدنى، ولما استفسرت منه قال إنه سيقوم بتعيين عبد اللطيف البغدادى نائبا لرئيس الجمهورية، وأنه «سيقلش» الفريق فوزى ويحدث تغييرات فى اللجنتين التنفيذية والمركزية للاتحاد الاشتراكى».

«وأؤكد من خلال آخر حديث أدلى به قبل صدور مذكراتى أن المجموعة المحيطة بعبد الناصر فى ذلك الوقت كانت تعلم بعزمه على إجراء هذا التغيير».

«وهنا أود أن أشير إلى أن طبيب عبد الناصر الدكتور رفاعى كامل رفض التوقيع على شهادة الوفاة قبل تشريح الجثة لشكه فى أن تكون الوفاة جنائية، لكن الزعماء(!) المحيطين به رفضوا ذلك».

«ويضيف الفريق صادق فى صوت لا يكاد يسمع: «لو عاش عبد الناصر لتغيرت أشياء كثيرة جدا».

(٢٧)

ويكرر الفريق صادق فى حديثه لمجلة الشباب قبل وفاته (بنغمة أخرى) ما سبق أن أشار إليه فى حديثه إلى جريدة الأحرار من أن السادات كان يخشاه ومن ثم كان حريصا على أن يتودد إليه :

«كذلك فقد كان السادات دائم التودد لى لمعرفتى السابقة بحياته وأساليبه ومواقفه.. وبحكم معرفتى بالسادات أقول إنه رجل بلا أخلاق أو مبادئ،وقام بحملته الشرسة ضدى لوقوفى ضد أهدافه.. فأظهرنى أمام الرأى العام وكأننى لم أفعل شيئا فى الجيش! فإذا كان هذا صحيحا فكيف استطاع إذن أن يحارب فى ١٩٧٣ وأنا خرجت فى أواخر ١٩٧٢، دعونى أسأل: هل عام واحد فقط يكفى لإعداد الجيش والتخطيط العسكرى للمعركة؟».

(٢٨)

ونأتى إلى ما يرويه الفريق محمد أحمد صادق عن أحداث مايو ١٩٧١ ويفاجئنا

الفريق صادق فى هذه المذكرات بما لم يجرؤ أحد غيره بمن فيهم الرئيس السادات نفسه على التصريح به من أن المجموعة التى كان الفريق محمد فوزى ينتمى إليها كانت تخطط لخلافة الرئيس عبد الناصر منذ ما قبل وفاة الرئيس عبد الناصر ، ويحرص الفريق صادق على أن يؤكد على معنيين مهمين؛ المعنى الأول هو أن الذى جمع هذه المجموعة لم يكن حبها لعبد الناصر ، وإنما مصالحها وأغراضها الشخصية، أما المعنى الثانى فهو أن هذه المجموعة كانت من الذكاء بحيث كانت تنزوى كلما استعاد الرئيس عبد الناصر صحته ، وتنشط كلما عاوده المرض .

« لم تبدأ أحداث مايو ١٩٧١ يوم ١٣ مايو أو قبله بقليل ، فالحقيقة أنها بدأت قبل وفاة الزعيم عبد الناصر ففى أثناء مرضه حاولت المجموعة الملتفة حوله والتى جمعها فى الظاهر حب عبد الناصر ولكن فى حقيقة الأمر جمعتها مصالحها وأغراضها الشخصية ، حاولت هذه المجموعة أن تنظم نفسها وتبحث عمن يقود القافلة بعد غياب الأسد».

«انتهزت هذه المجموعة فرصة مرض عبد الناصر وعجزه لتنظيم فريق يحكم باسمه تحت ستار إخفاء مرضه ، وواصل الفريق أداء هذا الدور ، وعندما استعاد الرئيس الراحل بعضا من قواه انزوت المجموعة ظاهريا وظلت كذلك طوال معارك الاستنزاف، وكلما ألم المرض بعبد الناصر وأقعده عادت المجموعة للعمل بقوة لإعداد المسرح لحسابها الخاص سواء داخل القوات المسلحة أو الاتحاد الاشتراكى، فتم إنشاء التنظيم السرى ومنظمة الشباب كما تم إنشاء تنظيم آخر داخل الاتحادات العمالية والنقابات ، ولم ينسوا مجلس الأمة أو مجلس الوزراء وزاد نشاطهم خلال فترة وجود عبد الناصر فى الاتحاد السوفيتى للعلاج» .

لابد أن نتوقف هنا لنضيف أن إنشاء التنظيم السرى ومنظمة الشباب... إلخ، قد تم على يد عبدالناصر نفسه ومنذ فترة مبكرة عن مرضه الأخير وإن كانت تالية لبداية مرضه بالسكر، وهى البداية الحقيقية ـ فى نظر الطب ـ لكل أمراضه التى تلت بعد هذا.

ويصدمنا الفريق أول صادق فى مذكراته برواية موقف فى منتهى الخطورة فى دلالته، ومن الغريب أن الفريق فوزى حين تصدى للرد على ما نشره الفريق صادق فى هذه المذكرات لم يتعرض لهذا الذى ذكره الفريق صادق من أن الوزير محمد فوزى القائد العام للقوات المسلحة أصدر أمراً بعد وفاة الرئيس عبدالناصر بساعات قليلة بتعيين ثلاثة ضباط من طاقم مكتبه الخاص كقادة جدد لثلاثة ألوية مدرعة متمركزة بالقاهرة على أن يتم هذا فورا، وأنه ـ أى الفريق صادق ـ لما علم بذلك تصدى للفريق فوزى واستعان عليه بوزير شئون رئاسة الجمهورية سامى شرف حتى اقتنع فوزى أو أجبر على سحب قراره وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه!!

«واستدعيت إلى بيت عبدالناصر حيث علمت النبأ وبعد أن أفقت من تلك الصدمة العنيفة توجهت إلى مكتبى لتأمين القوات المسلحة والدولة كرئيس لأركان حرب القوات المسلحة وقبل إعلان النبأ على الشعب».

«وفوجئت ونحن فى أشد حالات الحزن والاضطراب بأمر قيادة من وزير الحربية الفريق أول محمد فوزى يقضى بتعيين ثلاثة ضباط من طاقم مكتبه الخاص كقادة جدد لثلاثة ألوية مدرعة متمركزة بالمنطقة المركزية أى ثلاثة ألوية مدرعة تعسكر بالقاهرة أو بالقرب منها على أن يتم فورا».

«كما رأيت عقيدا من المخابرات الحربية يمت بصلة قرابة للفريق أول محمد فوزى «ابن خالته» يجرى اتصالات سريعة بعدد من قادة وضباط المدرعات الموجودين بالمنطقة المركزية ليطلب منهم الحضور لمبنى القيادة ، كل هذا قبل منتصف تلك الليلة الحزينة فقررت أن أتصل بسامى شرف سكرتير الرئيس وابن خالة محمد فوزى أيضا قبل إتخاذ أى إجراء لأوضح له بصراحة وحسم أنى شخصيا لن أسمح مطلقا بأى تغيير فى القيادات وأننى مستعد لمواجهة هذا العبث مهما كانت النتائج» .

«وبعد فترة حضر سامى شرف إلى مبنى القيادة واجتمع بمحمد فوزى،وتقرر سحب أمر التعيينات الجديدة، وكان واضحا أن هدف محمد فوزى وكل مَنْ اشترك

معه فى التخطيط هو الإسراع بالسيطرة على القوات المسلحة والكل مشغول بحزنه على الرئيس المتوفى وقبل أن يدرك أحد ماذا يحدث».

«ومثل هذه السيطرة السريعة على القوات المسلحة كانت الطريق الذى اختاره لفرض مَنْ يخلف عبدالناصر».

وفى النهاية يعقب الفريق صادق فى براءة وبساطة ويقول:

«وكان مثيرا للألم الشديد أن تبدأ هذه المناورات وتستمر بهذه الصورة وجثمان الرجل ما زال مسجى ولم يوار التراب بعد .. جثمان الرجل الذى رفعوا شعاراته دليلا لهم...».

(٣٠)

ولا تتوقف المفاجآت التى يوردها الفريق صادق فى مذكراته عند هذا الحد بل إنه يفاجئنا مفاجأة أخرى ليست بالغريبة فى مضمونها ومدلولها وإن كانت غير متاحة فى الأدبيات المنشورة عن هذا الفترة، بيد أن علم النفس يكاد يدلنا على صواب وصدق هذه الرواية التى يوردها الفريق صادق ملخصاً بها مجمل آراء الفريق أول محمد فوزى فى حديثه عن الرئيس عبدالناصر فى بداية عهد السادات، ويأتى هذا الدليل من مذكرات الفريق فوزى نفسه حين يتحدث عن لقائه بالسادات بعد الإفراج عنه فى ١٩٧٤، وهو (أى الفريق فوزى) يضع فكرة أن عبدالناصر لم يكن ينوى الحرب على لسان أنور السادات ويحاول أن يظهر نفسه بأنه لم يوافق على قبول الفكرة دون أن يعنى بأن يبين جذور فكرة السادات عن نوايا عبدالناصر بينما كان هو بحكم موقعه كقائد عام وكرئيس للأركان من قبل أكثر قدرة على الحكم على صواب مثل هذه الفكرة .

وعلى كل الأحوال فلابد أن نقرأ رواية الفريق صادق بحذافيرها حيث يقول :

«وتصورت جماعة محمد فوزى أن الرئيس الجديد سيسمح لهم بمواصلة أداء دورهم فى حكم مصر مثلما فعلوا خلال المرحلة الأخيرة من حكم عبدالناصر. وقد

أخبرنى بذلك محمد فوزى نفسه صراحة عندما قال إن الرئيس السادات رجل سهل ويمكنهم التفاهم معه».

«وبدأ محمدفوزى يهاجم عبدالناصر وسياسته ويتهمه بضعف الأعصاب بعد هزيمة ٦٧ ويمطر السادات بالثناء ويصفه بأنه رجل دولة من الطراز الأول يعرف كيف يختار الرجال».

«كنت أستمع إلى هذه الأحاديث ولا أدهش لها لأنه كان معروفا أن الرئيس جمال عبدالناصر على وشك التخلص من محمد فوزى ».

(٣١)

ويحرص الفريق صادق على أن يقدم تصويراً مجيدا لصورته هو فى بداية عهد السادات فهو حسبما يروى عن نفسه مندمج تماماً فى عمله الجديد، ومنصرف عما هو خارج نطاق عمله، كما أنه كان قد أصبح فى تقدير مجموعة الفريق فوزى بمثابة الرجل القوى الذى لابد لهم من عمل حسابه، وهكذا فإنهم بدأوا يتعايشون معه...وكان مظهر هذا التعايش على حسب ما يروى الفريق صادق الإكثار من الولائم والتبسط فى الحديث معه عن كل أمور السياسة .. وكان هو على نحو ما يحرص أن يصور نفسه معتدلا فى تصرفه الحكيم فهو يلبى بعض الدعوات (لا كلها) كما أنه يستمع إلى الحديث (دون أن يعلق):

وفى هذه الفترة انغمست انغماسا تاما فى إعداد القوات المسلحة للحرب ونبذت كل شىء غير ذلك، ولا أذكر أن الرئيس السادات قد اتصل بى أو اتصلت به خلال تلك الفترة ولو مرة واحدة، واستمر ذلك حتى أوائل عام ١٩٧١ . خلال تلك الفترة لاحظت بدء مرحلة جديدة ومعاملة جديدة اتسمت بالود والتودد من قبل محمد فوزى وأصدقائه».

....

«وقد تصورت أنهم أدركوا أن من الصعب التخلص منى وبالتالى عملوا على أن يتعايشوا معى كمرحلة تعقبها محاولة ضمى إلى صفهم، فكثرت الدعوات إلى

الولائم التى يقيمونهـا والحديث باستفـاضة فى أمور مصر وسـياستها، وكنـت ألبى بعض هذه الدعوات وأستمع إلى حديثهم فقط دون تعليق».

(٣٢)

وينتـقل بنا الفريـق صادق إلى المرحلـة التى بدأت فيـها بوادر الخلاف تظهـر بين مجموعة ١٥ مايو وبين الرئيس السـادات، وهو حريص على أن يذكر أنه كان يتوقع حدوث ما حـدث لأنه كان يعـرف أسلوب أنور الـسادات بأكثـر مما يعرفـون. (ومن الطـريف أن يصدر هـذا الاعتراف أو الـفخر من الـفريق صـادق الذى يروى لنـا فى فقرات تـالية أن السادات صرح لـه صباح ذات يوم بأنه يـنوى استخلافه، وفـى مساء ذلك اليوم أقاله من منصبه كوزير للحربية وقائد عام)...

ويحدثنا الفريق صادق عن المظاهر التى بدأ يستشف منها وقوع الخلاف:

«وفجأة وجدت تغييـرا فى آرائهم عن أنور السادات ، فعلمت أن شـهر العسل قد انتهى بيـن هذه المجموعة والرئيس الجديـد، وكنت قد قدرت هذا لما أعلمـه شخصيا عن أنور السادات وأسلوبه فى مواجهة أمثال هذه الموضوعات».

«فعندما بدأ أنور الـسادات الحكم جعلهم يشعرون أنه سيتـرك لهم تصريف أمور الدولة، ولكنه فى حقيـقة الأمر كان يهادنهم ويعمل على إحكام سيـطرته على مقاليد الحكم».

«بدأ فوزى يكثر من حديثه معى عن خطورة الرئيس السادات وخطورة طموحاته هو وعائلته».

(٣٣)

ويطلعنـا الفريق صادق على موقف له فـى غاية النبل والوطنية والـشجاعة إذا ما صدقت روايـته، وليس هـناك ما ينقـضها بل إن الـفريق فوزى فى كـتبه لم يـتعرض

لرواية الفريق صادق بالنفى ولا التفنيد، وترينا رواية الفريق صادق أنه كان قائداً مسئولا حريصا على وطنه وشعبه وجيشه على حين كان الفريق فوزى لا يمانع فى أن يناور السياسيون بالجيش لتحقيق أغراض قصيرة النظر، ومن المدهش أن السادات الذى يتهم (من قبل فوزى وأنصاره) فى معلوماته العسكرية والاستراتيجية كان قادراً على الوصول إلى الصواب على الرغم من أن الفريق صادق نفسه يعترف بأنه لم يبلغه شيئا عن نقاشه (أى نقاش صادق) مع الفريق فوزى حول خطورة العودة فى ذلك التوقيت إلى استئناف حرب الاستنزاف، ولنقرأ هذه الفقرة التى تمثل تعبيراً فى غاية الأهمية عن فترة فى غاية الحرج وقرار فى غاية الخطورة.

«وفوجئت بمحمد فوزى يستدعينى إلى مكتبه ويطلب منى إعداد خطة لبدء معارك استنزاف جديدة ضد العدو، فدهشت جدا.. وعندما سألته عن السبب أجاب بأن السادات خرج عن الخط، وأنهم يخشون أن ينقلب عليهم، وهذا يستدعى فى رأيه توريطه (أى توريط السادات) فى معارك استنزاف يشعر معها أنه غير قادر على التغيير».

وهنا يعلق صادق بقوله:

«وبهذه البساطة كشف فوزى عن نيته هو وجماعته فى السيطرة على الرئيس أيا كان الثمن الذى تدفعه مصر وقواتها المسلحة».

«واعترضت على الأمر بشدة وغضب، وأوضحت وجهة نظرى بحزم وما سيترتب على هذه المعارك بالنسبة لمصر، وحذرته (أى فوزى) من خطورة بدء أية اشتباكات مع العدو وتأثير ذلك على الخطة الهجومية التى أعددناها، وسيفقدنا ذلك عامل المفاجأة عندما يتحدد موعد اقتحام القناة، ولكنه لم يستمع لرأيى فقلت له: لن أشترك فى هذا الموضوع مطلقا».

(٣٤)

ولا تقف حدود ما يرويه الفريق صادق عند ما يرويه عن مناقشته مع الفريق فوزى، ولكنه يروى بكل وضوح أن الفريق فوزى طلب من الرئيس السادات

التصديق على أمر يتضمن استئناف حرب الاستنزاف ولكن السادات رفض، ويبدو لنا بوضوح أن هذا هو الأمر الذى أعاد الفريق فوزى، وزاد فى الحديث عنه باعتباره كان أمراً بالمعركة ولكن السادات (على حد رواية فوزى) تهرب من إمضاء أمر المعركة !

ولنقرأ ما يرويه الفريق صادق:

«لم تمض أيام على هذا الحديث إلا وقام الرئيس السادات بزيارة لمبنى القيادة فى مدينة نصر، وبعد انتهاء الزيارة وأثناء توديعه لركوب سيارته رأيت محمد فوزى يعرض عليه أمراً مكتوبا ويطلب منه التصديق عليه، وكان الأمر يتضمن بدء معارك الاستنزاف وقد اعتذر أنور السادات عن عدم التوقيع ولا أعرف لماذا ؟!».

(٣٥)

ويستطرد الفريق صادق من هذا الحديث ليروى واقعة فى غاية الأهمية والخطورة وهى أنه كان وهو رئيس للأركان فى نهاية عهد الرئيس جمال عبدالناصر ضد إيقاف حرب الاستنزاف، وليس المهم فيما يرويه الفريق صادق أنه كان على صواب أو أنه كان على خطأ وإنما الأهم فى نظرى أنه لوصحت هذه الرواية وليس هناك ما يمنع صحتها، فإنها تدلنا على أن المؤسسة العسكرية كانت قد وصلت فى نهاية عهد الرئيس عبدالناصر إلى مرحلة من النضج تسمح بطرح الخيارات المختلفة على بساط البحث، وتسمح أيضا لأحدث الموجودين بأن يختلف مع آراء كل من هم أقدم منه..وهى إيجابية تحسب للفترة الأخيرة من عهد عبدالناصر وهى الفترة التى لم تحظ حتى الآن ـ فى رأيى ـ بالتقدير الذى تستحقه:

«عدت بذاكرتى إلى المؤتمر الذى عقده عبدالناصر لإيقاف معارك الاستنزاف فى يولية ١٩٧٠، وكنت أصغر الموجودين مركزا حيث كنت رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة، فلقد وافق فى هذا المؤتمر كل الحاضرين عبدالناصر على إيقاف حرب الاستنزاف ووقف إطلاق النار عداى، فلقد عارضت وكان رأيى من وجهة النظر العسكرية البحتة هو الاستمرار فى هذه الحرب وعدم إيقافها، وقد عاتبنى عبدالناصر على ذلك فشرحت له الأخطار المترتبة على إيقاف حرب الاستنزاف

الناجحة التى كنا قد بدأنا نجنى ثمارها، وكان محمد فوزى أول المؤيدين لرأى عبدالناصر، وتوقف القتال فعلا فى ٨ أغسطس من نفس العام لأسباب سياسية لا عسكرية».

(٣٦)

ويطلعنا الفريق صادق ـ على نحو مركز وجيد ـ بالتطورات الاستراتيجية التى شهدتها القضية المصرية فى ١٩٧١، ويبدو الفريق صادق فى هذه الجزئية دوناً عن أحاديثه وما نشر من مذكراته، دقيقا وحصيفاً ومنتبها بكل كيانه إلى الآفاق الاستراتيجية للتطورات التى شهدتها قضيتنا فى تلك الفترة الحرجة، وهو يجيد عرض الدوافع والخلفيات التى حكمت السياسة والاستراتيجية المصرية فى ذلك الوقت ويقول:

«فخلال شهر يناير ١٩٧١ دعا رئيس الجمهورية إلى اجتماع اللجنة المركزية العليا لاتخاذ قرار بالنسبة لمبادرة «روجرز» قبل أن يحين موعد انتهاء مهلة وقف إطلاق النار وقد حضر الاجتماع فوزى بصفته وزيرا للحربية بالإضافة إلى وزير الخارجية».

«وكان الاتجاه العام للأعضاء كما بدا من عروضهم هو استئناف معارك الاستنزاف ولم يكن ذلك سوى انعكاس لآراء محمد فوزى وجماعته بالرغم من أن عددا من الحقائق الخطيرة قد طُرح خلال الاجتماع مثل ضعف الدفاع الجوى عن الصعيد وأن مصر لم تتسلم بعد الصواريخ المضادة للطائرات التى وعد بها الاتحاد السوفيتى لحماية منشآتنا الخاصة فى العمق، وأن العدو فى موقف أفضل، كما أن العدو قد استغل ـ كما سبق وقدرت ـ فترة وقف النار فى تقوية تحصيناته التى أقامها على الضفة الشرقية للقناة وزيادة قوته النيرانية».

«إلا أن هذه الحقائق لم تؤثر على الاتجاه العام للأعضاء، ومع ذلك لم يقع أنور السادات فى الشرك المنصوب له، ولم يوقع القرار الذى عرضه عليه فوزى باستئناف معارك الاستنزاف ، وظن فوزى فترة طويلة أننى الذى أوحيت إلى السادات بذلك رغم أنه كان يعلم جيدا أن الرئيس السادات لم يتصل بى منذ أن أصبح رئيسا للجمهورية وإن كان قبل ذلك يتصل بى يوميا فى حياة عبدالناصر معبرا عن شدة اهتمامه بحالى وصحتى وأحوال أسرتى».

وإن القارىء لهـذه الفقرة من المذكرات ليتساءل الآن: هل بلغ الدهـاء بالسادات لتطمين فوزى هذا الحد من الكف تماما عن الاتصال بخليفة فوزى؟

(٣٧)

ويصل بنا الفريق صادق إلى الجانب الإنسانى فى تطورات الأحداث، وهو يروى دون أى تحرز أن الفريق فوزى بدأ خطأً جديداً من الحديث (أو الرغبة فى الحوار) معه عن السادات وعـن عائلته، ويعـترف الفريق صادق أنـه كان يدرك حدود ثقة الـفريق فوزى ومجموعته بقوتهم وإن لم يكن على نـحو ما ، حفى بأن يوحى لنا بما يقر بهذه القوة بينه وبين نفسه أو لينفيها:

«لم يتوقف محمد فوزى بعد هذه الـواقعة عن مداومة الاتصال بى، والحديث عن السادات وتصرفاته هـو وعائلته وخروجه عن خط عبدالنـاصر ولاحظت زيادة معدل الاجتماعات بين أفراد هذه المجموعة ومحـمد فوزى وكان ذلك مؤشرا بأنهم يعدون لشىء جديد بعد أن تأكدوا من انتهاء شهر العسل مع الرئيس».

«كنت أدرك من أحاديثهم معى ثقتهم الشديدة بقدراتهم وإمكانياتهم على الحركة وكان تقديرهم أن محمد فوزى مسيطر على القوات المسلحة بالإضافة إلى سيطرتهم حتى على التنظيم الـسياسى والسلطتين التشريعية والتنـفيذية وخاصة وزارة الداخلية والمخابـرات العـامة والحـرس الجمـهورى والاتحادات والـنقـابات كـما أنـهم كـانوا يتصورون سيطرتهم على عناصر القوة الـعسكرية والشعبية وبدأت هذه المجموعة فى تصعيد الصراع مع السادات».

(٣٨)

وينتبه الفريق صادق بنفس القدر إلـى أن يصور لنا تحركات السادات على الجانب الآخر، وهو يقدم لنا تلخـيصا جيداً للخطوات الذكية المتعددة والمتـوالية التى استطاع

الرئيس السادات أن يخطوها منذ توليه الرياسة سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى ، ومع أننا قد نكون على معرفة تامة أو شبه تامة بهذه الخطوات التى خطاها السادات إلا أن عرض الفريق صادق لها يتسم بالترتيب والمنطق وهو يذكرنا بطريقة المشير الجمسى المتميزة فى عرض الحقائق الاستراتيجية وتقديرات الموقف.

ويدهشنا أن الفريق صادق منتبه إلى إدراك فلسفة السادات من خطوة كخطوة إلغاء الحراسات وأثرها الذى يصب فى مصلحته فى النهاية .

كما يدهشنا أن الفريق صادق مقدر لذكاء السادات فى إعلانه فى فبراير ١٩٧١ مبادرته للسلام دون أن يطلع أحداً على أفكاره فيها قبل إعلانها. ويلفت صادق نظرنا إلى أن الفريق فوزى لم يستطع أن ينال من السادات بسبب هذه الخطوات وهو ما نفهم منه أن فوزى كان يعكس فى تصرفاته أو أقواله أنه يود لو وجد ثغرة ينفذ من خلالها إلى أن يأخذ شيئا على السادات، وهى فكرة مهمة يبنى عليها الفريق صادق بعد قليل تصوره للدوافع والخلفيات التى شكلت موقف فوزى وجماعته من اتحاد الجمهوريات، وهو الموقف الذى فجر خلافهم مع السادات وخرج به إلى السطح:

«وكان السادات قد اتخذ من جانبه مجموعة من الخطوات والقرارات ليلجم بها عود المجموعة وليكتسب أرضا يقف عليها. حاول مع القوات المسلحة واجتمع بالمجلس الأعلى عدة مرات أولها يوم ١٩أكتوبر ١٩٧٠ بعد توليه الرئاسة، وفى نوفمبر ١٩٧٠حان موعد انتهاء مهلة إيقاف إطلاق النار ومدتها تسعون يوما التى بدأت يوم ٨أغسطس ١٩٧٠وفقا لمبادرة «روجرز» فجمع الرئيس مجلس الأمن القومى وطلب مد المهلة تسعين يوما أخرى، يواصل «يارنج» فيها محاولاته لتنفيذ اسرائيل للانسحاب وفقا للبند الثانى من المبادرة».

«واستثمر أنور السادات موت الرئيس الأمريكى الأسبق «أيزنهاور» فأوفد الدكتور محمود فوزى للاشتراك فى الجنازة واستلم السادات رسالة من الرئيس نيكسون يشكره فيها على ذلك، وكان ذلك فى ديسمبر ٧٠ وبالتحديد فى يوم ٢٤ ديسمبر، ولم يترك السادات الفرصة تفلت من يده وأرسل ردا للرئيس نيكسون وكان هذا ثانى اتصال بالأمريكيين بعد الرسالة التى حملها السادات للمبعوث الأمريكى ريتشارد سون الذى شارك فى جنازة عبدالناصر، وبعد يومين تسلم السادات ردا من نيكسون.

استياء الفريق محمد فوزى ومَنْ معه من هذا الاتصال المصرى الأمريكى الذى كان يجرى أمام أعينهم دون أن يدركوا من الأمر شيئا».

«وأقدم السادات على إلغاء الحراسات فى ديسمبر من نفس العام ليكسب تأييدا شعبيا وساعده ذلك على فتح ملف المظالم التى تعرض لها بعض المواطنين، وكان ذلك يحمل فى طياته إدانة للعهد الذى جرت فيه هذه المظالم وإدانة لأساليب الحكم، وبالتالى إدانة لمجموعة محمد فوزى».

«وفى فبراير ١٩٧١ أعلن السادات مبادرته الأولى للسلام دون أن يطلع أحدا على أفكاره ولم يستطع الفريق المتضامن مع محمد فوزى أن ينال من السادات بسبب هذه القرارات».

«ولم يتوقفوا عن العمل وبدأت عملية مراقبة الرئيس وإخضاع مكالماته للمراقبة ومن الطريف أنى شعرت بأن جميع تليفونات مكتبى ومنزلى خاضعة للتسجيل ولم أعرف فى ذلك الوقت من أى جانب تقرر مراقبتى».

(٣٩)

على هذا النحو نستطيع ـ كما قدمنا ـ أن نقرأ تصور الفريق صادق لطبيعة موقف الفريق محمد فوزى ومجموعته من الرئيس السادات فيما يتعلق بإعلان اتحاد الجمهوريات العربية ، ونحن نرى الفريق صادق يقر بأن مجموعة الفريق فوزى كسبوا فى اللجنة التنفيذية جولة حاسمة ضد الرئيس السادات.

«كان السادات قد بدأ اتصالاته بكل من سوريا وليبيا والسودان من أجل دولة موحدة، وتوالت الاجتماعات ..وتوصل المجتمعون إلى صيغة وحدوية جديدة هى الجمهوريات العربية المتحدة واعتذر السودان عن المشاركة فيها لظروفه الخاصة. ورأت مجموعة محمد فوزى أن هذه فرصة جيدة« للوى ذراع السادات» خاصة أن الأمر سيعرض على اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى للإقرار، وهذه اللجنة يدين معظم أعضائها بالولاء لمحمد فوزى وجماعته».

«وعندما عرض أنور السادات الأمر على اللجنة التنفيذية فعلا والتى تضم ثمانية

أعضاء كانت نتيجة التصويت خمسة ضد ثلاثة، فلم يصوت مع رئيس الجمهورية سوى الدكتور فوزى رئيس الوزراء، وحسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية، وكسبوا بذلك جولة حاسمة ضد الرئيس، إلا أن السادات طالب بعرض الأمر على اللجنة المركزية».

(٤٠)

ويروى الفريق صادق أنه لم يكن من السهل عليه أن يكتشف بسهولة أسلم الوسائل والطرق لتجنيب القوات المسلحة الدخول فى هذا الصراع، وهو لا يفيض فى الحديث عن المصاعب التى كان من الممكن له أن يواجهها، ولكنه مع ذلك يركز على التعبير عن خشيته من مجموعة سرية فى القوات المسلحة سماها مجموعة سامى شرف:

«كثيرا ما أمضيت ليالى جالساً إلى مكتبى أفكر فى أفضل الطرق لتجنيب القوات المسلحة أن تكون طرفا فى صراع على السلطة، وهى فى هذا الوضع الحرج».

«كنت أعلم أن لسامى شرف تنظيما سريا داخل القوات المسلحة يعتمد فيه على أقربائه وأصدقائه، لا على الدفعة التى ينتمى إليها، وأنه يعتمد بصورة أساسية على اللواء الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى الذى كان يدين له بالولاء المطلق».

«كنت أعلم أيضا أن محمد فوزى وهو ابن خالة سامى شرف له مجموعة داخل القوات المسلحة أكثرها من ضباط المدفعية تلتف من حوله من بينهم بعض القادة ورؤساء الأفرع ومديرى الأسلحة والإدارات والهيئات».

(٤١)

والشاهد أن الفريق صادق يعترف ـ بلا مواربة ـ أنه كان يخشى كل المحاور ويعمل حسابا للمناورات والمراقبات والتسجيلات ومن ثم فإنه بعد تفكير طويل قرر أن يعمل بمفرده، ويبدو أن الفريق صادق كان موفقا إلى أبعد حد فى هذا القرار.

ويبدو تعبير الفريق صادق عن إيمانه ويقينه بما استقر عليه تفكيره فى ذلك الوقت مفعما بكل الثقة فى الله، وفى النفس، ومع أن حديثه فى ظاهره يبدو متشبعاً بقدر من الدروشة التى تنسب إلى الفريق صادق فى كتابات كثير من غير المنصفين إلا أنه فى واقع الأمر حديث رجل عرف طعم الإيمان وحلاوته:

«وأيقنت أن العمل بمفردى هو أكثر الاختيارات أمانا،فى ظل المناورات والمراقبات والتسجيلات التى يمتلىء بها المسرح».

«وتوصلت إلى أن أفضل السبل أن أعمل بسرية تامة وهدوء شديد، وتطلب ذلك ألا أبدى أى معارضة للفريق أول فوزى وأن أواصل خطتى فى حضور اجتماعاتهم ولقاءاتهم، دون أن أعلق على آرائهم، أو أبدى رأيا».

«كنت أعلم أنهم يحاولون استمالتى لصفهم، بعد أن اعترضت على قرارات فوزى بتعيين قادة جدد للألوية المدرعة وبعد أن عارضت فوزى فى خطته لبدء معركة استنزاف جديدة».

«كان من الصعب جدا على فوزى ومن هو على رأيه أن يصدق أو يتصور أن قراراتى ومواقفى مستمدة ونابعة من ايمانى بالله وبمصر وطنا وشعبا واقتناع بأن الحق أحق أن يتبع؛كان كل منهم يتصور أن الأمر رهان لا وطنية وبالتالى تصوروا أنهم كلما قربونى منهم ولوحوا بالمناصب فإننى سأغير موقفى».

«وكلما طعنوا فى السادات لا أعلق وكلما كشفوا أوراقهم وخططهم لاقتلاعه لا أعارض، فاستنتجوا أنى راض وأصبحت موافقا على خططهم».

«وساعدهم فى الوصول إلى هذا الاستنتاج تجنب السادات لى وعدم اتصاله بى ، وكما سبق وقلت كنت أشعر بأن جميع اتصالاتى مراقبة».

(٤٢)

ثم يورد الفريق صادق تفصيلات تبدو مذهلة عن ثقة الفريق فوزى فيه حين استدعاه وطلب إليه بوضوح الإعداد لانقلاب عسكرى، وعلى الرغم من أن الفريق

فوزى كثف وركـز كل ردوده على هذه الجزئـية من حديث الفـريق صادق إلا أن ما يرويه الفريق صادق يبدو بوضوح مؤيدا لوجهـة نظره وروايته بأكثر مما يمكن أن يفيد منه الفريق فوزى على أى وجه من الوجوه.

ومن الجديـر بالذكر أن الفـريق فوزى صمم علـى أن يورد رده المفصل عـلى هذه الجزئية فى كتـابه« استراتيجية المصالحـة» وقد عرضنا وجهة نظر الفـريق فوزى كاملة مع التعـليق عليهـا فى الباب الذى يتـناول مذكراته وهو الـباب الرابع من كتـابنا هذا الذى بين أيدينا.

ومن الإنصاف أن ننقل للقارئ رواية الفريق صادق كاملة:

«وبعد أن حدث الصدام داخل اللجنة التنفيذيـة العليا أصبح محتما أن يمضوا فى طريقهـم للنهاية، وفوجـئت بالفريق فوزى يجـرى اتصالات محمومة بـالقادة ويزور وحدات يثق فى ولاء قادتها له».

«وكانت المفاجأة التى لم أتوقعها قط عنـدما استدعانى الفريق فوزى وزير الحربية والقائد العام للقـوات المسلحة إلى مكتبه وكان فاقدا لأعصـابه وأخذ يسب السادات سبا مـقذعا متهمـا إياه بكل التهـم، وخلص إلى أن الأمر لايـمكن أن يستمـر هكذا، وسحب ورقة وبدأ يكتب أمراً واضحا باتخاذ مجموعة من الإجراءات للسيطرة على القوات المسلحة وإعدادها لاقتلاع رئيس الجمهورية».

«وطبقا لصورة الأمـر المنشورة فإن الفريق أول محمد فوزى يـأمر«الفريق صادق» أى يأمرنى أنا رئيـس أركان حرب القوات المسلحة ومضمـون الأمر أن أبدأ من باكر أى من يـوم ٢٢ أبريل ١٩٧١ فـى وضع خطـة تعتمـد على الـفرقة الـسادسة المـشاة الميكانيكـية واللواء ٢٥ مدرع مستقل وهذه الـقوة تضم لواءين من المشاة الميـكانيكية ولواءين من المدرعات «٢٠٠ دبابة» ومنطقة تمركز هذه القوة القاهرة.

«ومهمة هـذه القوة الضخمة تـنفيذ أوامر محـمد فوزى ورفاقه لإحكام الـسيطرة على القاهرة».

«ولم ينس أن يـأمرنى بتجهـيز المخابرات الحربيـة والشرطة العسـكرية لتنفيـذ كل أوامر الاعتقال المحتمل صدورها».

«كمـا نص الأمـر على عـمل نـظام سرى لـلاتصـال والسـيطرة وتحـديد أمـاكن للتجمع».

«واضح من الأمر أننى يجب أن أضع خطة للاستيلاء على الإذاعة ومداخل القاهرة بهذه القوات».

«كما تقوم إدارة الحرب الإلكترونية بالتشويش على أجهزة اللاسلكى بالسفارات لمنعها من نقل أخبار التحركات العسكرية بالقاهرة إلى الخارج».

«أى أن الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية يأمرنى كرئيس أركان حرب القوات المسلحة بالتخطيط «لانقلاب عسكرى» للاستيلاء على السلطة لصالحه وصالح مجموعته وبخط يده كتب هذا الأمر».

«وبخط يده كتب أنه هو وشعراوى جمعة وسامى شرف هم مصدر هذه الأوامر والتعليمات مما زاد فى دهشتى أن وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة وهو يكتب أمر قتال أو تعليمات قتال إلى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة يقول فيها أن مصدر الأوامر التى أتلقاها منه ومن شعراوى وزير الداخلية ومن سامى شرف وزير الدولة».

(٤٣)

ثم يصل الفريق صادق إلى أن يصرح ويقرر بأن ما كتبه الفريق فوزى لم يكن إلا إعداداً لانقلاب عسكرى بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، وأن هذا الانقلاب كان موجها للإطاحة برئيس الجمهورية نفسه للاستيلاء على السلطة وتنحيته.

«قرأت الورقة أو بمعنى أدق قرأت الكلام المكتوب الذى سلمه فوزى لى، وبذلت أقصى جهد للسيطرة على أعصابى ومشاعرى..كان فى الورقة ما يكفى أى محكمة لتحكم بإعدامه هو وزملائه».

«كانت المرة الأولى التى يشرك فيها القائد العام أفراداً مدنيين فى إصدار أمر لرئيس الأركان».

«ولقد أمضيت هذه الليلة ساهراً فى مكتبى أدعو الله أن يلهمنى الصواب وأن يوفقنى إلى إنقاذ هذا البلد».

«وفى الحقيقة كان الولاء دائما لأنفسهم».

«لقد كان ما كتبه فوزى هو إعداد لانقلاب عسكرى بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، وكان واضحا أن هذا الانقلاب مقصود به الإطاحة برئيس الجمهورية للاستيلاء على السلطة».

❑

ومن الطريف ـ وكثيرا ما تحفل المذكرات بالطرائف ـ أن الفريق صادق يتعجب بصدق من الدافع الذى جعل الفريق فوزى يحرر بخط يده دليل إدانته ويسلمه للفريق صادق فيقول:

«ولست أدرى ما الذى دفع فوزى إلى تسليمى أمراً بخط يده يكشف كل مخططات جماعته وسعيها للاستيلاء على السلطة... والسلطة فقط».

(٤٤)

ثم يورد الفريق صادق بقدر معقول من التفصيل ملامح الخطة التى ارتآها هوكفيلة بالقضاء فى المهد على هذا الانقلاب، وبحكم قدراته السابقة كمدير للمخابرات وكرجل استطلاع فإن الفريق صادق يعرض علينا بعد أن نجح ما يطلق عليه أسس خطته، والآليات التى اتبعها من أجل إنجاح هذه الخطة، ونحن نرى فيما يرويه الفريق صادق كثيراً من ملامح أدائه العسكرى الذى اشتهر به، فهو كثير الزيارة للأسلحة والتشكيلات، وهو كثير الحوار والحديث، وهو ناجح إلى أبعد حد فى تصوير الأمور فى إطارها الوطنى الكبير كما أنه قادر على بلورة الشعارات والارتفاع بقيمة الهدف. زادنى هذا الموضوع إصراراً على تجنيب القوات المسلحة مغبة هذا الصراع فمصر تعانى من الاحتلال، والشعب يعانى من هزيمة افترسته ومن كبرياء مهدرة ويتطلع هو والجيش بالأمل إلى يوم يثأر فيه لنفسه ويجد فيه حلا لمشاكله التى تراكمت طويلا بدون حلول جادة .

«وضعت خطتى على الأسس التالية:

- سلامة القوات المسلحة أولاً وأخيرا وألا يشغلها شيء عن الاستعداد للمعركة، والتدريب عليها.
- أن تبقى القوات المسلحة لمصر كلها وليست لمعسكر دون آخر.
- إن معركة القوات المسلحة مع العدو لهزيمته ولطرده من الأرض المحتلة وواجب رجالها التفرغ لتحقيق هذا الهدف لا يشغلهم صراع على نفوذ أو سلطة .
- أن يتم كل شيء بدون تصفية دموية وأن تبقى القوات المسلحة وحدة كاملة تحت راية مصر وحبها. أي لن يتمكن فريق من تصفية أنصار الفريق الآخر. وكنت على يقين أن أيهما لن يتورع عن إراقة دماء أنصار الفريق الآخر.

«واصلت زيارتي للأسلحة والتشكيلات ووحدات القوات المسلحة، فتحت ستار هذه الزيارات استطعت أن أدير حوارا مع القادة حول الواجب الرئيسي للقوات المسلحة وضرورة احترامه، وكنت أركز في حديثي على التركيز في المجهود للاستعداد للمعركة والتبشير بأن مصر هي هدف ومحور حركتنا وكل ما نفعل أو نقدم عليه، وأنه لا طريق لنا سوى الإيمان بالله ومصر إذا أردنا الانتصار على العدو».

«وكان اقتناعي وإيماني أن مصر هي الباقية أبدا، وأما الأشخاص أيا كانت مناصبهم أو درجاتهم فهم زائلون».

«كنت أشعر بتجاوب القادة والضباط الذين أكدت أسئلتهم التفاف القلوب وإجماعها حول مفهوم مصر أولا وأخيرا».

«ومن الطريف أن ذلك قد أزعج الخبراء السوفييت الذين اعتقدوا أنها حملة موجهة ضدهم، وفي الحقيقة كنت أجمع الكل حول راية مصر».

(٤٥)

ويحرص الفريق صادق في ذكاء يحسب له ويُعترف له به على أن يصور لنا بكل وضوح أن القوات المسلحة كلها كانت تؤيده في توجهاته (الرامية إلى التركيز على

المعركة والابتعاد عن صراعات السلطة)فيما عدا شلة الفريق فوزى، وأنه كان واعيا لما قد تثيره هذه «الشلة»، ولهذا فإنه ركز جهوده الذكية فى فرض رقابة مستمرة ودائبة عليهم، ومع أنه لا يذكر لنا كيف حقق هذه الرقابة إلا أنه يبدو واضحاً أنه نجح فيها بطريقة أو بأخرى، وإن كانت ثقة الفريق فوزى فى ولائه المطلق له قد أعفته من مثل هذه المراقبة، وليس من شك فى صدق ما يرويه الفريق صادق عن توجهات أفراد القوات المسلحة المصرية فى ذلك الوقت على جميع المستويات، فقد كان الألم الناشىء عن الهزيمة كفيلا بتحقيق أقصى درجات الوعى الوطنى وهو الوعى الذى مكن من تجنب قواتنا المسلحة مرتين مخاطر الانزلاق إلى الصراعات اليائسة سواء فى ١٩٦٧أو ١٩٧١.

«الحمد لله..وشكراً لله.. فلقد تبينت خلال هذه الجولات أن قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة وقادة الجيوش والتشكيلات والوحدات باستثناء أعضاء «شلة محمد فوزى» على بينة من الأمر وكان فهمهم للموقف عميقا، وكان رأيهم أن أهم ما يشغلهم هو الإعداد للمعركة وغسل عار القوات المسلحة وليس المشاركة فى صراعات السلطة أيا كان أطرافها».

«وواصل محمد فوزى اتصالاته وزياراته وكنت أحرص أن تأتى زياراتى للوحدات والقادة الذين أتصل بهم بعد زياراته وقد تجنبت الاتصال بالقادة والمديرين الذين يدينون له بالولاء، وفرضت عليهم رقابة مشددة طوال الأربع والعشرين ساعة يوميا بمساعدة عدد من الضباط المخلصين الأكفاء من رجال المخابرات الحربية، وأتاح لى ذلك المعرفة الدقيقة لجميع الاتصالات والتحركات التى يقوم بها هؤلاء القادة .

(٤٦)

والحاصل أن الفريق صادق لا يبخل علينا أيضا برواية واقعة جزئية مهمة وهى محاولة الفريق فوزى التأكد من استقطاب قوات الصاعقة إلى صفه، وكيف أن

الفريق صادق كان واعيا لهذه الخطوة، واستطاع أن يخطو خطوة موازية أكثر قوة فى نفس الاتجاه.

ونحن نعجب من أن الفريق فوزى لم ينتبه فى ذلك الوقت إلى مغزى تحركات الفريق صادق إن كانت قد حدثت، ونعجب مرة ثانية من أن الفريق فوزى لم يرد بما فيه الكفاية [وقد كانت فرص الرد كثيرة جداً] على هذه الدعاوى الواضحة التى يصرح بها الفريق صادق بكل ثقة، ودقة، وبالأسماء والتواريخ والمواقع:

«ومن بين الوحدات التى زارها الفريق فوزى وحدات الصاعقة بأنشاص وجعلهم يقسمون على الولاء للقائد العام ولخطورة هذا التصرف اضطررت إلى إرسال عدد من قادة الصاعقة الذين أثق بهم، ومنهم من عمل تحت قيادتى طوال فترة معارك الاستنزاف التى تحملت شخصيا مسئولية إدارتها وقيادتها ميدانيا. خاصة أن معظم هذه التنظيمات والمجموعات المقاتلة قد شكلتها بمعرفتى تحت مظلة المخابرات الحربية، كمنظمة سيناء العربية، والمجموعة ٣٩ قتال، التى كان يقودها ببسالة وحكمة بطل الأبطال الشهيد العميد إبراهيم رفاعى».

«أرسلت هؤلاء النفر من الضباط والأفراد إلى وحدات الصاعقة لإحباط ما دبره فوزى وتأكدت من تأمين وحدات الصاعقة تماما».

«كما تأكدت ووثقت من تأمين الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة، وكل التشكيلات».

«وطلبت من القادة شخصيا ألا ينفذوا أية أوامر إلا منى أو بالرجوع إلى شخصيا والتأكد من أننى المتحدث . وكانوا جميعا عند مستوى المسئولية كقادة للقوات المسلحة وكمواطنين شرفاء».

(٤٧)

وبنفس القدر من الفخر والجسارة والقوة والدقة يتحدث الفريق صادق عن جهده

فى تحويل دفة الحرس الجمهورى من حيث كان يمكن أن تقاد إلى معسكر الفريق فوزى حيث أدت هذه القوات دورها بالفعل فى صف الرئيس السادات.

ومع أنه ليست هناك رواية مناقضة لما يرويه الفريق صادق ، ولا حتى فى مذكرات الفريق فوزى، إلا أن رواية الفريق صادق لا تتحدث بالتفصيل عن الدافع الكامن الذى كان يمكن أن يقود الفريق الليثى ناصف إلى الانضمام إلى مجموعة الفريق أول محمد فوزى، ومع أن هذا كان وارداً بالطبع إلا أننا لانجد فى الأدبيات السياسية المتاحة حتى الآن دلائل متوافرة عليه.

والشاهد أن حديث الفريق صادق فى هذه الجزئية ينطق كما ذكرنا بقدر كبير من الفخر والجسارة والقوة والدقة بل وروح التدبير الجيد ، وليس بين أيدينا ما يدل على أن الفريق صادق كان فى حاجة إلى كل هذا الجهد لكى يؤمن جبهة الفريق الليثى ناصف، ولكن يبدو لى ـ والله أعلم ـ أنه لحرص الفريق صادق على الحديث عن دوره فى تحييد الفريق الليثى ناصف بل وتحويله إلى معسكر السادات يبدو لى أن لهذا الحديث علاقة بالدور الذى لعبه الفريق الليثى ناصف نفسه فى تأمين نقل السلطة من الفريق صادق حين أقيل فى أكتوبر ١٩٧٢ .

وكأن الفريق صادق لسبب نفسى بحت يريد أن يقول إن الليثى ناصف لم يكن أكثر منه إخلاصا للسادات فى أثناء أحداث مايو ١٩٧١ .

ونحن نعلم أنه بعد خروج الفريق صادق من السلطة عمدت بعض الأقلام والروايات فى عهد السادات إلى أن تنسب إلى الفريق الليثى ناصف الفضل الأول فى ضمان ولاء القوات المسلحة لشرعية السادات فى مايو ١٩٧١ . ومن ثم وجد الفريق صادق نفسه مسوقاً إلى أن يؤكد بتفصيلات كثيرة أنه هو ولا أحد غيره كان صاحب الفضل والجهد فى تحييد وتحويل الفريق الليثى ناصف إلى معسكر السادات:

«بقى الحرس الجمهورى كآخر قوة أقوم بتأمينها، وقطع الطريق عليها لمنعها من التدخل فى هذا الصراع لحساب أى طرف من الأطراف لتظل بعيدة عن صراع السلطة تحت مظلة القوات المسلحة».

«ولتحقيق هذا الهدف استعنت بالفريق أول سعد الدين متولى كبير الياوران وقتذاك وكنت ومازلت أعتبره واحدا من الوطنيين الغيورين على مصلحة مصر».

«ودعوت الفريق سعد الدين متولى على إفطار بمنزلى وفى الشرفة المطلة على الشارع الرئيسى للإيحاء لفرق المراقبة والتحريات التابعة للداخلية أو المخابرات العامة بأن اللقاء لا يحمل أكثر من دلالة اجتماعية».

«وتحدثت مع الفريق متولى بصراحة فهو صديق قديم لى منذ الصغر وشرحت له الموقف وخطورته والتقت وجهات نظرنا حول خطورة ما يحدث على مصر وشعبها ومستقبلها».

«واتفقت معه أن ينقل رسالة إلى اللواء الليثى ناصف عن خطورة تصرفاته وخطورة ما سيترتب عليها من نتائج سيتحمل هو بمفرده مسئوليتها وتبعتها، وأننى كرئيس أركان حرب القوات المسلحة لن أسمح لأى وحدات أو وحدات صغرى أو جماعات مسلحة بالخروج من معسكرات الحرس الجمهورى، وأننى سأعمل أوامر بنصب كمائن صواريخ مضادة للدبابات على مداخل ومخارج هذه المعسكرات لديها أوامر بإطلاق نيرانها على أى قطعة تخرج إلى الشارع.

«أردت بهذه الرسالة أن يعرف الليثى ناصف أننى اخترت أن أقف مع مصر وأننى لن أسمح للطامعين فى الاستيلاء على السلطة لتحقيق هدفهم وأننى مسيطر على القوات المسلحة».

«وكنت واضحا وضوحا شديدا فى أن أقول له إنه يقف فى صف سامى شرف وإنى أعرف ذلك جيدا وأنه قد شكل جماعات للقبض على بعض الأشخاص عندما تصدر له الأوامر من سامى شرف، ولكن فليعلم أنه لا هو ولا القوات التى تأتمر بأمره من الحرس الجمهورى بقادرة على أن تحقق أى شىء مادمت سأمنعها من الخروج من ثكناتها بالقوة».

«وبهدوء وبإيمان وطنى عميق واصلت استعداداتى، أما الفريق سعد متولى فقد نجح فى مهمته تماما».

«فبدأ الليثى يبتعد عن سامى وبدأ يتودد لكل مَنْ حول أنور السادات».

(٤٨)

وبعد هذا كله يؤكد الفريق محمد أحمد صادق بكل وضوح على أنه على مدى الفترة التالية استطاع التمكن من النجاح فى إحباط مخططات الفريق فوزى وإحكام سيطرته هو على القوات المسلحة:

«وطوال الفترة من تاريخ تسليم فوزى لى أمر إعداد القوات المسلحة للسيطرة على مقاليد الأمور..وحتى أول مايو وفقنى الله فى إحباط مخططات فوزى داخل صفوف القوات المسلحة بهدوء وفى إزالة الآثار السلبية لتحركاته واتصالاته».

«وتمكنت بفضل من الله أن أحتفظ بسيطرتى على القوات المسلحة سيطرة مبنية على الإيمان بالله وحب الوطن وتكريس كل مجهود وعمل لنصرته وبهذا ضمنت الاحتفاظ بالقوات المسلحة جميعها بعيدا عن الصراع».

(٤٩)

وفى مقابل هذا الموقف الواثق القوى الذى تمكن به الفريق صادق من فرض سيطرته وسطوته وتحقيق أهدافه وخطته، ووصوله إلى أقصى درجات الثقة والاطمئنان فى مقابل ذلك التصوير الذاتى يحرص الفريق صادق على أن يقدم صورة السادات من وجهة نظره وهو يرى أن الرئيس السادات كان فى هلع وفزع...

وهكذا يقول الفريق صادق سالبا السادات كل القدرة على التخطيط والتنفيذ بل والتآمر...

ويقدم الفريق صادق رواية طويلة يثبت لنا بها أنه كان صاحب الفضل فى الاتصال بالسادات عن طريق هيكل عن طريق عبده مباشر (وليس بطريقة مباشرة) وكاد الفريق صادق بروايته هذه ينفى تماما كل دور للسادات ولهيكل فى الاتصال به، بل إنه كما سنقرأ بكل وضوح كان صاحب المبادرة إلى إخطار الرئيس بأن القوات المسلحة ستكون مع الشرعية..وربما لم يكن الرئيس نفسه حسب رواية صادق ليتوقع أن تأتيه هدية السماء هكذا على هذا النحو .

ومن حق الفريق صـادق ـ كما ذكرنا من قبل ـ أن نورد للقارئ روايـته كاملة بما تحتويه أيضا مـن ثناء جميل وتقدير عميق لـشخصية عبده مباشر وبما تحـتويه من ثناء على هيـكل الذى لم يبادله هـذا الثناء، وانتظـر للأسف حتى أصدر كتـابه عن حرب أكتوبر بعد وفاة الفريق صادق ليسخر مما أطلق عليه دروشة صادق .

وهذه هى رواية الفريق صادق.

«ولقد كان رئيـس الجمهورية خلال هذه الفـترة فى حالة هلع وفزع لا يـعلم ماذا يفعل.. وكان يرى كل يوم الحلقة تضيق من حوله ولا نصير له.. ورغم ذلك لـم يكن لديه أية معلومات عن حقيقة ما يدبر له..فالـرقابة على تحركاته وتصرفاته مستمرة من الجماعة .. ولـم يبق معه إلا الأستاذ مـحمد حسنيـن هيكل والدكتور مـحمود فوزى والمهـندس عزيز صـدقى . وقد رأيـت بعد تفـكير عمـيق أنه لابـد من رسالة مـا إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل تنير له الطريق وتجعله على بينة من الموقف».

«كانت عـلاقتى بالأستـاذ هيكل علاقـة صداقة قوية مـبنية علـى احترام لتفـكيره ووطنيته، وكثـيرا ما كنت أستشيره فى أيـام عبدالناصر وكان دائما صاحـب التحليل المنطقى السليم وصاحب الرأى الصائب».

هكـذا يحاول صـادق أن يصور لـنا كيف أن رئـيس الأركان (الـذى هو الفـريق صادق نفسه) كان فى حاجة إلى استشارة الصحفى المقرب من الرئيس!!

«كما كنت أشعر بعمق عاطفة هيكل نحـو القوات المسلحة فكان يضع آماله كلها فى أنها هى التى ستغسل عار مصر وتعيد لها مجدها».

«كان دائما مسـتقلا فى الرأى والتفكيـر ولاينتمى لأى مجموعـة من المجموعات التى تتصـارع على المسرح السياسى ..ولـقد لاحظت أن جماعة فوزى تـكن له حقدا شديدا لوقوفه بجانب السادات وتبنيه لسيـاسة إعلامية تخدم سياسة السادات وتعتبره عقبـة يجب أن تزول، ولـم تـكن هذه الجماعـة تتورع عن أى شـىء فى سبيل تحـقيق أهدافها مما جعلنى أتخذ قرارى بتحذير هيكل سراً.

لم أجد أفضل مـن الاستعانة بالصحـفى عبده مباشر لأداء هذا الـدور، فقد كنت أتابعه وأتابع نشاطه عن كثب لفترة طويلة، وكنت أثق فيه وفى وطنيته وشجاعته، ولا أنسى له أنه المدنى والصحفى الوحيد الذى اختار بإرادته التطوع للقتال خلف خطوط

العدو فى سيناء تحت قيادة البطل إبراهيم الرفـاعى وكانت كل تقارير العمليات تشيد بشجاعته وكفاءته وروحه المعنوية العالية، وقدرته على الكتمان».

«ولم يكن اختيارى للأستاذ عبده مباشر ليـلفت نظر أحد ، فهو يتردد على القيادة العامة باستمرار، ويـلتقى بأغلب القادة . ومادام يعمل بجريدة الأهـرام فمن الطبيعى أن يلتقـى برئيس التحريـر، وكان الأستاذ هيكل كمـا سبق وقلت من القـلائل الذين اختاروا الوقوف إلى جانب رئيس الجمهورية ، وكان على اتصال مستمر به».

«ومهدت لـلأمر بأن طلبـت من عبده أن ينـقل عدة رسائل شـفوية لرئيـس تحرير الأهرام تتعلق بـالعمل ، وحين حانت اللحـظة المواتية طلبت منه أن يـنقل رسالة إلى الأستاذ هيـكل، وكنت متأكدا أن هـذه الرسالة ستصـل بأمانة إلى رئيس الجـمهورية توضـح موقف القـوات المسلحـة التى تـعى دورها تمامـا، والمؤهلة لأداء هـذا الدور، وهكذا وصلـت الرسالة إلى هيكـل فى الوقت المناسـب لينقلها لـلسادات؛ وهى أن يطمئن لموقف القوات المسلحة».

(٥٠)

ويستطـرد الفريق صادق بعـد هذه الرواية المطولـة إلى الحديث عن أثرهـا المباشر على تصرفات الرئيس السادات فيذكر أن هـذه الرسالة غيرت تماماً من حالة الرئيس السادات النفسية وجـعلته أو دفعته إلى أن يرمى القفاز فى وجـه المجموعة المناوئة له، وهكذا استطاع أن يتحداهم من فوق المنـصة فى احتفال أعدوه هم لإحراجه والضغط عليه، بل واستطاع السادات أن يقيل نائبه على صبرى فى اليوم التالى.

ويردف صادق بالقول بأن هذا تم دون أن تدرك المجموعة المناوئة للسادات أنه هو ـ أى صادق ـ كان صاحب السـر فى هذا التحدى الواضح الذى بدأ الـسادات يظهره بثقة شديدة.

«وبعد أن وصلت الرسالـة إلى رئيس الجمهورية اطمأن وبدأ يعمـل للتخلص من بعضهم، واختار أول مايـو تاريخ الاحتفال بعيد العمال ومن فوق المـنصة فى احتفال حلوان أعلن تحديه لهم رغم أن الاحتفال كان معدا لإحراجه والضغط عليه».

«وبالطبع لم تدر مجموعة فوزى سر هذا التحدى الذى أقدم عليه السادات، وكيف امتلك فجأة قلب الأسد ليلقى بالقفاز فى وجوههم، وقبل أن يفيقوا أقيل على صبرى من جميع مناصبه يوم ٢ مايو ونشر الخبر فى الصحف دونما تأجيل».

(٥١)

ولست بحاجة إلى أن أشير إلى أن الفريق صادق فى كل هذا الذى يرويه يهمل أو يتجاهل الحديث عن الآليات المتعددة التى لجأ إليها الرئيس السادات فى هذه الفترة، وقد كان السادات صاحب حيلة، وقدرة واسعة على الاتصال، وخلق المحاور، وتجديد الصلات، وخلق اتجاهات كفيلة بتحريك جماعات الضغط والمصالح ..

وليس من شأن الفريق صادق بالطبع أن يراقب هذا كله ولا بعضه ولا أن يروى ملخصه ولا تفاصيله، ولكنه، لابد له على الأقل أن يشير إلى أن حسم المعركة لم يكن متوقفاً على جهده هو وحده.

ويبدو أن الفريق صادق بحكم عسكريته كان واعيا لمثل هذا المعنى، وإن لم يكن مدركاً للطريقة المثلى للحديث عنه.

والشاهد أنه فى كل الأحوال وجد نفسه فى حاجة إلى الإشارة إلى جهد السادات فى الاتصال ببعض وحدات وقيادات القوات المسلحة فى تلك الفترة ويرجح الفريق صادق أن الفريق فوزى لم يكن قد أدرك هدف السادات من هذه الاجتماعات، ومما هو جدير بلفت نظر القارىء أن نحيله على عرضنا للفقرات التى لخص بها الفريق فوزى نفسه (فى الباب الرابع من هذا الكتاب) جدول لقاءات السادات المكثفة بالقوات المسلحة فى بداية عهده.

وهو يروى هذه الحقيقة بعبارة مختصرة لا تتناسب أبداً مع الجهد المكثف الذى بذله السادات.

«وبدأ السادات خطواته بالاتصال بالقوات المسلحة فعقد عدة اجتماعات والظاهر أن فوزى لم يفهم هدف أنور السادات من هذه الاجتماعات وكانت ثقة محمد فوزى فى ولاء مجموعته وأصدقائه قد أعمته عن أن معظم هؤلاء القوم هم فى الحقيقة فئة من المتفعين المتسلقين، وأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا».

ويردف الفريق صادق بما أحب هو أن يراه من دلالات لا بكل الدلالات:

«كانت هذه الاجتماعات فرصة لى للتأكد من أن القوات المسلحة سليمة وأن الجميع ملتزمون بحب مصر فقط».

(٥٢)

ولا يبخل علينا الفريق صادق برواية تفاصيل ما حدث فى اليوم الحاسم على مستوى القوات المسلحة وهو يوم ١٣ مايو ١٩٧١، وهو يروى ما شاهده وما شارك فيه، فى هدوء بل وبصوت هو أقرب إلى الصمت منه إلى الصوت العالى الفرح بما حقق أو أنجز:

«وجاء يوم الخميس ١٣ مايو، اليوم الحاسم فى صراع السلطة، بين رئيس الجمهورية وجماعة فوزى، فى هذا اليوم كان مقررا أن يتوجه رئيس الجمهورية لاحتفال فى مديرية التحرير ولكنه اعتذر عن عدم الذهاب، وشاع فى هذا الوقت أنه كانت هناك محاولة لاغتياله، ولم أتأكد من صدق هذه المعلومات».

هكذا يبدو الفريق صادق منطقيا حين يروى شائعة ويعترف أنه لم يعرف مدى صحتها مع ما كان له من مكانة كبيرة سواء كرئيس للأركان أو كقائد عام قادم.

❑

«وفى ظهر يوم ١٣ مايو، اتصل بى الفريق فوزى وهو منفعل بصورة غير طبيعية وأخبرنى أن الرئيس أقال شعراوى جمعة، وفى نهاية المكالمة قال إنه سيتصل بى بعد ذلك ليخبرنى بما سيجد فى الموضوع».

«وفى حوالى الساعة الثانية ظهرا طلب منى أن ألقاه فى مكتبه بالطابق العلوى فى مبنى الوزارة، وعندما دخلت مكتبه وجدت شعراوى جمعة وعددا من أعضاء الجماعة أصدقاء فوزى من الفريق الذى قدم إلى المحاكمة بعد ذلك .

«وتحدث فوزى عن اقالة الرئيس لشعراوى وتعيينه لضابط شرطة برتبة لواء يُدعى ممدوح سالم ليحل محل شعراوى فى وزارة الداخلية».

(٥٣)

ومن أطرف ما تضمنته هذه المذكرات فى جانب العلاقات الإنسانية ما يرويه صاحبها الفريق أول صادق عن حواره مع شعراوى جمعة وزير الداخلية المستقيل واقتراحه عليه بل وإلحاحه فى أن يسافر من فوره إلى الإسكندرية وأن يطلب ممدوح سالم ليهنئه بخلافته له فى منصب وزير الداخلية، ويذكر الفريق صادق أن شعراوى جمعة استجاب لنصيحته وطلب ممدوح سالم وهنأه بالفعل .

«ووجهت حديثى إلى شعراوى جمعة للتخفيف عنه قائلا: «احمد الله أنك أعفيت من هذه المهمة الثقيلة»، واقترحت عليه أن يطلب ممدوح سالم تليفونيا لتهنئته بالمنصب وليتمنى له التوفيق».

«وأجرى شعراوى المكالمة فعلا، واستمر الحديث بينى وبين الحاضرين، ولاحظت أن فوزى يدفع الموجودين نحو الإقدام على إجراء مشترك لمواجهة تصرف رئيس الجمهورية، وشاركه بعض الموجودين فى ذلك».

«تدخلت لأوضح لهم خطأ هذا وأنهم يفكرون بانفعال تحت وطأة اللحظة وتحت تأثير هذا الانفعال قد يتخذون قرارات خاطئة سيتحملون مسئوليتها واقترحت عليهم العودة لمنازلهم ليهدءوا، وكنت أستهدف بذلك إخراجهم من مبنى وزارة الحربية».

«ونصحت شعراوى جمعة بالسفر إلى الإسكندرية للابتعاد عن هذا الجو وإراحة أعصابه. وجعلت أدفع بهم دفعا إلى ترك مكتب فوزى، وقد استجابوا، وصحبتهم حتى استقلوا سياراتهم وتركوا مبنى الوزارة».

هكذا نجح الفريق صادق فى أن يؤدى بنجاح الدور الذى كان عليه أن يؤديه فى ذلك اليوم مستغلاً فى أداء هذا الدور الموهبة التى اكتشفها فيه مبكرا أبو الفدائيين عبدالعزيز على، وهى موهبة الدبلوماسية.

(٥٤)

والحاصل أنه حتى ما بعد خروج الوزراء المستقيلين من مبنى وزارة الحربية كان الفريق صادق لا يزال يخشى من أن يندفع الفريق فوزى أو يتهور..ولكن الله سلم..

وهكذا راجع الفريق صادق إجراءات الأمن وبدأ يشعر بالأمان، ويتصل بالرئيس وبقادة الأفرع الرئيسية وقادة الجيوش.

«وتمنيت من كل قلبى ألا يدفعهم فوزى بتصرفه إلى موقف حرج، معتمدا على توهمه أنه قادر على القيام بانقلاب عسكرى يستولى به على الحكم».

«تمنيت أن يستجيبوا لنصحى لهم بالهدوء وأن يكتفوا من هذه المعركة بما حدث.

«وبعد أن خرجوا وغادروا الوزارة بقيت فى مكتبى أتأكد وأراجع إجراءات السيطرة على القوات المسلحة، ثم توجهت إلى منزلى لتناول الطعام وفوجئت بإذاعة خبر استقالة الوزراء، وكان ذلك خطأ غبيا، عدت إلى مكتبى فورا لمواجهة أية محاولات».

«وهنا رأيت من واجبى أن أتصل ولأول مرة برئيس الجمهورية لأبلغه بأن القوات المسلحة خارج هذا الصراع، وأنها لا تكن أى ولاء إلا للسلطة الشرعية ولمصر، فطلب منى الحضور فورا لمنزله لحلف اليمين كوزير للحربية ، فاعتذرت له بأننى لن أترك مكانى فى القيادة حتى أطمئن ، لأن الموقف لا يسمح بغير ذلك».

«اتصلت بقادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة، وقادة الجيوش ، وقائد المنطقة المركزية والرؤساء، ومديرى الإدارات وطلبت منهم البقاء فى أماكنهم وعدم إطاعة أى أمر من أى شخص إلا إذا كان صادرا منى شخصيا».

«وكررت لهم أوامرى بعدم إجراء أية تحركات إلا بعد تأكيدها بالاتصال بى تليفونيا».

هكذا يبدو من تصوير الفريق صادق أن الأمور مضت سلسة بينما هى فى واقع الأمر كانت أصعب من هذه السلاسة.

(٥٥)

ثم يقدم الفريق صادق بعض تفصيلات مهمة عن بعض الإجراءات والخطوات والأحداث التى قادها بنفسه فى ذلك اليوم الحاسم، وهو حريص على أن يوحى بكل ما يستطيع أنه كان يتمتع بالاطمئنان إلى سلامة واستقرار الوضع بأكثر من اطمئنان الرئيس السادات نفسه، كما يشير صاحب المذكرات إلى الدور الذى قام به العميد(وهو الشهيد العظيم فى حرب أكتوبر) إبراهيم رفاعى فى تأمين وزارة الحربية ومبنى القيادة العامة فى ذلك اليوم.

«وطلبت من المجموعة ٣٩ قتال التى يقودها العميد إبراهيم رفاعى أن تؤمن وزارة الحربية ومبنى القيادة العامة».

«وطلبت من القوات التى كان سبق أن خصصتها للتدخل ضد الحرس الجمهورى أن تكون مستعدة برغم علمى بأن الليثى ناصف قد اختار الوقوف على الحياد، ثم انضم إلى رئيس الجمهورية فى آخر وقت، إلا أن حرصى على عدم ترك أية ثغرات أو أى شىء للصدفة دفعنى إلى ذلك».

«كما طلبت من عدد من مجموعات المخابرات الحربية أن تكون مستعدة لتنفيذ أى أوامر لاعتقال أى شخص يخرج عن التعليمات».

«بعد ذلك اتصلت ثانية بالرئيس السادات وأخبرته أن يطمئن تماما على وضع القوات المسلحة، فردّ قائلا إنه يبحث عنى وطلب ثانية أن أذهب لحلف اليمين، فأكدت له أنى لا أستطيع أن أترك مكانى فى الوقت الراهن.

وقبل مضى ساعة اتصل بى الرئيس متسائلا عن عدم ذهابى إليه، فأخبرته أنى

مازلت فى حاجة إلى بعض الوقت، فطلب منى الموافقة على تحريك عدد من دبابات الحرس الجمهورى إلى سراى القبة لتأمينها، فاعتذرت عن تلبية طلبه وأخبرته أننى أمرت قائد الحرس بعدم تحريك أى قوات أو أفراد وأكدت له أننى أضمن سلامته ولا حاجة لوجود أى جندى زائد عن الحراسة المتوافرة له».

«فسألنى لماذا لا تتحرك هذه الدبابات تحت إشرافى، فأجبت بأننى لا أستطيع تعديل خططى الآن، فأبدى اقتناعه، وكرر طلبه بأن أذهب إليه لحلف اليمين، ولم أذهب إليه إلا بعد مضى عدة ساعات وحوالى منتصف الليل وبعد أن تأكدت من استقرار الأوضاع».

(٥٦)

ومع أن الفريق صادق لا يتعرض فى هذه الرواية من قريب أو بعيد لدور الفريق سعد الشاذلى الذى رشحه لأن يكون رئيسا للأركان إلا أنه يحرص على الإشادة بدور كل من اللواء على عبدالخبير [الذى كان وراء محاولة الانقلاب التى وصفت بأنها نفذت لصالح الفريق صادق بعد إبعاده فى ١٩٧٢] والعميد عمران قائد الفرقة السادسة الميكانيكية ومن الملاحظ أن الفريق صادق يقتصر على هذين القائدين اللذين ظلا على ولاء له بينما يغفل تماما الإشادة بثلاثة من القادة كان لهم نفس موقفه من الفريق أول محمد فوزى حين التقوا به فى مكتبه ونصحوه بالابتعاد بالقوات المسلحة عن الصراعات السياسية، وقد روى الفريق فوزى نفسه موقف هؤلاء القادة الثلاثة وهم المشير محمد على فهمى (قائد الدفاع الجوى) واللواء محرز مصطفى (مدير المخابرات الحربية) واللواء أحمد زكى عبدالحميد (رئيس هيئة التنظيم والإدارة).

«وللتاريخ فإن دور كل من اللواء على عبدالخبير قائد المنطقة المركزية والعميد عمران قائد الفرقة الميكانيكية وقائد اللواء ٢٥ مدرع مستقل الذى كان يعسكر خلف مدينة نصر مباشرة قد ساعدا على استقرار الأوضاع ونجاح خطة تأمين القوات المسلحة وإنقاذ مصر من مغبة صراع السلطة .

ربما نتوقف هنا لنسأل: هل كان العميد عمران قائداً لفرقة وللواء مدرع فى ذات الوقت، أم أن الفريق صادق يقصد أنه بقيادته للفرقة كان أيضا قائداً أعلى للواء المدرع.

وربما كان الفريق صادق يريد أن يذكر قائد اللواء ٢٥ فنسى اسمه وربما أنه حريص على أن يتجاهله تماما.. كلها احتمالات ولسنا نملك كتابا يتضمن شاغلى الوظائف القيادية فى تلك الأوقات.

وعلى الرغم من هذا فإنه على قدر معلوماتنا المتواضعة لم يكن اللواء على عبدالخبير قد أصبح فى ذلك الوقت قائداً للمنطقة المركزية، إذ كان اللواء أحمد عبدالسلام توفيق لايزال قائداً لهذه المنطقة، وفى حيثيات حكم المحكمة على الفريق فوزى يرد اسم أحمد عبدالسلام توفيق بهذه الصفة، ولهذا السبب استدعاه الفريق فوزى فى ذلك اليوم العصيب، وليس معنى هذا أن ننفى دوراً لعبه اللواء على عبدالخبير المقرب من صادق، ولكننا نصحح معلومة وردت فى نص الفريق صادق، وقد ارتبط اسم على عبدالخبير فى ذهنه بمنصب قائد المنطقة المركزية وهو ما تولاه فعلا بعد هذا وعلى يد الفريق صادق نفسه.

(٥٧)

والشاهد بعد هذا كله أن الفريق صادق يحرص على أن يروى بعض ملامح انفعالات الرئيس السادات الممتنة له، وحرص السادات على ترقيته إلى فريق أول وتعيينه وزيرا للحربية فى نفس اليوم، ثم استمرار السادات فى الإشادة به والثناء عليه طيلة الأيام التالية.

«وعندما ذهبت إلى منزل الرئيس وجدت الدكتور محمود فوزى ـ رحمه الله ـ والدكتور عزيز صدقى وزير الصناعة وقتذاك والأستاذ محمد حسنين هيكل.

«واستقبلنى الرئيس فاتحا ذراعيه محييا مطريا كل ما قمت به..موضحا أن تدخلى جاء فى الوقت المناسب لإنقاذ مصر وإنقاذه شخصيا من كارثة محققة . فأجبته بأننى

لم أفعل له شيئا وإنما فعلت ما فعلت من أجل مصر ورجوته أن يعفينى من منصب وزير الحربية وأن أبقى رئيسا للأركان لإدارة المعركة قريبا مع العدو ولكنه أصر وأمر بترقيتى إلى رتبة فريق أول.

ربما لنتوقف هنا لنبحث عند أحد من القراء عن تفصيل يضىء جزئية رغبة الفريق صادق فى البقاء رئيسا للأركان فمن كان إذن سيصبح وزيراً للحربية؟

«وطوال الأيام التى تلت ذلك لم يتوقف عن الإشادة بى وبالدور الذى قمت به إلا أننى كنت مقتنعا بأن ما فعلته كان لصالح مصر وصالح القوات المسلحة».

(٥٨)

على أن أبلغ ما فى مذكرات الفريق صادق فيما يتعلق بأحداث ١٥ مايو هو حرصه على إثبات مدى نبله فى تعامله مع الفريق فوزى.. وهو حريص كذلك على أن يذكر أن الفريق فوزى لم يقدر نبله معه حق قدره، فقد كان فى وسعه ـ أى فى وسع الفريق صادق ـ أن يقدم للمحكمة الورقة التى كتبها الفريق فوزى بخط يده. لأنها وثيقة إدانة تؤدى إلى الحكم بإعدام بعض المتهمين ولكنه ـ على حد تعبيره ـ كان يكره أن يكون السبب فى أن يقوم السادات بتصفية هؤلاء وهو يتحدث فى هذا المعنى بثقة شديدة ويقول:

ويبقى سؤال هام: لماذا لم أقدم الوثيقة التى أعطاها لى محمد فوزى بخط يده والمنشورة إلى رئيس الجمهورية وخاصة بعد أن تم إلقاء القبض على فوزى وزملائه وتقرر تقديمهم إلى المحاكمة؟

«وللحقيقة إننى لم أكن أسعى لإلحاق الأذى بفوزى ، أو بأى من أعضاء جماعته، فبعضهم كنت ولازلت مقتنعا بوطنيته وإخلاصه وأنهم إذا كانوا قد خسروا صراعا على السلطة مع رئيس الجمهورية لاختلاف وجهة نظرهم... فذلك ما رأوه..

«وإننى إذا كنت قد اتخذت موقفا بدا أنه ضدهم إلا أنه فى واقع الأمر لم يكن إلا لتجنيب القوات المسلحة هذه الصراعات. ولم أتخذ موقفى لأكون مع رئيس الجمهورية أو ضد هذا الفريق إنما اتخذت قرارى بعيدا عن هذا النهج».

«كنت مع ماهدانى الله إليه لصالح مصر والقوات المسلحة».

«وبالتالى احتفظت بالوثيقة معى لإدراكى أنها وثيقة إدانة بالغة الخطورة قد تؤدى إلى الحكم بإعدام البعض منهم وتشديد العقوبة على البعض الآخر. وكنت أكره أن أكون سببا فى أن يقوم السادات بتصفية دموية لأعدائه».

(٥٩)

ويمضى الفريق صادق فى هذا الاتجاه فيؤكد أنه كان حريصا على أن يحظى سلفه الفريق أول محمد فوزى بأفضل معاملة ممكنة فى السجن، وقد فعل هذا كله من تلقاء نفسه وعلى مسئوليته:

«وبالنسبة للفريق فوزى فإننى لم أسمح بأن يوضع فى السجن كباقى رفاقه، فلقد أمضى مدة سجنه فى ميس أطباء مستشفى الحلمية العسكرية وكانت لديه جميع وسائل الراحة، وكانت عائلته تزوره يوميا ،وعندما أرسل لى الفريق فوزى الفريق طبيب رفاعى كامل يطلب منى زيارة الفريق فوزى ذهبت فى نفس اليوم، وكان طلب فوزى الوحيد أن ينقل إلى مستشفى المعادى وفعلا تم ذلك فى اليوم التالى وبسيارتى الخاصة . وبقى فى مستشفى المعادى».

وفى فقرة تالية يعود صادق إلى هذا المعنى ويقول :

«ولقد طلب منى أنور السادات بعد ١٥ مايو أن أستغنى عن خدمات أصدقاء فوزى وكنت أعرفهم فردا فردا ومع ذلك رفضت، ولم يخرج ضابط واحد من القوات المسلحة .

(٦٠)

ويروى الفريق صادق ـ غير آسف ولاشامت ـ أن الفريق فوزى لم يقدر له كل هذا، وبدأ يعمل ضده فور إقالة السادات له بينما كان لايزال ـ أى فوزى ـ فى السجن.

وينسب الفريق صادق إلى الفريق فوزى أنه كتب يستعطف السادات ويذكر له أن صادق كان هو السبب فى سوء التفاهم بينهما أى بين السادات وفوزى وكانت النتيجة على حد تعبير الفريق صادق أن السادات أفرج عن فوزى وأفاض عليه من خيراته.

«بعد إقالتى أرسل فوزى التماسا واستعطافا إلى الرئيس السادات يقول فيه إننى السبب فى سوء التفاهم الذى حدث بينهما فأفرج عنه السادات وأفاض عليه من خيراته.

ويردف الفريق صادق هذه الفقرة بفقرة أخرى كان من المفترض أن تأتى قبلها، ولكنه فيما يبدو أنه تذكرها بعد أن وصل إلى التعبير عن هذا المعنى.

«وقد تسببت معاملتى لفوزى فى إغضاب أنور السادات واتهمنى بأننى أجامل أعداءه إلا أننى كنت أقول له دائما إن قائد عام القوات المسلحة لا يوضع فى السجن أبدا فمن يصل إلى هذا المنصب يصبح رمزا للقوات المسلحة، وحتى لو أخطأ فيجب ألا يكون جزاؤه مايمس كرامته أو كبرياءه».

(٦١)

ويخلص الفريق صادق فى نهاية صفحات مذكراته التى نشرت فى جريدة الشعب عقب وفاة السادات إلى وجهة نظره فيما حدث فى مايو ١٩٧١ عارضاً توصيفا نفسيا ومعنويا دون أن يعطى لهذا الذى يعرضه أى إطار:

إن ما حدث فى مايو ١٩٧١ لم يكن ثورة، ولم يكن هناك رجال وقفوا أو قاوموا. بل وبعض الذين وقفوا مع رئيس الجمهورية فى آخر المطاف هم أنفسهم الذين كانوا فى جانب أعدائه فى البداية.

إن ما حدث فى مايو ١٩٧١ يجب أن يكون درسا للزعماء والقادة الذين تلتف من حولهم مجموعة من المتسلقين والمنتفعين والمتظاهرين بالولاء، فهؤلاء

باستعدادهم الأخلاقى هم الحقل الخصب دائما لكل خيانة وانحراف وهم أول الفارين عندما تدق الساعة أو يحيق الخطر».

(٦٢)

على هذا النحو المفصل عرض الفريق صادق بالقدر الكافى دوره المجيد فى ١٥ مايو ١٩٧١ حين جنب مصر كلها انقساما كان كفيلا بتأخير تقدمها ثلاثين عاما على الأقل كما ذكرت فى مطلع هذا الباب، وروى لنا كيف تصرف بحكمة بالغة وانحاز إلى الشرعية بصورة لا تقبل أى لبس، ومع هذا فبوسعنا أن نقول إنه من المؤسف أن الفريق صادق لم يتح له أن يوفى موقفه هذا حقه فيما يرويه من مذكرات، مع أنه أبرز مواقفه السياسية والعسكرية على الإطلاق، والشاهد أن الفريق صادق بعد كل هذا المجد يفضل فى حديثه لمجلة الشباب الذى نشر عقب وفاته مباشرة أن يمشى وراء نوازغ الشيطان فى الإشادة والفخر بموقفه فى جزئيات صغيرة بدلا من أن يمضى وراء نوازع النفس البشرية فى إحراز المجد الكبير:

«ولكننى أؤكد أن مساندتى للسادات فى أحداث مايو لم تكن حبا فى شخصه ولكن بهدف الحفاظ على الشرعية واستقرار الأمن فى البلاد.. لذلك طلبت من الفريق فوزى فى ذلك الوقت العودة إلى منزله وعدم مناطحة السادات لصالح على صبرى، وقمت بإلغاء أوامر فوزى التى أصدرها للقبض على بعض رجال السادات، ثم قمت بالقبض عليه فى آخر الأمر».

«إن الصداقة والأخوة التى ربطتنى ببعض أفراد مجموعة مايو أنقذتهم من الإعدام، لأننى احتفظت بالورقة التى كتبها الفريق فوزى آمرا فيها بعض فرق الجيش بالتحرك ضد السادات، ولو كنت قدمتها للمحاكمة لأمرت بإعدامه».

«لقد ساندت مجموعة مايو السادات فى البداية لأنهم كانوا يتوقعون سهولة السيطرة عليه وإبعاده فيما بعد عن الحكم.. لكن دهاء السادات جعله يخطط ويسارع فى القضاء عليهم قبل أن يقضوا هم عليه».

وفى وسع القارئ أن يطالع فى الباب الرابع من كتابنا هذا كل ما يرويه الفريق أول محمد فوزى عن دور الفريق صادق فى أحداث مايو ١٩٧١من وجهة نظره ، فقد وفى الفريق فوزى دور الفريق صادق حقه من الانتقاد غير المبرر والتجنى على إخلاصه لوطنه بتصويره تمثيلاً.

ولعل هذا يجعلنا بالتالى نفضل اللجوء إلى مصدر ثالث غير الرجلين يلخص لنا من زاويته هو لا من زاوية هذا أو ذاك ما حدث بالفعل، وقد رأيت أن ألجأ إلى جمال حماد وهو عسكرى معاصر للرجلين وهو يلخص بطريقة [خارجية] وقائع ما حدث مستنداً إلى حيثيات حكم المحكمة التى حاكمت الفريق أول محمد فوزى ومعلقاً وشارحاً لهذه الحيثيات التى تصور فى ذات الوقت طبيعة الدور الذى قام به الفريق أول صادق فى إجهاض محاولة التمرد على حكم السادات.

ونحن نؤمن بالطبع بأن الحكم القضائى هو عنوان الحقيقة، ولهذا فإن الحيثيات التى صدرت المحكمة بها حكمها قد تغنينا وتغنى الفريق أول صادق عن الحديث عن طبيعة الدور الوطنى الذى قام به فى تلك الأحداث ، وهى ـ أى الحيثيات ـ قد تكون بمثابة أفضل رد على ما يثيره الفريق أول محمد فوزى من تشكيك فى حقيقة دور الفريق صادق :

وهذا هو نص ما ننقله عن جمال حماد وحيثيات المحكمة:

«ورد فى حيثيات حكم المحكمة أنه على أثر إقالة السيد شعراوى جمعة فى ١٣ مايو هرع المحكوم عليه (فوزى) إلى مكتبه لم يغادره، وتناول فيه طعام الغداء وجاءه السيد شعراوى جمعة وسعد زايد ثم انضم إليهم السيد سامى شرف، وجلسوا فى مكتبه يبحثون ما يمكنهم أن يفعلوه.وكان السيد سعد زايد يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يقول مفيش كتيبة دبابات معايا أشتغل بها».

«وفى هذا الجو المشحون بالثورة والانفعال كان فوزى قد أمر تلقائياً سكرتيره باستدعاء قائد المنطقة المركزية اللواء أحمد عبد السلام توفيق، ورئيس هيئة العمليات

اللواء سعد مأمون، وقائد الشرطة العسكرية العميد نورالدين عفيفى من منازلهم وقت الظهيرة للتواجد فوراً فى مكاتبهم على التليفون، وهؤلاء الثلاثة لا بد من تواجدهم فى حالة تحريك أية قوات».

«هنا يقول فوزى فى المحكمة رداً على سؤاله حول سبب استدعائه لهؤلاء القادة إنه بالنسبة لقائد الشرطة العسكرية ادعى أنه طلبه للاستفسار منه عن سبب تواجد إحدى دوريات الشرطة العسكرية فى ميدان التحرير، ولكن ما ثبت من شهادة العميد نور الدين عفيفى قائد الشرطة العسكرية أنه طلب بواسطة سكرتير المحكوم عليه (أثناء وجود السيد شعراوى جمعة فى مكتبه ، وفى توقيت مختلف تماماً عن موعد تواجد هذه الدورية التى لم تكن سوى دورية عادية).

«وقد ثبت أن أول استفسار بشأن هذه الدورية قد جرى بواسطة محمد السعيد سكرتير السيد سامى شرف فى حوالى الساعة السادسة مساء ، أى بعد استدعاء قائد الشرطة العسكرية بأكثر من ساعتين».

«وبالنسبة للواء سعد مأمون رئيس هيئة العمليات فقد كذب ما ادعاه محمد فوزى بالنسبة للسبب الذى استدعاه بخصوصه».

أما اللواء أحمد عبد السلام توفيق قائد المنطقة المركزية فقد ذكر أمام المحكمة أنه دعى إلى مكتبه، ولم تحدد له أسباب الاستدعاء، فى الوقت الذى ادعى فيه فوزى أنه استدعاه ليستفسر منه عن سبب وجود دورية الشرطة العسكرية فى ميدان التحرير، وقد اقتنعت المحكمة بأن هذا السبب على فرض صحته لا يستدعى تواجد كل هؤلاء القادة فى مكاتبهم وعلى التليفون».

(٦٤)

وتمضى هذه الحيثيات التى ينقلها ويعلق عليها اللواء جمال حماد لتضيف أبعاداً وتفصيلات لم يعن الفريق صادق نفسه بإبرازها فيما يرويه من ذاكرته التى لا يمكن أن تحيط بالطبع ولا احتفظت بكل هذه التفصيلات :

«وفى نفس اليوم وبعد وصول السيد شعراوى جمعة إلى وزارة الحربية استدعى فوزى عن طريق سكرتيره المقدم جلال عبد الحميد ثلاثة من كبار قادة القوات المسلحة هم اللواء محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى، واللواء أحمد زكى عبدالحميد رئيس هيئة التنظيم والإدارة، واللواء محرز مصطفى مدير المخابرات الحربية.

«وكان المتهم (أى الفريق فوزى) يظن أن ولاء هؤلاء القادة له مضمون، وأنهم سيساندونه فى موقفه، فطرح عليهم ما حدث "إقالة على صبرى ثم شعراوى جمعة»، وأن الرئيس ينوى تصفية الشلة، وأن الدور سيأتى عليه، ولذا فقد قرر أن يستقيل تضامنا مع شعراوى جمعة».

إلا أن القادة الثلاثة نصحوه بعدم الاستقالة إذ أن موقفه يختلف عن موقف أى وزير آخر، فهو بالإضافة إلى منصبه السياسى كوزير للحربية يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة كوزير للحربية، وأنه من الواجب عليه بالنسبة لظروف البلاد أن يبقى فى مركزه، ولكنه رد عليهم قائلاً :«إحنا شلة متضامنة، وحتى لو واحد فينا غلط لازم الثانى يغطى عليه».

«وفى نفس هذا الوقت كان فوزى قد استدعى الفريق محمد أحمد صادق رئيس أركان حرب الجيش لهذا الغرض، وذكر له نفس القصة فى حضور القادة الثلاثة، وأضاف أنه يشعر أن الرئيس لا يثق فيه، وأنه يجب عليه أن يستقيل قبل أن يأتى عليه الدور فى الإقالة .فرد عليه الفريق صادق أنه يجب أن يتذكر أنه قائد عام القوات المسلحة، وعليه أن يبقى فى مركزه، وأنه إذا كان الرئيس لا يثق فيه فسوف يحيله إلى المعاش».

«وكان الفريق محمد أحمد صادق رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة قد حضر خلال هذه الفترة بناء على استدعاء الفريق فوزى له، وقد ذكر الفريق محمد أحمد صادق أنه بمجرد دخوله ذكر له محمد فوزى فى غضب : أن الرئيس قد أقال السيد شعراوى جمعة، وعين لواء من الشرطة يدعى «ممدوح سالم» ليتولى منصب وزير الداخلية، وأن هذا التصرف قد صدر من الرئيس أنور السادات، الذى وضعوه بأنفسهم على الكرسى ليحكم مصر رغم كل ماضيه، ورغم كل ما سجل عليه هو وأسرته فى الملفات» .

وتؤكد الحيثيات رواية الفريق صادق التى قرأناها فى النصوص التى نقلناها عنه:

«وردّ عليه (أى على الفريق محمد فوزى) الفريق محمد أحمد صادق بأن السيد ممدوح سالم ضابط شرطة ممتاز، وهو من أوثق الناس صلة بالسيد سامى شرف، وكذا بشعراوى جمعة إذ أنه عضو فى التنظيم الطليعى ».

«وخلال هذه الفترة أيضاً اتصل الفريق فوزى بمدير المخابرات العامة أحمد كامل وأنبأه بتعيين السيد ممدوح سالم وزيراً للداخلية واستفسر منه عن أى أخبار جديدة يعلمها عن الموقف، واتضح أن أحمد كامل كان وقتئذ بعيداً عن الصورة».

«وفى هذه الأثناء وصل السيد سامى شرف، ومن شدة انفعاله انهار باكياً بمجرد دخوله إلى مكتب الفريق فوزى، نتيجة لموقف رئيس الجمهورية الذى اعتبره غدراً بهم، وقال السيد سامى شرف للحاضرين إن الرئيس طلب منه إبلاغ السيد شعراوى جمعة أنه قد قبل استقالته، ولما سأله عن السبب أخبره أنه أهمل فى تبليغه عن محادثة تليفونية تم تسجيلها بواسطة جهاز المراقبة التابع للمباحث العامة، دارت بين فريد عبد الكريم أمين الاتحاد الاشتراكى بالجيزة والصحفى المعروف محمود السعدنى، وهو حديث يدل على وقائع فى منتهى الخطورة لأن بعضها يتعلق بالرئيس شخصياً».

«وتوتر الجو فى مكتب الفريق محمد فوزى، وأخذ سعد زايد يتمشى جيئة وذهابا فى المكتب، وقد بلغ الانفعال به حداً جعله يكرر عدة مرات طبقاً لأقوال الفريق محمد فوزى فى التحقيق: مفيش كتيبة دبابات معايا أشتغل بيها».

❑

وعند هذا الحد يردف جمال حماد بما يدعم صحة رواية الفريق صادق التى ذكرناها من قبل.

«وكان وجود الجماعة فى مقر القيادة العامة على هذه الصورة أمراً يثير الشبهات ضدهم بلا جدال، ولذا وجه إليهم الفريق محمد أحمد صادق نصيحته بالعودة إلى منازلهم كى تهدأ أعصابهم، وكان يستهدف فى الواقع إخراجهم من مبنى وزارة

الحربية، كما نصح الفريق محمد أحمد صادق السيد شعراوى جمعة بالسفر إلى الإسكندرية للابتعاد عن هذا الجو وإراحة أعصابه المتعبة، وتعمد الفريق محمد أحمد صادق أن يصحبهم إلى فناء الوزارة الخارجى حتى استقلوا سياراتهم وتركوا المبنى فى سلام».

ومن الطريف أن المعنى الواحد عبر عنه تماماً فعلان مختلفان، فالفريق صادق يقول إنه أخذ يدفعهم دفعا إلى الخروج من مبنى الوزارة، وجمال حماد يروى الأحداث فيقول إن الفريق صادق تعمد أن يصحبهم إلى الفناء حتى استقلوا السيارات وتركوا المبنى.

(٦٥)

لعلنا بعد هذا فى حاجة إلى الدعاء بأن تتاح للقارىء عن قريب الفرصة لقراءة النصوص الكاملة لمذكرات الفريق صادق، ليطالع كثيراً من الآراء عن الشهور السبعة عشر التالية التى قضاها الفريق صادق وزيراً للحربية مع الرئيس السادات، والشاهد أن الفريق محمد أحمد صادق يلخص فى حديثه لمجلة الشباب مسار علاقته بالسادات تلخيصا يكاد يودى بكل قيمة للإنجازات المجيدة التى حققها هو نفسه (أى الفريق صادق) فى عهد السادات، ومن المؤسف أن الفريق صادق يروى مواقفه المجيدة والبارزة على نحو لا يليق إلا بالأفراد العاديين فى رواية أحاديثهم عن تطور علاقتهم ببعض، ويبدو حديثه أشبه ما يكون بحديث أفراد العائلات فى جلسات الصلح التى تسبق إقرار الطلاق أو الرجعة.

ويتجاهل صادق ـ دون أن يقصد ـ أنه كان فى وقت من الأوقات بمثابة الرجل الثانى فى مصر، بل يتجاهل أنه لم يحظ وزير حربية فى عهد الثورة كله بمثل ما حظى به هو من قوة وقدرة على الحركة والتفكير بل والتعبير بلا حدود.

ومع هذا نفهم من حديث الفريق صادق (الذى بين أيدينا) كيف أنه بالفعل كان يتمتع بقوة ونفوذ لم يتمتع بهما غيره، وربما كان هذا هو أبرز الأسباب التى دفعت

وزراء الخارجية ومستشار الأمن القومى جميعا كى يقلقوا من تصرفاته ومن وجوده على حد روايته، وهو يعبر عن هذا المعنى بأنهم كانوا يصطادون فى الماء العكر بينما كانت علاقته بالسادات وصلاحيات منصبه كفيلة لو استخدمها بحكمة (أو بحنكة) بالقضاء التام على كل هؤلاء وغيرهم:

لننظر على سبيل المثال فى العبارات الغريبة التى يعبر بها وزير الحربية، القائد العام، نائب رئيس الوزراء، الفريق الأول عن مزاحمة آخرين له أو بالأحرى وحسب تعبيره هو مزاحمته هو لهم، فقد كان لكل منهم طموح إلى الاستئثار بالسلطة وسنعجب من أن يكون الذين اختصهم الفريق صادق بهذا الوصف بعيدين تماماً عن مزاحمته والوصول إلى المكان الذى هو فيه بالفعل. ومن العجيب فى أمر النفس البشرية أن الفريق صادق لا ينتبه إلى سر نكبته ولا المسئول الحقيقى عنها، وبدلا من ذلك يحوم بالشبهات حول من لا يمكن لهم أن يكونوا منافسين له ولا مزاحمين.. ونحن نراه على سبيل المثال فى حديثه إلى مجلة الشباب يركز على اتهام السيدة جيهان السادات، مع أنه لم يكن من الممكن لها بأى حال من الأحوال أن تحل محله ولا أن تزيحه عن موقعه فضلا عما سنذكره بعد قليل، كذلك فإنه يركز على ثلاثة آخرين هم الزيات ومراد غالب وحافظ إسماعيل ومن المفيد أن نتأمل وضع هؤلاء الثلاثة لا فيما تلى هذه الفترة من عهد السادات ولكن فى الفترة التى يتحدث عنها الفريق صادق، أى ما بين مايو ١٩٧١ وسبتمبر ١٩٧٢. فأما السيدة جيهان السادات - شأن كل مواطن - فلم تكن أمانيها تتعدى الأمل فى أن تحقق القوات المسلحة النصر وإزالة آثار العدوان، ولم يكن دورها قد تنامى فى ذلك الوقت لا فى الحياة العامة ولا فى الحياة التنفيذية، أما مراد غالب فقد كان [فى الفترة التى عاصر فيها صادق كوزير للحربية] سفيراً فى موسكو ثم وزيراً للخارجية حتى سبتمبر ١٩٧٢ فسفيراً بوزارة الخارجية منذ ٨ سبتمبر ١٩٧٢ وقبل إقالة صادق ، ومحمد حافظ إسماعيل وكان وزيراً للدولة للشئون الخارجية ثم مستشاراً للأمن القومى، ومحمد حسن الزيات وكان مندوبا لمصر فى الأمم المتحدة حتى يناير ١٩٧٢، حيث أصبح وزير دولة للإعلام حتى سبتمبر ١٩٧٢، حين أصبح وزيراً للخارجية قبل إقالة الفريق صادق بثمانية وأربعين يوماً فقط.

هل كان لهؤلاء إذن من مواقعهم هذه التى حددناها بالتواريخ ما يكفل لهم التأثير

والتكدير على مكانة صادق؟ وهل كان الزيات الذى خلف مراد غالب فى وزارة الخارجية يتفق مع سلفه على صادق ؟ لماذا؟ وكيف؟

ومع كلٍّ فلنقرأ هذا النص المنسوب إلى الفريق صادق:

«لقد عرفت السادات وزوجته عن قرب فترة طويلة من الزمن، جعلتنى أعرف الكثير من أسرارهما مما جعلهما يخشيان أن أفضحهما».

«كذلك فهناك الحقيقة المرة التى نعرفها جميعا وهى رغبة زوجته فى ممارسة الحكم بجانبه، وكان يضايقها منى نصيحتى لها بالابتعاد عن السياسة، وكذلك عدم تنفيذ مطالبها الخاصة بالتعيينات والترقيات».

«ولكن كان للسيدة جيهان تأثير السحر على أنور السادات بذكائها الشديد، مما جعله لا يعصى لها أمرا».

«كذلك فإن مراد غالب وحافظ إسماعيل والزيات كثيرا ما كانوا يصطادون فى الماء العكر،ولعبوا دورا كبيرا فى الوقيعة بينى وبين السادات، لأن كلا منهم كان يتصور أنى العقبة الوحيدة أمام طموحه فى الانفراد بالسلطة.. لذلك فقد اتفقوا جميعا على إزاحتى من طريقهم».

(٦٦)

ثم انظر إلى هذه القصة الطريفة التى يرويها الفريق صادق عن جهود السيدة الأولى لدى زوجة مدير المخابرات السابق صلاح نصر، وهو فى السجن (!!).

ومن العجيب أن الفريق صادق نفسه يثير بمثل هذه القصة الغبار حول نفسه، فكأنه وهو وزير للحربية كان لايزال على علاقة بصورة أو بأخرى بمدير المخابرات السابق تتخطى حدود الصداقة والزمالة إلى حدود أخرى تتعلق بأدلة إدانة على صادق نفسه ! وربما كان لهذه الأدلة علاقة بعيدة أو قريبة بما اتهم به صادق بعد ذلك فى قضايا التعذيب ، ولا ننسى فى هذا الصدد أن الفريق صادق كان مديراً للمخابرات الحربية فى الوقت الذى كان فيه صلاح نصر مديراً للمخابرات العامة.

«وعندما أراد السادات أن يتخلص منى كان صلاح نصر مدير المخابرات الأسبق في السجن، فقامت جيهان باستدعاء زوجته لمقابلتها لأمر «مهم وعاجل».

«فلما حضرت أخبرتها بأن السادات يعلم أن فى حوزة صلاح نصر أدلة تديننى، وأنه يطلب هذه الأدلة بأى ثمن، وإن تعاون صلاح نصر فى هذا سيكون دافعا قويا لإعادة السادات لصداقته معه».

هل لنا أن نقف لنسأل: ترى من هو الشخص الذى كان السادات سيقدم إليه أدلة اتهام صادق فيصدر قراراً بإزاحة صادق لمصلحة السادات؟

ومع هذا فلنستأنف قراءة الرواية:

«لكن زوجة صلاح نصر أكدت أنها لا تعرف شيئا عن هذا الموضوع،وأنها ستسأل عنه زوجها، وفعلا أخبرته فعرف الرجل ما يراد بى، وأرسل إلىّ أحد أصدقائه ليحذرنى من السادات وينبهنى بأنه ينوى التخلص منى بوسيلة تقضى على سمعتى وشرفى أمام الناس، لكننى للأسف لم أعر هذا الموضوع اهتماما كافيا واعتبرته مبالغة».

❏

ومن الطريف بعد هذا كله أن يعترف الفريق صادق بأنه مندهش من أن السادات أقاله فى نفس اليوم الذى وعده فيه باستخلافه له كرئيس للجمهورية :

«والمدهش أن السادات أقالنى فى مساء نفس اليوم الذى كان يؤكد لى فى صباحه أننى أبذل مجهودا كبيرا بدون مقابل لدرجة جعلته يفكر فى أن يعيننى خليفة له».

«وهكذا وجدته يتصل بى تليفونيا فى المساء ليطلب منى عدم مغادرة منزلى قبل وصول سكرتيره الخاص فوزى عبدالحافظ الذى يحمل لى رسالة مهمة، فهل تعرف ماذا كانت الرسالة؟ كانت قبول السادات لاستقالتى التى لم أتقدم بها».

وفى النهاية يلخص الفريق صادق روايته ورؤيته للسادات فى قوله:

«لقد نجح السادات فى التخلص من خصومه ببساطة شديدة، لأنه كان يتمتع بذكاء شديد ممزوج بغدر أشد».

ربما يبدو من المهم هنا أن نلقى بعض الضوء على الجزئية الخاصة بوعد الرئيس السادات للفريق صادق باستخلافه له، ومن حسن الحظ أن نصا فريدا قد نشر للأستاذ عبده مباشر حول هذه الجزئية، وقد جاء حديثه عنها فى أثناء تصديه للرد على الأفكار التى كان المشير الجمسى قد تورط فى تبنيها عند الاحتفال بذكرى مرور خمس وعشرين سنة على نصر أكتوبر العظيم، وفى إحدى هذه المقالات ذكر عبده مباشر بوضوح أنه سأل المشير الجمسى عما إذا كان الرئيس السادات قد وعده باستخلافه على نحو ما وعد الفريق صادق من قبل، وهذا هو النص الذى نشر فى جريدة الأهرام (١٧ يناير ١٩٩٩):

«وتمضى الأحداث ويختار السادات الجمسى لمفاوضات الكيلو ١٠١، أول اتصال عسكرى بين مصر وإسرائيل بعد الانتصار، ويتردد الرجل فى قبول المهمة. ولكنه يقبل بالتوجه إلى المفاوضات امتثالا لأمر السادات. ويزداد إعجاب السادات بالجمسى، ويختاره لمنصب وزير الحربية القائد العام ويتحدث السادات عنه بكل التقدير، ثم يسجل على نفسه أن يظل الجمسى وزيرا للحربية مدى الحياة.

وأتوقف أمام هذا الوعد الذى صدر عن سياسى شديد الدهاء. وأعتقد أن مصر لم تعرف قائدا ورئيسا بقدرات السادات ودهائه وأقول لنفسى، إن استمرار وزير حربية مدى الحياة، أمر غير منطقى خاصة فى مصر، وتحديدا إذا ما كان هذا الوزير من صناع نصر أكتوبر وتساءلت، ماذا يمكن أن يحدث، إذا ما أراد السادات التخلص من هذا الوزير؟ وكيف له أن يتخلص من هذا الوعد؟

وعندما وصلت إلى هذه النقطة شعرت بقشعريرة شديدة، فالاحتمالات كلها تقود إلى طريق واحد ونهاية واحدة.بعدها بدأت اتساءل: هل أحمل ما توصلت إليه إلى الجمسى أم لا؟ وظللت فى حيرة، فاقتحام ملعب الكبار له ثمن، ولكننى رأيت من واجبى أن أطرح أمامه استنتاجى. ودوره أن يعيد التفكير فى الأمر، ويخلص إلى ما يراه من نتائج. وعلى قدح من القهوة بمكتبه صارحته بما عندى، واستمع الرجل

بكل سعة الأفق. ولم أنتظر تعليقا. وأمام الهدوء الذى استقبل به حديثى استنتجت أن فى الأمر سراً آخر، فسألته: هل وعدك السادات بمنصب رئيس الجمهورية؟

وعندما بدت الدهشة على وجهه قلت له: إن السادات سبق أن وعد الفريق أول محمد صادق بمنصب رئيس الجمهورية وقال له: إنه ـ أى السادات ـ لا يجد أفضل منه لكى يسلم له البلد، فهو الأكثر عملا، بل والأكثر تفانيا فى هذا العمل دون أن ينتظر أو يتطلع إلى مقابل، وأن هذا هو النمط الذى يستحق أن يختاره لهذه المسئولية. فسألنى الجمسى جادا: هل حدث هذا فعلا؟ فأكدت له أن ما أقول هو الحقيقة.

ولم يكن هناك ما يقال أكثر من ذلك فانصرفت تاركا الرجل لأفكاره.

وما زال التساؤل: لماذا صمت ٢٥ عاما؟ ولماذا يتحدث الآن؟

(٦٨)

ويتضمن حديث الفريق صادق لمجلة الشباب فقرة تدلنا بمنتهى الوضوح على مدى وضوح الفكر الاستراتيجى الذى كان يتمتع به السادات منذ مرحلة مبكرة قبل حرب أكتوبر، وعلى الرغم من أن المعنى الذى تتضمنه هذه الفقرة قد ورد أيضا بوضوح فيما رواه قادة حرب أكتوبر عن مواقف السادات وتوجيهاته قبل الحرب، إلا أن ورود نفس المعنى بذات الوضوح فى مذكرات الفريق صادق يحمل أقصى قدر من الأهمية والدلالة، لأنه ينطق بما لا يقبل أى مجال للشك بتقاعس الفريق صادق نفسه ـ لسبب أو لآخر ـ عن أداء الدور الذى كان رئيس الدولة يطلبه من وزير الحربية القائد العام.

ومن العجيب أن الفريق صادق لا ينتبه فيما يرويه فى أيامه الأخيرة إلى ما حدث بالفعل من عبور القوات المسلحة فى ١٩٧٣ وتحقيقها النصر المجيد، فإذا هو فى الحديث المنشور فى ١٩٩١ لا يزال يردد أقوال المبشرين بالهزيمة فى ١٩٧١ و١٩٧٢

[وهى الرؤية التى تبناها الفريق صادق حتى أودت ـ للأسف ـ بكل مجده وماضيه] أن العبور من أجل متر من الضفة الشرقية سيساعد العدو على الرد علينا بهجمات شديدة!! وكأنه من الممكن أن تندلع المعارك بلا هجوم من العدو(!!)

هكذا فإن الفريق صادق دونا عن غيره من كل قادة القوات المسلحة فى كل المراحل، أدان نفسه إدانات واضحة دون أن يدرى، واستغرقه الفهم القديم حتى استطرد إلى أن السادات لا يفهم فى العسكرية!! بينما هو فى نفس الحديث ينطق للأسف الشديد بأقوال لاتختلف كثيراً عن الأقوال المرسلة التى روج لها المبشرون بالهزيمة، والذين خانوا بلادهم، وظلوا ـ حتى الآن ـ يزعمون أنهم يخدمونها، ومن حسن الحظ أن الحقائق الواضحة كفيلة بالرد على مثل هذه الفقرة التى ترد منسوبة إلى هذا القائد القديم:

«كان السادات يطالبنى بسرعة العبور ولكن لتحرير متر واحد فقط من الضفة الشرقية لكى يتفاوض بعدها ويستغل هذا العبور سياسيا ودوليا. وأكد لى أننى بذلك سأدخل التاريخ من أوسع أبوابه.. ولكن الحرب التى كنت أخطط لها كانت تهدف إلى الوصول إلى المضايق، وأخبرت السادات أن العبور من أجل متر من الضفة الشرقية سيساعد العدو على الرد علينا بهجمات شديدة لن نتحملها.. فاتهمنى بأننى أشحن القادة ضده، فأجبته بأننا جميعا ملتزمون بتنفيذ أوامره، لكن ليس قبل أن نستعد للحرب استعدادا حقيقيا».

هكذا يحدد صادق بوضوح أنه كان يشترط لقيامه بتنفيذ الأوامر مرحلة معينة وليس قبلها!!

ثم نقرأ فقرة عنترية لا تتفق مع ما حدث بالفعل ولا مع ما رواه الفريق صادق نفسه فى فقرة سابقة:

«وتمسك السادات برأيه مما جعلنى أواجهه بالحقيقة التى يعرفها الجميع، وهى أنه لا يعرف شيئا عن العسكرية، فخدمته السابقة بالقوات المسلحة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة أمضاها فى سلاح الإشارة».

ويستطرد صادق مدينًا كل قيادات الثورة بكل وضوح على نحو ما يفعل كل مَنْ يصل به اليأس والأسى من تصرفات بعض قادتها:

«وأؤكد هنا أنه لو وجد القائد الذى يعلن وجهة نظره أمام رئيس الدولة منذ عام ١٩٥٢ لتجنبت مصر خسائر جسيمة».

(٦٩)

والشاهد أن الفريق صادق حريص ـ دون أن يدرى ـ على أن يدين نفسه إدانات بالغة لم يتمكن ـ وربما لم يفكر ـ السادات نفسه من توجيهها إليه، وانظر إليه وهو ينتقد أداء السادات فى حرب ١٩٧٣ فيسخر (بغرور لا مبرر له) من الجسارة والشجاعة التى جعلته يبدأ الحرب وهو غير مزود إلا بذخائر قليلة، بل ويسخر الفريق صادق من وجود القائد فى مركز القيادة المجهز للقيادة»، وكأنه أحد الشبان الذين تقتصر معلوماتهم العسكرية على قراءة تاريخ العصور الوسطى فيصبح الواحد منهم متأثراً بما يقرأ عن حروب الجاهلية والعصور الوسطى وما فيها من نزال ومبارزة ويظن أن إدارة المعارك لابد أن تكون على هذا النحو ومن الميدان نفسه أو أقرب ما تكون إليه!!

لنقرأ هذا الذى يرويه صادق عن الحرب التى لم يكن له شرف المشاركة فيها:

«نعم دخلنا حرب ١٩٧٣ ولكن دعنى أتساءل: كيف دخل السادات الحرب وهو لا يملك من الذخيرة إلا ما يكفى ثلاثة أيام فقط كما قال هو نفسه؟».

«ما حدث هو أن الذى أدار المعركة هو السادات، بخبرته العسكرية المحدودة التى لا تسمح له باتخاذ قرار سليم، وهكذا ارتكب العديد من الأخطاء العسكرية التى لا يقع فيها طالب فى الكلية الحربية».

«وما أضحكنى ومازال يضحكنى أن السادات كان يتخذ قراراته العسكرية فى أثناء الحرب وهو جالس على بعد مئات الكيلومترات من القتال، والمفروض أن يكون على بعد كيلومترات قليلة من الخط الأمامى».

(٧٠)

ومع كل هذا يرد الفريق صادق على ما أثاره أحمد بهاء الدين فى كتابه «محاوراتى مع السادات» عن مدى إهماله لواجبه فيقول:

«ولماذا لم يقم(أى السادات) بمحاكمتى وإعدامى إذا كنت حقا كذلك؟.. إن السادات لم يستطع أن يزور التاريخ رغم المجهود الكبير الذى بذله لتشويه صورتى أمام الشعب الذى يعلم تماما ما حققته القوات المسلحة من إنجازات عظيمة فى عهدى.. وحبى للوطن معروف للجميع ولست فى حاجة إلى محكمة لإقرار هذا الحب، ولم أكن يوما «دلدولا» لأحد».

❑

ويحرص الفريق صادق على أن يبرر ما انتقده فيه كثيرون من الصحفيين والمعلقين من وجوده بصورة مبالغ فيها فى الحياة العامة، ومن الغريب أن الفريق صادق لايزال معتزاً بالتلميع الإعلامى الذى حظى به وحافظ عليه، ومن الغريب أيضا أنه حريص على أن يذكر أنه كان يعرف أن السادات كان يتضايق من هذا، ولست أدرى كيف فات الفريق صادق أنه بهذا السلوك يصعد الخلاف الذى لاينبغى أن يوجد فى مثل هذه الظروف ويقول:

«لم أشكل حزبا فى الجيش ولكن أغلبية الجنود والشعب كانت تحمل لى والحمد لله كل محبة وتقدير».

....

«كل ما حدث أن أخبار الجيش كانت تهم الجميع بعد ١٩٦٧،وكان طبيعيا أن أكون محط أنظار الجميع لأنى المسئول الأول عن الجيش، وبالتأكيد كان هذا التلميع الإعلامى يضايق السادات لأنه كان يحب أن يلفت وحده أنظار الصحافة العالمية والإعلام، ولم يسمح يوما أن ينافسه أحد فى هذا المركز».

ويحاول الفريق صادق بعد فوات الأوان بالطبع على أن يغير من الصورة التى رسمت لعلاقاته مع السوفييت وينبغى هنا أن نضىء الموقف للقارىء بأن نذكر أن الفريق صادق الذى كان لايكف عن افتعال الأزمات مع السوفييت، كان من أول الذين أبدوا ضيقهم من قرار السادات بالاستغناء عن خدمات الخبراء السوفييت. وقد فسر المراقبون هذا بأنه تضايق من السادات لأنه قطع عليه خطا طويلا كان يسير فيه، وأضاع منه مجداً كان يبنيه بدأب وتؤدة، ومن العجيب أن الفريق صادق بعد عشرين عاما (أو ١٩ عاما بالتحديد) يقدم آراء مختلفة عن الآراء التى كان ينادى بها، وهو يتعمد فى ذكاء أن يتحدث عن حرصه على الاستقلال الوطنى، كما أنه يمر سريعا على واقعتين خطيرتين الأولى تتعلق بطلاء أسلحة قديمة وتقديمها على أنها أسلحة حديثة، والثانية قيامه بإسقاط طائرات إسرائيلية بدون الاتفاق مع السوفييت.. ويبدو لنا أن حديث الفريق صادق عن هاتين الواقعتين يحتاج إلى تمحيص وتحقيق :

«وأؤكد أننى لم أحارب السوفييت لأسباب شخصية كما اتهمت بذلك، فقد كانوا أصدقاءنا الوحيدين بالإضافة إلى أنهم حضروا إلى مصر بناء على طلب عبدالناصر لتدريب الجنود المصريين على الأسلحة الجديدة».

«لذلك أنا لم أكن ضد السوفييت، لكن أهدافنا تعارضت بعد أن طلبوا إقامة بعض قواعد عسكرية لهم فى مصر، بالإضافة لبعض تصرفاتهم المخجلة تجاهنا.. فقد قاموا بمنحنا صفقة أسلحة قديمة بعد دهانها بطلاء حديث، كما اكتشفنا بعض الخبراء الروس وهم يقومون بتهريب الذهب المصرى إلى الخارج.. وكذلك كان الروس يرفضون إسقاط الطائرات الإسرائيلية التى تقوم بتصوير جيشنا، مما دفعنى إلى إسقاطها دون التشاور معهم مما أغضبهم لفترات طويلة ودفعهم إلى تقديم العديد من الاحتجاجات للسادات ضدى».

❑

وفى موضع سابق يقدم الفريق صادق تبريرا ذكيا للموقف الذى وضعه فيه السادات مع علمنا أن كل هذه الأقوال التي يشير إليها صادق لم يكن مصدرها

السادات وإنما كانت أراجيف تنطلق بصورة تلقائية نتيجة لصداقات صادق المعلنة على النطاق الصحفى فيقول:

«لقد أشاع السادات أننى عميل لأمريكا حتى يعادينى اليسار فيستطيع السادات بسهولة أن يتحرك تجاه الأمريكان».

❑

ويجد الفريق صادق نفسه ملزما بتقديم تفسير كاف لموقفه من أجل السعى لطرد الخبراء السوفييت وهو ما تم بالفعل على يد السادات، ويبدو تعليق الفريق صادق قاصرا عن أن يفسر تحركاته وتوجهاته وآراءه بل وتصرفاته وقراراته التى أفاض كل من محمد حافظ إسماعيل وسعد الشاذلى فى تفصيلها على نحو ما أوردناها فى الباب الثالث من كتابنا «من أجل السلام» والباب الثانى من كتابنا «النصر الوحيد»:

«نعم لقد أشاع السادات عنى هذا، لكن صدقنى إنه لم يكن لى يد فى إصدار هذا القرار، بل إننى علمته من السادات قبل إصداره بأيام قليلة حين أكد لى أنه لا يجد فائدة من الروس لعدم حصوله منهم على السلاح المطلوب للمعركة، وطلب منى القيام ببعض المهام لتأمين تنفيذ هذا القرار.. وقد علمت بعد ذلك فى أثناء إحدى زياراتى للخارج أن واشنطن هى التى كانت وراء هذا القرار».

(٧٢)

هكذا يؤثر الفريق صادق أن يلقى بكلام مرسل لينهى به موضوعا طويلا كبيراً كان من الممكن له أن يوظفه للارتفاع بمجده. لولا أنه آثر الانسياق إلى أن يكون من العقاقير المضادة للسادات فحسب. وليس من شك أن موقف الفريق صادق من السوفييت كان موقفاً جيداً ومجيداً وكان ينم عن وطنية وعن فهم حتى لو لم يصفه بطريقة ذكية. ولكن صادق اضطر وقد أصبح فى المعسكر المناوىء للسادات ومع

إحساسه بغلبة التوجهات اللائمة للسادات على الاستغناء عن السوفييت، آثر الطريق الخطأ فى الحديث عن مجده مع أن الطريق الصواب كان متاحاً أمامه لأنه مضى فيه بالفعل من قبل. والحقيقة أن مصادر كثيرة ومنها على سبيل المثال رواية وزير الخارجية محمود رياض عن المحادثات المصرية ـ السوفيتية ترينا بوضوح مدى التحفظ العلنى أو المعلن الذى كان صادق حريصا على إبدائه فى مواجهة السوفييت أنفسهم، ولنأخذ على سبيل المثال هذه الرواية:

«وهنا تدخل الفريق محمد أحمد صادق وزير الحربية معلقاً على البيانات التى تناولها جريشكو فقال :إنى متفق مع هذه التقديرات بصفة عامة، وعلى صحة الأرقام التى ذكرها الماريشال جريشكو، إلا أن الدبابات السوفياتية طراز ٣٤ لا يمكن إدخالها فى الاعتبار لأنها لا تستطيع مواجهة الدبابات الحديثة التى تملكها إسرائيل.أما كافة الدبابات الموجودة لدينا فلا تستطيع العمل ليلاً بسبب النقص الشديد فى أجهزة الرؤية الليلية اللازمة لها.وبالنسبة للمدفعية بعيدة المدى فتنقصها أدوات التوجيه وبالنسبة للطيران فلا شك أن الميج ٢١ طائرة ممتازة ولكن مداها قصير للغاية إذا قورنت بالميراج أوالفانتوم، وكل هذا يقلل من كفاءة الأسلحة الموجودة لدينا».

هكذا كان الفريق صادق محدداً جداً ودقيقاً لحسن حظه وبشهادة وزير الخارجية الذى رافقه في زيارته، ومع هذا فإن بريجينف أعاد ترديد الأسطوانة السوفيتية قبل أن يعلن عن موافقة جيدة تلقتها مصر فى هذه الزيارة:

«وهنا تحدث بريجينيف معلقاً بقوله: أعتقد أنه على ضوء البيانات التى ذكرها الماريشال جريشكو يتضح أننا قد قطعنا شوطاً كبيراً فى دعم الجيش المصرى، ولذلك فنحن لا نوافق على القول بأن الجيش المصرى ليس فى مستوى العدو، والأمر الذى يشغلنى حقاً هو ما سمعته الآن من حديث عن ضعف القوات المصرية، لأنه إذا كان أفراد الجيش المصرى يرددون مثل هذه الأقوال، فإن الجيش فى هذه الحالة يصبح غير مستعد لأى معركة مهما تلقى من أسلحة.ولذلك فيجب على جميع أفراد الجيش أن يكونوا مقتنعين بأن المهارة فى استخدام السلاح هى الأساس فى النجاح.وبالرغم من هذا كله، فإن من واجبنا أن نستكمل لكم أى نقص تشكون من وجوده فى السلاح. وأرجو ألا يساء فهم قولى عما يتردد بين أفراد الجيش».

«وعموماً فنحن نرى أنه فى جميع الأحوال يجب الاستمرار فى المساعى السياسية. والاستمرار فى الاتصال بنيكسون.ومن جانبنا فسوف نواصل الضغط على الأمريكيين، ولا أستطيع أن أسلم بفقدان الأمل فى الاتصالات التى تجرى ولكن أحب أن أؤكد على أهمية وقوف الدول العربية فى جبهة واحدة على الدوام إذا كان لكم أن تحققوا النجاح فى الحصول على حقوقكم.وفى لقائنا القادم مع نيكسون سوف نتحدث معه عن فيتنام والشرق الأوسط.والشىء الهام هو استمراركم فى الصمود وعدم تقديم تنازلات هو عنصر أساسى فى الأمر كله».

«وأضاف بريجنيف : إن لديكم الآن حوالى ٩٥٠٠ خبير عسكرى سوفياتى لتدريب القوات المصرية ولكن من الضرورى أن تكون لديكم خطة كاملة للدفاع المدنى يشترك فيها الشعب كله».

«ثم تحدث بريجينيف عن الطلبات العسكرية التى تباحث بشأنها الفريق محمد صادق مع جريشكو من اليوم الأول، فقال : إن لدينا اقتراحات معينة لمزيد من الدعم للقوات المسلحة المصرية سوف يكون لها تأثير جسيم تماماً لكل ما يجد وإننا نوافق على ما يلى:-

أولا : سوف نرسل لكم طائرات قاذفة بعيدة المدى من الطراز الصاروخى «تى.يو» ولكننى أرجو منكم ألا تستخدموا تعبير «سلاح الردع» الذى تطلقونه على تلك الطائرة، وألا تعلنوا بأى شكل عن قيامنا بإمدادكم بها.

ثانياً : توريد مائة طائرة من الطراز ميج ٢١، وسوخوى، خلال عام ١٩٧١، ١٩٧٢ بالإضافة إلى سرب ميج ٢٣ يصلكم خلال النصف الثانى من العام القادم.

ثالثاً : توريد كتيبة مدفعية ١٨٠ ملليمترا يصل مداها إلى ٤٢ كيلو متراً، بالإضافة إلى مدافع هاون ٢٤٠ ملليمترا.

«وواصل بريجينيف حديثه قائلاً : إنه بالإضافة إلى هذا كله فسوف نمدكم بمزيد من وسائل العبور بحيث تصلكم على الفور ثلاثة كبارى جديدة، إلى جانب مزيد من أجهزة فتح الثغرات».

«ولقد كان حجم هذه الصفقة الجديدة التى أعلن بريجينيف موافقتهم عليها ضخماً إذ تبلغ قيمتها ٢٨٨ مليون دولار».

ولا يجد الفريق صادق بعد هذا كله حرجا فى أن يتبنى الأقوال الشائعة التى نسبت إلى الرئيس السادات توصيفه لصادق على أنه عميل موسكو الأول(وهى أراجيف أيضا كالأراجيف الأولى، وكان السبب فيها منطقيا أيضا ومرتبطا بتصريحات صادق الناقدة لإبعاد الخبراء السوفييت بعد الاستغناء عنهم). ويبحث الفريق صادق عن شماعة يعلق عليها مثل هذا الاتهام الذى لا يتسق مع معلوماتنا عن سلوك الفريق صادق طيلة توليه وزارة الحربية، لكنه للأسف الشديد ينساق إلى معارضة كل ما ينسب إلى السادات دون أن يستغل المواقف ـ المتاحة فى هذه الروايات ـ لمصلحته:

يسأل الأستاذ أحمد عبدون الفريق صادق بقوله:

«لكن بماذا تفسر اتهام السادات لك حين أقالك بأنك رجل موسكو الأول فى مصر؟».

فيجيب الفريق صادق:

«هذا أكبر دليل على تخبطه.. فقد اتهمنى فى البداية بأننى عميل للأمريكان، ثم اتهمنى بعد ذلك بأننى عميل للروس».

«وربما يرجع هذا الاتهام الساداتى إلى المشير أحمد إسماعيل الذى أكد للسادات أن الروس سيطردونه من الحكم وأنهم يرشحوننى بدلا منه كرئيس لمصر، وذلك لعدة عوامل منها شعبيتى الكبيرة فى الجيش».

ربما نتوقف لنسأل ألم يكن فى إمكان صادق أن يتخذ من هذا الموقف دلالة على أنه لم يكن متحيزاً للاتحاد السوفيتى على طول الخط ولا للولايات المتحدة على طول الخط، وإنما كان يبحث عن مصلحة وطنه فى كل وقت ، ومن ثم أمكن اتهامه فى فترة بأنه يمالئ السوفييت وفى فترة أخرى بأنه يعاديهم ، وفى هذا وحده أكبر دلالة على أنه لم يكن يبحث إلا عن مصلحة وطنه سواء أرضى هذا السوفييت أو أغضبهم.

بالطبع كان فى وسع الفريق صادق أن يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب بسهولة لو أنه تأمل النصوص المتاحة أمامه فى هدوء بدون عصبية، ولكن النطاقات التى فرضت عليه وفرضها هو على نفسه بدون مبرر حالت بينه وبين مثل هذا التفكير البسيط، فإذا

هو ـ للأسف الشديد ـ يتغاضى عن مثل هذه الفكرة البسيطة مؤثرا المضى فى الهجوم على السادات فحسب.

(٧٤)

ولا يقف هجوم صادق على السادات عند المرحلة التى اختلفا فيها أثناء عملهما معا ولكن الفريق صادق آثر الانضمام بدون مبرر إلى موكب المشككين فى ثورية أنور السادات، وروى فى هذا المجال أنه كان قائد حرس الملك فى الإسكندرية يوم ٢٦ يوليو وأن أنور السادات من الأساس، فر أمام هذا الحرس، ولولا أنه رأى الفريق صادق سلم الموقع لكان حدث شيء آخر. وهذه هى روايته فى الحوار الذى نشر فى جريدة الأحرار:

«وأنا أعتقد أن ما كان يترسب فى صدره ضدى سببه هو أنه يعرف أننى أعلم عنه كل شيء، سواء عن تاريخه أو عن عائلته، وأنى لا يمكن أن أخرج عما أومن بأنه الخير لمصر، ولم أكن أقبل أى انحراف عن الخط الوطنى، ومن الغريب أن كلا من جمال عبد الناصر وأنور السادات يعرفان تاريخى القديم فى العمل الفدائى ، والعمل ضد الانجليز ... فأما جمال عبد الناصر فكان يحترمنى ويثق فى كلمتى .أما أنور السادات فكان يخشانى لدرجة أنه جعلنى أكرر على مسامعه كثيرا أن كل ما أرجوه هو أن أغسل عار مصر فى معركة مع اليهود، وأن القوات المسلحة كانت مستعدة أن تقوم بذلك لو وجدت القيادة السليمة».

وهذه بعض عبارات للفريق صادق فى الحديث الذى أدلى به لجريدة الأحرار ومع تقديرنا أن حديثا مثل هذا ليس مكتوبا بيد الرجل ولا راجعته فيه نفسه، لا يمكن أن يكون من وثائق التاريخ التى تحسب له أو عليه إلا أننا نريد للقارئ أن يتأمل على الأقل الروح التى فى الحديث :

«وكان يوسف رشاد قد كون ما يسمى « الحرس الحديدى » وهو تنظيم يضم عددا من ضباط الجيش والشرطة، ومهمته هى القضاء على الضباط الأحرار، والقيام بعمليات خاصة ضد خصوم الملك، وطبعا كنت أتجنب أى اتصال به».

(٧٥)

ويبدى الفريق صادق دهشته من أن يكون السادات على رأس القوات التى تحاصر قصر رأس التين مع أن الملك أعاده إلى الجيش ورقاه ثلاث رتب إذ يقول:

«حتى فوجئت يوم ٢٦ يوليو عند خروج الملك فاروق من مصر بأن أنور السادات الذى أعاده الملك فاروق إلى الخدمة ورقاه ثلاث رتب، هو أنور السادات الذى يقف على رأس القوات التى حاصرت قصر رأس التين، وكنت أنا فى هذا الوقت قائدا لهذا الحرس فى رأس التين، فلما حضر الجيش، نزلت شخصيا وقابلتهم وقلت لهم : إن هناك خطا لا يجب تجاوزه وذلك منعا من إثارة العساكر وحدوث اشتباك، وكنت أعلم مسبقا بقدوم الجيش».

«ولكن أراد أنور السادات أن يتسلل مع بعض الجنود إلى قصر رأس التين، وكان المكلف بالحراسة جنوداً سودانيين معروفين بالضبط ودقة تنفيذ الأوامر، فأطلقوا عليه الرصاص فوق رأسه، وللأسف فقد فر مع الجنود، وخوفا من أن يعود الملك أو يطلب المقاومة ذهبت بنفسى وكان معى الفريق مرتجى على ما أظن . وطلبت من الجيش أن يبتعد، وفعلا ابتعدوا».

على هذا النحو يتصور الفريق صادق لنفسه دوراً (ثورياً) فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ بينما يجرد السادات الذى كان (على حد تعبيره هو) على رأس القوات المحاصرة لرأس التين!!

«وبعد أن سافر الملك فاروق عينت قائدا عاما للحرس بمعرفة رجال الثورة لأنهم يعلمون حقيقة تاريخى وموقفى».

«وقد سألت المرحوم جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر لماذا قبلوا أن يكون من بينهم أنور السادات وكان حاضرا هذا الاجتماع على ما أعتقد الأخ الدكتور ثروت عكاشة فطلب منى جمال عبد الناصر أن أترك هذا الموضوع لأن له خلفيات سيقولها لى فيما بعد».

«وقد وجد فى قصر عابدين ضمن أوراق يوسف رشاد والملك ما يدل على اشتراك أنور السادات اشتراكا فعليا حقيقيا فى الحرس الحديدى التابع للملك فاروق».

ويمضى الفريق صادق يتحدث عن علاقته بالرئيس السادات :

« استمرت العلاقة مقطوعة بينى وبينه حتى عينت رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة.

«وكان كثير الاتصال بى للسؤال عن صحتى، وكان فى غياب عبد الناصر وعندما كانت تحدث عمليات ناجحة بيننا وبين اليهود مثل عملية (شارون)، والكمين الذى أسقطنا فيه الكثير من الطائرات الإسرائيلية فى حرب الاستنزاف كان يطلبنى تليفونيا ويقول لى أنه متفائل بوجودى فى غياب عبد الناصر وقد حدث أثناء فترة ما قبل وفاة عبد الناصر أن أبعد أنور السادات، ثم فوجئت بوجوده أثناء أزمة الأردن عام ١٩٧٠».

«وبعد وفاة عبد الناصر اندمج مع المجموعة التى عينته والتى سماها بعد ذلك «مراكز القوى» وكانت اتصالاتنا رسمية ولا تتعدى المجاملات العادية حتى يوم ١٣ مايو ».

(٧٦)

ومع أن الفريق صادق لعب بحكم منصبه كمدير للمخابرات الحربية دورا مرموقا فى حسم الصراع على السلطة بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر بعد هزيمة ١٩٦٧، إلا أنه لم يدل فى أحاديثه بتفصيلات كثيرة عن هذه الفترة ودوره فيها وربما تتضمن مذكراته التى لم تنشر بعد تفصيلات عن هذه الفترة.

وحين سئل الفريق صادق عن رؤيته لنهاية المشير عبد الحكيم عامر فإنه لم يدل بمعلومات ذات قيمة، إنما كان حريصا على أن يستبعد (دون دليل) أن يكون الفريق عبدالمنعم رياض قد شارك فى إنهاء حياة عامر وكان كل ما أجاب به هو قوله:

«لقد تولى مهمة القبض عليه الفريق أول محمد فوزى والفريق عبد المنعم رياض يعاونهما أحد ضباط المدفعية من رجال فوزى، وهو العقيد ـ الفريق فيما بعد ـ سعيد الماحى كبير ياوران السادات بعد حرب أكتوبر، واستبعد أن يكون للفريق الشهيد عبدالمنعم رياض صلة ما بنهاية عامر، كما أن الفريق الماحى لم يتكلم حتى اليوم!».

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

فى أعقاب النكسة

3

مذكرات الفريق أول

محمد صدقى محمود

دار الخيّال



(١)

ولد الفريق أول محمد صدقى محمود عام أربعة عشر (١٩١٤) فى الثانى عشر من ديسمبر، فى قرية بسنديلة بمحافظة الدقهلية، وقد تخرج وهو فى العشرين من عمره من الكلية الحربية (١٩٣٤)، وقبل هذا زامل وهو فى التعليم العام كلا من سيد مرعى ومصطفى أمين وعلى أمين وفكرى مكرم عبيد والشقيقين الدكتورين حسن إبراهيم وعلى إبراهيم والدكتور على المفتى وكثيرين آخرين من أعلام الوطن.

ومن الجدير بالذكر أن الفريق أول محمد صدقى محمود كان أكبر فى السن وفى أقدمية الدفعة من الفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان فى عهد المشير عبد الحكيم عامر، وقد كان الفريق صدقى محمود قائدا للقوات الجوية منذ يونيو ١٩٥٣، أى قبل أن يصل الفريق أول مرتجى إلى رئاسة الأركان، وقبل أن يصل الفريق أول مرتجى إلى منصب قائد القوات البرية.. وهكذا.

بعد دراسته فى الكلية الحربية انتظم محمد صدقى محمود فى مدرسة الطيران فى أبى صوير وتخرج فى أبريل ١٩٣٦، وبعد قيام الثورة كان صدقى محمود من الذين بقوا يخدمون فى سلاح الطيران، وقد كان له موقف بارز من تأييد (أو على الأقل: قبول) ترقية عبد الحكيم عامر إلى رتبة اللواء، فعلى حين استقال قائد القوات الجوية

احتجاجا فإنه رفع صوته بتأييد هذه الترقية الاستثنائية. وهكذا أصبح الفريق صدقى محمود قائدا للقوات الجوية منذ نهاية يونيو ١٩٥٣، أى أن أقدميته فى هذا المنصب كانت تناظر أقدمية المشير عبدالحكيم عامر فى القيادة العامة للقوات المسلحة!!

كان الفريق أول محمد صدقى محمود بمثابة كبش الفداء الأول لهزيمة ١٩٦٧، وقد قدم للمحاكمة مرتين وحكمت عليه المحكمة الأولى بالسجن ١٥ عاما، وشددت المحكمة الثانية الحكم إلى الأشغال الشاقة ٢٥ عاما، ومن حسن حظ التاريخ أن الفريق صلاح الحديدى رئيس المحكمة التى حاكمت الفريق أول محمد صدقى محمود قد روى ملابسات الحكمين الأول والثانى ونقلنا عنه هذه التفصيلات فى الباب الذى بين أيدينا فى هذا الكتاب.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الفريق أول محمد صدقى محمود كان قد قدم للمحاكمة متهما بخمسة اتهامات، وقد برأته المحكمة على ما يروى رئيسها الفريق صلاح الحديدى من أربعة من هذه الاتهامات وأدانته فى اتهام واحد فقط يتعلق بتقديراته المبدئية لنسبة الخسائر التى يتعرض لها سلاح الطيران المصرى إذا ما تلقى الضربة الأولى، وما يمكن لهذا السلاح أن يؤديه بعد هذا، وأن يحققه من خسائر على الجانب الآخر.

لهذا كله يبدو حديث الفريق أول محمد صدقى محمود عن ظروف وملابسات حرب ١٩٦٧ ذا قيمة حقيقية على عكس ما قد نتوقع، ذلك أنه فيما عدا هذا الاتهام الخطير وقد عوقب صاحبه بسببه، فإن هذا الرجل قد برئ من أربعة اتهامات أخرى.

(٢)

ومن نص جميل سجله الأستاذ عبد التواب عبد الحى فى كتابه «عصير حياتى» ننقل للقارئ بعض ملامح لما يرويه الفريق أول محمد صدقى محمود عن تكوين شخصيته:

« ... توفى والدى وهو يحمل رتبة «الأميرالاى»، وكان فى أواخر حياته مديرا

للأشغال العسكرية.. وقبل أن يتوفى بثلاث رتب [يقصد حين كان فى رتبة أدنى بثلاث رتب من الرتبة التى توفى وهو يشغلها]، ولدت أنا فى «بسنديلة» مركز المنصورة وكان أبى أيامها يحمل رتبة «يوزباشى».

«ومن بسنديلة سافرت مع أبى مباشرة إلى السودان.. وأمضيت فى الخرطوم ٧سنوات ربيت خلالها أربعة «نسانيس»، وتعلمت الإنجليزية فى كلية «جوردون»، ولعبت «الاستغماية» مع صلاح الشاهد ـ تشريفاتى رئاسة الجمهورية ـ فى حديقة نادى الضباط بالخرطوم.. وكان أبو صلاح الشاهد يعمل مع والدى فى الأشغال العسكرية برتبة «صاغ».

«انتقل أبى إلى القاهرة.. دخلت مدرسة المنيرة الابتدائية.. وفى الصفوف الخلفية من الفصل كان معنا الدكتور حسن إبراهيم وأخوه الدكتور على إبراهيم».

....

«كانت الدراسة فى الكلية الحربية ٣ سنوات.. دخلتها سنة ٣٢، وبعد أن نجحت فى «القسم المتوسط» ـ يعنى السنة الثانية ـ رشحتنى الكلية لأتعلم الطيران فى مدرسة «أبوصوير» الإنجليزية.. كنت أتعلم على طائرات «أفرو ٥٠٤» و«أتلاس» وهى طائرات قديمة اشتركت فى الحرب العظمى!».

«تخرجت بعد سنتين برتبة «ملازم ثان».. والتحقت بسلاح الطيران المصرى».

«سافرت سنة ١٩٣٥ إلى انجلترا (فى النص التالى الذى ننقله للقارئ: ١٩٣٦).. أمضيت سنة أتخصص فى علم «نظريات الطيران» فى «مدرسة الطيران المركزية» بـ«آب ايفى» فى مقاطعة «ويلشير».

«عدت سنة ١٩٣٦ . اشتركت فى إنشاء «مدرسة الطيران العالى» بألماظة وكنا نقبل طلبتها من الضباط أو من طلبة «القسم النهائى» بالكلية الحربية.. كنت أدرس علوم «نظريات الطيران» و«الملاحة الجوية» و«الطيران العملى».

«سافرت بعد ذلك مرتين إلى انجلترا.. مرة سنة ١٩٣٩ لأتخصص فى «الملاحة الجوية».. ومرة سنة ١٩٤٦ لأعمل «فرقة أركان حرب» وحصلت على الشهادة من كلية أركان حرب فى «اندوفر».

«عدت كبيراً للمعلمين فى مدرسة الطيران العالى، ثم رقيت قائدا للمدرسة.. وفى سنة ١٩٤٧، قبل أن تتحول المدرسة إلى كلية بعامين، نقلت مديرا للإدارة العسكرية فى رئاسة القوات المسلحة».

«ثم تنقلت بين هذه المناصب:

«سنة ١٩٥٠ قائد محطة الدخيلة الجوية».

«سنة ١٩٥١ قائد محطة ألماظة».

«سنة ١٩٥٢ قائد كلية الطيران ببلبيس».

«٢٨ يوليو ١٩٥٢ رئيس هيئة الإدارة الجوية برئاسة القوات الجوية».

ثم كان ما نعرفه وأشرنا إليه من تولى هذا الرجل قيادة القوات الجوية منذ يونيو ١٩٥٣.

(٣)

ولا أستطيع أن أحرم القارئ من معلومات أخرى تتناول بتفصيل أكثر، وربما بصورة أدق من حيث التواريخ والتسلسل، التكوين العسكرى والجوى الذى حظى به الفريق صدقى محمود، وقد وردت هذه الفقرات فى الحلقة الأولى من مذكراته التى نشرتها جريدة الأحرار فى ١٩٨٣:

« ... بعد عامين فى المدرسة الحربية، التحقت بمدرسة تعليم الطيران في أبو صوير وكانت قيادتها إنجليزية، وكنا ثلاثة فقط المرحومين محمد مصطفي إسماعيل، وفؤاد مشرقى وأنا.

وتخرج صدقى محمود فى أبريل عام ١٩٣٦ ، وبدأ خدمته بالسرب الثاني في ألماظة، وطار بطائرات أفرو ٦٢٦ الانجليزية، وكان الطيران المصري في تلك الفترة يضم ثلاثة أسراب فقط، منذ عادت من الخارج أول مجموعة من الطيارين العسكريين مكونة من ثلاثة نسور عام ١٩٣٢ هم:

الشهيد فؤاد حجاج، الذى استشهد فوق فرنسا عام ١٩٣٤، والمرحوم عبدالمنعم الميقاتى الذى انتقل إلى رحاب الله فى بداية هذا العام ١٩٨٢، واللواء طيار متقاعد أحمد عبدالرازق، أطال الله في عمره، عاد الرواد الثلاثة من انجلترا إلى الوطن يوم ٢ يونيو عام ١٩٣٢، وهم يقودون طائرات انجليزية ، فأصبحوا نواة تأسيس سلاح الطيران المصرى في حجم متواضع تحت سيطرة القيادة الانجليزية لقوات الاحتلال البريطانى فى مصر».

❏

ثم يروى قصة تأهله العلمى فى انجلترا وكيف كان الفارق فى المستوى بين ما هو متاح للطيار المصرى فى مصر وبين ما هو متاح للطيار فى سلاح الطيران البريطانى:

«بعد ثلاثة أشهر من تخرجى رشحت للسفر إلى انجلترا فى بعثة مدرسى طيران، وسافرت فى يوليو ١٩٣٦ وزميلى المرحوم عبدالحليم دغيدى - عم عبدالحميد دغيدى زميلى فى قفص الاتهام بعد يونيو ٦٧، والتحقنا بمدرسة (آب آيفن) وهى المدرسة التى يتخرج فيها مدرسو سلاح الطيران البريطانى ثم اعترضتنى مشكلة.. كانت ساعات طيرانى كخريج جديد بالكاد مائتى ساعة، بينما تبلغ ساعات طيران الضابط البريطانى زميلى بالدراسة (١٥٠٠) ساعة على الأقل، وبعد لقاءات ومناقشات مع كبير المعلمين هناك ، وافقت وزارة الطيران البريطانى على إجراء اختبار لى كشرط لإتمام دراستى أو بعثتى، وقضيت أسبوعا أطير كل يوم ٦ ساعات مع ثلاثة من المدرسين الإنجليز يتدربون كل يوم أيضا، حتى وضعوا تقريرا مرضيا عنى، وبدأت التدريب لمدة ١٢٠ يوما، وودعنى كبير المعلمين بكلمات لم أنسها قط، قال لى : (إننى واثق من اختيارك لضباط صغار من الطيارين أمثالك، لتجعل منهم مدرسى طيران أكفاء، وتقيمون سلاحكم الجوى).

وفى ديسمبر ١٩٣٦ عدت إلى ألماظة، ونقل عبدالحليم دغيدى من الطيران إلى الجيش لاعتبارات سياسية لم يرتح الإنجليز، إليها بعد أسبوعين من عودته من انجلترا، وتوليت تدريب أول دفعة من النسور المصريين وعددها ٦ طيارين، درسوا فترتين بالمدرسة فى ألماظة ثم انتقلوا إلى مدرسة أبو صوير.

ويبدو أن الأستاذ حمدى لطفى فى ظل ضيق المساحة الصحفية المتاحة قد أضاع علينا الفرصة الذهبية للحديث الذى تطرق فيه الفريق صدقى محمود للحديث عن الدفعات التى تأهلت على يديه فى مدرسة الطيران ولكنه اكتفى ببعض هذا الحديث:

«بين الدفعة الثالثة وكانت تضم ٨ صولات متطوعين أحدهم مصطفى صادق، عم الملكة ناريمان، وأحد أصحاب شركة طيران «سعيدة» فى الخمسينيات، وكان نجم مجتمع بارزا، وبين الدفعة الرابعة الطيار حسين ذو الفقار نائب وزير خارجية مصر فى الستينيات وزميله عبدالمنعم عبدالرءوف أحد قادة ثورة يوليو الذين اختفوا من فوق مسرح القيادة بعد الثورة، والاثنان اشتركا فى تهريب المرحوم عزيز المصرى».

❑

«عام ١٩٤٧ بعد حضورى دورة أركان حرب بانجلترا عدت كبيرا للمعلمين وقائدا للمدرسة الجوية المصرية.. لم تكن قد تحولت إلى كلية بعد، كانت مدرسة موسعة ـ وبعد عامين نقلت إلى الدخيلة بالإسكندرية، لإنشاء مدرسة الملاحة الجوية، وفى سنة ١٩٥١ توليت قيادة الكلية الجوية فى بلبيس، وظللت بموقعى حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وكان المرحوم اللواء محمد مصطفى شعراوى ـ وخدمته كلها قضاها فى الحرس الملكى والياوران ـ يتولى قيادة سلاح الطيران المصرى.

(٤)

وإلى المغفور له الأستاذ حمدى لطفى يعود الفضل فى نشر هذه المذكرات، وقد نشرت هذه المذكرات ثلاث مرات على الأقل.

المرة الأولى: كانت فى جريدة الأحرار فى ٣ يناير ١٩٨٣.

المرة الثانية: كانت على ثلاث حلقات فى مجلة «الحرس الوطنى» السعودية عام ١٩٨٥ فى الأعداد الصادرة فى شهور ذى الحجة، والمحرم، وصفر.

ثم نشرت على حلقات أخرى فى الأنباء الكويتية فى مايو ١٩٨٦ ضمن حلقات أخرى حملت عنوان: الرجل الأول والأول مكرر فى مصر.

ثم نشر مضمون هذه المذكرات فى بداية حلقات أخرى عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى جريدة «الشرق الأوسط» السعودية بدءا من يوم ٨/ ٦/ ١٩٨٧.

وقد سجلت كل هذه الصحف فى مقدمة هذه المذكرات أن الأستاذ حمدى لطفى ظل يتعقب صاحب المذكرات كى ينقل للناس الدفاع الذى وقف يدافع به خلف قضبان المحكمة، وأن الفريق صدقى وافق بعد طول إلحاح، وأكثر من ذلك ـ على حد تعبير جريدة «الشرق الأوسط» ـ فإن صدقى محمود وقع باسمه على هذه المذكرات، وفى جريدة «الأنباء» صورة فوتوغرافية لتوقيع صدقى محمود على الصفحة الأولى من المذكرات، وكان العنوان المبدئى لمخطوطة المذكرات يقول: «بعد طول صمت تكلم الطيار القديم فريق أول محمد صدقى محمود قائد قواتنا الجوية حتى يونيو ١٩٦٧»، وقد أرخ صدقى محمود توقيعه بتاريخ ١١ يوليو ١٩٨٢.

وفى عرضنا لهذه المذكرات سنلتزم بالمنهج العلمى المتبع فى مثل هذه النصوص بأن نبدأ من الأحدث للأقدم، وهكذا فسوف نورد النصوص المنشورة فى «الشرق الأوسط» (١٩٨٧) ونكملها بما فى نصوص «الأنباء» (١٩٨٦) أو «الحرس الوطنى» (١٩٨٥).

ومن حسن الحظ أن المذكرات المنشورة فى الصحف الأربع متطابقة إلا فى بعض المواضع التى تختصر لدواعى النشر الصحفى حين تحذف فقرة أو أكثر بسبب ضيق المساحة المتاحة، ومع هذا فقد أشرنا إلى المواضع التى حدث فيها اختلاف بين النصوص المنشورة هنا وهناك.

ويكاد الفريق أول محمد صدقى محمود يحصر مذكراته التى رواها فى الأحداث التى تتعلق بحرب ١٩٦٧! فحسب دون أن يتناول بالتفصيل المطلوب كثيرا من الأسئلة التى تتعلق بنفوذه فيما قبل ١٩٦٧ واستمراره كقائد للقوات الجوية طيلة ١٥ عاما، وعلاقته بالمشير عامر وبزملائه جمال عفيفى، ومدكور أبو العز، والدغيدى وإسماعيل لبيب، وعرفان وغيرهم.

(٥)

تجمع كثير من المصادر على أن الرئيس مبارك كان صاحب الفضل فى الإفراج عن صدقى محمود بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣، ومن هذا ما يرويه حمدى لطفى نفسه بأسلوب صحفى يصطنع الحوار على غير الصورة التى يكون فيها بين القادة، ولكنه يفعل هذا من أجل تقريب الصورة التى يريد الإيحاء بها وهو يقدم هذا النص فى مقدمة المذكرات .

«بعد حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ وقف الرئيس أنور السادات ليسأل الفريق طيار حسنى مبارك قائد سلاح الجو المصرى: ماذا تريد هدية للنصر؟ يومها لم يتردد مبارك طويلا وقال للرئيس فورا: هديتك لنا هى الإفراج عن صدقى محمود وزملائه. قال مبارك أيضا: إن صدقى محمود هو الأب الروحى للطيران المصرى!».

«بعدها صدر القرار وخرج الفريق المتقاعد من السجن عام ١٩٧٤ وهو أشبه بحطام إنسان.. ولسنوات طويلة امتدت حتى ١٩٨٢ ظل الرجل يلوذ بالصمت معتذرا عن الحديث إلى الصحافة العالمية والعربية والمصرية.. وفشلت كل المحاولات التى بذلتها معه لإخراجه من بئر الصمت التى احتمى بها».

(٦)

يحرص الفريق صدقى محمود على أن يؤكد ما يشير إلى أنه الفروق الرهيبة بين معاملة الدولة للقوات الجوية فى عهده وفيما بعد الهزيمة،ونحن نفهم سبب حرصه على إبراز هذا المعنى، لكننا لا نستطيع بالطبع أن نجعل من هذه الحقائق نهاية لمسئولية الرجل عن الوضع الظالم الذى تعرضت له القوات الجوية فى ١٩٦٧ ما بعدها، وقد كان فى وسعه أن يستقيل خاصة أن التاريخ المشرف للقوات الجوية يروى أن قائدها استقال فى ١٩٥٣احتجاجا على تعيين المشير عبد الحكيم عامر قائدا للقوات المسلحة.

وهو يعترف لنا فيما يرويه بأنه لا يعرف حتى الآن ـ سر مكالمة الفريق أول محمد فوزى له فى الأعقاب المباشرة لهزيمة ١٩٦٧ ولكنه يردف بحديث آسف عن روح الندم ومحاولة الإنقاذ بعد أن فات الأوان:

«وأذكر أن الفريق أول محمد فوزى اتصل بى هاتفيا وأنا أكتب استقالتى مساء ١٠ يونيو ١٩٦٧ ليقول لى إن الرئيس عبد الناصر طلب منى إبلاغك بأنه سيضع كل إمكانات الدولة لبناء دشم الطائرات واحتياجات القوات الجوية».

«ولا أعرف سر هذه المكالمة حتى الآن.. هل كانت لجس النبض ومعرفة موقفى من استقالة المشير عامر، وهل سأتضامن معه أم لا؟ وكدت أصعق لحظة تلقى هذه المكالمة وإذا بى أقول للفريق أول محمد فوزى:

«بعد إيه يافوزى.. بعد خراب مالطة؟»».

«وبعد خروجى من السجن عام ١٩٧٤ علمت أن حجم الإنفاق ما بين يوليو (تموز) ونوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٧ على بناء الدشم وحدها بلغ ٢٥ مليون جنيه، بينما كان كل ما حصلت عليه خلال عشر سنوات ـ وبطلوع الروح كما يقول المثل الشعبى ـ ١٧ مليونا ونصف المليون جنيه، وكما اعترف الرئيس الراحل أنور السادات أن مصر كانت تنفق مليون جنيه يوميا لمدة أربعين يوما على بناء قواعد صواريخ الدفاع الجوى».

وعلى كل الأحوال فإن فى وسع القارئ أن يلاحظ أن الرقم الذى يورده الفريق صدقى محمود يتعلق ـ كما هو واضح من التاريخ الذى ذكره ـ بالفترة التى قضاها خلفه الفريق مدكور أبو العز كقائد لسلاح الطيران، ومع أن مدكور لم يذكر هذا الرقم فى مذكراته فإنه (أى الرقم) يعطينا فكرة رائعة عن عظمة مدكور أبو العز ونجاحه الساحق فى هذه الفترة. ويحرص الفريق أول محمد صدقى محمود على أن يؤكد أنه كان واعيا لأهمية وجود خطة هندسية للإنشاءات اللازمة للقوات الجوية، ولشراء أجهزة الإنذار الحديثة وغيرها من المطالب الملحة، لكنه مع هذا لم يكن يتلقى غير الوعود الشفوية أو الورقية مع تأجيل البت فى هذه الطلبات العاجلة التى كان يتوقف عليها مستقبل القوات الجوية:

«... إننى أقرر وأنا فى نهاية العمر باقتناعى التام منذ عدوان ١٩٥٦ بأن إسرائيل ستكرر هجومها مرة أخرى بعد سنوات قليلة لأنها لم تحقق أهدافها عام ١٩٥٦. ومنذ عام ١٩٥٧ أخذنا نطالب بتنفيذ خطة هندسية للإنشاءات اللازمة للقوات الجوية، وبيننا كثير من الأحياء يعلم كم بذلت من الجهد سنويا للحصول على الاعتمادات المالية المطلوبة لبناء دشم الطائرات والمطارات المتعددة ذات الممرات الكثيرة، وشراء قطع الغيار اللازمة لنا وأجهزة الإنذار المستندة إلى قدر حديث من التكنولوجيا والعلوم وغيرها من المطالب الملحة، وكنا ننجح فى أحيان قليلة فى شرائها من الغرب بواسطة رجال أكفاء مثل الطيار لواء عصام خليل مدير مكتب المشير للمشروعات الحربية الخاصة، الذى أثبت براعة فائقة فى إنجاز هذه المهام السرية بعيدا عن أعين ورقابة السوفييت، وكل ما نجحت فى جمعه طوال عشر سنوات وليس خلال عام أو عامين هو ١٧ مليونا ونصف المليون جنيه للقوات الجوية والدفاع الجوى معا، وفى كل عام أتلقى الوعود الطيبة من المشير عامر بتلبية مطالبنا فى العام القادم، وبقيت هذه الوعود فى نطاق الكلام شفويا أو على الورق فقط».

هكذا كان الفريق أول محمد صدقى محمود ـ على نحو ما يعترف به هو نفسه ـ مضطرا إلى أن يكتفى بتلقى الوعود الطيبة.

(٧)

ويتعرض الفريق أول محمد صدقى محمود بالنفى للدعاوى التى ترددت بعد هزيمة ١٩٦٧ من أن عبد الناصر كان قد طلب من عبد الحكيم عامر إبعاد صدقى محمود عن قيادة القوات الجوية، ويستند فى نفيه لهذه الدعاوى أو المزاعم إلى أنه ـ أى الرئيس عبدالناصر ـ كلفه بمهام أخرى بالإضافة إلى قيادته القوات الجوية، ويصف هذه الدعاوى بأنها قصة خيالية رددها أفراد الاتحاد الاشتراكى بينما هو مسجون لا حول له ولا قوة:

«وواضح أنه لم يكن هناك ما يدعو عبد الناصر إلى طلب إعفائى أو إبعادى عن القوات الجوية المصرية عام ١٩٥٧، تلك القصة التى ترددت لأول مرة بعد يونيو (حزيران) ١٩٦٧ وليس قبلها بعشر سنوات!».

«واستكمالا لحكاية طلب عبد الناصر إبعادى عن الطيران عام ١٩٥٧ ورفض عبد الحكيم عامر لهذا المطلب، وانتصاره على عبد الناصر، فيجب أن أوضح أن عبدالناصر رأى إسناد رئاسة شركة مصر للطيران إلىّ بجانب عملى ضمانا لنجاحها، واعتذرت مرتين لكل من ناصر وعامر، ثم قبلت بالمنصب فى النهاية ونشر القرار بالصحف المصرية، وظللت أدير الشركة برجال أكفاء حتى عام ١٩٦٢، (حيث تم) تكوين الهيئة العامة للطيران وتضم مصانع الطائرات، ومصانع الصواريخ، وشركة مصر للطيران».

ويمضى الفريق صدقى محمود علي هذا المنوال مؤكدا ويقول :

«وأنا أذكر كل هذه التفاصيل لأسأل: كيف يمكن أن نفسر بعد ذلك تلك القصة الخيالية التى ترددت حول طلب إعفائى عام ١٩٥٧، ورفض عامر لهذا الطلب.. هذه القصة التى لم أستطع الرد عليها، لأننى كنت داخل السجن لا حول لى ولا قوة! فقد رددتها أبواق السلطة من رجال الاتحاد الاشتراكى لتؤكد للجماهير المصرية أن عبد الناصر حذر مجموعة عبد الحكيم عامر قبل وقوع الهزيمة بعشر سنوات!».

(٨)

ويعرض الفريق أول محمد صدقى محمود أكثر من رؤية جزئية يكون بها فى النهاية رؤية مختلفة تماما عن الرؤى المتاحة عن الفترة التى سبقت حرب ١٩٦٧، وهو يصل إلى أن يقرر فى وضوح أن القرارات العسكرية الكبرى فى هذه الفترة صدرت من دون علم قادة القوات المسلحة أو الاستماع إلى وجهات نظرهم، بل

يصل إلى القول إن القرارات كانت تصدر عن لقاءات دردشة تتم أحيانا مصادفة ودون موعد مسبق أو ترتيب.

❏

ومن العجيب أن الفريق صدقى محمود بقى فى موقعه رغم كل هذا الذى كان يدرك مجافاته للصواب وللأصول، ولنقرأ هذا النص البات والباتر:

«أقرر أنه لم تكن هناك فى مصر اجتماعات رسمية عسكرية للقادة المصريين، لا اجتماعات أو مؤتمرات للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، وبالتالى لا يوجد محضر رسمى لاجتماع واحد أو جدول أعمال لاجتماع عسكرى عال أو مؤتمر عقدته القيادة العامة للقوات المسلحة ما قبل يونيو (حزيران) ١٩٦٧، ولسنوات عديدة، وقد ظلت القرارات التى تمس مصير الوطن تصدر عن لقاءات دردشة تتم أحيانا مصادفة ودون موعد سابق أوترتيب زمنى. كما كانت أخطر القرارات العسكرية تصدر دون أن يعلم بها قادة الفروع الرئيسية للقوات المسلحة، أقصد قادة الطيران والبحرية والقوات البرية.. حتى قرار حشد القوات المسلحة فى سيناء الذى طبق علانية فى وضح النهار وكأننا نقوم باستعراض عسكرى فى ١٤ مايو (آيار) ١٩٦٧، ومرور التشكيلات المدرعة والمدفعية ظهرا بشوارع القاهرة فى طريقها إلى سيناء.. حتى هذا القرار مع خطورته الكبرى صدر دون علم قادة القوات المسلحة أو الاستماع إلى وجهات نظرهم، وأكثر الآراء لم يكن يعتد بها أو تصل متأخرة كالعادة وبعد صدور القرار، وبالتالى لا يصبح أمام القادة غير التنفيذ».

(٩)

ويؤكد الفريق أول محمد صدقى محمود أن كثيرا من المسئولين كانوا يعلمون عن يقين مدى النقص الذى تعانيه القوات المسلحة فيما قبل ١٩٦٧؛ وهو يذكر بالتحديد مواقع هؤلاء المسئولين: ممتدا بهم لمعظم الذين عملوا كوزراء فيما بين ١٩٦٢ و١٩٦٧ ويبدو أنه يقصد أناسا معينين:

«وأقرر بأن النقص الذى ظلت قواتنا المسلحة تعانيه على مستوى السلاح الحديث والإدارة العلمية العسكرية المتقدمة كان معروفا لعبد الناصر وعامر وكل مَنْ تولى رئاسة مجلس الوزراء، بل وأكثر الوزراء الذين تولوا مناصبهم ما بين عامى ١٩٦٢ حتى ١٩٦٧، وكنت على مستوى القوات الجوية أكتب تقريرى السرى من أصل وثلاث صور، أرسل بصورة منها لعبد الناصر وأخرى لعامر وأحتفظ بالباقى».

❑

ويفيض الفريق أول محمد صدقى محمود فى هذا المعنى فيما نشر من مذكراته فى الأنباء الكويتية فيضيف إلى ما سبق قوله :

«ونشرت الصحف اليومية المصرية عشرات الصور الكبيرة للمدرعات والمدفعيات المارة بشوارع القاهرة فى طريقها إلى سيناء، وكأننا نقيم عرضا عسكريا. قرار الحشد صدر دون علم القادة ودون الاستماع لوجهات نظرهم، حشد القوات وكأنه عرض عسكرى ذلك الذى خاطب مشاعر الجماهير وعواطفهم هو أبلغ دليل على هزل القرار وعلى عدم جديته عسكريا».

«وأكثر الصحفيين الأوروبيين الذين شاهدوا ذلك وصفوه بالعمل المظهرى لإرهاب إسرائيل».

(١٠)

ويشير الفريق محمد صدقى محمود إلى تقرير كُتب ـ على حد قوله ـ فى نهاية ١٩٦٦، وهو تقرير تقدير موقف وقد نبه فيه صراحة إلى أنه بدون هذه المطالب المحددة لايمكنه الدخول فى معركة، وأنه حتى بهذه المطالب لا يكون جاهزا لمعركة إلا فى ١٩٧٠، وكان صدقى محمود بهذا التقرير يشير إلى دوره فى حالة وقوع صدام مسلح مع إسرائيل حسبما فهمه من نوايا عبد الناصر وتلميحاته:

«وأذكر تقريرا قدمته لهما (أى لعبدالناصر وعبدالحكيم عامر) فى نهاية عام ١٩٦٦ حين أخذ عبد الناصر يلمح بين حين وآخر فى أحاديثه عبر اللقاءات

الصغيرة المغلقة عن حتمية الصدام المسلح مع إسرائيل، وقد أخذ يطرح سؤالا مهما ويكرره: من سيكون البادئ بالهجوم؟ وكيف؟».

❑

«كتبت فى تقريرى المقترن بنهاية ١٩٦٦ ، وهو تقرير بمثابة تقدير موقف عما تحتاجه قواتنا وقوات الدفاع الجوى، وذلك بعد عودة الفريق عبدالمنعم رياض ـ رحمه الله ـ من جولة سرية زار فيها سويسرا وانجلترا فى محاولة لشراء صواريخ حديثة مضادة للطائرات ولم يوفق كما كان متوقعا، لكننا لم نكف عن المحاولة، لذلك كنت صريحا فى تقريرى فحددت المطالب بوضوح وقلت إنه بدون تلبية هذه الاحتياجات فلن نستطيع الدخول فى معركة حاسمة مع إسرائيل، كما أن الاستجابة لهذه المطالب تمكننى من خوض المعركة عام ١٩٧٠».

«تحدثت عن هذا التقرير وقدمته خلال المحاكمة التى جرت فى نهاية ١٩٦٧، كما تحدثت أيضا عن معركة «التوافيق» بين سوريا وإسرائيل».

ويبدو لنا أن هذا التقرير لا يزال بحاجة إلى دراسته والخروج منه بالحقائق الكفيلة بتوضيح مدى وحدود مسئولية كل قيادة من القيادات المسئولة فى ذلك الوقت.

(١١)

ومن أخطر الفقرات فى هذه المذكرات ما يورده الفريق أول محمد صدقى محمود من تفصيلات مذهلة عن لقائه بالقيادة السورية قبل حرب يونيو ١٩٦٧ وعقب معركة التوافيق بين سوريا وإسرائيل، وهو يذكر بوضوح أنه أحس من لقاء كل من وزير الدفاع ورئيس الأركان السورى أنهم سيندفعون للتورط فى معركة حربية مع إسرائيل، وفى هذه الحالة لن يكون هناك ما يمنع من توريط مصر، ويذكر الفريق صدقى محمود أنه حذر السوريين من الأسطول السادس الأمريكى وأنه عرض عليهم إرسال سربين جويين فاعتذروا كما اعتذروا عن قبول موجهين أرضيين للطائرات من رجال الدفاع الجوى:

«لقد وقعت معركة التوافيق بين سوريا وإسرائيل فى أبريل (نيسان) ١٩٦٧

وكلفنى عبد الناصر بالطيران إلى دمشق عن طريق المشير عامر لأقوم بدراسة واعية للأوضاع هناك، عسكريا وسياسيا، وذهبت إلى السوريين ومعى اللواء على عبدالخبير، أحد قادة المشاة وأحد مديرى مكتب المشير عامر فى ذات الوقت ومجموعة من قادة الطيران، وطلبت من قائد طائرتى حسام البشارى أن يخترق المجال الجوى الأردنى لرؤية الحشود الإسرائيلية التى نقل السوفييت وأنور السادات أخبارها لعبد الناصر، وبعد جولة بالطائرة تأكدنا من عدم وجود هذه الحشود، ثم قابلت حافظ الأسد وهو طيار قديم وكان يتولى أيامها وزارة الدفاع، كما قابلت رئيس الأركان السورى، وأحسست أنهم سيندفعون للتورط فى معركة حربية مع إسرائيل، وليس هناك ما يمنع أن تشترك مصر فى هذه المعركة أيضا، وقلت لهما إن الأسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط ليس له غير مهمة واحدة هى حماية إسرائيل، وأن يتلقى أوامره من رئاسة الأركان الإسرائيلية، وبالتالى لن تستطيع مصر أو سوريا أو مجموعة دول عربية، لو قدر لها أن تجتمع على قرار واحد أن تدخل معركة ناجحة مع إسرائيل فى الوقت الحالى».

(١٢)

ويشير الفريق أول محمد صدقى محمود إلى حقيقة مهمة وخطيرة وهى أن القادة السوريين لم يكونوا مرحبين بالتعاون العسكرى المصرى، ولا هم رحبوا حتى بالفكرة القائلة بمحاولة مصر سحب نشاط إسرائيل الجوى بعيدا عن الجبهة السورية:

«ولقد عرضتُ على القيادة العسكرية السورية أن ترسل لهم قواتنا الجوية المصرية سربين للعمل مع أسرابها، فاعتذروا، وعرضت أيضا إرسال بعض الموجهين الأرضيين للطائرات من رجال الدفاع الجوى للعمل معهم فاعتذروا مرة أخرى».

«وفى نهاية الزيارة قلت للقادة السوريين ليس فى إمكانى الآن غير رفع نشاط قواتنا الجوية حتى نسحب قدرا من نشاط إسرائيل الجوى تجاهنا.. تجاه مصر، فقالوا هذا قرار يخصكم بالدرجة الأولى».

ثم يذكر صاحب هذه المذكرات صدى زيارته لسوريا فى الخطاب الناصرى :

«وحين عدت وذكرت ما تحدثت به مع الإخوة السوريين فى تقريرى لعبد الناصر أشار إليه فى خطابه يوم أول مايو (آيار) ١٩٦٧، وتحدث عن عرض مصر بأسلوب الزهو والتعالى والمبالغة الذى كان يستخدمه أحيانا لإبهار الجماهير».

❑

ويروى الفريق أول محمد صدقى محمود أنه تحدث مع الرئيس عبد الناصر فيما كان يعتقده من أن الإذاعات الموجهة ضد مصر كانت تعمل على توريط عبد الناصر، وأن عبد الناصر وافقه على فكرته، ومع هذا فإنه وهو قائد للقوات الجوية فوجئ بالحشود فى اليوم التالى:

«... والتقيت بعبدالناصر فى بيته وتحدثت عن الإذاعات الموجهة ضدنا وكيف أنها تعمل حسب خطة مرسومة لاستكمال توريطنا فى عملية حربية مع إسرائيل، والمثير فى الأمر أن عبد الناصر قال إننى أؤيدك، وفعل عامر نفس الشىء، ثم فوجئت يوم ١٤ مايو (آيار) بالحشد العلنى للقوات المسلحة نهارا فى شوارع العاصمة متجهة إلى سيناء، وأمسكت بالتليفون واتصلت بالمشير عامر فوجدته نائما فتحدثت مع الفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان فإذا به يضحك قائلا: لا تهتم ياصدقى... فالعملية ليست أكثر من مظاهرة عسكرية».

«وذكرت كل هذا للمحكمة العسكرية التى قامت بمحاكمتى وقلت لأعضاء المحكمة إننى سألت الفريق أول فوزى: «تقول مظاهرة.. ضد من؟ ضد إسرائيل؟ ماذا حدث؟ وماذا جرى لكم؟».

وعلى الرغم من هذا الوضوح كله للأبعاد السياسية والعسكرية للموقف فإنا نجد الفريق أول محمد صدقى محمود وقد آثر الاستمرار فى موقعه كقائد للقوات الجوية، وربما كان الرجل يظن الإلهام وحده قادراً على أن يحقق لبلاده النجاح الأخير وأن يكون هذا النجاح الأخير كفيلا بالتالى بتغطية كل جوانب القصور، وهو فى الغالب معذور فإن تصويرنا لحرب ١٩٥٦ كاد يجعل قادتنا لا يعولون على حرب ولا على قتال مادام النجاح السياسى والإعلامى كفيلا بتحقيق ما لا يحققه القتال والكفاح.

(١٣)

ويفيض الفريق أول محمد صدقى محمود فى هذه المذكرات فى الحديث عن لقاء الرئيس عبد الناصر بالطيارين فى مطار أبوصوير الحربى يوم ٢٣ مايو ١٩٦٧، وهو اللقاء الذى خطب فيه عبد الناصر وأعلن فى نهاية حديثه قراره بإغلاق خليج العقبة..

وقد أوردنا فى كتابنا «الطريق إلى النكسة» رواية للواء عبد الحميد الدغيدى عن هذا اللقاء،لكن الجديد الذى يضيفه الفريق محمد صدقى محمود هو أن أحد الطيارين الشبان [هكذا يقول الفريق صدقى] تعرض لموقف عبد الناصر بالتحليل، فما كان من عبد الناصر إلا أن طمأنه بأن الموقف سيحل سياسيا، وفى ذات الوقت فإن عبد الناصر لمح وهو منصرف لصدقى محمود بأنه - أى صدقى - يؤثر على الضباط الشبان بأفكاره.

ويذكر صدقى أنه أدرك أن الرئيس غير راض عن أسلوب الضابط الشاب، بل وظن أنه هو (أى صدقى) الذى أثر عليه بهذه الأفكار. ومن الغريب أن يبقى صدقى محمود فى موقعه بعد كل هذا الذى يراه من توجس الرئيس منه وتجاهه:

«لا أستطيع أن أنسى ما حييت يوم ٢٣ مايو (آيار) ١٩٦٧، لقد جاء عبد الناصر إلى المطار وهو الذى اختار الموقع لكى يلتقى بالطيارين وليس كل أبناء القوات المسلحة وبرفقته عبد الحكيم عامر وشمس بدران وزكريا محيى الدين ومحمد حسنين هيكل وعدد قليل من الصحفيين، وتحدث عبد الناصر إلى الطيارين حديثا عاما نشرته الصحف فى اليوم التالى، ثم أعلن فى نهاية حديثه إغلاق خليج العقبة، وكان هذا الإعلان مفاجأة لى».

«بعدها وقف طيار شاب برتبة نقيب واستأذن الرئيس فى أن يتكلم بصراحة فقال عبد الناصر: اتفضل.. ثم طلب إلى الصحفيين مغادرة القاعة وبقى محمد حسنين هيكل فقط، وتكلم الطيار الشاب فقال كلاما سياسيا خطيرا حلل فيه الموقف بين أمريكا وروسيا ومصر وإسرائيل ليؤكد فى نهاية كلامه حتمية قيام إسرائيل بالهجوم

جوا علـى مصر، وأن واجبنـا حرمان إسرائيـل من تحقيق المـفاجأة ضدنا، وقـال عبد الناصر للطيار الشاب: اطمئن.. إن الموقف سيحل سياسيا وليس عسكريا».

«وأنهى عبد الناصر الاجتماع ثم غادر القاعة وأنا أسير بجانبه فقال لى: يبدو أنك تلقن أفكارك الخاصة لضباطك الصغار أيضا».

«وفهمت أن حديث الطيار الشاب لم يرق لـه، وأن ما ردده الطيار هو من تلقينى وليس نـتيجة تحليـل واستقراء للأحـداث ومتابعتـها، أى بمعنى واضح أحـاول دفعه لإصدار قرار بعينه».

❑

ولست أدرى لماذا حجب عـنا الفريق أول صدقى محمود اسـم هذا الطيار، أم أنه لا يذكر اسـمه، ولكن يبدو لـى أنه حجب الاسم قـاصداً لأنه لو كان لا يذكـر اسمه لأشار إلى عـدم التذكر، لـكنه سكـت عن تبيـان التذكر مـن عدمه، وهذا فـى عرف العسكريين يعنى عدم الرغبة فى الإفصاح.

(١٤)

ويردف الفريق أول محمد صدقى محمود حديثه عن لقاء الرئيس عبدالناصر يوم ٢٣ مايـو برواية تفـصيلات مـذهلة عن مـدى الانفصـام الفكـرى الذى كان قائـما بوضـوح ما بينـه وبين عـبد النـاصر، سواء علـى مسـتوى القرار الـسياسى أو عـلى المستوى العمومى لإدارة العمليات متمثلا ـ على سبيل المثال ـ فى تصور كل من عبد الناصر وصدقى للموضع الأمثل لتمركز طائراتنا:

«... ومضينا إلى ميس الضباط وجلست بجانبه ومن الناحية الأخرى عبد الحكيم عامر، وهيكل أمامنا، فقلت للرئيس:

«الآن.. وقد أغلقـت سيادتك خليـج العقبة، فالمـوقف يختلف، ولابـد أن تصدر الأمر لى على الـفور بالهجوم جوا على إيـلات، ونضمن بذلك دخول قواتـنا البرية إلى إسرائيل وليس أمامنا بديل لما أطرحه الآن».

«وفوجئ عبد الناصر بما أقول، لكنه صمم على أن الموضوع سيحل سياسيا».

«وأخذ عبد الناصر يطوف بالطائرات بعد ذلك معلنا دهشته من تكدسها فى مطار متقدم، فشرحت له كيف لا يمكن وضع هذه الطائرات فى عمق البلاد لأن مداها قصير، فإذا قررنا استخدامها ضد إسرائيل كان علينا تجميعها فى مطار متقدم، وهذا يتطلب أياما وليس مجرد توجه الطائرات إلى القواعد التى ستخصص لها نتيجة النقص الكبير الذى نعانيه فى المعدات الأرضية، وبقاؤها فى القواعد الخلفية لن يجعلها تصل إلى إسرائيل على الإطلاق إذا ما قررنا ذلك».

هكذا توحى إلينا قراءة ما يرويه الفريق صدقى محمود أن معلومات الرئيس عبدالناصر عن سلاح الطيران كانت من الأساس تفتقد التصور المبدئى لا التصور الكامل فحسب، فهو للأسف الشديد غير ملم بمدى عمل الطائرات التى سيقاتل بها.. وليس هذا ذنب الرئيس وحده، وإنما هو ذنب كثيرين.. ومن العجيب أن الرأى العام الإسرائيلى (وليس المسئولين العسكريين فحسب) كان على علم تام بمثل هذه الأمور المبدئية التى تتعلق بسلاحنا الجوى وبغيره من الأسلحة، بينما نحن فى ظل ما سمى بالأمن وبالسرية أخفينا المعلومات المبدئية عن الجميع بمن فيهم رئيس الجمهورية وهو ما يبدو واضحاً من هذه الرواية.

(١٥)

ثم يورد الفريق أول محمد صدقى محمود تفصيلات واقعة كوميدية تجسد بكل وضوح مدى قصر النظر وقلة الحيلة، فضلا عن المظهرية البالغة فى سد الثغرات أمام الرئاسات الأعلى:

«وفى المساء (أى مساء ٢٣ مايو الذى شهد حوار صدقى مع عبد الناصر حول تمركز الطائرات) اتصل بى عبد الحكيم عامر قائلا: لقد طلبت من عبد المحسن أبو النور ـ وكان يتولى وزارة الزراعة ـ (الواقع أنه كان نائبا لرئيس الوزراء للزراعة والرى، وكان الدكتور شفيق الخشن يتولى وزارة الزراعة) أن يقدم لك أى كمية

تطلبها من «جوالات الخيش» لتعبئتها بالرمال ورصها حول الطائرات كإجراء تأمينى مؤقت».

«وطلبت من زميلى الطيار فريق عبدالمجيد الرافعى أن يرسل شاحنات النقل لإحضار هذه الجوالات فإذا بها جوالات ممزقة، واضطررنا لجمع أكبر عدد من ترزية مصر الجديدة وبقية أحياء العاصمة لتحويل الجوالات إلى أكياس سليمة، وكان عملا هزليا للغاية، وشر البلية ما يضحك، وعرفت أن فكرة إرسال هذه الجوالات خطرت ببال عبد الناصر بعدما شعر بالقلق وهو يغادر مطار أبو صوير، وهو الذى أكد للطيارين أن الموقف سيحل بلا حرب، أى سيحل سياسيا!!».

إلى هنا تنتهى رواية الفريق أول محمد صدقى محمود

ونحن لا نريد أن نحمل الرواية أكثر مما تحتمل، ولكن الرواية تنطق ـ على أقل تقدير ـ بحقيقة مهمة، وهى أن الرئيس جمال عبد الناصر كان على المستوى النفسى مترددا بين توجهين، توجه الاطمئنان إلى الحل السلمى، وتوجه التوجس من الحرب، وهكذا فإن كل محاولات المذكرات للتأكيد على أن عبدالناصر كان مقتنعا ومؤملا فى الحل السلمى يمكن لها (أى لهذه المحاولات) أن تنهار بهذه الرواية المرتبطة بجوالات الخيش.. ودعك من هزلية التصرف فإن المهم هو أنه كان هناك عند الرئيس وعند بعض مَنْ حوله وعى بالمخاطر وتوجس حتى لو لم تكن إجراءات الوقاية التى اتخذوها على مستوى الخوف نفسه، أو على مستوى الموقف من باب أولى.

(١٦)

وبنفس المنطق والأسلوب يروى الفريق أول محمد صدقى محمود ذكرياته عن لقاء يوم ٢ يونيو ١٩٦٧، وهو اللقاء الذى تروى معظم أدبياتنا السياسية أن الرئيس جمال عبد الناصر حذر فيه من أن إسرائيل ستقوم بهجوم يوم ٥ يونيو، وسنرى من رواية الفريق صدقى أن قدوم عبد الناصر لهذا اللقاء (ولا نقول الاجتماع) كان مفاجئا حتى للمشير عبد الحكيم عامر نفسه!! وبالتالى فإنه لم يكن لقاء مرتباً لتلقى تحذير أو توقى ضربة أو وضع استراتيجية.

كما يروى صدقى محمود أنه طلب من عبد الناصر إصدار الأمر له بقصف حيفا فى تلك الليلة فلم يوافقه، ولست أدرى ماذا كانت أهداف خطة صدقى بالبدء بقصف حيفا، وربما بخل علينا صاحب المذكرات بتصوراته لجدوى مثل هذه الخطوة، وإن كان قد أبدى تصوراته من قبل عند حديثه عن اقتراحه ضرب إيلات عقب لقاء ٢٣ مايو. وإذا صح ما يرويه الفريق صدقى محمود عن موقفه فى هذين اليومين وعن نيته فى توجيه هذه الضربة أو تلك فهو دليل واضح على أن هذا الرجل كان يتمتع بجدية واضحة وعسكرية واعية، فضلاً عن إدراك استراتيجى لعوامل النصر والتفوق بيد أنه لم يتح له أن يثبت هذا على أرض الواقع.

«فى بداية المساء (مساء نهار جمعة) كنت فى مكتبى حيث اعتدت قضاءإجازة الجمعة أيضا برئاسة القوات الجوية، ومعى الفريق طيار جمال عفيفى رئيس الأركان واللواء طيار محمود بركة، واللواء طيار إسماعيل لبيب قائد الدفاع الجوى والمخابرات الجوية، وإذا بالمشير عامر يتصل بى هاتفيا قائلا:

«لماذا لم أرك طيلة الأيام الماضية؟ حاول المرور علىّ الليلة».

«وتركت الاجتماع بعد قليل، وصحبت معى النقيب طيار حسين عبد الناصر شقيق الرئيس جمال عبد الناصر وزوج ابنة المشير عامر، وكان يعمل بين ضباط مكتبى، وفى مكتب المشير عامر وجدت الفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان، والفريق أنور القاضى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة، واللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية تلك الأيام، وشمس بدران،وأخذنا نتحدث جميعا حول الموقفين العسكرى والسياسى، وقال عامر إنه قرر زيارة جنودنا فى سيناء، وفجأة دخل علينا جمال عبد الناصر، وفوجئ عامر به، فقال مرحبا: أهلا ياريس.. لماذا لم تخبرنى بمجيئك؟».

وقال عبد الناصر: «ها أنا قد حضرت، جئت أراكم جميعا.. وجلسنا، وعدنا نتحدث فى الموقفين العسكرى والسياسى، وفجأة سأل عبد الناصر الفريق القاضى:

«هل وصلت القوات العراقية إلى الأردن يا أنور؟».

«وقال «الفريق» القاضى: ليس قبل ٧٢ ساعة قادمة».

«وإذا بعبد الناصر يقول: إذا لم يحدث شىء فالموقف سيتحسن.. وأخذ يتفرس فى وجوهنا، ثم استطرد مفسرا كلامه: ربما تقوم إسرائيل بعمل استفزازى ضدنا!».

«وعندما استوضحه الفريق القاضى قال عبد الناصر: قد تقوم إسرائيل بقصف منطقة الزيتية بالسويس (وهى أضخم مناطق البترول بمدن قناة السويس)».

«وساد الصمت والوجوم قليلا، فتدخلت فى الحديث بقولى: إذا كان الأمر كذلك يا سيادة الرئيس فأصدرلنا الأمر بقصف حيفا الليلة».

«ورد عبد الناصر فى حسم: لا.. كل ما هو مطلوب منك ياصدقى زيادة وحدات المدفعية حول السويس».

«قلت: سيكون ذلك على حساب مواقع أخرى، لابد من سحب المدفعيات الموجودة حاليا باليمن (هكذا نص المنشور فى الشرق الأوسط، أما النص المنشور فى الحرس الوطنى فيقول: ولا توجد لدينا رشاشات إضافية إلا إذا قمنا بسحب المدفعيات الموجودة باليمن».

«ووافق ـ أى الرئيس عبد الناصر ـ على اقتراحى ثم أردف قائلا:

«على أية حال أنا متأكد من حل الموضوع سياسيا.. الاتصالات مع أمريكا مستمرة، وسيطير زكريا محيى الدين للتشاور مع واشنطن خلال يومين».

❏

هكذا يقدم الفريق أول محمد صدقى محمود الصورة التى أحس من خلالها ـ على حد روايته ـ بأن المناخ مناخ حل سلمى وليس بمناخ حرب.

(١٧)

ثم يصل الفريق محمد صدقى محمود إلى ما يظنه البعض بيت القصيد فى هذه المذكرات، وهو حواره مع الرئيس عبد الناصر (فى لقاء ٢ يونيو ١٩٦٧) حول الضربة الأولى وتفاديها، وسنلاحظ مما يرويه صدقى أو مما يحرص على أن يرويه أن جو المناقشة لم يكن هادئا، وإنما اعتراه الاحتداد، والكهربة، والتحذير، والتدخل، والعصف، وهذه هى بعض ألفاظ الرواية التى بين أيدينا:

«وفجأة نظر إلىّ فى عينى مباشرة وقال: على فكرة ياصدقى، أنا اتخذت القرار

بأنك لا تقوم بالضربة الأولى ضد إسرائيل، ندع إسرائيل تقوم هى بالضربة الأولى إذا قامت بها، ونرد عليها».

«تكهرب الجو، وأصابتنى المفاجأة بما يشبه الشلل وصعد الدم إلى رأسى، وقلت له لأول مرة «ياريس» دون لجوء إلى كلمة «ياسيادة الريس»، وأضفت: تفرق كتير جدا ياريس، الضربة الأولى ستكون قاتلة بالنسبة لنا، ولن تجد فى العالم كله غير أمريكا وروسيا تستطيع كل منهما امتصاص الضربة الأولى وتظل قادرة على توجيه الضربة المضادة أو الثانية!!».

«ولم يتقبل عبد الناصر كلامى بل راح يناقشنى محتدا، وعدت أقول محذرا: إذا لم نقم بالضربة الأولى فتأكد أننا سنصاب بالشلل التام.. لا ياريس.. تفرق كتير ياريس».

«وتدخل عبد الحكيم عامر لتهدئة الموقف فقال: إن الرئيس ياصدقى يهدف إلى إقناعك بأن الضربة الأولى إذا قمنا بها ، ففى هذه الحالة سنحارب أمريكا وليس إسرائيل».

«وأراد عبد الناصر إنهاء هذا اللقاء العاصف بقوله: هذا الكلام طرحته أمامكم فى حالة حدوث مفاجآت، وعموما أؤكد لكم بأن الموضوع سيحل سياسيا».

(١٨)

ويردف محمد صدقى محمود بذكر فقرة مهمة، وتكتسب هذه الفقرة أهميتها من أن طرفها الثانى [وهو محمد حسنين هيكل] كان ولايزال على قيد الحياة حين نُشرت مذكرات الفريق صدقى محمود فى المرات الثلاث، ومع هذا فإن هيكل تولى تسجيل وجهة نظر عبد الناصر وغير عبد الناصر دون أن يتطرق إلى مثل هذا الحوار، على الرغم من أنه هو الذى سأل صدقى محمود رأيه فى هذا الموضوع، وسؤاله إيجابية تحسب له بكل تأكيد، ولكن إغفاله رواية تفاصيل القصة ومدلولها يثير الريبة:

«وأذكر أن محمد حسنين هيكل سألنى على باب مقر القيادة: أليس فى الإمكان تلقى الضربة الأولى جوا من إسرائيل إذا أخذنا استعدادنا من الآن ثم نقوم بالضربة الثانية؟ ووجدتنى أقول لهيكل: الضربة الأولى ستكون مميتة بما يحمله معنى الكلمة «مميتة» وكررتها مرتين».

ويرفض صدقى محمود بشدة التسليم بمقولة إن عبد الناصر حذر من وقوع الحرب يوم ٥ يونيو، ويحرص صدقى محمود على أن يشير إلى أكثر من واقعة يستشهد بها على أن المناخ لم يكن يوحى بصواب الفكرة التى أشيعت منذ ذلك الحين بأن عبد الناصر حذر من حدوث الحرب، وأنه كانت هناك دلائل واضحة على أن الحرب ستنشب صباح يوم ٥ يونيو، وهو يروى فى أكثر من موضع رأيه الذى يقول فيه إن هذه القصة مختلقة تماما ولم تحدث وليس لها أساس من الصحة ويقول:

«وصباح اليوم التالى عرفنا أن زكريا محيى الدين سيطير صباح يوم ٥ يونيو (حزيران) إلى واشنطن، وهكذا يتبين أن عبد الناصر لم يعلن أمامنا تحذيرا ويحدد يوما معينا لهجوم إسرائيل علينا».

ويستطرد الفريق صدقى محمود ليذكر دلائل أخرى على ما يريد تأكيده:

«غير أننى أذكر هنا حادثة مهمة لها دلالة خطيرة تؤيد كل ما ذكرته حتى الآن، وهى حادثة وقعت يوم ٤ يونيو (حزيران):

«قبل أن ينتصف نهار ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ اتصلت بى رئاسة الجمهورية وطلبت منى إعداد طائرتى ركاب، الأولى لوفد عراقى يزور القاهرة برئاسة المرحوم اللواء طاهر يحيى رئيس وزراء العراق يصاحبه السيد حسين الشافعى، والطائرة الثانية لوفد سورى يضم الوزراء السوريين الذين يقيمون فى مصر منذ انفصال الوحدة بين القاهرة ودمشق عام ١٩٦١، فقد تقرر قيام الوفدين العراقى والسورى بزيارة جبهة سيناء صباح يوم الاثنين ٥ يونيو (حزيران) بناء على توجيهات الرئيس عبد الناصر، وبعد دقائق اتصل بى المشير عامر ليطلب الشىء نفسه فأخبرته بأن رئاسة الجمهورية أبلغتنى بالمطلوب».

«وأعددنا الطائرتين فعلا، وطارتا بالوفدين أو الضيوف».

ثم يعلق صدقى محمود قائلا:

«هل كان منطقيا أن يحذرنا عبد الناصر من هجوم إسرائيلى سيتم يوم ٥ يونيو، ثم تطلب رئاسة الجمهورية طائرتين لوفدى العراق وسوريا للطيران إلى سيناء بناء على تعليماته صباح اليوم نفسه؟! أم أنه كان مؤكدا لدى رئاسة الجمهورية أنه لا هجوم ولا حرب؟ على كُلٍّ طار الوفدان فى الوقت المحدد وكما خططت لذلك سكرتارية الرئيس».

(٢٠)

ويدعم صدقى محمود محاولاته فى نفى حدوث تحذير صريح من الرئيس عبدالناصر فى لقاء ٢ يونيو بقوله:

«فى مساء ٤ يونيو (حزيران) تلقيت مكالمة من المشير عامر يطلب منى أن أرافقه صباح الغد فى زيارة للجنود فى سيناء، واستأذنته أن أبقى يوما واحدا معه فى سيناء فوافق على ذلك.. وطرنا صباح ٥ يونيو الساعة الثامنة والنصف صباحا من قاعدة الماظة ومعنا الفريق أنور القاضى، والعميد طيار محمد أيوب مدير مكتب المشير عامر لشئون الطيران، وشمس بدران وحضر لوداع المشير الفريق أول محمد فوزى وبعض القادة، وهنا يتساءل الفريق صدقى محمود: ألم يكن بوسع أحدهم أن يذكر المشير عامر بأن اليوم هو الموعد الذى حدده عبد الناصر لهجوم إسرائيل علينا؟!».

❑

وفى النهاية يؤكد الفريق صدقى محمود بتقرير قاطع أن «حكاية التحذير» هذه «حكاية وهمية» وهو يقول:

«هل يحتاج الأمر لأدلة أكثر وضوحا لكى نتبين أن حكاية إنذارنا بهجوم إسرائيل يوم ٥ يونيو هى حكاية خيالية وهمية لم تحدث على الإطلاق».

ومع هذا فلست أدرى بالتحديد كيف تناولت المحكمة العسكرية هذه الواقعة دون فصل فيها مع أنها لم تتهم صدقى محمود بشىء محدد فيها ولم تعاقبه عليها.

(٢١)

ونأتى إلى ذكريات صدقى محمود عن يوم الحرب نفسه، وقد كان من المصاحبين للمشير عبد الحكيم عامر فى نفس الطائرة فوق سيناء، وهو يروى تفاصيل مهمة عما اكتشفه من تشويش الرادارات المصرية إلكترونيا، وعن أعداد الطائرات الإسرائيلية الكثيرة، وعن القنبلة الجديدة التى استعانت بها إسرائيل فى تدمير الممرات، ويستشهد صاحب المذكرات بقول الإنجليز إن هذه القنبلة هى التى كسبت الحرب وليست إسرائيل:

«فى الجو أبلغنى الطياران حسام البشارى ومحب يوسف قائدا طائرة المشير بأن إسرائيل هاجمت مطارات فايد وكبريت وأبوصوير.. وعلى الفور وجدتنى أقرر بأن العدو سيقصف مطار ألماظة أيضا.. وقررنا العودة.. وكانت حالة المشير عامر سيئة للغاية، وشاهدنا مطار أنشاص والنيران مشتعلة فيه، وهبطنا فى مطارالقاهرة الدولى ثم أقلتنا سيارات الأجرة إلى مقر القيادة فى مدينة نصر، وظل المشير عامر يطالبنى بتنفيذ «الخطة» ناسيا تماما أنها خطة هجومية أعددناها لكى نقوم نحن بالضربة الأولى وليست الضربة الثانية!!».

«وفى غرفة القيادة وجدت جميع شاشات راداراتنا بيضاء تماما، وأذكر أن العقيد لطفى سليمان المسئول عن محطات الرادار قال إن محطاتنا لم تدمر لكنها عاجزة عن العمل أمام تشويش إلكترونى مكثف ضدها، كما وجدت الفارق الزمنى بين كل موجة من الطائرات التى تهاجمنا والموجة التى تليها لا يزيد على خمس دقائق، كما لاحظت أن أعداد الطائرات التى هاجمتنا أكبر بكثير جدا مما عرف أن إسرائيل تملكه، كما أن إسرائيل استخدمت لأول مرة قنبلة الممرات ولم تكن معروفة من قبل، وهى من إنتاج أمريكا لتدمير الممرات منعا لإقلاع أى طائرة تنجو من القصف، وقال عنها القادة الإنجليز: إن هذه القنبلة هى التى كسبت حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ وليست إسرائيل».

(٢٢)

وفى المذكرات المنشورة فى «الأنباء الكويتية» يلقى حمدى لطفى [بضميره هو كمتكلم وليس بلسان الفريق محمد صدقى محمود] الضوء على ما يصفه بأنه بعض التفاصيل المثيرة التى حدثت فى داخل طائرة المشير فيقول:

«اكتشف الطياران قائدا طائرة المشير عامر أنهما وسط غابة من الطائرات الإسرائيلية وهما فوق مطارات القناة، فصرخا فى وقت واحد: مش معقول. فى ذات اللحظة كان المشير عامر يقرأ كلمات البرقية الشفرية التى جاءت من مركز عجلون تحذر من ضربة جوية إسرائيلية بعد نصف ساعة، تسلمها بعد فوات الأوان، فصرخ هو الآخر: مش معقول. مش معقول».

«وساد الجميع اضطراب ممزوج بالهرج والفوضى والخوف.. وهنا وقع حادث يكشف عن نوعية العلاقات الإنسانية التى تجمع بين كبار ضباط القيادة العامة للقوات المسلحة ضباط عامر.. ممن كانوا داخل الطائرة.. إذ أخرج العميد طيار محمد أيوب مدير مكتب عامر للطيران مسدسه وهو فى حالة هياج وذعر.. وشهره فى وجه زملائه معتقدا بأنها مؤامرة لقتل عامر. فأخرج بقية القادة مسدساتهم الصغيرة التى يخفونها سرا فى ملابسهم وأشهر كل قائد مسدسه فى وجه الآخر.. وكادوا يطلقون الرصاص على بعضهم.. بينما العميد أيوب يصرخ: عاوزين تقتلوه ياولاد الكلب.. ويرد آخر «دى مؤامرة لاغتيالنا»، ثم تيقظ المرحوم الفريق صدقى محمود لما يحدث فهتف فى الجميع: «أدخلوا مسدساتكم.. إسرائيل تهاجمنا الآن يابهايم».

«وهبطت طائرة عامر فى مطار القاهرة الدولى بعد أن تعذر هبوطها فى المطارات الحربية المدمرة كما ذكرت من قبل، وعاد عامر ورجاله إلى مقر قيادته بسيارات التاكسى».

(٢٣)

ويحرص صدقى محمود على أن يؤكد أن القوات الجوية قامت بدور بطولى فى أثناء حرب ١٩٦٧، وهو بالطبع لا يصل فى الإفاضة فى الحديث إلى الدرجة التى وصل إليها اللواء عبد الحميد الدغيدى فى مذكراته التى عرضناها فى كتابنا «الطريق إلى النكسة». لكنه فى ذات الوقت يعطى أضواء مهمة ويقول:

«طبعا.. لا أنسى صغيرة أو كبيرة وقعت عبر تلك الأيام الحزينة،لأنها حياتى وما كان لى غير الطيران فى شبابى وكهولتى».

«فرغم الهجوم المفاجئ أقلع الطيارون المصريون الأبطال من مطارات المليز وكبريت وفايد وأبوصوير وأنشاص وغرب القاهرة والغردقة، وقاموا بطلعات انتحارية، واشتبكت المقاتلات المصرية مع الطائرات الإسرائيلية، وكانت لنا خسائر ولإسرائيل أيضا.. ولم يكن بالإمكان استخدام المطارات والممرات المدمرة حتى يعاد إصلاحها».

«وقد قام المهندسون والفنيون والجنود بمعجزات هندسية فى إصلاح المطارات والطائرات معا. كما قاموا بتكملة تركيب أجزاء الطائرات «السوخوى» عندما اختفى الخبراء السوفييت وكانوا يعملون فى فك الصناديق وتجميع الأجزاء الفنية فى الطائرة الجديدة. وفجأة اختفوا جميعا صباح يوم ٥ يونيو، فقام الفنيون المصريون بالمهمة على الفور».

«وفجر ٦ يونيو هاجم سرب الشهيد مدحت المليجى المطارات الجنوبية فى إسرائيل، وقامت ثلاثة أسراب مصرية بالعمل فوق سيناء، وفى مساء ٧ يونيو طلب منى المشير عامر قصف القوات الإسرائيلية على جانبى الطريق فى بير العبد ورمانة بسيناء، فقام طيارو «اليوشن ٢٨» وكانوا عائدين لتوهم من اليمن بالمهمة فى ٣ طلعات، واستخدموا مدافعهم الرشاشة لحصد العدو».

«وأبلغنى الفريق أول محمد فوزى بأن خسائر إسرائيل كبيرة نتيجة هذه

الغـارات، وقال بالحرف الـواحد: «الراجل بـيصوصو» مـن امبارح بالـليل ويطـلب بإلحاح مـعونة جويـة وحماية عـاجلة. وكان يقـصد «بالرجـل الذى يصوصـو» قائد التشكيل الإسرائيلى الذى هاجمته طائراتنا فى بير العبد ورمانة».

وفى خضـم هذا كله لا يفـوتنا الإشارة إلى مـا أشار إليه الـفريق محمـد صدقى محمود من نبل أشقائـنا الجزائريين وبطولتهم وبسالتهم فقد وصـلتنا فى صباح اليوم الرابع من أيام القتال اثنتا عشرة طائرة جزائرية بطياريها ولكن صدقى محمود لم يشأ أن يشركهم فى الطلعات الانتحارية إبقاء على حياتهم.

«وفى صبـاح ٨ يونيو أرسلت الجـزائر ١٢ طائرة ميج ٢١ بـطياريها، فلـم أسمح لهم بالاشتراك فى الطـلعات الانتحارية التى يقوم بها الطيـارون المصريون إبقاء على حياتهم».

ويؤكد الـفريق محمـد صدقى محمود عـلى الدور البطـولى الذى أتيح لـلقوات الجوية المصرية ـ رغم كل الظروف ـ أن تـقوم به فى حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ وذلك فى موضع آخر من مذكراته المنشورة فى جريدة «الأنباء» حيث يقول:

«ورغم المـفاجأة الجـوية التى امـتلكـتها إسـرائيل، فـقد قام الطـيارون المصـريون بطلعات انتحارية انطلاقا من رجولتهم وإيمـانهم وأصالتهم.. قاموا يوم ٥ يونيو نفسه بـ٢٢ طـلعة عـمليـات بقوة (٥٥ طـلعة قتـال جوى)، وفى الـيوم التـالى ٤٩ طلـعة عمليات بقوة ١٢١ طلعة قتال جوى، وفى الـيوم الثالث ٢٠ طلعة، وفى اليوم الرابع ٢٢ طلـعة، وفى الـيوم الخـامس بعـد توقف إطـلاق النار بـقرار مـجلس الأمـن قام الطيارون المصـريون بطلعتى عمليـات بقوة سبع طلعات قتال جـوى، وكان أكثرهم يعلم تماما وهو يقود طائرته مقلعا مـن قاعدته أنه فى عداد الموتى بكل تأكيد، لأنه إذا فرض وعاد سالمـا فلن يستطيـع الهبوط فوق ممرات مدمرة وسـتنفجر بهم الـطائرة لو حـاول اسـتخدام هــذه الممـرات، ولـم يهتموا بـهذه الحسابـات بل إن بعضـهم قاد

طائرته مقلعا فوق الممرات الممزقة فانفجرت به الطائرة قبل أن يرتفع عن الأرض».

❏

وفى موضع آخر من مذكراته يشير الفريق صدقى محمود إلى هذا المعنى بعبارات موجزة ويقول:

«من المهم أن نذكر الطلعات الانتحارية التى قام بها الطيارون المصريون يوم ٥ و٦ و٧ و٨ و٩ يونيو وسجلوا أعمالا بطولية فى مطاردة واعتراض طائرات إسرائيل، وهذه العمليات تحتاج إلى كتاب مستقل لأن ما قام به نسورنا فوق طاقة وقدرات البشر.

(٢٤)

ويبدى الفريق محمد صدقى محمود اعتراضه على قرار تقييد نيران قوات الدفاع الجوى بصورة عامة، ومن العجيب أن يصدر هذا القول عن القائد الكبير الذى كان يتولى مسئولية القوات الجوية والدفاع الجوى معا، ولكن عجبنا يزول إذا ما تذكرنا أن قواتنا المسلحة كانت تعانى فى ذلك الوقت من تزايد الحلقات فى سلسلة القيادة إلى حد لم يحدث فى التاريخ، هذا فضلا عن السلطات الواسعة التى كانت تعطى كل قائد وأى قائد الحق فى إصدار الأوامر تحت دعوى أنها أوامر المشير أو الوزير شمس أو غيرهما، وسنرى فى رواية صدقى محمود مصداقاً لهذا الذى نتحدث عنه.. وبالأسماء.. حيث يقول:

«... كان بالإمكان ـ وهذا هو المفروض ـ عدم حبس نيران الدفاع الجوى على مستوى الجمهورية بأكملها.. فالأوامر الصادرة لجميع غرف عمليات القواعد حتى

الثامنة والنصف صباح ٥ يونيو هى تقييد المدفعية المصرية المضادة للطائرات فى مطار القيام فقط حتى خروج طائرة المشير عامر من مجال هذا المطار، لكن حدث بعد أن عدت إلى مقر قيادتى أننى علمت من اللواء يحيى فؤاد المسئول عن الدفاع الجوى على مستوى الجيش بأن الفريق أول محمد فوزى هو الذى أمر بتقييد نيران الدفاع الجوى المصرى على مستوى الجمهورية، وقد تلقى هذا الأمر العميد محمد على فهمى (فريق أول فيما بعد، وقائد قوات الدفاع الجوى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣)، وكان يقود تشكيل الدفاع الجوى المسئول عن حماية العاصمة وما حولها، فإذا به يبلغ به جميع قادة تشكيلات الدفاع الجوى على مستوى مصر كلها!».

هكذا نجد فيما يرويه صاحب هذه المذكرات تفصيلات كثيرة عمن أصدر الأمر وعمن تلقاه وكأنما القائد المسئول وهو الفريق أول محمد صدقى محمود نفسه كان آخر مَنْ يعلم.. وليس فى هذا ما يثير الدهشة أو العجب فى ظل الظاهرة الخطيرة التى أشرنا إليها قبل أن ننقل للقارئ نص ما رواه صاحب المذكرات، وهو تضخم سلسلة القيادات الكثيرة والإضافية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت دون أدنى مبرر عسكرى.

❑

وفى النص المنشور فى جريدة «الأنباء» يشير الفريق صدقى محمود إلى تفصيلات الضربة الجوية الإسرائيلية بقدر أكبر من التفصيل ويقول:

«قبل أن يستقل عامر وشمس وجميع القادة تقريبا طائراتهم، كانت التعليمات قد صدرت بتقييد جميع أسلحة دفاعاتنا الجوية، أى تجميدها عن العمل لأن طائرة المشير فى الجو وطلقة طائشة قد تسقط الطائرة، وفى الوقت نفسه كانت طائرات إسرائيل تقلع من مطارات حاتور، واللد، والرملة، ورامات ديفيد، ومطارات أخرى وسط إسرائيل الساعة ٨,٣٠ صباحا بتوقيت القاهرة، وقد اختارت هذه الساعة لوضوح الرؤية تماما فوق مناطق كثيرة من النيل وفوق الدلتا وفوق قناة السويس حيث يزول الضباب الذى ينتشر عادة فوق هذه المناطق، ويصل الطقس إلى مثاليته

بعد الثامنة والنصف صباحا، وتبلغ الرؤية بالنسبة للطيارين درجة عالية بسبب زاوية الشمس ووصول الهواء إلى سكونه، مما يساعد على الدقة فى إسقاط القنابل فوق ممرات الطائرات داخل قواعدنا الجوية!».

«وهذه المعلومات ذكرها بعض الأسرى من الطيارين الإسرائيليين، حصلوا عليها من مصادرها فى مصر ولمدة عام كامل ظلوا يتابعون حالة الطقس خلال شهور السنة بأكملها، كما حصلوا على نمط الحياة داخل القواعد الجوية المصرية، كذهاب القادة الذين تتركز فى أيديهم سلطة القرار إلى مكاتبهم فى التاسعة صباحا! وبعد ذلك بقليل، كما أن الطيارين المصريين الذين قد يكونون فى الجو أى فى وضع القيام «بالمظلة الجوية» قد عادوا إلى فترة الراحة، كانت طائراتنا تتجمع فى ١١ مطارا منها ٤ مطارات غير مستخدمة بينما تجمعت طائرات إسرائيل فى ٥٨ مطارا، مع صغر مساحة إسرائيل بالنسبة للأراضى المصرية!».

وفى المذكرات المنشورة فى «الحرس الوطنى» يشير الفريق صدقى محمود إلى هذا المعنى بتفصيل أكثر ويقول:

«وقد أخبرنى اللواء يحيى فؤاد المسئول عن الدفاع الجوى بأن الفريق أول فوزى أصدر إليه الأوامر قبل الساعة الثامنة من صباح ٥ يونيو بحبس نيران مدفعيته، بين كافة تشكيلات الدفاع الجوى فى أنحاء مصر كلها، مما أعطى للطائرات الإسرائيلية حرية الحركة والمرونة والسيطرة على سماء وأرض الوطن».

(٢٥)

ويتناول محمد صدقى محمود فى هذه المذكرات حقيقة موقف القوات الجوية من إشارة عجلون:

«أولا يهمنى أن أذكر أن جهاز الإرسال الذى استخدمه مركز رادار عجلون فى

الاتصال بالقاهرة هو جهاز خاص بقواتنا الجوية، وقد قدمته للمرحوم الفريق عبدالمنعم رياض حين سافر للأردن لكى يتولى مسئولية القيادة الأردنية ـ المصرية المشتركة، قبل الحرب بأيام قليلة، ذلك لمد قواتنا الجوية بالمعلومات التى يحصل عليها رادار عجلون أولا بأول، وعبد المنعم رياض هو الذى وضع الشفرة الكودية بين عجلون والقاهرة وأرسلها لنا، ثم جعل رئاسة الأركان المصرية تستمع للموجة التى يرسل عليها للقوات الجوية فى وقت واحد، وحين أخذ عريف عجلون يرسل بالبرقية الخاصة بتحذيرنا من الهجوم الإسرائيلى الجوى قبل القيام به بنصف ساعة، وجد الكلمة الكودية قد تبدلت، أى وجد أمامه صمتا تاما، ففكر سريعا ثم اتصل عن طريق الجزائر برئاسة الأركان أو القيادة بالقاهرة مخاطبا فرع الإشارة بها وكان يتولى قيادته العقيد مسعد الجنيدى وذلك عن طريق الموجة الموجودة لديه مع الجزائر، وهذا وحده عمل بارع، وللأسف لم تجد البرقية الشفرية مَنْ يستقبلها، وبالتالى لم تستمع إليها القوات الجوية.. نتيجة تغيير الكلمة الكودية!».

❑

«لقد هاجمت الطائرات الإسرائيلية قواعدنا وهى تطير على ارتفاعات منخفضة جدا، ولو بلغتنا إشارة عجلون لاستطاعت طائراتنا ركوب طائرات إسرائيل بسهولة وأمامها فسحة من الوقت تسمح لها بحرية الحركة، ولتغير وجه التاريخ كما قال الفريق عبد المنعم رياض فى شهادته أمام المحكمة العسكرية التى تولت محاكمتنا».

«ولقد علمت بعد ١١ يونيو أن الفريق أول محمد فوزى قد قام بالتحقيق فى عملية تغيير الكلمة الكودية صباح ٥ يونيو لإبعاد الشبهة عنه، وأمر بالقبض على أحد الصولات كمسئول عن هذه الجريمة، كما حوكم العقيد مسعد الجنيدى بتهمة الاشتراك مع شمس بدران لإعادة عبد الحكيم عامر بقوة السلاح، وليس لابتعاده عن مركز قيادته بمجرد علمه بأن زكريا محيى الدين سافر لأمريكا لحل القضية سياسيا.. ولم نعلم بالبرقية ونحن فى الطائرة مع المشير عامر.. عرفنا بأمرها بعد يوم أو أكثر من وصولها، وكانت من مهازل الاعتقاد الخاطئ بحل القضية سياسيا».

(٢٦)

ويحرص حمدى لطفى فى المذكرات التى يقدمها على أن يدلنا على ما انتهى إليه تحقيقه الصحفى الدءوب فيما يتعلق بإشارة عجلون، وهو حريص على أن يكرر أنه استطاع الوصول إلى هذه الصورة التى تمثل الحقيقة بجهد جهيد على مدى فترة طويلة، ولحمدى لطفى روايتان نبدأ بالأحدث منهما وهى التى رواها فى جريدة «الأنباء»:

«ولقد أشارت الصحف العربية وليس المصرية إلى هذه البرقية، لكنها لم تنشر شيئا عن أسرارها، وأسرار التحقيق الذى جرى بشأنها فى الأيام الأخيرة من يونيو ١٩٦٧، وظل جميع الضباط يتحدثون عنها ويروون عشرات القصص المثيرة حولها».

«وأعترف بأننى كصحفى فشلت فى جمع تفاصيل الحقيقة حول هذه البرقية الشفرية طوال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٦٧، نتيجة السرية الشديدة المفروضة عليها، كما أننى لم أكن أعمل بالقاهرة تلك الأيام، فقد بقيت متنقلا بين جبهة سيناء شمالها وجنوبها منذ صباح ١٩ مايو ١٩٦٧، حتى عدت مع تشكيلات وحدات المظلات المصرية منسحبا من شرم الشيخ قبل مساء ٧ يونيو فوصلت مدينة السويس صباح ٨ يونيو، وبقيت ملازما بيتى أقرب إلى إنسان مشلول لعدة أسابيع، ثم شرعت أتقصى أسرار الهزيمة فى هدوء وخلسة، وسمعت بقصة برقية عجلون، التى تحولت إلى أسطورة، فماذا تقول القصة؟».

«ذهب اللواء عبدالمنعم رياض ـ الشهيد فريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان القوات المسلحة حتى ٩ مارس ١٩٦٩ ـ إلى الأردن فى مايو ١٩٦٧، منتدبا من سلاح الدفاع الجوى الذى يتبع الطيران تلك الأيام، وبرفقته العميد طيار مصطفى الحناوى، لتمثيل مصر فى القيادة العربية المشتركة بالأردن».

«وفى ساعة مبكرة من صباح ٥ يونيو أرسل برقية شفرية إلى القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية تقول كلماتها: ستقلع الطائرات الإسرائيلية بعد نصف

ساعة لتغطى مطارات مصر، وفى رواية أخرى لأن البرقية اختفت تماما، نسبوا الفعل «ستقلع» إلى الماضى أى «أقلعت» وقيل إن البرقية وصلت القاهرة فى السابعة والدقيقة ٢٥، أى الثامنة والدقيقة ٢٥ بتوقيت إسرائيل، وتسلم البرقية «صول» يعمل فى تسلم البرقيات الإشارية بمقر القيادة بمدينة نصر، فجرى بها إلى حجرة نوم وزير الحربية شمس بدران حيث وقعت المهزلة الساخرة أو المأساة المضحكة.. رفض حارس شمس بدران إيقاظه رغم خطورة البرقية لأن سيادته نام قبل الفجر بقليل، بعد أن أعدوا له سريرا جديدا يتناسب مع طول قامته، الأمر الذى استغرق طوال ليلة ٥ يونيو تحت إشراف النقيب مهندس محروس زيادة الضابط المسئول عن الشئون الإدارية فى بيت المشير عامر ومقر قيادته وإدارة جهاز السينما الخاص بنائب القائد الأعلى فى جناحه العائلى بمنزل المشير عامر فى حلمية الزيتون، ودخل شمس حجرة نومه قبل الفجر بقليل، وبعد ثلاث ساعات جاءت البرقية ورفض «مساعد» الأمن المعين لحراسته إيقاظه، وبعد نقاش مع المساعد حامل البرقية، وافق على إدخالها إلى ملف البرقيات الموجود فوق الكومودينو بجانب السرير، ذهب إليه مشيا على أطراف أصابعه».

«وهنا يبرز سؤال مهم: أين كان الضابط المكلف باستقبال البرقيات الشفرية وهو المرحوم المقدم مسعد الجنيدى من ضباط سلاح الإشارة، وأحد المقربين من عبدالحكيم عامر؟!

«لقد تبين أنه ترك القيادة بين الضباط الكبار والصغار الذين عادوا إلى بيوتهم حين هدأت الحالة بإذاعة خبر طيران زكريا محيى الدين إلى أمريكا لحل القضية سلما، وقد قُبض على مسعد الجنيدى وحوكم ليس بسبب ذلك بل لاشتراكه فى مؤامرة إعادة عامر إلى منصبه السابق «بقوة السلاح تحت قيادة شمس بدران».

«ونعود إلى البرقية، وانسحاب حارس الأمن عائدا إلى الخارج بعد أن تركها فى ملف البرقيات فوق «الكومودينو» ليظهر عبدالحكيم عامر فجأة طالبا إيقاظ شمس ليطير معه فى جولة تفتيشية إلى سيناء.. واستيقظ شمس على عجل وارتدى ملابسه سريعا دون اهتمام بملف البرقيات، ورافق عامر إلى المطار ووقعت النكبة الكبرى!».

(٢٧)

ونعود مع حمدى لطفى إلى النص الأسبق نشرا حول نفس الواقعة وهو النص المنشور فى مجلة «الحرس الوطنى» حيث يقطع الأستاذ حمدى لطفى حديث الفريق صدقى محمود ليدلنا على ما توصل إليه ويقول فى المذكرات المنشورة فى مجلة «الحرس الوطنى» ما نصه:

«وقبل أن نقرأ إجابة الطيار القديم محمد صدقى محمود أجدنى مدفوعا لأروى قصة قصيرة تحمل كل السخرية والمرارة وتجسد المناخ القيادى الذى ساد المسار العسكرى المصرى ما قبل ٥ يونيو بفترة طويلة وانتهى بالهزيمة.. وهذه القصة ذات ارتباط وثيق ببرقية عجلون».

«بعد لقاء عبد الناصر وعامر وقادة الفروع الرئيسية للقوات المسلحة مساء ٢ يونيو فى مقر القيادة العامة.. عاد المشير عامر إلى بيت زوجته الثانية [يقصد السيدة برلنتى عبدالحميد]، وكان محظورا على الجميع الاتصال به هناك، قد يتصل هو ببعض معاونيه ولكن لا أحد يجرؤ على طلبه، وأراد شمس بدران فى اليومين التالين تجهيز سرير خاص يتناسب وطول قامته لينام فى مقر القيادة بالدور المخصص له، وكان مفروضا أن ينتهى إعداد هذا السرير ولوازمه قبل منتصف الليل، لكن العمل استمر بحجرة نوم الوزير شمس «كما اعتادوا مناداته» حتى الثالثة صباحا، ودخل شمس بدران غرفته الجديدة لينام قرب الفجر، وفى السابعة والنصف صباحا وصلت برقية عجلون من الأردن، تلقاها مساعد، أى صول البرقيات، ولم يكن قائده المرحوم المقدم مسعد الجنيدى يقضى ليلته بالقيادة فحملها «الصول» إلى حجرة نوم الوزير شمس، غير أن حارس شمس رفض إيقاظ وزيره بحجة أنه نام متأخرا ولا يجرؤ على إيقاظه،وبعد نقاش بين الرجلين حمل حارس شمس البرقية ودخل فى هدوء ليضع الورقة الخطيرة فى ملف فوق «كومودينو» بجوار سرير شمس.. وبعد فترة قصيرة ظهر المشير عامر أمام حجرة شمس مناديا عليه ليرافقه إلى سيناء، وارتدى شمس ملابسه على عجل دون أن يفتح الملف الموجود بجوار سريره أو يكلف نفسه بحمله معه.. وهكذا بقيت البرقية مجهولة للجميع.. ووقعت النكبة».

«وبعد عودة المشير عامر مستقلا التاكسى من مطار القاهرة الدولى إلى مقر القيادة، تحدث الجميع عن هذه البرقية.. وظهر أن المقدم مسعد الجنيدى كان قد وصل القيادة فى التاسعة صباحا وقرأ البرقية بعد أن أخبره «الصول» بأمرها وأين استقرت، واستطاع إبلاغ المشير عامر بنصها وهو فى الجو (لاسلكيا)، وبعد لحظات عرف عامر ورفاقه فى الطائرة أن إسرائيل هاجمت مطاراتنا وقواعدنا الجوية».

ويردف حمدى لطفى:

«وحين عرف عبد الناصر بأمر هذه البرقية هاجم عامر هجوما شديدا، وتحدث عن أربع مؤامرات خرجت من مكتبه ضد الثورة، وعن فشل عامر فى اختيار ضباطه، حتى ضابط الإشارة الذى يعمل معه ترك القيادة، وذهب لينام فى بيته، وليحدث ما يحدث».

«ولقد أصدر الفريق أول محمد فوزى أمرا بالقبض على صول البرقيات وتعذيبه ومحاكمته عسكريا، ولم يعرف أحد ماذا جرى لهذا الرجل؟ وترددت قصة عن وفاته فى أثناء التعذيب، كما لم يعرف أحد لماذا جرى تعذيبه؟ وماذا كان مطلوبا أن يعترف به؟».

❑

ويواصل حمدى لطفى ما يرويه عن هذه الواقعة فيقول:

«غير أن بعض العالمين بأسرار القيادة العسكرية المصرية قالوا لى وأنا أبحث فى رحلتى الصحفية خلف أسرار نكسة يونيو ١٩٦٧، وهى رحلة استمرت ابتداء من يونيو ١٩٦٧ حتى اليوم، وكل فترة من الزمن تتكشف أسرار جديدة.. هؤلاء الرجال قالوا لى: إن الهدف من التعذيب الذى تعرض له صول الإشارة ليس حمله على الاعتراف، بل لأنه اعترف أصلا بأن كود الشفرة تبدل سرا ليلة ٥ يونيو، ولم توزع الشفرة الجديدة على محطات القيادة العامة فى أنحاء الوطن أو فى الأردن أو سوريا.. ومن هنا قال البعض بحتمية وجود خيانة لإيقاع الهزيمة بمصر».

«وكان الفريق عبدالمنعم رياض برتبة لواء وهو ضابط دفاع جوى أصلا، قد طار

إلى الأردن ليمثل القيادة المصرية فى القيادة الأردنية ـ المصرية المشتركة ما قبل ٥ يونيو، يعاونه اللواء طيار مصطفى الحناوى الذى تولى قيادة القوات الجوية المصرية فى نهاية ١٩٦٧، فأرسل اللواء رياض بالبرقية التى تقول كلماتها الشفرية: «ستكون طائرات إسرائيل فوق المطارات المصرية الساعة ٤٥ , ٧ صباحا»، وقال العريف الذى كان يعمل فى مركز عجلون وهو مصرى أصلا إنه كان نائما وإذا بضابطين [مصرى وأردنى] يوقظانه ليتصل بالقاهرة فورا وينقل لها البرقية، وقال العريف فى التحقيق الذى جرى يوم ١٦ يونيو ١٩٦٧ إنه يذكر أن البرقية ذكرت أن ٥٠ طائرة إسرائيلية ستقصف مصر ما بين الساعة ٨,٣٥ و٨,٤٥ صباحا، وأنه جلس إلى جهازه الإشارى ولديه موجة قصيرة مع القاهرة، وموجة طويلة مع الجزائر، غير أن موجة القاهرة لن تستقبل منه قبل التاسعة صباحا ـ وهى الموجة التى تستمع إليها رئاسة القوات الجوية المصرية إلى جانب القيادة العامة ـ ورأى عريف عجلون خطورة الانتظار حتى التاسعة، فاتصل بالقاهرة عن طريق موجة الجزائر وأبلغ الإشارة فعلا، غير أن اتصاله بهذا الشكل الذكى والناجح شُوش على جهاز الاستقبال الإشارى لدى رئاسة الطيران المصرى فلم تتبين شيئا من الناحية الفنية».

«وكان بإمكان قائد مركز الاستقبال الإشارى فى القيادة العامة فى القاهرة المقدم مسعد الجنيدى لو كان موجودا بمقره أن يقوم بإبلاغ الطيران بنص إنذار عجلون أو برقيتها، ولو حدث ذلك لقامت الطائرات المصرية بركوب طائرات إسرائيل التى جاءت على ارتفاعات منخفضة هربا من أجهزة الرصد، ولامتلكت الطائرات الإسرائيلية وعجزت إسرائيل عن تحقيق أكثر من نسبة ٧٠٪ من أهدافها».

«ولقد تشكل مجلس عسكرى عال للتحقيق فى قضية أو برقية عجلون، وترأس ضابط الإشارة القديم اللواء كمال منير هذا المجلس الذى ضم اللواء طيار جمال عرفان رئيس عمليات الطيران بعد ١١ يونيو، واللواء عوض الأحول مدير القضاء العسكرى، والمقدم سمير البحيرى رئيس النيابة العسكرية الذى استقال بعد بلوغ رتبة لواء ليعمل بالمحاماة، وأخذ المجلس يستمع إلى أطراف عسكرية عديدة للتعرف على المسئولين عن عدم وصول هذه البرقية وتغيير الشفرة صباح ٥ يونيو، وعدم

إبلاغ البرقية للقوات الجوية، وهذا المجلس تشكل بقرار من الفريق أول محمد فوزى الذى تولى وزارة الحربية بعد النكسة مباشرة، ويعد من أوائل المسئولين عن وقوع النكسة».

«وبعد أن انتهى التحقيق أرسلوا بالملف كاملا إلى الرئيس عبد الناصر فطلب تجميد الموضوع وعدم الإشارة إليه فى الصحف، وقال بين مجموعة من القادة الجدد: نحن نعطى بذلك مجالا جديدا للروس كى يسخروا منا أكثر وأكثر مما سخروا، وقالوا الكثير عن عدم قدرتنا على استخدام السلاح وأننا لا نجيد غير الحرب بالسيف».

إلى هنا ينتهى نص ما رواه الأستاذ حمدى لطفى وأدخله جزءا من أحاديثه المنشورة مع الفريق أول محمد صدقى محمود. ومن الواضح أن المعلومات الكاملة عن قصة إشارة عجلون لم تكن متاحة حتى ذلك الوقت أمام الفريق أول صدقى محمود نفسه.

(٢٨)

ولأن صاحب هذه الذكريات كان فى الصف الأول من المسئولين عن معركة ١٩٦٧، وقد أتيح له قبلها وفى أثنائها معرفة وإدراك ما لم يتح للكثيرين من القادة والمسئولين معرفته وإدراكه، فإنه يجد نفسه مطالبا بإبداء الرأى فى سيناريو الحرب ونتيجتها ومدى مسئولية الرئيس عنها، وهو لا يوافق على الفكرة التى يطرحها حمدى لطفى والقائلة «بأن عبد الناصر خطط لهذه الهزيمة من أجل هزيمة عامر وقادته، لكنه لم يتخيل أن تكون الهزيمة على نحو ما حدث بشاعة، وذات حجم كبير على نحو ما حدث»، ويعترض صدقى محمود على هذه الفكرة التى يطرحها حمدى لطفى بقوله:

«لا أعتقد بصحة هذا الكلام، وفى الوقت نفسه الله وحده يعلم بما كان فى صدر

عبد الناصر، ولا أستطيع تجاهل الصراع الذى استمر طويلا بين ناصر وعامر منذ عام ١٩٦٢وفى رأيى أن عبد الناصر أصيب بالتخبط ما بين مايو حتى يونيو ١٩٦٧، وكان من السهل أن ينتقل هذا التخبط إلى القيادة العسكرية إلى جانب تمزق العلاقة بين الرجلين؛ عبد الناصر وعامر.. وقد أطلقت عليهما بعض صحف أوروبا.. «الرجل الأول فى مصر، والرجل الأول مكرر».. وكان بعض القادة ممن يسخرون سرا من الأوضاع الحاكمة لدينا يقولون العكس «عامر» هو« الأول»، وعبد الناصر هو «الأول مكرر».

(٢٩)

ومع هذا فإن صدقى محمود فى تقييمه لما حدث فى ١٩٦٧ يطرح فكرة تبدو لنا اليوم وكأنها فى غاية الذكاء والمعقولية، وهى أن إسرائيل لم تكن تنتوى تحقيق كل هذا الذى حققته، وإنما كانت تجس النبض فحسب، وأن عبد الناصر من ناحية أخرى كان ينتوى ضربة ردع مفاجئة لإسرائيل، لكنه ظل مترددا حتى أقدمت إسرائيل على نفس الضربة التى كان عبد الناصر نفسه ينتويها لها، ولنقرأ هذا الذى يرويه صدقى محمود حيث يقول:

«... أعتقد أن إسرائيل كانت تقوم بعملية جس نبض لمصر، وهى حريصة كل الحرص على ثروتها البشرية الصغيرة نسبيا وإيجاد وسيلة اتصال سرية وعلنية بين القاهرة وتل أبيب تنتهى بعقد صلح بينهما، وهذا هو ما كانت إسرائيل تهدف إليه فى نهاية الأمر».

«غير أن عبد الناصر ظل مقتنعا بأن إسرائيل لن تحارب منفردة لأنها على ثقة بأنها لن تحقق أى نصر إلا إذا اشتركت أمريكا معها، وأمريكا لن تقدم على مثل هذه الخطوة لأنها تعلم بأن السوفييت سيتدخلون إلى جانبه ضد الولايات المتحدة إذا ساندت إسرائيل عسكريا».

«ومن خلال هذا الاقتناع الذى آمن به عبد الناصر فكر فى ردع إسرائيل بضربة مفاجئة، لكنه ظل مترددا فى الإقدام عليها حتى قامت بها إسرائيل».

(٣٠)

ونترك أحداث ١٩٦٧ بكل ما تحمله من مرارة، ونعود إلى حديث الفريق صدقى محمود عن الفترات السابقة عليهـا منذ تولى صاحب المذكرات قيادة القوات الجوية، وسنجـد فى هذه المذكرات روحا عـدائية واضحة تجاه الاتحـاد السوفيتى، وربمـا يبدو هذا للقارئ غريبا للوهلة الأولى، لكن فى ضوء ما يرويه صاحب المذكرات فإننا نجد أن العداء للاتحاد السوفيـتى والتحفظ على صداقته كان بمثابة الأمـر المنطقى بعد هذه المعاناة التى يورد صدقى محمود بعض صورها واحدة بعد أخرى.

وإن المرء ليعجب كيف أن صدقى محمود مـن ناحية، ومدكور أبو العز من ناحية أخرى يأخذان هذا الموقف المتحفظ تماما على الاتحاد السوفيتى رغم كل الطنطنة التى حفل بها عصر عبدالناصر عن الصداقة المتينة والإخلاص لقضايانا.. إلخ.

وأكثر من هذا فإن هذه المذكرات ترينا أنه كانت لصدقى محمود توجهات مبكرة جدا، وواضحة بما لا يحتاج إثباتا، فى الانحياز إلى السلاح الغربى حتى منذ علم بنبأ عقد صفقة السلاح التشيكية فى ١٩٥٥، ولنقرأ هذا الذى يرويه صدقى محمود:

«يهمنى أن أوضح لـلرأى العام أن انجلترا حاولت التودد لمصـر بعد وصول بداية صفقة السلاح الروسى التى استطاع عـبد الناصر الاتفاق عليها عام ١٩٥٥ ـ وزارنى الملحق الـعسكرى البريـطانى أكثر من مـرة فى عام ١٩٥٦ ـ عارضا تقـديم طائرات «الهوكر هنتر» الإنجليزى إلينا.. والهدف هو عدم ترك مصر لزحف السيطرة الروسية عليها».

«ولما نـقلت مـا حدث لعـبد النـاصر وعامـر طلـبا أن أعامـل الملحـق العسـكرى البريطانى بجفاء، واعترضت قائلا: فلنفـعل مثل يوغوسلافيا: لديها طائرات روسية، وأمريكية، وإنجـليزية، لكن اعتراضى لـم يلق القبول، واضطررت أن أقول لـلملحق البريطانى «وفروا الطائرات الخردة على أنفسكم».

هكذا ترجم الفريق صدقى محمود تعليـمات رئيسيه ناصر وعامر، ويبدو أننا فى

حاجة إلى تعقب ما ترويه الوثائق البريطانية عن هذه الجزئيات فى تلك الفترة، وظنى أن نتائج قراءة هذه المذكرات البريطانية ودراستها ستغير كثيرا من إدراكنا لقيمة وحقيقة ما حدث فى تلك الفترة، خاصة مع عدم الانسياق مع وجهة نظر محددة.

(٣١)

وها نحن قد رأينا أن الرجلين الأولين ناصر وعامر قد طلبا من قائد القوات الجوية الفريق أول صدقى محمود أن يعامل الملحق العسكرى البريطانى بجفاء.. وها نحن نرى من رواية صدقى محمود ـ والعهدة على الراوى ـ أن الرجلين الكبيرين كانا قد نفضا أيديهما تماما من فكرة الأخذ بمبدأ التعاون مع كلا المعسكرين فى مجال التسليح.

وفى الحلقات التى نشرتها جريدة «الأنباء» الكويتية يتحدث صدقى محمود بمزيد من التفصيل عن هذه الجزئية، ذاكراً حقيقة أخرى تتعلق بفترة سابقة على زيارات الملحق البريطانى، وهى أنه هو نفسه سافر بتكليف من عبد الناصر إلى لندن وواشنطن عدة مرات، ولم يحصل إلا على الوعود فقط:

«عبد الناصر كان محقا فى غضبه.. لقد حاول مع الأمريكان والإنجليز الحصول على السلاح بعد أشهر قليلة من نجاح الثورة، استخدم على صبرى وعبد المنعم أمين وآخرين من أصدقاء الأمريكان لإقناع السفير الأمريكى فى القاهرة بالتعاطف مع مطلب مصر دون الوصول إلى نتيجة».

«وسافرتُ بتكليف خاص من عبد الناصر وعامر إلى لندن وواشنطن عدة مرات ولم أحصل إلا على وعود فقط، وحين نجحت الاتصالات السرية مع موسكو وجاءت إلينا أول دفعة من طائرات الميج ١٥ واليوشن ٢٨ فوجئت بالملحق العسكرى البريطانى يطلب لقائى عارضا تقديم سرب من الطائرات الإنجليزية هوكر هنتر، وقال بصراحة: إننى أشعر بالخجل وأنا أقدم عرضنا الأخير بعد موقفنا

السابق ... إن تعاون السوفييت معكم بهذا القدر من الإيجابية قد يدفع الرئيس عبدالناصر إلى غلق الباب معنا تماما وقد يدفعه السوفييت لإحكام غلقه، وسينتهى الأمر فى النهاية بخضوعكم لموسكو».

«ونقلت هذا الحديث لعبد الناصر الذى سألنى: هل تؤيد هذا الكلام؟».

«وأجبته: نعم.. إن يوجوسلافيا تحمل النجمة الحمراء، ولديها إلى جانب الطائرات الروسية طائرات أمريكية وإنجليزية».

«وقال عبد الناصر: الإنجليز لن يقدموا لنا غير طائرات خردة، أما موسكو فإن مستقبلنا معهم وبمقدورنا حمايته».

وهنا يعقب الفريق صدقى محمود بقوله:

«وهكذا بدأت العلاقات مع الاتحاد السوفيتى واستمرت تنمو بلا توقف.. وأعتقد أن أصواتا غيرى كان لها ذات الرأى وتكلمت بوضوح ووعى أمام عبدالناصر وعامر، لكنهما أسكتا كل الأصوات الصادقة».

وهنا نتساءل: هل وصل الأمر فى عقيدة صدقى محمود إلى أن الرجلين ناصر وعامر قد أسكتا كل الأصوات الصادقة، وعلى الرغم من هذا فقد ظل الرجل معهما ينتظر قدره وقدرهما!!

(٣٢)

ونحن نرى مما ترويه المذكرات أن الفريق صدقى محمود حريص على أن يوحى إلينا ـ بما يرويه ـ بأنه كان ميالا إلى الحفاظ على مبدأ تنويع مصادر السلاح وعلى الإبقاء قدر المستطاع على خطوط التسليح الأخرى، ولست أظن أن لمثل هذا الموقف علاقة مباشرة بالانتصار أو الهزيمة فى ١٩٦٧، فذلك أمر يفوق قدرة السلاح نفسه، ونحن نعرف على سبيل اليقين أننا انتصرنا فى ١٩٧٣ ببعض سلاح وليس بسلاح

كامل، لكن ما يعنينا من رواية الفريق صدقى محمود يتعلق فى المقام الأول بالرؤية الاستراتيجية والسياسية لرجال الثورة.

فمن الواضح ـ إذا صح ما يرويه صدقى ـ أن الارتماء فى الأحضان السوفيتية كان أمرا مبكرا جدا عما نعتقده، فنحن نظن أن هذا لم يحدث إلا بعد ١٩٦٧ بينما ما يرويه صدقى محمود يدلنا على أن هذا كان قد تبلور منذ ١٩٥٥، وبالتحديد منذ صفقة الأسلحة التشيكية وحتى قبل معركة ١٩٥٦ وقصة الإنذار السوفيتى.

بل إننا نكاد نقول ـ استنادا إلى هذه الرواية ـ إن من الواضح إذا صحت رواية صدقى أن شعار كسر احتكار السلاح انتهى مبكرا إلى إقرار مبدأ جديد هو استبدال احتكار السلاح وليس كسره، فقد أصبحنا بإرادتنا مقيدين بسلاح دون آخر، وها هما الرجلان الأولان يقولان لصدقى محمود: عامل الملحق العسكرى البريطانى (الذى يعرض السلاح على مصر) بجفاء.

ولا يقف ما يرويه الفريق صدقى محمود فى هذا الاتجاه عند الرواية السابقة، لكنه ـ وهذا هو المهم ـ يذكر واقعة أخرى يؤكد بها هذا المعنى:

«فى منتصف ١٩٥٦ خشيت موسكو من فكرة اتجاه مصر لانجلترا أو غيرها من دول الغرب، فقدمت إلينا طائرات الميج ١٧ بعد الميج ١٥ تلك التى جاءت مع الصفقة».

ولست أدرى لماذا لم تلجأ القيادة المصرية من آن لآخر إلى تنويع مصادر السلاح [ولو بالإعلان] إذا ما كان لمثل هذا التوجه [أو الإعلان] أثر مباشر فى إسراع السوفييت بتزويدنا أو فى دفعهم إلى تقديم ما لم يقدموه من قبل.

(٣٣)

وفى موضع آخر من المذكرات يجهر الفريق صدقى محمود بالقول بأن المشكلات المتعلقة أو المرتبطة بتسليح القوات الجوية من الاتحاد السوفيتى قد تبلورت منذ

١٩٥٨، ويروعنا من هذا القول أن ١٩٥٨ كانت فترة مبكرة جدا لظهور مثل هذه المشكلات:

«مع عام ١٩٥٨، تعذر حصولنا على الأجهزة الدقيقة المستخدمة فى تطوير الطائرات، وكذلك قطع الغيار.. ولابد أن تمر مطالبنا على مجلس السوفييت الأعلى لدراستها، ثم ظهرت الغيوم بين الحكومتين خاصة فترة الوحدة السورية ـ المصرية ما بين ١٩٥٨ حتى نهاية ١٩٦١».

(٣٤)

على أن المذكرات التى نشرت فى «الأنباء» الكويتية توحى لنا أن هذا التعنت السوفيتى كان دافعا إلى المضى المبدئى فى سبيل تحقيق طفرة مصرية جبارة فى سبيل تصنيع السلاح والطائرات والصواريخ، ونحن نقرأ هذه التفاصيل الخطيرة التى لا ندرى مدى واقعيتها ولا صوابها ولا مردودها، ولكن لابد لنا من أن نلفت النظر إليها لتكون محل بحث ودراسة.

فلنقرأ هذه الرواية التى يرويها الفريق أول محمد صدقى محمود حيث يقول:

«بدأت متاعبنا العسكرية مع السوفييت بعد الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨، وهى خطوة قام بها عبد الناصر ضد رغبة موسكو وخططها فى المنطقة العربية فأوقفوا إرسال قطع غيار الطائرات لنا وأهملوا تلبية الكثير من احتياجاتنا، وغضب عبدالناصر واستدعانى واللواء طيار عصام خليل فى بداية عام ١٩٥٧ [لا أدرى هل يقصد صاحب هذه المذكرات هذا التاريخ بالتحديد أم أنه حدث خطأ فيه]، وكنا قد شرعنا مع خبير ألمانى من أشهر مصممى الطائرات ومحركاتها وهو الأستاذ «هانيكل» يعمل فى فرنسا مع مصانع الميراج للبدء بالمشروع، وجاء الرجل وعرض علينا صناعة المحرك المصرى أولا، وتعاقد رسميا مع مصر ثم عاد يطلب زيادة مرتبه فاعتذرنا، فانسحب الخبير الألمانى».

«وفى عام ١٩٥٩ عاودنا الاتصال بخبير ألمانى آخر وهو الأستاذ «شميت» فترك أسبانيا وطار للعمل فى مصر، وصنعنا الطائرة «القاهرة ٢٠٠» ثم «القاهرة ٣٠٠»، كما صنعنا المحرك بالتعاون مع المهندس الألمانى «براندل». وأصبح لدى مصانع الطيران المصرية خبراء من مصر وحصلنا على معدات حديثة واشتركت معنا الهند فى تطوير الطائرة والمحرك. قدمنا لهم المحرك المصرى وتدموا لنا أجساد الطائرة، واستمرالعمل بنجاح، وقطعنا شوطا طيبا فى صناعة الصواريخ جو ـ جو لتسليح طائراتنا الحديثة».

ويردف صدقى محمود بقوله :

«وفى ذات الوقت حرصنا على كسب السوفييت، ففى عام ١٩٦٤ قدمت لنا موسكو الميج ٢١، وفى العام نفسه اختبرنا كفاءة الطائرة المصرية «القاهرة ٣٠٠» فأثبتت تفوقها، لكننا أخذنا فى تطويرها لتصبح طائرة السبعينيات.. وأيدتنا الهند.. لقد نجح المصريون فى إنتاج محرك مصرى وزنه ٨٠٠كلج تحدثت عنه الصحف الإنجليزية التى قالت إن انجلترا أنتجت محركا حديثا وزنه طنان ونصف طن.. وأبدت دهشتها من التفوق المصرى فى صناعة محركات الطائرات».

❑

ويواصل صدقى محمود رواية تفاصيل خطيرة ومهمة لكننا كما قلنا لا نزال فى حاجة إلى تحقيقها:

«وعرف السوفييت بهذا النشاط، وجاء وفد روسى يتقدمه السفير السوفيتى لرؤية مصنع الطائرات المصرية ووجدناهم يعلمون خطواتنا السرية فى صناعة المحرك والطائرة، وطلبوا منا الحصول على محرك مصرى لاختباره لديهم فاعتذرنا. وحين تأكد عبد الناصر من حقيقة هذه المعلومات أمر بأن تشترك الطائرة «القاهرة ٣٠٠» فى العرض العسكرى الذى أقيم فى ٢٣ يوليو عام ١٩٦٦ ففعلنا دون اهتمام بمشاعر السوفييت الغاضبة. لكننا فوجئنا بعدم اعتماد ميزانية مالية لمشروعات الإنتاج والتطوير، بأوامر من عبد الناصر بحجة توفير المال اللازم للقوات المصرية فى اليمن، فتوقف العمل فى مصانع الطائرات والصواريخ».

هل لاحظ القارئ كما لاحظت هذه المفارقة العجيبة بين مسارين متناقضين ومتوازيين كما يتضح من هذا الذى يريد صدقى محمود من خلال الفقرة السابقة أن يلفت نظرنا إليه أو أن يوحى به: فالسوفييت يحقدون على نجاحنا فتكون النتيجة ـ غيرالمباشرة ـ قراراً من عبد الناصر بإيقاف الاعتمادات!! أإلى هذا الحد؟؟

على أن صدقى محمود يعود ليؤكد هذه الحقيقة التى يريد تمريرها، وكأنه وجد أن التلميح بها غير كاف، فهو يقول:

«وفى رأيى أن إلغاء الاعتمادات المالية جرى بضغط من السوفييت. وقد توقف الإنتاج تماما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وعلمت وأنا خلف أسوار السجن بغلق بعض المصانع الحربية وبينها مصنعا الطائرات والصواريخ فى عام ١٩٦٩ وسط احتفال سياسى كبير أقامه التنظيم الطليعى وأعضاء التحالف مع الشيوعيين».

(٣٥)

وتنفرد هذه المذكرات بذكر بعض مظاهر الاختلاف العميقة فيما بين مصر والاتحاد السوفيتى فيما قبل حرب ١٩٦٧، ومن العجيب والخطير أن هذه الموضوعات والتفاصيل ظلت غائبة تماما عن الوجدان الوطنى فى ظل أحادية الرؤية، سواء فى ذلك إن كانت الرؤية من خلال صحفى واحد أو من خلال تنظيم سياسى واحد، وليس سرا أن صدقى محمود يجاهر فى مذكراته على نحو ما يستطيع بالإشارة إلى الدور الموجه الذى لعبته أجهزة الاتحاد الاشتراكى من أجل المساعدة على إحكام سيطرة واحتكار الاتحاد السوفيتى للإمداد العسكرى.

وفى المذكرات التى نشرتها «الأنباء» يذكر صدقى محمود بكل وضوح أن السوفييت كانوا يبعثون لنا خبراء من الدرجة الثالثة (على حد تعبير عنوان فرعى فى الجريدة) وكان من نتيجة هذا سقوط الطائرات فى اليمن:

«عام ١٩٦٣ جرى التحقيق لأن طيارينا اكتشفوا أن الطيارين السوفييت الذين

جاءوا مع طائرات النقل الضخمة «الأنتينوف» وهى مخصصة للنقل الاستراتيجى. أمدنا بها الروس لنقل معداتنا الحربية وجنودنا إلى اليمن. اكتشف رجالنا أن بعض طياريهم لا يفهمون شيئا فى قيادة هذه الطائرة، ومنهم من جاء خلف بدل السفر لصلته بأحد أعضاء الحزب الشيوعى الحاكم هناك. وقد سقطت أكثر من طائرة واستشهد رجالنا نتيجة هذا الجهل، وبعد التحقيق حرمناهم من قيادة الأنتينوف فى قواتنا الجوية».

أهذا أقصى ما كان يمكن لقواتنا الجوية أن تتخذه من إجراءات؟!.. ويبدو أن الجواب بالإيجاب.

(٣٦)

وفى فقرة تالية يصرح صدقى محمود بما يود أن يتهم به أجهزة الاتحاد الاشتراكى والتنظيمات السرية فيقول:

«ولقد اقترن عام ١٩٦٦ إلى منتصف ١٩٦٧ بنشاط متزايد للاتحاد الاشتراكى العربى والتنظيمات السرية التى عرفناها باسم «التنظيم الطليعى» داخل المصانع الحربية وفى مصنعى الطائرات والصواريخ بالتحديد، وقد أخذت هذه الكوادر السياسية تطالب بضرورة طرد الخبراء الألمان الذين يتعاونون معنا والكف عن التعاون مع الكتلة الغربية لأنهم سيقدمون أسرارنا إلى إسرائيل، وطالبوا بأن يقتصر التعاون على الاتحاد السوفيتى الصديق الوحيد الذى يستطيع فى حالة إثبات حسن نوايانا مدنا بالأسلحة الحديثة!».

«وعرفت بعد ذلك أن هذا النشاط السياسى خطط له على صبرى وسامى شرف مدير مكتب عبدالناصر، وظلا يعملان بلا هوادة إلى ما بعد الهزيمة».

(٣٧)

ويردف صدقى محمـود هذه الفقرة بفقرة من أخطر فقـرات هذه المذكرات، حين يفتح أعـيننا على حـقيقة أن توقف مـصانع الطائرات المصرية لم يحدث بـعد نصر أكتوبر ولا بعد الانفتاح الاقتصادى ولا بعد معاهدة السلام، وإنما حدث فى ١٩٦٩، وأن عزيز صدقى وزير الصـناعة أعلن هذا الخبر على الهواء فـى الإذاعة وأنه استمع إليه بنفسه وهو فى السجن:

«وفى مايـو ١٩٦٩ علمت وأنا أقضـى العقوبة داخل الـسجن بأن الدكتـور عزيز صدقى وزير الصـناعة احتفل بعيد العـمال فى مصانع الطائرات بحـلوان، وقد ألقى خطابـا أعلن فيـه إلغاء صنـاعة الطائـرات والصواريخ، وضـم مصانعـها إلى وزارة الصنـاعة لإنتاج ما تحـتاجه الجماهـير من ثلاجـات وغسالات وأعمدة لـلإضاءة فى الشوارع».

«وهكذا خسرت مصر ملايـين الجنيهات،وخسرت معها ثروة بشريـة غالية الثمن من الخبراء المصريين الذين تركوا مصر وذهـبوا يعملون فى الخارج، وهى ثروة بشرية لا تقدر بثمن».

(٣٨)

وفى حـديثه عـن بعض المـصاعب الـتى واجهـتهـا القوات الجـوية مع الـتسلـيح السوفيتى يروى صدقى محمود كيف اكتـشف الطيارون المصريون حرص السوفييت على تزويدنا بالـطائرات دون أن تكون مزودة بالأجهزة الكفيلة بـرفع مستوى أدائها، وهى واقعة فى غاية الخطورة:

«وأذكر فى ١٩٦٦ أن أحـد أبنائى الطيـارين المصريـن الذين كانوا يتـدربون فى الاتحاد السوفيتى عـلى الطائرات«سوخوى» بعد أن تقرر حصـولنا على سرب واحد

منـها، قال لـى إن طيارا روسـيا اعتـرف له بأن قيـادته الروسـية الجويـة انتزعـت من «السوخـوى» جهاز إنذار راداريـا يحذر الطيـار عند اقتراب طـائرة أخرى منـه، كما انتزعـت جهازا ثانيا يـؤدى إلى تصويب إطلاق الـصواريخ على الأهداف المـعادية. وأصابتـنى هذه المعلـومات باكتـئاب وأخذت أفكر فـى وسيلة جديـدة للتعـامل مع السوفييت بشكل إيجابى، وعندما بدأنـا المفاوضات العسكرية، حاول القائد الروسى المسـئول عن الطـائرات الإنكار ثـم اعترف بما وقـع معتذرا، وتـعهد بإعـادة الأجزاء والأجهـزة التى انتـزعوها مـن «السوخوى» المخـصصة لمصـر.. وقلت هـامسا لعـله يصدق!».

ويقدم صدقى محمود لهذه الواقعة الخطيرة تفسيرا أكثر خطورة منها فيقول:

«أغضب السوفييت تـعاون بعض خبراء ألمانيا الشرقية معـنا من خلف ظهورهم، ثم طلبت الحكومة الروسية رسميا غلق مـصانع الطائرات والصواريخ المصرية مقابل تقديمهم لكل مطالبنا الحربية، وعمل عبد الناصر على تأجيل الموضوع أكثر من مرة، فأرسلوا إلـيه رئيس ألمانيا الـشرقية فى زيارة خاصة لـلقاهرة محاولا إقنـاعه بجدوى العرض الروسى وأهمية الاستماع لموسكو!».

«وللحقيقة لم يـرضخ عبد الناصر أو عامر لهذا الإلحاح السوفيتـى، ولم يستجيبا إلى تلك المطـالب،خاصة بعد وقوع فضيحـة فى سماء سيناء [يشير صـدقى محمود إلى فضيحة ١٩ ديسمبر ١٩٦٦ التى سنتناولهـا بعد قليل] أصابت كبرياء السوفييت فى الصميم فجعلتهم يكفون عن طلب إغلاق مصانعنا!».

(٣٩)

ونأتى إلى الواقعة الأكـثر أهمية وخطورة من الواقعة السابقـة، وقد كانت الواقعة الجديدة بمثـابة اختبار صدق نوايـا دفع السوفييت ثمـنه من أرواح طياريهم أنـفسهم، ويطلق صدقى محمود على هذه الواقعة مسمى «فضيحة ١٩ ديسمبر ١٩٦٦» حيث سقطت طائرتان سوفيتيتان فى هجوم إسرائيلى.

ومن الغريب أن كلا من عبد الناصر وإسرائيل قد تكتما إعلان الخبر.

ومع أن المفهوم أن يتكتم عبد الناصر إعلان الخبر إلا أن تكتم إسرائيل لإعلان مثل هذا الخبر كان لابد أن يقود عبد الناصر إلى التفكير فى السبب وراءه، ولو كنت مكانه بقدراته الاستراتيجية غير المحدودة لفهمت أن هذا التكتم لم يحدث إلا بناء على اتفاق من إسرائيل مع الاتحاد السوفيتى نفسه.. ولكن هذا هو ما حدث على كل حال، وهذه هى رواية صدقى محمود:

«كنا قد حصلنا على عدد من طائرات «الميج ١٩» المعدلة والمطورة، لكن الطيارين المصريين أكدوا خلوها من أجهزة الإنذار والتصويب الحديثة، ودار نقاش طويل معهم فقام الطيارون السوفييت بقيادة طائرتين فى ١٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٦ فوق سيناء وإذا بالطائرات الإسرائيلية تهاجم الطائرتين وتسقطهما، وأمر عبد الناصر بعدم إذاعة أنباء الحادث فى مصر، وفوجئنا بأن إسرائيل تجاهلت الخبر هى الأخرى»..

«وبعد الحادث جددنا طلب إعادة الأجهزة المنزوعة من الطائرات، وطلب رجال الدفاع الجوى معدات الرصد المبكر المتطور التى تكتشف الطائرات المعادية التى تطير على ارتفاع منخفض.. لكن السوفييت لجأوا إلى أسلوب التعجيز واشترطوا بيع هذه الأجهزة مثبتة على قطع بحرية متجولة، الأمر الذى كلفنا فوق طاقتنا، وأعتقد أن ذلك كان بتخطيط سرى من الروس لتكبيل قرارنا والضغط علينا لننفذ رغباتهم مقابل تأجيل سداد الديون».

وهنا يردف صدقى محمود بقوله :

«وأذكر أن عبد الناصر قال للخبراء السوفييت أمامنا ذات يوم: أنتم تساعدوننا فى بناء السد العالى لكنكم تجعلوننا ندفع ما يفوق تكاليف السد مقابل أسلحة غير لازمة لنا.. فسروا لى هذه المعادلة».

(٤٠)

ونحن نلاحظ أن المذكرات التى نشرت فى «الشرق الأوسط» أشارت إلى هذا الحدث على أنه حدث سنة ١٩٦٩، وهو خطأ مطبعى ظاهر والمقصود ١٩٦٦.

ويتحدث محمد صدقى محمود عن نفس هذه الواقعة فى المذكرات التى نشرت فى «الأنباء» مع اختلاف فى عدد الطائرات حيث يذكر أنها ٤ طائرات (فى الأنباء) على حين تذكر روايته فى «الشرق الأوسط» أن طائرتين فقط سقطتا، وهذا هو النص الوارد فى الأنباء ويبدو بالمنطق أن الصواب هو النص الأحدث:

«أسقطت إسرائيل يوم ١٩ ديسمبر ٤ طائرات ميج ١٩ يقودها سوفييت ومصريون فوق سيناء نتيجة تخلف طائراتنا فى استخدام أجهزة دقيقة من الإلكترونيات حرص الروس على عدم تقديمها إلينا.. ودارت مفاوضات عديدة معهم فى القاهرة وموسكو بشأنها دون طائل.. كنا نحصل بالرغم منا على معدات وأجهزة وقطع غيار لم نطلبها، بل تزدحم بها مخازننا حتى يرتفع رصيد ديوننا المالية لديهم. بل إن أغلب أجهزة الرادار التى قدموها لنا فى منتصف الستينيات كانت من مخلفات الحرب العالمية الثانية».

(٤١)

ومن أهم ما تتضمنه ذكريات صدقى محمود فخره بأداء القوات الجوية فى حرب ١٩٥٦، وقد كان قائدا لهذه القوات فى هذه الحرب ومن قبلها، ولابد أن نذكر هنا عبارة اللواء عبدالمنعم خليل [وهو من أنصار الفريق أول محمد فوزى] حيث يعرض بصدقى محمود فى مذكراته وهو يقول إن قائد القوات الجوية انفرد بأنه خسر قواته مرتين فى خلال عشر سنوات، ونحن نرى صدقى محمود حريصا جدا على أن يقدم رؤية مخالفة للرؤية الشائعة القائلة بأن سلاح الجو المصرى قد دمر فى حرب ١٩٥٦، ومع أن رواية صدقى محمود تفتقد الأرقام المحددة للخسائر، فإنها تعبر بوضوح عن عقيدته تجاه موقفه وموقف القوات الجوية بقيادته:

«وخلال حرب ١٩٥٦ فى بداية المعركة وقبل تدخل انجلترا وفرنسا فى الهجوم علينا، كانت خسائر إسرائيل فى الطائرات بالنسبة لمصر ستة إلى واحد، وبعد تدخل انجلترا وفرنسا نجحنا فى تهريب طائراتنا إلى السودان والمملكة العربية السعودية

وسوريا والعراق وما بقى أخفيناه فى المزارع وغابات الأشجار بالدلتا فى الوجه البحرى من بلادنا».

....

«وفى ٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٦ قاتل طيارونا قوة طيران معادية تفوقهم بـ٣٠ طائرة ضعفا، لكن ذلك لا يعنى أننا خرجنا من الحرب بلا خسائر، بل أدينا فى هذه الحرب ـ وأنا أتكلم عن الطيران فقط بقيادتى ـ واجباتنا القتالية بأشكال بطولية وإجراءات عسكرية سليمة، واستنفدنا ذخيرة الطائرات الإنجليزية والفرنسية بالطائرات الهيكلية التى صنعناها من الخشب ووضعناها فى مطاراتنا وبداخل كل منها صفيحة غاز!».

(٤٢)

ويقدم لنا الفريق صدقى محمود فى مذكراته التى نشرتها الأحرار فى مطلع ١٩٨٣، تفصيلات مهمة جداً عن دوره ودور القوات الجوية فى حرب ١٩٤٨ وهو من المؤمنين بعظمة ما استطاعت القوات الجوية تحقيقه فى حرب ١٩٤٨، ومع أن حرب ١٩٤٨ قد تبدو وكأنها خارجة عن نطاق اهتمامنا فى هذا الكتاب إلا أن حقيقة دور القوات الجوية فيها تكاد تكون الجوهر الأول لكل حديث عن حروب عهد الثورة فيما بعد.

ذلك أن مصر كانت تحظى بالتفوق الجوى فى حرب ١٩٤٨ إذ لم يكن هناك سلاح جو إسرائيلى بعد... ومع هذا فإن هذا التفوق لم يستغل فى وقته كما ينبغى، ثم امتلكت الدولة الجديدة فى إسرائيل سلاحاً جوياً وبدأ هذا السلاح الدخول فى المعركة ولكن جسارة السلاح الجوى المصرى وبطولات رجاله سجلت بأحرف من نور وفخار وإن لم تلق على المستوى الرسمى [بعد الثورة] ما تستحق من تقدير وكان هذا مما يتسق مع التركيز على بطولات حصار الفالوجا... إلخ. وما يتسق من ناحية أخرى مع إفساح الحديث للأسلحة الفاسدة وفساد القيادة.

ومن الأهمية بمكان إذن أن نقرأ كل ما يرويه الفريق محمد صدقى محمود عن دور القوات الجوية فى حرب ١٩٤٨ .

«كما حدث فى الجيش المصرى حيث تقدم الضباط للاشتراك فى الحرب كمتطوعين حدث فى الطيران الشىء نفسه ـ تسابق الطيارون للتطوع، وأكثرهم من تلاميذى ، وقد قمت بمعاونة كبيرة من المهندسين والفنيين المصريين ـ بتحويل طائرات «الداكوتا» إلى قاذفات تلحق القنابل بأجنحتها.. ومن هؤلاء المهندسين، المهندس لواء أحمد نوح وزير الطيران السابق والمرحومان على عيسى وزكريا سليمان من الفنيين وكان عبداللطيف بغدادى يقود المجموعة والمرحوم عبدالحميد أبوزيد يقود سربا من الطائرات الإنجليزية الصنع «سبيث فاير» وكذلك حمدى أبوزيد أحد الوزراء السابقين فى الستينيات ، وقد اشتركت معهم فى بعض الطلعات ولم يكن لإسرائيل أى طائرات مقاتلة أو قاذفة».

❏

ويمضى الفريق صدقى محمود ليذكر لنا بالتفصيل ملامح معركة جوية شارك هو فيها:

«وأذكر يوم ٣ يونيو ١٩٤٨ أننى قدت طائرة ومعى تلميذى وزميلى الطيار حليم زكى وقاد عمر الجمال والمرحوم إسماعيل العربى طائرة أخرى، وكان هدفى قصف بعض المصانع الإسرائيلية جنوب تل أبيب، وفى الوقت نفسه رافقتنا طائرتا حراسة من المقاتلات، ولنفاد وقودهما أمرنا طيارى الحراسة بالعودة للعريش ثم فوجئنا بطائرتين مستر شميت ١٠٩ «المقاتلة» صناعة ألمانية تهاجمنا، وكانت المرة الأولى حيث ظهرت الطائرات الإسرائيلية. وألقينا قنابلنا دفعة واحدة ، وأصيبت طائرتى ، واشتعلت المظلات الموجودة معنا بالنيران، واضطررنا للهبوط على الساحل بمسافة ميلين جنوب تل أبيب ، ومات اثنان من طاقم الطائرة وأصيب ثلاثة غيرى، وكانت إصابتى فى الضلوع والعمود الفقرى، وسرنا على الأقدام ٧٥ دقيقة ، وفى صباح اليوم التالى وصلت إلى خطوطنا الأمامية، وهذه المسافات الزمنية أذكرها لك لكى أبين كيف كان الجيش المصرى قريبا من تل أبيب».

(٤٣)

والشاهد أن الفريق صدقى محمود يرى فى حرب ١٩٤٨ دليلاً ناصعاً على نجاح القوات الجوية المصرية بكل عناصرها وهو يقدم فى عجالة بعض أدلة أخرى على حجم هذا النجاح .

إن جولة ١٩٤٨ تعكس مهارة وجرأة وبسالة الطيران المصرى بطياريه ومهندسيه وفنييه وضباط الصف.. فى هذه الجولة مثلا دخل الطيارون المصريون فى معركة كبيرة ضد الطيران الإنجليزى - قام تشكيل جوى مصرى بقيادة عبدالرحمن عنان بمهاجمة مطار رامات ديفيد ، ولم نكن نعلم أن الإنجليز لم يقوموا بإخلائه بعد. واشتبك الطيارون المصريون مع الطيارين الإنجليز فى معركة بارزة وأذكر من شهدائنا الأبطال تحتمس كامل وزغلول وسعد الصادق وعبدالكريم - حتى فرضوا علينا الهدنة الأولى. وتقوم قوات الملك عبدالله بانسحابها الشهير من اللد والرملة، ومحاصرة الفالوجا، ثم انسحاب قيادتنا من المجدل إلى غزة، وفى هذا اليوم بالتحديد كنت فى طريقى إلى المجدل للقاء المرحوم الطيار محمود صدقى المليجى ضابط الاتصال الجوى الذى يعمل مع الجيش، فرآنى المساعد على محجوب وشرح لى كيف تركوا المجدل إلى غزة، وهناك بقيت أربعة أيام.

❑

وفى موضع آخر من المذكرات يشير الفريق صدقى محمود إلى أنه هو الذى كلف الطيار أسامة صدقى للعمل فى القوات الجوية (وهو نجل طيار مصر الأول الكابتن محمد صدقى) كما كلف شقيق الشهيد طيار عبدالحميد أبو زيد:

«وعند الاستعداد لحرب ١٩٤٨، قمت بتكليف الطيار «أسامة محمد صدقى» الابن الوحيد لرائد الطيران «محمد صدقى» للعمل كطيار بالقوات الجوية المصرية - كما كلفت شقيق المرحوم الطيار عبدالحميد أبو زيد أيضا، وبقى «أسامة» بعد وفاة مصطفى أبو زيد ، واشترك فى حرب اليمن وحرب ١٩٦٧، والعمليات الجوية المصرية فى نيجيريا عام ١٩٦٨.

(٤٤)

وتتطرق هذه المذكرات إلى واقعة خروج الفريق مدكور أبو العز من سلاح الطيران لكى يعمل محافظا لأسوان، ويحرص صدقى محمود أن يصور الأمر فى إطار صراع البغدادى مع عبد الناصر، وخوف عبد الناصر من انقلاب يدبره البغدادى ضده، بل يكاد صدقى يصور الموقف على أن عبد الناصر هو الذى سعى لإقناع عبد الحكيم عامر بالتفريط فى مدكور وإبعاده عن القوات المسلحة من أجل حاجة محافظة أسوان حيث يبنى السد العالى إلى كفاءة ومقدرة متميزتين من طراز ما يتميز به مدكور أبو العز:

«أما إخراج الفريق مدكور أبو العز فيرتبط بالخلاف الذى وقع فى ١٩٦٤ بين عبدالناصر وقائد الجناح الطيار القديم عبد اللطيف البغدادى عضو مجلس قيادة ثورة يوليو السابق وعضو مجلس الرئاسة قبل منتصف الستينيات عندما وضح تحول عبدالناصر إلى الروس والشرق، وتخيل عبد الناصر أن البغدادى يمكن أن يستخدم صديقه مدكور فى القيام بانقلاب ضده بوساطة الطائرات، فاختار للأخير منصب محافظ أسوان، كما قام بإحالة بعض أصدقاء الرجلين ممن كانوا يشغلون وظائف مدنية إلى التقاعد، ووافق عبد الحكيم عامر بعد أن أقنعه عبد الناصر بضرورة توفير الدم الجديد لقيادات الطيران، وأهمية أن يكون فى ميدان بناء السد العالى قائد يمتلك الكفاءة والمقدرة مثل مدكور أبو العز، وقد غضب أبو العز وظل رافضا السفر لأسوان عدة أسابيع إلى أن تسلم المنصب».

هكذا يبرئ صدقى محمود نفسه وعبد الحكيم عامر من إخراج مدكور، ولكن مذكرات مدكور نفسه ترينا أن محمد صدقى محمود طلب الوزير شمس بدران عدة مرات فى خلال دقائق يستعجل وصول القرار الخاص بالخلاص من مدكور أبو العز.

(٤٥)

ومن الطريف أن يصور الفريق صدقى محمود معاناة القوات الجوية فى عهده مستندا فى هذا إلى ما روى وعرف عن معاناتها فى عهد من خلفوه وهم مدكور أبوالعز ومَنْ بعده.

ويبدو الفريق صدقى وهو حريص على أن يصور تصاعد وجود هذه المعاناة حتى فى عهده، ومع أنه لا يوجد ما يمنع من أن تكون رواية صدقى محمود صحيحة، وأن تكون الصورة فى تلك الأيام السابقة على ١٩٦٧ على نحو ما صورها صدقى محمود فى هذه المذكرات، مع هذا كله أو ربما بسببه فإنى لا أكاد أتصور أن تكون الصورة على هذا النحو، ومع هذا يتقبل صدقى محمود البقاء فى موقعه على نحو ما بقى!!

ومع أنه من المتوقع أن يتناول محمد صدقى محمود شخصية عبد الناصر بكثير من التقييم أو على الأقل التحليل الوافى فى هذه المذكرات، فإنه يتجنب مثل هذا التقييم والتحليل إلا إذا وجد نفسه مضطرا إلى هذا الأمر، وهو على سبيل المثال يصف الجو الذى أحاط بعبد الناصر فيقول :

«ظل عبد الناصر محاطا بالمنافقين، لكنه كان يستمع للصادقين الشجعان الذين يحترمون أنفسهم أمامه، رأيته عصبيا فى بعض الأحيان، لا يرتاح كثيرا لمن يقول له الرأى الآخر، لكنه كان يحترمهم بعكس سلوكه مع بعض المقربين منه، وأعترف رغم أنه ألقانى بالسجن أكثر من ٦ سنوات، أنه بقى يحترم آرائى، ويتقبل سماعها وإن كان لا يعمل بأكثرها!»

ويبدو لقارئ مذكرات الفريق محمد صدقى محمود أنه كان من المدركين لحقيقة وجوهر المواقف الدولية من جولات الحرب العربية الإسرائيلية، ومن المهم أن ننقل للقارئ ما رواه هو نفسه فيما نشرته الأحرار فى الحلقة الأولى من مذكراته من أنه زار رئيس الوزراء المصرى وأبدى له رضاه عن خطوات الرئيس السادات من أجل السلام:

«وعندما تولى الدكتور مصطفى خليل رئاسة الوزراء زرته وقلت له أيضاً : «إن مبادرة السادات طلبا للسلام، من الأعمال الإيجابية الواعية، التى يجب أن يمضى فيها للنهاية، فإسرائيل لم تحاربنا فى جولات ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ ، ٧٣، دون وقوف أكثر من دولة كبيرة معها بمدها بالسلاح والخبراء والرجال والمال أيضا.

بل إن الفريق صدقى محمود نفسه يروى أنه كان قد أبدى آراء صريحة وواضحة بضرورة قبول قرار التقسيم فى أثناء حرب ١٩٤٨ وبعد عودته من غزة وسوف ندهش حين نجد أن هذه الآراء على حسب رواية صدقى محمود قد وصلت إلى رئيس الوزراء وإلى أحد الوزراء المبرزين فى ذلك الوقت وهو مصطفى مرعى وإلى الدكتور يوسف رشاد الطبيب المقرب من الملك:

«وعند العودة أعطانى المرحوم «اللواء المعداوى» رسالة مغلقة للفريق حيدر باشا القائد العام ـ حيث التقيت به فى القاهرة ، وشرحت له حقيقة الأوضاع العسكرية فى الجبهة ، وذكرت أمامه رأيى وهو ضرورة قبول قرار التقسيم، وأن إسرائيل لا تحارب وحدها، والدول التى تساندها إنما تساندها كى تبقى هذه الدولة الوليدة ـ إسرائيل ـ فوق الأرض الفلسطينية».

«كنت قد التقيت أيضا بالمرحوم دكتور يوسف رشاد ـ أحد رجال الملك فاروق ـ وشرحت له حقيقة الأوضاع فنقلها للملك، وفوجئت برئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا يستدعينى ويستمع لوجهة نظرى، وأذكر كذلك الأستاذ مصطفى مرعى ـ أمد الله فى عمره ـ وكان عضوا بمجلس الشيوخ ، وقد حدثته وقتها بما حدثت به الثلاثة السابقين، وأثار الأستاذ مصطفى مرعى هذه القصة أكثر من مرة، وعاد لذكرها فى منتصف السبعينيات».

ومن المهم أن نشير إلى مدى حرص صدقى محمود فى أكثر من موضع من مذكراته على أن يذكر أنه لم تكن له علاقة بالسياسة من قريب أو بعيد لا قبل الثورة ولا بعدها وأنه كان يوجه كل اهتماماته إلى الطيران فحسب:

«لم يحدث أن فاتحنى أحد فى الانضمام لتنظيم الضباط الأحرار ، ولكنى كنت وغيرى من الضباط الوطنيين نشعر «بالغليان» فى البلد، وبنشاط سرى وحركة بين

قطاعات مختلفة فى الجيش والطيران، وبعضنا وكنت واحدا منهم يستغرقه العمل خاصة إذا كنت تعشق عملك، وبالتالى كانت اهتماماتى وطاقاتى موجهة كلها للطيران.

(٤٦)

بقى بعد هذا كله جانب مهم جداً من الناحية الإنسانية التى تصور خلجات قلوبنا ونحن نرى مصائرنا ومصائر الآخرين، فمن الطريف أن يذكر الفريق محمد صدقى محمود فى هذه المذكرات بكل صراحة وفخر كيف دفعه التمثل ببطولة الطيار المصرى الأول محمد صدقى إلى أن يترك دراسته للطب لكى يلتحق بالعسكرية حتى يصبح طياراً.. وسنقرأ هذه الفقرات فنجد فيها التعبير الصادق والجميل عن توثبات الشباب وروحهم العالية، ولكن الأقدار لا تبخل على صدقى محمود بموقف نادر بعد سنوات قليلة حين يجد نفسه مكلفا بأن يختبر الطيار المصرى الأول محمد صدقى ليقرر مدى صلاحيته كطيار مدنى للحصول على إجازة الطيران..

ولنقرأ على التوالى ما يرويه الفريق محمد صدقى محمود عن هذين الموقفين الممتعين، وهذا ما يرويه عن الموقف الأول الذى ألهب خياله على حد تعبيره:

«كنت أيامها طالبا بالكفاءة ، وإذا بالصحف المصرية تتحدث عن الشاب المصرى «محمد صدقى» أول طيار يدخل بمصر إلى عصر الطيران، أطلقت عليه الصحف (لندبرج) المصرى وقد ألهب خيال الشباب، وكل المصريين على الإطلاق.

ويوم ٢٦ يناير عام ١٩٣٠ هبط الطيار محمد صدقى بطائرته التى اشتراها من ألمانيا فى مطار هليوبوليس مقر رئاسة القوات الجوية الآن، وجاء لاستقباله النحاس باشا رئيس الوزراء، وكبير الياوران الملكى، وعدد كبير من باشوات البلد والقادة المصريين والانجليز، وتجمع حوله عشرات الآلاف من الجماهير التى كانت تتحدث عن هذا الشاب المصرى أياما وأسابيع فتعلق خيالى به، دخلت بعد ذلك بمدرسة

الطب، أذكر أننى قلت لصديق العمر (الدكتور على المفتى) أيامها أننى سألتحق بالمدرسة الحربية، وسأترك الطب.

واعترضنى بشدة ولكنى سحبت أوراقى، ونجحت فى الكشف الطبى ، وبدأت حياتى العسكرية طالبا عام ١٩٣٢».

❑

وننتقل بعد هذا إلى ما بعد عام ١٩٣٦ حيث وقعت المعاهدة المصرية البريطانية التى لا تزال ـ للأسف الشديد ـ تحظى بعدم تقدير المناوئين للوفد وللنحاس باشا فإذا بصدقى محمود الذى درس فى لندن ما بين يوليو ١٩٣٦ وديسمبر ١٩٣٦ يصبح مسئولاً عن اختيار الطيارين ومنح الإجازات لهم:

« ... بعد توقيع معاهدة عام ١٩٣٦، وتحول القيادة الانجليزية فى الجيش المصرى إلى بعثة عسكرية، وقد توليت مهمة اختيار الطيارين «بدلا» من طيار انجليزى برتبة عقيد اسمه «وبستر» وكان يقوم باختبار الطيارين المدنيين للحصول على إجازات الطيران. أذكر أننى فوجئت بالطيار محمد صدقى أول من دخل بمصر إلى عصر الطيران، والرجل الذى جعلنى أقع فى غرام الطائرات والطيران عام١٩٣٠ ، فوجئت به يأتى لاختباره بمعرفتى فى الطيران بالآلات ، فاعتذرت له خجلا عن هذه المهمة، وشرحت له الأسباب وكان رفيع السلوك فصمم على اختباره بواسطتى.

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

فى أعقاب النكسة

4

استراتيجية المصالحة

مذكرات

للفريق أول محمد فوزى

دار الخيّال



(١)

كان الفريق أول محمد فوزى من أول القادة الذين نشرت لهم مذكرات عن حرب ١٩٦٧، وقد حدث هذا جهاراً نهاراً فى عهد الرئيس السادات، وبعد خروج الفريق فوزى من السجن فى نهاية يناير ١٩٧٤ بعد ما أصدر الرئيس السادات قراراً بالعفو عنه فى الحكم الذى صدر عليه فى قضية مراكز القوى.

وكانت المذكرات التى نشرت للفريق فوزى عن حرب ١٩٦٧ تنطق بإدانة كاملة للقيادة المصرية فى هذه الحرب، ومع أن الفريق أول محمد فوزى كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية فى هذه الحرب إلا أنه حل هذه الإشكالية باللجوء إلى القول أنه كان «مجمداً» فى موقعه، وهكذا أمكن للفريق فوزى أن يزيد ويفيض فى الحديث عن أخطاء القيادات فى هذه الحرب .

وفيما بعد ضمن الفريق محمد فوزى انتقاداته لحرب ١٩٦٧ التى نشرها فى عهد السادات فى كتابه «حرب الثلاث سنوات» الذى كان بمثابة الجزء الأول من مذكراته، وقد تدارسنا هذا الكتاب فى الباب السادس من كتابنا «الطريق إلى النكسة»، وفى ذلك الباب تحدثنا بتفصيل معقول عن شخصية الفريق محمد فوزى وتاريخه العسكرى.

وقد ارتأى الفريق فوزى أن ينشر كتاباً يضمنه ذكرياته عن عمله مع الرئيس السادات، وعن نقده لسياسة الرئيس السادات، ويبدو أن هذه كانت فكرته المفضلة بعد وفاة السادات بفترة، كما يبدو أنه كان قد ارتأى أن يكون عنوان كتابه الأول «استراتيجية المواجهة»وهو الكتاب الذى اشتهر باسم «حرب الثلاث سنوات» وأن يكون عنوان كتابه الثانى «استراتيجية المصالحة » لكنه بناء على نصيحة جعل عنوان كتابه الأول «حرب الثلاث سنوات»، وهكذا فاز الكتاب الأول بعنوان ذى مغزى، على حين بقى الكتاب الثانى بعنوان يفتقد المقابل له،بل يفتقد أيضاً المبرر له، لأنه صدر عام ١٩٨٦ أو بعد ذلك (يحمل الكتاب رقم إيداع فى سنة ١٩٨٦ ولا يحمل تاريخ نشر)، حين كانت المصالحة التى يقصدها الفريق فوزى قد تمت ولم تعد استراتيجيتها فكرة فحسب، على أنه لا يمكن لنا أن نفصل بطريقة كاملة بين كتابى الفريق محمد فوزى، فصاحب الكتابين واحد، وأسلوبه واحد، وتناوله واحد بل والوقائع نفسها متصلة ومتشابكة.. ولكننا مع هذا نستطيع أن نشير إلى صواب المنهج الذى اخترناه حين جعلنا الحديث عن الكتاب الأول ضمن كتابنا «الطريق إلى النكسة»، لأن الغالب على ذلك الكتاب هو الحديث عن سقدمات النكسة وتفاصيل الطريق إليها حتى انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه.

وفى المقابل فإن الكتاب الذى بين أيدينا وهو «استراتيجية المصالحة» معنى بقدر أكبر بدراسة الفروق الجوهرية بين عقليتى السادات ومحمد فوزى فيما يتعلق بإدارة الحرب، ورسم الاستراتيجية، وعلى الرغم من أن فوزى يصل فى إيراده لآراء وتصرفات السادات إلى حد التجنى فإن القارىء، يستطيع أن يكتشف بسهولة شديدة حدود الحقيقة والاختلاق وأثر الرؤية الشخصية فى كل ما يرويه الفريق فوزى.

ومن حسن حظ التاريخ أن الإنسانية وهبت عقلا يستطيع تمييز الحق من الباطل فى روايات الخصوم، ذلك أن الصراع الإنسانى يستبقى دائماً جوهر الخلاف فى حدود ما حدث دون أن يعطى لأحد الطرفين حق الاستيلاء التام على الصواب المطلق ولا حق القدرة على تزييف كل الوقائع وتعديلها لصالحه.

وفى حالتنا مع كتاب الفريق فوزى فإن معرفتنا بكثير من حقائق الأمور تجعلنا نصل بسهولة شديدة إلى مواضع البعد عن الحقائق..

وهكذا يمكن لنا أن نعالج الكتاب كقـراء على أنه كتاب منفصل وعلى أنه الجزء الثانى أو الأهم من مذكرات أو ذكريات الفريق محمد فوزى دون أن نُعنى بأن يكون كتاباً فى الاستراتيجية، أو فى نقد ما سُمى باستراتيجية المصالحة.

(٢)

ومن الطريف والعجيب أن المصالحة (فى أذهـان القراء) لا تحتاج إلى استراتيجية، فإذا ألف مؤلف عن استراتيـجية المصالحة فإنه يعطى للمصالحة أبـعاداً استراتيجية من الفضاء بل ربما من الفـراغ، وفى هذه الناحية فقد نجح الفريق فوزى بـعد جهد جهيد فى محاولة اصطناع مـبررات ومقدمات ونتائج ما كان أغناه عن اصطـناعها، ولكنه أجهد نفسه فى هذا الذى فعل دون جدوى ، ولكن حسن الحظ حفظ لنا على نحو ما سيرى القارئ كـثيراً من الحقائق والوقائـع والأسانيد والتفسيرات والأضـواء مبثوثة ومنبثة فى وسط هذا النسيج الجامـد الذى أراد الفريق فوزى أن يفرضه على أحداث شيقـة وطريفة، وسوف نحـاول فى هذا الباب الـذى بين أيدينـا بكل ما يمكـننا ، أن نستخلص للقارئ ولتاريخنا المعاصر كل ما هو مفيد فى هذه المذكرات.

على أن الأهم من كل هذا التقديم هو أن الكـتاب الذى بين أيدينا لا يتحدث فى المقام الأول إلا عن توابع حرب ١٩٦٧، سواء المباشرة أو الممتدة على مدى السنوات التالية مباشرة للهزيمة مع اختلاف صور هذه التوابع ومع اختلاف الصور البيانية التى يروى بها صـاحب المذكرات ذكرياته وآراءه ورؤاه. وصـحيح كما سنـرى أن الفريق فوزى يبدأ بأن يروى لقاء له مع الرئيس السادات عقب الإفراج عنه فى ١٩٧٤، وهو يدخل فى هذا الـلقاء حوارات سريعة بيـنه وبين الرئيس السادات عـن أحداث مايو ١٩٧١، ولكن الفريق فوزى أو الـرئيس السادات حسب الرواية التى يقـدمها الفريق فوزى يدلف لنا بـسرعة إلى أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧، وما تبعـها من قرارات اتخذت أو لـم تتخـذ، وتتكون لنا مـن هذا الحوار حول ما كان يـنبغى وما لـم يـتم، صورة فى منتهى الدقة يـروى بها الفريق فوزى أحداث ١٩٦٧ من وجهة نظر المـسئول المتنصل من المسئولية.

ومن الإنصاف أن نقول إن الفريق أول محمد فوزى قد أفرط فى هذا الكتاب فى الحديث عن آراء وتحليلات لها احترامها، ولكنها لا تتعلق من قريب أو من بعيد بالمذكرات إلا من ناحية أن المؤلف يبدو فيها وكأنه ينتقم لآلامه من الرئيس السادات، ومع هذا يتبقى فى الكتاب قدر كبير جداً من الحديث عن ذكريات شخصية ووقائع حضرها صاحب المذكرات بنفسه وشارك فيها وكان هو نجمها بالحق أو الباطل، ولعل أبرز هذه الأحداث ما وقع فى مايو ١٩٧١ من صراع على السلطة أدى فى النهاية إلى انتصار الرئيس السادات ومعسكره، على حين ألقى بالفريق فوزى فى السجن، ولا يستطيع أى إنسان منصف حتى فوزى نفسه أن يزعم أن فوزى كان مع السادات أو لم يكن ضد السادات.. ومع هذا فإن الفريق فوزى يعطى نفسه الحق رغم هذه الخصومة فى أن يكون هو صاحب الصواب ومحتكره، ويصل الفريق فوزى إلى حد أن يسمى مذكراته هذه بهذا الاسم الغريب على أية مذكرات لأن المفترض أن المذكرات تتحدث عن إنجاز صاحبها وليس عن إنجاز عدوه، وقد كان فى وسع فوزى أن يجعل هذا كتاباً مختلفاً عن أن يأتى فى سياق مذكراته، لكنه فعل هذا، وقضى الأمر، ومن العجيب أن أطرف وألطف وأبرع وأصدق ما فى هذا الكتاب الضخم كان هو حديث فوزى عن لقاءاته بالسادات وعلاقته به، سواء قبل السجن أو بعد الإفراج عنه، كما سوف نرى من مطالعتنا لهذا الباب.

(٣)

سنبدأ مدارستنا لهذا الكتاب إذن بتناول نقاط جوهرية ذكية دلتنا عليها روايات الفريق فوزى للقاءات تمت بينه وبين الرئيس السادات وهو يروى قصة مقابلتين شخصيتين مع الرئيس السادات فيما بعد خروجه من السجن ، ويبدو هدف الفريق فوزى من «الرواية» التى يقدمها واضحاً وهو أنه يريد أن ينهى إلينا أو يقنعنا أنه رفض مساومة السادات له لينساق معه فى رؤيته (الساداتية) للتاريخ المعاصر.

ومن حق الفريق فوزى أن يقول هذا فى مذكراته ، ولسنا نريد ولا نبتغى أن نكذبه فيما يرويه ولا بنسبة واحد فى المائة ، ولكنى أظن أنه يحق لنا أن نسأل الفريق فوزى عن سر انحيازه التام ضد أنور السادات إذا كان فى وسعه ـ بالفعل ـ أن ينحاز للحقيقة حتى فى مواجهة أنور السادات نفسه.

ونحن لا ندافع الآن عن أيهما ـ لا عن السادات ولا عن فوزى ـ ولكننا نحب أن ندافع عن الحقيقة التى ربما لا تحتاج إلى دفاعنا ولا إلى دفاعهما.

ولهذا فإنى أدعو القارئ إلى أن يقرأ معى ما تحفل به رواية الفريق فوزى من طرافة فضلاً عما فيها من رؤاه الشخصية التى تبلورت بعد زمن بعيد ، وسنرى أنه مصمم منذ البداية على أن يفرض علينا تفسيره الذكى والمتعسف فى ذات الوقت لدعوة الرئيس السادات له، كما سنلمس بوضوح أن الفريق فوزى لايتركنا نستنتج ما يريد أن يوحى إلينا به ولكنه يقدمه لنا بطريقة مباشرة كعادة العسكريين، ولنقرأ ما يرويه الفريق فوزى حيث يقول :

« ..... دعانى الرئيس السادات لمقابلة شخصية فى استراحته ببرج العرب يوم ٢/ ٩/ ١٩٧٤ لرفع المعاناة النفسية التى نتجت عن القضية تمهيداً لاحتوائى بعد ذلك، وبادر بقوله وهو مقبل علىّ للسلام فى مدخل الاستراحة : «بصمت لهم ياسى فوزى». وفهمت بعد هذه المقولة أن ما علق فى ذهنه حتى الآن هو ما ترتب على استقالتى من انفعال مع الأسى والحزن فقط، أما ما تلى ذلك من أحداث بالاعتقال والتحقيق والمحاكمة للقائد العام للقوات المسلحة الذى سند ظهره وأيده منذ اعتلى الحكم فلم يكن لها أى تأثير فى نفسه. فسارعت بالرد عليه، وقلت : «ماهو سيادتك السبب، يعنى تأمرنى بالاستعداد لبدء القتال وتحدد يومه، ثم تحرجنى أمام القادة والقوات المسلحة وترفض توقيع القرار وعاوزنى أنتظر مواقف محرجة ومؤسفة بعد ذلك». فقال لى : «أنا طلبتك للتهنئة بالإفراج ورفع المعاناة النفسية عنك مش عاوز نفتح الموضوع تانى وكمان حاول نسيانه». واستطرد فى القول : " أنا بادرت بطلبك بصفة خاصة تكريما لك ولن أكررها مع الآخرين». وأدركت بعد هذه الجملة أنه لم يقدر الإساءة ولا التشهير ، ولا طرح تهمة الخيانة العظمى، وما تلاها من حكم

أشغال شاقة على شخصى وأنا فى قمة السلطة العسكرية ولى يد طولى فيما يكتسبه الآن من إيجابيات ومكاسب ».

نستطيع أن نسأل أنفسنا ـ الآن ـ هل كانت إجابة فوزى بالنص الذى أورده وهو الذى نشر له ما نشر فى عهد السادات وأدلى بما أدلى به؟، ولكننا لن نسأل ولن نجيب لأننا لا نحب أن نتحامل على الفريق فوزى بأكثر مما تحامل عليه الزمن! ربما يكفينا أن نشير إلى ما أورده الفريق صادق فى مذكراته من أن الفريق فوزى وهو فى السجن عاد وتقرب إلى السادات بعد إقالة السادات لصادق، وهكذا فإنه نال من خيرات السادات على حد تعبير الفريق صادق.

(٤)

ثم يدلف بنا الفريق فوزى كما ذكرنا إلى رواية مهمة يروى بها رأيين مهمين وخطيرين للسادات وله فيما حدث فى ٥ يونيو وما بعدها ، ومن حسن الحظ أن الرأى المنطقى والواقعى المنسوب إلى السادات لم يكتب بهذا الوضوح الشديد إلا فى هذه المذكرات التى يرويها الفريق فوزى بكل حسن نية.

وعلى الرغم من أن فوزى يقلل من قيمة هذه الآراء التى وصل إليها السادات فى ساعة صفا ، إلا أن هذه الآراء المنسوبة إلى السادات تظل بمثابة ما نطلق عليه فى العلوم الطبيعية والرياضية: «الفرض الخصب» أى أنها بلغة العلوم الإنسانية تظل مثيرة للتفكير المثمر، أى أنها الفرض الذى يولد فروضا أخرى والتفكير الذى يقودنا إلى تفكير جدير بالوصول إلى الصواب أو إلى الحقيقة على الأقل:

ولنقرأ هذا الحوار:

« ثم عاد فقال :

«بقى فى ذمتك يافوزى عبد الناصر كان ناوى يحارب» فأجبته على الفور :

بنعم، وأنه ـ أى الرئيس الراحل ـ أصدر أمر القتال فعلا على أن يكون بدء المعركة فى آخر فترة وقف إطلاق النيران الأولى، وقلت : «سيادتك تعلم ذلك، وللأسف كان هذا اليوم هو ذكرى الأربعين لوفاته». ولم يعلق الرئيس على كلامى!! هنا يقفز الفريق أول محمد فوزى على الفقرة التالية من حديث الرئيس السادات وهى الفقرة التى سيوردها بعد قليل، والتى يقتضى المنطق البسيط ورودها مباشرة بعد هذا الحديث، فقد استطرد السادات ليقول لفوزى ما لم يورده فوزى مباشرة وإنما أورده بعد قليل، وهو أن الدليل على أن عبدالناصر لم يكن ينوى الحرب كان موقفه هو نفسه فى ١٩٦٧، فلو أنه كان ينوى الحرب فعلاً لتصرف فى ذروة أحداث ١٩٦٧ بما ينبغى على المحارب أن يفعله وسنرى هذا النص بعد قليل وقد أورده الفريق فوزى ـ والعهدة على الراوى ـ منسوبا إلى السادات. ومع أننى لم أحضر لقاء السادات والفريق فوزى، لا أنا ولا القراء، إلا أننا نستطيع أن نفهم أن الحديث كان على هذا النحو كما سوف نرى بعد قليل، ولكن الفريق فوزى يتعمد أن يبرز هنا ما يهمه وهو شكوى الرئيس السادات من الفريق صادق، وهو موضوع جانبى لا ننكر أنه كان من الوارد أن يرد فى الحديث ولكنه بالطبع لم يقطع تواصل فكرة السادات عن الحرب على نحو ما فعل الفريق فوزى بروايته: «ولكنه غيَّر موضوع الحديث (من الواضح أن الفريق فوزى هو الذى غير فى الغالب موضوع الحديث) وسألنى عن كيفية تعاملى مع الفريق صادق طوال فترة وجوده معى، ثم انطلق بألفاظ مضادة وهو يجز على أسنانه وقال : «طلع خبيث وعيل وسوف يجىء له يوم».

❑

ولم أعلق على هذا الوصف، ولكننى اندهشت لصدوره من الرئيس السادات الذى جعل منه بطلا بعد أحداث ١٣ مايو ١٩٧١. واعتقدت أن هناك حدثا أكبر ارتكبه الفريق أول صادق ضد الرئيس السادات أكثر مما علمته من الرواية التى كانت بمناسبة إقالته من منصبه فى أكتوبر ١٩٧٢. ثم كرر الرئيس رغبته فى نسيان موضوع القضية، كما طلب منى عدم التردد فى طلب أى شىء أحتاج إليه، وانتهت المقابلة التى دامت حوالى الساعة».

(٥)

ثم يـروى الفريق أول مـحمد فـوزى في مذكراتـه التى بين أيـدينا قـصة مقابـلة شخصية ثانية مع الرئيس السادات وسنرى هذه المقابلة حافلة بذكريات مهمة للفريق أول محمد فوزى فى حرب ١٩٦٧ :

«أخطرنـى الفريق محمـد حسنى مبـارك نائب رئيس الجـمهورية بدعوة الـرئيس السادات لمقابلتى يوم ٦ يناير ١٩٧٦ فى استراحة القناطر الخيرية من أجل المعاونة فى تسجيل أحداث الثورة، وبـالذات هزيمة ١٩٦٧ . وكانت مقابلة مثيرة لـلغاية شهدها نائب الرئيس محمد حسنى مبارك واستغرقت ساعتين».

«فتح الرئيس السادات الحديث عن رغبـته فى تسجيل أحداث ثورة يوليو ١٩٥٢ بواسطة لجـنة على مستوى عـال يرأسها النائب حسـنى، وأن الزمن يمر سريـعاً على شعب مـصر بدون أن يعرف الحـقائق عن الثورة وبـالذات عن فترة مـعركة ١٩٦٧، وأننى عاصرت هذه الفترة وكنت فى موقع رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية،ولم يصدر عن المعركة أى كتب أو دروس يمكـن أن تعتمد عليها اللجنة فى كتابة تاريخ هذه المعركة».

«وقاطعت الرئيس وذكرت له أننى أصدرت كتابا خاصاً مفصلاً عن معركة يونيو ١٩٦٧ مدعما بالخرائط،وكان توزيعه مقصـوراً على القادة فقط . وأعتقد أن النائب حسنى لديه نـسخة قائد القوات الجوية ويمـكن الاعتماد عليها فى كـتابة تاريخ هذه الفترة».

«ولكن الـرئيس قال : «لا .. إحنا عـاوزينك أنت كشاهـد معاصر على مـستوى الأركان تجاوب على أسـئلة نطرحها عليـك فى تسجيل التاريخ»، ولـكنى لم أوافق علـى هذا الأسلوب وقـلت للـرئيس «ده يبـقى س وج. ده يبـقى تحقـيق مش كتـابة تاريخ»، وبدأت أتشكـك فى نوايا الرئيس وفى اتجاهاته، وقـلت له : «أنا عاوز وقت لتذكر الأحداث وتحضير الموضوع».

ولكـن الرئيس قـاطع كلامـى بتعجـب وقال بتهـكم: «بقـى الفريق فـوزى عاوز

يتذكر. بقى الفريق فوزى اللى أمام قادة الكرملين عندما اجتمعنا بهم فى موسكو دلل على مكان وكمية قطع غيار ومعدات صواريخ الطائرات القاذفة إنها موجودة فى مخازننا فى قاعدة أسوان الجوية (وكانت المناقشة عن هذه المعدات بين الحاضرين وكان الرئيس ينوه عن دقة ذاكرتى فى موضوعات فرعية) وعاوز لسه يتذكر أحداث مرحلة ١٩٦٧».

(٦)

ونصل إلى بيت القصيد من حديثنا وحديث السادات وحديث فوزى عن إمكانية تغير نهاية حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ بقرار من القائد الأعلى فى الوقت المناسب حتى بعد حدوث الكارثة الأولى:

« واستطرد الرئيس فى الحديث وقال: "لا .. فيه نقص فى المعلومات وفى الدوافع والأسباب كذا فى إدارة المعركة... يعنى لو كان عبد الناصر الله يرحمه راح طارد المشير عبد الحكيم عامر ووضعك أنت بعد ضربة الطيران على طول زى ما رحت طارد الشاذلى عندما دخل اليهود فى الثغرة كنت على الأقل وقفت وصمدت فى المضايق وكانت المعركة تغيرت».

هكذا قدم السادات الداهية الطعم للفريق فوزى، وقد سُرّ الفريق فوزى بالطعم وبدأ يبلعه ويتظاهر بعدم بلعه فى نفس الوقت:

فقلت للرئيس السادات : «الرئيس عبد الناصر كان بعيداً عن إدارة المعركة وكان لا يرغب فى التدخل فى أى وقت خلالها».

« وتحول النقاش حول علاقة الرئيس عبد الناصر بالقوات المسلحة والمشير عبدالحكيم عامر ، ونوهت فى هذا المجال بالصراع الخفى الذى كان قائما ، واستحالة تدخل الرئيس عبد الناصر فى إدارة المعركة التى كان يديرها المشير عبد الحكيم عامر وحده».

«وسأل الرئيس أسئلة أخرى فى الموضوع، وكانت إجاباتى عليها تصحيحاً لمفاهيم خاطئة».

هكذا يقول الفريق فوزى دون أن يحدثنا لا عن المفاهيم الخاطئة ولا عن المفاهيم الصائبة التى صحح بها الخطأ. ولكن نفاجأ فى الفقرة التالية بأن الفريق فوزى يود لو استطاع أن ينفى أى دور للرئيس عبدالناصر فى اجتماع الجمعة ٢يونيو وهو الاجتماع الذى ينسب إلى عبدالناصر أنه حذر فيه من قيام الحرب يوم ٥يونيو على حين يرى كثيرون منهم الفريق أول محمد صدقى محمود فى مذكراته التى عرضناها أنه كان لقاء بالصدفة ولم يكن اجتماعا ذا جدول أعمال.

ويبدو أن الفريق فوزى لم يرد أن يتناول هذه الجزئية بوضوح كاف من حيث توجهات الرئيس من ناحية وتوجهات القادة الآخرين من ناحية أخرى، وهكذا آثر أن ينسب إلى السادات قوله إن عبدالناصر اعتمد خططا وأن ينسب إلى نفسه تكذيبه لحدوث هذا.

وكان السؤال الأخير للرئيس السادات: "طيب انت فاكر يافوزى لما حضرت أنا مع الرئيس جمال عبد الناصر الله يرحمه يوم الجمعة ٢/ ٦/ ١٩٦٧ فى القيادة ، وصدق لكم جمال على الخطة وقال على بركة الله . ولكنى قاطعت الرئيس السادات وقلت : «لم يحدث هذا» وهنا ظهر على ملامح السادات الضيق، وقال لى بلهجة الهزار : «يظهر أنك عاوز ترجع القلعة تانى» . ولم أقبل هذا التهكم بشخصى، وقلت للرئيس : «يعنى حتكسب إيه الآن .. أنا لا وزير حربية ولا حتى عسكرى أنا أصبحت مواطن مدنى وعلى المعاش»، وارتفع صوته بالضحك، وطلب كوب شاى للمرة الثانية» .

هذا هو ما يرويه الفريق فوزى لكن ذكرياتنا عما نشر عام (١٩٧٧) من حديث الفريق أول محمد فوزى فى جريدة الأخبار تدلنا على أن الحديث كان يمضى فى طريق آخر، طريق يجعل الفريق فوزى لايدخر وسعاً فى كشف كل مثالب القيادة فى ١٩٦٧ وهو ما يعنى ـ أوتوماتيكيا ـ الارتفاع بقيمة إدارة الرئيس السادات لحرب ١٩٧٣ إلى أعلى عليين.

(٧)

والشاهد أن ما يعنينا ـ فى هذا الكتاب ـ من أمر اشتراك الفريق فوزى فى أعمال لجنة كتابة التاريخ هذه ما رواه هو نفسه ـ فى كتابه ـ وما سنورده بعد قليل عن يوم من الأيام سجل فيه أمام اللجنة ٩ ساعات كاملة عن هزيمة يونيو. وسنجد الفريق فوزى لسبب لانعرفه مستاءً بدرجة ما من أن تفاصيل ما أدلى به فى هذا التسجيل قد نشرت فى جريدة الأخبار ، وهو يذكر لنا أنه استنتج من هذا التصرف أن دوره قد انتهى عند هذا الحد ، وأنه فكر منذ ذلك الحين فى نشر مذكراته، وكنت أود ـ وأظن أن القراء أيضاً يودون كذلك ـ لو أن الفريق فوزى أوضح لنا الفروق بين ما أدلى به أمام لجنة التاريخ (أو ما نشر فى الأخبار) من ناحية، وبين ما نشره بعد ذلك فى مذكراته ، ولماذا لم يلتزم فى مذكراته بما نشره من قبل فى أثناء حياة الرئيس السادات.

ولكن يبدو أن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة موسعة وموثقة ومقارنة بين النصوص المختلفة لنفس القائد العسكرى.

ولكننا مع هذا لابد أن نورد للقارئ بقية ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن الحوار الذى دار بينه وبين الرئيس السادات حول حرب ١٩٦٧ :

«ثم بدأ يعطى تعليماته إلى النائب حسنى لاستقبالى فى مبنى قيادة الثورة ـ وهو المكان الذى اتخذته اللجنة مقراً لها ـ ، فقد قبل وجهة نظرى التى حددت لمعاونة اللجنة فى تسجيل أحداث معركة ١٩٦٧ فى حدود خمسة عشر يوما لكتابة الموضوع وتذكره ، وأن يستدعى النائب حسنى مبارك جميع رؤساء تحرير الصحف والمجلات وكذا المصورين، وأن يتم استقبالى خارج مقر اللجنة فى اليوم الذى يتفق عليه».

«وفعلاً تم استقبالى فى يوم ٨/ ١/ ١٩٧٦ كما ذكر الرئيس السادات لنائبه وصدرت صحف يوم ٩/ ١/ ١٩٧٦ بصورة فى صدر الأهرام بجانب النائب حسنى مبارك والأستاذ سيد زكى [كان رئيسا للجنة تسجيل التاريخ]، ورئيس اللجنة

العسكرية لتسجيل أحداث التاريخ ، وتخصص يوم ١٩٧٦/٦/٢١ لى وسجلت فى هذا اليوم حوالى تسع ساعات دونت فى أحد عشر شريطاً» .

❑

ومن العجيب أن الفريق فوزى بعد أن يذكر لنا أن جميع رؤساء التحرير والمصورين من الصحف والمجلات قد دعوا إلى هذا اللقاء يحاول أن يقنعنا عن باعتقاده أن هذا التسجيل كان فى إطار السرية:

«وكان اعتقادى أن هذا التسجيل يعتبر سريا إلى أن تنتهى اللجنة من تغطية الموضوع وإخراجه بعد الاستعانة بأكثر من مائة شاهد آخر ، ولكنى فوجئت برئيس تحرير جريدة الأخبار يطرح تسجيلاتى على صفحات جريدة الأخبار وأخبار اليوم فى حلقات ابتداء من ١٩٧٧/٦/١١ ، ولمدة خمسة أيام متوالية ، لفتت نظرى ونظر القراء بدرجة كبيرة، ونقلت صحف الوطن العربى كلها عن الأخبار هذا التسجيل الطويل ، واستنتجت نتيجة لنشر الموضوع السرى ـ كما قال السادات ـ أنه أصبح علنيا، وأن اللجنة لن تنتهى من كتابة التاريخ كما طلبه الرئيس السادات . كما اقتنعت وقتها فقط بأن هذه دعوة لى لبدء كتابة مذكرات عن نفس الموضوع وغيره.

❑

هكذا يصرح لنا الفريق فوزى أن تفكيره فى كتابة مذكراته لم يبدأ إلا بعد أن نشرت الأخبار أقواله التى أدلى بها أمام لجنة كتابة التاريخ.. ولهذا التصريح قيمة كبيرة من حيث أنه يعطينا فكرة عن أن الفريق فوزى لم يكتب ذكرياته على هيئة يوميات وإن كان قد استعان فى بعض فصولها ببعض اليوميات المسجلة فى حينها وهى قليلة.

ومن ناحية أخرى فربما يتخذ بعض النقاد من تصريح الفريق فوزى دلالة على أن النشر الصحفى بكل مردوداته هو الذى يشجع أصحاب الذكريات على الاندفاع أو الإسراع فى كتابتها.

(٨)

ونحن نلاحظ فى هذه المذكرات عناية فائقة بالحديث عن الجهود التى ينسب صاحب المذكرات إلى نفسه أنه بذلها فى الارتقاء بالقوات الجوية المصرية، وكأنه كان بمثابة القائد الأعلى للقوات الجوية، وليس من الصعب على القارىء أن يدرك سبب هذا الحرص فذلك مرتبط أشد الارتباط بموقف الفريق فوزى نفسه، بل وموقف القيادة السياسية نفسها من الحرص والإلحاح على تحميل القوات الجوية المسئولية عن هزيمة ١٩٦٧.

ومع أنه يبدو لأى قارئ أن من المنطقى أن يشار إلى أن القوات الجوية كانت صاحبة إمكانات لكن قادتها قصروا فإن الفريق فوزى يتجاوز هذه النقطة وكأنها أصبحت بفضل جهوده المحمومة حقيقة واقعة ـ ويلجأ إلى العكس، وهو إثبات مدى جهده هو نفسه كقائد عام فى تطوير القوات الجوية، وكأنما كانت هذه القوات فى أشد الحاجة إلى توليه هو بالذات منصبه، ونحن نرى فى هذا الكتاب عناية متكررة بهذا الجهد فى هذه القوات بالذات ومن العجيب أن الفريق مدكور أبو العز لا يشكو من أحد عطل تقدم القوات الجوية بقدر ما يشكو من الفريق فوزى. بل إن الفريق محمد صدقى محمود واللواء عبدالحميد الدغيدى وهما من قادة القوات الجوية يذهبان إلى أن يلقيا على الفريق فوزى الجزء الأكبر من مسئولية التعويق الذى لقيته خطط القوات الجوية!!

وقد يكاد الفريق فوزى أن يصمم على أن هذا يعطى العذر للقوات الجوية التى لم تكن قد حظيت بالاهتمام قبل اهتمامه هو بها، ولكن أحداً لن يقع فى مثل هذه المفاهيم المغلوطة، فالقراء يدركون بذكاء فطرى مدى ما يستهدف صاحب المذكرات مما يكتب.

ولعل الأجدى فى قراءة هذه الأجزاء من هذه المذكرات أن نأخذ مثلا يسهل تقييم الحكم على صواب جزئياته ونناقشه، ولنأخذ على سبيل المثال الفقرة التى يصور فيها الفريق فوزى نجاحه هو والرئيس عبدالناصر فى تحسين الكفاءة القتالية للطائرة الميج ٢١ المعدلة.

وسنرى الفريق فوزى فى هذه الفقرة وهو يتناول الأمور بعمومية شديدة، بينما أنه هو نفسه وفى نفس هذه المذكرات تعرض لهذا الموضوع بتفصيل أكبر خلال صفحات سيجدنا القارىء بعد قليل ننقلها بالتفصيل فى الباب الذى بين أيدينا، وإذا ما قرأنا الفقرات الأخرى الأكثر تفصيلاً لأحسسنا أن الفريق فوزى فى الفقرة التالية التى نوردها هنا قبل أن ندخل فى التفاصيل يبالغ بعض الشىء فيما تحقق من إنجاز، لكن الأخطر من هذا أنه يعطينا تاريخين مختلفين لتغيير محرك الطائرة، فهو فى البداية يذكر أن السوفييت وافقوا على هذا فى يوليو ١٩٧٠، وبعد فقرات يقول إن هذه التعديلات تمت فى عام ١٩٦٩، وعلى كل الأحوال فلن نستبق النصوص وقد وعدنا القارىء أن نقدمها له كما هى ثم نعلق.. وهذه هى أقوال الفريق فوزى التى يتحدث فيها عن التفوق الجوى:

«كان أهم ما تميزت به رحلة الرئيس عبدالناصر إلى موسكو فى يوليو ١٩٧٠، هو موافقة القادة السوفييت على إدخال تعديل جذرى للطائرة الميج ٢١ المعدلة بتغيير محركها إلى محرك آخر حديث».

«وكان دافع القيادة السوفيتية السياسية والعسكرية هو تطوير وتحسين طائراتهم المقاتلة القاذفة كى تحقق المهام القتالية فى مسرح عمليات الشرق الأوسط، معتمدين على الخبرة فى القتال باستخدام طائراتهم السوفيتية الصنع فى حرب فيتنام وفى معارك الاستنزاف فى مسرح عمليات سيناء، وهى مناطق مختلفة عن مسارحهم القتالية فى أوروبا والتى صمموا معداتهم العسكرية، خاصة الطيران، على أساسها».

«ولو أن تغيير هذا المحرك الجديد كان مكلفاً إلا أنه أكسب الطائرة الميج ٢١ المعدلة قوة دفع أكبر مع استهلاك فى الوقود أقل نسبياً. وقام الاتحاد السوفيتى بتصنيع الموتور الجديد بأعداد كافية لطائراتنا الميج ٢١ المعدلة الموجودة لدينا، وتم تركيب الموتور الجديد فى ورش ومصانع الطائرات المصرية فى مصر. ثم كان الإمداد الجديد من هذا النوع مميزا بهذا المحرك الجديد».

«وكانت هذه التعديلات الفنية فى الطائرة الميج ٢١ والتى تمت فى عام ١٩٦٩، والموتور الجديد (٥١١) هما الأساس الذى اعتمد عليه السوفييت فى تصميم وتصنيع الطائرة المقاتلة القاذفة الميج ٢٣ فيما بعد».

(٩)

هكذا نفهم بوضوح أن السوفييت طوروا الميج ٢٣ من الميج ٢١ دون أن ندرى ماذا عاد علينا من هذا التطوير؟ هل أحللنا أو أحلل السوفييت لنا الطائرات الميج ٢٣ بدلا من الميج ٢١؟ فى الظاهر أن هذا لم يحدث فى ذلك الوقت، ولكن الفريق فوزى يشير إلى أن الميج ٢١ بعد تطويرها أصبحت شيئاً مختلفا جعل حساباتنا تميل إلى صالحنا (!!) أو على الأقل هذا هو ما نفهمه من الفقرة التالية مباشرة للفقرة السابقة والتى يقول فيها الفريق فوزى:

«ونتيجة لهذا التطور الفنى فى طائراتنا الأساسية فى القوات الجوية المصرية قد أسقطنا من حساباتنا التقديرية (فى ميزان القوى الجوية فى مسرح عملياتنا المنتظر)، القدرات المتميزة فى الطائرة الفانتوم ٤ بالنسبة للحمولة فى القنابل والصواريخ، كذا فى المناورة، إذ أنها فى حالة زيادة حمولتها تقل سرعتها عن ٩٠٠كم ساعة، وتحتاج فى نفس الوقت إلى حماية جوية. وإذا لم تتوافر هذه الحماية تضطر الفانتوم إلى تقليل حمولتها للاحتفاظ بسرعتها حفاظاً على أمنها، وفى هذه الحالة تزول قدراتها التدميرية».

«وإذا أدخلنا القدرات والكفاءة القتالية التى اكتسبتها طائراتنا المقاتلة القاذفة الميج ١٧و٢١ المعدلة، ومحركها الجديد، والسوخوى ٧، وهى الغالبية الكلية فى قواتنا الجوية من وجهة نظر المقارنة النسبية فى «الكيف»، لوجدنا أن الطائرة القاذفة المقاتلة قد زادت بعد تعديلها إلى ضعف قدراتها الأولى قبل التعديل».

❑

هكذا نفهم أن جهد الفريق فوزى كان جهداً بلاغياً، وربما اقتصر الجهد الهندسى فيه على تزويد الطائرات بمحرك جديد هو الموتور (٥١١) أو بعض التعديلات الفنية الأخرى، وظنى أن هذا ليس بإنجاز ذى بال للقوات الجوية التى كانت تفتقد أشياء ومقومات أخرى كثيرة غير هذا الموتور، وسنتعرض لهذا المعنى بالتفصيل بعد قليل ولكن أحب أن أسارع أولا فأبدى رأيى المتواضع فى أن التفوق الجوى لا يتحقق

بطائرة ولا بطراز طائرة، وإنما يتحقق بالتدريب الشاق والتخطيط الجيد ووضوح الهدف والاستراتيجية.

ولست أحب بهذا أن أقلل من جهد فوزى أو غيره، ولكن حرب أكتوبر ١٩٧٣ نفسها أنبأتنا بنصرها المجيد عن أهمية العوامل التى ذكرتها، وقد تحقق لنا الانتصار بينما كانت كثير من طائراتنا المروحية معطلة عن الحركة بسبب نقص قطع الغيار.

وفى كل الأحاديث والذكريات التى تحدث بها قائد القوات الجوية فى هذه الحرب المجيدة ـ الرئيس حسنى مبارك ـ، فإنه لم يتطرق أبداً إلى طراز طائرة ولا إلى محرك ولا إلى أى شىء من ذلك، وإنما تحدث عن التخطيط والتدريب ووضوح الهدف والاستراتيجية والالتزام وروح المسئولية والجدية والفداء ونكران الذات .. ومن العجيب أن كل هذا مر بسمع وبصر الفريق فوزى قبل أن يكتب هذه المذكرات، ولكنه ظل على اعتقاداته القديمة وهو لهذا يردف فقرته السابقة بقوله:

«ودخلت هذه الزيادة فى القدرات ضمن حسابنا فى تقدير التفوق الجوى بين قواتنا وقوات العدو».

وفى وسعى أن أشير للقارىء الآن إلى مدى الفارق الرهيب بين هذا الحديث السطحى عن مهمة القوات الجوية وأدائها وتدريبها وتسليحها وبين الحديث المستفيض الواثق الدارس الذى نقرأه للفريق مدكور أبو العز فى مذكراته التى تدارسناها بتوسع فى الباب الأول من هذا الكتاب.

(١٠)

ويبدو الفريق فوزى فى هذه المذكرات معنياً أشد العناية بالحديث عن جهده كقائد عام للقوات المسلحة فى الحصول على المعونة الفنية والأسلحة من الاتحاد السوفيتى، وعلى سبيل المثال يخصص الفريق فوزى صفحات طويلة (٧٣ ـ ٨٣) للحديث عن تفصيلات الحوار بين القادة المصريين والسوفييت حول الطائرات المقاتلة القاذفة، وهى الحوارات التى تنبئنا ـ بكل وضوح ـ عن مدى الخلل فى التفكير

الاستراتيجى عند القادة السوفييت حين كانوا يفكرون فى الأمور ذات الأهمية القصوى بطريقة روتينية عقيمة.

ومن الطريف أن فوزى كتب هذه المذكرات بينما كان الاتحاد السوفيتى لا يزال موجودا ولم يخطر فى باله بالطبع أننا قد نقرأها اليوم ونتأملها ونحللها فى إطار أسباب سقوط الاتحاد السوفيتى نفسه بسبب هذه العقليات التى لم تكن قادرة ـ قبل السقوط بعشرين عاماً ـ على تحديد الصديق من العدو، ومدى ما يجب أن تقدمه للصديق من عون غير مشروط، لنقرأ هذه الفقرات التى يقدمها الفريق أول فوزى فى إطار الحديث عن جهده المستميت ، ولنفهم منها تفاصيل الصورة على نحو جيد، وسنرى أن حديث السادات وأنصاره عن مدى المعاناة من السوفييت لم يكن نابعاً من فراغ، فسوف ترينا يوميات الفريق فوزى كما يوردها هو على مدى شهور، مدى الجهد المبذول فى طلب شىء كنا نحن أحوج ما نكون إليه وأظن القارىء لهذا الكتاب وقد قرأ ما قدمناه فى الباب الأول من نصوص واضحة الصراحة كتبها الفريق مدكور أبو العز يستطيع أن يفهم مغزى العبارات الدبلوماسية التى يحفل بها حديث الفريق فوزى عن التعاون المصرى السوفيتى، فهو حريص على أن يتجنب نقد الموقف السوفيتى، ولكنه فى ذات الوقت ينطق رغم أنفه بمعاناته ولنقرأ هذه النصوص فى ضوء هذا الإيضاح :

«كانت القيادة السياسية والعسكرية بعد معركة يونيو ١٩٦٧ تدرك أن قدرة القوات الجوية هى المحور الأساسى الذى يرتكز عليه تفوق قدراتنا العسكرية عامة، ولم يكن لدى الاتحاد السوفيتى ـ المصدر الوحيد لإمدادنا بالطائرات المقاتلة القاذفة ـ سوى الميج ١٧، والميج ٢١، والسوخوى ٧. وكان الطيارون والفنيون المصريون قد توافر لديهم القدر الكافى عن كفاءة وقدرة هذه الطائرات من خلال المعارك السابقة».

هكذا يتحدث الفريق فوزى بتهذيب شديد عن حتمية تعامل قواتنا المسلحة مع هذه الطائرات بالذات والتى هى كل ما عند الاتحاد السوفيتى، ثم هو يبدأ فى الحديث عن المساهمات التكنولوجية (الفنية) التى قدمتها قواتنا الجوية وهيئتها الفنية

من أجل تطوير هذه الطائرات المقاتلة القاذفة، وعندى أن هذه التفصيلات التى يرويها الفريق محمد فوزى من مفكرته أهم وأجدى على تاريخنا المعاصر من فقرات أخرى مطولة بدا فيها الرجل نفسه مردداً فحسب لآراء آخرين يفوقهم هو قدراً وقدرة، ويكفينا من كل ما رواه الفريق فوزى فى هذه المذكرات أن نرى الخبرة المصرية (متمثلة فى مهندس الطيران والطيارين أنفسهم) وقد استطاعت أن تقترح ما يضيف إلى مزايا الطائرة كسلاح دون أن تفقدها مزاياها التقليدية، ومن حسن حظ السوفييت أن وجدوا أمثال هؤلاء المصريين الأذكياء ليطوروا لهم من إمكانات بعض أسلحتهم وليبلوروا لهم الخبرة التى لا تنشأ إلا فى ميادين القتال وعند الاستخدام الفعلى للطائرة.

❑

ومن حق القارئ أن نورد له ما يرويه الفريق فوزى عن تنفيذ عمليات التطوير هذه فى إطار ما حرص على أن ينقله من يومياته عن لقاءاته هو شخصياً بمندوبى السوفييت، سواء فى ذلك السفير السوفيتى أم كبير المستشارين أو غيرهما، أو عن لقاءات حضرها الرئيس جمال عبدالناصر بنفسه ، ولن نقطع على القارئ تواصل حديث الفريق فوزى الذى يوحى إلينا بأنه ينقله من يومياته الشخصية ولكننا فى ذات الوقت سنضع تعليقاتنا (على هذه اليوميات) فيما بين قوسين من هذا النوع [ ].

يقول الفريق أول محمد فوزى:

«وفى أول لقاء قمة فى موسكو فى يوليو ١٩٦٨ عرض الرئيس جمال عبدالناصر موقف القوات الجوية المصرية وقدراتها القتالية والفنية خاصة فى المدى وفى التسليح، كذا بالنسبة للقدرة على المناورة. وأبدت القوات السوفيتية استعدادها للتعاون وتنفيذ الاقتراحات الفنية المقدمة من المجموعة الفنية لشئون الطيران التى كان قد صدر بتشكيلها وواجباتها أمر قيادة على أعلى مستوى برئاسة لواء مهندس طيار أحمد نوح، وعضوية لواء مهندس طيار سمير راقم، ولواء مهندس محمد فهيم ريان».

«كانت التعديلات الفنية مركزة على إضافات ومساعدات وتطوير فى التصميم من أجل زيادة مدى الطائرات، وعلى زيادة التسليح (مدافع وقنابل وصواريخ) دون التأثير على قدرة الطائرة فى السرعة أو فى المناورة. وكانت هذه التعديلات الفنية وليدة الخبرة المصرية فى العمليات الجوية، غير أنها تلاقت من وجهة نظر السوفييت مع الخبرة التى تحصل عليها [يقصد: اكتسبها] مصممو الطائرات السوفيتية فى حرب فيتنام أيضاً».

«وخلال اللقاءات والتحضير لتنفيذ هذه التعديلات تبادلت المجموعة الفنية المصرية مع مجموعة مصممى الطائرات السوفيتية الآراء والخبرات، حيث انتهت بنجاح عمليات تطوير وتغيير قدرات الطائرات القاذفة المقاتلة السوفيتية إلى مضاعفة القدرات القتالية لها، سواء فى الدفاع أو فى العمليات الهجومية، خاصة فى مدى عمل الطائرات أو فى التسليح».

«ولكى أوضح الإجراءات والمجهودات التى تمت لتحقيق هذا النجاح بين القيادة السياسية والعسكرية المصرية، وبين القيادة والأجهزة المعنية السوفيتية سوف أدون هنا ملخص محاضر اللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات التى تمت خلال عام ١٩٦٩، وهى السنة التى تمت فيها عمليات تطوير قدرة الطائرات القاذفة المقاتلة فى قواتنا الجوية».

«وكان حرص الرئيس جمال عبد الناصر وتصميمه على هذا التطوير الفنى للطائرات هو المحور الذى ارتكزت عليه سرعة تنفيذ هذه التعديلات بجهد مشترك بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية ومصممى الطائرات وممثليهم فى الاتحاد السوفيتى، والقيادة العسكرية وقيادات لواءات القوات الجوية، وقوات الدفاع الجوى، والورش فى القوات الجوية، والمجموعة الفنية فى شئون الطيران».

(١١)

بعد هذه المقدمات التى أوردها الفريق فوزى نتأمل معا ما يورده الفريق فوزى فى هذه المذكرات على هيئة يوميات انتقاها من دفاتر يومياته، وهى فقرات مهمة

ومعبرة لأنها توحى لنا ـ مباشرة وبمجرد القراءة ـ بكثير من الحقائق والملابسات والظروف التى أحاطت بإعادة بناء قواتنا المسلحة، ومع أن الفريق فوزى يوردها للتدليل على مدى الجهد الذى بذله فإن الإيحاء الأول الذى تبثه هذه الفقرات يدور حول مدى بيروقراطية السوفييت وربما تعنتهم أو تآمرهم، ولا أظننى فى حاجة إلى التركيز على عبارات معينة أو ألفاظ بعينها، فسوف يدرك القارىء ما يريد من المعانى مهما كان متعاطفا مع السوفييت أو مع الفريق فوزى.

ولكن الأمر الذى لا يمكن إغفال الإشارة إليه هو مدى تعاظم دور السفير السوفيتى حتى ولو كان هذا الدور يصب فى النهاية فى صالح القضية المصرية، ذلك أن هذا الجيل لم يكن قد أفاق بعد من سيطرة وغطرسة السفير البريطانى كليرن فإذا به يسعى بخطوات حثيثة إلى سيطرة وغطرسة سفير آخر أيا كان اسمه وجنسيته!!:

■ يوم ٨/ ٣/ ١٩٦٩:

«اجتماع وزير الحربية مع السفير السوفيتى فى مقر القيادة العامة بالقاهرة أوضح خلاله السفير حرص القيادة السياسية السوفيتية على معرفة موقف وسائل العبور، وإصرار الجانب العسكرى السوفيتى على ضرورة عبور القناة وإقامة رءوس كبارى على الضفة الشرقية فى أقرب فرصة [هكذا ينبئنا الفريق فوزى بلفظ «إصرار» عن مشورة السوفييت أو نصيحتهم فيما يتعلق بالعبور].

■ يوم ٢٠/ ٣/ ١٩٦٩:

«اجتماع وزير الحربية [الذى هو الفريق فوزى نفسه] والسفير السوفيتى والجنرال كاتشكن كبير المستشارين لتوضيح مدى تجاوب السوفييت فى سرعة تزويدنا بأحدث الأسلحة والمعدات العسكرية، وخص بالذكر الطائرة الميج ٢١م (المعدلة) التى قام مصممو الطائرات فى الاتحاد السوفيتى بإدخال التعديلات الفنية التى كان قد طلبها الجانب الفنى المصرى، والميج ٢١م كان قد تم إمدادنا بها منذ أوائل العام، كما حدث أن طلبت استبقاء خمس طائرات منها فى الاتحاد السوفيتى لتدريب الطيارين المصريين عليها هناك نظرا لأنها جديدة وأن المنتج [يقصد الجديد الذى يتم انتاجه أولا بأول] منها يحول مباشرة إلى مصر».

■ يوم ١٩٦٩/٦/٢٣:

«قابلنى كبير المستشارين السوفييت لإفادتى عن استجابة المارشال جريشكو وزير الدفاع لطلبى بإمدادنا بمعلومات عن مسرح عمليات إسرائيل، وقدم لى صوراً من الأقمار الصناعية السوفيتية شملت:

(١) خريطة جوية عن الموقف العسكرى بمنطقة السويس التقطت يوم ٣٠ مايو ١٩٦٩ [هكذا كانت خريطة(!!) تقدم فى بعض الأحيان بناء على طلب، ولكن بعد ٢٤ يوماً من تصويرها ، وربما بعدما كانت المعلومات فيها قد أصبحت قديمة بما فيه الكفاية].

(٢) خريطة جوية عن تنظيم العمليات الدفاعية لإسرائيل فى سيناء موضحاً بها مواقع المخازن، والشئون الإدارية، المواقع الدفاعية بالتفصيل».

(٣) مذكرة معلومات ميدانية عن القوات الإسرائيلية فى سيناء».

ونأتى إلى فقرة نفهم منها أننا كنا مقلين فى الاشتراك فى الاستطلاع الجوى.

❑

«كما أفادنى عن رغبة المارشال جريشكو فى زيادة عدد الطيارين والملاحين والفنيين المصريين للاشتراك فى عمليات الاستطلاع الاستراتيجى فى المنطقة. وكان أحد عشر طياراً وملاحاً مصرياً قد اشتركوا ٢٩ مرة فى عمليات استطلاع استراتيجى سابقة استغرقت ٢٨٠ ساعة طيران مع الأطقم السوفيتية على الطائرات «ت. ى. ١٦» الاستطلاعية. وفى هذا اللقاء طلبت من الجنرال كاتشكن إبلاغ المارشال جريشكو برغبتى فى إدخال منطقة عمليات البحر الأحمر ضمن المناطق المطلوب استطلاعها استراتيجياً».

وهذه مجموعة أخرى من صور أخرى تصل إلى الفريق فوزى:

«وبعد مرور ٧٢ ساعة من هذا اللقاء وصلتنى مجموعة صور جوية من القمر الصناعى السوفيتى عن هذه المنطقة بالإضافة إلى صور جوية أخرى».

(١٢)

وفى فقرات تالية مكتوبة بطريقة اليوميات أيضاً نجد الفريق فوزى يعطينا كثيرا من التفصيلات التى تشمل أسماء الطيارين الذين حضروا الاجتماعات بدءاً من الأحدث إلى الأقدم وكأنه كان يسجل أسماء الحاضرين بادئا بمن يراهم بمنتهى النظر وحتى يصل إلى مَنْ هم إلى جواره أو بالقرب منه مباشرة ، وتعطينا هذه التفصيلات التى يرويها صاحب المذكرات فكرة عن مدى اللجج والصراع الفنى المستميت الذى كان يخوضه هؤلاء الطيارون المصريون والمهندسون المصريون مع نظرائهم السوفييت من أجل ما يبتغونه وهو تطوير وتطويع الطائرات السوفيتية للحرب:

■ يوم ١٣/ ٧/ ١٩٦٩:

«اجتماع الرئيس عبد الناصر مع وزير الحربية، وقيادتى القوات الجوية وقوات الدفاع الجوى، وقادة تشكيلات القوات الجوية والدفاع الجوى، فى مقر القيادة العامة رقم (١) بمدينة نصر . وكان هدف الرئيس من هذا الاجتماع هو الاطمئنان على مدى تطور التعديلات الفنية فى القدرة القتالية للطائرات».

«واشترك فى هذا الاجتماع من قادة اللواءات الجوية المختلفة الطيارون: مقدم ممدوح طلبية ، مقدم علاء بركات، مقدم على زين، مقدم سمير أبو غرارة، مقدم كمال درويش ، مقدم حسن أبو عجوة ، مقدم أبو طايل، مقدم فؤاد حسنى، عقيد يوسف بصرى، مقدم نبيل كامل، عقيد حسام البشارة ، عقيد وفيق رشدى، عقيد نجيب يوسف، عميد عبدالمنعم شاكر».

«وطالب مقدم طيار حسن أبو عجوة قائد لواء سوخوى بتسليح الطائرات السوخوى بصواريخ جو/ جو، وتكلم عن أسلوب تكوين احتياطى من الطيارين المدنيين».

لا يورد الفريق فوزى أكثر من هذا عن هذا الاجتماع وكأن الرئيس عبدالناصر ـ وربما حدث هذا بالفعل ـ كان يُستغرق تماماً فى الاستماع إلى شكوى ضباطه من

قصور كفاية الأسلحة المتاحة لهم.. ثم هو يستوعب طلباتهم ليعرضها فى اجتماع تال على السوفييت.

■ يوم ١٥/ ٧/ ١٩٦٩:

«اجتماع الرئيس عبدالناصر ـ وزير الحربية ـ قائد القوات الجوية ـ قائد الدفاع الجوى ـ سفير الاتحاد السوفيتى ـ خبراء ومصممو الطائرة الميج السوفيتية ـ كبير المستشارين السوفييت ـ رئيس المجموعة الفنية المصرية، فى استراحة الرئيس بالمعمورة.. الموضوع الرئيسى عن الطائرة الميج ٢١ المعدلة بعد تنفيذ التعديلات الفنية».

«بدأ الرئيس الموضوع بتقديره للخبراء السوفييت مصممى الطائرة الميج، كذا لمدربى الطيران فقال: «فى أى معركة ندخلها مع إسرائيل نضع سمعة الاتحاد السوفيتى فى الاعتبار لسببين: «الأول: أن السلاح المستخدم بواسطة قواتنا سوفيتى الصنع، والثانى: أن الخبراء المدربين والمستشارين سوفييت أيضاً».

وهنا يقدم السوفييت محاضرة طويلة عن مزايا طائرتهم يلخصها الفريق فوزى:

«السوفييت: الطائرة الميج ٢١م بعد تعديلها زاد مداها فى الجو، كذا فى تسليحها، وبذا أصبحت طائرة مقاتلة قاذفة متعددة المهام، بمعنى أنه يمكن استخدامها لضرب الأهداف الجوية بكفاءة عندما تكلف بمهمة دفاع جوى، كما يمكن استخدامها فى ضرب أهداف أرضية تكتيكية وتعبوية وفى العمق الاستراتيجى عند قيامها بمهمة هجومية. أما عن تسليحها فقد كان بها نقطتا تعليق لحمل صاروخين، وأصبحت بها بعد التعديل أربع نقاط تعليق لأربعة صواريخ، أى أن كفاءتها القتالية عند استخدام الصواريخ زادت مرتين. كما سلحت الطائرة الميج ٢١م بمدفع ٣٥٠٠ طلقة/ دقيقة، أى ٥٠/ ٦٠ طلقة ثانية. وهو معدل عال فى توزيع الطلقات على مساحة كبيرة تسمح بإصابة الهدف مع الاحتفاظ بسرعتها ومرونتها فى نفس الوقت تطبيقاً لنظرية أن زيادة سرعة إطلاق النيران يزيد احتمالات إصابة الهدف.

«وكنا قد اكتسبنا هذه الخبرة من حرب فيتنام بالإضافة إلى خبرة الطيارين والفنيين المصريين فى مسرح عمليات الشرق الأوسط. وقد أتاح التسليح الجديد

بالمدفع للطائرة الدخول فى قتال متلاحم عن قرب مع الميراج، فضلاً عن خاصيتها الأساسية فى القتال الجوى على بعد أكثر من كيلومتر واحد نتيجة لتسليحها بالصواريخ جو/ جو. أما فى الهجوم على أهداف أرضية فيمكن تحميل نقاط التعليق الأربع بالقنابل أو الصواريخ أو كليهما معا طبقا للمهمة التى يكلف بها قائد الطائرة».

«وزير الحربية [أى الفريق فوزى]: إن مدى عمل الميج ٢١م الذى أخطرنا به قد تحقق بعد تجارب عملية قامت بها القوات الجوية من قاعدة غرب القاهرة بحضور مجموعة الوزير، فبدلاً من ٥٥٠كم على ارتفاع منخفض أصبحت ١١٠٠كم، وذلك بعد تركيب ثلاثة خزانات وقود احتياطية. وفى هذه الحالة تبقى نقطتا تعليق فى الجناح للصواريخ فضلاً عن تسليح المدفع الجديد».

«السوفييت: يمكن فى هذه الحالة الوصول بالطائرة إلى التجمعات الرئيسية لطائرات العدو فى عمق إسرائيل بحيث يكون التشكيل الجوى المهاجم مكوناً من طائرات ميج ٢١م محملة بالخزانات الاحتياطية، بالإضافة إلى صاروخين، والمدفع للحماية الجوية، وتغطية باقى التشكيل المهاجم الذى يحمل الخزانات الاحتياطية مع القنابل للقذف الجوى. كما يمكن كأسلوب آخر تحميل الطائرات للهجوم الأرضى بقنابل وصواريخ دون الوقود الاحتياطى، وإتمام القذف الجوى على أهداف العمق فى إسرائيل ثم الهبوط فى المطارات السورية الحليفة. وهذا يحتاج إلى تنسيق فى إدارة هذه العمليات الجوية مع القيادة السورية».

هكذا يتضح لنا بما لايقبل أى شك من نصوص أحاديث السوفييت أنفسهم أنه كان من المستحيل أن تجمع الطائرة ما بين القنابل والصواريخ والوقود الاحتياطى، فإذا كان لابد لها من ذلك فإنها مضطرة إلى أن تلقى بحمولتها من المتفجرات على المواقع الإسرائيلية ثم تلقى بنفسها على الأرض السورية مما يستدعى بالطبع إخطاراً وترتيباً وفقدانا للسرية وتضحية بكل شىء .... إلخ.

وهكذا نجد أن ما ذكره مدكور أبو العز عن هذه النقطة وأمثالها فى مذكراته لم يكن من باب التجنى وإنما كان من باب تقرير الحقائق المطلقة.

(١٣)

وبعد هذا الحوار بين الخبراء السوفييت والوزير ثم الخبراء السوفييت مرة ثانية وهو الحوار الذى أظهر قصوراً واضحاً فى أداء الطائرة نفاجأ بذاكرة الرئيس عبدالناصر التى تفوق ذاكرة وزير الحربية نفسه، وها نحن نرى حديثاً لم يتطرق إليه الفريق فوزى، فالرئيس طموح إلى مدى يصل إلى ٢٢٠٠كم على ارتفاع عال (١٠كم) و٩٥٠ على الارتفاع المنخفض، وهو يذكر أنه وعد بهذا المدى منذ ١١ شهراً عندما كان فى تسخالطبو فى أغسطس ١٩٦٨، ولنتأمل رد السوفييت حسبما يرويه الفريق فوزى:

«الرئيس عبد الناصر: أوضح أن المعلومات التى قالها مساعد مصممى الطائرة الميج (ميكويان) والمهندس (بلياكودين)، والجنرال (كريلين) يوم ١٤/٨/١٩٦٨ فى تسخالطبو أن تحميل الطائرة الميج ٢١م بصاروخين أو ثلاثة خزانات وقود احتياطية تعطى مسافة طيران ٢٢٠٠كم على ارتفاع عال قدره ١٠كم، ومسافة ٩٥٠ على الارتفاع المنخفض ومدى عمل طيران ٥٥٠كم».

«السوفييت: أيدوا الرئيس فى هذه المعلومات وذكروا أن المواصفات المكتوبة مدونة بحرص فى نوتة الاستخدام للطائرة الميج ٢١م، وهى ١٧٥٠كم على ارتفاع ١٠كم، و٩٨٠كم على ارتفاع ٥٠٠ متر».

وإذن فهاهم السوفييت يضطرون أمام ذاكرة الرئيس عبدالناصر إلى الاعتراف.. ولكنهم شأن أى مجموعة فى موقفهم يقفزون بالطبع إلى نقطة أخرى:

«كما أوضح خبراء الطيران السوفييت أن الضرب الأرضى بزاوية انقضاض ٣٠° أو ٤٠° تكون أنسب فى مسرح عمليات الشرق الأوسط عن زاوية الانقضاض التى تستخدمها فى أوروبا الغربية وهى ١٠°، حيث إن ظروف الرؤية عندكم أفضل لإصابة أدق، كما أوضح الخبراء النتائج التى اكتسبوها فى حرب فيتنام فى هذا الموضوع، كذا مدى الخسائر التى تحدث للطائرات من وسائل الدفاع الجوى على الارتفاعات المختلفة».

ويمضى السوفييت فى تصوير الأمور للرئيس عبد الناصر على أنها سهلة نهلة قريبة المنال:

«أما بالنسبة لتجمعات العدو الجوية فى مطارات سيناء فالمهمة سهلة للغاية، إذ أن هذه التجمعات ليست لها مخابئ خرسانية مثل التجمعات الجوية الإسرائيلية فى العمق، وجميع أنواع الطائرات السوفيتية سوخوى ٧ والميج ٢١ والميج ١٧ يمكنها دخول سيناء وتحقيق مهمتها القتالية الدفاعية والهجومية بسهولة، وأصبحت بعد إضافة التعديلات أفضل بكثير».

وربما نفهم من هذا الحوار بسهولة أن السوفييت يحبذون ضرب مواقع العدو القريبة فحسب، ويتحدثون عن سهولة هذا بصرف النظر عن أمل عبدالناصر فى ضرب إسرائيل فى العمق!! بل إنهم يضيفون إلى عناصر المقارنة أن تجمعات العدو فى سيناء ليس لها مخابىء خرسانية مثل التجمعات التى فى العمق!!

(١٤)

وهكذا يدرك القارئ ليوميات الفريق فوزى الواردة فى هذه المذكرات فى سهولة بالغة أن تفصيلات الخطط الجوية والإمكانات والمعدات والاستراتيجيات لم تكن فى تلك المرحلة الحرجة شأناً فنياً يختص به سلاح الطيران فى المقام الأول، ولكنها كانت قد أصبحت شأناً عاماً جداً يتناوله بالنقاش الرئيس الذى هو القائد الأعلى ، ووزير الحربية الذى هو القائد العام، ومستشارون سوفييت هم فى المقام الأول والأخير أصدقاء أجانب، بل يحضرها مع هؤلاء أيضاً السفير السوفيتى وهو بالقطع صاحب وظيفة مدنية إن لم يكن رجلا مدنيا أيضاً يحضر السهرات والمآدب ، ويحضر أيضا هذه المشاورات الاستراتيجية دون أن يحضر من يناظره من وزارة الخارجية المصرية كمدير إدارة الاتحاد السوفيتى فى ديوان الوزارة ولانقول السفير المصرى فى موسكو.

ولست أحب أن أردف فأقول إنه مع مثل هذا التداخل كان قادة وضباط القوات الجوية وغيرهم يمضون ـ رغم أنفهم ـ بتلقائية من حيث لا يدرون إلى سلوكيات

أخرى غير السلوكيات المطلوبة فى الحرب، وهى بالقطع غير السلوكيات التى قادتهم فيما بعد إلى نصر أكتوبر ١٩٧٣، ولنواصل قراءة اللقطات التى يقدمها الفريق فوزى:

■ يوم ٥/٨/ ١٩٦٩ [أى بعد الاجتماع السابق بعشرين يوماً]

«اجتماع الرئيس عبد الناصر فى استراحة المعمورة ضم: وزير الحربية ـ قائدى القوات الجوية والدفاع الجوى، ومن الجانب السوفيتى: السفير ـ كبير المستشارين ـ جنرالات ـ خبراء من القوات الجوية وقوات الدفاع الجوى السوفيتى».

«الرئيس: ذكر واقعة نجاح الميج ٢١ فى إسقاط طائرة ميراج يوم ٢٠/ ٧/ ١٩٦٩، واعتراف إسرائيل بذلك، وأن هذه الواقعة رفعت الروح المعنوية لطيارينا».

«السوفييت: إن موقف القوات الجوية وقوات الدفاع الجوى على ضوء ما رأيناه هو فارق السماء عن الأرض عما رأيناه عام ١٩٦٧».

❑

هكذا كان السوفييت يجيدون استغلال حدث بسيط ليصوروا به الأمور تصويرا يبتعد كثيراً عن الحقيقة، حتى إن الرئيس عبدالناصر نفسه يضطر للرد مباشرة بأن ينبه إلى أنه يريد أن يتحدث بواقعية لا بألفاظ بعيدة عن الواقعية وهو يستخدم لهذا المعنى تعبيراً مصريا طريفا على نحو ما نرى:

«الرئيس: أريد أن نتكلم كعسكريين وليس كدبلوماسيين، وأعلن أمام السفير السوفيتى أنه لا يوجد حل سلمى، ليس لأننا لا نريد(الحل السلمى)، وفى الوقت نفسه (فإننا) لا نريد الحرب للحرب، ولا لقتل أولادنا، ولكن عدونا أمريكا تريد القضاء علينا، كما أن إسرائيل وهى رأس جسر لأمريكا فى المنطقة تريد أن تحقق أهدافها.

[ينبغى أن يلاحظ القارئ هنا صيغة الخطاب الناصرى والعهدة على الراوى الذى هو الفريق فوزى، فالخطاب الناصرى مدرك لأن عدونا أمريكا وأن إسرائيل ليست إلا رأس حربة].

« نحن لا نستطيع قبول حل سلمى نتنازل فيه عن شبر واحد من أراضينا. إننا قد وصلنا إلى موافقات كثيرة بالنسبة لحق إسرائيل فى الحياة. هذا الكلام قلته عام ١٩٦٧، وبرغم قبولنا القرار الأمريكى ـ السوفيتى الأول (يقصد المشروع الأول للقرار ٢٤٢/١٩٦٧) برغم رفض العرب له فإن الأمريكان تراجعوا وقدموا قرارا أسوأ، وقد قبلناه أيضاً ولم تقبله إسرائيل.

الحل السلمى الأمريكى هو استسلام، لا يمكننا وقف إطلاق النيران مع إسرائيل إزاء هذا الوضع. هم يعلنون استعدادهم لإعادة سيناء إلينا بشرط ألا نتدخل فى استعادة الأراضى العربية الأخرى،وهذا يعنى انتهاءنا عربياً، لذلك رفض الاقتراح من جانبنا، لن نستطيع التفريط فى القدس أو أى أرض عربية....» «ثم انتقل الرئيس إلى مناقشة قدرة القوات الجوية وقوات الدفاع الجوى، وقال: «يجب أن نصل إلى تفوق جوى ولو محلياً، وركز على استغلال قدرة الطائرة الميج ٢١ المعدلة بالنسبة لمداها الجديد».

❑

«أما عن إمكانية التعاون والتنسيق مع سوريا فقد قال: «اتفقنا على قيادة موحدة وعمق مشترك مع سوريا (وقعت الاتفاقية يوم ٧/ ٨/ ١٩٦٩).

[ونحن نلاحظ التعقيب المذكور بين القوسين للفريق فوزى وهو ينبئ أن السوفييت أحيطوا علماً بالاتفاقية قبل توقيعها مع السوريين، فنحن الآن حسب يوميات الفريق فوزى لا نزال فى يوم ٥ أغسطس].

«التى تحقق توحيد الجهود العسكرية للقوات الجوية والدفاع الجوى فى كلا البلدين للعمل تحت قيادة واحدة تسمح للطائرات المصرية بالقيام بمهمة عمليات جوية فى عمق إسرائيل ثم الهبوط فى المطارات السورية».

«ثم وجه [أى الرئيس عبدالناصر] الكلام إلى السفير وكبير المستشارين، وقال: «إننى أطلب طائرات وطيارين ليتواجدوا غرب القناة فقط دون أن يتدخلوا أو يعملوا شرقاً».

(١٥)

ويصل بنا الفريق فوزى إلى الموضع الذى يروى فيه آمال الرئيس عبد الناصر التى كان يعلقها على القوات الجوية ، وسنرى أن الرئيس كان يؤمل من القوات الجوية بأكثر مما يقدره قائدها نفسه. وليس فى هذا ـ فى الظاهر ـ ما يؤخذ على الرئيس، فمن واجب الرئيس بالطبع أن يستحث مرءوسيه بأقصى ما يمكن له، ولكن الغريب أن هذه التقديرات والتواريخ تتعارض تماما مع صلب رؤية ورواية الفريق فوزى ومَنْ نقلوا عنه من الناصريين القائل بأن المعركة كانت ستتم فى نهاية ١٩٧٠ لو أن الأجل أمتد بالرئيس عبدالناصر.

على أننا مع هذا لا نستطيع أن نبلع التعبير الذى استخدمه الرئيس عبدالناصر فيما يتعلق بالقوات الجوية وهو بلوغ سن الرشد، وهو تعبير قاس من نواح كثيرة، ولكن لا بأس بأن نأخذه من الرئيس عبدالناصر مأخذ تعبيرات الآباء حين تقال للأبناء الكبار فى حنو وعطف. ولنقرأ هذا النص المهم جدا لفهم مدى صواب دعاوى الفريق فوزى فى مواضع أخرى من مذكراته:

«ثم وجه الرئيس الكلام إلى لواء طيار بغدادى قائد القوات الجوية: «متى ستبلغ القوات الجوية سن الرشد؟»».

«أجاب لواء بغدادى فى نصف عام ١٩٧٠»».

«الرئيس: رأيى أنه فى أول عام ١٩٧٠ يمكن الاعتماد على القوات الجوية حيث يصل عدد الطيارين الممتازين إلى ٣٠٠ طيار، وفى يونية ١٩٧٠ يمكن تحقيق تفوق جوى فوق منطقة القناة يعاون عمليات العبور حتى مسافة معقولة شرقاً، وأنه لا يمكن إتمام عملية العبور دون تفوق جوى.

واستطرد الرئيس فى القول: «لن ندخل أى معركة مع العدو ما لم يكن لدينا تفوق جوى ولو محلى. نتكلم مع السفير عن الحل السياسى، لكن فى الحقيقة لا يوجد حل، والسفير يسمع ذلك. بريجينيف قال ذلك لعلى صبرى وكذلك جريشكو. إذا نجح السياسيون فلا مانع من ذلك ونتمنى لهم النجاح».

وعندئذ ينقل لنا الفريق فوزى تعليقاً ينطق بالحكمة علق به السفير السوفيتى:

«السفير السوفيتى: السياسيون لا ينجحون بدون جيش قوى».

■ يوم ١٠/٨/١٩٦٩ [أى بعد الاجتماع السابق بخمسة أيام]:

«لقاء وزير الحربية مع السفير السوفيتى لتوقيع اتفاقية تسليح معدات حربية قيمتها ٢٣٤٠٠٠٠٠ جك [هكذا فى نص المذكرات] تدفع على سنتين، كان تمويلها من ليبيا، وشملت عربات مدرعة بجنزير، ومعدات وأسلحة للتشكيلات الميكانيكية التى شكلت فيما بعد الاحتياطى التعبوى للجيشين الثانى والثالث».

«وفى المساء كانت مناقشة الرئيس عبدالناصر معى عن مذكرة قدمت من وزارة الحربية عن موقف الطيارين فى القوات الجوية من الناحية العددية حتى آخر عام ١٩٦٩، والموقف فى منتصف عام ١٩٧٠ على أساس معدل طيار ونصف لكل طائرة، ثم قال: «إن هذا الموقف يمثل عنق الزجاجة بالنسبة لاستعداد القوات المسلحة»، ووضع هذا الموضوع فى اعتباره لطرحه فى أول لقاء قمة قادم مع القيادة السوفيتية».

وهنا لا يورد الفريق فوزى شرحاً للمقصود بالطرح مع القادة السوفييت، وإن كان المعنى الظاهر هو طلب الرئيس جمال عبدالناصر على نحو ما أشار فى لقاء ٥أغسطس عدداً (لم يحدده) من طائرات وطيارين ليتواجدوا غرب القناة فقط دون أن يتدخلوا أو يعملوا شرقاً.

ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى روايات الجمسى والشاذلى وعبدالمنعم خليل حول الصورة الأخرى والمكملة التى كان الرئيس السادات يقدمها فى حديثه إلى القادة حين كان يقول إنه لن ينام ولن يتأتى له نوم قبل أن يكون عنده ألف طيار مصرى!! وقد تناولنا هذه الروايات فى الأبواب الثلاثة الأولى من كتابنا «النصر الوحيد».

■ يوم ١٢/٨/١٩٦٩ [أى بعد الاجتماع السابق للوزير والسفير بأقل من ٤٨ ساعة]:

«اجتماع موسع للرئيس عبدالناصر فى مقر القيادة العامة رقم (١) بمدينة نصر ضم: وزير الحربية، رئيس الأركان ، قائد القوات الجوية، قائد الدفاع الجوى، رئيس

هيئة البحوث العسكرية، رئيس هيئة العمليات، رئيس هيئة التنظيم والتسليح، مدير المخابرات الحربية بشأن:

(١) تقييم نشاط القوات المسلحة المصرية عن المدة السابقة.

(٢) مقترحات تخطيط العمل العسكرى المقبل.

(٣) الخطة الزمنية لاستكمال الاستعداد القتالى للقوات الجوية، وقوات الدفاع الجوى».

ونحن نرى الفريق فوزى يكتفى بهذه العناوين الكبرى دون أن يذكر نتائج أو تفاصيل الاجتماع.

■ يوم ١٣/٨/١٩٦٩ [أى فى اليوم التالى مباشرة]:

«استكمال اجتماع أمس فى نفس المكان، والقادة، ولكن عرض الموضوع والمناقشة ركزت على القوات الجوية فقط».

(١٦)

وفى فقرات تالية مكتوبة أيضاً بطريقة اليوميات نرى حرص الفريق فوزى على أن يروى حواراً مهما حول أسباب خسائر سلاح الطيران المصرى، وسنرى مدى شجاعة الطيارين المصريين فى التعبير الدقيق والمهذب عن معتقداتهم وخبراتهم وفهمهم، وسنرى من هذا سر عظمة القوات الجوية وعظمة أدائها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فعلى الرغم من اختلاف تشخيصهم إلا أنهم يناقشون بعقول مفتوحة من أجل الوصول إلى الحقيقة، دون أن يبحثوا عن شماعات للخطأ ودون أن يدافعوا بشوفونية أو تحيز!

■ يوم ١٧/٨/١٩٦٩:

«اجتماع الرئيس عبد الناصر بقيادات تشكيلات القوات الجوية بمقر القيادة العامة للقوات المسلحة رقم (١) بمدينة نصر».

«سأل الرئيس عن السبب فى خسائر الطائرات خلال الفترة السابقة».

«وأجاب مقدم طيار حسن أبو عجوة قائد لواء سوخوى: أن الخسائر بسبب الخطأ الناجم عن عدم اتباع الطيارين لقواعد الانضباط الجوى، وذكر بالتفصيل أكثر من حادث للتدليل على إجابته.

«ثم أبدى الرائد طيار محمد عبدالرحمن قائد لواء سوخوى تشككه فى تسليح السوخوى بالرغم من وجود صواريخ من نوع س٥ك، س٥م، وعدد ٢ مدفع كل ٦٥٠ طلقة/ دقيقة».

«ثم تحول الموضوع إلى مناقشة تسليح الطائرة السوخوى، واختلفت آراء قادة اللواءات الجوية، فطلب الرئيس من لواء مهندس طيار أحمد نوح رئيس المجموعة الفنية إعادة شرح التعديلات الفنية التى أدخلت على الطائرة السوفيتية حديثاً، خاصة فى مدى عمل الطائرات كذا فى التسليح ـ (ذكرتها فى اجتماع الرئيس يوم ١٥/ ٧/ ١٩٦٩) ـ وأضاف لواء نوح أن الاتحاد السوفيتى صمم صواريخ جديدة ذات مقاسات كبيرة من الأنواع شديدة الانفجار والخارقة للدروع تركب على حمالات جديدة بالطائرات لحمل أعداد كبيرة من الصواريخ كحل تبادلى للقنابل. وأكد أن الكفاءة القتالية لطائرات الميج ٢١ المعدلة، والسوخوى ٧ بعد التعديل، قد زادت فى مدى العمل والتسليح إلى الضعف، كما تضاعف تسليح الميج ١٧ أيضا».

«مقدم طيار حسن أبو عجوة [قائد لواء سوخوى]: الطائرة بهذا التعديل تكون مناسبة».

«مقدم طيار على زين [قائد لواء ميج ٢١م]: النقيب طيار أحمد شريف اشتبك ست مرات مع الميراج وأسقط ثلاثا منها».

وعند هذا الحد يتركنا الفريق فوزى دون أن يصرح برأيه هو فى مناقشات قادة ألوية القوات الجوية.. هل كانت الخسائر بسبب الخطأ الناجم عن عدم اتباع الطيارين لقواعد الانضباط الجوى أم بسبب قصور فى تسليح السوخوى؟ أم لأن المدى كان أكبر بكثير مما يمكن للطائرات السوفيتية أن تحققه وتعود منه، وهى حقيقة تجاهلها الفريق فوزى هنا ونحن لا نخرج من مثل هذه القراءة إلا بالتعاطف الشديد مع

القوات الجوية التى عاشت فى ذلك الوقت كل هذه البلبلة فى حلقة مفرغة على الرغم من مشاركة الرئيس القائد الأعلى بنفسه فى هذه الاجتماعات وعلى الرغم من أن رجالها كما رأينا لم يبخلوا بكل مستلزمات التشخيص الدقيق.

(١٧)

وتنبئنا مناقشات الرئيس عبد الناصر مع القادة السوفييت عن مدى عنايته البالغة بسياسات التسليح وتطوير هذه السياسات.

■ يوم ٣٠/ ٨/ ١٩٦٩:

«اجتماع للرئيس عبد الناصر بمنزله بمنشية البكرى ضم: وزير الحربية ـ لواء أحمد نوح ـ قائد القوات الجوية ومعه رئيس الفرع الفنى بالقوات الجوية، ومن الجانب السوفيتى: السفير ـ كبير المستشارين ـ مهندس بيلاكوف مساعد ميكوبان مصمم الميج والجنرال كيرلين والجنرال متشاروف، وكان الموضوع هو موقف الطائرة الميج ٢١ المعدلة».

«الرئيس جمال عبدالناصر: فى اجتماعاتى مع قادة القوات الجوية شعرت أن ثقة الطيارين فى الطائرة الميج ٢١م أصبحت كاملة، وهم يطلبون المزيد منها، وقالوا إنها أفضل من الميراج، لكنهم مازالوا يتشككون فى مدى عمل الطائرة».

«السوفييت: قد تمت تجارب عملية بواسطة الطيار السوفيتى ماسلوف والطيار المصرى عصام [لايذكر الفريق فوزى لقبه أو بقية اسمه]، وحملت الطائرة الميج ٢١م بمختلف طرق التحميل الجوى، كذا من أجل الهجوم الأرضى بالقنابل والصواريخ، وجربت على مختلف طرق الاقتراب المنخفض، كذا المنخفض المرتفع، كذا المرتفع، وكانت النتائج العملية مطابقة للمواصفات المكتوبة لدى الأسراب الجوية عن هذه الطائرة. المهم هو تخصيص المهمة ثم يتم على أثرها تجهيز الطائرة بالتحميل والوقود المناسبين لأداء هذه المهمة، لا تكلف الطائرة بأكثر من واجب

واحد فى المهمة الواحدة، بمعنى تخصيص طائرات للهجوم الأرضى، وأخرى للتغطية والحماية الجوية».

هنا يبدأ السوفييت كما يتضح من رواية الفريق فوزى محاولة لإثناء القيادات المصرية فى ذلك الوقت عن أسلوب قديم يحرص على تعدد الأهداف أو يتصور إمكان هذا التعدد [وهو ما انتقدناه نحن فى حديث الفريق فوزى عن القوات الجوية فى يوم ٥ يونيو]، والسوفييت يوضحون أن الطائرة أصبحت صالحة لأهداف كثيرة وجربت على كل هذه الأهداف بواسطة طيار مصرى وآخر سوفيتى، لكنهم ينبهون إلى أهمية ألا تكلف الطائرة بأكثر من واجب واحد فى المهمة الواحدة، وأن تجهز الطائرة بالتحميل والوقود المناسب لكل مهمة ويبدو أن هذا كان كل ما فى الإمكان من أجل التغلب على القصور الذى تعانى منه الطائرات السوفيتية فيما يتعلق بمدى عملها. ولكننا مع هذا لا نستطيع الجزم فإن النص المتاح لنا كما يرى القارىء لا يتضمن أرقاماً ولا أية معلومات رقمية.

وعند هذا الحد يعترف الرئيس عبد الناصر للسوفييت بنجاحهم فى هذه المهمة:

«الرئيس: إن مهمتكم التى قمتم بها فى تنفيذ التعديلات الفنية فى الطائرات القاذفة المقاتلة قد نجحت تماماً، وظهر لى ذلك بعد مناقشة الطيارين المصريين عن قدرة الطائرة قبل وبعد تنفيذ التعديلات».

❑

ثم يبدأ السوفييت فى الحديث عن الطائرة الأخرى وهى السوخوى، لكنهم سرعان ما يعودون إلى التغزل فى الميج بعد التعديل:

«السوفييت: بالنسبة للطائرة السوخوى تمت تجارب عملية مع الطيار سيد كامل، وثبت أن البيانات عن قدرة الطائرة فى المدى وفى التسليح مطابقة للواقع العملى. أما بالنسبة للطائرة الميج ٢١ فإن كفاءتها فى المناورة أفضل من الفانتوم، وكانت دائماً فى وضع مناسب داخلى [هكذا فى النص ولست أفهم المراد] للفانتوم فى القتال الجوى، وبذا كانت لها السيطرة دائماً، وظهر ذلك بوضوح فى حرب فيتنام، وكانت مشكلة الميج ٢١ هى عدم إمكانها استخدام صواريخها جو/ جو، لذا تم تركيب

مدفع داخل جسم الطائرة عند تصميم التعديلات الأخيرة. ولقد حصل الأمريكيون على الطائرة الميج ٢١ واختبروها، فقالوا إنها تفوق جميع الطائرات الأمريكية فى العمل الجوى على ارتفاع ٧كم فما فوق، لكنها تحت ٧كم تتساوى معها».

(١٨)

والشاهد أن الفريق محمد فوزى يرى أن هذا الحد من النجاح يكفيه للتوقف والفخر وهو يتحدث عن رؤيته هو نفسه لهذا النجاح فى القوات الجوية التى هى فى رأيه أهم عنصر قتالى فى قواتنا المسلحة فنجده يصف ما أنجز بصفات أكبر بكثير جداً مما أشار إلى نعته هو بالفعل، وليس من الرحمة أن نتناول كل ألفاظه فى الفقرات التالية بالتفنيد ولكن يكفينا أن نشير إلى أنه يعطى لنفسه ولفترته الحق فى إنجازات لم تكن بهذا الحجم الذى يصوره بعباراته الإنشائية، وبخاصة أننا انتهينا لتونا من قراءة حديثه هو المفصل وليس حديث أحد آخر عن إنجازاته، ولست بحاجة إلى أن أذكر القارىء أن الأمر فى هذا شبيه بحديث الطالب عن الجهد الذى بذله فى الامتحان بينما لا يعتمد التقييم على وصف الطالب لإجابته وإنما على حظ هذه الإجابة نفسها من الصواب والتوفيق.

وفى جميع الأحوال فلابد أن نقرأ العبارات التى يبلور الفريق فوزى بها رؤيته لإنجازاته وإن كان ذكاؤه يحرص على أن يضع اسم الرئيس عبدالناصر فى مقدمة الحديث:

«نجحت خطة تركيز الرئيس جمال عبدالناصر القائد الأعلى للقوات المسلحة على أهم عنصر قتالى فى قواتنا المسلحة وهو القوات الجوية، الأمر الذى مكن من رفع ثقة الطيارين المصريين فى استغلال التطوير الفنى فى المدى وفى التسليح وفى المناورة، والذى تم بالتعاون بين المجموعة الفنية المصرية لشئون الطيران ومصممى الطائرات السوفيتية الذين حضروا إلى مسرح عملياتنا للتأكد من التطبيق الميدانى لهذه التعديلات».

«وكانت حصيلة الاجتماعات واللقاءات المكثفة لكل الأطراف المعنية فى هذا الشأن سواء السياسية أو العسكرية، أو لقاءات المختصين فى شئون تسليح الطائرات (تصميم أو تصنيع) وعلى جميع المستويات الميدانية حتى قادة اللواءات قد أثمرت الآتى:

١ ـ قرار القيادة السياسية المصرية بعدم دخول المعركة دون تفوق جوى ولو محلى فى منطقة العمليات المقبلة».

٢ ـ الاستجابة السريعة والفعالة من القيادة السوفيتية لإمدادنا بالآتى:

أ ـ تطبيق المطالب الفنية وليدة الخبرة القتالية الجوية إلى تصميمات عملية فى الطائرات السوفيتية الميج ٢١م ـ الميج ١٧ ـ السوخوى ٧ لرفع كفاءتها القتالية فى المدى وفى التسليح وفى المناورة بحيث تغطى مطالب العمليات الحالية والمقبلة فى مسرح عملياتنا.

ب ـ تزويدنا بالمعلومات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية عن مسرح عمليات العدو (إسرائيل) بصفة مستمرة من صور القمر الصناعى السوفيتى.

جـ ـ تزويدنا بخبرة حرب فيتنام، خاصة فى مجال الطيران والدفاع الجوى.

د ـ تمكين طيارينا من الاشتراك فى العمليات الاستطلاعية الاستراتيجية لمسرح عملياتنا.

٣ ـ وضوح مدى الاهتمام برفع كفاءة طائرات القوات الجوية المصرية لتحقيق المهام القتالية بعد إضافة التعديلات الفنية ونجاح التجارب العملية المشتركة بين السوفييت والمصريين من أجل:

أ ـ ضمان فاعلية القوات الجوية فى الدفاع الجوى (سواء لتغطية وحماية الطائرات الهجومية، أو للتفوق الجوى فى مسرح العمليات المنتظر) خاصة فى مرحلة العبور.

ب ـ ضرب تجمعات العدو وأهدافه الحيوية فى العمق مع التغطية والحماية الجوية (سواء من الجبهة المصرية منفردة أو بالتنسيق مع سوريا).

٤ ـ إقناع القيادات المقاتلة فى القوات الجوية شخصياً بكفاءة وقدرة الطائرات واكتسابهم الثقة بها فى:

أ ـ إمكانية العمل الجوى بكفاءة وسهولة فى منطقة سيناء.

ب ـ إمكانية العمل الهجومى بكفاءة على أهداف إسرائيل فى العمق.

جـ ـ إمكانية تنفيذ أعمال الوقاية والحماية الجوية للتشكيلات الهجومية فى العمق الإسرائيلى.

٥ ـ ارتفاع كفاءة الطائرة الميج ٢١م إلى الضعف من حيث المدى أو التسليح، فضلاً عن مرونتها فى الاستخدام لقدرتها على تنويع المهام القتالية فى العمليات الدفاعية أو الهجومية».

وعلى الرغم من هذا كله فإن التقييم الظاهرى لهذه الرؤية لا يرتفع بها إلى مستوى ما تحقق بالفعل على يد القوات الجوية فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، والسبب واضح جداً وهو أن للنجاح سرا يظل من حق النجاح وحده، على حين يبقى فى إطار الأحاديث الزائفة أو الأمانى الجميلة كل حديث من أحاديث الجنرالات القدامى (سواء جنرالات الحرب أو جنرالات المقاهى) عن الخطط التى أدت إلى النجاح مهتدين فيها بما تحقق بالفعل فى النصر أو النجاح. ولا يستطيع القارىء أن ينكر أن حديث الفريق فوزى فى الفقرات السابقة يستهدى النجاح الذى تحقق فى نصر ٦ أكتوبر ويحاول أن يصوغ منه «تفصيلة» أو «باترونا» بلغة التفصيل، يزعم لنفسه أنه حققها منذ نهاية الستينيات! ومع هذا يبدو تكلف الفريق فوزى واضحاً من ناحية ومن ناحية أخرى تبدو «تفصيلته» ـ أو «باترونه» ـ غير كفيلة بتحقيق النصر الذى تحقق بالفعل لسبب جوهرى وهو أن الفريق فوزى كان أبعد ما يكون عن أن يفهم سر النجاح والنصر فى أكتوبر ١٩٧٣، وعقيدتى أنه عاش طول حياته بعد ١٩٧٣ غير قادر على الوصول إلى هذا السر.

(١٩)

وتنفرد هذه المذكرات بتقديم رواية مفصلة عن زيارة الرئيس السادات الأولى للاتحاد السوفيتى بعد توليه رئاسة الجمهورية، وقد كانت كما نعلم زيارة سرية،

وكان الفريق أول محمد فوزى أبرز مرافقى السادات فيها، وقد حرص السادات على أن يصحب شعراوى جمعة معه فيها لسبب ربما لا نعرفه حتى الآن.

وفى هذه الزيارة حدثت مشكلات سوء تفاهم بين السادات والقادة السوفييت ، يوردها الفريق فوزى من وجهة نظره هو، وهى وجهة نظر جديرة بالاعتبار نظراً لمكانته فى ذلك الوقت، فقد كان هو وشعراوى جمعة أحد أربعة نواب لرئيس الوزراء الدكتور محمود فوزى، الذى لم يعلم ولم يخطر بأمر هذه الزيارة (كان النائبان الآخران هما عزيز صدقى وسيد مرعى)، ولكن الأهم من مكانة محمد فوزى وقتها هو مدى مسئوليته ، ذلك أنه إذا كان هناك مدان فى رواية الفريق فوزى فإنه هو فوزى نفسه الذى لم يجهز الأمور مع نظرائه من السوفييت من ناحية، ومع رئيسه من ناحية أخرى على النحو الكفيل بعدم نشوء مثل هذا الخلاف الحاد، وربما أن الأمور لم تكن قد جرت على هذا النحو الذى صوره فوزى، ولكن لو أن ما رواه صاحب هذه المذكرات هو الحقيقة، فإننى أعتقد أنه هو دون غيره ـ من القادة السوفييت أو السادات ـ هو الملوم، ولنقرأ ما يرويه:

«سافر الوفد المصرى برئاسة الرئيس أنور السادات، وعضوية شعراوى جمعة وأنا، وانضم إلينا السفير مراد غالب فى موسكو، فى رحلة لم يعلن عنها، ورافق الوفد كل من السفير السوفيتى وكبير المستشارين فى القاهرة، تم لقاء قمة يومى ١ و٢ مارس ١٩٧١، وكانت هذه أول زيارة يقوم بها الرئيس السادات للاتحاد السوفيتى بوصفه رئيساً للجمهورية».

«ركز الرئيس فى هذا اللقاء على استمرار الدعم العسكرى، خاصة فى الأسلحة والمعدات الفنية الحديثة، وخص بالذكر سلاح الردع قاصداً الطائرات القاذفة الصاروخية الثقيلة. وكان الرئيس يرى أن حجم الدعم ونوعيته يجب أن يكونا بكثافة أكبر مما كان يرسله الاتحاد السوفيتى فى عهد الرئيس الراحل عبدالناصر، وأنه إذا لم تنجح الحلول السلمية ـ وكان الرئيس قد تقدم بمشروعه عن الحل الجزئى، وإعادة فتح قناة السويس منذ ٤/ ٢/ ١٩٧١ ـ تكون مصر مستعدة لمعركة تحرير الأرض. وانتهت الجلسة الأولى التى استغرقت ثلاث ساعات فى طلبات الرئيس السادات، وعرض موقف مصر، واستفسار قادة الاتحاد السوفيتى عن بعض إيضاحات حول مبادرة الرئيس السلمية».

(٢٠)

ونأتى إلى الجلسة التى شهدت الخلاف الحاد بين الرئيس السادات والقادة السوفييت، ومع كل ما يتذرع به الفريق فوزى فى نقد الرئيس السادات من الحاجة إلى السوفييت وإلى طائراتهم، فإن موقف الرئيس السادات يظل مستحقاً للتقدير والإعجاب بل والتغزل فى وطنيته واستقلالية قراره وحرصه على وضوح الخطوط الفاصلة بين استقلال الإرادة والوطن من ناحية، والتبعية المهينة وغير المجدية من ناحية أخرى، ولو لم يكن للرئيس السادات فى تاريخه العسكرى والسياسى غير هذا الموقف الذى لم يع الفريق فوزى حدوده حتى وقت كتابته لمذكراته لكفاه، ويبدو أن أحداً من الذين قرأوا مذكرات الفريق فوزى أشار عليه أن يستدرك الموقف فيشير إلى أن السادات لم يكن يصدر فى موقفه هذا عن وطنية، وإنما كان يناور ويضغط على السوفييت، ومع أن هذا لايبدو متسقا أبداً مع السياق الذى روى به الفريق فوزى الواقعة قبل أن يصل لها حواره مع السادات حول عنصر الضغط.. إلا أن هذا لا يقلل أبداً من قيمة موقف السادات.

وعلى كل الأحوال فلنقرأ هذه الرواية المثيرة:

«وبدأت الجلسة الثانية باستجابة الاتحاد السوفيتى لطلبات الدعم العسكرى، التى كان قد ناقشها ودرسها منذ اللقاء السابق فى ديسمبر ١٩٧٠، وأرسل جزءاً كبيراً منها إلى مصر.

وبدأ الرئيس بريجينيف يقرأ قرار القيادة السوفيتية سارداً تفصيلات الدعم العسكرى الجديد، وعندما وصل فى قراراته إلى تمركز الطائرات القاذفة الصاروخية بعيدة المدى فى مصر، قال: «على أن توضع تحت القيادة العسكرية المصرية وتنسق عملياتها القتالية عن طريق كبير المستشارين السوفييت فى مصر».

وهنا قاطع الرئيس السادات معترضاً على أسلوب التنسيق، وتوقف الرئيس بريجينيف عن قراءة باقى القرارات، وانقلبت الجلسة إلى مناقشة حادة وجدل بين السادات وبريجينيف، ثم بين السادات وكوسيجين، وأخيرا بين السادات وجريشكو الذى وجه إليه الرئيس السادات سؤالاً: «يامارشال جريشكو إذا جاء عدوكم

وضرب قريتك ماذا تعمل؟» فرد عليه المارشال جريشكو: «قريتى ياسيادة الرئيس لاتزيد على ٥٠٠ فرد ولا تعنى شيئاً بالنسبة للاتحاد السوفيتى»، وكان المترجم السوفيتى الذى حضر هذه المناقشة الحادة والسريعة لم يتمكن من ملاحقة كل ما صدر عن المتكلمين.

واكفهر جو قاعة المباحثات وانتهت هذه الجلسة بكلمة أخيرة من الرئيس السادات: «أنا معترض»، ولم يستكمل الرئيس بريجنيف قراءة باقى القرارات التى تصدق عليها كدعم عسكرى جديد لمصر.

خرج أعضاء الوفدين من قاعة المباحثات إلى غرفة الملابس لارتداء المعاطف تمهيداً لمغادرة الكرملين إلى المطار، وهنا أخطر الرئيس السادات الرئيس بريجنيف برغبته فى عدم تمركز الطائرات القاذفة الصاروخية بعيدة المدى فى ج. ع. م، فرد عليه بريجنيف: «حسب رغبتك».

وأخطر بريجنيف فى نفس اللحظة زملاءه كوسيجين وبدجورنى وجريشكو برغبة الرئيس السادات، حدث ذلك فى ركن بغرفة الملابس، ولفت نظرى آخر مشهد من مشاهد هذا الحدث عندما أشار جريشكو إلى كل من السفير السوفيتى وكبير المستشارين السوفييت، فاقتربا منه وأعاد عليهما القرار الأخير للرئيس السادات برفض تمركز الطائرات القاذفة الثقيلة فى مصر».

(٢١)

والحاصل أننا عند وصولنا إلى هذه النقطة لا نملك إلا أن نعجب من أن الجانب المصرى فى غرفة الملابس قد اقتصر على الرئيس السادات وحده بينما كان هناك من القادة السوفييت ستة على الأقل هم: بريجنيف، وكوسيجن، وبدجورنى، وجريشكو، والسفير، وكبير المستشارين فضلاً عن المترجم، بينما آثر الفريق فوزى وبقية الجانب المصرى الابتعاد عن غرفة الملابس حيث جرت بقية المباحثات أو أهم

جزء فيها على نحو ما يروى الفريق فوزى نفسه. ولسنا نريد أن نقول إن الفريق فوزى أراد تجنيب زملائه من الوفد المصرى المسئولية عن قرار السادات كما أننا لا نريد أن نقول إن الوفد المصرى لم يكن بحاجة إلى غرفة الملابس لأنه كان يحتفظ بالمعاطف الثقيلة داخل غرفة الاجتماعات على حين كان السادات وحده يترك المعطف مع معاطف القادة السوفييت فى غرفة الملابس.

❑

ونحن نفضل أسلوبنا فى تصديق ما يقصه علينا أصحاب المذكرات وسنمضى مع الفريق فوزى فى روايته لنكتشف أنه حسبما يروى فى الفقرة التالية لم يعرف بهذا إلا فى المطار(!!) ثم فى الطائرة (!!) ونحن لا نفهم من هذا إلا أن الفريق فوزى كان حريصاً قدر ما يمكنه الحرص على أن يكون دوره هامشياً إلى أبعد الحدود:

«ترك أعضاء الوفدين الكرملين إلى المطار رأساً، وخلال إجراءات التوديع الرسمى اقترب منى المارشال جريشكو ومعه المترجم، وقال لى ما قرره السادات بعدم تمركز الطائرات القاذفة الثقيلة فى مصر، ثم استطرد وقال: «لا تنتظر منى إرسال الطائرات إليكم». فانزعجت لقول جريشكو وطلبت إيضاحاً لذلك، فذكر لى أن هذا القرار صدر فى غرفة الملابس بين قادة الوفدين».

«أثناء العودة بالطائرة سألت السفير السوفيتى وكبير المستشارين عن هذا الحديث الذى تم فى غرفة الملابس وإخطار المارشال جريشكو لى بالمطار، فأكد لى ما حدث بين الرئيس السادات وبين بريجينيف، وبذا انتهى لقاء القمة المصرية ـ السوفيتية بنتيجة مؤسفة ومؤثرة للغاية على العلاقات، وعلى المعركة أيضاً. وسجل السوفييت لقاء القمة ـ فى أول مارس ١٩٧١ فى موسكو ـ أنه «لقاء بداية فقد الثقة والتشكك» كما توقعت قبل ذلك».

هكذا برأ فوزى نفسه أمام نفسه من هذه النهاية المؤسفة أو النتيجة المؤسفة على حد تعبيره عن العلاقات بين البلدين ، ولكن هل نستطيع حقا أن نقتنع بوجهة نظره؟!.

ثم ها هو الفريق فوزى يروى ما هو أصعب علينا من هذا كله، وهو عدم فهمه التام ولا الجزئى لسياسات رئيسه ويبدو لى أن مستوى الفارق فى معامل الذكاء بين الرجلين لم يكن ليسمح لهما بالتعاون على مستوى قيادة قوات مسلحة محاربة، وفضلاً عن الفارق فى معامل الذكاء، فإن الفريق فوزى كان يصدق السادات حين يقدمه السادات على نفسه وحين يبدو أمامه وكأنه يقدم له التبريرات على سلوكه، وقد تمادى الفريق فوزى فى هذا التصديق حتى وصل إلى مراحل حرجة من تصوره للعلاقة بينه وبين رئيسه، ونحن فى مواقع عملنا المختلفة نرى هذا النموذج كثيراً، ولا نستطيع أبداً أن ننتقد المرءوس، لأن تصوراته على حسب ما يعبر علم النفس تطغى على بصيرته حتى تكاد هذه تتلاشى، ولو أن الفريق فوزى لم يخرج مع الخارجين فى ١٥ مايو ١٩٧١ فإنه كان مرشحًا بالطبع والقطع للخروج قبل ١٥ يونيو التالى، فلا هو يستوعب السادات من ناحية، ولا هو مدرك من ناحية أخرى أن السادات نفسه يستوعبه تماما.

«وفى أول لقاء مع الرئيس السادات أظهرت انزعاجى مما حدث بين الرئيسين فى موسكو، فرد علىّ بقوله: «لا تنزعج إنه أسلوب ضغط على الاتحاد السوفيتى» [هكذا يورد فوزى وجهة نظر السادات بإيجاز مخل]، وأخطرت الرئيس بأننى تحصلت على كل قرارات الدعم العسكرى الذى وافقت عليه القيادة السوفيتية والذى لم يستكمل قراءته بريجنيف فى جلسة ٢ مارس ١٩٧١، وأنه يحقق كل ما طلبته [لاحظ أن الضمير لفوزى وليس لمصر] من الاتحاد السوفيتى عدا الطائرات القاذفة الصاروخية الثقيلة، فطلب منى إيداع نسخة منه فى مكتبه برئاسة الجمهورية. وعندما طلبت من الرئيس توجيهات القائد الأعلى لبدء الاستعداد لمعركة تحرير الأرض ـ خاصة أن انتهاء فترة الشهر الذى حدده الرئيس كمهلة أخيرة فى مبادرته السلمية فى فبراير تنتهى فى ٧/ ٣/ ١٩٧١ ـ أجابنى بإرجاء ذلك إلى لقاء قريب يحدد فيه توجيهاته وتوقيتات الاستعداد للمعركة».

«وانتقلت [يقصد شاعت] فى دوائر القيادات السياسية والعسكرية قصة الحدث المثير عن رفض الرئيس السادات تمركز الطائرات القاذفة الصاروخية الثقيلة كطائرة ردع بعيدة المدى فى مصر، وكانت ردود الفعل عكسية بالنسبة للمعركة».

ربما لا نفهم - الآن - معنى قول صاحب المذكرات كانت ردود الفعل عكسية بالنسبة للمعركة!! ربما هو يقصد كانت ردود الفعل عند الساسة المصريين من أمثاله أن مثل هذا القرار ستكون له ردود فعل عكسية بالنسبة للمعركة، لأنه سيحرمنا من سلاح مطلوب..

ولكننا نلاحظ هنا أن الفريق فوزى يتجنى بشدة على السادات، فالسادات لم يرفض تمركز الطائرات فى مصر كما يصور فوزى فى هذه الفقرة، لكنه رفض - كما صور فوزى نفسه فى فقرة سابقة - أسلوب التنسيق المقترح أن يكون عن طريق كبير المستشارين السوفييت فى مصر.. وقد كان السادات يضغط من ناحية على السوفييت، ويزايد من ناحية أخرى على مناوئيه (للمستقبل)، ولكن صاحب هذه المذكرات لا ينصف السادات ولا نفسه ويظهر نفسه كما لو أنه لم يفهم، ومع هذا فهو يردف بتفصيلات مهمة يشرح فيها وجهة نظر السوفييت ، وهو الذى لم يشرح وجهة نظر رئيسه ويقول:

«كانت القيادة السوفيتية قد استجابت لطلب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر دعم (ج. ع. م) بطائرة ردع قاذفة صاروخية من طراز «ت. ى. ١٦» فى لقاء القمة فى يناير ١٩٧٠ بدلاً من الطائرة القاذفة المقاتلة ميج ٢٣ التى لم يكن الاتحاد السوفيتى قد اختبرها واستخدمها ميدانياً حتى ذلك الوقت. وفى لقاء قمة يوليو ١٩٧٠ تحدد عدد الطائرات القاذفة الصاروخية المخصصة لـ(ج. ع. م)».

❑

ربما نتوقف هنا لنلاحظ حرص الفريق فوزى الشديد مرة بعد أخرى فى الفقرة السابقة على استخدام الاختصار (ج. ع. م) الذى يدل على اسم وطننا فى ذلك الوقت: (الجمهورية العربية المتحدة) للدلالة على مصر وكأنه لايطيق أن يعترف بالاسم الذى أعاده أنور السادات إلى وطنه.

«ونظراً لقوة تـأثير هذه الطائرة علـى تدمير الأهداف المعادية بـعيدة المدى، ولأن قدراتهـا لردع العدو كبـيرة، فإن دعم (ج. ع. م) [هكذا يـكرر الفريق فـوزى] بهذه الطائرة سوف يؤدى إلى مضاعفات دولية، حـيث إنه إذا تمركزت هذه الطائرة القاذفة الصـاروخية فى مـصر لمدة طويـلة بدون استـخدامها فـى القتال فـسوف يعطـى هذا الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية لدعـم إسرائيل بسلاح مضاد، وهكذا نفتح باب التسابق فى التسليح للحفاظ على ميـزان القوى فى المنطقة. وكانت معلومات القيادة العـسكرية الـسوفيـتية تفـيد بأن الـولايات المتحـدة سوف تدعـم إسرائيل بـصاروخ أرض/ أرض طويـل المدى مـن نوع «لانـس» مقابـل دعم (ج. ع. م) [هـكذا يـكرر الفريق فوزى] بالطائرة الصاروخية».

وفى هامش الكتاب يحرص الفريق فوزى على أن يعلق على كل هذا بقوله:

«ومن الـطريف أن أقرأ عـنواناً ضخـماً فى جريـدة الأهرام خلال أكتـوبر ١٩٧٣ أن المدفعية الـصاروخية طويلة المدى «لانـس» وصلت إلى إسرائيل دعمـاً من الولايات المتحدة، فقلت لزملائى المحبوسين معى فى مستشفى المعادى العسكرى إن الطائرات القـاذفة الصـاروخية لابـد أن تكون قـد وصلت إلـى مصر، وثـبت أن تعـليقـى كان صحيحاً».

وإذا كان الأمـر على هـذا النحـو الذى يرويـه الفريـق فوزى أفلـم يكن مـن حق القارىء عليه أن يـروى له كيف حصل السادات على الـطائرة (ت. ى. ١٦) وكيف استطاع الحصول عليها بدون الفريق فوزى؟ وهـل حقق السادات للسوفيت رغبتهم التى لـم يوافق عليها أثناء زيارته لموسكو، أم أن السوفييت هم الذين لاينوا السادات.

(٢٣)

والشاهد أن الـفريق فوزى ينسب ـ فى هـذه المذكرات ـ إلى الرئيس عبـد الناصر موافقته على هذا الوضع الاستثنائى للطائـرة المتمركزة فى مصر والمتحركة بتنسيق مع السوفييت :

«واقتنع الرئيس عبدالناصر بتقرير القيادة العسكرية السوفيتية، واتفق الزعيمان على إجراءات تمركز الطائرات القاذفة الصاروخية مؤقتا فى (ج. ع. م) على أن تكون جاهزة فى قواعدها فى مصر والسودان بالمعدات الفنية، واللاسلكية، والرادارية، والذخيرة، وصواريخ الطائرة، وقطع الغيار، والأطقم الفنية والإدارة. كما اتفق الزعيمان على تكليف المارشال جريشكو وأنا لتجهيز خطط العمليات الجوية وإدارتها لقوة لواء كامل مع الأخذ فى الاعتبار بجوانب أمن هذه الطائرة، والاحتفاظ بسرية هذا الاتفاق».

❏

كذلك ينسب الفريق فوزى إلى الرئيس عبد الناصر اقتناعه وموافقته على وجود طائرة صاروخية قاذفة فى أرض مصر على أن تكون تبعيتها من ناحية القيادة والسيطرة والعمليات لقائد القوات الجوية مباشرة مع كبير المستشارين. ويردف الفريق فوزى هذا بزعم خطير أو بتصريح خطير يقول فيه إن هذا ما كان يتم فى قوات الدفاع الجوى تماماً، وهذه هى فقرته:

«وفى شهر أغسطس ١٩٧٠ انتهيت من تجهيز القاعدتين الجويتين، وأخطرت المارشال جريشكو، وبدأت المعدات الفنية وصواريخ هذه الطائرة التى يصل وزن رأسها المدمر إلى طن واحد، ومعدات التوجيه، وأجهزة الاتصال، والأفراد تتوافد بالتدريج وبسرية - إلى هاتين القاعدتين، وعين قائد مصرى فى كل منهما للواجبات الأمنية والإدارية فقط. وكانت تبعيتهما من ناحية القيادة والسيطرة والعمليات لقائد القوات الجوية مباشرة مع السوفييت وفى الإدارة والعمليات مع كبير المستشارين مثلما يتم فى قوات الدفاع الجوى تماماً، علماً بأن هذه الطائرة يمكنها إصابة أهدافها دون اقتراب الطائرة ذاتها بمسافة ١٥٠ - ٢٠٠ كم».

«وبعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر، أخطرت الرئيس السادات بالاتفاقات التى تمت بين القيادة السوفيتية وبين الرئيس عبدالناصر عن هذه الطائرة الصاروخية، كما شرحت له مميزات وقيود هذه الطائرة، وأنها ستخصص للردع لأهداف اتفقت عليها مع المارشال جريشكو، كما بينت للرئيس أسلوب عمل هذه الطائرة وإدارة عملياتها حسب التخطيط الذى اتفق عليه».

«كما استجاب الاتحاد السوفيتى لطلبنا بتدريب أطقم مصرية على هذه الطائرة فى الاتحاد السوفيتى، وظلت القيادة السوفيتية ملتزمة بالاتفاق السابق مع الرئيس الراحل عبد الناصر على أن يكون تمركز الطائرات فى مصر، مع تأكيدهم أن الطائرات القاذفة الصاروخية ستكون تحت طلب القيادة المصرية بعد ٦ ساعات من طلبها».

(٢٤)

لعلنا نقف بعد قراءتنا للفقرة السابقة لنسجل على الفريق فوزى تواكله على أصدقائنا السوفييت وظنه الحسن أنهم قد يسعفونه بعد ٦ ساعات من طلب الطائرة، ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن هذا الرجل الذى عانى كل هذه المعاناة فى الفترة الماضية على نحو ما روى هو نفسه، وكأنه لايتعظ من تجربته الشخصية.

«وتبين لى بعد هذا اللقاء [أذكر القارئ أننا مازلنا فى حديث الفريق فوزى عن لقاء القمة الأول بين الرئيس السادات والقيادة السوفيتية] أن القيادة السوفيتية فضلت الانتظار، ومتابعة موقف واتجاه القيادة السياسية الجديدة، وتصرفاتها فى المحيط الدولى والداخلى إزاء تحقيق الهدف الاستراتيجى لمصر ـ إزالة آثار العدوان ـ وما إذا كان بطريق الحل السلمى أم بطريق القتال، ولم تكن الأشهر الثلاثة التى انقضت لرئاسة أنور السادات كافية لإيضاح اتجاهاته الحقيقية للقيادة السوفيتية».

❑

هكذا كان السوفييت على حد رواية الفريق فوزى يضعون القيادة المصرية تحت الميكروسكوب أو تحت التجربة، بينما يظن الفريق فوزى أن بإمكانه الحصول على القاذفة المقاتلة فى ٦ ساعات، وهو يفكر فى المسألة للأسف الشديد كالذى يطلب طعام الغداء من المطاعم التى تقدم خدمة التوصيل للمنازل.. ومع هذا فقد استطاع السادات فيما يبدو إقناع السوفييت والنجاح المبدئى فى الامتحان، وذلك على نحو ما يرويه الفريق فوزى حيث يقول فى منتهى الوضوح:

«وعندما أظهر الرئيس السادات التزامه بالمعركة للقادة السوفييت فى لقاء أول مارس، تجاوب الاتحاد السوفيتى ووافق على تمركز الطائرات فى مصر حسب الأسلوب والاتفاق الذى كان مبرماً مع الرئيس الراحل عبدالناصر، مع علم القيادة السوفيتية أن الرئيس السادات قدم مبادرته السلمية منذ شهر واحد مظهراً فيها استعداده لسلوك سبيل الحلول السلمية، ومبتعداً عن المعركة».

لا أستطيع أن أمضى مع مذكرات الفريق فوزى دون أن أبدى أسفى من أن صاحب المذكرات يصور الأمور كما لو كنا نتحرك بأمر السوفييت فالسادات يظهر الالتزام بالمعركة [أمام أسياده] فيتجاوب [أسياده !!] القادة السوفييت معه (!!) اللهم اغفر لنا وله .

❑

ثم يلجأ الفريق فوزى إلى بعض المناورات الكلامية ليسلب السادات جوهر موقفه الرافض لإشراك السوفييت فى إدارة عملياتنا الحربية وليجعله ـ بقدرة قادر ـ يتصرف هذا التصرف من أجل التنصل من المعركة، وكأن السوفييت يريدون الحرب بينما السادات هو الذى يخشاها، وقد كان من الممكن أن نصدق هذا الكلام قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، لكننا نرثى لمن يتبناه فضلاً عن أن يكتبه فى منتصف الثمانينيات، وانظر إلى هذا التجنى الذى يمارسه الفريق فوزى بضمير هادئ وبارد حيث يقول:

«لم يتوقع السادات موافقة القيادة السوفيتية على تمركز القاذفات فى مصر بهذه السرعة، إذ أنها كانت ستدفع عجلة الاستعداد للمعركة وتسقط دعوى الرئيس السادات بعدم استكمال مطالبنا فى التسليح، وكانت مفاجأة له أخرجته عن اتزانه كرئيس لشعب حضارى [لانعرف ماهى مناسبة الحضارى هنا]، فانفجر فى قاعة المباحثات معترضاً على أسلوب إدارة وتنسيق عمليات هذه الطائرات القاذفة مع علمه مسبقاً بهذه التفصيلات». ويعلق الفريق فوزى فى نهاية روايته تعليقاً مستفزاً يصل فيه إلى أن يصور الاتحاد السوفيتى أحرص على معركتنا من السادات!!

وكانت حجة سلبية وضحت للقيادة السوفيتية أسلوب ومناورات الرئيس السادات».

(٢٥)

ورغم كل هـذا التجنـى فإن الفريق فـوزى يجد نفسـه فى حاجة مـرة أخرى إلى تبرير لأقواله هذه المتناقضة مع الواقع، وبخاصة أنه فى الهامش الذى جاء فى صفحة سابقة أشار إلى أنه ـ وهو محبوس فى مستـشفى المعادى العسكرى ـ فهم أن الطائرة لابد أن تكـون قد وصلت إلى مـصر، وثبت له أن تـعليقه كـان صحيحاً، وهـو لهذا يعود ليبـرر نجاح السادات فيما صمم علـيه، وهو يبدأ بالحديث عمـا يراه هو خسارة لمصر ولـلسادات بسبـب موقف السادات المتـشبث بحذف جـملة ليس إلا (ويـغفل الفريق فوزى أن هذه الجملة تساوى الفارق بين الاستقلال والتبعية)، ولنقرأ تبريرات فوزى وتبريراته لشىء لم يحدث أصلاً وهو خسارة مصر للطائرة، فقد حصل عليها السادات بالفعل وعلى نحو ما يروى فوزى نفسه:

«أما تقـديرى عن هذه المفـاجأة المؤلمة التـى خسرت فيهـا مصر إمدادنا بـطائرات الردع مما أثر على ميعاد بدء معركة تحرير الأرض التى كنت أعد لها فى ذلك الوقت، وانتـهت بأن اعتـراض الرئيس الـسادات على جـملة «وتـنسيق عـملياتـها مع كبير المستـشارين فى مصر»، الـتى ذكرها بريجـينيف فى قـراراته بالدعم الجديـد. وطائرة الردع ما هـى إلا نزوة كلاميـة تترجم عـن أسلوب الرئـيس السادات فـى الاعتراض على أى شىء إظهـاراً لضغطه على الاتحاد السـوفيتى وتقديراً زائداً لشـخصه يرغب فى فرضه عنوة على القـيادة السوفيتية دون تفكير فى العواقب الـتى تعود على قواتنا المسلـحة نتيجـة للقرار الـذى توصل إليه فـى غرفة الملابس بـرفض تمركز الـطائرات القاذفة فى مصر، وهـو الذى صمم على تمركزها فى بداية اللقـاء. هل خلط الرئيس السادات بين الهدف وبين أسلوب تحقيقه، وانتهى بقرار إلغاء الهدف نفسه؟».

«إن تقديرى لهذا المـوضوع جاء أعمق من ذلك، فالرئيـس السادات لا يدرك منذ البدايـة عمق الاستـراتيجيـة الدولية [هذه بـالنص هى ألـفاظ الفريـق فوزى بلا أى تدخـل] بيـن مصـر والاتحاد الـسوفـيتـى. إنه لـم يدرك حـتى ذلـك الوقـت البـعد الاستراتـيجى للرئـيس عبد الناصر الـذى نجح فى كسب الدعـم السوفيتى الـضخم

عسكرياً وسياسياً ـ فى صفقة يناير ١٩٧٠ الذى وصل إلى مصر فى فبراير ومارس من نفس السنة، كما لم يكن فى تقديره حجم وماهية هذا الدعم الذى قفز بمقدرات قوات الدفاع الجوى والقوات الجوية سنة كاملة فى إعدادها للمعركة. إنه قصور فى الإدراك وفى المعرفة على مستوى القمة المصرية».

❑

وكل هذا الذى يتحدث به الفريق فوزى كلام مرسل يؤيد به دعوى لم تحدث، لكنه يواصل معبراً عن فقدانه الثقة فى الرئيس المصرى، وعدم تشككه إطلاقا ـ فى المقابل ـ فى تجاوب الاتحاد السوفيتى:

«وتشككت فى قدرة هذه القمة للتجاوب مع أملى فى رد اعتبار قواتنا المسلحة التى كانت قد وصلت إلى الإعداد الكامل للمعركة مع إسرائيل، ولكننى لم أتشكك لحظة فى تجاوب الاتحاد السوفيتى بإرسال اللواء الجوى القاذف الثقيل بعد ٦ ساعات من طلبه عندما يحين تصميم مصر على معركة تحرير الأرض».

❑

ولا يجد فوزى ما يؤكد به أو يبرهن به على صحة نظريته هذه إلا أن يورد فكرة يقدمها على أنها وجهة نظر الرئيس عبدالناصر، وهى وجهة نظر ذكية وواقعية وحقيقية، لكن من قال إن السوفييت كانوا يؤمنون بكل ما يقوله عبدالناصر أو يعتبرون أقواله وأمانيه نوعاً من النصوص المقدسة.. إن فوزى نفسه لم يورد عبارة يؤمن بها المارشالات الستة أو رؤساؤهم على كلام عبدالناصر ولو من قبيل قولهم «ونحن ندرك صحة هذا الذى تقوله».

ومن العجيب أن الزمن لما مضى أثبت أن هؤلاء القادة السوفييت جميعاً كانوا أقل واقعية ووطنية فى إدراكهم من عبدالناصر والسادات، بل إنه ليمكننى القول إن عبدالناصر والسادات كانا ـ لأسباب معروفة وعملية ـ حريصين على صورة الاتحاد السوفيتى بأكثر من حرص القيادة السوفيتية الجماعية على هذه الصورة ، ولو قدر لهذين الرجلين المصريين أو لأحدهما أن يقود الاتحاد السوفيتى لقاده أفضل من قادته فى ذلك الوقت ، ولطوره بأفضل وآمن مما حاول جورباتشوف.

(٢٦)

ويعود الفريق فوزى فى هذه المذكرات ليروى لنا تفصيلات مهمة يؤكد لنا بها على قدرة السادات الرهيبة على المناورة، وعلى استكشاف طبائع العلاقات بين مساعديه المصريين وبعضهم البعض من ناحية أخرى، وبين السوفييت من ناحية ثالثة، ومع أن وجهة نظر السادات عن هذه التفصيلات ليست متاحة، إلا أننا نرى الفريق فوزى يقر من حيث لا يدرى بكل هذا، وإن كان يأخذ على السادات رفضه لما قبل به عبدالناصر، وإن كان يعزو هذا من وجهة نظره إلى عدم فهم السادات للاستراتيجية الدولية بيننا وبين الاتحاد السوفيتى، وكأن الفريق فوزى كان هو الذى يفهمها حق الفهم:

«وتذكرت قول الرئيس جمال عبدالناصر للقادة السوفييت ـ فى حضور ستة من مارشالات الاتحاد السوفيتى على الغداء فى الكرملين يوم ١٦/ ٧/ ١٩٧٠ ـ بعد أن أعجبوا بكفاءة وقدرات رجال الدفاع الجوى والطيارين المصريين الذين يُدربون فى الاتحاد السوفيتى وتفوقهم على وحدات مماثلة فى الاتحاد السوفيتى فى تدريبات إصابة الأهداف، إذ قال: «أنا لا أقبل الهزيمة هذه المرة، سوف تضارون أنتم إذا حدث ذلك، لقد دربتم وسلحتم، وبعد ذلك ليس هناك عذر. إننا نقاوم الاستعمار معكم والتعاون والصداقة بيننا وصلت إلى الذروة».

«وفى القاهرة عقب عودة الوفد من موسكو، أثرت موضوع طائرة الردع مع الرئيس، ومدى اعتماد قواتنا الجوية على قدراتها فى الردع فى حالة قيام إسرائيل بالتسلل عبر دفاعنا الجوى وضرب أهداف فى العمق كما حدث فى يناير وفبراير ١٩٧٠، وبرغم أن دفاعاتنا الجوية تطورت فى الوقت الحاضر إلى الأفضل وأصبحت قادرة على شل الطيران الإسرائيلى، خاصة فى مسرح عمليات قناة السويس فإن التسلل بطائرة أو اثنتين جائز فى أية حالة. ووعدنى الرئيس السادات بأنه سيكلف الوفد المصرى للاتحاد الاشتراكى العربى الذى سيزور موسكو بإعادة طلب طائرة الردع. ولكنى لم أقتنع بجدوى هذا الأسلوب، وأكدت على الرئيس أن أسلوب العمل الداخلى فى القيادة السوفيتية يحتم تصحيح القرار الذى اتخذه رئيس

الجمهورية العربية المتحدة شخصياً فى الكرملين مع القيادة السوفيتية يوم ٢/ ٣/ ١٩٧١ برفض تمركز الطائرات القاذفة الصاروخية الثقيلة فى مصر، وقلت له: «يجب أن يتم بمعرفة سيادتك شخصياً أو بتحرير خطاب رسمى إلى الرئيس بريجينيف»، فتظاهر الرئيس السادات تحت ضغط وإصرار منى بقبول فكرتى، وطلب من سامى شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية استدعاء سفير الاتحاد السوفيتى لبحث الموضوع معه».

«وفى اليوم التالى تم لقاء الرئيس مع سامى شرف والسفير السوفيتى فى استراحة القناطر الخيرية، وتكلم الرئيس فى موضوعات عامة ولم يذكر أى كلمة عن طائرة الردع، وخرج السفير السوفيتى من المقابلة يتساءل: «لماذا طلبنى الرئيس؟»».

«وسافر وفد الاتحاد الاشتراكى العربى يرأسه عبد المحسن أبو النور أمين التنظيم - فى المدة من ٤/ ٤/ ١٩٧١ حتى ٩/ ٤/ ١٩٧١ - للمشاركة فى مؤتمر الحزب الشيوعى، كما سافر فى نفس الوقت سامى شرف الذى حمل رسالة خطية من الرئيس السادات إلى الرئيس بريجينيف عن العلاقات الثنائية والعامة بين موسكو والقاهرة، وتخلف سامى شرف فى موسكو وقابل الرئيس بريجينيف وسلمه الرسالة».

«ولم يكن هذا الأسلوب كفيلاً بتغيير ما ترتب على قرار الرئيس فى مؤتمر القمة يوم ٢/ ٣/ ١٩٧١، خاصة بعد أن تأكدت القيادة السوفيتية من أن الرئيس السادات وصل بالموقف العسكرى إلى حالة الركود بعد يوم ٧/ ٣/ ١٩٧١».

«وعاد سامى شرف إلى القاهرة بردود إيجابية عن موضوعات عسكرية كثيرة، لكن متابعتى لتنفيذ هذه الموضوعات أسفرت عن (نتائج) سلبية بالنسبة لطائرة الردع، وأحضر سامى شرف مسودة مشروع اتفاقية الصداقة والتعاون كطلب الرئيس السادات للدراسة».

«وهكذا تمكن الرئيس السادات من تعقيد الأمور مع الاتحاد السوفيتى مصدر الدعم العسكرى الوحيد لقواتنا، ومنع وصول طائرات الردع إلى قواتنا المسلحة،

وفى نفس الوقت صب اللوم على الاتحاد السوفيتى لعدم استيفاء مطالبنا من التسليح، واتخذ ذلك عذراً لعدم بدء معركة تحرير الأرض بقوله:

«أحارب إزاى وصعيد مصر مكشوف لإسرائيل»، ولم تكن هذه الدعوى صحيحة».

من الجدير بالذكر هنا أن الفريق صادق أشار فى مذكراته إلى أن هذه المبررات التى ذكرها السادات فيما يرويه فوزى كانت حقيقية بالفعل.

«وكان سبب هذه التطورات فى العلاقات المصرية ـ السوفيتية هو عدم تصور السادات للاستراتيجية الدولية بيننا وبين الاتحاد السوفيتى، الأمر الذى جعله يرفض ما قبله عبد الناصر».

(٢٧)

ويصل الفريق أول محمد فوزى إلى أن يصور أن تدهور العلاقات مع الاتحاد السوفيتى لم يحدث إلا بسبب تولى السادات الرئاسة وهو يلقى بكل العبء فى هذا على الرئيس السادات لا على السوفييت إلى أن يصل فيقول :

«إذن هى بداية لسياسة أسوأ مع الاتحاد السوفيتى تهدف إلى اتجاه سياسى آخر سرعان ما يتبلور، ويتكشف مع الأحداث التى يدفعها السادات نحو هذا الاتجاه».

«وعندما شعر الرئيس السادات أن جميع مشروعات ومحاولات التسوية السلمية مع إسرائيل ابتداء من محادثات يارنج إلى مبادرته فى ٤ فبراير ١٩٧١، إلى فكرة التسوية المؤقتة حول القناة، إلى المحادثات عن قرب، عندما شعر أنها قد فشلت جميعها، وعندما شعر أيضاً أن موقفه السياسى والعسكرى أصبح مهتزاً فى الداخل والخارج، وأن عام الحسم الذى أعلنه وهلل له إعلامياً على وشك أن ينقضى دون أن يحقق شيئاً، لجأ مضطرا إلى الاتحاد السوفيتى وعقد صفقة كبيرة من الأسلحة والمعدات العسكرية فى أكتوبر ١٩٧١ حفاظاً على التوازن العسكرى وسنداً له كمفاوض مع الولايات المتحدة وإسرائيل».

ثم يورد الفريق فوزى فقرة من فقرات السادات الخطابية التى كثيراً ما استعملها فى مثل هذه المواقف ، والتى تتضح فيها قدرة السادات على المزايدة غير المحدودة، ومع أنه لم يكتب خطابه هذا بالطبع إلا أنه تبناه، أو قل ـ على الأقل ـ إنه اختار من يكتبه، ومن الواضح أن الذى كتب هذا الخطاب كان أكثر اشتراكية من السوفييت أنفسهم، ألا ترى أنه وصل إلى أن يرفض الأسلوب الرأسمالى للتطور، وكأنه (على الأقل) يريد أن يشكل الدنيا كلها بالاشتراكية أو الشيوعية:

«وفى ٣٠ يناير ١٩٧٢ وقف الرئيس السادات يقول: «إن الصداقة العربية ـ السوفيتية قاعدة من أصلب القواعد التى يتحتم أن نخوض من فوقها نضالنا. هذه القاعدة ليست ضرورية للمعركة فحسب، بل إنها ضرورية أيضاً لما بعد المعركة. إن صداقتنا مع الاتحاد السوفيتى ليست من أجل المصلحة فحسب، لكنها شىء أكبر قيمة من المصلحة، وهو المبدأ من حيث العداء للاستعمار ومقاومته، ومن حيث رفض الأسلوب الرأسمالى للتطور، ومن حيث الإيمان بأن الحرية لا تتجزأ، وأن الرخاء لا يتجزأ، وبالتالى فإن حركة التحرير الوطنى جزء أصيل من حركة الثورة العالمية سياسياً واجتماعيا».

(٢٨)

والشاهد أن الفريق فوزى مع هذا كله يشير من طرف خفى وعلى استحياء مقصود فى هذه المذكرات إلى نجاح الرئيس السادات فى عقد صفقة كبيرة من الأسلحة فى أكتوبر ١٩٧١ (أى بعد خروجه هو من السلطة)، وأن السوفييت تلكأوا فى توريد هذه الأسلحة كعادتهم، ولكن الفريق فوزى لا يصرح بتلكؤ السوفييت ولكنه يلقى بالسبب على شماعات وهمية من قبيل القول بتركيز السادات على إنهاء الصراع عن طريق الحلول السلمية، ولسنا بحاجة إلى أن نسأل عن علاقة هذا بذاك، ولا أن ننتقد الفريق فوزى فى هذا التفسير، فكفاه ما انتقدناه به طوال هذا الباب، ولكن ما يهمنا هو إشارة فوزى نفسه إلى تسليم هذه الصفقات فى نهاية

١٩٧٢، وهو ما يصنف فى تاريخنا المعاصر على أنـه استجابة السوفييت للتعاون مع أحمد إسماعيل بعد تعمدهم عدم التعاون مع الفريق محمد أحمد صادق:

«وفى أكتـوبر ١٩٧١ تمكن الرئيـس السادات بصاحبـه الفريق أول محمـد أحمد صادق وزير الحربيـة من إتمام صفقة كبيرة مع الاتحـاد السوفيتى، وصلت قيـمتها إلى ٢٨٨ مليون جنيه.

ولكن الظروف الـداخلية والخارجية، وأهمهـا تركيز الرئيس السـادات على آماله الكبـيرة فى إنهـاء الصراع المصرى ـ الإسـرائيلى عـن طريق الحلول الـسلميـة، ونبذ أسلوب القتال، وما ترتب على ذلك من هبوط إرادة القتال. أثرت هذه الظروف على البرنـامج الزمنـى لتسليـم أسلحة ومـعدات هذه الصـفقة أكثر مـن اثنى عشـر شهراً تخللهـا توتر حاد فى العلاقات الثـنائية بين الدولتين نـتيجة للقرار المفاجـئ للرئيس السادات بإنهاء مهمة المستشارين السوفييت فى يوليو ١٩٧٢.

وتبع ذلك عودة الوحدات السوفيتية المقاتـلة بأسلحتها المتطورة فى الدفاع الجوى والقوات الجوية، ونظم شبكات إلكترونية، وسرب ميج ٢٥، وقطع بحرية مساعدة، ووحدات ومراكز تدريب أطقم الدفاع الجوى، والـطيارين، الأمر الذى أفقد القوات المسلحة توازنها فى القوى لفترة طويلة. وبـالرغم من تغيير قيادة القوات المسلحة فى أكتوبر ١٩٧٢، وحدوث بـعض قلاقل أمنية داخل الـتشكيلات فى القوات المـسلحة بعدها مباشرة، فإن الانتـهاء من تسليم معدات وأسلحة الصفقة الـسوفيتية فى أواخر عام ١٩٧٢ قد أعاد التوازن فى القوى من ناحية التسليح».

(٢٩)

وتتضمن هذه المذكرات كثيراً من التحليلات الـسياسية التى يتبناها الفريق فوزى، وتبدو هذه التحليلات أكثر مما تحتمله أى مذكرات من المفترض أنها تقدم رؤية ذاتية فحسـب، ومع هذا فإن الـتحليـلات التى يوردهـا الفريق فـوزى تحليلات جـيدة فى

معظمها، لكن المشكلة أن الفريق فوزى ينقل أحياناً كثيرة تحليلات متعارضة ويوردها مع بعضها دون أن يكون واعياً ،لأن التحليل الثانى مناقض للأول تماماً، ويتكرر هذا الأمر كثيراً جداً على مدى صفحات هذه المذكرات، وعلى سبيل المثال فهو يروى رد فعل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لوفاة عبدالناصر فإذا به يتحدث عن تمثيلية(!!) للبحرية الأمريكية قادها نيكسون بنفسه فى نفس يوم وفاة عبدالناصر(!!) مع أن وفاة عبدالناصر كانت مفاجئة، وهو ينقل فى ٣ سطور متتالية تصريحين متناقضين، الأول يقول فيه نيكسون إن عبدالناصر كان بمثابة الرجل الذى يمكنه جذب العرب للسلام فى الشرق الأوسط، وقبل أن تنتهى الجملة فإن جولدا مائير ـ فيما ينقله الفريق فوزى فى نفس الفقرة ـ تقول إنه لا يمكن أن يتحقق السلام فى منطقتنا والرئيس عبدالناصر فى الحكم، قد لا يصدق القارئ هذا، ولكن هذه هى الفقرة التى وردت فى صفحتى ١٢٣ و١٢٤:

«أما رد فعل الولايات المتحدة وإسرائيل لوفاة عبدالناصر، فكان الشماتة مع الاحترام، وهما الصفتان اللتان استطاع الرئيس أن يفرضهما على كلتا الدولتين فى صراعه السياسى، والتصميم على نجاح مبادئه ومستقبل أمته وشعبه، الأمر الذى كان يتعارض مع أهدافهما».

«ولم يكن عداء الولايات المتحدة والدول الاستعمارية الأخرى موجهاً ضد شخص جمال عبدالناصر الزعيم النظيف والصلب كما قالوا، بقدر ما كان عداؤهم لمبادئ وتيار القومية العربية التى تبناها ونشرها عبدالناصر، والتى اعتبرها الاستعماريون موجهة ضد مصالحهم فى المنطقة».

«وتمثل رد فعل هذا العداء الصريح فيما أدلى به الرئيس نيكسون عند سماعه خبر وفاة الرئيس عبد الناصر، وكان على سطح حاملة الطائرات «ساراتوجا» قائدة الأسطول السادس يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ أثناء قيامها بمظاهرة بحرية دعائية فى شرق البحر الأبيض المتوسط موجهة مدافعها ضد الزعيم عبد الناصر فى مصر، إذ قال: «لقد فقدنا الرجل الذى كان يمكنه جذب العرب للسلام فى الشرق الأوسط».
وكان تصورى أقرب إلى الحقيقة التى كانت تتمثل فى قرار الرئيس عبد الناصر لو علم بهذا التحدى فى تمثيلية البحرية الأمريكية(!!) [لا أستطيع أن أفهم ما يقصده

الفـريق فوزى من هـذه العبارة ومـع هذا أوردتهـا على نحـو ما وردت فى مذكـراته بالنص] الـتى قادها نيكسـون بنفسه يوم وفاته. وكـانت مائير رئيسـة وزراء إسرائيل تنـادى دائما: «لا يمـكن أن يتحـقق السـلام فى منطـقتنـا والرئيس عـبد الناصـر فى الحكم».

لسنا فى حاجة إلى أن نذكر الفريق فوزى بأن الرئيس نيكسون بالذات كان على علاقة جيدة بالرئيس عبدالناصر منذ زار مـصر وهو نائب للرئيس، بل إن عبدالناصر نفسه كان يـؤمل فى وجوده فى الرئاسة خـيراً، بل وبدأ معه خطوات كـان من أهمها مبادرة روجرز.

(٣٠)

وتبدو روايات الفريق فوزى مختزلة تمامـاً ـ وربما قاصرة أيضاً بل ومشوهة ـ فيما يتعـلق بوقائع السـياسات الداخليـة ومؤامرات القصـور ووقائع الحياة الحيـة. ويكاد الفريق فـوزى يستغل منـصبه الكبير فـى التعالى على الـقارئ حين يكتـب مذكراته فيتصـور أن من حقه إيراد ما يود أن يرويـه، وحذف ما يود أن يحذفه، ولـهذا تخرج كتابته فى النهاية وهى أبعد ما تكون عن النبض الحى للمذكرات.

وسأكتفى للدلالة على هذا الطابع فى مـذكرات الفريق فوزى بمثلين اثنين فقط : الأول هو ما يرويه عن محاولة الوزير السابق أمين شاكر التدخل بتزكية زكريا محيى الدين من خـلال الرئيس السودانى جـعفر نميرى، وهى واقعـة أشار إليها بالتـفصيل كثيرون أبرزهم أمين هويدى، وقد أوردنا روايته لها وهى رواية معقولة ومتكاملة فى الباب الثالـث من كتابى «الأمن القومى لمـصر»، ولكن محمد فوزى يخـتصر الرواية ويختزلها ليـخفى حقيقة أدوار وانطباعات وقرارات سامـى شرف (من ناحية) وأنور السادات (من نـاحية أخرى) بطريقة لا يـصعب على أحد إدراك مرماهـا، فقد كان سامى شـرف يطلب مـن السادات اعتقـال أمين شاكـر، وكان السادات واعـياً أنه لا يجوز لـه أن يبدأ حكمـه بمثل هذا، ومن المـؤسف والطريـف أن كتابى أميـن هويدى

ومحمد فوزى صدرا عن نفس دار النشر (دار المستقبل العربى) دون أن يعنى الفريق فوزى بقراءة ما أورده سلفه فى وزارة الدفاع - أى أمين هويدى - فى مذكراته عن ذات الواقعة:

«كانت هذه الاتجاهات تتم علناً وبوضوح على مستوى أجهزة الدولة الدستورية والسياسية، بينما كانت هناك بعض اتجاهات مضادة للاقتصار على ترشيح السيد أنور السادات وحده لمنصب رئيس الجمهورية المؤقت. ولكن هذه الاتجاهات لم تر الضوء على المستوى الشعبى».

«قبل منتصف الليل يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧٠ وصل السفير أمين شاكر - أحد الضباط الأحرار ووزير السياحة الأسبق - إلى فندق هيلتون، حيث كانت وفود المعزين، وقابل السيد فاروق أبو عيسى وزير خارجية السودان فى ذلك الوقت، وطرح عليه رأيه بأن يتولى السيد زكريا محيى الدين رئاسة الجمهورية، لأنه أصلح من يتولى هذا المنصب فى هذه الظروف. وطالب الوفد السودانى بأن يتبنى هذه الفكرة إذا حازت القبول لديهم. سارع السيد فاروق أبو عيسى بإبلاغ السيد سامى شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية - بحضور السادة شعراوى جمعة وأمين هويدى - مادار من حديث مع السيد أمين شاكر، وأن قرار الوفد السودانى هو مساعدة الشرعية وعدم التدخل فى شئون مصر الداخلية. وقد أخطرنى السيد سامى شرف بما حدث، وقام بإبلاغ الرئيس السادات بهذا الموضوع فى نفس الليلة. ورفض الوفد السودانى - ممثلاً فى شخص الرئيس جعفر نميرى وفاروق أبو عيسى - طرح الموضوع أو مناقشته فى أول لقاء مع أنور السادات فى قصر العروبة».

❑

والشاهد أن الفريق فوزى يفعل نفس الشىء فيما يتعلق برسالة أعضاء مجلس قيادة الثورة القدامى، مع أن أمين هويدى قد فصل الرواية فى كتابه السابق الإشارة إليه:

«فى يوم ٣/ ١٠/ ١٩٧٠ كنت فى لقاء عمل وغداء فى قصر العروبة - بصحبة الرئيس جعفر نميرى وفاروق أبو عيسى وشعراوى جمعة وأمين هويدى وسامى

شرف ـ حيث وصلت رسالة مكتوبة للسيد أنور السادات بعث بها السادة أعضاء مجلس الثورة القدامى: عبداللطيف البغدادى، وزكريا محيى الدين، وحسن إبراهيم، وكمال الدين حسين، تتضمن اقتراحاً بتشكيل مجلس رئاسة منهم يرأسه السادات لمدة ثمانية عشر شهراً، يجرى خلالها ترشيح اسم رئيس الجمهورية، ويستفتى الشعب عليه.وتسلم الرئيس السادات الرسالة، وتصفحها أمام جميع الحاضرين، ولم يعلق عليها، وقام بوضعها فى جيبه».

(٣١)

أما الواقعة الثانية التى تنبئنا بوضوح عن أسلوب الفريق فوزى فى اختزال تفاصيل الوقائع، فهى التى يروى فيها لقاء السادات بقادة القوات المسلحة فى ١١مايو ١٩٧١، وقد رواها اللواء عبد المنعم خليل بالتفصيل فى كتابه «فى قلب المعركة» ونقلتها عنه فى الباب الخاص بمذكراته فى كتابى «النصر الوحيد»، لكن الفريق فوزى يرويها هنا بطريقة مختصرة مخلة بالجو العام الذى أراد السادات به أن يوحى لفوزى أو للآخرين بما هو مدرك له من طبيعة الصراع.

«وكان حديث الرئيس للقادة والضباط والمستشارين السوفييت [فى قاعدة بلبيس الجوية يوم الأربعاء ١٢ مايو ١٩٧١] مشابهاً للحديث الذى تم أمس فى صالة الشهيد عبدالمنعم رياض بالقاهرة. وكانت أسئلة الضباط عن المعركة وعن الحل الجزئى وعن الجبهة الداخلية محرجة للرئيس أكثر من اجتماع أمس. ولكن الرئيس اختتم كلامه بقصة مكررة عن عمله بسلاح الإشارة قبل الثورة، وكيف كان رجال المدفعية القدماء ـ مشيرا إلىّ ـ يخطفون أدواتنا من معسكرنا الملاصق للمدفعية، قاصداً إضفاء جو من الترفيه على الضباط بعد جو الجدية والتوتر الذى ساد قاعة الاجتماع عقب الأسئلة الكثيرة من الضباط. ثم أشاد بجهود جميع قيادات القوات المسلحة، وتقبل التصفيق من الحاضرين، وانتهى لقاء قاعدة بلبيس الجوية».

أما اللواء عبد المنعم خليل فإنه يورد القصة فى إطار أكثر واقعية وجاذبية وتعبيراً

عن حقيقة ما أراده السادات، وهو يذكر بالنص أن السادات ذكر أن ضباط المدفعية كانوا يسرقون معداتهم ثم نظر إلى فوزى ـ الذى كان فى الأصل ضابط مدفعية ـ نظرة ذات معنى وقال: ما هو كلهم كانوا حرامية!!

(٣٢)

أما رواية الفريق فوزى عن أحداث مايو ١٩٧١ فتحفل بقدر كبير من التناقض فيما يتعلق بهدف الفريق فوزى الاستراتيجى (أو التكتيكى) فى تلك الأيام ، فنحن نجد له نصوصا يؤكد بها أنه استقال بسبب رفض السادات تنفيذ المعركة ، وفى ذات الوقت نجد الفريق فوزى يذكر (ولانقول يعترف) أنه استقبل الوزراء المستقيلين فى مكتبه، وأنه استدعى القادة التالين له فى مكتبه أيضا ، وقال لهم كلاماً لايمكن فهمه إلا على أنه تحريض كما سنرى.

ومن العجيب ولا عجيب فى الكتابات التاريخية المصرية أن الفريق فوزى لم يبدأ الكتابة فى هذا الموضوع إلا بعد وفاة الرئيس السادات وهذا طبيعى، ولكن العجيب أن الفريق فوزى لم يكتب إلا بعد أن نشرت جريدة الشعب حلقتين من مذكرات الفريق صادق حول هذا الموضوع ورغم ذلك لم يكتب الفريق فوزى إلا رداً على جزئية واحدة من الجزئيات التى تناولها الفريق صادق فى حديثه ولأن ما نشره الفريق صادق نشر فى صحيفة أسبوعية ، فقد تلاشى من الوجود على الساحة على حين ظل حديث الفريق فوزى الذى هو رد فحسب على جزئية واحدة من مذكرات الفريق صادق ـ ظل هذا الحديث يتعرض للتكرار وللمط وللتفصيل وللإضافة حتى أصبح بمثابة المادة الأكثر تواجداً عن دور القوات المسلحة فى هذه الأيام، ومن حسن حظ القارىء لهذا الكتاب أنه يجد تفصيلات مذهلة ووافية للقصة كلها فيما ننقله عن الحلقتين المطولتين اللتين نشرهما الفريق صادق فى جريدة الشعب فى مايو ١٩٨٢ حين كانت هذه الجريدة لا تزال تصدر فى حجم التابلويد، وبوسع القارىء إذا كان لم يقرأ حتى الآن الباب الثالث من هذا الكتاب المخصص لمذكرات الفريق

صادق أن يعود إليه قبل أن يقرأ فقرات الفريق فوزى التى هى كما ذكرنا رد على جزئية واحدة من الجزئيات التى أثارها ما نشر من مذكرات الفريق صادق.

وبوسع القارئ الآن أن يقرأ معنا هذه الفقرات التى يصمم فيها الفريق أول فوزى على أن ينأى بنفسه عن المسئولية أو المشاركة فى المسئولية عن الموقف المناهض للسادات فى مايو ١٩٧١، وهو من أجل أن يفعل هذا أو يوحى يضطر نفسه إلى أن يذكر أنه قد حرر استقالته مساء اليوم السابق لإقالة شعراوى جمعة ، وأن ذلك كان بسبب رفض السادات تنفيذ المعركة.

ونحن على عادتنا فى مدارستنا للمذكرات لن نكذب الفريق فوزى فيما يرويه ولكننا نشك فى أن يجد الفريق فوزى عند أى قارئ أو كاتب للتاريخ موافقة على هذا الذى يرويه ، فأين كانت الاستقالة بعد أن حررها ؟ وكيف أقنع نفسه أن يبقى فى مكتبه بعدما حرر الاستقالة منذ الأمس ؟

نحن لن نسأل الفريق فوزى هذه الأسئلة التى قد يسألها له التاريخ ، ولسنا فى حلٍ من أن ننصح الفريق فوزى ـ لو كان لايزال على قيد الحياة ـ أن يلجأ إلى تكنيك آخرٍ لنفى مسئوليته عن التضامن مع مجموعة الوزراء المستقيلين فى ذلك اليوم العصيب، على السادات وعليهم.

ولكننا على كل حال سنقرأ باحترام [وهو الاحترام الواجب علينا لكل نص مكتوب] الرواية التى يوردها الفريق فوزى بكل ما تتضمنه من تفصيلات وذلك حيث يقول :

«... ثم حضر إلى مكتبى تباعا كل من الوزراء شعراوى جمعة ، وسعد زايد، وبعد فترة حضر سامى شرف بعد أن قابل الرئيس السادات فى منزله بالجيزة مكلفا إياه بتبليغ شعراوى جمعة أنه قبل استقالته ، وقد حاول سامى شرف إقناع الرئيس السادات بالعدول عن ذلك إلا أنه أصر على تنفيذ هذا التبليغ، وروى سامى شرف ما دار من تفصيلات فى هذا اللقاء، وأضاف أنه تم فعلا تعيين ممدوح سالم وزيراً للداخلية، وأنه قام بحلف اليمين الدستورية أمام السادات بحضور الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء».

« وكنت قد حررت استقالتى من مهمتى كوزير للحربية وقائد عام للقوات

المسلحة مساء اليوم السابق بعد تأكدى من أن الرئيس السادات قد خدعنى ورفض تنفيذ المعركة بعد أن حدد لى تاريخ بدئها، وأن مركزى القيادى بين قادة القوات المسلحة أصبح غير متزن».

«وكنت مقتنعا بعدم جدوى استمرارى قائدا للقوات المسلحة طالما أن معركة تحرير الأرض التى أعددت لها مقوماتها الأساسية طوال أربع سنوات لن تتم فى توقيتها المخطط له، واحتفظت بهذه الاستقالة وأبلغت زملائى الذين حضروا إلى مكتبى بقرارى لإنهاء خدمتى وتقديم استقالتى إلى رئيس الجمهورية».

«حضر إلى مكتبى - بناء على طلبى - الفريق صادق وبعض القادة، وهم اللواءات محرز ومحمد على فهمى وأحمد زكى، فأخطرتهم بالموقف كما أخطرتهم بقرارى عن إنهاء خدمتى بالقوات المسلحة بسبب رفض الرئيس السادات إتمام المعركة بعد أن كان أعطانى التوجيهات لتنفيذها وحدد موعد بدئها، وأننى لا يمكننى تحمل مسئولية انهيارمقومات المعركة بتأخيرها أو إلغائها. إذ أن ذلك لن يكون فى صالحنا، كما ذكرت أن الرئيس يتجه بكل ثقته ووزنه إلى الأمريكان إلى حد استعداده لتنازلات تخص سيادة الدولة، وأنه سوف يطيح بالقيادات السياسية والعسكرية بالدولة، وترجمها الفريق صادق إلى كلمة بيع البلد للأمريكان وأنا وافقته على ذلك، والغريب فى الأمر أن الفريق صادق نقل هذه الجملة إلى الرئيس عن لسانى أنا ».

يستأنف الفريق أول فوزى روايته مشيرا إلى مدى وعى قادة القوات المسلحة المصرية بحقيقة علاقتهم كقادة عسكريين بالسياسة :

«... رفض جميع القادة الحاضرين عزمى على الاستقالة، وقالوا إنه ليس للقوات المسلحة دخل بالسياسة الداخلية للدولة وأن علىّ الاستمرار فى مهمتى ،فأجبت بأننى كوزير للحربية عضو عامل فى مجلس الوزراء وعلىّ مسئوليات تأكدت من أن رئيس الجمهورية لا يرغب فى تحقيقها، ورد الفريق صادق بأن «الموقف صعب»، وأرى أن سيادتك تذهب إلى المنزل، وتؤجل الاستقالة إلى الغد حيث يمكن مناقشتها فى هدوء، فرفضت ذلك، وقلت له :«أنا مصمم على الاستقالة وأعرف كيف أوصلها للرئيس ، وانصرفت إلى منزلى».

(٣٣)

يمكن لنا أن نتوقف بعد الفقرة السابقة لنسأل: هل هناك بعد هذا الاعتراف دليل يحتاجه السادات ليزج بالفريق فوزى فى السجن وليقدمه للمحاكمة؟.. أعتقد أن فى استطاعة القارىء الإجابة بسهولة على مثل هذا السؤال.

ولكن الأهم من هذا فى نظرى ألا نمر أمام هذه الفقرة دون أن نثنى بشدة على أبناء المؤسسة العسكرية المصرية الذين تمثل فهمهم العميق فى هذا الموقف الواضح الذى وقفه ثلاثة من كبار قادتهم كانوا واعين تمام الوعى لحدود العلاقة بين مؤسسات الدولة المختلفة وكانوا ينصحون الوزير ـ القائد العام ـ الذى لم ينتصح، بل كانوا حريصين على أن يعطوه الفرصة لإعادة التفكير بينما هو مصمم على عصيان رئيس الدولة والقائد الأعلى!! وذلك كله واضح من نص عباراته :

«وحوالى الساعة الثامنة والنصف مساء اتصل الفريق صادق بالرئيس السادات وروى له تفصيلات ما حدث بعد ظهر اليوم فى مكتبى، وكيف أنه تمكن من طرد الوزراء شعراوى جمعة وسامى شرف وسعد زايد من مقر الوزارة، كما منع الفريق فوزى من جمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لبحث موضوع الساعة، كما طمأن الرئيس على القوات المسلحة وسيطرته عليها وعلى قادتها».

«وكان رد الرئيس بالشكر وتعيين الفريق صادق وزيراً للحربية فوراً».

«وفى الساعة التاسعة مساء نفس اليوم اتصل بى الزميل شعراوى جمعة ودعانى إلى منزله ـ وهو مجاور لى ـ لأمر هام . عند وصولى إلى منزل شعراوى جمعة وجدت الزملاء الوزراء: سامى شرف ، سعد زايد ، محمد فائق ، حلمى السعيد وأشرف مروان بالإضافة إلى صاحب المنزل. وكان هؤلاء الزملاء مجتمعين لتدارس الموقف الذى وضح بعد قرار السادات إقالة شعراوى جمعة وما سوف يترتب على ذلك من خطوات أخرى تنتهى بالتخلص من الوزراء والمسئولين الآخرين من كوادر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كما كان واضحا من نواياه قبل ذلك».

والشاهد أن الفريق فوزى يعترف ـ دون أن يدرى أنه يعترف ـ بكل ما نسبه

السادات إليه وإلى مجموعة الوزراء المستقيلين وهو يظن أن قوله إن شعراوى جمعة دعاه لأمر هام يبتعد بالاتهام عنه وكأنما لم يكن الانقلاب على السادات أمراً مهما!

«وبعد تدارس الموقف انتهى رأى المجتمعين إلى اتباع أسلوب الشرعية وتثبيتها، وكان قرار كل منهم على انفراد هو تقديم استقالته . وبالنسبة لشخصى فقد أظهرت استقالتى المجهزة من أمس، ووضعتها فى مظروف عنونته باسم الرئيس السادات رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة، وسلمته إلى أشرف مروان لتسليمه إلى الرئيس أنور السادات ».

« غادرت منزل شعراوى جمعة إلى مكتبى بسيارتى الخاصة، وأخطرت اللواء أمير الناظر سكرتير الوزارة بأننى أرسلت استقالتى إلى رئيس الجمهورية، وسلمته بعض الأوراق والمستندات السرية منها المستند الوحيد الذى كان مجهزا لتوقيع رئيس الجمهورية لبدء معركة تحرير الأرض ورفض توقيعه أمس، وغادرت المكتب إلى منزلى ».

«وبعد وصولى إلى منزلى الساعة الحادية عشرة سمعت خبر استقالتى وزملائى حلمى السعيد ومحمد فائق وسامى شرف وسعد زايد، كما أذيع خبر استقالة الدكتور لبيب شقير وضياء الدين داود وعبد المحسن أبو النور أعضاء اللجنة التنفيذية العليا، وصبرى مبدى وعبد الهادى ناصف من أعضاء اللجنة المركزية».

وهكذا نجد أن الفريق فوزى فى كل ما رواه لا ينقض ما أشيع عن أنه استقال مع زملائه الذين تقدموا باستقالات جماعية ، كل ما هنالك أنه يخبرنا (ونحن لا نمانع فى أن نصدقه) أنه كان قد حرر الاستقالة من الأمس فأظهرها اليوم ، وهكذا لا يصبح على الجبهة المعادية لفوزى تثريب إذا قالت إنه استقال مع مجموعة أخرى من الوزراء فى ذلك اليوم العصيب!!

(٣٤)

وعلى الرغم من أن صاحب المذكرات يحاول أن يؤصل للخلاف بينه وبين الرئيس السادات وأن يعود به إلى فترات سابقة، إلا أنه يفاجأ وهو يكتب ما يكتب

بأن وقائع التاريخ لا تسعفه أبداً فى هذا التـأصيل، ولا حتى الشائعات تسعفه وهكذا فإن أقصى ما أمكن للفريق فوزى أن يعود إليه من الماضى ليشير إلى بداية خلاف هو مطلع فـبراير ١٩٧١ حين أعلـن السادات مبادرته مـن أجل حل جزئى (كمـا يقول الفريق فوزى).

ومع أننا قـد نتساءل ـ الآن ـ عن سر بقـاء الفريق فوزى إلى جوار الـسادات منذ مطلع فبراير ١٩٧١ وحتى منتصف مايو ١٩٧١ رغم تيقنه بهذا الإحساس المنبئ عن الاختلاف فى الاستـراتيجية إلا أننا نستـطيع أن نتلمس له مخـرجاً وهو أن هذا كان بداية خـلاف، ولم يكن نـهاية خلاف، وأنـه كان يؤمل أن يـجد حلا لهـذا الخلاف الذى ابتدأ، وهذا وارد ومنطـقى، لكن الأمر الذى ينقض قبول مثل هـذا التفسير هو أن الفريق مـحمد فوزى نفسـه يحمل عباراتـه ضد السادات فى هذه الـفترة بمرارات كثيرة قد يكون لـه الحق (النفسى) فى أن يلجأ إليها بعـد وفاة السادات، ولكن لجوءه إليها أفقـده بالتالى أركاناً كثيـرة من أركان الموضوعية،وألجأه إلى تـوجه آخر، مع أنه كان فى وسعه أن يعبر عن مشاعره الحقيقية على نحو ما حدثت بالفعل دون أن يلجأ إلى أسلوب الإنذار المبكـر بدون منذرات، وسيعطيه كل القراء الـعذر فى ذلك، فقد كان السادات ـ فى نظر القراء ـ صاحب قدرة رهيبة على الخداع والمناورة.

وعلى سبيـل المثال فقد كان فى وسع الـفريق فوزى أن يبدأ بتصـوير الأمور على أنها شـك طفيف، ثم يتـنامى الشك ثم يـظن فوزى أن أحداً ممن حول الـسادات هو الذى فرض هذه المـعانى على الخطاب المـكتوب دون أن يؤمن بها الـسادات، ثم هو يناقش السادات فيجد أن لهذا التفكير فى اسـتراتيجية المصالحة مكاناً فى وجدانه، ثم هو يـحاول أن يثنـيه وهكذا.. إلـخ، ولكن الفـريق فوزى من نـاحية أخرى آثـر فى مذكراتـه (حتى منـذ المقدمة) أن يـظهر وهو حـريص على أن يـعادى السادات مـنذ البـداية، وهذه نـقطة ضـعف خطـيرة أودت تماماً بـكل قيـمة محـتملـة للمـذكرات وبشهادة الفريق فوزى:

«وشعرت بأول اتجاه للرئيس السادات بالنسـبة لمعركة تحرير الأرض وتنفيذها فى الوقت المنـاسب، عندما أعلن عن مـبادرته من أجل حل جزئى فـى ٤ فبراير ١٩٧١، موضـحاً أملـه فى إنـهاء الصـراع العربـى ـ الإسرائيـلى عن طـريق الحـل السلـمى،

مستبعداً معركة تحرير الأرض بالقوة. وكان هذا الاتجاه مخالفاً لاستراتيجية مصر العسكرية التى بدأت منذ عام ١٩٦٧. كما كان هذا الاتجاه بداية خلافات فى الرأى السياسى بينه وبين المجموعة القيادية،التى كانت تشاركه فى مناقشة وتخطيط الاتجاهات المصيرية».

وهكذا فإن الفريق فوزى على نحو ما يذكر هو لم يشعر، أو لم يبدأ يشعر باختلاف توجهات السادات إلا منذ ٤ فبراير ١٩٧١.

❑

وعقب هذه الفقرة مباشرة يقفز الفريق فوزى إلى توصيف موقف غريب ومبكر اتخذه القادة السوفييت من الرئيس السادات، وأقل ما يوصف به أنه موقف معاد للسادات على الرغم من أنه ـ أى الفريق فوزى ـ لم يقدم لنا ما يبرر هذا الموقف على أرض الواقع:

«وكان الرئيس السادات يريد أن يطوع القيادة السوفيتية لتأييده ودعمه الشخصى فى قيادته الجديدة، فلم ينجح، وكان الجدل والنقاش الحاد فى مؤتمر القمة المصرية السوفيتية يومى ١ و٢ مارس ١٩٧١ خير دليل على ذلك. وبدأت القيادة السوفيتية تنظر إلى القيادة الجديدة فى مصر بعين الشك، وأصبح التعامل بالحذر مكان الثقة المتبادلة والصداقة والتعاون بين الدولتين».

(٣٥)

على ضوء كل هذه المقدمات التى قدمناها من مذكرات الفريق محمد فوزى يمكن لنا الآن أن نتأمل ما يرويه الفريق فوزى عن تفاصيل ما حدث يوم ١٤ مايو أى بعد أن كان قد قدم استقالته بالأمس وهو يروى تفاصيل ما حدث له (أو معه) بشىء من الشعور بالغدر والإهانة كما أنه يحاول أن يسخر بكل ما أوتى له من قدره على السخرية مما يسمى بالتصرفات الوقائية التى نفذها خلفه فى الوزارة الفريق أول صادق ، ويصل به الأمر إلى أن يصف هذه التصرفات بأنها تمثيلية، ولنقرأ ما يرويه الفريق فوزى حيث يقول:

« وفى الساعة الثانية صباحاً من يوم ١٤ مايو ١٩٧١. استيقظت على دقات الجرس ففتحت باب منزلى، فوجدت ضابطاً من الحرس الجمهورى قال لى: «أنا متأسف ياأفندم صدر قرار رئيس الجمهورية بتحديد إقامة سيادتك فى منزلك، ولن يحدث شىء آخر سوى تغيير الحرس القديم بحرس من طرفى، وأنا باق خارج المنزل إذا أردت منى « شىء». فشكرته، واستأنفت نومى فى هذه الليلة».

❑

ثم يردف الفريق فوزى بفقرة لايستطيع قارئها إلا أن يثنى على الفريق صادق ويلوم الفريق فوزى، ولم لا، وهذا هو الفريق صادق يلوم فوزى على أنه لم يف بما وعد به من تأجيل الاستقالة إلى الغد.. ومع هذا .. أو رغم هذا فإن الفريق فوزى يصف كل ما فعله الفريق صادق بأنه تمثيل!! وكأنه يستنكف شكر الرجل حتى على مجاملته:

«فى منتصف الليل أيضاً اتصل الفريق صادق بى تليفونياً وقال :«إحنا مش اتفقنا نؤجل استقالتك لباكر»، فقلت له : «أنا قررت الاستقالة منذ أمس وهذا موضوع شخصى وأنت تعلم السبب»، وبعدها انقطعت حرارة تليفونات المنزل نهائياً».

❑

ثم يروى الفريق فوزى روايات لا تختلف فى مضمونها عما رواه الفريق صادق من جهده فى تلك الليلة، وكأنما ينقل الفريق فوزى عن الفريق صادق نصوصه بالضبط.. وربما كان هذا من حقه، فقد كان نائماً فى بيته لايدرى ما يجرى، فلما روى خلفه ما اتخذه من إجراءات لم يجد حرجا فى أن ينقلها على نحو ما روى خلفه، وربما يقول بعض الخبثاء من هواة التعليقات الذكية على ما رواه الفريق صادق: ومن أدرانا أن الفريق صادق كان قد أتم كل هذه الإجراءات؟.. فإذا بالفريق فوزى يؤكد لهؤلاء أن ما رواه صادق كان حقا!!

« بينما كان الفريق صادق يكلمنى من مكتبه فى كوبرى القبة منتصف هذه الليلة استدعى على عجل كتيبة وحدات خاصة بقيادة المقدم إبراهيم الرفاعى، وأحاط بها قيادة كوبرى القبة مدعياً أنها إجراء وقائى ضد ما أسماه احتمال مهاجمة القيادة

والاستيلاء عليها ضمن مخططى المزعوم لقلب نظام الحكم بالقوة، وهو يعلم أنى نائم فى منزلى الذى يحيط به حراسة مشددة من الحرس الجمهورى».

«كما قام الفريق صادق برفع درجة استعداد بعض وحدات المنطقة المركزية ، ومنع أى تحركات عسكرية بدون إذنه شخصياً، وأخطر قادة القوات المسلحة جميعاً بأن التعليمات والأوامر تصدر باسمه الشخصى، وأن القائد السابق قد قبلت استقالته».

ويردف الفريق فوزى هذه الرواية كلها بتعليقه المرور:

«كان ذلك أول تمثيلية يقوم بها الفريق صادق الذى عينه الرئيس وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة الساعة الثامنة والنصف مساء نفس اليوم، وعندما طلب منه حلف اليمين ، رد عليه صادق بضرورة تأمين القوات المسلحة أولاً. وكانت الاتصالات على مستوى القيادة العامة فى تلك الليلة تجرى بين الفريق صادق، والفريق سعد الدين متولى، واللواء محمد الليثى ناصف، ومدير المخابرات الحربية، ومدير الشرطة العسكرية، وقائد المنطقة المركزية».

(٣٦)

ومن الواضح لقارىء مذكرات الفريق فوزى أن كل إجراءات التغيير التى تمت فى مايو ١٩٧١ قد انتهت بينما هو لا يزال فى بيته، وهو حريص على أن يذكر أنه لم ينتقل إلى سجن أبى زعبل إلا بعد إنهاء الأحداث يوم الأحد السادس عشر من مايو، ولهذا الحدث دلالات مختلفة بالطبع، لكننا نؤثر أن نترك تفسير هذا للفريق فوزى نفسه ما دمنا نتحدث فى إطار مذكراته، ويروى الفريق فوزى بمرارة لحظات اعتقاله على النحو التالى :

«وفى الساعة الخامسة من مساء الأحد الموافق ١٦ مايو ١٩٧١ حضر إلى منزلى عميد وثلاثة ضباط من مباحث أمن الدولة، ودعونى للتوجه معهم إلى سجن أبى زعبل بناء على أوامر الرئيس السادات حيث بدأ الحبس الاحتياطى منفردا على ذمة

القضية رقم ١/ ١٩٧١ أمن دولة عليا. وعند وصولى غرفة الحبس فى سجن أبى زعبل وجدت أن السجن قد ضم الزملاء على صبرى ـ ضياء الدين داود ـ الدكتور لبيب شقير ـ عبدالمحسن أبو النور (أعضاء اللجنة التنفيذية العليا) وشعراوى جمعة ـ حلمى السعيد ـ سامى شرف ـ سعد زايد ـ محمد فايق (أمناء تنظيم ونواب رئيس وزراء ووزراء). ثم حضر الزميل أمين هويدى (وزير سابق وعضو لجنة مركزية) وكانت مفاجأة لى إذ أنه لم يكن شريكاً فى الحكم منذ فترة فقدرت أن الاعتقال لا يقتصر على الخلاف السياسى بين الرئيس ورجال الحكم، إنما هو انقلاب واسع يهدف إلى الإطاحة برجال الرئيس عبدالناصر ومبادئه وعهده أيضاً».

«وخلال يومى ١٤ و١٥ مايو ١٩٧١ كان عدد المقبوض عليهم أكثر من ألفى قيادى، أو شخصية هامة، أو كادر مسئول فى الهيئة التنفيذية، أو التشريعية، أو قيادة وأجهزة الاتحاد الاشتراكى العربى اتسعت لهم سجون أبى زعبل ، وطرة الحربى ، وجنوب التحرير ، ومحكمة الاستئناف، بالإضافة إلى عنبرين كاملين فى الكلية الحربية، وكلية الشرطة».

«واستأنف الفريق صادق ـ الذى رقى إلى رتبة فريق أول وعين وزيراً للحربية فى أول تشكيل وزارى صدر يوم ١٥ مايو ـ البحث عن معلومة مادية واحدة تدلل على وجود أى محاولة لانقلاب عسكرى بالقوة، فلم يعثر على شىء. وبدأ التحقيق ـ تحت تهديد السلطة بالسجن ـ مع ضباط سكرتارية وزير الحربية وبعض القادة فلم يجد أى مبرر أو دليل لاستمرار حبسهم، ثم اهتدى إلى أقاربى فى القوات المسلحة وخارجها، وشمل التحقيق ابنى خالتى، وكانا يشغلان مركزين قياديين فى المخابرات العامة، فقرر اللواء أحمد إسماعيل على ـ الذى تسلم هذه الإدارة من يوم ١٥ مايو ١٩٧١ ـ إجبارهما على تقديم استقالتيهما أو نقلهما إلى وظائف مدنية أخرى».

«وهكذا تحولت الاستقالة إلى تمثيلية مؤامرة لقلب نظام الحكم أدت إلى إجراء تطهير وإقصاء ونقل كل من له علاقة قرابة أو صلة مظهرية بشخصى، كما حدث نفس الأمر بالنسبة لأبناء وأقارب زملائى الوزراء داخل القوات المسلحة وأجهزة الإدارة والأمن فى الدولة».

(٣٧)

وعلى حين تنتهى الأمور على هذا النحو بـاعتقال الفريق فوزى فإن العقل الباطن للفريق فـوزى يفكر فى اتجاهات متعددة ويـحرص على أن يجد وجهة نظر مـختلفة فى كل موقف من المواقف التى اختلف فيها هو ومجموعته مع الرئيس، وكما أسلفنا فإن الفريق فوزى يبـحث فى التاريخ فلا يجد جذوراً ولا أصولا للـخلاف فيما قبل فبراير ١٩٧١، ومن ثم يعـطى الفريق فوزى حجما كبيراً وأبعـاداً إضافية للاختلاف حول موضوع اتحاد الجمهوريات ونجد الفريق فوزى يلجأ فى هذه المذكرات دون داع إلى اتهام السادات بالتشكيك فى مقاصده من إعلان الوحدة مع ليبيا وسوريا، مع أن مثل هذا الموضوع لم يكن ليقدم أو ليؤخر فى صنع المعركة:

«..... وكان لتصميم السادات على إبراز ميثاق طرابلس وإعطائه أولوية عن أهم الموضوعات المصيرية لـلشعب ـ وهو المعركة ـ تأثيره السيئ فـى نفوس المواطنين [لا يذكر الـفريق فوزى أى دليل عـلى هذا]، وفى قمـة العمل السـياسى أيضاً، فتـعمق الخلاف السيـاسى بين أعضاء القـمة السياسية والـدستورية فى مصر. وأثـير أسلوب وطريقة الرئيـس السادات فى تسييس المناقـشات على مستوى القمة، كـذا فى تسيير أمور الدولة، بحـيث وضحت الأمور على السـطح. وبدأ المواطنون يتشـككون وهم حيارى بين شكل الحكم والهدف وبين مضـمونه، بين ما تذيعه وسائل الإعلام وبين حقيقة أهداف الرئيس السادات. وانعكس ذلك كله على أفراد القوات المسلحة».

«وفى نفـس الوقت الذى كانـت إجراءات إقامة الاتحاد الثـلاثى فى طريقـها إلى التنفيذ، تعمد الرئيس السادات تصعيد شعارات المعركة بهدف إظهار تمسكه بالهدف الاستراتيجى العام للشعب. مع محاولة الضغط على الإدارة الأمريكية التى كانت قد ارتبطت اتجاهاتها وطلباتها عن طريق الاتصـالات المباشرة السرية معه شخصياً، سعياً وراء قبول إسرائـيل أحد الحلول السـلمية حيث كـان الرئيس السادات قـد دخل فى مساومات معها لإنهاء الصراع سلمياً».

ومع احترامنا لوجهة نظر الفريق فوزى فى هذا الموضوع إلا أنه يبدو لى أن احترامه لاينبغى أن يتعدى إيراد الرؤية التى يفضلها على نحو ما أوردناها بالفعل، ومن ناحيتى فإنى أميل إلى الرؤية الأخرى التى يفضلها أغلب القراء والباحثين من أن الخلاف حول اتحاد الجمهوريات لم يكن إلا فرصة مواتية للمجموعة المناوئة للسادات ليستعرضوا عضلاتهم وقوتهم تجاهه!

❑

«وكنت حريصاً منذ البداية على بدء معركة التحرير الشاملة فى توقيتها المناسب بالتعاون والتنسيق والربط مع القوات السورية فى الجولان. وكان حرصى هذا ـ سواء فى مضمونه أو توقيته ـ لا يتفق مع ما يهدف إليه الرئيس السادات، فوقع الخلاف بين الرئيس السادات وبينى فى الأسلوب، وفى الاتجاه، وفى التوقيت. الأمر الذى دعاه لاتخاذ أسلوب المناورة والخداع معى حتى يفوت علىّ فرصة الصدام، واتخاذ موقف من جانبى يحرجه سياسياً وعسكرياً وشعبياً».

❑

هكذا يعترف الفريق فوزى بأن السادات قد استطاع إحراجه، وهو يفصل القول فى هذا المعنى على طريقته فيقول:

«وكان أسلوب المناورة والخداع متمثلاً فى الاستجابة لرغبتى فى تنفيذ وبدء المعركة، فأصدر إلىّ توجيهات القائد الأعلى للقوات المسلحة ببدء المعركة وحدد تاريخ قيامها أيضاً، ولكنه فاجأنى فى آخر لحظة برفضه توقيع توجيهاته التى أصدرها لى،واعتبرت هذا التصرف من جانب الرئيس السادات تراجعاً منه عن استكمال مسيرة المواجهة الذى بذلت القوات المسلحة جهداً تاريخياً لتحقيقه».

«وقدمت عن قناعة وتصميم استقالتى التى اعتبرها الرئيس السادات عملاً خارجاً عن طاعته، وقرر محاكمتى عسكرياً».

(٣٨)

وينتهز الفريق فوزى فرصة نشره لمذكراته ليتصدى بالرد لما نشر ـ على نطاق محدود ـ فى أعقاب إلقاء القبض عليه فى مايو ١٩٧١ من أنه كان ينوى استغلال القوات المسلحة فى الانقضاض على الرئيس السادات أو الانقلاب عليه وهى رواية ظلت على الدوام من الأدبيات المفضلة فى كتابات وكتب محمد حسنين هيكل، ومن سخريات القدر أن الصحف التى تفضل وصف نفسها بالناصرية تؤثر على الدوام أن تنقل رؤية فوزى المفندة لأقوال هيكل على الرغم من أنها تتعمد النقل الحرفى عن هيكل فى بقية الموضوعات وهكذا يبدو لقارىء الصحف الناصرية أن الفريق فوزى استطاع حين أتيحت له الفرصة أن يفند ما أعاد هيكل وصادق القول فيه وزادا ، وتتعمد الصحف المؤيدة لمجموعة ١٥ مايو وعلى رأسها الفريق فوزى بالطبع أن تركز على حقيقة أنه يمكن للحديث المونولوجى أن يخدعنا بأشياء من هذا القبيل تبدو وكأنها موثقة ولا تقبل النقض بينما يسهل بالمنطق البسيط نقضها على نحو ما فعل الفريق فوزى فى رواية هيكل وصادق.

ومما يؤسف له ـ فيما يتعلق بحظ فوزى ـ أن رواية الفريق صادق التى استخدمها هيكل كثيراً تبدو أقرب إلى الحقيقة من كل أقوال الفريق فوزى، وقد عرضنا رواية الفريق صادق بالتفصيل فى الباب الثانى من هذا الكتاب.

❑

على أن الذى فات الفريق فوزى أن يشير إليه وهو يفند رواية صادق هو أن يذكر أن تفنيده لرواية صادق لا يعنى أنه (أى الفريق فوزى) لم يكن ضد السادات، وأن الفريق صادق وهيكل لم يكونا مع السادات، فمثل هذا يحمل عبارات الفريق محمد فوزى فوق ما تحتمل ، ولكن ما يطمئن إليه عقلنا بعد قراءة ما كتبه الفريق فوزى هو أنه يريد أن يوحى بأن هذه الرواية التى تمسك بها صادق كانت من قبيل التزيدات التى يحرص عليها الموظفون وأشباههم فى إثبات ولائهم لرئيسهم حتى لو اقتضى الأمر أن يصنعوا مؤامرات ليكتشفوها فيزدادوا باكتشافها وإحباطها قرباً من السلطة والرئيس .

وقد وضع الفريق فوزى لردوده على ما نشره هيكل وصادق عنوانا فرعيا، ومن ضمن رده ننقل للقارىء قوله:

« بعد انقضاء عشر سنوات من الحكم فى القضية رقم ١/ ١٩٧١ أمن دولة عليا والتى أطلق عليها إعلاميا «قضية مراكز القوى» ظهر الفريق أول محمد أحمد صادق والسيد محمد حسنين هيكل بقصة عنوانها - إبراز وثيقة بخط الفريق أول فوزى محتوياتها كافية لإعدامه وآخرين معه - الأول نشرها فى جريدة الشعب الصادرة بتاريخ ١٨/ ٥/ ١٩٨٢ وبتاريخ ٢٥/ ٥/ ١٩٨٢، وأضاف إليها وصف شهامته وبطولته فى إنقاذ الرئيس السادات من الإطاحة به .

والثانى كرر نشرها فى كتابه «خريف الغضب» ص ١١٠ . ومعروف أن كليهما توطد الارتباط والتعاون بينهما بعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر، واستمرت المقابلات والاتصالات بينهما كل أسبوع تقريباً. وكلاهما تربطه بالآخر صفات مشتركة أهمها الطموح والشهرة.

أما موضوع «وثيقة إعدامى» كما سماها كل من الفريق أول محمد أحمد صادق، وصديقه محمد حسنين هيكل فهى توجيهات عسكرية صدرت منى إلى الفريق صادق يوم ٢١/ ٤/ ١٩٧١ بهدف وضع خطة جديدة لتأمين القاهرة.

وهذه التوجيهات العسكرية كما نشرها كل منهما هى:

وزارة الحربية

مكتب الوزير

٢١/ ٤/ ١٩٧١

فريق صادق

باكر ترتبط وتنظم وتخطط مع

١- مخ حربية [أى المخابرات الحربية].

٢- فر ٦ ميكا [أى الفرقة السادسة مشاة ميكانيكية].

٣- ل ٢٥ م [أى اللواء ٢٥ المدرع].

٤- شرطة عسكرية

لأغراض تأمين القاهرة ـ أى احتمالات ـ نظام الكود ـ أماكن تجمع ـ أرقام تل إلخ.

مصدر الأوامر (فوزى ـ شعراوى ـ سامى)

واجبات: [١-الإذاعة ٢- مدخل القاهرة ٣- حرب الكترونية- قفل أجهزة لاس أى لاسلكى] السفارات.

وهنا يعلق الفريق فوزى فيقول:

«وهى توجيهات عسكرية عادية لم تأخذ (طابع أو درجة) «السرية»، أصدر مثلها يومياً اثنين أو ثلاثة أو أكثر وبالرغم من وجود أجهزة وإدارات متخصصة فى هذا المجال (الأمن والتأمين) فإن توجيه هذه الأجهزة ومباشرة أسلوب تنفيذها هو من مسئوليتى المباشرة.

وطالما أن هذه التوجيهات العسكرية الصادرة منى إلى الفريق صادق رئيس الأركان فى ذلك الوقت بوصفه المنفذ الأول لجميع تعليمات الأمن والتأمين وبطريقة مشروعة وليس لها قصد سوى تأمين القاهرة، كما ورد فى صلب التوجيهات، فما الداعى لإثارتها وتحريف معناها وقصدها لتكون أمر استعداد لوحدات مقاتلة من القوات المسلحة لقلب نظام الحكم بالقوة فى ٢١/ ٤/ ١٩٧١ ويقوم الفريق أول صادق بنشرها بعد أحد عشر عاما من إصدارها».

(٣٩)

ويورد الفريق أول محمد فوزى ملخصاً للحكم الذى صدر عليه من المحكمة العسكرية، مشيرا إلى ما تداولته أقلام كثيرة من أن السادات كان ينتوى الحكم عليه بالإعدام إلا أن المحكمة وجدت أن التهمة (الثابتة) عليه عقوبتها الأشغال الشاقة، ومع هذا فإن الحكم قد تضمن تخفيفاً من الرئيس السادات للحكم من المؤبدة إلى المؤقتة، ولا أدرى كيف فات على الفريق فوزى أن يشير إلى معنيين مهمين، المعنى الأول أن الحكم نفسه أثبت له جهده فى المساهمة مع غيره فى إعادة بناء القوات

المسلحة، وهذا ليس بالأمر الهين إذا ما قارن فوزى نفسه بأسلافه من الذين حاكمتهم الثورة من أبنائها، أما المعنى الثانى فهو أن الحكم أظهر بعبارات واضحة أسف السادات أو أساه لانضمام الفريق فوزى إلى الجبهة المناوئة له، وكأنما كان السادات بعقله الباطن لا يزال حريصا على أن يعبر أنه ظل طويلا يؤمل فى ألا ينضم فوزى لهؤلاء(!!):

«فى يوم الخميس ٩ ديسمبر ١٩٧١ حكمت المحكمة حضوريا بمعاقبة المتهم الفريق أول متقاعد محمد فوزى بالأشغال الشاقة المؤبدة، وذلك نظير التهم المنسوبة إليه».

«وقد ثبت للمحكمة توافر أركان جريمتى العصيان والترويج للعصيان فى حق المتهم ـ الفريق أول متقاعد محمد فوزى أمين فوزى ـ من وقائع جمعه المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٨/ ٤/ ١٩٧١ وتحريضه أعضاء المجلس لإبداء آراء معارضة لاتفاقية اتحاد الجمهوريات العربية التى وقعها الرئيس فى بنى غازى يوم ١٧/ ٤/ ١٩٧١».

«كما ثبتت أركان الجريمة فى اجتماع يوم ٣/ ٥/ ١٩٧١ لقادة المنطقة المركزية، والمحكمة حرصاً منها على بحث كافة جوانب القضية عرضت على السيد رئيس الجمهورية وجهة نظرها وأسباب تخفيف الحكم عند التصديق عليه، فاستجاب رئيس الجمهورية وقد تملكه الأسى لتردى المحكوم عليه فى هاوية التآمر، وأحس سيادته بالأسى لانزلاق المحكوم عليه مع بقية المتآمرين، وقد فتح قلبه الرحيم واضعاً فى اعتباره ما بذله المحكوم عليه من مجهود سابق بعد نكسة ١٩٦٧، وما ساهم به مع غيره فى إعادة بناء القوات المسلحة».

«وصدق رئيس الجمهورية على حكم المحكمة بعد تخفيف العقوبة لتكون الأشغال الشاقة خمس عشرة سنة تطبيقا للمادة ١٣٨(أ) من قانون الأحكام العسكرية».

«وكان تقدير الرئيس السادات وتوجيهاته للمدعى العام الاشتراكى ومحكمة الدائرة الثانية بالحكم علىّ بالإعدام، لكن المحكمة أخطرت الرئيس بأن الادعاء الذى ثبت علىّ عقوبته الأشغال الشاقة وليس الإعدام، وعليه أخرجت المحكمة هذا الحكم

بالشكل السابق كى يكتسب الرئيس السادات شعبية، وينال عطف القوات المسلحة التى ظلت ردود فعلها قائمة ضد إجراءات القبض علىّ، والحبس ،ثم المحاكمة والسجن».

(٤٠)

ومن المهم بعد هذا كله أن ننقل للقارئ انطباعات الفريق فوزى كما يرويها هو فى هذه المذكرات عن لقائه الرسمى الأخير بالرئيس السادات قبيل وقوع أحداث ١٥ مايو، وكيف كان فوزى غافلاً عن أن السادات مدرك تمام الإدراك لكل محاولات الجبهة المناوئة له، ونحن نرى فوزى يقص ما حدث فى أسلوب يخلط بين ما عرفه فيما بعد، وما كان يراه (أو لا يراه) من وقائع وحوارات حدثت أمامه بالفعل:

«وفى مساء يوم ٩/ ٥/ ١٩٧١ تمت مقابلة بين الرئيس السادات وبين وكيل وزارة الخارجية الأمريكية «سيسكو»، أوضح فيها نياته وأهدافه ورغبته فى الالتزام بالسياسة الأمريكية فى المنطقة، وضغط عليه كى تصل الولايات المتحدة الأمريكية إلى رأى فى المشروعات السلمية المطروحة بعد محاولة الضغط على إسرائيل للاعتدال فى شروطها. كما أبدى الرئيس ضيقه وانفعاله من رفض وزير الخارجية محمود رياض قبول الاقتراحات الواردة فى هذه المشروعات، وأن وزير الحربية يضغط عليه فى نفس الوقت لبدء معركة تحرير الأرض».

❑

ربما يسأل القارئ الآن: هل عرف فوزى بمضمون حديث السادات إلى سيسكو من التسجيلات التى كانت مثبتة فى المقار المختلفة التى يتردد عليها الرئيس السادات، وكانت تفريغاتها تصل إلى مَنْ اصطلح على تسميتهم بمراكز القوى؟ للقارئ الحق فى مثل هذا السؤال، لكن الفريق فوزى لا يترك فرصة للتخمين، فهو يذكر فى الجملة التالية مباشرة أن السادات نفسه هو الذى أخبره بهذا (!!!) وهكذا وضع

السادات وزيره حيث يريد أن يضعه، وبرر له هذا بأنه أسلوب ضغط على الأمريكان، وفى نفس الوقت فإن السادات نفسه انصرف عن هذا الحديث والجدل ليعطى لفوزى توجيهات نهائية بالمعركة، ولنقرأ هذه الفقرة الدرامية :

«والغريب فى الأمر أن الرئيس السادات نفسه روى لى هذا الحديث صباح يوم ١١/ ٥/ ١٩٧١ أثناء توجهنا من منزله بالجيزة إلى مقر القيادة العامة، وكانت إشارته فى هذا الحديث إلى القلق الذى يساوره من ضغط وزيرى الخارجية والحربية وغيرهما عليه ضد مشروعاته السلمية. وبرر الرئيس السادات هذا القول لى بصراحة: «إنه أسلوب ضغط منه على الأمريكان للإسراع بوضع ثقلهم فى حل القضية سلمياً».

«والمدهش [هكذا يقول الفريق فوزى] فى توقيت هذا اللقاء وأسلوبه واتجاهاته أن الرئيس قد أعطانى صباح نفس اليوم توجيهاته النهائية لعمليات معركة تحرير الأرض، وحدد ميعاد بدئها ليكون يوم ٢ يونيو ١٩٧١، كما أنه عقد اجتماعاً رسمياً مع سيسكو ضم رئيس الوزراء ووزير الخارجية وأنا، عقب إعطائى هذه التوجيهات. وبعد انتهاء تلك المقابلة الخاصة توجه سيسكو إلى مقر القائم بالأعمال والمصالح الأمريكية فى مصر حيث غادرها فى اليوم التالى».

❑

ثم يسارع الفريق فوزى بدون داع ليظهر مرارته من السادات مع أن بوسعه أن يؤجل هذا وأن يترك القارئ يستشفه بمفرده، ولكن فوزى يضيع على نفسه فرصة روح التعاطف:

«وتكشفت لى نيات ومقاصد الرئيس أنور السادات، وتأكدت من أن تلقينه لتوجيهات المعركة لى يوم ٩/ ٥/ ١٩٧١ فى منزله بالجيزة كان خداعاً يهدف إلى احتوائى وإخراجى من الصدام السياسى مع معارضيه، وأن معركة تحرير الأرض لن تتم فى الميعاد الذى حدده الرئيس لى».

«كما تبين لى بعد معرفة مقاصد الرئيس وأهدافه أن رغبته فى الاجتماع مع قادة القوات المسلحة يومى ١١ و١٣ مايو ١٩٧١ ما هى إلا أسلوب لاحتواء أفراد القوات المسلحة لاتجاهاته وأهدافه قبل أن ينفذ خطوة الإطاحة بمعارضيه».

(٤١)

والحاصل أنه على الرغم من كل ما يأخذه الفريق فوزى على السادات فإنه معتز بشهادات الرئيس السادات له ولجهده ، ونحن نفهم الدوافع النفسية وراء مثل هذا الموقف ، ولكن من حق القراء أن يطالعوا ما يرويه الفريق فوزى نفسه فى هذا الصدد حيث يقول :

«وبعد الإفراج أيضا استمر الرئيس السادات فى خطبه الكثيرة يذكر اسمى بالخير، وتناسى ما قدمه الدكتور مصطفى أبو زيد فهمى من إساءة وتشهير للشعب وللقوات المسلحة قبل توقيع الحكم على ، ففى ٩ مايو ١٩٧٥ ، وهو يروى قصة خروج الفريق صادق قال : «ولاشك أن المقارنة بين جهد الفريق فوزى فى تنفيذ الخطة ٢٠٠ وإهمال خليفته الفريق صادق فى هذه الخطة هو الذى جعلنى أصدر فى يناير ١٩٧٤ قرار الإفراج عن محمد فوزى رغم تورطه فى مؤامرات مراكز القوى » واستطرد فى القول « إن الوطن لا ينسى خدمات من وقف إلى جانبه وقت الشدة حتى لو كان قد وقع فى المحاذير التى تتعارض مع الصالح العام». (جريدة الأهرام يوم ١٠ مايو ١٩٧٥).

وفى صحف ٤ فبراير ١٩٧٧ قال الرئيس السادات عند استعراضه لشخصيات رجال عبد الناصر قبل وبعد وفاته وأسلوب ارتباطهم بعبد الناصر والاتحاد السوفيتى قال عنى :

« فوزى كان رجل شريف وعلشان كده أول ما تم الانتصار بتاعنا فى ١٩٧٣ على طول أخرجته لكن اللى باين قدام الناس كلها وقدام الدنيا إن الجيش معاهم. فبقى أن الداخلية والأمن العام والجيش ووزير شئون الجمهورية اللى عنده ورقى كله. كل شىء فى الدولة فى إيديهم واضح - ولهم حق الناس يقولوا إن الطريق إلى أى منصب فى مصر يمر عبر موسكو » (جريدة الجمهورية: ٤ فبراير ١٩٧٧).

❑

ونأتى ـ الآن ـ إلى فقرة ربما تمثل للقارىء مفتاح الدراما فى علاقة الرئيس

السادات بالفريق فوزى فى أثناء أزمة مايو ١٩٧١ التى انتهت بانتصار السادات واعتقال فوزى وتقديمه للمحاكمة، وإن صدق ما يرويه الفريق فوزى فى الفقرة التى سننقلها الآن فإنه يدلنا على أن فوزى نفسه لم يكن قد حسم موقعه ما بين السادات وخصومه حتى يوم الأربعاء ١٢/ ٥/ ١٩٧١، فحتى ذلك اللقاء فى ذلك اليوم كان السادات يناقش فوزى فى أمر الآخرين على أنهم «هم» وكأنما كان السادات لا يزال حريصاً على أن يكون فوزى فى صفه أو لا يزال منخدعاً أو مؤملا أن يكون الفريق فوزى فى صفه، فليس هناك معنى آخر لهذا الحوار الذى دار بينهما خاصة السطور الأخيرة منه:

«وفى يوم الأربعاء ١٢/ ٥/ ١٩٧١ توجهت إلى منزل الرئيس لاصطحابه إلى مطار ألماظة كى نتوجه إلى لقاء النصف الآخر من قادة وضباط القوات المسلحة فى قاعدة بلبيس الجوية. وفى طريقنا إلى المطار كنت أنا البادئ بالكلام مظهراً للرئيس استيائى من تصريحات سيادته للقادة والضباط أمس، وأننى لا أتحمل إطلاقا تأجيل معركة تحرير الأرض أو عدم تنفيذها فى توقيتها الذى حدده الرئيس بنفسه ليكون يوم ٢/ ٦/ ١٩٧١، فرد الرئيس بعتاب: «أنت مش فاهمنى يافوزى، أنا لم أؤجل المعركة أو ألغيها إنما أردت بكلامى أمس أن أعرف رأى القادة والضباط فقط، وقد صفقوا لى أمس». ولكنى أجبت فوراً: «لا ... لا.. يا سيادة الرئيس، أنا فهمت قصدك تماماً أمس بدليل إحراجك لى فى النهاية ورفضت توقيع توجيهات القائد الأعلى لمعركة تحرير الأرض التى كلفتنى بتحريرها»، فرد علىّ بأن الوقت لم يكن مناسباً للتوقيع وأنه كان متأخراً على ميعاد لقاء وزير خارجية إيران أمس.

«وكان هذا الرد من الرئيس خداعاً آخر سرعان ما تكشف فى أحداث اليوم. وأعدت الحديث عن الجبهة الداخلية وكررت رجائى للمرة الثانية لتجميد الموقف الداخلى، إذ أن إجراءات بدء المعركة تسير فى خطوات جدية، والقوات المسلحة مستعدة ومتحمسة لتنفيذها، ولاحظت أن الرئيس دون عادته لم يدخل فى موضوع المعركة، ولكنه قال: «أظن عاوزنا لما ننتصر يقولوا إحنا اللى انتصرنا.. لا أبدا».

«وفى هذا القول عاد الرئيس ثانيا إلى إيضاح ما لم أكن أتوقعه إطلاقاً، فتبين لى هدف الرئيس المتمثل فى إزالة خصومه ومعارضيه قبل إزالة آثار العدوان، وأن النصر

فى المعركة لا يعود إلى مصر وقادتها الحاليين بقدر ما يجب أن يعود على شخص الرئيس السادات فقط، كما قدرت بعد سماعى هذه الجملة من الرئيس عمق الكراهية والحقد الذى خص به الجماعة المشار إليهم فى قوله، وهم قادة وأفراد المؤسسات السياسية والدستورية المعاونون له فى الحكم، والذين قدر عددهم يوم ٩/ ٥/ ١٩٧١ بمائة فرد، وأن الرئيس السادات قد خص شخصه فقط لانتساب النصر له وحده دون تقدير لضرورة إتمام معركة المصير فى توقيتها المناسب».

(٤٢)

«فى يوم ١١/ ٥/ ١٩٧١ تم اللقاء الأول للرئيس مع عدد كبير من القادة والضباط من مختلف أسلحة القوات المسلحة فى صالة الشهيد عبدالمنعم رياض فى القيادة العامة، وحضره كالمعتاد عدد كبير من المستشارين السوفييت حيث خاطب الجميع بقوله: «المبادرة المصرية قائمة، وهى تمثل واحداً فى المائة، أما الحرب فهى تمثل تسعة وتسعين فى المائة من الأمل، وإننى سوف أرسل مندوباً خاصاً إلى واشنطن بعد خمسة عشر يوماً لمعرفة رأى الولايات المتحدة الأمريكية النهائى. وأنا أقلت على صبرى من جميع مناصبه، إذ أنه يمثل لمراكز القوى وأن اللجنة المركزية بالإجماع وافقت على اتفاقية الوحدة مع ليبيا وكان أولهم على صبرى». ثم دعا القادة والضباط لطرح أسئلتهم، وكانت معظمها تدور حول معركة تحرير الأرض، والسؤال عن اشتراك سوريا معنا فى المعركة، وعن قرار مجلس الأمن. ثم أجاب الرئيس عن أسئلة المعركة وقال: «فوزى حملنى مسئولية الإعلان عن استعداد القوات المسلحة، وعندما ينتهى فوزى من التخطيط سوف لا ننتظر، أنا طلبت من الروس أن يضعوا تخطيطاً للمعركة، وهنا بدأ المستشارون السوفييت يستوضحون المترجمين بجوارهم عن صحة ما قاله الرئيس عنهم».

«وكان هذا التصريح الذى ذكره الرئيس عن تخطيط المعركة خداعاً علنياً للقادة والضباط بعد أن وافق بنفسه على خطط عمليات القوات المسلحة لمعركة تحرير الأرض وحدد يوم ٢/ ٦/ ١٩٧١ لبدئها. وبعد هذا التصريح الواضح أيقنت أننى

أمام مناورة خداعية يقودها الرئيس شخصياً، وأن توجيهاته عن معركة تحرير الأرض التى ذكرها لى يوم ٩/ ٥/ ١٩٧١ لن تتحقق، وأن هدف الرئيس من إرضائى وقبول رغبتى فى إتمام المعركة فى أقرب فرصة، ما هو إلا احتواء لشخصى ومركزى حتى لا أقدم على موقف ما يحرج مركزه وقيادته. كما ظهر للقادة والضباط أن شعارات الرئيس عن سرعة إتمام معركة تحرير الأرض التى تمثل تسعة وتسعين فى المائة من الأمل هى شعارات إعلامية الغرض منها امتصاص شغف أفراد القوات المسلحة لتنفيذ معركة تحرير الأرض».

«وأنهى الرئيس هذا اللقاء بالإشادة بقيادة القوات المسلحة فى مصر وسوريا، وتلقى تصفيقاً من جميع القادة والضباط على هذه الخاتمة».

«وأثناء نزول الرئيس من الدور السادس ـ وكنت أنا والفريق صادق برفقته ـ طلبت من الرئيس فترة راحة فى مكتبه بالقيادة لتوقيع توجيهات العمليات الحربية لمعركة تحرير الأرض التى كلفنى بتحريرها، وذكرت له أن توقيعها لن يستغرق وقتاً طويلا، وأظهرت التوجيهات من جيبى، فرد الرئيس وقال: «لا مافيش لزوم.. بلاش». وكان لهذا الرد أثر عميق فى نفسى، تأكدت فى هذه اللحظة أن تشككى السابق عن القصد الحقيقى للرئيس بالنكوص عن المعركة أصبح أكيداً.

«توضح لى موقف الرئيس بعد هذا اللقاء مباشرة، ولم يكن لى من خيار سوى ترك منصبى بعد هذا الجهد الذى استمر أربع سنوات كنت أتمنى خلالها إدارة معركة تحرير الأرض فى هذا الوقت بالذات، (وهى المعركة) التى كنت واثقاً إزاءها من فوزنا لأول مرة على إسرائيل فوزاً لا تشكك فيه».

«ولم يكن رد فعل هذا اللقاء على نفسى فقط، بل إن القوات المسلحة أيضاً كانت متخوفة من تدخل النفوذ الأمريكى فى مصر بعد أن تأكدت من اتجاه الرئيس وتصميمه على السير فى خط أمريكا [كتب هذا وقد ذكر السادات أن مبادرته لا تمثل إلا ١٪ فقط]. كما تحسر القادة والضباط على المجهود الضخم الذى قاموا به فى إعداد القوات المسلحة للمعركة، والتى وضحت سلبيتها فى كلام الرئيس اليوم».

«وأقبل علىّ كبير المستشارين السوفييت جنرال أوكنييف بعد اللقاء مباشرة يستفسر منى عن قصد الرئيس فى كلمته للضباط اليوم عن تكليف الروس لتخطيط

عمليات المعركة، وأن تخطيط المعركة ليس من واجبات المستشارين، كما استفسر عن معنى تسعة وتسعين فى المائة للحرب، وسفر مندوب مصرى إلى الولايات المتحدة بعد خمسة عشر يوماً، وكان الرئيس قد ذكر ذلك فى خطابه اليوم، ولما كنت شخصياً فى حيرة عن معنى هذا الكلام، فلم أجب كبير المستشارين على أسئلته، ووعدته بمقابلة شخصية تتم مع الرئيس باكراً فى قاعدة بلبيس الجوية».

(٤٣)

وفيما يبدو فإن السادات قد استطاع أن يدخل فوزى فى متاهة جديدة ليس لها علاقة بالموضوع، على حين كان صادق يتربص، ويتضح هذا المعنى فيما يرويه الفريق فوزى عن اللقاء الذى انعقد فى قاعدة بلبيس الجوية يوم ١٢ مايو ١٩٧١ :

«وكان كبير المستشارين السوفييت قد طلب مقابلة الرئيس للاستفسار عن نقاط تخص السوفييت وردت فى حديث الرئيس أمس، وتمت المقابلة فى غرفة مجاورة لصالة الطعام الرئيسية فى القاعدة، وحضرتها كما حضرها الفريق صادق الذى أخذ يكتب كل ما حدث فى هذا اللقاء. أجاب الرئيس على سؤال كبير المستشارين عن تكليف السوفييت بالتخطيط للمعركة بقوله: «نعم أنا عاوز تخطيط منكم لتحرير سيناء بس عاوز أسلوب القتال يتم بدقة وبحذر وليس بطريقة البلتزكريج (أسلوب مناورة واندفاع بقوات مدرعة) زى الألمان فى الحرب العالمية الثانية».

وعندما حاولت التدخل فى هذا الحديث لتنبيه الرئيس إلى أن هذا ليس من واجب السوفييت، كانت إجابة كبير المستشارين للرئيس بنفس المعنى الذى أردت أن أذكره، وأضاف أنه سيقوم بإخطار القيادة السوفيتية فى موسكو.

ولم يستطع الجنرال أوكنييف استكمال باقى أسئلته التى أراد استيضاحها منى أمس وهى الخاصة برواية الرئيس عن أن نسبة أمله فى المعركة تسعة وتسعون فى المائة، وأنه سيرسل مندوباً إلى واشنطن بعد خمسة عشر يوماً لمعرفة رأى الولايات المتحدة الأمريكية النهائى، وهى الرواية التى كررها للقادة والضباط اليوم».

(٤٤)

هكـذا وصل الحـال بفوزى إلـى ما يقـرب من الـيأس من الـسادات والأمـل فى الآخرين، وهو لهذا ـ فيما يوحى به فى هـذه المذكرات ـ بدأ يعطى إنذاراته للسادات كأنه يرضى ضميره فى التخلى عنه :

«وعندما عبرت للرئيس عن أن موقعى أصبـح غير مجد بسبب توجيهات سيادته المتناقضة عن المعـركة وتحديد ميعادها، ومرة أخرى عن تأجيل المـعركة، ومرة ثالثة لا معركة، وأخيراً تـكليف السوفييت بتخـطيط جديد لعمليات تحريـر سيناء، رد علىّ: «مش وقته يافوزى».

«وكانـت هذه آخر جمـلة من الـرئيس إلىّ، فـاكفهـر وجهى وكدت أخـرج عن شعورى وأعلن موقفى الـذى اختمر فى ذهنى بعد لقاء البارحة وهـو تركى منصبى ومسئوليـتى فوراً، لكننى تنـبهت إلى أن اتخاذى موقفـاً مضاداً وعلنياً فى هـذا اللقاء وبحضور كبير المستشارين السوفييت سـيكون موقفاً حاداً، خاصة أن جمعاً كبيراً من القـادة والضباط مـنتظـرون تناول الغـداء مع الرئيـس فى الصـالة المجاورة. واستـمر استحـيائى بعد تنـاول الغداء فى الكـلية الجوية بـبلبيس، وأثنـاء عودتنا إلى الـقاهرة بالطائـرة، عزمت على أن أخطر الرئـيس برغبتى فى الـتنحى خلال عودتنا بـالسيارة إلى مـنزله بالجـيزة، لكن الـرئيس فضـل ذهابى مبـاشرة إلى اجتـماع وفد عسـكرى سوفيتى حضر صباح اليوم لمقابلتى، وكان يـعلم ميعاد المقابلة، وضاعت منى الفرصة فى مواجهـة الرئيس باستقـالتى، كما ضاعت فرصـة تنفيذ معركـة تحرير الأرض فى توقيتها المناسب».

هكذا يروى الفريـق فوزى لحظاته الأخيرة فى السلطة بـكل ألم ومرارة ثم يردف بقوله:

«واحتسـب الخطأ الأول علىّ وتحـملت آثاره ونتـائجه بصـبر وجلد، كمـا سجل التاريـخ الخطأ الثانـى على الرئـيس السادات وتحمـلت مصر وقواتـها المسلـحة آثاره ونتائجه بصبر وجلد أيضاً».

من حق القارىء أن يسأل كيف كان هذا الذى يدعيه الفريق محمد فوزى خطأ من الرئيس السادات؟ وكأنه لم يقد حرب أكتوبر ١٩٧٣؟

(٤٥)

ويحرص الفريق فوزى فى هذه المذكرات على إدانة وسائل الإعلام المناصرة للسادات فيما يطلق عليه تهيئة الأذهان للقبول بسياسته التى يطلق عليها فوزى مسمى «استراتيجية المصالحة»:

«وكان المحور الثانى لنشاط الرئيس السادات فى هذه الفترة هو وسائل الإعلام، فقد اتخذ بعض الكتاب المعروفين والمقربين إليه وسيلة لإعلان اتجاهاته الذاتية الشخصية عن السياسة الداخلية وعن المعركة، وكان هؤلاء الكتاب سعداء لقربهم دون سواهم من رئيس الجمهورية، فأحاطوا به وأيدوه، وكانوا سنده فى معاركه الداخلية التى بدأ يدبرها».

«وقد كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل فى أهرام يوم الجمعة ١٢/ ٣/ ١٩٧١ عن معركة تحرير الأرض تحت عنوان «تحية للرجال» أدى - فى اعتقادى - إلى إحباط معنويات المقاتلين فى القوات المسلحة. لقد صور لهم المشقة، والخسائر المنتظرة عند محاولتهم عبور قناة السويس واقتحام خطوط العدو الدفاعية شرقها وفى عمق سيناء حتى المضايق الاستراتيجية وما بعدها، حيث يتم هلاك ما تبقى من مدرعاتنا عندما تقابل مدرعات العدو المحتشدة شرق المضايق. كما شرح فى مقاله بالتفصيل الدقيق دفاعات العدو التى أضفى عليها صفة المناعة والضخامة واستحالة تدميرها بواسطة مقاتلينا وترك بين سطور المقال ما يتوقعه من وجهة نظره من خسائر ضخمة فى الأفراد والمعدات نتيجة لمحاولة قواتنا اقتحام هذه المواقع. ولم يكن هذا المقال إلا تكراراً لسؤال الرئيس السادات لجميع قادة القوات المسلحة عند عرض قراراتهم عليه بشأن الخسائر المتوقعة لقواتنا عند قيامها بعملياتها الهجومية لتحرير سيناء. كان رد فعل هذا المقال بين أفراد القوات المسلحة عموماً عنيفاً فى تأثيره الضار على معنويات المقاتلين. وعندما أبلغت الرئيس السادات استياء أفراد القوات المسلحة

جميعاً من نشر هذا المقال رد عليّ قائلاً: «ما هي دى حرية الصحافة». وعندما رد الأستاذ عبدالهادى ناصف أمين التنظيم وعضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى على مقال حسنين هيكل بعنوان «تحية مردودة من الرجال»، نشر فى جريدة الجمهورية، وكان معبرا عن شعور المقاتلين الحقيقى وغضبهم فى نفس الوقت، شعر حسنين هيكل بحسه السياسى أن الموجه لهذا الرد هم قادة المجموعة المعارضة للسادات».

(٤٦)

كما يحرص الفريق فوزى على إدانة هيكل بسبب نشره معلومات عسكرية غير مسموح بنشرها ومن الغريب أن الفريق فوزى لا يذكر لنا أى رد فعل قام به كقائد عام للقوات المسلحة المصرية تجاه هذا الخطأ الواضح، وإنما اكتفى بأن ذكر رد فعل هذا على أفراد القوات المسلحة، أما على مستوى القادة، فقد كان الأمر مثار جدل فحسب!! وهذا هو كل جهد فوزى فى مواجهة هيكل فى ذلك الوقت!!

«وفى يوم ٢٠/ ٣/ ١٩٧١ نشر فى صدر جريدة الأهرام عنوان كبير «عن استعداد قواتنا البحرية لأخذ دورها فى المعركة»، وجاء هذا الإعلان الصريح عقب تبليغى الرئيس السادات عن نجاح غواصاتنا البحرية فى القيام برحلات سرية تمكث فيها ليلة كاملة فى أحد موانئ العدو وتتم مهمتها، وتعود إلى قاعدتها سالمة دون أن يشعر بها العدو، وهو برنامج تدريبى واستطلاعى كانت تقوم به وحداتنا البحرية منذ عام ١٩٦٩. وعلمت أن نقل هذا الخبر إلى الأهرام جاء عن طريق حديث خاص من الرئيس السادات إلى الكاتب حسنين هيكل».

وكان رد فعل نشر هذه المعلومات العسكرية ـ خاصة السرية منها على الرأى العام ـ ما تناقله القادة والضباط من استنتاج «أن قواتنا المسلحة لن تقاتل العدو»، إذ أن نية وتوقيت القتال لا يجوز أن تتداول للنشر فى الصحف، وأن هذا ما يرمى إليه الرئيس السادات».

«كما كان توقيت نشر هذه المعلومات العسكرية فى الأهرام مثار جدل بينى وبين القادة فى نفس الوقت الذى كنت أعد فيه برنامجا زمنيا للرئيس يتضمن خطط عمليات الأفرع الرئيسية والتشكيلات الميدانية والإدارات المتخصصة للعرض على القائد الأعلى للقوات المسلحة للمرة الأخيرة».

❑

وفى موضع آخر يشير الفريق فوزى إلى طبيعة التعاون والتحالف الذى نشأ بين هيكل والفريق صادق ويقول :

«وكان الكاتب حسنين هيكل مقدراً وزن الدعائم الثلاث التى كان الحكم يرتكز عليها فى ذلك الوقت، وهى السلطة ممثلة فى السادات، والمؤسسات الدستورية ممثلة فى المجموعة المعارضة ، والقوات المسلحة ممثلة فى شخصى. وراعى هيكل أن يكون موقفه وعلاقاته بالجميع متوازنة، إذ أنه لم يصل إلى استنتاج فورى عمن سيفوز فى هذا الخلاف».

«ولما كان هيكل يتحاشى الاتصال بى فى ذلك الوقت لاعتبارات عديدة، فقد فتح طريقه إلى القوات المسلحة بواسطة الفريق محمد أحمد صادق رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة».

(٤٧)

لعلنا الآن نعود بضع خطوات إلى الوراء مع مذكرات الفريق محمد فوزى لنقتطف للقارىء منها هذه الفقرات التى حرص صاحب المذكرات بها أن يصور لنفسه دوراً كبيراً فى تأييد الرئيس أنور السادات كمرشح لخلافة الرئيس جمال عبد الناصر، وسوف يجد القارئ نفسه مصاباً بالدهشة من بعض العبارات فى حديث صاحب هذه المذكرات ، ولكنى أرجو أن تقرأ هذه العبارات كمواطن من القرن الحادى والعشرين أو كأجنبى لم يدر شيئاً من أمر انتخاب أنور السادات رئيساً دون أن تثقل نفسك بما تعرفه عن طبائع الأمور وحقيقة الأمر فى مجرياتها، يقول الفريق أول محمد فوزى:

«وعند اقتراب يوم الاستفتاء على انتخاب الرئيس أنور السادات عقدت اجتماعاً موسعا للقادة، ذكرت فيه الدوافع التى اعتمدت عليها مؤسسات الدولة الدستورية والسياسية فى ترشيح السيد أنور السادات ـ النائب الوحيد للرئيس الراحل جمال عبد الناصر ـ، وأنه تعهد ـ أمام أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء مجلس الأمة ـ باستعداده للسير على طريق عبد الناصر. وكررت على النقاط الست التى أعطاها أهمية خاصة أمام مجلس الأمة فى يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٠. وأنهيت لقائى مع القادة بأن المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية خلفاً للزعيم الراحل هو السيد أنور السادات" .

«وانتشر هذا البيان وأذيع على لسان الجنود فى كل قرية من قرى الجمهورية، وعاوده الشعب بطريقته المعهودة ـ بترديد النداء "الجيش عاوز السادات" ـ حتى يوم الاستفتاء . كما كان هذا الشعار ترجمة للارتباط بين الشعب ومعركة تحرير الأرض المتوقعة قريباً ، وبين الزعيم الراحل وقواته المسلحة التى أعدها لهذا اليوم الموعود. فكانت رغبة أفراد القوات المسلحة وحدها ـ والتى وصل تعدادها فى ذلك الوقت إلى ما يقرب من المليون، وهو عدد يمثل سدس الناخبين فى مصر، بالإضافة إلى أصوات ذويهم الناخبين ـ عاملاً كافيا لوصول السيد أنور السادات إلى منصب رئيس الجمهورية ».

«وكان اندفاع القوات المسلحة فى تأييد المؤسسات الدستورية فى الرأى والقرار، إذ أنها ثمار جهود الزعيم الراحل وحده، وكان الاعتبار الأساسى فى الترشيح مبنيا على قرار الرئيس عبد الناصر بتعيين أنور السادات نائباً وحيداً له قبل وفاته بعشرة شهور فقط».

«ولم يكن اسم السيد أنور السادات على قمة المعرفة بالنسبة للشعب إذ أنه لم يوكل إليه أى عمل ثورى أو تنفيذى منذ قيام الثورة ، بل كانت السلبية فى حركته وابتعاده عن مواقف تطور الثورة ونموها مدعاة لبقائه فى الحكم مع زميل واحد فقط عند وفاة الرئيس جمال عبد الناصر».

(٤٨)

على أن أكثر ما فى هذه المذكرات مدعاة للتأمل الساخر هو الموقف المبكر الذى

يحرص الفريق فوزى أن يصور به العلاقة بينه وبين الرئيس السادات فى بداية عهد السادات كرئيس للجمهورية، ونحن نفاجأ فى هذه المذكرات بحرص شديد من الفريق فوزى ـ صاحب المذكرات ـ على التعالى الشديد على رئيس الجمهورية الجديد ، أى حين أصبح الرئيس أنور السادات رئيساً للجمهورية، ويظهر الفريق فوزى نفسه فى كثير من الفقرات كأنه أصبح مسئولاً عن تثقيف الرئيس الجديد وتعليمه وتربيته، أو كأنه أصبح مرشد جلالة الملك، ومع هذا فهو يعترف فى ثنايا ما يرويه ـ وربما دون أن يدرى ـ أن السادات كان أذكى منه، وكان قادراً على الإيحاء للضباط والجنود بعكس ما كان صاحب المذكرات نفسه يعتقد أنه متاح للمشاهدين وللمراقبين.

ولنقرأ هذه الفقرات البديعة التى تصور مأساة الإنسان حين يتصور نفسه أذكى من رئيسه ويبنى حساباته على هذا الأساس بينما رئيسه يلعب به دون أن يدرى، ومن الطريف أن الفريق فوزى قد كتب هذه الفقرات على هذا النحو الطريف ، وأنه لم يلتفت إلى إمكان إعادة صياغتها بطريقة أكثر خبثاً لكى ينال من السادات :

«وكان الرئيس السادات يعلم منذ البداية أن أعضاء المؤسسات الدستورية والسياسية ـ التى شملت تنظيمات الاتحاد الاشتراكى العربى وقياداته السياسية والتنظيمية والطليعية ـ تتنافر مع شخصه، وأن تجاربه الشخصية من هذه التنظيمات تؤكد هذا التنافر. وعلى ذلك، ومن أجل أن يثبت أركان حكمه ويبنى من جديد أركاناً جديدة تتفق مع أهدافه وأسلوبه فى الحكم، اضطر ـ أمام الرأى العام المحلى والقومى ـ أن يساير ويتمشى ظاهرياً ومؤقتاً مع هذه المؤسسات، مترقباً إلى أن تمكنه الظروف والأحداث من القضاء عليها وإقصائها عن مشاركته فى الحكم».

هنا يبدو الفريق فوزى معبراً تمام التعبير عن نظرة العسكريين الانقلابيين إلى السلطة، وهو ينظر أيضاً إلى الأمر من وجهة نظر الوراثة وأن لكل فرد من الطاقم القديم نصيبا، وكأنما كان الاستفتاء الشعبى على رئاسة الرئيس الجديد للدولة وللسلطة والحكومة بالتالى نوعا من العبث، وكأن الرئيس الجديد ملزم بالأعضاء القدامى وليس من حقه اختيار معاونيه، ولاشك أن *الفقرة السابقة تمثل نصاً* بديعاً

لدارسى العلوم السياسية للدلالة على مدى ما يتمتع به أمثال الفريق محمد فوزى من فهم قاصر لديناميات السلطة.

(٤٩)

ثم لنقرأ هذه الفقرة البديعة والنادرة التى تعبر عن رؤية غريبة تجاه رئيس جديد لم يكن فى الحقيقة فى يوم من الأيام ولا فى ساعة من الساعات منذ قيام الثورة فى وضع بروتوكولى أو تنفيذى أقل من وضع صاحب المذكرات :

«لم يكن القائد الأعلى الجديد على دراية كافية بالقدرة القتالية للقوات المسلحة، بعد زيادة حجمها والخبرة القتالية التى اكتسبها القادة والضباط والجنود، خلال ثلاث سنوات من القتال المرير مع القوات الإسرائيلية».

هنا قد يفهم القارئ بمنطق مفهوم المخالفة أن أنور السادات كان على دراية كافية بالقوات قبل الثلاث سنوات التى تشرفت فيها هذه القوات برئاسة الفريق فوزى ورعايته (!!) وكأن القوات المسلحة لم تكن شيئاً مذكوراً قبل الفريق فوزى، فهى سهلة الفهم على السادات قبل فوزى لكنها صعبة بعدما شملها فوزى برعايته، ولنواصل قراءة هذه الفقرات.

ولنقرأ أيضا ما يرويه الفريق فوزى من أن الرئيس الجديد لم يكن على علم بقرار الحرب الذى أمضاه الرئيس الراحل قبل وفاته بأسبوعين(!!) وكأن هذا مما يعيب الرئيس الجديد أو يجعل من حق الفريق فوزى أن يكون وصياً عليه(!!) ولهذا فمن المنطقى أن يصل صاحب المذكرات إلى ما وصل إليه من اقتناع يلخصه هو بقوله :

«كما كان القائد الأعلى الجديد بعيداً عن التخطيط القتالى للقوات المسلحة ولا يعلم بقرار المعركة الذى صدق عليه الرئيس الراحل قبل وفاته بأسبوعين. وقدرت أن هذا النقص فى المعرفة لدى القائد الأعلى الجديد سوف يؤخر إجراءات استعداد القوات المسلحة ـ لبدء معركة «تحرير الأرض» ـ عن التاريخ الذى حدده الرئيس

الراحل، وأصبح الموقف يستلزم بدء برنامج خاص لصنع قرار جديد للمعركة من القائد الأعلى الجديد».

(٥٠)

ثم يبدو الفريق فوزى وقد ازداد حماساً فى دعاواه الجديدة الطريفة، وهو حريص على أن يقلل من قدر السادات، وفى ذات الوقت فإنه يبدو كما لو كان يوجه اللوم للرئيس عبدالناصر الذى لم يدرب السادات جيداً، وهنا نكاد نقرأ صورة من صور الحديث عن الملك الابن والملك الأب لا عن رئيس راحل ورئيس لاحق:

«كما أن الرئيس عبدالناصر لم يعط الفرصة الكافية لنائبه كى يكون على جانب معقول من المعرفة عن القوات المسلحة، بدرجة تسمح بتولى قيادتها العليا فى وقت قريب. وكان نشاط السيد أنور السادات كرئيس لمجلس الأمة أو كنائب للرئيس محدوداً بالنسبة للقوات المسلحة، فقد حضر اجتماعاً واحداً برفقة الرئيس عبدالناصر عن إعادة تنظيم القوات المسلحة، ورافق الرئيس فى زيارة ميدانية واحدة للجبهة، كما حضر مع الرئيسين عبدالناصر والقذافى استعراض فرقة مشاة ميكانيكية أنشئت حديثاً فى دهشور. وانتهت الزيارة بمشروع إبرار جوى فى أبريل ١٩٧٠».

❑

ويبدو أن الفريق فوزى قد سأل نفسه وهو يكتب هذا الذى يسجله: وهل كان هناك أحد آخر غير الرئيس السادات على فكرة جيدة بالقوات المسلحة! ومر بخاطره الرجل الآخر الباقى من مجلس قيادة الثورة وهو حسين الشافعى، ولكنه وجد أن الشافعى هو الآخر لا يحظى بما حظى به هو (أى الفريق فوزى) من خبرة بالقوات المسلحة، فكأنه بدأ يفكر فى أنه كان هو الأحق بخلافة عبدالناصر مادام هذان الرجلان كانا بعيدين إلى هذا الحد، وهنا تتجسد فى فوزى عقلية البيروقراطى الذى يظن وظيفته مهما علا قدرها بمثابة كل شىء بالنسبة لرئيسه الأعلى:

«وكانت مشاهد اقتراب كل من السيدين أنور السادات وحسين الشافعى

متساوية بالنسبة للقوات المسلحة، طوال ثلاث سنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠. ولم يصدر الرئيس عبدالناصر أى قرار بتخويل سلطات رئيس الجمهورية، وما يتبعها من سلطات ومسئوليات القائد الأعلى للقوات المسلحة، خلال فترات قيام الرئيس عبدالناصر بمهام خارج أرض الوطن».

❑

ومع أننا مازلنا فى الحديث عن القوات المسلحة وعن تخويل سلطة القائد الأعلى لأحد من نوابه ، إلا أن الفريق فوزى سرعان ما يقفز إلى الحياة المدنية وإلى السلطات الأخرى لرئيس الجمهورية ـ دون داع للقفز طبعاً ـ ولكن الداعى موجود ومسيطر على الفريق فوزى من أول المذكرات إلى آخرها، ونحن نعرف الداعى جيداً:

«وبالتالى لم يصدر نائب الرئيس السيد أنور السادات أى قرار داخلى فى غياب الرئيس عبدالناصر، وكان يرفض إجابة الاستشارة أو حتى إبداء الرأى، مثلما حدث أثناء زيارة الرئيس لموسكو فقال: «اتصلوا بالريس فى موسكو واسألوه»، وذلك عند محاولة الإنزال الإسرائيلية الفاشلة فى جزيرة شدوان فى ٢٢ يناير ١٩٧٠».

❑

ويعود صاحب المذكرات إلى الحديث فى نفس الاتجاه مشيراً إلى ما يصفه بأنه ضعف كمية ونوعية المعلومات التى كان عبدالناصر يتيحها للرئيس السادات:

«كما أن السيد أنور السادات ـ نائب الرئيس ـ لم يكن على بينة بما يقدم عليه الرئيس عبدالناصر من قرارات هامة، ففى الوقت الذى تقرر فيه الموافقة على مبادرة روجرز ـ وكانت خمسة أجهزة قيادية فى الدولة تعلم ذلك [لايحدد الفريق فوزى هذه الأجهزة] ـ أعلن نائب الرئيس أنور السادات أمام اللجنة السياسية المنبثقة من اللجنة المركزية ـ وكان يرأسها ـ أن مصر رفضت هذه المبادرة، وكان لهذا التصريح من نائب الرئيس ردود فعل وانعكاسات غير سليمة داخل الجمهورية وخارجها».

(٥١)

ثم إذا نحن نفاجأ أيضاً بقفزة غريبة يوردها الفريق فوزى فى وسط هذا الحديث،

ومع أنه يبدو فى الفقرة خطأ مطبعى أو خلط مقصود من الفريق فوزى حين ينص على أن على صبرى عين مساعداً للوزير (أى للفريق فوزى نفسه) على حين أن على صبرى كان نائب رئيس جمهورية سابقاً ورئيس وزراء سابقاً وعضواً فى اللجنة التنفيذية العليا بما لا يستقيم معه أن يعمل مساعداً للوزير(!!) مع هذا الخطأ الواضح فإن الفريق فوزى يرتب على هذا أن أجهزة قيادات الاتحاد الاشتراكى بدأت ترتب للتعاون مع على صبرى.. على نحو ما سنقرأ.. ومن العجيب أنه لو كان الفريق فوزى نفسه نشر مثل هذا الكتاب قبل أحداث مايو ١٩٧١ لكانت هذه الفقرة مناسبة تماماً لتضم إلى قائمة الاتهامات الموجهة له فى التعاون ضد السادات وربما أهلته لعقوبة أكبر :

«وعندما عين الرئيس عبدالناصر الفريق فخرى (على صبرى) مساعداً لوزير الحربية لشئون الطيران والدفاع الجوى عام ١٩٦٩، وتكليفه بمتابعة إمدادات السلاح من الاتحاد السوفيتى لمصر كل ثلاثة أشهر وما يتبع ذلك من اتصالات وعلاقات مع قيادة دولة عظمى ـ كانت هى المصدر الوحيد لدعم القدرة القتالية للجمهورية العربية المتحدة ـ بدأ فكر أجهزة الدولة القيادية ـ خاصة أجهزة قيادات الاتحاد الاشتراكى ـ فى التعاون مع السيد على صبرى، وكلها ثقة فى مجهوداته من أجل معركة التحرير».

❑

ومع هذا فإن الفريق فوزى حريص على أن يستنتج من هذه المقدمات أن أنور السادات لم يكن الرجل الثانى مع أن من الثابت فى الحقيقة وفى كثير من المذكرات والكتابات المعادية للسادات أن الثلاثة الذين كانوا يدبرون أمور الدولة فى غياب أو مرض عبدالناصر كانوا يعرفون أن أنور السادات هو الرجل الثانى وكانوا يبحثون عنه ويعرضون عليه ويحصلون على توقيعه وتوجيهاته، ولم يكن الفريق فوزى نفسه من هؤلاء الثلاثة:

«كل هذه الشواهد والأحداث، كانت تعطى الانطباع داخل دائرة الثقة أن السيد النائب أنور السادات لم يكن هو الرجل الثانى فى مصر خلال حرب الثلاث سنوات، قبل وفاة الزعيم عبدالناصر».

(٥٢)

ولنا أن نتأمل الآن البرنامج العبقرى الذى وضعه لجلالة الملك [الصبى] الجديد مرشده الذى هو الفريق محمد فوزى:

«إزاء هذا الموقف الجديد، قمت بوضع برنامج زمنى خاص لتمكين الرئيس أنور السادات من معرفة القدرات القتالية للقوات المسلحة، وذلك بحضوره لقاءات متعددة مع القادة بمختلف أسلحتهم وتشكيلاتهم، وسماع ومناقشة عروضهم لمهامهم القتالية، وكانت اللقاءات محدودة العدد لكنها تستغرق وقتاً كافياً يتبادل فيه القائد الأعلى مع كل قائد المناقشة الموضوعية عن مهمته، ويتعرف من خلالها عن قرب على شخصية القائد واسمه ومهمته. كما وضعت برنامجاً زمنياً آخر لمرور القائد الأعلى على التشكيلات ومراكز القيادة الميدانية فى الجبهة وغيرها، حتى يتمكن من معرفة حقيقة أوضاع التشكيلات الميدانية على الطبيعة».

❑

وهنا يبخل علينا الفريق فوزى بأن يشير إلى أن الرئيس الجديد (تحت التدريب) قد اجتاز البرنامج الموضوع له من قبل الفريق فوزى بنجاح سريع لم يكن فوزى نفسه واعياً له.. ولكنه على كل حال يقر بهذا لأنه لم يذكر عكسه،ولو كان عكسه قد حصل ما فرط فوزى فى الإشارة. وهو الآن يتحدث عن المعرفة العسكرية للرئيس الجديد وسنراه قادراً على أن يذاكر للرئيس كل ما فات الرئيس استذكاره بحكم ظروفه (أى ظروف الرئيس) القاسية:

«وبدأت مرحلة جديدة خاصة بتغطية نقص المعرفة العسكرية لدى القائد الأعلى الجديد للقوات المسلحة، ذلك لأن خبرته العسكرية ـ كضابط سابق بالقوات المسلحة ـ اقتصرت على خدمة عسكرية لمدة أقل من سبع سنوات، وعلى فترتين كان الفاصل بينهما سبع سنوات، قضاها فى الحبس الاحتياطى أو الاعتقال أو فى أعمال يدوية ومهنية بعيداً عن مهام الضابط المقاتل بالقوات المسلحة. ولم يكن على معرفة بالضباط العاملين يوم تولى مسئولياته كقائد أعلى للقوات المسلحة، سوى بعض من

ضباط دفعته عام ١٩٣٨، كما لم يكن له مساعدون ضمن تنظيم الضباط الأحرار بوصفه أحد قادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢».

(٥٣)

وفى الحقيقة فإن صاحب المذكرات حريص على أن يوحى إلينا بأن مهمته فى تأهيل الرئيس الجديد بالعسكرية كانت صعبة وعسيرة من وجهة نظره ، ولنقرأ ما يرويه هو:

«وكانت هذه الظروف للقائد الأعلى الجديد سبباً مقبولاً لابتعاد فكره وعلمه عن مبادئ الفن العسكرى وتطوره، كذا عن مستلزمات القيادة العسكرية وتطورها، وأصبحت مهمتى صعبة وعسيرة لتمكين القائد الأعلى الجديد من ملء هذا الفراغ العلمى - فى أقصر وقت ممكن - لملاحقة الأحداث التى أخذت تتطور بسرعة فى هذه الفترة التى تولى فيها الرئيس السادات مسئوليته كقائد أعلى للقوات المسلحة».

❑

ثم تكون النتيجة الحتمية أن ينساق الفريق فوزى دون أن يدرى إلى تصديق تمثيليات السادات وأساليبه الطريفة فى الالتفاف من أجل الحصول على المعلومات بطريقة كوميدية، ويبدو الفريق فوزى كما لو كان حريصا على أن يصور نفسه ساذجاً وهو يأخذ كلام السادات مأخذ الجد بينما السادات الذكى الماكر يتسلى به، ولنقرأ هذه القصة دون أن نفرض عليها شرحاً أو تفصيلاً، ولو كان الفريق فوزى صادقاً فى كل ما يرويه فيها، فلقد كان من الأفضل له ألا يكتب مذكراته هذه بنفسه:

«وكانت ظاهرة معرفته بالتقاليد العسكرية المعلنة عن الجيش الإنجليزى أو الألمانى أو الإيرانى موضع فخره واعتزازه فى المناقشات الخاصة معى، بهدف تغطية النقص فى العلم العسكرى عامة، أو مدخلاً مستتراً يوصله إلى شىء ما يريده، لم يفصح عنه مباشرة. ففى حديث سابق لاجتماعات عمل عسكرى، أبدى القائد الأعلى

رغبتـه فى ارتداء الزى العـسكرى، وعندمـا أجبت أن هذه الـرغبة من حق سـيادته، خاصة وسط أفراد القوات المسلحة فى الجبهة، رد الرئيس السادات وقال لى: «بشرط واحد، وهو أن تكون علامة الرتبة التى أضعهـا أقل من رتبتك العسكرية»، واستطرد فى القول: «أنا عاوز أطبق الـتقليد الإنجليزى فى وضع رتبتى.. أنا أنـهيت عملى فى القوات المسلـحة عام ١٩٥٢، وكنت برتبة بـكباشى «مقدم»، وفى الجيـش الإنجليزى تقليد عند تعيـين أحد الضباط ملحقاً عسكرياً فى بلد أجـنبى أو مهمة خارج الجيش، أن يميـز برتبة أعلى مـن رتبته تكـريماً للجيـش الإنجليزى نفـسه، وتكبيراً لـشخص الضابط فـى نفس الوقت. وعلى ذلـك ألبس رتبة قائمقـام «عقيد». فقلت لـسيادته: «هذا العـمل غير قانونـى فى بلدنا، ويوجـد قانون عسكـرى يحدد الرتب وشكـلها ومواصفـاتها الدقـيقة لكـل درجة ضابط، وسيـادتك فى درجة قـائد أعلى لـلقوات المسلحة وهى مـدونة فى أعلى قائمة الرتب الـعسكرية فى القانون، وليـس لسيادتك خيار فى ذلك، هذا هو الـقانون العسكرى المصرى». فرد علىّ بـقوله: «عاوزنى أبقى أقدم منك رتبة.. لا يمكن أبدا».

«وبعـد يوم واحد من هـذه المناقشـة طلب سكـرتيره من رئـيس هيئـة الإمدادات والتموين اللـواء عبدالفتاح عبدالله الملابـس العسكرية للرئيس، ولم يـكن لديه علم بالمناقشة التـى دارت بهذا الشأن فاضطر لإخطارى بطلب فوزى عـبدالحافظ، وأجبته بأن يـخطره بالاتـصال بى شخـصياً فى حـالة تكـرر الطلب. ولـم يكرر الرئـيس أو سكرتيره هذا الطلب حتى ١٣ مايو ١٩٧١».

(٥٤)

وحين تـتاح الفرصة لـلفريق فـوزى للحديث عـن عموميات شـخصية الـرئيس السادات، فإننا نراه حريصاً على إبراز الصفات الصغرى من أخلاق السادات دون أن يعنى بإبراز الصفات الكبرى التى كانت تستلزم وجود هذه الصفات الصغرى، ومن المستـحيل عقـلاً أن يحقق السـادات كل ما حقـقه بهذه الصـفات الصغـرى، ولكن المعـقول هو أنه كـان يتمتـع بصفات كـبرى وكان لابـد لهذه الصـفات الكبـرى من

صفـات صغرى تـواكبها وتـتستـر على الـكبرى فـى بعض الأحيـان أو تخدمـها أو تلازمـها فـى أحيـان أخرى، ولكـن الفـريق فـوزى لايدرك هـذه الحقيـقة الـبشـرية والانسانية فيما يـبدو فإذا به ينساق إلى الطـريق الذى سار فيـه صحفيان مـن كبار معـاونى السادات، لـم يتمتـعا بثقته إلى الـنهايـة، ويبدأ فى الحـديث عن مثـل هذه الصفات الـصغرى بينمـا هو يعلم علـم الـيقين حقيـقة الأمر، ولكن ماذا بـوسعنا أن نقول وقد آثـر صاحب المذكرات هذا المـسلك، فلنقـرأ هذه الملاحظات التـى أدركها دون أن يعى بقية الصورة:

«وكان الرئيس السادات متسرعاً فى إصدار قـراراته أو موافقاته، ترضية لشخص يرى من ورائـه مكسباً أدبيـاً أو نفعاً، أو بغـرض احتوائه لجانـبه، قبل أن يستـشير أو يبحث أو يدقق فى المـوضوع الذى أصدر قراره بالموافقة العاجلـة فى شأنه. ولا يجد الرئـيس أى غضاضـة فى إلغـاء الموافقة أو الـقرار عند مـعرفة تـفصيلات المـوضوع الحقيقية من المختص، وفى هذه الحالة يترك الشخص الذى أعطاه قرار الموافقة الأولى على حاله».

لعـل القـارئ فهم مـن قراءة نـص الـفريق فوزى ما أردت أن أشـير إلـيه، لكـن هل فـهم فـوزى نفسـه!! أم أنه فـهم ويفـعـل بنا ـ كـقراء ـ مـا كان يفـعـلـه به السادات؟

❑

ثم يردف الـفريق فوزى هذه الفـقرة بالحديث عن بـعض صفات أشاعهـا ناقدو السادات السابقـون، ولكن فوزى بحكم عسكريتـه يقدمها بطريقة كوميـدية تفقدها قدرتها علـى النيل من السادات، وانظر مـثلاً إلى أول مثل يتحدث بـه الفريق فوزى عن ضـيق صدر السـادات، هل يعـقل أن يحدث هـذا الذى يتـحدث عنه صـاحب المذكرات فى الاجـتماعات العسكريـة؟ وإذا كان قد حدث فمعنـى هذا أن السادات كان قـد ألغى وجـود محمد فـوزى (كقائـد عام وكوزيـر) تماماً منـذ الفتـرة الأولى لرئاسته، وهو ما لـم يحدث حسبما رواه السادات نفسه ، ومحمد فوزى نفسه أيضاً:

«وكان الرئيس السادات ضـيق الصدر عندما يناقشه أحد خـاصة وسط جمع من القادة، وذلك لعدم وجود خلفـية عسكرية علمية كافية، أو عمق فى التـفكير بالنسبة

للموضوعات التى تناقش، وغالباً ما يفض هذه المناقشات بإنهاء الجلسة قبل الوصول إلى رأى محدد».

❑

وعلى نفس النمط من النقل غير الواعى عن تصوير الآخرين للسادات، يمضى محمد فوزى فى الهجوم على الرئيس ، ومن الواضح أن الفريق فوزى يهاجم نفسه بهذا الذى يرويه أكثر مما يهاجم السادات، وسترينا فقرات لاحقة للفريق فوزى كيف أن السادات أجاد تصوير نفسه له فى الصورة التى يستطيع بها أن ينقض عليه، وهكذا انساق الفريق فوزى دون أن يدرى ، إلى ما حدث:

«وكان يحب الاستماع إلى الغير أكثر من الاطلاع بنفسه أو متابعة التقارير أو قراءة أبحاث أو آراء الغير، وذلك لعدم قدرته النفسية والعقلية على الاطلاع والبحث لفترة من الزمن يومياً. وقد أخطرنى بألا أحاول تقديم مذكرات مطولة له للاطلاع وإبداء الرأى كتابة، وأنه غير مستعد للاطلاع على أى مذكرة أو موضوع أرسله إليه يزيد عدد سطوره على عشرة أو خمسة عشر سطراً، وأن يكون للاطلاع والعلم وليس لإبداء الرأى أو إصدار القرار».

(٥٥)

ونأتى إلى فقرة مهمة يبدو وكأنها تكشف لنا بوضوح عن مدى ضعف الوعى السياسى للفريق فوزى الذى يظن أن مؤسسات الاتحاد الاشتراكى هى التى أوصلت السادات إلى الرئاسة، بل هو يصرح بهذا المعنى، مع أن السادات لم يكن أبداً على علاقة جيدة بها ولا هى التى أوصلته للرئاسة، فضلا عن أن مؤسسات الاتحاد الاشتراكى لم يكن لها القدرة على أن توصل السادات ولا غيره إلى الرئاسة، إنما كانت قدرتها محدودة فى إظهار أنها هى التى فعلت هذا ، وهذا جزء طبيعى من ديناميات الحكم الفردى باسم الشعب فلابد من مؤسسات تظهر أنها هى التى اتخذت القرار بينما القرار أخذ بالفعل ، وصاحب القرار معنى بأن يعطى لهذه

الأجهزة مظهر هذا الدور ولو كانت أجهزة الاتحاد الاشتراكى قادرة على أن توصل شخصا ما للرئاسة لأوصلت على صبرى لا السادات:

«وكان الرئيس السادات يتخذ أسلوب المناورة والخداع فى تعامله السياسى مع الآخرين. إذ ما وجد أن الدعامة الأولى التى يمكن أن تحقق له أحلامه للوصول إلى منصب رئيس الجمهورية هى مؤسسات الاتحاد الاشتراكى، بدأ الرئيس السادات يعطى ثقته كاملة ويرفع من شأن هذه المؤسسات، ويساير تصورها فى تحقيق أهداف الدولة العليا، وكذا فى أسلوب عملها وهو ما كان يتعارض ١٠٠٪ مع ما يريده هو. وبعد أن نجح السادات فى توليه الحكم والسلطة بدأ يتكلم عن الشرعية، ويعمل على الإطاحة بأعضاء هذه المؤسسات».

(٥٦)

وبعد صفحات قليلة نرى الفريق فوزى وهو يعترف بنجاح السادات فى خططه الذكية لتقديم نفسه إلى رجال القوات المسلحة :

«وكان الرئيس السادات يجيد ويتقن إخراج المواقف التى تتطلب إظهار شخصيته كقائد أعلى ذى خبرة ومعرفة بهدف السيطرة وجذب أنظار الحاضرين لشخصه هو دون سواه. ودائماً ما كانت تنتهى هذه المواقف إلى انطباع بالتمثيل المتقن بالنسبة للعارفين، وجذب شعبى بالنسبة لعامة الشعب. وكانت مقدرة الرئيس على الخطابة ـ سواء فى انتقاء الألفاظ، أو طريقة الإلقاء، والاعتماد على آيات الذكر الحكيم من القرآن الكريم ـ هى وحدها قوة الجذب للمواطنين الذين يتخذون لغة القرآن يقينا، وبذا نجح الرئيس السادات فى اكتساب عواطف الناس دون عقولهم».

«ولم يكن ما قاله فى بيانه على شاشة التليفزيون للشعب: «أنا لا أوافق على قتل أولادى، وفى إمكانى الوصول إلى حل سلمى مشرف لنا وللعرب جميعا»، إلا صورة حية لجذب عواطف الجماهير، وخفض إرادة القتال للشعب.

وقد ألقى الرئيس السادات هذا البيان بعد أيام من استعراضه لخطط عمليات القوات المسلحة، ومعرفته بتقدير خسائر الأفراد المتوقعة فى العمليات الهجومية على العدو فى سيناء. وكان هذا البيان تكراراً لأسلوب الرئيس السادات فى المناورة والتهرب من الواقع، مثل تصرفه ليلة الثورة عندما توجه إلى السينما الصيفية مع علمه بأنه عضو مؤسس فى مجلس قيادة الثورة».

عند هذا الحد ينبغى لنا أن نقف لنسأل الفريق فوزى عن العلاقة بين الموقفين، فالتهرب من المسئولية ليلة ٢٣ يوليو قد ينجى ولكنه لن يمنع قيام الثورة إذا قدر لها أن تقوم، أما التهرب من إصدار رئيس الجمهورية لأمر القتال فهل يكفى أن تقوم الحرب بمسئولية وزير الحربية مثلاً دون موافقة الرئيس، فإذا حدثت الهزيمة نجا الرئيس وأدين الوزير.. أغلب الظن أن الفريق فوزى لا يتحدث فى هذه الفقرة عن السادات وعن نفسه، لكنه يعكس ما يصوره له عقله الباطن من تجربة أو مأساة ١٩٦٧..

ذلك أن الفريق محمد فوزى نفسه كان هو ـ وليس السادات ـ الذى شاع وذاع أنه كان من المقرر أن يشارك فى الثورة ولكنه رفض ليلتها تحريك قواته، وهى قصة مشهورة ومعروفة، ولو أن محمد فوزى خرج بقواته ليلتها لوصل بحكم أقدميته إلى عضوية مجلس قيادة الثورة نفسه، شأن عبدالمنعم أمين ويوسف صديق وحسين الشافعى وزكريا محيى الدين فقد كان فوزى فى أقدميته ومكانته العسكرية يسبق هؤلاء.

ولو أنه ـ أى الفريق فوزى ـ أدى دوراً أو بعض دور ليلة الثورة لكان أول المرشحين للانضمام إلى مجلس قيادة الثورة قبل هؤلاء الأربعة الذين ضموا بعد قيام الثورة ولم يكونوا من الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار ، أما السادات فسواء كانت قصة السينما عن عمد أو عن غير عمد فإنه من الثابت أيضا أنه سرعان ما عاد من السينما والتحق برفاقه بعد منتصف الليل مباشرة، وحين طلع عليهم الفجر كان معهم، بل وقام بنفسه بإلقاء بيان الثورة وخلاصة القول أن السادات ذهب للسينما وللثورة بينما لم يذهب فوزى لا للسينما ولا للثورة.

(٥٧)

ويوحى الفريق فوزى لنا فى هذه المذكرات بطريقة مباشرة أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يلتقى بقواتنا المسلحة لقاءات يعول عليها فيما قبل حرب الاستنزاف، ويبدو أنه يشير بذلك من طرف خفى إلى الفترة السابقة حين كانت قيادة القوات المسلحة قادرة على أن تعزل رئيس الجمهورية عن السياسات الداخلية فيها، وهو ما لم يحدث فى عهده هو [أى عهد الفريق فوزى كقائد عام ثم قائد عام ووزير للحربية]، حيث تطور الأمر وأصبح رئيس الجمهورية منذ ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٦٩ يلتقى بقادة الفرق، فلما كانت ١٩٧٠ امتدت اللقاءات إلى قادة بعض الكتائب أيضاً، ولنا أن نقارن هذا بما يحدث الآن من لقاءات طبيعية ودورية ومتكررة ومعلنة للرئيس بمستويات متعددة من قادة القوات المسلحة لندرك كيف تطورت الأمور فى مصر فى مسار التقدم الطبيعى دون ضجيج أو صياح :

«وقد شهدت سنوات ١٩٦٨ و١٩٦٩ و١٩٧٠ حرص الرئيس عبد الناصر على القيام بلقاءات متابعة على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة، وقيادات الأفرع الرئيسية: البحرية ـ الجوية ـ الدفاع الجوى ـ القوات الخاصة ـ الجيوش الميدانية، وقادة المناطق العسكرية عام ١٩٦٨».

«وتمت لقاءات المتابعة عام ١٩٦٩ على مستوى قادة الفرق الميدانية، وقادة لواءات البحرية والجوية والدفاع الجوى والقوات المسلحة».

«أما فى عام ١٩٧٠، فقد كانت لقاءات الرئيس عبدالناصر على مستوى قادة كتائب صواريخ الدفاع الجوى، وقادة أسراب القوات الجوية».

❑

ونحن ـ مع هذا التقليص غير المقصود من فوزى لدور عبدالناصر ـ لا نستطيع إلا أن نشير باعتزاز إلى مدى الجهد الجبار الذى بذله عبدالناصر فى السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه فى الإشراف المباشر على القوات المسلحة.

(٥٨)

ولكن رواية فوزى فى رأيى لا تنصف عبد الناصر بما يستحقه، والدليل عندى هو ما يرويه فوزى نفسه فى موضع متأخر من كتابه عن لقاءات السادات بالقوات المسلحة من أجل تحقيق استراتيجيته التى لم يكن الفريق فوزى نفسه قد استوعبها.

ولنقرأ على سبيل المثال هذه الفقرة وما توحى به من نشاط أكثر فاعلية قام به السادات على الرغم من أن فوزى لم يقصد إبراز هذا المعنى حين كتب مذكراته على هذا النحو، بل إنه يتصور رئيس الجمهورية كما نرى فى أول الفقرة التى ننقلها مجرد منفذ لجدول زمنى وضعه وزير الحربية الذى هو سيادته شخصياً، ولنقرأ نصوص صاحب المذكرات ، وسنضع تعليقاتنا عليها فيما بين قوسين مربعين من هذا النوع [ ] :

«واتفق هذا النشاط التدريبى للقوات المسلحة مع تنفيذ الرئيس [أى رئيس الجمهورية محمد أنور السادات] للجدول الزمنى الذى أعددته [الضمير لفوزى وزير الحربية] لعرض خطط عمليات أفرع القوات المسلحة الرئيسية، والجيوش الميدانية، وتشكيلات المناطق العسكرية».

«ففى يوم ١٧/ ٣/ ١٩٧١ استعرض الرئيس خطط عمليات الجيش الثانى الميدانى وعرضها اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثانى. وأعقبه فى نفس اليوم [أى ١٧/ ٣/ ١٩٧١] عرض خطط عمليات الجيش الثالث بمعرفة اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث. ولكن العرض لم يستكمل وتقرر تأجيله إلى ما بعد عودة الرئيس من رحلة طبرق التى استغرقت يومى ١٨ و١٩/ ٣/ ١٩٧١ حيث استكمل العرض».

«وفى يوم ٢١/ ٣/ ١٩٧١ [أى بعد عودة السادات مباشرة من طبرق واحتمال استكماله الاستماع إلى خطط عمليات الجيش الثالث] استعرض الرئيس السادات خطط عمليات الدفاع الجوى وعرضها اللواء محمد على فهمى قائد قوات الدفاع الجوى».

«وفى يوم ٢٢/ ٣/ ١٩٧١ [أى فى اليوم التالى مباشرة] استعرض الرئيس خطط عمليات القوات الجوية بقيادة اللواء على بغدادى».

«وفى يوم ٢٣/ ٣/ ١٩٧١ [أى فى اليوم التالى مباشرة] استعرض الرئيس خطط عمليات تشكيلات منطقة البحر الأحمر العسكرية بقيادة اللواء سعد الدين الشاذلى. واستكمل فى اليوم نفسه [أى ٢٣/ ٣/ ١٩٧١] عرض خطط وواجبات وحدات الاستطلاع بقيادة اللواء محمد عبد الغنى الجمسى، ثم خطط قوات المنطقة المركزية بقيادة اللواء أحمد عبد السلام توفيق».

«وفى يوم ٢٤/ ٣/ ١٩٧١[أى فى اليوم التالى مباشرة وهو ثامن يوم عمل متصل ومكثف بما ينبئ عن مدى الجهد الذى بذله السادات] تم لقاء الرئيس مع قادة القوات المسلحة ـ وكان عددهم تسعة ـ ومستشاريهم السوفييت، وكان هذا اللقاء مركزاً على تلقين الرئيس للقادة عن الموقف السياسى بصفة عامة والخطوات التى اتخذها الرئيس للسير فى حل الصراع دبلوماسياً حتى يمكن تجنيب قواتنا إراقة الدماء فى القتال الشرس مع إسرائيل. كما أشار الرئيس إلى موضوع نشر المعلومات العسكرية فى الصحف، مشيراً إلى ما ذكر فى أهرام يوم ١٢/ ٣ ويوم ٢٠/ ٣/ ١٩٧١ وعلق على ذلك بقوله هذه اجتهادات صحفية،ولا تعنى التأثير على القوات المسلحة».

«وفى يوم ٢٥/ ٣/ ١٩٧١[أى فى تاسع يوم] تم عرض خطط عمليات القوات المسلحة جملة بمعرفة اللواء سعد مأمون رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة».

(٥٩)

ليس من الصعب علينا أن ندرك بعد كل هذا أن السادات قد أتيحت له فرصة ذهبية لكى يعرف كل هؤلاء القادة، وأنه كذلك قيمهم، واستوعب ما أمكنه أن يستوعبه، وأن كل الخطط أعيدت عليه ملخصة فى يوم أخير، ويزيدنا الفريق فوزى علماً بما كانت تتضمنه هذه اللقاءات ويقول:

«كان قادة أفرع القوات المسلحة الرئيسية، وقادة إدارات الأسلحة التخصصية والمعاونة، ورئيس هيئة عمليات القوات المسلحة، ومدير المخابرات الحربية، يحضرون هذه اللقاءات جميعاً».

❑

ثم نأتى الآن إلى الفقرة التى يقحمها الفريق فوزى بدون مبرر والتى إن صدق ما يذكره فيها فقد كان عليه هو وليس غيره أن ينتبه إلى فقدان الرئيس (الذى هو فى نفس الوقت القائد الأعلى للقوات المسلحة) الثقة فيه:

«وبعد الانتهاء من عرض الخطط التفصيلية للجيوش الميدانية وأفرع القوات المسلحة وإداراتها وموافقة الرئيس السادات عليها، طلبت منه التوقيع على الخريطة العامة للقوات المسلحة بالتصديق عليها بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة تنفيذاً للقواعد التى كنا قد وضعناها وأصدرنا بها القانون رقم ٤ لعام ١٩٦٨، ولكن الرئيس السادات رفض وقال هذا من اختصاصك وتحت مسئوليتك أنت القائد العام، وابعث لى بديلاً لهذه الخرائط، فأجبت بأننى سوف أحاول صياغة المطلوب فى قالب توجيهات تصدر من سيادتك إلىّ مع الإشارة إلى خرائط قرارات العمليات التى وافقتم عليها، فوافقنى على هذا التعديل، وكانت هذه أول مخالفة فى تطبيق القانون».

هكذا يظن القائد العام أو يوحى لنا أن بوسعه أن يقنعنا أن قائده الأعلى هو الذى خالف القانون الذى وضعه هو (أى القائد العام)، ومع هذا فإنه يبقى نفسه تحت قيادته ولا يسارع بطلب الإعفاء!

(٦٠)

هل لنا بعد كل هذا الحديث عن علاقة صاحب المذكرات بالرئيس أن نطالع بعض آراء الفريق فوزى فى زملائه من الوزراء والسياسيين وخلفائه من القادة العسكريين وقد اخترت للقارئ خمسة منهم ، هما العسكريان اللذان خلفاه ، ووزير

الحربية الذى عمل فوزى نفسه تحت قيادته ، ووزيران بارزان من وزراء عبد الناصر والسادات وسأبدأ بالشخصيتين العسكريتين :

فأما الشخصية الأولى فهى الفريق محمد أحمد صادق : الذى يرد ذكره فى مواضع كثيرة من مذكرات الفريق فوزى بدون ارتياح ظاهر، مع أنه (أى صاحب المذكرات) فى الغالب كان السبب فى اختياره للعمل رئيسا للأركان معه، ولعل أكثر هذه المواضع صراحة فى الحديث عن رأى فوزى فى صادق هو الموضع الذى يتحدث فيه الفريق فوزى عن توثق علاقة الفريق صادق بالسادات من خلال محمد حسنين هيكل حيث يصرح الفريق فوزى برأيه فى الفريق صادق فيقول :

« فى ذلك الوقت ، توطدت العلاقات بينهما وكان الضابط المكلف عبده مباشر هو حلقة الوصل بينهما بحكم عمله ـ فى الأهرام والمخابرات الحربية ـ فى وقت واحد . وكان الرئيس السادات يتعامل بحذر فى البداية مع الفريق صادق بوصفه رجل مخابرات سابقا، ولكنه تعمد أن يقربه إليه وأظهر له إعجابه بنشاطه وتحركاته التى أخذ يفتعلها ويرويها للرئيس . ولم يكن هذا الأمر غريبا على ، إذ أنه ينطبق على أسلوب وطبع الفريق صادق مع أى رئيس . ولم يكن هذا القبول والاستحسان من وجهة نظر الرئيس أنور السادات إلا استجابة لشهادات هيكل التقديرية عن الفريق صادق . وكان أفضل دليل على هذه العلاقة والتقدير بينهما ما أبلغه هيكل إلى السادات وكان مصدره الفريق صادق : « بلغ الراجل ده أن يصحى ويفتح شويه لنشاط المجموعة واجتماعاتها اليومية » ، وأضاف هيكل من عنده : « ويمكنك الاعتماد على الفريق صادق ، إذ أنه مسيطر على القوات المسلحة ».

(٦١)

ويظهر الفريق فوزى استياء شديدا وهو يتحدث عن الدور الذى نسب إليه فى أحداث مايو فى مواضع كثيرة ، ولكننا نقلنا للقارىء فيما مضى فقرتين تثبتان على لسانه هو نفسه دوره المناهض للسادات فى ١٥ مايو، فى الفقرة الأولى يروى فيها مشاوراته لزملائه من القادة العسكريين التالين له ومنهم رئيس الأركان الفريق

صادق نفسه، والثانية يروى فيها موقف الفريق صادق الذى أوحى به للسادات ونقله السادات لممثلى الشعب وهكذا يمكن لنا أن نسأل لماذا قفز الفريق فوزى فى هذه الفقرة على ما أثبته هو نفسه من دعوته [أو استقباله] للوزراء شعراوى جمعة وسامى شرف وسعد زايد فى مقر الوزارة، وهل طردهم الفريق صادق فعلا؟ ولماذا يتجاهل الفريق فوزى حضور الوزراء عنده إذا كانوا قد حضروا فعلا؟

❑

وهكذا يبدو لنا أن الفريق فوزى يتجنى على الفريق صادق حين يصوره وكأنه استغل الموقف ضد فوزى بينما كان فوزى قد فعل ما فعل بالفعل. ولنقرأ هذه الفقرة التى يقول فيها الفريق محمد فوزى:

«وفى مناسبة ٢٣ يوليو ١٩٧١ عقد المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى اجتماعه السنوى، وقبل أن يلقى الفريق أول محمد أحمد صادق وزير الحربية الجديد كلمته وجه الرئيس السادات كلمة للمؤتمر حيا فيها البطل الأول للمؤامرة [هكذا يصف فوزى رئيس أركانه الفريق محمد صادق بأنه البطل الأول للمؤامرة، ولنا أن نتساءل: هل يضن الفريق فوزى بهذا اللقب على أنور السادات أم أنه يبرئ السادات من المؤامرة أصلاً؟] وقال [أى السادات]:

«أحب أن أقول إن هذا الرجل [أى صادق] فى الفترة الماضية ومن شهور حرص أشد الحرص على أن يجنب القوات المسلحة أن تدخل مع الصغار، لمدة شهور. [أرجو القارىء ألا يعجب من تمريرى الآن عبارة لمدة شهور التى وردت هنا فى نص الفريق فوزى، ذلك أننا سنرى فى الفقرة القادمة مباشرة الفريق فوزى نفسه وهو يروى أن صادق كان يجاهر بانتقاد اللقاءات التى يعقدها الفريق فوزى مع قيادات القوات المسلحة، وكان يرى فى هذا الأسلوب خروجا على حياد القوات المسلحة وهكذا كان لكلام السادات هنا أصل فى الحقيقة] قبل أن تقع الواقعة، وفى صمت وسكون وفى يوم ١٣ مايو الماضى وقف موقفاً حاسماً حينما فكر الفريق فوزى أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى مكتبه، منع الفريق أول صادق هذا الاجتماع وقال له أنت قدمت استقالتك، وأن القوات المسلحة لها واجب واحد وهو المعركة، ولا تدخل فى السياسة إطلاقاً، ولن أسمح بأى اجتماعات، وفعلا طرده مع

شعراوى جمعة وسامى شرف من مبنى قيادة القوات المسلحة، ومنع اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة».

ويعقب الفريق فوزى على ما نقله من حديث السادات فيقول :

«علماً بأن هذه الرواية وهى منقولة للرئيس من الفريق صادق لم تحدث إطلاقاً، وهكذا كانت رواية الرئيس تهدف إلى صعود فرد على جثث آخرين. ثم استطرد الرئيس فى ذكر بطولات المؤامرة المزعومة، فذكر اسم ممدوح سالم والفريق الليثى ناصف لأعضاء المؤتمر ليضخم قيمة الأبطال المنفذين لخطته يوم ١٣ مايو ١٩٧١».

(٦٢)

وفى موضع ثالث ينتقد الفريق أول فوزى خلفه الفريق أول صادق فيما أدلى به ذات مرة من رأى حول عدم شرعية اللقاءات التى كان الفريق فوزى يعقدها بالقوات المسلحة، ويأتى هذا ضمن خطاب طويل كتبه الفريق فوزى إلى الرئيس السادات عقب محاكمته وأثبت نصه فى مذكراته وقد قال فيه:

«وكان الفريق صادق رئيس الأركان ـ وحده ـ يرى أن هذا الأسلوب فيه خروج عن حياد القوات المسلحة، ولم يعاوننى فيه خلال فترة وجوده معى، فقد اعتمدت على الله وعلى قادة آخرين كانوا مؤمنين بهذا الأسلوب وبأن القوات المسلحة إذا حيدت حسب منطق وأسلوب صادق فهى عائدة بقدراتها وإمكانياتها ورجالها إلى السلبية التى عشناها فى أزمنة سابقة، وبذا تفقد أهم مقوماتها القتالية والوطنية فى نفس الوقت».

ثم يردف الفريق فوزى فى مذكراته معبراً عن مرارته من الفريق صادق ويقول :

«وإننى حتى كتابة هذه السطور لا أفهم معنى أو حدودا لحيدة القوات المسلحة: حيدة لجانب من؟ وضد من؟ ولماذا وهى جزء عضوى من الشعب؟ وكان هذا المفهوم الخاطئ والمدمر الذى ارتقى عليه الفريق محمد أحمد صادق رئيس أركان حرب القوات المسلحة سلم البطولة، وأقنع ـ للأسف ـ الرئيس السادات به ليلة

١٣ مايو ١٩٧١ فى نفس الوقت الذى بدأ يبحث مع العميد أمين الجندى المدعى العسكرى مدى تطبيق تعديل المادة ١٣٨(أ) من قانون الأحكام العسكرية على شخصى نظير جهدى فى رفع الروح القتالية والوطنية وإرادة القتال ضد إسرائيل بالإدراك والوعى السياسى والوطنى فيما ادعاه فى الاجتماع الخطير لقادة المنطقة المركزية يوم ٣/ ٥/ ١٩٧١ . وكان هذا الموضوع أيضاً هو محور حديث الفريق أول صادق ومحمد حسنين هيكل عن وثيقة إعدام للفريق فوزى ظهرت من مخبئها السرى بعد إحدى عشرة سنة من المحاكمة».

(٦٣)

وأما الشخصية الثانية الفريق سعد الشاذلى فقد لايجد القارئ العربى فى المذكرات العسكرية المتاحة تقليلا من قدره على نحو ما يجده بكل وضوح وصراحة فى مذكرات الفريق فوزى ، فهو حريص جداً على أن يصور الموقف عند تعيينه رئيسا للأركان بأقسى ما يمكن أن يصور به موقف ضابط كبير (لواء) يتولى هذه المسئولية فالسادات فى رواية فوزى لايعرفه باسمه مباشرة وإنما بأنه عديل كبير الياوران الفريق سعد الدين متولى!! وكفى!! ولنقرأ هذه الفقرة من مذكرات الفريق فوزى التى يضمنها آراءه فى نتائج حركة مايو فيقول :

«وشعر حسين الشافعى أنه الوريث والنائب الأول لأنور السادات ، وأن الدكتور عزيز صدقى هو رئيس الوزراء المتوقع، وتأكد هيكل من أنه صاحب الرأى السديد والمسيطر الوحيد على صانع القرار فى الدولة . وجاء دور ملء المراكز الحساسة، وكان الرئيس قد انتهى من إخطار الفريق صادق ليكون وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة ، ولما جاء دور رئيس الأركان دلل الرئيس على شخصيته بـ «عديل الفريق سعد الدين متولى» قبل أن يذكر اسم اللواء سعد الدين الشاذلى. ووضح شكل الترتيب المسبق للمناصب الرئيسية، وهكذا كانت صلة القرابة هى أساس الارتباط والثقة المستحدثة فى حكم السادات الجديد والذى بدأ منذ ١٤ مايو ١٩٧١».

ويرى الفريق فوزى فى هذه المذكرات أن أربعة من القادة قد صعدوا على جثته، وقد ذكرنا وصفه للفريق صادق بأنه البطل الأول للمؤامرة، ثم هو يذكر فى نهاية حديثه عن محاكمته أن شاهدين من كبار القادة هما أحمد عبد السلام توفيق وسعد مأمون قد نالا مكافآتهما بعد صدور الحكم عليه، كما أنه يشير أيضاً إلى أن رئيس المحكمة العسكرية التى تولت محاكمته وهو اللواء عبدالقادر حسن قد نال ترقية إلى رتبة الفريق:

«وبالرغم من أن المحكمة اعتمدت على أقوال شاهدين فقط حددا ألفاظاً عامة وغير عامة لا يصح أن تكون أساساً للإدانة مثل «استشعر أو فهم أو حس أو قدر أو اعتقد»، فإن المحكمة أخذت بهذه الشهادات فى إدانتى ونال هذان الشاهدان مكافآتهما بعد صدور الحكم وهما اللواء عبدالسلام توفيق الذى عين محافظاً ثم مديراً للمخابرات العامة، واللواء سعد مأمون الذى عين محافظاً. أما رئيس المحكمة اللواء عبدالقادر حسن فقد رقى إلى رتبة الفريق».

ومن المهم أن نذكر أن سعد مأمون ظل فى القوات المسلحة إلى ما بعد انتصار أكتوبر بفترة، بل إن المفارقة أن سعد مأمون كان فى عهد الفريق فوزى رئيساً لهيئة العمليات، على حين شغل هذا المنصب فى عهد المشير أحمد إسماعيل المشير الجمسى، وأصبح هذا المنصب بمثابة ثالث منصب فى القوات المسلحة وارتقى منه الجمسى إلى منصب رئيس الأركان، على حين أن سعد مأمون فى أثناء الحرب كان قائداً للجيش الثانى فحسب، أما أحمد عبدالسلام توفيق فكان قد عين محافظاً فى يونيو ١٩٧١ ربما قبل أن يشهد فى المحاكمة، ويبدو والله أعلم أنه ترك القوات المسلحة لسبب واحد فقط هو خروج فوزى نفسه، لأنه أى أحمد عبد السلام توفيق كان أقدم من الفريق صادق، وبالتالى لم يعد من الممكن بقاؤه بينما هو أقدم من الوزير الجديد:

ونأتى إلى التعريض الذى يتناول به الفريق فوزى الفريق عبدالقادر حسن الذى رأس المحكمة التى تولت محاكمته العسكرية. وهو يتحدث حديثاً طويلاً عن سير المحكمة إلى أن يصل إلى هذه الواقعة :

«ومن الطريف أنه خلال محاكمتى عندما أذاع المدعى الاشتراكى بالاتفاق مع المحكمة مقدمة جلسة المجلس الأعلى للقوات المسلحة المنعقدة يوم ١٨/ ٤/ ١٩٧١، وقد قدمت فيها لأعضاء المجلس وعددهم ثمانية عشر قائداً الملحق العسكرى لاتفاقية اتحاد الدول الثلاث وقارنته لأغراض التوضيح بالاتفاقية الثنائية بين مصر وسوريا من أجل المعركة، والتى تم عقدها فى أغسطس ١٩٦٩، وتوقف المدعى الاشتراكى عن إذاعة باقى أحداث هذه الجلسة وعندما اعترضت على ذلك مطالباً المحكمة باستكمال إذاعة أحداث الجلسة وهى مسجلة، رد الأعضاء الثلاثة للمحكمة فى وقت واحد وهم مذعورون وقالوا: «لمصلحة من نكمل إذاعة أحداث الجلسة»، فقلت لهم: «لمصلحة القضية التى تنظرون فيها»، فرد الثلاثة مرة أخرى: «ليس هناك مصلحة للقضية»، ورفضوا».

«وكان الشريط المسجل لجلسة المجلس الأعلى للقوات المسلحة لمناقشة الجانب العسكرى لاتفاقية الاتحاد ـ والذى انتهى بأخذ أصوات الأعضاء فكان سبعة عشر غير موافقين وعضو واحد فقط هو اللواء سعد الدين الشاذلى موافقاً ـ يتضمن صوت رئيس المحكمة اللواء عبدالقادر حسن بين السبعة عشر صوتاً غير الموافقين، ويشهد الشريط بأنه لا يوجد رأى مسجل فى التصويت لرئيس المجلس بالنيابة الفريق محمد أحمد صادق، وقد تسلم رئاسة جلسة المجلس الأعلى للقوات المسلحة بعد إلقاء مقدمتى للأعضاء عن الموضوع، وخروجى من المجلس لأمر هام. فما هو الموقف لو استكمل إذاعة الشريط بما تقتضيه أمانة المحاكمة، وسمع صوت رئيس المحكمة وهو يقول رأيه فى الاتفاقية أنه غير موافق؟ وسارع الدفاع بطلبه شاهد نفى لصالحى، وأوضحت أن رئيس المحكمة ـ بمنطق المدعى العام الاشتراكى ـ خرج عن طاعة رئيس الجمهورية الذى وقع الاتفاقية يوم ١٧/ ٤/ ١٩٧١.

وتساءلت: لماذا لا يكون رئيس المحكمة بشخصه أيضاً يعمل ويناهض رئيس الجمهورية، كذا الحال بالنسبة إلى سبعة عشر عضواً قيادياً فى قمة القوات المسلحة».

(٦٦)

ربما يكون من المفيد أن نذكر القارئ بأن القدر قد شاء للفريق فوزى أن يكون الخلف الثانى لشمس بدران فى منصب وزير الحربية بعد نكسة ١٩٦٧ (بعد فترة انتقالية تولى فيها هذا المنصب السيد أمين هويدى) مع أنه يكبر شمس بعشر سنوات (على الأقل) من الأقدمية الحربية ومع هذا فقد كان فوزى فيما قبل ١٩٦٧ يعمل تحت قيادة الوزير الشاب شمس بدران ، وكان من الصعب جداً على غير الفريق فوزى أن يتقبل مثل هذا الوضع، ولست أدرى كيف تقبله وهو رئيس الأركان الذى وصل إلى أعلى ما يتمناه المرء فى خدمته، وقد كان فى إمكانه أن يستقيل لأسباب صحية على الأقل ليجنب نفسه الحرج من العمل تحت رئاسة تلميذ عادى جداً من تلاميذه، ولكنه فيما يبدو كان ينتظر قدره:

«... انتهت مشكلة الصراع على السلطة ـ بين عبد الناصر وعامر ـ بتعيين الوزير الجديد للحربية ، الصغير السن ، القليل الخبرة شمس بدران عام ١٩٦٦ إلى أخطر نتيجة شهدتها القوات المسلحة ، كما شهدها الشعب وأحس بها وهى الأمن ... بدأت بأمن القوات المسلحة ... واشتق منها أمن الثورة ... ثم أمن الدولة ... ثم القائد ، وقد جاء طغيان ـ نظرية الأمن ـ نتيجة طبيعية لاقتصار السلطة على أفراد رفع الشعب عنهم الثقة ... وكان التهليل والترحيب قاصرا على الانتهازيين ... وقد كان لهذه الحالة تأثيرها الخطير على معركة ١٩٦٧ ... ولم تنج القوات المسلحة من أسلوب الإجراءات العنيفة ، فكان الطرد والمحاكمات العسكرية ...».

(٦٧)

ونأتى إلى خارج نطاق القوات المسلحة ونحن نرى فوزى فى أغلب آرائه التى

يديها في زملائه الوزراء متأثراً كل التأثر بموقفهم منه في ١٥ مايو ١٩٧١، وهذا أمر طبيعي ولو فعل غير هذا لكان كاذباً في التعبير عن المشاعر الإنسانية التي لا سبيل للمرء إلى الخلاص منها، وسنأخذ مثلين لحديث فوزي عن زملائه وقد اخترت أن يكون هذان المثلان هما زميلاه في منصب نائب رئيس الوزراء عزيز صدقي ومحمود رياض، من الجدير بالذكر أنه كان هناك في ذلك الوقت أربعة نواب لرئيس الوزراء منهم الفريق فوزي نفسه، أما الرابع فكان سيد مرعي، ولنا أن نقارن موقف محمد فوزي من سيد مرعي حيث تجنبه تماماً بموقفه المهاجم بشدة لعزيز صدقي، ويعطينا هذا فكرة عن مدى الإخلاص الذي تعامل به عزيز صدقي في تأييد السادات في هذه الحركة، وهو ما دفع به بعد شهور إلى رئاسة الوزراء التي لم ينلها سيد مرعي.

ولهذا يحظى عزيز صدقي بانتقادات صريحة ومباشرة من صاحب هذه المذكرات وخاصة فيما يتعلق بما لعبه من دور في حركة ١٤ مايو ١٩٧١ ويلقى الفريق فوزي بكثير من الضوء على دور مؤثر لعبه الدكتور عزيز صدقي ، وربما كانت مذكرات الفريق أول محمد فوزي من أهم المذكرات التي تناولت هذا الدور حيث يقول:

«وسارع الدكتور عزيز صدقي أحد معاوني السادات في المؤامرة بإصدار تعليماته إلى شركات القطاع العام لنقل العمال باستخدام عربات نقل القطاع العام في شوارع القاهرة منذ صباح الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١ معلنا تأييده للرئيس أنور السادات ضد من سماهم مراكز القوى . وركزت هذه الحملات التي تستخدم العمال على منازل الوزراء المستقيلين تحت إرشاد رجال المباحث العامة هاتفين بشعارات محفوظة وملقنة سمعتها بنفسي وأنا محدد الإقامة بمنزلي صباح الجمعة ١٤ مايو من عمال نظافة ومهنيين يستخدمون ثلاثة لواري نقل تابعة للقطاع العام «فوزي هرب من الميدان» وهكذا تم التظاهر أمام منازل الوزراء الذين استقالوا».

«كما أصدر الدكتور عزيز صدقي نائب رئيس مجلس الوزراء بياناً ضد الوزراء المستقيلين وصفهم فيه بأخس الصفات. ونشطت أجهزة الأمن ومباحث أمن الدولة يعاونهم دوريات من الحرس الجمهوري لتحديد إقامة بعض الشخصيات الهامة والمؤثرة في منازلهم ووضع الحراسة الكافية والقبض على أعضاء من اللجنة التنفيذية

العـليا، وأعضـاء من مجـلس الأمة، وأعضـاء من اللجـنة المركـزية، وكل القـيادات والكـوادر العـليا فـى أمانة الاتحـاد الاشتـراكى فى الـقاهرة والمحـافظـات، وأودعوا السجون فى القاهرة وضواحيها».

(٦٨)

يرى الفريق أول فوزى فـى مذكراته أنه كان لمحمود رياض دور كبـير فى تهدئة التطـورات التى كانت تتـدافع بشدة فى مـايو ١٩٧١ ، وربما لـم يلق هـذا الدور ما يستحقـه فيـما كتـب عن تلـك الفـترة اللـهم إلا ماذكـره الفـريق فوزى فـى هذه المذكرات حيث يعبر عن امتنانه لزميل عمره فيقول:

«... فى منـتصف ليلة ١٣ مـايو ١٩٧١ تجمع فى منـزل الرئيس بالجيـزة كل من السادة حسـين الشافعى والدكـتور عزيز صدقى وحسنـين هيكل، واستدعـى الزميل محمـود رياض الذى وصل مـنزل الرئيس - ولـم يكن يعلـم جميع الأحـداث التى حدثت طوال اليوم - وفوجئ بأن هناك بياناً صيـغ بألفاظ سيئة متهماً الوزراء الذين استقـالوا بدون إذن من رئيـس الجمهورية بالخـيانة العظـمى، وأنهم يدبـرون مؤامرة لقلب نظام الحكم قائدها ومنفذها الفريق أول محمد فوزى. اعترض محمود رياض على شكل هـذا البيان، وعلى موضوعـه، واستهان بموضوع الاستقـالات وقال: «إنها حق كل وزيـر، وإن ذهاب الفريـق أول فوزى إلى منزلـه ينفى نيـته على إجـراء غير شرعى كان من الممكن القيام به وإدارته من قيادته ». وعندما نجح محمود رياض فى إحباط معنـى البيان ذكر له الرئيس موضـوع الأشرطة وما فيها من عمـل غير شرعى وقال «لازم يقدموا للمحاكمة»، ورد محمـود رياض بإمكانية ذلك وأن المحكمة هى التى تـقرر شرعية أو مـخالفة هـذا العمل طبـقاً للقانـون. ونجح محمـود رياض فى إحباط إصدار بيان رسمى من السادات يتهم فيه الـوزراء المستقيلين بالخيانة العظمى. ولـم يكـن تواجد القيـادات الثلاث لدى الرئـيس السادات مصـادفة بل كان متـوقعاً لتأمين خطة الرئيس السادات وتوزيع الأسلاب بعد إزاحة المعارضين».

وفى فقرات أخرى يستأنف محمد فوزى حديثه عن دور نبيل لمحمود رياض تجاهه فى تلك الأيام فيقول :

« وفى صباح يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١ حضر إلى منزلى الزميل محمود رياض، وروى لى ما سمعه مساء أمس فى منزل الرئيس بالجيزة عن الزعم بقيامى بانقلاب عسكرى، فذكرت له ما حدث منذ يوم ٩ مايو ١٩٧١ بالنسبة لمعركة تحرير الأرض، ورفض الرئيس التوقيع على توجيهاته ببدء المعركة التى حدد تاريخها بنفسه، وأنه فضل معركة الجبهة الداخلية وتصفية مجموعة المعارضة أولاً، علماً بأننى رجوته مرتين تأجيل ذلك، إذ أن توقيت المعركة المناسب هو ربيع عام ١٩٧١. ولهذا السبب قدمت استقالتى بالشكل الذى حدث وعدت إلى منزلى ولا يوجد أى أساس لما ادعاه الرئيس السادات أو الفريق صادق أو هيكل عن تدبير أوالتفكير فى انقلاب أو غيره، وإنما هى مؤامرة دبرها أنور السادات منذ يوم ٩ مايو ١٩٧١ للتخلص من أعضاء المؤسسات السياسية والدستورية المعارضين له ».

(٦٩)

وتنفرد هذه المذكرات برواية غريبة عن واقعة حدثت فعلاً وهى حصول السادات على رتبة القائمقام عندما حل الدور عليه للترقية إليها بعد قيام الثورة مباشرة، ورغم أن السادات نفسه نسى هذه الرتبة كما يقول الفريق فوزى فى موضع سابق، إلا أن الصحافة المصرية فى تلك الفترة كانت تقدم السادات دائما مسبوقاً بلقب القائمقام، على حين كان زملاؤه بمن فيهم عبدالناصر نفسه لا يزالون يقدمون برتبة البكباشى أو الصاغ فحسب (حتى إن كمال الدين حسين دخل الوزارة فى ١٩٥٤ وهو صاغ)، ويقدم الفريق فوزى هذه الرواية بتفسيرين، تفسير له، وتبرير يذكر أن السادات قد قدمه وقتها، ويقول:

«كما كان خروج البكباشى أنور السادات عن القاعدة الأدبية التى طبقها جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة ـ فى الإبقاء على رتبهم العسكرية كما هى عند قيام الثورة فى يوليو ١٩٥٢ ـ لأنه كان طموحاً فى ارتداء علامات الرتبة التالية لرتبته، أى

قائمقام (عقيد) عندما حل الدور على دفعته فى الترقى، وصدرت النشرة العسكرية متضمنة اسم القائمقام أنور السادات عام ١٩٥٣ دون زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة من دفعته. وعند سؤاله عن سبب خروجه عن تقاليد مجلس قيادة الثورة، كانت إجابته هى الرغبة فى حصوله على معاش رتبة القائمقام فى حالة إنهاء خدمته فى القوات المسلحة لأى سبب، بالإضافة إلى تميزه مظهرياً».

(٧٠)

ومع أن الفريق فوزى ظل طيلة عمره حريصا على أن يبدو شامخاً إلا أنه فى حقيقة الأمر عبر فى مذكراته عن الجانب الإنسانى فى شخصيته ، وهو رجل متعقل حكيم ، يبتهج لما يبتهج له البشر ويعترف بما يشعرون به من مشاعر ، ولا يخرج ببشريته أبداً إلى مستوى الآلهة أو أنصاف الآلهة وهو لايجد أى غضاضة فى أن يحدثنا بصدق عن ابتهاجه بقرار الإفراج عنه.

ومن روايته فى هذه المذكرات عن صدور العفو عنه نقتطف للقارئ حديثه المجمل عن الفارق بين المواضع الأربعة التى تم اعتقاله وسجنه فيها، وهو يحسب ـ شأن كل المبتلين بالاعتقال أو السجن ـ المدة باليوم، ويفرق بين كل مرحلة وأخرى ويقدم وصفاً دقيقاً لمشاعره يقول فيه:

«قضيت فى معتقل أبى زعبل ثلاثين يوماً، وفى معتقل القلعة ١٧٤ يوماً، وفى تخشيبة الحلمية ٢٢٦ يوماً، وفى مستشفى المعادى العسكرى ٥٥٠ يوماً، مجموعها ٩٨٠ يوماً، أى سنتين وثمانية شهور وعشرة أيام».

«كانت الصدمة النفسية، وناموس التين الشوكى (يقصد الناموس الذى يتغذى على زراعة التين الشوكى) هما طابع الفترة الأولى فى معتقل أبى زعبل. وكان الإحساس بإهدار النفس الآدمية وفئران الحصون هما طابع الفترة الثانية فى معتقل القلعة، فى حين ظهرت علة النفس والبدن فى الفترة الثالثة فى تخشيبة الحلمية، وكانت مراجعة النفس والضمير وتكشف الرؤية وإعادة شريط حياتى العسكرية هى طابع الفترة الأخيرة».

ثم هو يصور لحظة صدور القرار بالإفراج عنه على النحو التالى :

«وجاء الفرج من عند الله بإسقاط باقى العقوبة مع اثنين من زملائى فى قضايا سابقة هما عباس رضوان، والفريق أول محمد صدقى محمود يوم ٢٧ يناير ١٩٧٤. توجهنا نحن الثلاثة إلى مبنى المخابرات الحربية حيث قابلنا مديرها، كما حضر الفريق أول أحمد إسماعيل على وزير الحربية إلى مبنى المخابرات الحربية للتهنئة. وأخطرت عندئذ برغبة رئيس الوزراء ممدوح سالم فى مقابلتى، حيث أبلغنى رسالة شفوية من الرئيس السادات بصدور قراره بالإفراج الشامل مع التمنيات بالصحة. ومع محاولة نسيانى ما فات ، ثم توجهت بعد ذلك إلى منزلى ونشرت كل الصحف اليومية خبر الإفراج عنى يوم ٢٨/ ١/ ١٩٧٤، وصدر القرار الجمهورى رقم ٦٣/ ١٩٧٤ بالإعفاء من العقوبات الصادرة ضدى، كما نصت المادة الثانية فى القرار على إعفائى من كافة العقوبات التكميلية والتبعية المترتبة على الأحكام الصادرة ضدى فى القضية رقم ١ لسنة ١٩٧١ المدعى العام الاشتراكى، وكذا الآثار الجنائية المترتبة عليها ».

«وطلب المدعى العام الاشتراكى من محكمة الحراسة وتأمين سلامة الشعب رفع الحراسة المفروضة على أموالى وممتلكات عائلتى المصادرة فى ١١/ ٥/ ١٩٧٢، واستجابت المحكمة لطلبه فى جلستها ١٦/ ٧/ ١٩٧٤، وأخطرنى المدعى العام الاشتراكى بخطابه رقم ١٣٤٧ برفع الحراسة عنى وعائلتى فى نفس اليوم ».

❑

وهكذا نرى الفريق فوزى فى هذه المذكرات وهو يتأمل بمشاعر الإنسان الناضج محنته فيما بين السجن والعفو ، وهو يصور لنفسه أو يثبت لها أنه أفرج عنه لأنه ثبت للحاكم أنه مظلوم فيما أسند إليه مع أن السبب ـ كما نعرف ـ قد يكون غير هذا، وقد لايكون له علاقة بالظلم ولا بالعدل، ولكن الإنسان والشعور الإنسانى فى داخل الفريق فوزى استطاع أن يعبر عن ذاته فى هذه الفقرات على أروع وأدق ما يمكن للتعبير البشرى أن يصور الانطباعات.

(٧١)

وسوف نقرأ فى هذه المذكرات عبارات صريحة وواضحة للفريق فوزى يحاول بها أن يتلمس أسبابا دفعت السادات إلى العفو عنه وربما نشعر ونحن نقرأ للفريق فوزى ما يرويه أنه يبالغ فى تصوير الأمر سواء من ناحية صحيفة الدعوى أو تقارير المدعى العام كما سنرى.

ولكننا لانستطيع إلا أن نتصور الإنسان فى داخل الفريق فوزى وهو ينتظر الفرج ويظن كل جزئية من هذه الجزئيات التى رواها كفيلة بأن تشفع له ، بينما يبدو لنا واضحا أن نصر اكتوبر هو الذى هيأ له الفرصة للخروج من السجن.. فلنقرأ هذه النفثات المعبرة:

«وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة العربية تُوقع عليه عقوبة بالسجن بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما يقضى منها سنتين وشهراً وسبعة عشر يوما فى مستشفيات عسكرية، ثم يصدر قرار بالإفراج عنه يعتبر أمرا غير مألوف فى عهد الرئيس السادات... لماذا؟....تابع الرئيس السادات محاكمتى العسكرية أمام الدائرة الثانية لمحكمة الثورة، وتبين له أن الادعاءات المقامة علىَّ هى ادعاءات ظاهرية وضعيفة ولا ترتقى إلى مستوى الادعاء الذى كان ينوى إعلانه فى بيان رسمى ليلة ١٣ مايو ١٩٧١ بعد إعلان استقالتى.وبالرغم من استجابة اثنين من شهود الإثبات للضغط والتهديد خلال تحقيق قضيتى عسكريا، فإن المحكمة اعتمدت شهادتهما التى بنيت عليها [يقصد على] الاعتقاد أو الإحساس أو الشعور أو الاستنتاج وليس على أدلة مادية تؤيد الادعاءات».

[يقصد الفريق فوزى بهذين الشاهدين كلا من الفريق أحمد عبدالسلام مأمون واللواء سعد مأمون] .

«وبهذا تخلص الرئيس السادات من موضوع الساعة الذى كان يضعه فى مركز حرج للغاية داخل المحكمة، واحتفظ [ربما يقصد: حفظ الجميل] الرئيس السادات

لى وللفريق صادق أيضا بعدم إثارة موضوع موافقته على المعركة وتحديد ميعادها وهو الموضوع المحرج بالنسبة لشخصه».

❑

هكذا يحاول الفريق فوزى ـ دون جدوى ودون مبرر ـ أن يصور لنا أن الرئيس السادات كان بمثابة المتهم المدان أمام المحكمة وأنه ـ أى فوزى ـ كان قد نجح فى إدانته، وهو فيما يبدو حلم من أحلام اليقظة .

«كما تبين للرئيس السادات ضعف الادعاءات العسكرية، وأن أقوال شهود الإثبات لم يرد فيها أى إثبات أو تأكيد على قيامى بأى إجراء عسكرى غير مشروع، وأن الادعاءات العسكرية قدمت للمحكمة لملء صحيفة الادعاء بأى شكل مما لا يبرر ما قدره السادات بضرورة محاكمتى عسكريا ظنا منه أن موضوع رفضه للمعركة سيكون هو محور المحاكمة ».

«ولم يبق لدى الرئيس السادات من مأخذ ضدى سوى تصرفى فى تقديم استقالتى بقرار منى، الأمر الذى اتخذه مجالا لتصعيد الموقف السياسى ضده وتصوره أنها استقالات جماعية بهدف إحراجه سياسيا ودستوريا ».

«كما شعر الرئيس السادات ـ بعد أن قرأ تقارير الرأى العام للقوات المسلحة ـ بمدى العلاقة والترابط المبنى على أسس عسكرية وخلقية بينى وبين أفراد القوات المسلحة، خاصة بعد أن تأكد للرأى العام أن ادعاء محاولتى لقلب نظام الحكم بالقوة ليس صحيحاً، وزاد (ألم) أفراد القوات المسلحة أكثر عندما كانوا يشاهدون ويسمعون إجراءات المحاكمة والإساءة لشخصى من صور ومشاهدتهم لقائدهم وراء القضبان، ويستمعون للإساءة والتشهير الذى اتخذته وسائل الإعلام مبرراً لتدبير المحاكمة، ولم تكن تصرفاتى أو تحركاتى اليومية خافية على الضباط والجنود خلال مدة قيادتى لهم، إذ أننى كنت دائما بينهم وفى مواقعهم. وشكلت هذه العلاقة التربوية والعاطفية فى إطار الانضباط السليم ضغطا أدبيا ومعنويا من القوات المسلحة على الرئيس السادات للإفراج عنى».

« وزادت قناعة الرئيس السادات أكثر بعد أن دارت عجلة القوات المسلحة مرة أخرى وفى ظروف متغيرة وتحت قيادة جديدة وتم جدل ومناقشات فى موضوعات حضرها الرئيس السادات وبرزت فيها مواقفى وقراراتى فكانت محل إكبار من جميع القادة الجدد، خاصة فى أشد المواقف العسكرية حرجا خلال معركة أكتوبر ١٩٧٣، الأمر الذى جعل السادات يذكر اسمى ويشيد بأعمالى مرات كثيرة فى خطبه العلنية.»

على هذا النحو يبدو الفريق فوزى وكأنه كان يتمنى لو شارك السادات مسئولية الحكم حتى النهاية وحتى تحقق النصر على أيديهما معا، بدلاً من أن يتحقق وهو خلف قضبان السجن، ولكن ماذا كان فى وسع السادات أن يفعل لفوزى بعد موقفه الواضح ضده.

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢

فى أعقاب النكسة

5

مذكرات الفريق
صلاح الحديدى
عن محاكمة الطيران

دار الخيّال

(١)

فى كتابنا «الطريق إلى النكسة.. مذكرات قادة العسكرية المصرية فى ١٩٦٧» تناولنا كتابين للفريق صلاح الحديدى، أولهما عن حرب ١٩٦٧، وثانيهما عن حرب اليمن. وكما يرى القارئ فى هذين البابين فإن صلاح الحديدى لم يتطرق فيهما إلى عمله كرئيس للمحكمة التى تولت محاكمة مَنْ اتهموا بالمسئولية عن الهزيمة فى ١٩٦٧، وإن كان قد أدار ورسم الصورة التى كونها عن حربى ١٩٦٧ واليمن مستعينا بالمعلومات التى اطلع عليها وفحصها وحققها فى أثناء توليه رئاسة هذه المحكمة العسكرية.

ومع أن صلاح الحديدى لم يعن برواية مذكراته عن هذه المحاكمة ومقدماتها ونتائجها على نحو ما فعل الدكتور سمير فاضل فى ذكرياته عن حادث المنصة، إلا أن الأستاذ هشام عبد الغفار قد استطاع الحصول منه على معظم هذه الذكريات بصورة شبه كاملة فى حديث مطول نشرته «مجلة الشباب» فى أكتوبر ١٩٩١، ويتميز هذا الحديث بتماسك عبارات وفقرات الفريق صلاح الحديدى إلى الحد الذى يرتقى بإجاباته إلى نص جيد التأليف والترتيب يمكن تماما التعويل عليه فى فهم كثير

من الخلفيات والحقائق المتعلقة بهذه المحاكمات التى كان لها فى النهاية أكبر الأثر فى إعادة النظر فى البنيان السياسى والتنفيذى لحكومة الرئيس عبد الناصر فى ١٩٦٨ بعد ما كان الجمود قد سادها منذ ما قبل هزيمة ١٩٦٧.

وتتميز الآراء التى أبداها صلاح الحديدى بموضوعية شديدة، وبقدرة فائقة على الوصول إلى جوهر الموضوعات المراد مناقشتها والتى كثر فيها اللغط، ويبدو الحديدى ملتزما بما أدركه بنفسه دون أن ينصرف إلى التهويم أو الاعتماد على أقاويل مرسلة أو شائعات مؤكدة، وليس هذا بغريب على الرجل الذى عالج التأليف الجيد عن حرب ١٩٦٧ وعن حرب اليمن وعن حرب أكتوبر فى كتب لها قيمتها ومرجعيتها.

ويمكن للقارئ أن يعود إلى التعريف الذى قدمناه فى كتابنا «الطريق إلى النكسة» بشخصية الفريق صلاح الحديدى.

(٢)

يروى الفريق صلاح الحديدى أن الفريق محمد فوزى طلب منه تأجيل إعلان الأحكام التى أصدرتها المحكمة التى كان يرأسها، حتى تعلن فى نفس اليوم الذى تعلن فيه أحكام الدائرة الثانية التى كان الفريق الرمالى يرأسها، والتى كانت مختصة بمحاكمة ضباط الجيش، ويشير الفريق الحديدى إلى أن هذه الملابسة هى التى جعلت أحكامه تبدو مخففة حين قورنت بأحكام المحكمة الأخرى التى كان فيها إعدام لملازم ثان على سبيل المثال:

«كانت هناك دائرتان للمحاكمات، دائرة مقتصرة على ضباط الطيران كنت أتولى مسئوليتها، ودائرة أخرى تحاكم ضباط الجيش وعلى رأسهم اللواء صدقى الغول قائد الفرقة الرابعة المدرعة وكان يتولى مسئوليتها الفريق الرمالى».

«وكان الرأى العام طبعا ينظر للقوات الجوية على أنها انضربت فى ساعات،

وغابت عن المعركة بما أعطى فرصة للعدو لفعل ما فعل، أى أن الاتجاه كان مائلا لإدانة القوات الجوية ـ وعلى رأسها الفريق أول صدقى محمود على ـ بأنها المسئولة الأولى عن الهزيمة، وعندما أنهت محكمتى عملها فى يناير ١٩٦٨ ذهبت لوزير الدفاع [يقصد الحربية] وكان وقتها الفريق محمد فوزى وهو الذى أمر بتشكيل محكمتى، لأتفق معه على يوم نعلن فيه الأحكام، فقال لى نؤجل ذلك حتى تنتهى المحكمة الثانية من عملها، فأنا أريد أن أعلن أحكام المحكمتين فى يوم واحد، فقلت له: إن هذا فى تصورى سيبدو وكأنه مهرجان تسفيه وسخرية من القوات المسلحة، فقال لى الفريق فوزى: «لا.. أريد أن أضع خطا بين النكسة وما بعدها، أريد أن ننهى موضوع المحاكمات هذا كله، ونلتفت إلى عملنا فى مرحلة ما بعد النكسة».

«فقلت له: أمرك، سننفذ ما تراه، وفعلا أعلنا أحكام الدائرتين فى أواخر يناير ١٩٦٨، وصدرت الجرائد فى اليوم التالى تحمل عناوين ضخمة وصور المتهمين وكل واحد أمامه العقوبة التى وقعت عليه، فظهر حكم صدقى محمود قائد القوات الجوية ١٥ سنة سجن بجواره حكم ملازم ثان فلان إعدام، والفريق أول جمال عفيفى براءة وكان رئيس أركان القوات الجوية ونشر بجواره حكم رقيب فلان ١٥ سنة أشغال شاقة، فظهرت الجرائد أيامها مستفزة للرأى العام، إذ وجد (القراء) مَنْ يعتبرونه مسئولا عن الهزيمة وهو الفريق صدقى محمود يحكم عليه بالسجن ١٥ سنة والملازم ثان الغلبان يعدم، فظهرت مفارقات لفتت نظر القارئ العادى وجعلته يعتقد أن الكبار يجاملون، وجعلته لا يقتنع ببراءة الفريق أول جمال عفيفى رئيس أركان القوات الجوية، أو ببراءة اللواء عبد الحميد الدغيدى قائد الطيران فى مسرح العمليات. ومن هنا ظهرت أحكامى عند الرأى العام مخففة».

ومع تقديرى لكل هذا الذى يرويه الفريق صلاح الحديدى، فإنى أعتقد أن الشحن المعنوى ضد القوات الجوية كان عاليا إلى درجة أنه كان كفيلا بهذا الذى حدث حتى لو لم تنشر فى نفس اليوم الأحكام المشددة التى أصدرتها المحكمة التى رأسها الفريق الرمالى، وسنرى من النصوص التالية ـ ومن غيرها من نصوص تناولناها فى كتبنا ـ مدى صدقى فيما ذهبت إليه.

(٣)

ويعترف الفريق صلاح الحديدى بأنه (كقاض) أعطى بعض العذر للفريق محمد صدقى محمود فى عدم قيامه بتشييد مخابئ الطيران، ويروى أنه استدعى (فى المحكمة) المسئول عن ميزانية القوات الجوية (كشاهد) فشهد لصالح الفريق محمد صدقى محمود، وأن البيانات التى قدمت فى المحكمة كانت تنطق بمدى تفريط الدولة فى قواتها الجوية، حتى أن الفريق صلاح الحديدى نفسه تعجب من تفاهة المبلغ الذى خصص لبناء الدشم وعبر عن سخريته فى سؤال وجهه هو نفسه للشاهد:

«وجدنا مثلا أن أحد الاتهامات الموجهة للفريق صدقى محمود أنه ـ حسب الديباجة العسكرية ـ أهمل وأساء للضبط والربط، وذلك أنه لم يقم بتشييد مخابئ للطائرات لتقيها من ضرب العدو، وعندما حققنا معه أجاب: لقد كنت أريد أن أقيم دشما للطائرات، وفكرت فى هذا بعد عام ١٩٥٦ وشكلنا لجنة قررت شكل الدشم الهندسية وانتهينا من دراسة كل التفاصيل، وحولنا [يقصد: عبرنا عن] المنشآت المطلوب إقامتها إلى ميزانية قدرت وقتها بمليون ونصف مليون جنيه، وعندما طلبت توفير هذه المبالغ لم يعطونى شيئا».

❑

ويردف الفريق الحديدى :

«وعندما استدعينا الموظف المسئول عن ميزانية القوات الجوية كشاهد قال: إننا طلبنا مليونا ونصف مليون جنيه فخصصوا لنا عشرين ألف جنيه، حتى أننى قلت له: وماذا فعلت بها، هل اشتريت بها سيارات؟!!».

❑

ثم يقول الفريق الحديدى :

«لقد كان إحساسنا فعلا أن صدقى محمود له بعض العذر، لكننا كمحكمة عسكرية نعتبر مسئوليته كاملة مادامت الحرب قد بدأت وهو قائد للقوات الجوية».

(٤)

أما أخطر فقرة من هذه المذكرات فهى التى يروى فيها الفريق صلاح الحديدى بكل وضوح أن الفريق أول محمد صدقى محمود لم يُدن إلا فى اتهام واحد من الاتهامات الخمسة التى قدم بها إلى المحاكمة.

والشاهد أن الفريق صلاح الحديدى فى روايته يشير بدقة إلى الخطأ الذى وقع فيه الفريق صدقى محمود من حيث تقديره ـ غير الدقيق ـ لخسائر مصر وخسائر العدو إذا ما اندلعت الحرب:

«كان صدقى متهما بخمسة اتهامات برأته محكمتى من أربعة وأدين فى أنه أعطى لرئيس الجمهورية معلومات غير صحيحة مما ترتب عنه رسم استراتيجية على أسس غير سليمة. ففى مؤتمر ٢ يونيو أيضا سأله عبد الناصر: «افرض ياصدقى إنك تلقيت الضربة الأولى، فما هو تقديرك للخسائر التى ستلحق بقواتك الجوية»، وهنا لعب القدر دوره فى تاريخ حياة صدقى محمود وتاريخ مصر كلها، فقد أجاب صدقى محمود: ستكون الخسائر من ١٠٪ إلى ٢٠٪، فقال له عبد الناصر: إذن سيتبقى لديك من ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من قواتك الجوية تستطيع أن تستخدمها بعد ذلك فى الضربة المضادة، فوافقه صدقى على هذا، فسأله عبد الناصر:وبالثمانين بالمائة الباقين من قواتك ما هى الخسائر التى يمكن أن تلحقها بالعدو فى تقديرك، فقال له صدقى: حوالى ٦٠٪ أو ٧٠٪».

❑

وعند هذه النقطة يعقب الفريق صلاح الحديدى ويقول :

«وهنا الخطأ الذى ارتكبه صدقى، فتقديره للخسائر من ١٠٪ إلى ٢٠٪ وإن كان صحيحا من الناحية الأكاديمية، لكنه يتطلب توافر دفاع جوى سليم، ووسائل إنذار جيدة، وطائرات بداخلها طاقمها بحيث يمكنها الإقلاع فى نصف دقيقة وملاقاة أهداف العدو، وهذا لم يكن ينطبق علينا فى مصر فى ذلك الوقت:

«فوسائل إنذارنا كانت صفرا، وكنا أيامها نستخدم جهازا لاسلكيا يعمل

بالبطارية السائلة، فكان يستغرق دقيقة ونصف دقيقة حتى يسخن ويخرج منه الصوت، ولم تكن تستطيع أن تفتح الجهاز ٢٤ ساعة، وعندما تفتحه وإلى أن يسخن وإلى أن تجرى اتصالاتك به، تكون الطائرة قد قطعت مسافات طويلة».

«كما كانت راداراتنا تعمل فقط على مستوى الطيران العالى، وإسرائيل أتت فى حرب ٦٧ على مستوى طيران منخفض لم يكن ليظهر على راداراتنا وقتها».

ويبدو لى ـ والله أعلم ـ أن هذه المناقشة وهذه الإدانة التى ترتبت عليها كانت السبب وراء الحرص الشديد من الفريق صدقى محمود فى كل ما روى من مذكرات وأحاديث على أن يؤكد أنه قال لعبدالناصر باللغتين العربية والإنجليزية أنه سيكون Crippled إذا ما تلقى الضربة الأولى على نحو ما كان عبد الناصر يقترح، وعلى نحو ما حدث بالفعل.

(٥)

ويحرص الفريق الحديدى على أن يروى أنه لم يحدث تدخل من القيادة السياسية أو العسكرية فى عمل المحكمة التى رأسها، ومع هذا فهو حريص على أن يروى تفاصيل مناقشة دارت بينه وبين الفريق أول محمد فوزى حول تفضيله هو وهيئة المحكمة عقوبة «السجن» على عقوبة «الأشغال الشاقة» فيما يتعلق بالفريق أول صدقى محمود واللواء إسماعيل لبيب، ويعطى صلاح الحديدى مبرراته لهذا البديل الذى فضلوه، ويحرص على أن يذكر حصوله على موافقة الفريق فوزى على تصوره وفكرته على الرغم من أنه كان قد أصدر الحكم بالفعل:

«لم يلوح لى أحد بأحكام معينة ضد أشخاص بعينها: لا وزير الدفاع ـ يقصد الحربية ـ ولا رئيس الجمهورية ولا أى ممثل لهذا أو لذاك، لكن حدث شىء غريب، فقد تداولنا كقضاة فى المحكمة لأربعة أيام للتفكير فى العقوبات التى سنقررها من جدول العقوبات الذى يتضمن من السجن مع أشغال شاقة مؤبدة إلى الأشغال المؤقتة، ومن ثلاث سنوات إلى ١٥ سنة، وانتهينا إلى الحكم بالسجن ١٥ سنة وليس

بالأشغال الشاقة على الفريق صدقى محمود، وإلى الحكم بالسجن عشر سنوات على اللواء إسماعيل لبيب قائد الدفاع الجوى الذى كان يعمل تحت قيادة الفريق صدقى، وإلى براءة الفريق أول جمال عفيفى واللواء عبدالحميد الدغيدى، والسجن طبعا أخف من الأشغال الشاقة، وعندما ذهبت بما انتهينا إليه من أحكام إلى الفريق فوزى بصفته الآمر بتشكيل المحكمة، قلت له: لقد حكمنا بالسجن لا بالأشغال الشاقة لأن هذا المستوى من القيادات تكفى إدانته تاريخيا بأنه أهمل إهمالا كبيرا «ضيع الطيران والجيش والبلد»، وقلت له إننى لا أتخيل أن فريقا أول بدرجة وزير يرتدى الأفرول الأزرق الذى يرتديه المساجين ويقف وراءه عسكرى ببندقية ويظل يكسر فى أحجار الجبل طوال النهار كما كانت عقوبة الأشغال الشاقة تقضى وقتها، فأجابنى الفريق فوزى: «تمام» السجن مناسب أكثر من الأشغال الشاقة».

هذا هو ما يرويه صلاح الحديدى وقد أصبح بعد اتضاح الحقائق لا يقدم ولا يؤخر فى الصورة الذهنية التى تشكلت عن الأداء السياسى تجاه هذه القضية، ومع هذا فلو أن واحدا من المتشيعين ضد القوات الجوية لمصلحة القيادة السياسية اطلع على هذه الواقعة فى مرحلة مبكرة لأقام بها الدنيا دليلا على أن المحكمة جاملت أو حرصت على مجاملة الفريق أول محمد صدقى محمود.

(٦)

ويكشف الفريق صلاح الحديدى عن حقيقة فى غاية الأهمية فيما يتعلق بحكم البراءة الذى حصل عليه الفريق أول جمال عفيفى، ومن الطريف ما يرويه الفريق صلاح الحديدى من أن الفريق جمال عفيفى قال للمحكمة: «احمدوا ربنا إننى كنت غائبا» وبرر هذا بأن الضابط الذى كان يليه فى سلم القيادة قد تصرف بما لم يكن هو قادرا على التصرف به بسبب حداثة عهده بالقوات الجوية بعد غيابه عنها فترة طويلة ولنقرأ هذه الفقرة المهمة جدا:

«كانت ظروف الفريق أول جمال عفيفى رئيس أركان القوات الجوية فى حرب

١٩٦٧ من الأسباب التى أخذناها فى اعتبارنا ونحن نحاكمه، فقد خرج من القوات المسلحة قبل ما يقرب من عشر سنوات من حرب ١٩٦٧، وجعلوه مديرا لمصر للطيران، وكان ناجحا وسعيدا فى عمله هذا، وبعد أن انقطعت صلته بالقوات المسلحة إذا بنا نجده فجأة معينا فى أوائل ١٩٦٧ فى منصب رئيس أركان القوات الجوية، فلما نشبت الحرب في يونيو وقدم للمحاكمة، وكانت جنايته أنه وهو رئيس أركان القوات الجوية، لم يكن موجودا فى مركز القيادة فى يوم ٥ يونيو، فلقد كان المفروض أن يبيت فى مركز القيادة فى القلعة لكنه لم يفعل، فسألناه فى أثناء المحاكمة: لماذا لم تكن موجودا؟ فقال الفريق عفيفى: أنا خارج من القوات المسلحة من حوالى عشر سنوات ثم أتوا بى إلى هذا المنصب ولم أكمل ستة أشهر وقامت الحرب، فماذا يتصورون أننى كنت سأفعله؟ فاحمدوا الله أننى كنت غائبا،لأن الرجل الذى يلينى عرف على الأقل بمن يتصل وماذا يقول وماذا يفعل، ولو كنت موجودا لكان الأمر أسوأ!».

وهنا يردف الحديدى بقوله :

«مع العلم بأن رئيس الأركان هو الدينامو المحرك للقوات الجوية، فهو الذى يفعل كل شىء، وصدقى قائد القوات الجوية من المفروض ألا يتدخل فى شئونه».

هكذا يحتاط الفريق الحديدى فى نهاية حديثه حتى لا يبدو أمام التاريخ وكأنه لم يكن يفهم فى العسكرية وأصولها!

(٧)

ويروى الفريق الحديدى محاولة محامى اللواء إسماعيل لبيب تنجيته من الاتهام الموجه له بادعاء أن الفريق أول محمد صدقى محمود لم يبلغه بتعليمات الرئيس عبد الناصر، وكيف لفت رئيس المحكمة (الذى هو الفريق الحديدى نفسه) نظر المحامى إلى اختلاف أسلوب الحياة والقيادة العسكرية عن الحياة المدنية وما يصلح لها من طرز الدفاع التقليدى، وكيف اعترف إسماعيل لبيب بعد هذا بأنه تلقى بالفعل

تكليفات من الفريق أول محمد صدقى محمود لكنه ظنها تكليفات روتينية وذلك بسبب خبرته السابقة مع التنبيهات السابقة فى الأيام التى سبقت الواقعة، وفضلا عن هذا فإن القوات الجوية وقوات الدفاع الجوى كانت فى أعلى درجات الاستعداد ولم يكن هناك شىء آخر يمكن أن يقوم به زيادة عما هى عليه، هكذا يقول إسماعيل لبيب دون أن يحرص صلاح الحديدى على أن يفند هذه النقطة بما تستحق من تفنيد، خاصة أن المحكمة لم تأخذ بدفاع إسماعيل لبيب وإنما أدانته بالفعل:

«كانت الجناية الموجهة للواء إسماعيل لبيب قائد الدفاع الجوى أنه أهمل فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الجمهورية بوسائل الدفاع الجوى رغم أن صدقى محمود قائد القوات الجوية طلب منه أن ينفذ تعليمات الرئيس بأن الحرب ستقوم فى خلال ٤٨ ساعة، وأن عليه أن يقوم بعدة مهام لكنه لم يفعل شيئا، فإذا بمحامى إسماعيل لبيب ينفى أن صدقى قال ذلك لموكله، فتكهرب الجو فى قاعة المحكمة لأن ذلك يعنى أن صدقى كاذب أو أن عليه أن يثبت أنه أبلغ إسماعيل بهذه التعليمات، فالمحامى يضيف هنا جريمة ثانية للفريق صدقى لكى ينقذ إسماعيل لبيب ويبرئه، فاحتد صدقى، وإسماعيل والمحامى معا، ورفعنا الجلسة وقمنا بتهدئتهم، واستدعيت المحامى، وقلت له يا أستاذ: ليس لدينا فى العسكرية مبدأ أن تغرق متهما آخر لكى تنقذ موكلك».

«وفعلا اعترف إسماعيل لبيب أن صدقى أبلغه بما قاله رئيس الجمهورية، فلما سألته: لقد اعترفت بأنك تلقيت هذه التعليمات بأن الحرب ستنشب خلال ٤٨ ساعة وأننا سنتلقى الضربة الأولى، ماذا فعلت مع مرءوسيك؟».

«فأجاب اللواء إسماعيل لبيب: ماذا أفعل؟ لقد كنا فعلا فى محل عملنا، وفى أعلى درجات الاستعداد، ولم يكن هناك أى شىء آخر يمكن أن أقوم به زيادة على ذلك، والحقيقة أنهم قبل أسبوع من الحرب قالوا إن الحرب ستقوم فى وقت حددوه، ووقفنا جميعا على أذنابنا كما يقولون ولم تقم الحرب فى هذا التوقيت، فاعتبرت هذا التنبيه إحدى حلقات سلسلة التنبيهات الروتينية العادية، ولهذا لم أقل لأحد شيئا، لأنهم كانوا مستعدين فعلا، ولأننا أخذنا خبرة قبل ذلك بأنهم يقولون إن الحرب ستقوم ولا تقوم!!».

هكذا نرى بوضوح أن الاستنفار الزائد وتكرار التعبئة والاستمرار فى التسخين لا تكون له إلا نتيجة واحدة وهى التقاعس فى اللحظة المناسبة.

(٨)

ومع كل الاقتناع بأنه لم يفعل إلا الصواب، ولم يحكم بغير الحق، وأنه بذل جهده فيما كلف به من عمل، فإن الفريق صلاح الحديدى يعترف بكل وضوح بأنه عانى معاناة شديدة من المظاهرات المنظمة التى خرجت تندد بالأحكام التى أصدرها، وهو يذكر أنه وصل إلى درجات متقدمة من الإحباط والاكتئاب والمرض وأحس بأنه فى ناحية، والشعب فى ناحية.

ومع أنه كما سنرى فى فقرة تالية كان يعلم أن المظاهرات لم تقم بطريقة تلقائية، إلا أنه يعترف أنه عانى معاناة شديدة من هذه المظاهرات.

وهكذا نرى أن آثار الظلم الذى حاق بالقوات الجوية لم تقف عند حدود هذه القوات، وإنما تعدتها لتصل إلى القاضى الذى لم يشأ أن يحكم بالظلم لأن فى حكمه بالظلم إرضاء للمشاعر الشعبية التى تمت تعبئتها، وهذا من أخطر ما يمكن تصور حدوثه وتأثيره على قيم الحق والعدالة، ولست أظن أن أحدا من القضاة أو المحكمين فى أى موقع فى تلك الأيام السوداء، لم يتأثر من هذا الظلم الوجدانى الذى حاق بهذه الدائرة بصرف النظر عن أسماء مَنْ تشكلت منهم:

«فلما أذيعت الأحكام قامت المظاهرات فى حلوان ثم فى كلية الهندسة بجامعة الإسكندرية، «وانقلبت الدنيا» لدرجة أننى كنت أعتقد أيامها أننى أصبحت عدو الشعب، لأن الشعب كله كان يريد الموت لصدقى، وأنا الذى وقفت أمام إرادته. لقد كنت محبطا جدا ومكتئبا لدرجة أننى مرضت بعدها لأنى وجدت حكمى فى ناحية، والشعب فى ناحية».

أرأيت أصدق وأدق من هذا الوصف البديع لهذه المعاناة؟

(٩)

ويروى صلاح الحديدى قصة حوار مهم دار بينه وبين الفريق أول محمد فوزى عقب قيام المظاهرات، كما يروى كيف تراجع الفريق فوزى عن التصديق على أحكام المحكمة، وسنرى الفريق الحديدى حريصا على أن يذكر أن كل ما أمكن للدائرة التى أعادت محاكمة المتهمين أن تفعله هو أن تأخذ «بالأشغال الشاقة» بديلا عن «السجن»، وهو جوهر الفكرة التى كان صلاح الحديدى قد آثر العدول عنها على نحو ما رأينا من روايته فى فقرة سابقة، ولكن من المهم أن نذكر أن المحكمة الثانية قد حكمت على الفريق صدقى محمود بزيادة المدة فجعلتها ٢٥ عاما بدلا من ١٥ عاما، وهو ما لا نجد إشارة إليه فى نصوص الفريق صلاح الحديدى، وجعلتها ـ كما ذكر الفريق الحديدى ـ أشغالا شاقة وليس سجنا فحسب:

«وبعد ما هاجت الدنيا وماجت إذا بالفريق فوزى يكلمنى فى وسط المظاهرات ويقول لى: «شفت أحكامك عملت إيه»، فقلت له: أحكامى أنت تعرفها، لقد قلتها لك، ثم إنه ليست هناك مظاهرة فى مصر تقوم وحدها، لابد أن هناك مَنْ هو وراء قيامها».

❑

«لقد كان القانون يقضى بأن يصدق الفريق فوزى على هذه الأحكام، وملف القضية كله فى مكتبه ينتظر توقيعه على هذه الأحكام حتى تنفذ، فإذا به يصدر تصريحا بإلغاء محكمتى وقال إن أحكامها كأنها لم تكن لأنه لم يصدق عليها، وأمر بمحكمة ثانية برئاسة الفريق الرمالى لتحاكمهم، فإذا بهذه المحكمة تقضى بالبراءة للقائدين اللذين حكمت لهما بالبراءة وهما جمال عفيفى وعبدالحميد الدغيدى، لكنها صعدت عقوبة الفريق صدقى واللواء إسماعيل لبيب إلى الأشغال الشاقة».

(١٠)

ثـم يروى صـلاح الحديـدى أنـه أحيـل إلى الـتـقاعـد فـى مايـو ١٩٦٨ (كانـت المظاهرات قد اندلعت فى فبراير ١٩٦٨)، وأنه ظـل يعانى مما صادفه من هذا الغضب الشعبى تجاه حكم أصدره فى نهاية خدمته العسكرية الطويلة، ولهذا السبب فإنه شرع فى كتـابة كتابه عن حـرب ١٩٦٧، وقد استغرق منـه عامين، وقد حاول أن يـحصل على تصريح المخابرات العسكرية بنشره فلم يوفق، فلجأ إلى نشره فى بيروت بعد أن أرشده أصدقاؤه والـقانونيون إلى أن عـدم الاعتراض فى الأجل الذى حـدده القانون يعد بمـثابة موافقة عـلى النشر... ويروى الحـديدى المعاناة التـى عاناها بعد بـدء نشر الحلقات فى مجلة «الحوادث» اللبنانية:

«فبعد أن خـرجت على المعاش فـى مايو ١٩٦٨ ظللت أعـانى، فلقد كنـت قائدا للقـيادة الشرقية الـتى حاربت فى ١٩٦٧، لذلـك فأنا على يـقين من ارتفاع مـستوى القوات التى حاربت».

«وظللت أكتب لمدة عامين،حتى أنـهيت تأليف كتاب عن حرب ١٩٦٧ فى أوائل ١٩٧١، ولأننى أعلم أننى لا أستطيع نشره إلا بـتصديق من المخابرات، ذهبت بنسخة من كتابـى إلى اللواء محرز مدير المخـابرات الحربية وقتهـا وطلبت منه موافقـته على نشره، فكتب إيصالا بتسلم الكتاب، وقال لى إنه سيقرأه، وانتظرت ثلاثة أشهر بدون أى خبر منه عن الكتاب، وعندما اتصلت بهـم تليفونيا فى المخابرات وجدت تسويفا فى ردودهم، فقال لى بعض أصدقائى من القانـونيين: إن القانون يقضى بأنهم إذا لم يعترضوا علـى نشر كتابك فى خلال شهرين مـن تسليمه إليهم، فإن ذلـك يعد بمثابة موافقة منهم بالنشر».

«فاتفـقت مع أحد الـناشرين فى بـيروت على نـشر كتابى، واسـتأذننى فـى نشره ملخصا فى حلقات فى مجلة «الحوادث» اللبنانية فلم أمانع».

«وقد أمّن الناشر نفسه بأن سجل فى العقـد الذى بيننا أننى أرسلت نسخة من هذا الكتاب إلى المخابرات الحربية».

«وبعـد صدور العدد الـثانى مـن المجلة مبـاشرة اتصـلوا بى تلـيفونـيا وأبلغـونى:

سيادتـك مطلوب أمـام القضاء الـعسكرى فـى تمام الساعـة كذا، فقلـت لمحدثى: إن موقـفى سـليم قـانونـا، وظروفى الآن لا تـسمـح بالحـضور، وإذا كنـتم تـريدون أن تعتقلونى فافعلوا، فاتصلوا بى ثانية بعدها بيوم واحد: لابد أن تأتى، فأعطيتهم موعدا بعد الانتهاء من خطبة ابنتى وقتها، وذهبت إلى القضاء العسكرى».

«وكان الذى يحـقق معى عادل راشد واحدا من تـلاميذى، فقلت له: الـكتاب مع مدير المخـابرات وهذا إيصال مـنه بذلك، فقـال لى: «نحن نريـدك أن تبعث تلـغرافا للناشـر فى بيروت لإلغاء الـعقد ووقف نشر الحـلقات التاليـة، فنفذت ما طلـبه منى وأحضرت له إيصالات بالتـلغرافات التى أرسلتها، لكن المجلة نـشرت الحلقة الرابعة وقال لـى الناشـر: إن ضيق الـوقت لم يـسمح بـإيجاد مـادة جاهزة بـديلة وأن نـشر الحلقات لن يتم فى العـدد القادم، فإذا بالحلقة الخامسة تنشر أيضا، فـاستدعونى ثانية فقلت لهم: لقد نفذت ما تريدون، فما الذى فى يدى فعله إذن بعد ذلك».

«فقـال لى عادل راشد: الـوزيرمحـمد صادق يـطلب منـك أن تتخـذ الإجراءات الكافية أو سيـضطر هو لتنفيذ القانـون»، وقال ما معناه إنهم سيقبـضون علىّ، وأنهى قوله: «ولـو طلبناك ثانـية فعليـك أن تأتى بكفـالة مائة جنيـه، وهذا المبلغ هـو أقل ما يمكن من كفالة للإفراج عنك، فقلـت له: أرجو إبلاغ سيادة الوزير أنه شرف كبير أن يقبض علىّ من أجل كتاب تاريخى قصدت به خير القوات المسلحة وليس ضررها».

❑

ويشيـر صلاح الحديدى إلى أن هـذه المشكلة لم تـنته إلا بعد حـرب ١٩٧٣ حين طلبه المـشير أحمد إسمـاعيل وطلب إليـه أن يذهـب للقضـاء العسكرى كى يـخلص نفسه [على حد تعبيره]:

«لقد ظل الوضع معلقا بهذا الشكل وإلى ما بعد انتصارات ١٩٧٣، فقد اتصل بى وزير الحربية أيامها أحمد إسماعيل تليفونيا فى أوائل ١٩٧٤ قائلا:« تستطيع الآن أن تنشر كتـابك، واذهب لتخلص نفسك مـن القضاء العسكرى»، فذهبـت إلى القضاء العسكرى فوجدت أوراق التـحقيق كما تركتها فى آخر جلسة مع المحـقق، فالتحقيق لـم يحفظ بعد، فحفظوا التحقيق وانتهى الأمر».

(١١)

ويبلور صلاح الحديدى بعض أفكاره التى شرحها بالتفصيل فى كتابه عن حرب ١٩٦٧، لكنه فى هذا الحوار يصل إلى تشخيص مركز يبلور به السبب فى الهزيمة فى كلمة واحدة «الارتجال» ويجعلها السبب فى ضخامة حجم هزيمة ١٩٦٧، ويبدو أن الفريق الحديدى لم يكن يتوقع النصر صراحة لكنه يقول إننا لم نكن فى ١٩٦٧ نستحق هزيمة بكل هذا الحجم رغم كل الظروف غير المواتية التى دخلنا بها الحرب، ونحن نقرأ هنا رؤية يستند صاحبها إلى ثلاث ركائز:

- ❑ الأولى: أنه كان هو نفسه قائد المنطقة العسكرية الشرقية حتى ما قبل الحرب بشهور.
- ❑ والثانية: أنه كان قائد المحكمة واستمع إلى شهادة الشهود (يقول إنه سمع أقوالا من ٧٠ ـ ٨٠ شاهدا من مختلف الرتب).
- ❑ والثالثة: أنه تفرغ لدراسة الموضوع والتأليف فيه على نحو ما نعرف:

«... إنه الارتجال، فقد كنت قائد القيادة الشرقية وأعرف كل الخطط الموضوعة من الألف إلى الياء، وسمعت أقوال ٧٠ أو ٨٠ شاهدا من مختلف الرتب، فعرفت ما الذى حدث وكنت أعرف ما الذى ينبغى أن يحدث فوجدت أنهم ارتجلوا حتى أنهم خرجوا عن الخطط الموضوعة».

❑

ثم يعدد صلاح الحديدى بعض أمثلة على هذا الارتجال يدلل بها على أن الارتجال كان العدو الأول للقوات المسلحة المصرية فى حرب ١٩٦٧:

- ❑ «مثلا كان أقصى خط أمامى للدفاع شرق مدينة العريش بحوالى ١٢ كيلومترا، فجاء عبدالناصر والجيش يرفع درجات استعداده قائلا: «وقطاع غزة هل تتركونه من غير دفاع؟!».

«فأجابوا: «لا يافندم، عنده قوات فلسطينية تدافع عنه»، فقال عبد الناصر:

«لا، وهل أخذنا قطاع غزة إلا لندافع عنه نحن فهو أمانة فى أعناقنا، فهل نتركه

هكذا، وإذا هزُمت القوات الفلسطينية «أروح فين» من العرب، يجب أن ندافع نحن عن قطاع غزة».

«هذا ارتجال، ولماذا لم يقل عبدالناصر هذا منذ عشر سنوات».

- «وكان هناك أيضا لواء مشاة فى العريش كان موجودا هناك لمدة ستة أو سبعة أشهر فتم تمرينه على الخطة وأصبح جاهزا، فجاء عبدالناصر وقال: «لا.. ورفح أيضا لا تتركوها ولا تتركوا الشيخ زويد».

«وهذا الكلام يجب أن ينفذ فورا، فمن أين تأتى بقوات تضعها فى اليوم التالى فى هذه المناطق، القائد المحلى للجيش الذى تسلم منى لأنه كان متعجلا، فبدلا من أن يأتى بقوات جديدة إلى هذه المنطقة الجديدة فى رفح والشيخ زويد نقل اللواء الذى تدرب على منطقة العريش إلى رفح والشيخ زويد إلى أن أتى لواء جديد بعد فترة فنقله إلى العريش، فأصبحت العريش وفيها قوات جديدة لا تعرف الأرض، وفى نفس الوقت اللواء الذى كان فى العريش انتقل إلى رفح والشيخ زويد ولا يعرف الأرض هناك».

- «وكان فى تنفيذ غلق خليج العقبة ارتجال أيضا، لأننا أرسلنا لذلك قوات مظلات مسلحة تسليحا خفيفا، وغلق خليج العقبة يحتاج إلى مدافع ساحلية تضرب السفن من شرم الشيخ إلى جزيرة تيران، لكننا أرسلنا قوات مظلات بالطائرات ببنادق ورشاشات خفيفة إلى أن تأتى الأسلحة الثقيلة إلى هناك».

«وطبعا المسافة كانت بعيدة والطرق لم تكن ممهدة كما هو الحال الآن، أى أن هذا سيستغرق وقتا ليس بالقليل».

- «حتى الخطط نفسها تغيرت بدون دراسة تبعا لتدخلات القيادة السياسية فى شئون عسكرية، حتى أنهم غيروا توجيهاتهم، فعامر (أى المشير عبدالحكيم عامر) القائد العام كان جزءا أساسيا فى القيادة السياسية يعرف خططنا وقد اعتمدها، ووافق على أن ندافع عن شرق العريش بحوالى ١٢ كيلومترا وما هو شرق هذا الخط إنه من مسئولية قوات أخرى فلسطينية، كل هذا يتغير فى ثانية، لأن قرارا فى رأس القائد السياسى لابد من تنفيذه، لأن عبد الناصر كعسكرى سابق لم يكتف بتوجيهات عامة يبلورها العسكريون إلى خطط عسكرية ».

(١٢)

ويلمح صلاح الحديدى بسرعة (لا أدرى لها سببا) إلى أن التاريخ القديم لمشاركة بعض الضباط فى تنظيم الإخوان المسلمين كان بمثابة أحد الأسباب التى دفعت القيادات المسئولة عن القوات المسلحة فى ذلك الوقت إلى إصدار نشرة ١٩٦٦ وهى النشرة التى تحدث عنها هو نفسه بتفصيل كبير فى كتابه عن حرب يونيو والذى تناولناه فى باب كامل من كتابنا «الطريق إلى النكسة»:

«... ولأن المشير عامر وشمس بدران كانا يضعان دائما فى اعتبارهما أنه لا يمكن أن يتفق الولاء والكفاءة معا، فإما ولاء مع الجهل أو كفاءة مع عدم الولاء، وهذا طبعا خيال مريض، وجاء شمس فى صيف ١٩٦٦ ليخرج من الخدمة ضباطا لأنهم دفعوا اشتراكا فى جمعية الإخوان المسلمين منذ عشرين عاما. لقد كانوا يشعرون وقتها بقلقلة داخلية، وقد استدعى هذا من وجهة نظر شمس الذى كان الأمن لعبته ومهمته طوال عمره، وكان وزيرا للحربية وقتها، أن يضع كل مَنْ كان ولاؤه مضمونا ١٠٠٪ من أتباعه وأتباع أتباعه، فهذه النشرة وضعت أهل الولاء [وهؤلاء بالضرورة ليس لديهم الكفاءة] قوادا للألوية والكتائب حسب رتبهم، ومن حظ مصر السيىء أننا حاربنا فى هذه الفترة بأناس لديهم ولاء لعبد الناصر وشمس وليست عندهم الكفاءة لقتال إسرائيل».

(١٣)

على أن أخطر ما فى هذا الحوار هو ما حرصت المجلة على إيراده فى مقدمته حيث يكاد الفريق صلاح الحديدى أن يجزم بأن مصر هى التى تحرشت بإسرائيل فى ١٩٦٧ وليس العكس، ويستند الحديدى فى هذه الرواية إلى أن المزاعم عن الحشود الإسرائيلية على سوريا كانت مختلقة، ويستشهد بزيارة الفريق أول محمد فوزى

رئيس الأركان، ويشير فى صراحة إلى أن مصر هى التى حشدت حشودا على حدود إسرائيل ثم أغلقت خليج العقبة.

ولنقرأ هذه الفقرة التى يلخص الموقف بها قائد عسكرى بارز أتيح له أن يجلس مجلس القضاء.

ومن الغريب أن يصل صلاح الحديدى إلى التصريح بهذا الرأى بهذه الدرجة من القوة، على الرغم من وعيه للتحفظات القائلة بأن إسرائيل هددت بالفعل بالاستيلاء على دمشق، وعلى الرغم من وعيه بأن إغلاق عبد الناصر لخليج العقبة كان إغلاقا صوريا وليس حقيقيا، إلا أن الحديدى هنا يتجرد ـ حسب فهمه وتقديره ـ للحقيقة دون أن يخشى أن يتهمه أحد فى وطنيته:

«وأستطيع القول إن القيادة السياسية فى مصر هى التى قدمت الدعوة لإسرائيل للحرب، وهى التى تحرشت بها تحرشا كان واضحا أنه سيؤدى إلى حرب، فلا يمكن أبدا أن أعتبر أن إسرائيل هى التى بدأت الحرب معنا، صحيح أن أحد القيادات الإسرائيلية أعلن وقتها أن دمشق فى مرمى أسلحتنا، وأن إسرائيل يمكنها أن تستولى على دمشق، إلا أن الكلام المزعوم بأن هناك حشودا إسرائيلية على سوريا كان مختلقا».

«ويؤكد ذلك أن إسرائيل دعت السفير السوفيتى فى تل أبيب ليستقل طائرة ويرى بنفسه إذا كانت هناك حشود أم لا، وأن الفريق محمد فوزى رئيس الأركان المصرى وقتها سافر إلى دمشق ليتبين حقيقة الموقف، وعاد دون أن يرى حشودا إسرائيلية، فهذه الأسطورة غير صحيحة، وبرغم ذلك ترتب عليها حشود مصرية على حدود إسرائيل، بما يمثل استفزازا، ثم ما تلى ذلك من غلق خليج العقبة».

ونحن كعسكريين نعلم علم اليقين أن مجرد إغلاقه سبب رئيسى لدفع إسرائيل إلى الحرب، لأنها بذلك لن يكون لها أى منفذ على البحر الأحمر، وإسرائيل كثيرا ما أعلنت أنها ستحارب لو تم إغلاق خليج العقبة، أو تم تهديده، إذن فغلق خليج العقبة ولو أنه كان صوريا أكثر منه واقعيا عندما أعلن عبد الناصر عن إغلاقه، كان يعنى أن الحرب ستقوم لا محالة».



كيف سقطت الملكية فى مصر ؟
فاروق بداية ونهاية
للكاتب : محمد عودة
الثمن : ٢٥ جنيه



البارود الضائع
١٠ سنوات فى كواليس
الأنظمةالعربية
للكاتبة : فايزة سعد
الثمن : ١٣ جنيه



الأوراق السياسية
لأشهر راقصة مصرية
تحية كاريوكة بين الرقص والسياسة
للكاتب : سليمان الحكيم
الثمن : ١٠ جنيه



أقباط المهجر
دراسة ميدانية
حول هموم الوطن
والمواطنة
للكاتب : مجدى خليل
الثمن : ٢٥ جنيه



صدام الأصوليات
نهاية إسرائيل أو نهاية العالم ؟!
للكاتب : عاطف عبد الغنى
الثمن : ٨ جنيه



طالبان
العمائم ـ المدافع ـ الأفيون
دراسة حول أمراء الجهاد المضاد
فى أفغانستان
الثمن : ١٠ جنيه



7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043

مذكرات قادة العسكرية المصرية ٦٧ـ ٧٢

فى أعقاب النكسة

من الظواهر العجيبة فى المجتمعات العربية، ندرة المعلومات، والأعجب أنه إذا ما توافر القدر القليل من المعلومات لم تتح لنا فرصة الاستفادة منها، والأشد عجباً أن البعض يعمد إلى تشويه الاستنتاج من المعلومات الواضحة غير المختلف على صحتها.. وعلى هذا فاستفادتنا من تاريخنا قليلة.

ولقد بدأنا فى «دار الخيال» مشروعاً يعمد إلى تنشيط الذاكرة العربية بنشر العديد من مذكرات الساسة المصريين والعرب، ولقد أعقب هذا المشروع، مشروع آخر يعمد إلى نقد النص المدون وتحقيقه ومدارسته من خلال «موسوعة تصحيح التاريخ المعاصر» والتى جاء الجزء الأول منها تحت عنوان: «محاكمة ثورة يوليو».

وهذا الكتاب «فى أعقاب النكسة» الذى يضم بين دفتيه مذكرات الفريق مدكور أبو العز والفريق أول محمد أحمد صادق والفريق أول صدقى محمود والفريق أول محمد فوزي والفريق صلاح الحديدى يخلص من مدارسة مذكرات القادة هؤلاء إلى نتائج شديدة الأهمية لعل أبرزها :

■ أن صناعة الهزيمة القاصمة فى يونيو ٦٧، صناعة مصرية سياسية وإن كانت معقبات الهزيمة قد شملت كل المنطقة العربية، وأغلب الظن أنها سوف تستمر إلى ما يعرف بنهاية التاريخ.

■ أن معالجة الهزيمة فى الأسابيع الأولى التى أعقبت حدوثها قد قادت إلى هزيمة أخرى وإلى تعميق آثار الهزيمة نفسها. وقد تمثل ذلك فى أننا بدأنا نحاول وعلى أكثر من صعيد أن نتغلب على الهزيمة بأن ننفى حدوثها بل وأن نصطنع نصراً زائفاً ـ من خلال فُجر وإجرام إعلامي لا مثيل له ـ بأن استمساك الشعب بقيادته هو انتصار للنظام ببقائه على حين كان هدف العدو سقوط النظام فحسب!!

■ لقد كان الصراع على السلطة هو أهم الأحداث التى أعقبت نكسة يونيو ٦٧، ولكن من حسن حظ مصر أن رجال قواتها المسلحة فى مجموعهم وفى أغلبية قادتهم المتميزين، كانوا من الوعى والنضج والرشد والكمال والوطنية بحيث انـ جولات الصراع إلى الشرعية وكرسوها رغم ما كان متوافراً مما يغرى بـ هذه الشرعية وإنشاء شرعية جديدة.

■ كانت البداية المضيئة للانتصار أن عبر المشير العظيم أحمد إسماعيل ا بقرب من خمس سنوات من الصراع على السلطة فى مصر عقب هزيـ جنوده وضباطه: «إن للقوات المسلحة واجباً وواجباً واحداً فـ فتقاتل».

...... ستخلصته هذه المدارسات المهمة لا يمكن اختزاله ولا اخـ التعبير عنه فى فقرات سريعة أو مبتورة وإنما لابد من الرجوع إلى النصـ للصراع الدرامى الذى انتهى بالنصر الوحيد وذلك عبر صفحات هذا المجـ

دار الخيال ـ القاهرة ـ لندن